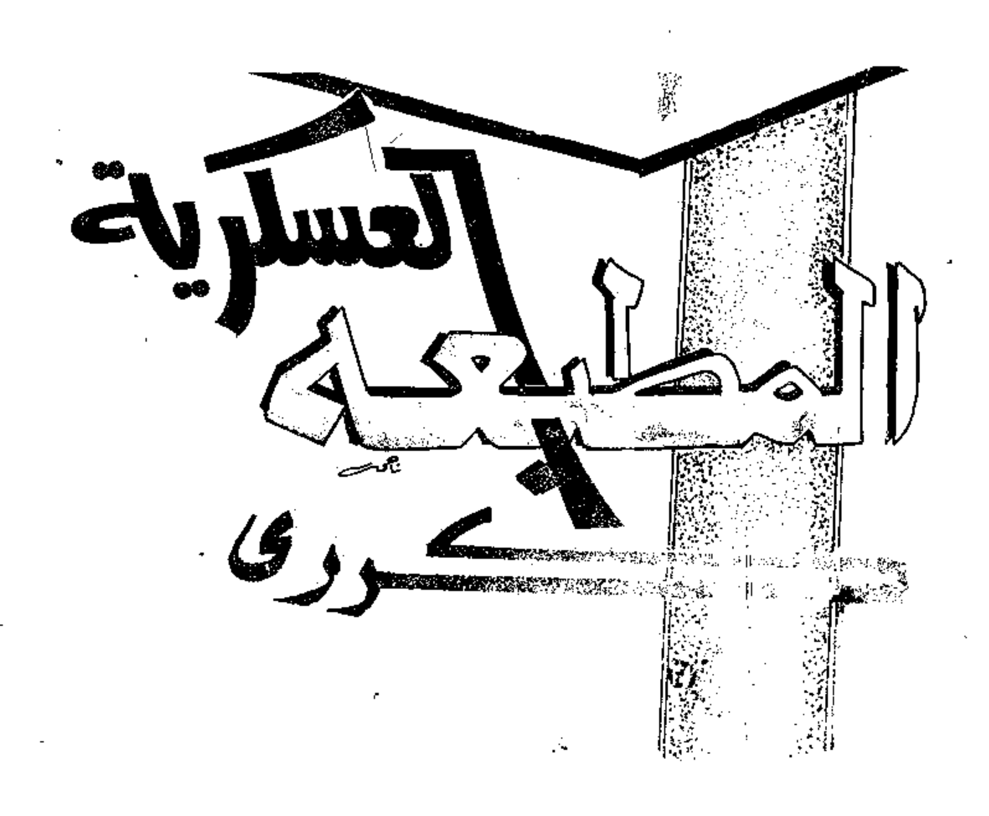
محجوب برير محمد نور

عقيد / م

مواقف على درب الزمان

الجزء الثاني



الغلاف واللوحات ـ الفنان زين العابدين على الحسين

الطبعة الأولى
١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م

الإهداء

إلى
إنسان هذا البلد الطيب
صانع المعجزات...
قاهر الطغاة...
ومعلم الشعوب
أهدي
هذا الجهد المتواضع.



الديمقراطيّة الثانية
ومعترك الأحداث !



تقديم

وانا اقدم لهذا المؤلف الكبير ، اجدني امام حقيقة تلح ان اتعجلها قبل الولوج الي شعابه واغواره العميقة ، وتسفر هذه الحقيقة عن ذاتها في اهتمامنا ومطامحنا تجاه المكتبة السودانية وما تشتمل عليه من قطوف فكرية ادبية سياسية اجتماعية او علمية صرفة . ومع ان هذا التنوع مظهر للثراء النسبي وامر مطلوب لتنمية حصيلتنا القومية ، الا ان الاعمال ذات الخصائص المتنوعة الكبيرة تبقي دائما قليلة محدودة ! فالحرج الاجتماعي المتوهم يمنع كثيرا من ارباب القلم من الانطلاق برسالة التأليف الي منابع الحكمة والاصالة والعبر الاجتماعية الملهمة . وقد استطاع هذا المؤلف بجدارة وشجاعة ادبية فائقة ان يسقط حاجز (الحرج) ويبني علي اركامه صرحا من الذكريات والمواقف بما يمثل نبض الحياة في مختلف جوانبها خلال خمسين عاما حافلة بكل جديد ومثير . ولئن كانت واعية المخضرمين تحس حرارة ذلك النبض بحكم المعاصرة والاسهام في تكوينه بصورة او اخري ، فان الكثرة الغالبة من شباب اليوم تجهل منابته والظروف التي يتدفق فيها كتيار عاصف ينزع الي التغيير والتحديث، ولابد لهم من المعرفة بالبدايات الاولي لمظاهر التطور وهم علي اعتاب المسئولية الجماعية ليقودوا ويقرروا ، بل ان منهم من يقود الآن ويقرر !!

حاولت جاهدا ان اقف عند محور الفعل الذي ارتكز عليه سجل الاحداث التي حمل ثقل طرحها قلم كاتبنا الاستاذ محجوب برير. حاولت ان استجوب خصوصية التجربة لاستبطان الاسباب الاولي التي اكتنفت حياته وهو (الصبي) الذي بدأ يتفتح وعيه ويتذوق طعم الحياة المترعة بالرفاه والحب والاستقرار ، ثم تقتلع الاعاصير فجأة دعائم ذلك الوجود لتقذف بالصبي في فلوات واسعة وعرة المسالك والدروب ، ومن ثم تبدأ رحلته مع العواصف يتقلب فيها ويصنعها او يشارك فيها ، (فاذا هو) آخر الامر محصلة لذلك الصراع . تجربة ثرة بالفكر والعطاء ، تزاوج بين علمية التاريخ واسرار السياسة وحركة التحول الاجتماعي المتصاعدة .

ثم سرعان ما يناكفني الخاطر . ان خصوصية التجربة تلك ، لم تقف عند

في بلورة مضمونه وتشكيله .

ثم اتابع فاجد ان الكاتب يأخذ طريقه عند محيط الدائرة ، دائرة المعرفة فهو ينطلق من الواقعة الصغيرة ، الي الاحداث الكبري ، ثم يرسل بصره بعيدا داخل وخارج الدائرة ليضيف للوحة مزيدا من الخطوط والظلال ، وبهذا الاسلوب يوجد الرابطة الفكرية بقناعة المؤمن ، فيورد الآيات والافكار والفلسفات بالمحتوي المقصود ثم يعقب عليها ، والكاتب بهذا الطرح يتعمق في الموازنات الدقيقة التي تسهم في طي المسافات الزمانية والمكانية ، وعند هذا الحد من شمول الفكر يظهر الانسان جليا بمحوره وحواره ، مؤهلا لمعرفة حكمة خلقه في هذا الوجود ، وهو بهذا التوازن بين الخلق والالهام والعلم يستطيع ان يجعل من نفسه ملبيا لخصوصية حكمة الخلق ، بتحمله الرسالة التي اوكل اليه ايفاؤها بين الناس اجمعين .

ايها القاريء العزيز :

انها محاولة ، حاولت ان اعبر بها عن المتعة التي صادفتني في قراءة ما سجله لنا الاستاذ برير ، فهي مشاهد انسانية مشت مشوارها علي تراب هذا الوطن وتقف اليوم فكرا جريئا شجاعا حكمة وعبرة للآخرين ، بل ان مثل هذا المنحي من التحرير سوف يؤطر لمنهج جديد للرؤية في تحليل وتعميق فهم المواقف التي شوهت وطمست دلالاتها الموحية ، فصدرت باطلا معللا بهامش القول ، دون سبر النوايا لحركة تاريخنا المعاصر .

ب: احمد محمد شبرين

الامين العام للمجلس القومي للآداب والفنون

صفر ١٤٠٥هـ

مقدمة ـ الجزء الثاني

كما تعلم اخي القاريء فان تاريخنا السياسي والاجتماعي والادبي الحديث والمعاصر في حاجة لمن ينفض عنه غبار الزمن ويمحص ويسجل حقائقه خاصة وان جماع ما ترصده المصنفات في التاريخ في كل زمان ومكان لا يمثل الا جزءا يسيرا من كم هائل عظيم للاحداث والمواقف وتراث الانسان ، بينما تحفظ واعية الناس اضعاف ذلك الارث القابع في الاسفار يتناقلونها جيلا عن جيل وكابرا عن كابر بعد ان حملت رياح السنين اكداسا من لباب الاحداث التاريخية والاجتماعية والفنية والادبية الي ذمة الغيب وكهوف النسيان .

ونحن نعلم مثلا أن تاريخ جاهلية العرب وتراثهم الفكري شعرا كان ام نثرا حفظته الصدور ردحا طويلا من الزمن قبل ان يكتب بماء الذهب ويودع جدران الكعبة معلقات يزهو ورثتها علي العالمين ، ليس ذلك فحسب فالثابت ايضا ان القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه بقي طي الصدور حتي جاء الخليفة الراشد عثمان بن عفان من بعد فامر بتدوينه وكذلك الحال مع السنّة النبوية المطهرة ، حيث عكف الصحابة التابعين وتابعي التابعين رضي الله عنهم علي تدوينها مشفوعة بالاسانيد واحكام المحدثين خوفا عليها من الضياع والوضع والتحريف ..

ثم جاء التاريخ والتراث الاسلامي بعد ذلك ليأخذ حظه من عناية الكتاب وارباب النظر علي اختلاف مشاربهم وقد جري اهل السودان حتي عهد قريب علي سنة الاولين فبقي تاريخهم وتراثهم مطمورين في افئدة الرواه ثم انفرد من بعد صفوة من ابناء هذا الوطن المفدي فسجلوا تاريخه بمداد من نور بعد ان تناوشته من قبل الاقلام الاجنبية الموتورة فاعملت فيه معاول الهدم وطمس الحقائق والتشويه لجلال مواقفه وسير ابطاله عمدا مع سبق الاصرار والترصد .

من هنا كان لزاما علينا ان نضيف الي جهد هؤلاء النفر الميامين بعدا ثالثا يتمثل في كتب ومؤلفات واصدارات {السيرة الذاتية} ..فمن تجارب الانسان ومدركاته ، "كانت الحضارة" ومن خلاصة الفكر والسلوك جاءت الاعراف والاخلاق والقوانين . حق ان معظم النار من مستصغر الشرر .

فما هذا الوجود ـ بكل ما فيه من تناغم او تضاد ـ الا اثر عريض لتلك الابداعات الصغيرة ، والاضافات الموجبة ، التي فرضت بقاءها علي الزمن ، وكانت من الانسان واليه .

ان حياة كل منا في حقيقتها حدث قائم بذاته ، ورغم اننا جميعا نصاغ في قالب البشرية الواحد ، الا ان كل فرد منا نسيج وحده ، فذ لا يماثله آخر ، كتبت حظوظه كلها او بعضها ـ قبل ان يولد !! ضعفا أو قوة !! قبحا او جمالا !! سعادة او شقاء !!

نحن نخرج الي الدنيا بكفاءات ومياسم موروثة من ابوين لم نشارك في اختيارهما ، ثم ننخرط بغير وعي ولا ارادة في حياة اسرية وبيئة اجتماعية ، تملي علينا عقائد الدين وشرائع الجماعة ، وضوابط السلوك ، وانماط القيم .

وفي عباب الحياة تتعاورنا الاحداث ، وتشكلنا الظروف لتحدد اتجاهاتنا ، وتقدر مشاربنا ، وتقود خطانا في الطريق الذي تريد !! ثم تجيء ارادة الانسان مكملة لمشيئة القدر ، فمن الناس من ترفق به الحياة ، فيمضي في زحامها راضيا قانعا بما يكون !! ومنهم من يضطرب به الحال، وتصطرع في "ذاته" حقائق الاشياء في عنف يولد فيه وجدانا جديدا ووعيا مغايرا بالمسلمات التي تشربها من قبل ، فاذا هو يرفض الانقياد والتسليم بما هو كائن من الفكر وكافة المواريث ، فتكون ثورته استشرافا لآفاق جديدة وعوالم ارحب ، ولا يكتفي بالوقوف منها موقف المتأثر بما يجري بين يديه ، بل يحاول ان يضع بصماته علي الاحداث والاشياء والمعقولات .

وقد يحس البعض منا ان دوره في الحياة قد تجاوز حدود ذاته ، وترك اثرا لا يمحي من وجه الوجود ، فيدفعه ذلك الاحساس لتسجيل تجربته ، اثراءا لحركة الانسانية في نزوعها الدائم صوب معاقد الخير والفضيلة .

ويقيني ان الاسهام الايجابي في اعلاء شأن الحياة ـ ايا كان حجمه ونوعه واثره ـ لهو اضافة ينبغي ان تعرف وتستخلص قيمتها ، سيان في ذلك القمم التي ارتادها الانبياء والقديسون والعباقرة ، او الاعماق التي تردي فيها الاراذل والمجرمون والجبابرة !! فالمعرفة بهؤلاء واولئك ضرورة لادراك نوازع البشر علوا وسفولا .

بهذا الفهم عزيزي القاريء جرؤت على كتابة ونشر الجزء الاول من هذا

الكتاب (مواقف علي درب الزمان) عرضت من خلاله تجربتي مع الحياة وحركة المجتمع واحداث التاريخ بتركيز وتحليل لمجريات حقبة احسب ان فهم حقائقها واستخلاص عظاتها ومعطياتها ضرورة لتجنب المزالق ونحن نعيد صياغة الحياة . وقد حاولت جهدي ان افلت من دائرة الانفعال الذاتي بالاحداث تكريسا للحقيقة الموضوعية ورعاية لحرمة التاريخ وايثارا للحق والخير والفضيلة وعلي هذا الدرب اواصل السير فاقدم الجزء الثاني من هذا الكتاب (مواقف علي درب الزمان) واعد العدة لتقديم الجزء الثالث في مقبل الايام باذن الله وتوفيقه .. وبالطبع ليس لهذه الجهود من قيمة تذكر بغير فضلك اخي القاريء بالاقبال والاطلاع ..

وبالله التوفيق والنجاح

المؤلف

{الحلقة الاولي}

تنازل الفريق ابراهيم عبود - كما اسلفنا القول في الجزء الاول من هذا الكتاب "مواقف على درب الزمان" - عن اريكة الحكم بعد ان بلغت الثورة منتهاها ، ففي اليوم الخامس عشر من شهر نوفمبر ١٩٦٤م . سلم قياد السلطة للحكومة المنبثقة عن الجبهة القومية ، ذلك الوعاء الذي أفرزه وفاق القوي الديمقراطية مجتمعة ، وتشكلت حكومة اكتوبر الاولي برئاسة السيد سر الختم الخليفة ، تعبيرا عن التجرد من صيغة الحزبية والطائفية ، حيث لم يكن للرجل نشاط سياسي معروف . فحاول جهده الابحار بثورة اكتوبر في خضم الانواء والاعاصير المتضاربة بفعل المطمح والخلافات الحزبية والعقائدية .

ولاهمية دور السيد سر الختم الخليفة في احداث تلك الحقبة من تاريخ البلاد ، يلزم التعريف به في هذا المقام ، فهو من مواليد مدينة الدويم علي ضفة النيل الابيض سنة ١٩١٧م ، تشكل وجدانه بقيم الريف ومواريثه وطباع اهله الطيبين ، ثم عكف من بعد علي مناهل العلم لا يبغي سواها ، فتخرج من كلية غردون عام ١٩٣٧م ، وانتظم في سلك التدريس بالمدارس الحكومية ، ثم جري نقله الي بخت الرضا واحدا من المشرفين علي شعبة التربية واوفد الي المملكة المتحدة عدة مرات لتلقي الفرق التدريبية في التربية وعلم النفس . وسمق نجمه في هذا المجال حتي اصبح من اعمدة المؤتمرات التربوية داخل وخارج السودان . كما واكب ذلك تدرجه في سلك الترقي بوزارة المعارف ، فاسند اليه منصب مدير التعليم بالاقليم الجنوبي وعاش بين اهله ردحا من الزمن . وتقلب في العديد من المواقع الادارية في حقل التربية حيث شغل منصب عميد المعهد الفني بالخرطوم ثم نائبا لوكيل الوزارة .

كانت شعارات التقدم ونبذ رموز الماضي القريب قد وجدت رواجا كاسحا خلال ايام الثورة الاولى، فجاء الاصرار علي تصفية الادارة الاهلية ورفض الزعامة للقدامي وغيرها من مطالب ثورية لا معدي عنها في تلك الظروف ، وتمخض عن ذلك هيمنة اليسار والقوي الحديثة علي حركة الاحداث بصورة

واضحة ، ولما كان لهؤلاء الاغلبية الميكانيكية داخل مجلس الوزراء فقد اخذ اليسار عموما بعد تنحي الرئيس عبود يمارس شتي الضغوط لاحتواء الحكومة وتوجيه سياساتها الداخلية والخارجية ، وعمل جاهدا لاطالة امدها لترسيخ نفوذه وكسب مواقع له في اجهزة الدولة والقاعدة الشعبية ، وذلك من خلال سعيه الدؤوب لتأجيل اجراء الانتخابات العامة عن موعدها المقرر في ميثاق اكتوبر والمحدد بشهر مارس الي اجل غير مسمي !! بل ان بعض هؤلاء اليساريين نادى جهرة بتمديد فترة الانتقال الي ثلاثة اعوام !! وفي مواجهة ذلك تصدي حزب الامة والحزب الوطني الاتحادي لتسويف اليسار وفئاته المنضوية تحت لواء ماعرف باسم (جبهة الهيئات) بعد ان انشقت عن (الجبهة القومية الموحدة) فقادت احزاب الوسط حركة المواجهة ومارست ضغوطا قوية على السيد / سر الختم الخليفة رئيس الوزراء وطالبت بتنفيذ بنود ميثاق اكتوبر كاملة ، واكد زعماؤها تصديهم لاي محاولة للنيل منها او من الممارسة الديمقراطية التي افتداها الشعب بالمهج والارواح ، ثم شنت هذه الاحزاب حملات مستعرة من خلال صحفها ومنابرها ضد اليسار والحكومة الانتقالية ورئيس وزرائها السيد سر الختم الخليفة . كما خرجت جموع حزب الامة في موكب كبير شعبي هادر من داره بامدرمان الي رئاسة مجلس الوزراء بالخرطوم مطالبة رئيس الوزراء بالاستقالة الفورية لفشله في تنفيذ الميثاق وانحيازه لليسار ، وشايع حزب الامة في هذا الاتجاه الكثير من التجمعات والفئات ، فتمخضت هذه الحركة العارمة عن فراغ دستوري غير معلن لمدة اربعة ايام ، اعتكف خلالها السيد سر الختم بمنزله تاركا سفينة الحكم والبلاد للاعاصير تعصف بها من كل جانب .. ثم عاد الي مكتبه زاهدا في الحكم متعجلا ليوم تسليم السلطة لعشاقها المتنافسين ، ليتفرغ لشئون حياته الخاصة بعد ان تزوج لاول مرة في تلك الايام العاصفة من احدي زهرات المجتمع وكريمات آل المهدي الذين اضحوا قوة سياسية واجتماعية مرهوبة الجانب حيث اعادوا تنظيم اتباعهم الانصار ووحدوا صفوفهم ، فدعوا الي مؤتمر لهيئتهم التأسيسية وانتخبوا اعضاء مكتبهم السياسي ، وتوجوا هذا التنظيم الدقيق بانتخاب السيد / الصادق المهدي رئيسا للحزب والامير عبدالله عبد الرحمن نقدالله امينا عاما والسيد امين التوم نائبا له ، وهكذا اعدوا العدة للانتخابات المقبلة والمشاركة في السلطة او الانفراد بها حسبما تأتي به رياح

السياسة ومشيئة الجماهير .

في تلك الظروف ، افرزت المتغيرات المتوالية في مسار الحركة الوطنية جوا مشحونا بالتوتر والحماس والتطرف ، فجاءت ردود فعل الصراع بين القوي المتناحرة عاصفة تستعصي علي الضبط والاحتواء من جانب الدولة ، فانفرط عقد النظام عنوة وخرج الدهماء والغوغاء يخربون المنشآت العامة ويهددون امن النزلاء والاجانب ، فحاصروا السفارة المصرية واقتحمها بعضهم عنوة وانزل العلم المصري واشعلت فيه النيران ، ودوت في حرم السفارة ومن حولها الهتافات المعادية لمصر وقادتها الثوريين ، وخلق هذا الصنيع ازمة حادة بين وزير الخارجية السوداني السيد محمد احمد محجوب الذي بدا غير مكترث لما جري في باديء الامر وبين السفير المصري ، الا ان بعض الحادبين علي العلاقات بين البلدين اعتذروا للسفير المصري واعادوا العلم المصري الي ساريته وهم يهتفون بحياة شعبي وادي النيل والعلاقات الازلية بينهما .

وبعد ايام قلائل من موجة الاضطرابات العارمة في شوارع العاصمة ، عادت حركة الخروج علي النظام الي الظهور مرة اخري اشد عنفا وقوة ، وذلك حينما سمحت السلطات المختصة للاخوة ابناء الجنوب بالخروج في مسيرة سلمية الي مطار الخرطوم لاستقبال السيد كلمنت امبورو العائد من الجنوب اثر تحقيق قام به لتقصي الحقائق حول تطرف بعض العسكريين في قمع التمرد ابان فترة حكم الرئيس عبود !! فامتلأت ساحة المطار بافراد المسيرة الجنوبيين ، ولكن الطائرة المقلة لكلمنت امبورو تأخرت عن موعد وصولها المحدد ، فانتشرت بين جموع المستقبلين شائعة مضللة مفادها ان لجنة التحقيق وعلي رأسها السيد كلمنت امبورو قد واجهت عسف العسكريين في الجنوب ثم الابادة الجماعية !!

عندئذ ارتفعت حناجر ابناء الجنوب وهي تهتف بسقوط الشمال وتنادي بالثأر من ابنائه . ثم اردف الجنوبيون القول بالعمل ، ولجأوا لاعمال عنف غير مقننة ، فتصدت لهم قوة من الشرطة وامرتهم بالتفرق والاخلاد الي النظام ، فلم يستجيبوا للامر ، وعندها عمد رجال الشرطة لتخويف هؤلاء واطلقوا اعيرة نارية في الهواء ، فانفرط عقد الامن فجأة ، وهاجم بعض الجنوبيين رجال الشرطة واصابوا منهم ثم انطلقوا في الشوارع يخربون ويفتكون بكل من يصادفهم بغير تمييز ، فجاوبهم ابناء الشمال بالمثل دفاعا عن ارواحهم وقطعا

لاصابع الفتنة الهوجاء ودارت بين الجانبين معارك طاحنة راح ضحيتها اربعة عشر قتيلا وما ينيف علي الخمسمائة جريح !! حدث ذلك يوم الاحد السادس من ديسمبر ١٩٦٤م فعرف ذلك اليوم واشتهر (بيوم الاحد الاسود) لا لكثرة ما حاق فيه بالطرفين من خسائر فحسب ، بل لانه شهد مولد مسلك غريب ليس له نظير في تاريخ شمال السودان .

كان الظرف والحدث مدعاة للاسراع في حسم مشكلة الجنوب ، فحاولت حكومة السيد سر الختم الخليفة ايجاد صيغة مثلي لذلك ، واعلن رئيس الوزراء العفو العام عن جميع الجنوبيين الفارين من السودان بعد احداث عام ١٩٥٥م والمحاكمين غيابيا والمطلوبين للمحاكمة بتهم سياسية ، وناشد رئيس الوزراء هؤلاء جميعا وقادتهم العودة الي ارض الوطن ، كما ارسل اثنين من وزرائه الي الحكومة الاوغندية لتوقيع اتفاقية تتعلق باللاجئين السودانيين ، والدخول في حوار وطني مع قادة (سانو) لشرح التوجهات الجديدة لحكومة السودان في عهدها الثوري الجديد ، تمهيدا للتوصل لاتفاق لوقف المعارك في الجنوب .

حالف الوزيرين الموفدين التوفيق ، ولدي عودتهما الي الخرطوم اتخذت الترتيبات لعقد مؤتمر المائدة المستديرة في جوبا في السادس من فبراير ١٩٦٥م ، غير انه تعذر عقد الاجتماع في الزمان والمكان المحددين بسبب الظروف الامنية ، وتم عقده آخر الامر في الخرطوم في اليوم السادس عشر من مارس ١٩٦٥م بحضور مراقبين من اوغندا وكينيا وتنزانيا ونيجريا والجزائر ومصر .

لم يتمكن المؤتمرون من التوصل الي قرارات حاسمة لمشكلة الجنوب ، فتقرر في نهاية الامر وبعد مشاورات مكثفة ومحاولات جادة تشكيل لجنة من داخل المؤتمر مكونة من اثني عشر عضوا ، تحددت مهمتهما في البحث عن صيغة مثلي للتسوية السياسية للمشكلة ، ومع ذلك فقد اعتبرت قيادة حركة (الانيانيا) ان جهود السلام قد تم اجهاضها بسبب المناورات الحزبية ، ومن ثم عادوا مجددا لمواصلة القتال فيما عرف بحرب العصابات ، ولكن جهود الحادبين علي رأب الصدع في علاقة ابناء الوطن الواحد لم تذهب سدى او هباء رغم تنكر المتمردين وانكارهم ، فقد كان من ثمارها الدانية ادراك سياسي وتفهم عميق من جانب الحكومة الاوغندية لصدق نوايا حكومة السودان وجديتها في اقرار السلام والامن في ذلك الجزء الملتهب من البلاد ، فتولدت عن ذلك علاقة وطيدة بين

البلدين علي المستوي السياسي ، والصعيد العسكري ، وتلاحمت الجهود المخلصة للقضاء علي حركة التمرد .

كانت حكومة الرئيس عبود ـ قبل سقوطها ـ قد دعت ملكة بريطانيا وزوجها الامير فيليب لزيارة السودان وتحدد للزيارة شهر فبراير من عام ١٩٦٥م ، وكان الرئيس عبود قد صرح علي المستوي الرسمي انه يزمع ان يبحث مع الملكة ـ الي جانب علاقات السودان السياسية والاقتصادية مع بريطانيا ـ مسألة جنوب السودان باعتبارها ثمرة لغرس الاستعمار الانجليزي في البلاد حين كانت من قبل احدي مستعمرات التاج البريطاني في افريقيا ، وعلي اولئك الزارعين ان يشاركوا في اجتثاث جذور غرس الفتنة واعادة الوحدة والوئام بين ابناء الوطن ، خاصة وقد كان معظم ابناء الجنوب يولون بريطانيا بعض ودهم وولائهم ان لم يكن كامل الولاء ، ثم اضاف الرئيس عبود في تصريحه ذاك انه يعلم علم اليقين ان ملكة بريطانيا تملك ولا تحكم ، ولكنها مع ذلك تستطيع ـ بصورة مباشرة او غير مباشرة ـ وقف الايدي البريطانية التي ما تزال تحمل معاول هدم وحدة السودان وامنه واستقراره .

فلما هبت رياح الثورة في اكتوبر ١٩٦٤م وتولي السيد سرالختم الخليفة دفة الحكم في البلاد تجددت الدعوة وتأكدت دوافعها في الموعد المضروب ، غير ان الشائعات اخذت تروج وتنشر حول قلاقل واضرابات ستحدث بسبب الزيارة الملكية خاصة من قوي اليسار والاتجاه العربي ، لذلك فقد صدر لنا امر القيادة العليا بالبقاء في ثكناتنا في وضع الاستعداد الكامل تحسبا لنذر الموقف ، ولكن الزيارة الميمونة تمت في هدوء وغادرت الملكة وحاشيتها ارض السودان سالمين ، فصدر امر القيادة من جديد بالغاء حالة التأهب والعودة الي سابق الحال في الظروف العادية .

لم ننعم بفك احزمة الاستعداد طويلا ، اذ صدر امر القيادة ـ مرة اخري ـ بوضع خمسين بالمائة من كل وحدات الجيش في الاستعداد تحسبا لما يمكن ان ينجم عن الحملة الانتخابية التي اعقبت رحيل الملكة وزوجها مباشرة ، كانت شواهد الحال تنذر بان الحملة الانتخابية ستكون ضارية وقد يواكبها او يترتب عليها شيء من صدام بين القوي المتنافسة ، فصدق الشق الاول من النبوءة حيث جاءت معركة حامية / لم تشهد لها البلاد مثيلا من قبل ، ولكنها برغم

ضراوتها اتسمت بالانضباط والهدوء والنظام ، وكانت حكومة اكتوبر الانتقالية قد اصدرت تشريعا يقضي بحق النساء في الانتخاب وتعديل القانون الذي يحدد سن الناخب باحدي وعشرين سنة ليصبح ثمانية عشر عاما . وذلك ماحدا ببعض الناس الي الاعتقاد بان الممارسة الديمقراطية اضحت عبثا صبيانيا ودل نساء !! فاغرقوا في الضحك والسخرية والتندر بمآل المعركة الانتخابية ، ولكن سرعان ما انقلب الحال وتبدل الضحك مرارة في النفوس اثر فاجعة قومية اليمة ، وهي وفاة الوطني الغيور والمناضل الجسور قطب الاتحادي الديمقراطي السيد/مبارك زروق في خضم تلك المعركة الانتخابية الشرسة ، فارتجت لرحيله المفاجيء الصدور ، وبكاه القاصي والداني ، وعدد مآثره اعداؤه السياسيين قبل رفاقه واشياعه ، فقد كان زروق مثلا اعلي في النضال والنقاء والوطنية المبرأة من اوشاب الغرض والاسفاف .

حدثني بعض رفاق السلاح يومئذ ان نفرا من اعضاء تنظيم الضباط الاحرار عقدوا اجتماعا وقرروا ان يتصدي التنظيم للفوضي واضطراب حبل الامن المتوقع ان يتمخض عن صراع القوي السياسية في معركة الانتخابات ، فيعلنوا عزل الحكومة القائمة وتعيين حكومة قومية لفترة انتقالية مداها ثلاث سنوات ، تجري بعدها الانتخابات في كل انحاء السودان ، بعد فرض نظم ومباديء واهداف التنظيم ، خاصة وان اجراء انتخابات شاملة تنتظم الاقليم الجنوبي في تلك الظروف امر عسير ان لم يكن مستحيلا تماما ، وان النظام الذي تفرزه الانتخابات الجارية يومئذ ، لن يعدو ان يكون حكما قائما علي ائتلاف مختلف ، لشعب لم يبلغ مرحلة النضج الديمقراطي بعد ، في قطر ما تزال تتعاوره اعاصير الخلاف والفتن وتمزق اوصاله الحرب الاهلية، بعد ان تبدي للعيان فشل مؤتمر المائدة المستديرة ، في ايجاد صيغة للوفاق والسلام ، ومن ثم تتأكد حاجة السودان الي نظام ديمقراطي موجه تقوده يد ثورية منضبطة ، تتدرج باهله الي مرافيء الحكم الديمقراطي السليم ، وقد تحددت ساعة الصفر لذلك التغيير باول بادرة فتنة او فوضي تنجم عن تلك الانتخابات !!

ولما كان اي نظام حاكم بحاجة الي قاعدة شعبية مدنية منظمة ، فقد اقترح بعض من شارك في ذلك الاجتماع ووضع ذلك المخطط ان يبعث باحد اعضاء التنظيم وهو في نفس الوقت ابن احد كبار خلفاء الطريقة الختمية

للاتصال بقيادة حزب الشعب الديمقراطي لعرض المخطط عليها ومحاورتها حول دوافعه وإهدافه ، في محاولة للوصول معها الي صيغة اتفاق بالمساندة والمشاركة في الوضع الجديد القادم بعد تنفيذ الخطة العسكرية .

وقد جاء اختيار حزب الشعب الديمقراطي وقادته كشركاء في السلطة المرتجاه من قبل تنظيم الضباط الاحرار في ذلك الاجتماع عن قصد وتدبير وتقدير ، حيث ان حزب الشعب كان اقرب القوي السياسية كآفة للنظام العسكري السابق ، كما وانه قد اعلن مقاطعته لتلك الانتخابات بصورة تلائم مخطط التنظيم واهدافه ، حتي ظن بعض الضباط من الاعضاء ان هناك اتفاقا مسبقا علي تلك المقاطعة ، ولكن حدث ما لم يكن في حسبان الضباط الاحرار ، فما ان اتصل مبعوثهم بقيادة الحزب حتي جابهوه بثورة عنيفة واستنكار لمهمته ورفض لدوافعها واهدافها ، وزعموا له بانهم - وليس احدا سواهم - الذين فجروا ثورة اكتوبر !! وانهم قد عملوا وجاهدوا لتقويض الحكم العسكري من داخل مؤسساته ولولا جهادهم لما كتب للثورة النجاح ، فهم كحزب وطائفة وقطاع شعبي عريض لا يرضون بالحكم الديمقراطي الليبرالي بديلا ، وانهم في سبيل تأمين النظام الديمقراطي مستقبلا قد عقدوا العزم علي المطالبة بمحاكمة العسكريين الذين قادوا او شاركوا في بقاء نظام الرئيس عبود ، وانهم لولا مكانة والد رسول التنظيم في سلك الطائفة لما ترددوا ابدا في تسليمه للقائد العام وافشاء مهمته ومخطط تنظيمه حماية للديمقراطية ، وانهم .. وانهم .. الخ

صعق افراد تنظيم الضباط الاحرار بهذا الموقف غير المتوقع من قيادة حزب الشعب الديمقراطي ، حتي ظن بعضهم - وليس كل الظن اثما - ان تلك القيادة انما تتخذ ذلك الموقف الغريب تكفيرا عن سابق اثمها في مساندة الحكم العسكري ، ثم اعاد الاحرار تقدير الموقف وفق تلك المستجدات ، وقرروا السير قدما في مخططهم . ولكن !! لكأنما كانت جماهير اكتوبر تدرك بثاقب حسها الوطني ووعيها الاصيل النبيل زيف تلك الدعاوي العريضة وتربص من ظنوا انفسهم اوصياء علي شعب السودان المعلم وحرصهم علي تحقيق طموحاتهم الشخصية ، فافلتت من شراكهم بما لها من مواريث حضارية ومجد نضالي شامخ تليد ، تقصر عن بلوغ مراقيه اعرق الشعوب الديمقراطية ممارسة لا ادعاءا ، فاقتلعت بوعيها جذور ذلك المخطط وشادت علي انقاضة في العاشر من يونيو

١٩٦٥م صرح تجربتها الديمقراطية الثانية التي اسندت قيادها الي حكومة وطنية مؤتلفة من حزب الامة والوطني الاتحادي وبعض الاحزاب الجنوبية يتولي فيها السيد/اسماعيل الازهري زعيم الوطني الاتحادي رئاسة مجلس السيادة بصفة دائمة ، بينما يتولي حزب الامة رئاسة مجلس الوزراء ، ولما كان رئيس حزب الامة السيد الصادق المهدي وقتئذ دون الثلاثين من العمر - وهي سن التأهيل لعضوية الجمعية التأسيسية - فقد اسندت رئاسة الوزارة الي السيد محمد احمد محجوب وزير الخارجية في حكومة اكتوبر وزعيم المعارضة في اول حكومة وطنية بعد الاستقلال وعضو قيادة حزب الامة العريق ، وقد تولي - الي جانب رئاسة الوزارة - منصب وزير الدفاع ، واسندت وزارة الري الي قطب الوطني الاتحادي الشريف حسين الهندي والذي تولى من بعد وزارة المالية .

ولم تمض علي تشكيل الوزارة الائتلافية الا ايام معدودات حتي اقبل كل وزير علي شئون وزارته يرتب اوضاعها وينظم هياكلها ويتعرف علي مشكلات العمل والعاملين فيها ، فدعا السيد المحجوب - بوصفه وزيرا للدفاع - الي اجتماع موسع بالضباط في ناديهم حضره الشريف حسين الهندي ، وتحدث المحجوب عن اهتمامه البالغ بالقوات المسلحة افرادا وعدة وعتادا ، فاعلن عن جملة قرارات اثلجت الصدور ، منها زيادة علاوة بدل السكن وحصة التعيينات الجافة ، كما اعلن عن علاوة ميدان لمن يعملون بالاقليم الجنوبي ومناطق العمليات النشطة ، ثم اختتم حديثه بعبارة :

- ولئن شكرتم لأزيدنكم !!

فانفجر لملاحتها البعض ضاحكين ، واشاعت السخط في نفوس آخرين ممن حسبوه يهزأ بهم ويستصغر شأنهم ويمتن عليهم ، ولكن كيفما كان الحال فقد فتح المحجوب وزميله الشريف حسين الهندي نوافذ الامل فكان ذلك سببا مباشرا لرفع روح الجنود والضباط المعنوية حتي ساور البعض اليقين بان القوات المسلحة قد دخلت عهدا جديدا تبشر مطالعه باليمن والتطور والنماء .

بيد اني لم انعم كثيرا بخدر تلك البشريات اذ سرعان ما استدعاني قائد المدرعات ليفضي الي بامر القيادة القاضي بتحركي علي رأس قوة مدرعة الي جوبا لدعم قدرات القيادة الجنوبية بالعنصر المدرع ، فاذعنت للأمر راضيا وشرعت من ساعتي اعد عدة الرحيل .

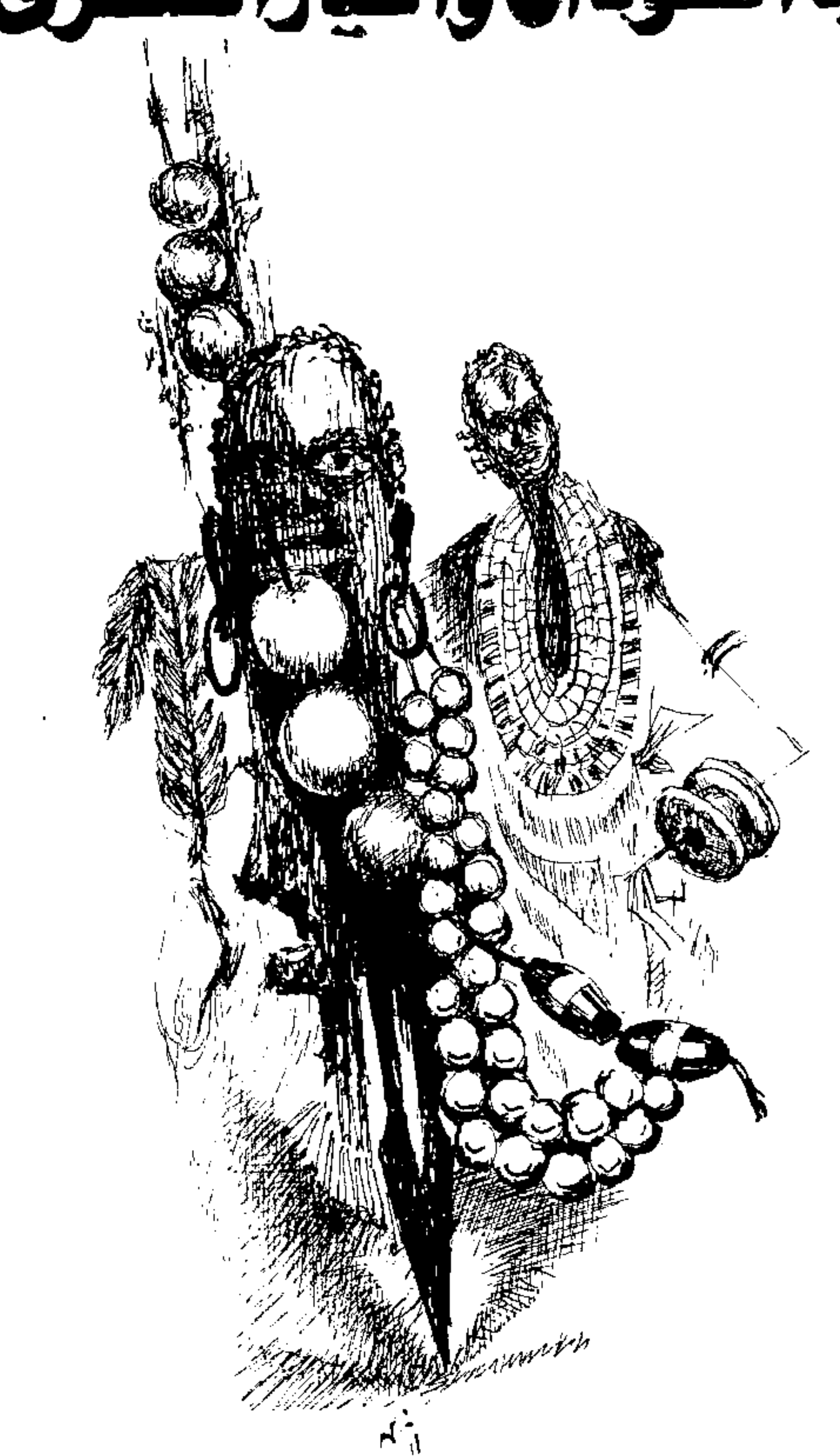


المؤلف نقيب بسلاح المدرعات



المؤلف يؤدي بعض المهام المكتبية

جنوبُ السودان والخيار العسكرى !



{الحلقة الثانية}
جنوب السودان والخيار العسكري

قبيل تنفيذ امر التحرك نحو الجنوب ، منحت وافراد قوتي عطلة ميدان ، ولدي عودتي علمت ان حركة تنقلات اخري قد جرت بين صفوف كبار القادة شملت العميد احمد الشريف الحبيب الذي نقل قائدا للقيادة الجنوبية مترقيا الي رتبة اللواء ، ونقل العميد علي حسين شرفي قائدا لحامية الخرطوم .

تكامل تجهيز القوة التي انيط بي قيادتها من المدرعات والاسلحة والمهمات العسكرية والعربات ، ووافق قائد الحامية الجديد علي دعم القوة بثلاثة عربات كبيرة ـ حمولة سبعة طن ـ وعربة جيب صغيرة ومن ثم تسلمت امر التحرك بالقطار من الخرطوم الي واو ومنها بطريق البر الي جوبا .

ويمثل الخط الحديدي بين الخرطوم ـ واو احد انجازات حكم الرئيس عبود الكبيرة ، والرحلة عبره حافلة بمشاهد البداوة والمناظر الطبيعية الخلابة فعلي مدي ثلاثة ايام بلياليها ظل القطار يزرع المسافات ويطوي الارض وهو يشق السهول المرغة بخضرة اعشاب السافنا وكثبان الرمل والوديان والتلال المتناثرة ولا يعدم المسافر من نيل حظه مما تنبت الارض من بذورها ومراعيها ، وقد حمد اهل تلك البلاد للارض عطاءها الوفير ، فتباهوا بين الناس بكرمها وخيراتها المبذولة للراغبين ، فاذا جاء ذكرها علي لسان احد منهم اردف الذكر بالوصف وقال {كردفان الغرا .. ام خيرا برا} اي ان خيرها ظاهر للعيان !!

ثم بلغ القطار غايته .. فالفينا مدينة "واو" ترفل في حلل البهاء تجللها خضرة سابقة ، وانطلاقة الامل بادية علي الوجوه ، والحياة تجري رخاءا لا يعكر صفوها شيء ، بعد ان انحسرت حركة التمرد ووهن عظمها في أواخر عهد الحكم العسكري ، حين امر اللواء حسن بشير نصر نائب القائد العام بتكثيف العمليات العسكرية الرادعة في كل انحاء الجنوب ، فاستجاب لامره الضباط والجنود بحماس شديد ، وانزلوا بالخوارج المتمردين ضربات قاصمة ، فتراجعوا مذعورين يلتمسون اسباب النجاة ، حتي ظن الكثيرون ان التمرد قد محق تماما او كاد ، اما اللواء حسن بشير فقد صمم علي اخماد نار الفتنة الي الابد ، ومضي

يخطط لهذه الغاية ، مستغلا نجاح عملياته الحربية وارتفاع روح المعنوية لدي قواته المنتشية بخمر الانتصار ، ولكن ثورة اكتوبر [illegible] صرح آماله ، وكتبت لحركة التمرد عمرا جديدا وهي تحتضر !!

كان من بين مطالب جماهير الثورة تصفية كل آثار الحكم العسكري ، فجاء قادتهم اوفياء لتلك الاهداف بغير نظر ولا تدبر ، وكان لمجريات الاحداث في الجنوب حظها من ذلك الوفاء المدمر ، حيث صدرت الاوامر تباعا بوقف نشاط العمليات في كل الاقاليم الجنوبية ، واستبدال منطق القوة بقوة المنطق والحوار مع قادة التمرد واعوانهم!!! بغية الوصول الي حل سلمي يرتضيه الطرفان

انصاع افراد القوات المسلحة لاوامر الخرطوم وهم كارهون ، لا حبا في الحرب وسفك الدماء ، ولكن .. لقناعة باقية الي اليوم بان المقدسات الوطنية كوحدة الشعب والتراب يجب ان يردع من يحاول المساس بها ردعا موجعا ليعتبر الآخرون ، وان حريق العمالة والغدر لا تطفئه الكلمات وان سالت عذوبة ورقة ، وصدقت الايام والاحداث تلك القناعات ، فاستغل قادة التمرد توقف العمليات الحربية ضدهم وعملوا لجمع شتات قواتهم واعدادها علي عجل ، وكانت [illegible] الاسلحة النارية كالتي بايدي القوات المسلحة ، فلجأوا لحصار بعض [illegible] الصغيرة النائية المعزولة ، بهدف انهاكها والقضاء عليها واستلاب ما لديها سلاح ومعدات عسكرية ، فافلحت جهودهم حينا وباؤا بالفشل احيانا ، ولكنهم علي كل حال ـ عادوا قوة لها خطرها من جديد .

برغم ذلك كانت اوامر الخرطوم ما تزال تطالب بالحاح شديد بوقف القتال من جانب الجيش الا في حالات الدفاع القصوي عن النفس !! غير ان بعض قادة الحاميات في الجنوب ، ضاقوا ذرعا بتلك السياسة ، فوجدوا لهم في مدلول الدفاع عن النفس منفذا لمصاولة الخوارج واستخدام القوة الرادعة بغير اعلان .

كان العقيد محمد عثمان هاشم يقوم علي قيادة حامية بحر الغزال ـ حين نزلنا ساحتها يومئذ ـ ، فجاء لاستقبالنا مشكورا وابدي مزيد الحفاوة والترحاب بمقدمنا ، ثم مضي يحفنا بكل صنوف المودة والاكرام ، حتي اذا اطمأن بنا المقام وزايلتنا وعثاء السفر ، دعانا لزيارة حامياته المتفرقة في انحاء الاقليم بمدرعاتنا كمظهر للقوة ، فاستجبنا لدعوته وتنقلنا بين مرابض قواته في تلك الفجاج النائية . وكان لنا في لقاء [illegible] الحاميات وافرادها بنا عزاء وسلوي عن

فراق ضجيج الحياة في عاصمة البلاد الخرطوم ، التي الفنا اجواءها واضواءها ومراتع اللهو فيها.

ثم ودعنا بحر الغزال وقائدها ورفاقه الميامين الكرام في طريقنا الي (جوبا) عاصمة الاقليم الاستوائي عبر طريق بري شبه ممهد . اذ عني الحكام منذ عهد الاستعمار وما تلاه من عهود بهذا الطريق عناية فائقة ، فدأبوا علي تمهيده وتذليل صعابه اثر كل فصل خريف عن طريق السخرة او باجر زهيد !! فقد جرت عادة اولي الامر في الجنوب على تكليف السلاطين وزعماء القبائل الضاربة علي جانبي الطريق او بالقرب منه ليأمروا اتباعهم بازالة العوائق وبسط الارض كل في حدود منطقته ودائرة نفوذه ، وهكذا يقوم كل منهم بانجاز مرحلة معينة من الطريق، وتتكامل جهودهم وتنافسهم في اظهار السطوة والولاء والنفوذ بين اتباعهم فتتصل المراحل بعضها ببعض من بداية الطريق حتي منتهاه . غير ان ذلك الجهد المكثف يبدو قاصرا عن الوفاء بالغاية وفاءا كاملا ، فالطريق ما يزال بكرا موحشا كثير المزالق والعثار ، حيث تؤمه قطعان الحيوانات البرية زرافات ووحدانا وهي تنتقل في مسارب الغابات بحثا عن ضرورات عيشها او فرارا من خطر داهم . ويجد بعضها في ذلك الطريق سهلا ميسورا لقضاء الليل حتي لا تفاجأ بهجمات اعدائها من آكلات اللحوم المتربصة الشرسة .

كنا نتوقف في بعض قطاعات الطريق ، لنتأمل قطيع من الصيد الوحشي وهو يتحرك في تؤدة ووقار وامان علي جانبي الطريق حتي ان بعض ابقاره تظل تحدق في مركباتنا في بلاهة وتعجب !! فلا نملك في مواجهة الاغراء الا ان نصيد منها ما يكفي لقوت يومنا شواءا مبذولا للآكلين .

تلقانا قائد حامية رمبيك وهي آخر المحطات العسكرية علي حدود بحر الغزال المتاخمة للاستوائية ، وهي ـ في نفس الوقت ـ اكبر مدن المديرية بعد العاصمة (واو) ، بها مستشفي كبير ومدرسة ثانوية عريقة ، ورحب بنا قائد الحامية ترحيبا مفعما بالقلق والتوتر ، ثم سرعان ما افضي الينا بدواعي مواجده فقال :

ـ ان حامية مندري داخل حدود الاستوائية وعلي طريق رمبيك ـ جوبا ، قد ضربت فلول التمرد حولها حصارا بغرض استلاب اسلحة حاميتها الصغيرة وان امرا قد صدر الينا بالتوجه فورا لفك الحصار المضروب ، ثم مو اصلة السير

الي جوبا .

ولم نضع وقتا بعد سماع ذلك النبأ ، فقد امتلأت نفوسنا غيرة وحمية وطنية وحماسا لنجدة رفاق السلاح واخوة الوطن ، وتحركت ركائبنا عجلي تبعث الحياة في سكون الغابة المطبق الا من شقشقة الطيور واصوات متقطعة لانواع الحيوان . فاتصل سيرنا طوال ذلك اليوم وليلته ، ثم اشرفنا - آخر الامر - علي تخوم الحامية المحاصرة ، فالفيناها مطوقة باعداد هائلة من الخوارج دعاة الحرب واعداء السلام وهم يرقصون فرحا بقرب وقوع الحامية في قبضتهم بعد ان ارهق جندها الحصار ، وكان المتمردون قد ارهبوهم بما لديهم من عدد وعتاد ، وطالبوهم باستسلام غير مشروط بل وبغير وعد حتي بالابقاء علي حياتهم في حال التسليم !! فصمد قائد الحامية الصغيرة الملازم عباس مدني ورجاله الابطال لذلك التحدي ، لا يرومون الا نصرا كالسراب او الاستشهاد ذودا عن الوطن ووحدة شعبه وتراب ارضه ، طلبوا الموت فصدقهم الله وعده ووهبهم الحياة بما قيض لهم من نجدة علي ايدينا في تلك الظروف .

بدأنا الهجوم علي جموع المتمردين لفك الحصار مع بزوغ شمس الصباح ، فكانت معركة رابحة خاسرة لفعل الصدمة فيها اثر كبير ، فهي رابحة بحسبان النصر والهزيمة العسكرية ، حيث كان النصر المؤزر حليفنا ، وهي خاسرة بحسبان ان من لقوا مصرعهم فيها هم ابناء هذا الوطن المفدي المضللين ، فشابه حالنا فيها حال (البسوس) الذي عبرت عنه بقولها :

- قاتلة انا ومقتولة !!

تجاوزنا ذلك الموقف وآثاره النفسية المؤرقة بعد ان قضينا ثلاثة ايام بلياليها مع قائد وجنود حامية مندري الباسلة فوصلتهم بحضورنا بعض التعزيزات من قيادة الكتيبة بمريدي ، وتلاحمت قواهم وسواعدهم في قلعة النضال من اجل الوطن ، ثم غادرناهم الي جوبا وقلوبنا مفعمة بالحدث ومجرياته ، فقد كان اول تجربة قتال حقيقي يمر بها بعضنا ، وملحمة اخري في رصيد آخرين ممن عركوا ساحات الحرب واصطلوا بنارها ، فما كاد غبار المعركة ينجلي حتي عادوا لمألوف حياتهم يمزحون ويتسامرون وكأن شيئا لم يكن !!

بلغنا مدينة جوبا بعد مسيرة يوم كامل من نقطة تحركنا (مندري) ، فالفيتها بذلك الوجه المألوف ، ولم يتغير حالها عند زيارتي الاولي لها بعد

رحلة الباخرة المشهورة ، فهي ـ علي وجه الاجمال ـ كرصيفاتها من العواصم الافريقية الصغيرة ، وكان يتولي القيادة فيها العقيد عبدالله الهادي ، اذ لم يكن العميد احمد الشريف الحبيب قد وصل بعد لتسلم مهامه القيادية

كنت علي سابق معرفة بالعقيد عبد الله الهادي من خلال ورود ذكره في بعض اجتماعات تنظيم الضباط الاحرار في مرحلة تصنيف ميول الضباط واتجاهاتهم الفكرية والسياسية ، ويمكن القول ـ بشيء من التعميم ـ ان العقيد رغم تباعده عن الانخراط في العمل الجماعي المنظم كان احد السالكين لطريق القوم من اتباع لينين ورفاقه ، ولايميزه عنهم الا ذلك العزوف وعدم التشبع بالفكر للدرجة التي تدفع صاحبها الي العمل والنضال ، ولكنه برغم ذلك ظل موصوما بها يدمغه لونها الاحمر حتي آخر لحظات حياته العسكرية ، ثم كانت سببا في تعثر خطاه علي مدارج الترقي علي سلم المجد العسكري وهو مؤهل لذلك جدير به .

فحيثما حل العقيد عبدالله بموقع من مواقع العمل في الوحدات المختلفة تربص به قادته وحذروه وضربوا حوله سياجا من الظنون ، حتي صار هدفا لمقالات السوء وكيد المخالفين له في الرأي ، وما يتمخض عن ذلك من عسف في المعاملة والاجراءات والتقارير !! ومن آيات عظمته ونبله انه ظل صابرا جلدا ودودا حتي مع من يعلم حق العلم انه مداهن او مكاشح ، وكان شجاعا في اتخاذ القرار الصعب نافذ الارادة ، لايداني حبه للجندية شيء ، اعطاها اعز ما يملك ، وبخلت عليه بالكفاف عندما احيل للمعاش من بعد ، فبقيت جذوة الحب متقدة في صدره وهو بعيد يغالب الحرمان !!

استقبلنا العقيد عبد الله الهادي بذلك الود الغامر حتي لاعدائه ، وبسط علينا جناحي كرمه ونخوته ، ولم يقفل الاشادة بانتصارنا علي فلول التمرد في مندري ، ثم هيأ لمقامنا مباني المعهد الديني وزوده بكل اسباب الراحة ، وكان قد صدر فيما سبق قرار بتعطيل الدراسة في المعاهد الدينية بالجنوب ، وزعم صاحب القرار ان المعاهد تثير حساسيات ونعرات دينية اضرمت جانبا من الحريق او كانت احد اسبابه ، وهي تقف عقبة كأداء في طريق الحل السلمي . ولتمهيد الطريق امام ذلك الحل المبتغي فلينزح طلاب العلوم الدينية الاسلامية الي شمال البلاد حيث الاسلام دين الاغلبية ، وابواب العلم مشرعة للراغبين ، وليبق

الجنوب محجة لاتباع الصليب والكجور والاوثان ، فتم تنفيذ القرار اخذا بهذا المنطق وبحثا عن حلم السلام .

وهكذا اصبح معهد جوبا الديني ـ الذي كان منارة للعلم في احشاء الغابات ـ قاعدة انطلاق للعمليات الحربيةالضارية الشرسة . نعد بداخله الخطط والمعدات والرجال لشن هجمات مباغتة ضد مواقع المتمردين !! وفي آذاننا رنين ناقوس كنيسة مجاورة ، يردد شعار السيد المسيح ونداءه للبشر بان يقيموا علي الارض السلام وبالناس المحبة وان المجد لله في الاعالي وكل مافي الحياة هباء . فلا نحن نستجيب للنداء ولا كاهن الكنيسة الابيض الذي يحرص علي ازكاء نار الحرب بين الاشقاء بدعاوي الظلم والتمايز العرقي والتاريخ الاسود !!

والحق ان الكهنة المبشرين طوائف متباينة ، بحكم انتمائهم لشعوب ومذاهب شتي ، فلم ينجرفوا كلهم وراء مخطط فصل العرى بين الشمال والجنوب ، وتجرد بعضهم لرسالته الانسانية العظيمة وعكف عليها باخلاص شديد ، وقد فطن الرئيس عبود ـ ابان حكمه ـ لكيد الفئة الباغية من رجال الكنيسة ، فأمر بطردهم من البلاد غير ان التمييز بين هؤلاء وغيرهم اعجز من اوكل اليه تنفيذ الامر ، فلم يجد بدا من استبعاد الجميع ، واخذ البريء بذنب المجرم ، ليغلق الباب الذي تهب منه رياح الفتنة .

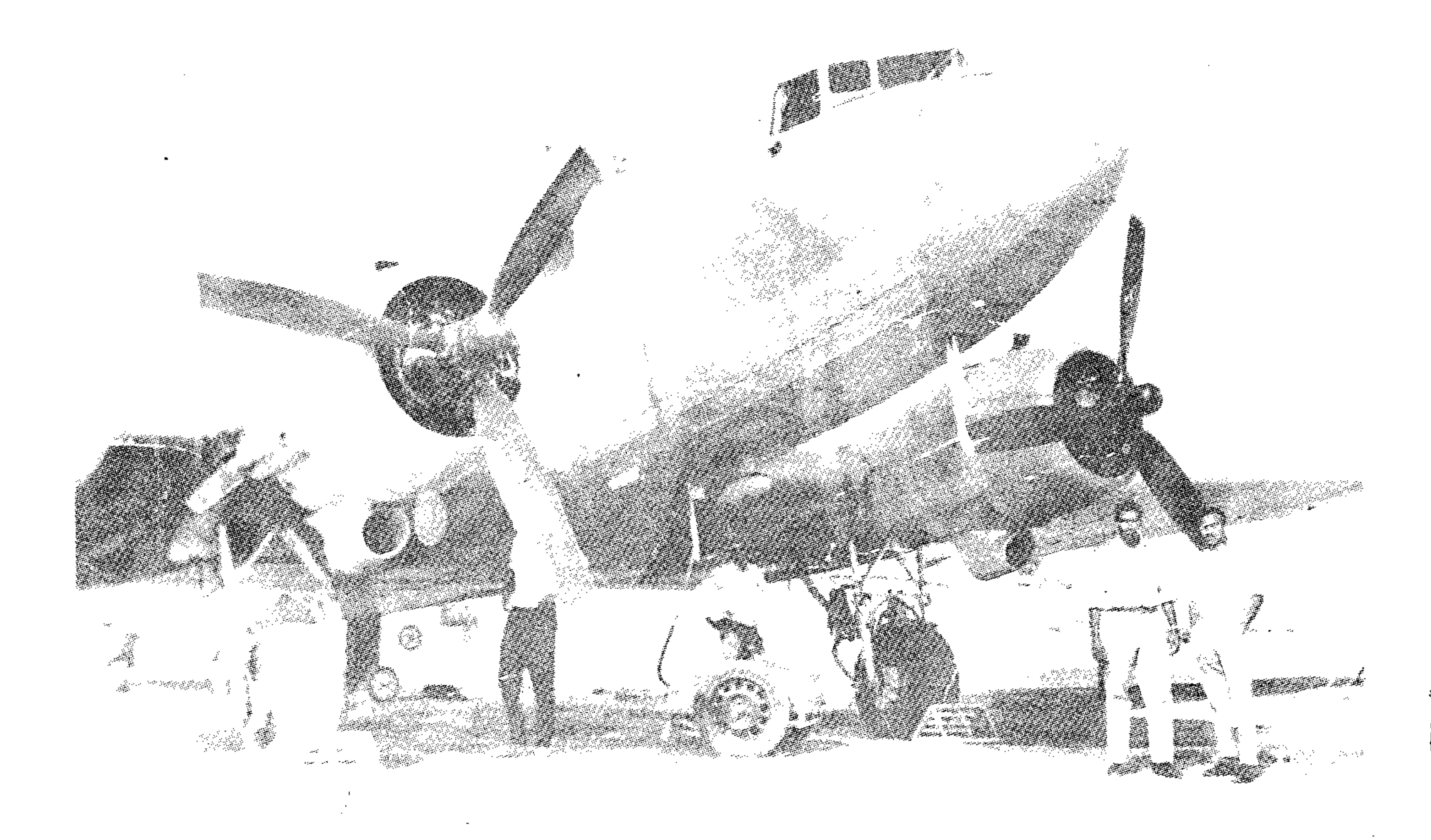
وقد اعترف الجميع بان القرار جد حكيم ، ولكنهم تحسروا علي مجيئه بعد فوات الاوان ، حيث تمددت جذور غرس الفتنة في باطن الارض دهرا طويلا ، فلئن رحل الكهنة المبعدين باجسادهم ، فلسوف يبقي غرسهمناميا بغير انتهاء .

في غمار نشاطنا العسكري ضد الخارجين علي ارادة الشعب وقانون البلاد ، صدرت الينا اوامر العقيد عبد الله الهادي بالخروج في طواف علي مدن وحاميات الاقليم الاستوائي اظهارا للقوة وتعرفا علي الاحوال والبيئة فصدعنا بالامر مرحبين ، وتوافق طوافنا ذاك مع طواف بعثة فنية دفعت بها رئاسة الجيش في الخرطوم للترويح عن النفس في جو تحيط به السنة اللهب من كل جانب ، وكانت البعثة بقيادة عميد الفن احمد المصطفي والفنان المخضرم عبد العزيز محمد داؤود ، وفي معيتها جوقة موسيقية من خيرة عازفي الاذاعة والتلفزيون ، ونخبة مختارة من اساطين فن الغناء الشعبي ، ميرغني المأمون واحمد حسن

جمعة وآخرين . فاخذنا نتنقل من مكان الي مكان ، وكنا اشبه حالا بمن يحمل السلاح بيد وغصن الزيتون باليد اخري .

كانت اياما ماتعة بحق ، فاضت النفوس فيها مرحا ،وطربا ، ونزلت قطرات سعدها علي القلوب التي عشعشت في تلافيفها عناكب السأم والملالة والضجر ، ولم يقتصر اثر تلك الليالي علي افراد الحاميات وحدهم ، بل عم اهل المدن موالين ومتمردين ، فهدهد فيهم غلواء الشعور ، فاهل تلك الاصقاع يعشقون الحياة ، فاجتذبتهم اصداء الموسيقي ، وحركتهم حرارة الايقاع واقبلوا يرقصون ويمرحون الي جانب اخوتهم ابناء الشمال ، حتي تلاشت تحت خدر اللذة الروحية الغامرة كل مشاعر العداء والضغائن بينهم في لحظات الغياب .

المؤلف وبعض الرفاق يقفون مع عميد الفن
احمد المصطفى عند زيارته الفنية لمدينة "يي"



المؤلف يقف مع الرائدطيارعبدالرحمن علي

ثوار السما وحريق الفتنة !



الحلقة الثالثة
ثوار السمبا وحريق الفتنة

كانت مدن وقرى الضفة الغربية للاستوائية تكتظ بافواج كبيرة من الاخوة الكنغوليين ، وكانوا يطلقون علي انفسهم آنئذ اسم (ثوار السمبا) بدلا عن اللاجئين !! وبالسؤال عن مغزي تلك التسمية ومصدرها عرفت ان السمبا عندهم هو الاسد ، وانهم من انصار الشهيد باتريس لومبا ، يحشدون جموعهم في تخوم السودان المجاورة لبلادهم وداخلها ، ويتدربون علي فنون القتال الحديثة وانواع الاسلحة ، استعدادا للزحف لاستعادة سلطة الحكم في الكونغو ، تلك التي انتزعها منهم الرئيس جوزيف موبوتو ومويس تشومبي وانصارهما من قبل .

ولم يكن السمبا يقفون وحدهم في مواجهة اعدائهم حكام البلاد ، بل كانت تؤازرهم وتبذل لهم العون والتأييد دول بعينها تأتي في مقدمتها مصر والجزائر والاتحاد السوفيتي والصين الشعبية ومن دار في فلكيهما من دول المعسكر الشرقي . للاعتقاد بان زعيم السمبا الراحل وتوجهات اعوانه شيوعية صارخة ، او علي الاقل تقدمية مناهضة للاستعمار والرأسمالية .

كان ثوار السمبا بقيادة الجنرال (اولينقا) والجنرال (سوماليه) قد طلبوا من حكومة الرئيس عبود ان تأذن لهم بقواعد انطلاق يقيمونها داخل الاراضي السودانية لشن هجماتهم علي قوات موبوتو وتشومبي وان تسمح للدول الموالية لهم بارسال شحنات الاسلحة والذخائر والمساعدات الصينية من خلال الاجواء والمطارات السودانية ، فاوضح لهم رأس الدولة ووزير خارجيته السيد / احمد خير ان سياسة السودان الخارجية ملتزمة بالاعراف والمواثيق الدولية ، وهي تقضي بعدم التدخل المباشر في الشئون الداخلية للآخرين ورعاية علاقات الاحترام وحسن الجوار . اما سابقة التدخل وارسال قوات سودانية الي الشقيقة الكنغو فلها ما يبررها حيث تمت في اطار جهود منظمة الامم المتحدة وتحت علمها ، فهي لا تشكل خروجا علي الاعراف ولا خرقا للمواثيق . ومن ثم فهما يعتذران عن تلبية مطالب ثوار السمبا ومن يقف وراءهم من الدول ، وليست

لهؤلاء الا صفة اللاجئين السياسيين من دولة مجاورة وفي نطاق ذلك يجري التعامل معهم بصفة رسمية وتقدم لهم المعونات .

كسبت حكومة الرئيس عبود سخط ثوار السمبا بذلك الاحجام والالتزام ، كما لم يرض عنه معاضدوهم في كل مكان ، واتهموهما علانية بالعمل علي تعويق نضالهم الثوري المجيد ، لانها بذلك الموقف تساند بصورة سافرة الاحتكارات الرأسمالية وعملاءها حكام الكنغو ، وتطرفوا في الاتهام والتجني وروجوا ان حكومة السودان وحدها مسئولة عن ذلك المصير الذي انتهي اليه زعيمهم الراحل الشهيد لوممبا ، يوم سلمته غدرا لجلاده مويس تشومبي !! فتلقفت اذاعات دول المعسكر الاشتراكي اكذوبة ثوار السمبا ونشرتها في العالمين ، كما اخذت تردد وصفها للسودان بانه (رجل افريقيا المريض).

صمد الرئيس عبود وحكومته لعاصفة الهجوم العاتية ، فلما انتصرت انتفاضة الشعب في اكتوبر شملت تصفية اثار الحكم العسكري توجهات سياسته الخارجية ، واوعز الحزب الشيوعي السوداني الي رئيس وزراء الحكومة الانتقالية - وحبال الود بينه وبينهم موصولة - باتخاذ موقف مغاير تجاه ثوار السمبا واعوانهم ، فامر بفتح الموانيء والمطارات والحدود لخدمة جهاد هؤلاء ودعم تطلعاتهم الثورية ، ومن ثم تدفقت جموعهم علي مدن الضفة الغربية وقراها واتت علي الزرع والضرع وانواع الاقوات ، وقاسمت ابناء البلاد لقمة العيش وهي عزيزة شحيحة بفعل ظروف الحرب ومضاعفاتها ، حتي كشر البلاء عن نابه وادرك الناس جهد عظيم

علي تلك الحال المؤسية الفينا الغالبية العظمي من اهل البلاد واضيافهم النازحين من الاقطار المجاورة في ذلك الطواف الكبير ، ثم حدث فجأة ما لم يكن في الحسبان ، اذ هبطت في مطار جوبا خمس طائرات نقل ضخمة من طراز اليوشن ، احداها من مصر ، واخري من الجزائر ، وثالثة من الصين ، ورابعة من الاتحاد السوفيتي ، والاخيرة من شيكوسلوفاكيا ، وجميعها تحمل اكداس الاسلحة والذخائر والمعدات الخفيفة والمتوسطة والثقيلة !!

وصف الحدث المفاجيء الرائد عبد الماجد حامد خليل اركان حرب عمليات القيادة الجنوبية وقتها بانه جرم وفوضي ومجانبة للحكمة في سياسة السودان الخارجية . ولكنه اذعن للامر مكرها ، وسمح بترحيل المعونات العسكرية الهائلة

الي مدن يي ومريدي وغيرهما .

وصدق حدس الرائد عبد الماجد ، فما ان تسلم ثوار السمبا تلك المعدات الحربية الهائلة المهولة حتي جاءت الانباء تترى عن هجمات شرسة قام بها المتمردون ضد الحاميات البعيدة المعزولة ، وتأكد بالدليل القاطع ، استخدامهم للاسلحة الروسية والصينية والتشيكية التي وردت لثوار الكنغو مثل الالغام والمدافع الرشاشة والبازوكا ، ومدافع الهاون المتوسطة والخفيفة وغيرها !!

بدا واضحا جليا ان ميزان القوي في ساحة الصراع في الجنوب قد انقلب فجأة ليصبح في صالح فلول التمرد على قلتها وتنافر عناصرها ، وكان العامل الحاسم في ذلك الانقلاب هو الاسلحة المتطورة التي انتقلت الي ايدي المتمردين من ثوار السمبا بصورة او باخري ، فاوغر ذلك صدور الجند والضباط وبعض قادة الحاميات .

كان قادة الاحزاب والقوي الوطنية ووزراء الحكومة في شغل شاغل عن مجريات الاحداث في الجنوب وما اعتراها من تطورات خطيرة وازدادوا اصرارا علي المضي في تنفيذ توجهاتهم التقدمية بينما تدفع الدول المؤازرة للمتمردين علي انظمة الحكم في بلادهم بالمزيد من حمولات طائراتها الحربية في سباق الهيمنة علي مناطق النفوذ في افريقيا ، فكان للمتمردين السودانيين من تلك المعدات والاسلحة نصيب ياتيهم عن طريق مقايضة اضرابهم ثوار السمبا بالمواد الغذائية والمعلومات المضللة وغيرها من الاساليب .

ومن عجب ، فان الدول التي كانت تبذل السلاح والعون لثوار السمبا لم تكن تجهل حقائق مايجري في الجنوب .

وتواصل شحنات الاسلحة من الدول المعادية للمعسكر الرأسمالي لثوار السمبا في جنوب السودان ، فلم تنحصر مضارها وآثارها السلبية علي امن السودان وتصاعد نشاط المتمردين فيه فقط بل كان لها اسوأ الاثر واخطره علي مجريات الاحداث في جمهورية الكنغو الشقيقة ، حيث حمل ثوار السمبا انواع السلاح المرسل وانتشروا زرافاتا ووحدانا في اقاليم الكونغو الشرقية والشمالية ، واتخذوا مؤسسات الدولة ومرافقها والبنوك والشركات اهدافا لاعمال السلب والنهب ، وصاحب ذلك موجة عارمة من العنف والتقتيل وانفراط حبل الامن في تلك البقاع ، وراح ضحية هذا العنف الوحشي الالوف ـ وليس المئات ـ من

الاجانب الاوربيين والاسيويين واهل البلاد انفسهم ، فلجأ بعضهم الي الدول المجاورة يطلب النجاة بالنفس تاركا غرس عمره من مال وعرض وعقار ، وقعد آخرون عجزا عن الخروج من دائرة الحريق ، فلاقوا حتفهم بالسنة اللهب ، وتركوا اجسادهم بين الاحياء عظة وذكري .

حسب ثوار السمبا انهم بما نشروا من رعب وفساد وسلب ونهب ودمار قد احرزوا انتصارا عظيما علي حكومة الكونغو ، فعبروا باسلابهم وغنائمهم الي حدود السودان ، حيث اودعوها حراسة حاميات مريدي وياي وجوبا ، ومن عجب فقد تم ذلك الايداع بموافقة الحكومة السودانية في الخرطوم !! ثم عزز الثوار الحراسة بنفر منهم ربما لتطمئن قلوبهم المفعمة بحب المال والعنف غير المقنن ، وشاطرهم في ذلك الحب بعض الضباط السودانيين ممن تركوا الخدمة العسكرية من قبل ، لاشتراكهم في محاولات انقلابية فاشلة ، فاصبحوا بين عشية او ضحاها ضباطا عظاما بين ثوار السمبا الكنغوليين !!

كانت حكومة الانتفاضة في الخرطوم ترمق ثوار السمبا واعوانهم من السودانيين بعين الرضا والاعجاب ، وتصنفهم في عداد الثوار المناضلين ، بينما درجت سلطة الحكم في الكونغو علي تسميتهم بالمرتزقة والخونة المارقين ، الي غير ذلك من مفردات القاموس السياسي المسيئة ، وآزرتها دول الغرب واعلامه المكثف في التنديد بعمالة السمبا لدول المعسكر الاشتراكي ، التي تسعي لمناطق النفوذ بعد خروج الاستعمار .

حضر اللواء احمد الشريف الحبيب الي جوبا ليتسلم مهامه القيادية العليا في القيادة الجنوبية ، فخرج افراد القيادة من كل الرتب لاستقباله بمظاهر التكريم الذي يليق بمكانته العسكرية والعلمية والاجتماعية ، وكان وجوده بحق اضافة ودعما لا يستهان به في تلك الظروف المتقلبة الحرجة .

لم يفاجأ الرجل بامر ثوار السمبا وما يتلقونه من شحنات الاسلحة والمعدات وانواع العون المختلفة بما سبق له من علم ببواطن الامور واتجاه رياح السياسة في عاصمة البلاد ، غير انه اخضع عمليات تسليم الاسلحة وترحيلها وحصر انواعها للضبط والرقابة والاشراف المباشر ، رغم مافي ذلك من تجاوز لتعليمات السلطة المركزية واوامرها . كما عمل علي ترتيب الحياة الاجتماعية والعسكرية بالقيادة وعاصمة الاقليم ، فانتعشت بجهده الحركة الثقافية والنشاط

ادركني الحرج ، فشكرت له فارط الثقة والاعجاب ، وودعته وانصرفت .

ثم تحركت من جوبا صوب ييي في رتل من العربات العسكرية تحمل الجنود والمعدات ، او مايعرف باسم الطوف (Escort) وكانت التعليمات والاوامر المستديمة تقضي بتحرك الاطواف في رابعة النهار حتي الغروب ، الا في الظروف القاهرة الطارئة ، وذلك تحسبا لاخطار الهجوم المضاد من قبل المتمردين وهم يتخذون من الظلام ساترا للمباغتة والهروب ، كما تقضي الاوامر بتحرك الاطواف المتجهة نحو هدف معين علي نفس الطريق بفاصل زمني لا يقل عن اربع ساعات ، وهناك امر لا تقول به التعليمات المقررة ، ولكن جرت به العادة والتقليد في تلك الظروف ، وهو ركوب الضباط قادة الاطواف في أول عربة تقود تحرك القوة صوب وجهتها اصرارا منهم علي مواجهة خطر الاعتداء والهجوم قبل الآخرين !! يستهدفون بذلك رفع الروح المعنوية بين افراد الطوف وهم يخوضون الاحراش والمستنقعات والمجهول ، يفعل الضباط ذلك ليكونوا مثلا اعلي لجنودهم في التضحية والفداء والاقدام .

حذوت حذو اضرابي الميامين فركبت في مقدمة الطوف عربة سكاوت مكشوفة ، وتحركت القوة باسم الله مجراها ومرساها ، ولكن لم نبتعد الا عدة كيلومترات لنفاجأ بشخص ممدد علي قارعة الطريق ، والدماء تنزف من جسده بغزارة ، فتوقفنا واستكشفنا سريعا جوانب المنطقة ، ثم اقبلت علي المصاب اسأله عما جري ، فافاد - وهو يغالب آلالام - بان المتمردين ازمعوا قتله لانه رفض ترك قريته وبيته وزراعته والانضمام لهم في حرب المندكورو ، ولكن اصابته لم تكن قاضية ، عندئذ امرت بحمله في احدي العربات ، وعودة الطوف ادراجه الي جوبا لاسعافه بمستشفي المدينة ، فتملك العجب الجنود وصف الضباط ، وضحك بعضهم لفرط عنايتي بامر الرجل الجريح ، وحسبوا قرار الرجوع الي جوبا امرا ساذجا وليد العاطفة ومحدودية التجربة ، فما كان منهم الا ان الحوا في الطلب والرجاء قائلين :

- يا جنابو ، خلينا نفسح المتمرد ده ، ونستمر في طريقنا !!

فلم الق سمعا لما يقولون ، وكررت الامر بضرورة العودة بالمصاب الي جوبا لاسعافه ، فاذعن له الجميع غير مصدقين ، وهناك في المستشفي قام الجراح البارع النذير فضل المولي باجراء عملية جراحية مستعجلة انقذ بها حياة

الرجل المصاب ، ولما سمع مدير استخبارات القيادة الجنوبية بعودة الطوف الي المدينة ، لحق بنا في ردهات المستشفي وهو يضرب كفا بكف وعلي قسماته علامات الحيرة والذهول من ذلك التصرف الموغل في العاطفة الانسانية ، ولكنه التمس لي العذر بحسبان انها تجاربي الاولي في قيادة الاطواف العسكرية ، ثم امرنا بمواصلة الرحلة في اثر طوف مريدي الذي تقدمنا بسبب العودة المنكرة .

عدنا مرة اخري نضرب في شعاب الطريق الي يي ، ولكن ما ان تجاوزنا مرقد ذلك الرجل الجريح بقليل ، حتي ادركنا طوف مريدي في حالة يرثي لها ، وعلمنا انهم تعرضوا لكمين ثلاثي محكم التدبير ، نصبه الخوارج بعد ان نما الي علمهم نبأ خروج اطواف عسكرية الي مريدي ويي ، والحق الكمين بعربات المقدمة اضرارا جمهوقضي علي من فيها وما فيها من رجال وعتاد . فتعاونا مع الناجين من افراد الطوف في اخلاء المكان من الشهداء والجرحي ، واعادة تنظيم قوة الطوف الذي اتجه عائدا الي جوبا .

ثم واصلنا المسيرة الي يي ، كنت في مقدمة القوة علي نفس العربة المكشوفة ، مشدودا الي ذكري مشهد الجرحي والشهداء وهم متناثرون في موقع الكمين الغادر ، وعلي وجه كل منهم تعبير جلي عن شعوره لحظة ان فارق الحياة ، ابلغ تعبير عن عمق المأساة وبشاعة الجريمة ، صور ناطقة بالانكار والرجولة وحب الوطن ، وفجأة اخرجني من بؤرة التفكير صوت السائق الي جانبي وهو يقول :

تعرف يا جنابو ، لما قررت ترجع بالمصاب الجنوبي لي جوبا ، نحن كنا بنضحك علي طيبتك الزايدة ، لكين انت طلعت افلح مننا كلنا !!

وجدتني ملزما بشكره علي الاطراء ، واردفت ذلك بتأكيدي له ان ما فعلته لا يزيد عما يقتضيه واجب الانسانية ، وهذا محك الاختبار لقيم الانسان ان كانت له قيم !!

ضحك السائق وقال :

- معليش يا جنابو ، والله ماقصدت شيء ، بس حبيت اقول ليك ، انو طيبتك انقذتك وانقذتنا معاك من الخطر ، والله .. والله .. انا من يوم الليلة غير الطيبة ما اسوي شيء .

قلت له باقتضاب :

- الله يوفقك .

وصلنا يي الخضراء ، فاسترعي انتباهنا لاول وهلة ان المدينة علي صغر حجمها مكتظة باعداد غفيرة من ثوار السمبا فضلا عن اهل المدينة والوافدين اليها من القري القريبة المجاورة ، حتي اضحت كخلية النحل فشققنا طريقنا الي مقر الحامية .

وهناك استقبلنا المقدم تاج السر المقبول ، والرائد يوسف احمد يوسف ، ونفر من كبار الضباط ، بعد ان تسلموا اشارة بمقدمنا ، كان استقبالهم لنا حارا يفيض بمشاعر الاخاء والحفاوة والترحاب ، فقد كنت علي سابق معرفة باكثر ضباط الحامية .

في المساء تجمعنا بمنزل الرائد يوسف ، احتفاءا بمقدمي جريا علي العادة والتقليد ، فقضينا شطرا من الليل في سمر حبيب واجترار للذكريات في الايام الخوالي ، وبدأت بذلك صفحة جديدة من تجارب حياتي العسكرية بحامية يي .

دهشت في الغداة وانا اطوف بالمكان متفقدا معالم المعسكر ، اذ وجدت عربة كبيرة حمولة سبعة طن تقبع امام القرقول - يقوم علي حراستها - الي جانب القرقول - جندي من ثوار السمبا ، وبالسؤال عما تحمل العربة ، قيل لي انها تحمل قدرا كبيرا من الذهب والعملات النقدية الاجنبية ، غنمها ثوار السمبا بعد هجومهم علي مناجم الذهب بمدينة (واتسا) الكونغولية وبنوكها ، وتضاعفت دهشتي وعجبي اذ علمت ان قادة الثوار وعلي رأسهم الجنرال "اولينقا" يأخذون من الغنائم مايشاءون دون رقيب او حسيب ، في حين يحجم عن ذلك الصنيع القادة السودانيون وهم عليه قادرون ، قناعة منهم بان ذلك مال الاخرين المحرم اقتناصه حتي في غير الاشهر الحرم ، فلا تتعدي علاقتهم بتلك الاسلاب الثمينة امر حراستها ووضعها تحت تصرف ثوار السامبا وقادتهم ، ولا يعرفون مأتاها ولا كمياتها ولا مآلها ابدا !! فتعليمات الخرطوم تقضي صراحة بالتزام هذه الحدود ، وعدم تجاوزها بأي حال .

لم يأل قائد حامية يي الرائد يوسف احمد يوسف وقتا ولا جهدا في تسليمي اعباء موقعي الجديد ، كاركانحرب للعمليات ومساعد ضابط اتصال مع ثوار السمبا ، فما شارفت الساعة الثالثة من مساء ذلك اليوم حتي تسلمت تبعات مسؤلياتي بين افراد الحامية . وعند الساعة الثالثة ظهرا اصدر لي قائد

بهمة كثيفة السواد ، وبلغنا المعسكر مع انبلاج الفجر وهو يمزق استار الظلام ، فامر الرائد يوسف بوضع تشكيل القوة القتالي وفق الخطة ، واتخذ موقعه في قلب الهجوم ، كانت الخطة تنص علي الهجوم بثلاث فصائل معا . فيما يشبه حركة الكماشة ، تعززه نيران مدافع المورتر عيار ستين مليمتر ، وجاء هطول الامطار وقصف الرعد قبيل الهجوم عاملا ساعد في تحقيق عنصر المباغتة ، واستمر حتي بداية الهجوم واثناءه فاضاف الي عامل المفاجأة وقوة النيران بعدا ثالثا له اثره وخطره .

حول محور الذات ، كنت اتهيأ نفسيا لخوض تجربتي القتالية الثانية ، كنت اعلم ان التجربة اشد خطرا واعظم رهبة من سابقاتها ففي المرة الاولي باشرت القتال من جوف مدرعة حصينة ، وانا بمأمن من الخطر الا اقله ، اما الان فانا اسير علي قدمي هدفا ميسورا لنيران العدو حتي الطائش منها ، وحانت لحظة المواجهة وضياء الفجر يطارد فلول الظلام .

وعلي غير ما توقعنا ، امطرنا المتمردون من داخل معسكرهم حاصبا من نار ، فقد شادوا لهم خطوط نيران متراصة بتدبير واحكام ، كما تحوطوا لدفاعاتهم بالخنادق والاشجار الضخمة الباسقة وعدد من الهضاب ، كانت نيرانهم كثيفة متواصلة وهم في شراسة حشرات الاتيانيا السامة اذ تدافع عن خلاياها ، وهي كالنحل ولكن سمها زعاف لا يداوي ، فاتخذ المتمردون اسمها لارهاب اعدائهم وعرفوا به (انيانيا) .

وكانت قواتنا في ضراوة السباع المنقضة تزحف نحو مصادر النيران داخل المعسكر ، وبين فينة واخري تنطلق قذائفنا ويعوي بين ايدينا السلاح ، ثم ثار نقع معركة ضارية رهيبة دامت زهاء الساعتين ، فسقط كثيرون صرعي متناثرة اشلاء بعضهم في المكان ، رزقا طيبا للذئاب والكواسر ، وبينهم جرحي تسحقهم آلالام ويتهددهم شبح الموت بين حين وحين .

انجلي غبار المعركة وصمت السلاح ، وحققنا علي الخوارج نصرا كبيرا باقل قدر من الخسائر ، ثم عدنا الي يي بغنائم وفيرة من السلاح والذخائر والمؤن ، ولكن شعورا بالفجيعة والخسران ظل يلازمنا طوال الطريق ، وهو وليد احساسنا بان من دمرناهم ومزقنا شملهم اخوة لنا في الوطن والمصير .

تلقانا رفاق السلاح علي مشارف المعسكر بصيحات الفرح ، فالهبت

حماستهم مشاعرنا المكلومة ، وايقظت فيها دواعي الاثرة وحب الذات وتمجيد مآثرها ، وتراجع ذلك الشعور الانساني النبيل ، فاندفعنا بكلياتنا في موكب الفرح الغامر يراودنا احساس بالزهو ونشوة الانتصار .

ما ان انفض حشد المستقبلين وتفرق افراد القوة المنتصرة العائدة ، حتي استدعاني الرائد يوسف - وعلي كلينا وعثاء السفر ورهق الطريق - واصدر لي امرا جديدا بتجهيز قوة مقاتلة اخري بقيادة جديدة تخرج لضرب احد مواقع الخوارج في اتجاه مغاير ، ففعلت وهو يقف الي جانبي يشرف علي تحضير القوة وامر خروجها بالصورة التي تكفل لها اسباب الامان والتوفيق ، ثم خرجت القوة . فما مضي علي ذلك الا دقائق معدودات ، حتي سمعنا صوت اطلاق لنيران مكثفة في مواجهة احدي سرايا الحامية الممتدة بطول المدينة وعرضها .

ارتفع نداء كبسة البروجي في انحاء الحامية ، فتجمعت سريعا قواتنا متأهبة للنزال ، ثم اندفع فريق منها لمواجهة المعتدين حسب خطة العمليات والاوامر المستديمة ، وبقينا نحن جميعا تحت السلاح تأهبا للانخراط في القتال من أجل الوطن ووحدة شعبه وترابه ، حتي بلغنا الخبر باندحار شراذم المتمردين علي ايدي قواتنا الباسلة ، بعد ان استشهد احد جنودها المغاوير ، وفي المقابل لقي ثلاثون من الخوارج حتفهم وجرح آخرون ، ورغم ذلك كان مصابنا بفقد ذلك الجندي الشهيد عظيما اليما فاجعا ، ولم نأس علي من مات من جانب العدو الشقيق ، بل تحرقنا شوقا للقائه والثأر منه اضعافا مضاعفة !!

وكان لنا ماتمنينا ..

فالحقنا بالمتمردين خسائر فادحة في الارواح والمعدات ، تدفعنا روح الثأر وفداء الوطن ، حتي اصبح صوت الرصاص مألوفا لاسماعنا في كل حين ، وهكذا مضت بنا الايام في حامية يي ، فاذا توقف عويل السلاح المعادي يوما انتابنا شعور ممعن بالرتابة والتوجس ، وحسبناه ذلك الهدوء الذي يسبق العاصفة ، ومن جانبنا تواصل ارسال الاطواف لضرب مواقع العدو ومعسكراته ، وقد اتيحت لي عدة فرص لقيادة هجمات شرسة مظفرة . كانت مثار اعجاب الرفاق من الضباط والجنود ، وبقدر ما اسعدني ذلك وارضي طموحي ، كنت احس في قرارة نفسي شعورا بالخسران ، ففي غمار تلك المعارك وبتأثيرها فقدت مشاعري الانسانية المفرطة ، حين تملكتني روح الجندي العدائية وهو يواجه

الخطر ويخوض اللهيب .

اما الاخوة ثوار السمبا فقد تمركزوا في منشآت حددت لهم بالمدينة ، كالمدارس والمرافق الحكومية الشاغرة والميادين المسورة ، فاقاموا فيها معسكرات ثابتة ومنقولة ، وهم خليط من الرجال والنساء والعجزة والاطفال اشبه باللاجئين ، ولكنهم ينكرون هذه الصفة ويصرون علي تسميتهم جميعا بالثوار المناضلين !! في حين ان القوة المقاتلة لا يتجاوز عدد افرادها الالفين ، اما كميات السلاح التي تحت حوزتهم والمعدات الاخري فقد ارسلت من مصادرها لتكفي حاجة عشرين الفا او يزيد ، وقد زعم ثوار السمبا لاصدقائهم ومؤازريهم في العالم انهم كذلك !! وهذا منبع الخطر الذي يهدد امن السودان ووحدة اراضيه ، فبينما كان فائض اسلحتهم ومعداتهم الحربية الحديثة يباع سرا وعلانية لقادة الخوارج واعوانهم في الجنوب ، كانت قواتنا تعاني فقرا مدقعا في السلاح الاوتوماتيكي الحديث ، فهي تستخدم البندقية سريعة الطلقات ماركة ارملايت التشيكية ، ومن عيوبها الجذرية ما يعتريها من امتناع متكرر عند الاطلاق ساعة اليأس والحاجة ، حتي فقد جنودنا ثقتهم فيها ، خاصة عند مداهمة الخطر المفاجيء مثل الكمائن والهجمات المباغتة للعدو .

وقد شاهدت ـ في العمليات التي توليت قيادتها ـ جنودي وهم يعلقون بنادقهم علي اكتافهم زهدا فيها وياسا من نفعها وجدواها ويباشرون لقاء العدو بالسلاح الابيض من مدي وخناجر بينما يحصدهم سلاح ثوار السمبا الحديث الذي يتسرب الي ايدي المتمردين .

كانت حكومة الخرطوم قد استكانت لشعارات الحل السلمي لقضية الجنوب ، فاهملت تدريب الجيش وتطوير اسلحته ، بل انها مافتئت تكبل قدرته المحدودة بمثل تلك التعليمات والاوامر الممعنة في التراخي والسذاجة ، وظل قادة البلاد وساستها المدنيون يتبجحون بدعاوي التقدمية وممالاة المعسكر الاشتراكي ، ولا يدرون انهم ـ بوعي او بدون وعي منهم ـ كانوا عضدا للخوارج ومعاول هدم وتدمير لقدرات جيشنا الوطني ، حتي اختلت موازين القوي العسكرية لصالح المتمردين ، وكادت تتلاشي بفعل توجهاتهم ومزايداتهم روح جندنا المعنوية ، وفي ذلك الظرف تطلع جميع افراد القوات المسلحة بلا استثناء لقيادة سياسية قادرة مسلحة ، تخرج بالوطن من تيه الفكر العقيم ، وتستقطب الناس حولها ،

وكان لسان حالهم يقول :

(ماحك جلدك مثل ظفرك) !! كانت الرغبة في تلك القيادة المسلحة المرتقبة مستكنة في اعماق كل فرد في القوات المسلحة خاصة تلك التي تباشر مواجهة المتمردين في الجنوب ولكنها بقيت في الاعماق املا لا يفصح عن نفسه او يجرؤ علي السفور ولكنها تطفو علي السطح كلمات واحاديث تجيش بها الخواطر لحظة الامتعاض والغضب !!

في الشمال ، بدا لذوي البصيرة والغيرة الوطنية ان ثورة اكتوبر قد ضلت طريقها وخمدت جذوتها في النفوس ، بعد ما ران علي ساحة العمل السياسي من تكالب وصراع علي المغانم والاسلاب ، وذلك ما دعا تنظيم الضباط الاحرارلتجميع قواه المبعثرة من جديد ومعاودة نشاطه السري بذات القيادة والاسم والمباديء والشعارات ، ولكن نفرا من اعضائه القدامي تخلفوا عن ركبه وانا منهم ، ففي اعقاب انتفاضة الشعب وقبل توجهي نحو الجنوب كنت قد قدمت لسكرتير التنظيم استقالة شفوية ، بحجة ان افراده وعناصره قد ذابت تلقائيا وتوزعت بحكم الولاء بين الشيوعيين والقوميين العرب ، وانا قومي الفكر والنزعة وطني الاتجاه ، لا تتسق مطامحي تجاه الوطن مع الالتزام السياسي والعقائدي ، ومن ثم اصبحت طيرا علي غير شاكلة الآخرين ، مؤكدا للاخ فاروق سكريتر التنظيم ان استقالتي قرار لا رجعة فيه ، وان عطائي في سبيل بلادي وشعبها لن يتوقف او يضمحل ما حييت ، وهذا ما اعد به غير حانث ، فقبل استقالتي وتقبل مسبباتها المنطقية التي لا ترد ، ولكنه ظل يردد - وهو يودعني خارجا من دائرة التنظيم - قائلا :

- الايام بيننا !! وهن حبالي مثقلات يلدن كل جديد !

كنت - وانا في الجنوب - اتابع مجريات الحركة السياسية في العاصمة ، واتنطس الاخبار عن كل فئة واتجاه وحزب ، فعلمت ان اعضاء آخرين قد تحرروا من اغلال التنظيم مدفوعين بنزعة الولاء للوطن والمواقف السياسية ، تقود خطي البعض منهم مطامحه العقائدية والشخصية في ظل الواقع الجديد ، ومضي هؤلاء يتلاحمون ويتفاعلون مع اخوتهم في الجنوب ، يقرعون طبول الحرب مكرهين ، ويرقصون حول نار الاحداث المتلاحقة ، في انتظار ذلك اليوم الموعود .

تجاوبت بعض دول شرق افريقيا مع حركة ثوار السمبا في اطار ضيق محدود ، فبرغم ما يربطها بهم من اواصر الجوار واللغة المشتركة "السواحلية" و "الكنقالا" وغيرها ، الا ان تلك الدول لم تسمح بتواجدهم علي ارضها ، او اقامة قواعد انطلاق عسكرية فيها ، بل اقتصر تعاونها معها علي السماح لقادتهم بالتحرك والانتقال عبر موانيها الجوية الي خارج الحدود للاتصال بالدول العربية والاشتراكية التي تؤيدهم وتدعم حركتهم ، كما اباحت لهم التزود بما يلزمهم من احتياجات تموينية من اسواقها باسعار باهظة ، حيث تم تحديد تجار بعينهم للتعامل مع ثوار السمبا وامدادهم بمتطلباتهم الحياتية ، ولا شك ان ذلك التحديد يخدم اغراضا عديدة ، منها حصر مبيعات اولئك التجار لثوار السمبا ومعرفة ما تحصلوا عليه من ارباح طائلة يتم توزيعها مناصفة بين التجار وقيادة السلطة الحاكمة في تلك الدول ! ورغم ذلك ، فقد كان هؤلاء يستشعرون مسئولياتهم الامنية تجاه مواطنيهم ، فعملوا سرا وعلانية علي حظر تسرب اسلحة السمبا للجماعات المعارضة لانظمة الحكم في دول شرق افريقيا عامة واوغندا علي وجه الخصوص . اذ اصابت عدوي الثورية والتقدمية هؤلاء المعارضين ، ووجدوا من يؤازرهم ويمدهم بالسلاح والعتاد والمؤن بين دول العالم ومعسكراته المتناحرة ، حيث اضحي ادعاء النضال الوطني تجارة رابحة ، فانطلقت شرارة الثورة المزعومة لتضرم نار الفتنة الهوجاء في هذه الدول ، ولهذا دأبت اوغندا علي ردع حركة المقاومة لسلطة الحكم فيها ، ومراقبة تحركات ثوار السمبا حتي داخل الاراضي السودانية .

يعلق بذاكرتي من احداث ذلك الصراع المقيت ، ان الجنرال (عيدي امين) . وكان يومئذ برتبة العميد وفي موقع الرجل الثاني في قيادة الجيش الاوغندي ، اذ كان علي رأس القيادة جنرال ابيض بريطاني الجنسية بينما تخضع البلاد لحكم الرئيس (ملتون اوبوتي) . في ذلك الوقت زارنا العميد عيدي امين في حامية يي للوقوف علي احوال ثوار السمبا والتنسيق مع السلطات السودانية فيما يتصل بدعم حركتهم العسكرية وتقديم العون لهم في كل مجال . فاستقبله المقدم تاج السر المقبول قائد المنطقة والرائد يوسف احمد يوسف قائد الحامية استقبالا حارا ، وخصصا له غرفة في مسكنهما كمنزل ضيافة ، بينما عنيت انا بتوفير السكن اللائق لمرافقيه .

كانت يد العميد عيدي امين وقتها مكسورة مجبسة ، يستعين علي حملها بشريط يلتف حول عنقه ، وقد ذكر ان الكسر حدث وهو يتمرن في احدي حلقات الملاكمة ، فلما حمي وطيس اللكمات بينه وبين خصمه وقع المحظور !! من هذه الواقعة وغيرها اسفر العميد عيدي امين عن خلق شرس وميل للعنف شديد ، ولكنه يحاول تقنينه في اطار سلطة الحكم والنظم العسكرية ، ووضح لنا من احاديثه ونبراته الصارمة الواثقة انه وحده المتحكم في الجيش الاوغندي .

لم يأبه عيدي امين باخفاء كرهه وعداوته للرئيس ملتون اوبوتي ، فكرر مرات عدة وصفه له بانه مجرد واجهة سياسية اصبح مؤهلا لها بما ناله من تعليم اجوف وعلم عقيم !! فشل في ترجمته شيئا نافعا في واقع بلاده وهو علي سدة الحكم والرئاسة ، ومن ثم فهو عاجز عن تحقيق مطامح الشعب الاوغندي وقيادة الدولة .

اذكر ان الرائد يوسف احمد يوسف جابه الرجل الكبير بسؤال ساخر ممعن في الزراية وقال له : ـ So What ?! اي : ثم ماذا بعد ؟! فاجاب العميد عيدي امين بصراحة مفرطة :

ـ ان اوغندا بحاجة لحاكم عسكري قوي الشكيمة ، وديمقراطية موجهة ، ولن يمر وقت طويل حتي يحدث ذلك .

تعجب المقدم تاج السر المقبول من جرأة العميد عيدي امين وفرط صراحته وكشف دواخله بغير اكتراث وفضح مخططاته السياسية والعسكرية بدون تحفظ !! ولكنه عاد يسأل عن كمية الخمر التي تجرعها الرجل ، فاجبت بانها لا تقل عن زجاجة ويسكي كاملة ، وهنا عزا جرأته وصراحته ولجاج حديثه لتأثير الخمر ووصف ما صدر عنه من تصريحات بالخطرفة غير المسئولة ، فجاراه فيما يقول التزاما بمبدأ ان السكران في ذمة الواعي ، وبدأ لنا كمن يدافع عن شخصية ضيفة الكبير الطموح .

ثم صفت موائد الطعام للضيف من بعد ، فتساءل عن خلو المجلس من الجنس اللطيف !! وفي المدينة متسع لحاجة الجميع ، واضاف عفو الخاطر ان معسكر ثوار السمبا يضم مايربو علي الف امرأة ميسورة للراغبين ، ففي مدينة كهذه اذا قضي الرجل ليلته وحيدا ، فهو بلا شك بحاجة لمراجعة الطبيب !!

ضج المكان بعاصفة مدوية من الضحك علي ما ظنه القوم مزاحا وهذرا

جريئا بفعل الخمر ، ولكن نبرات العميد عيدي امين وترقبه لافادة مثمرة انبأ بغير ذلك ثم شفع تلميحه بطلب صريح للاتيان بامرأة حسناء تؤنس وحدته تلك الليلة ، ان لم تكن للآخرين نفس الرغبة !!

اثار ذلك الطلب ثائرة المقدم تاج السر والرائد يوسف ، فاستنكراه صراحة والغضب يأخذ منهما كل مأخذ ، ولم يخفيا على الضيف الكبير ان مطلبه ذاك يأباه الخلق السوداني الاصيل . فضحك الرجل وقال ملحا في الطلب :

ـ ولكني لست سودانيا !! علي العموم ساتصرف في الامر بطرقي الخاصة ، فقط ارجو ان تسمحوا لي بقضاء ما تبقي من الليل في ضيافة الجنرال اولنقا ، فهو لن يدخر وسعا في اكرام وفادتي .

ثم انفلت خارجا حتي قبل ان يسمع رد مضيفه المقدم تاج السر وتعليقه علي ماقال !! فلما عاد في الصباح الباكر كان بادي البشر والنشوة ، بما يوحي انه نال بغيته وقضي ليلة مترعة .

وإذ كان العميد عيدي امين يستعد لمغادرة المدينة عائدا لبلاده ، رأي ثلة من الكلاب الصغيرة تلتف حول امها ويداعب بعضها بعضا ، وكانت تخص الرائد يوسف ولم يمض علي ولادتها الا بضعة ايام لا تبلغ العشر ، فابدي الضيف اعجابه الشديد بها ، فطلب من الرائد يوسف ان يهديه جروا منها ، وعلل رغبته بجديه ووضوح بانه يتفاءل باقتنائه ويسعد بوجوده قريبا منه . فاعتذر الرائد يوسف بان الجرو صغير لا يقوي علي فراق امه في تلك المرحلة المبكرة ، فما كان من العميد عيدي امين الا ان قال في حسم :

ـ اذن سارسل طائرة عسكرية بعد اسبوعين لتأتيني به !!

وعقدت الدهشة السنتنا عندما حطت طائرة حربية بارض مطار المدينة في الوقت المحدد ، وافصح قائدها ـ وكان برتبة ملازم اول ـ انه وفد في مهمة محددة هي ترحيل الجرو المحظوظ لطالبه العميد عيدي امين !!

جاء الحدث اضافة تؤكد نفوذ الرجل العسكري داخل الدولة الاوغندية الشقيقة ، فلم يعد يخالجنا شك في ان ما حسبناه حديث سكر وليل ، لن تمحوه رابعة النهار ، وان العميد سيضع عاجلا او آجلا نقاط تصريحاته الجريئة فوق الحروف .

شهدت الايام التالية نماءا مطردا في علاقة الجنرال عيدي امين بقادة

القيادة الجنوبية وضباط حامية يي علي وجه الخصوص ، وفي سياق ذلك جري التعاون مع الاستخبارات اليوغندية ، فكان ضباطها يتبادلون معنا المعلومات والوثائق حول ممارسات المتمردين هنا وهناك ومراكز تجمعاتهم ونشاطهم التخريبي والجهات التي تدعم قواتهم وتؤازرها ، وفي هذا الاطار وجه عيدي امين دعوة لكل من المقدم / تاج السر والرائد يوسف لزيارة العاصمة كمبالا من اجل التفاكر حول الشئون الامنية والتعاون بين العسكريين في البلدين وتبادل الخبرات ، فلبيا دعوته وعادا يلهجان بالثناء علي اريحية الجنرال وكرمه الفياض وعنايته بتوثيق الصلات وتنسيق الجهود المشتركة لمواجهة حركات التمرد وكسر شوكتها مما اسفر عن نجاح كبير للزيارة .

وفي وقت لاحق ، حضر لزيارتنا احد الضباط اليوغنديين ، وزعم - ذرا للرماد علي العيون - انه موفد بتكليف من الجنرال عيدي امين ، ليطلب من احد الترزية في يي ان يفصل له مجموعة من الجلاليب علي الطريقة السودانية ، بعد ان لمس مزاياها في واحدة كان قد اهديها في زيارته الاولي للمدينة ، وكان المعني بهذا التمويه هم عيون ثوار السمبا التي ترصد تحركات العسكريين بين البلدين ، اما الهدف الحقيقي للزيارة فهو تبليغ رسالة شفوية من الجنرال يوضح لنا فيها ان الكنائيس في جنوب السودان اصبحت مراكز لتجارة السلاح ودعم المتمردين ، حيث يقوم قساوستها ورهبانها بدور الوسيط مستغلين حرمة الكنائس وبعد الشبهات عنهم !!

ولتأكيد فحوي تلك الرسالة الشفوية ، ابرز لنا الضابط اليوغندي الموفد قدرا من الصور الفوتغرافية والخرائط والتقارير والوثائق ، وقال ان الجنرال يري ضرورة التعاون وتبادل الزيارات والمعلومات بين قادة الحاميات في جنوب السودان وفريق من ضباط الاستخبارات اليوغندية ، فاستجاب المقدم تاج السر للطلب ، وانتدبني للمهمة ، فتوجهت برفقة ذلك الضابط الي مدينة (اروا) اليوغندية والتقيت بطائفة من رجال الاستخبارات العسكرية هناك ، وقد أثارت دقة معلوماتهم وشمولها بالغ دهشتي ، فهي ابدا مشفوعة بما يؤكدها من دليل ، وفيها تحديد دقيق للزمان والمكان والاشخاص والوسائل والظروف التي تكتنف تلك التجارة المحرمة في السلاح !! وغير ذلك من حقائق التمرد في المنطقة عامة والسودان ويوغندا خاصة .

عدت الي حامية يي ، بعد ان تم الاتفاق بيني وبين ضابط الاستخبارات اليوغنديين علي خطة امنية معينة ، ودبجت تقريرا ضافيا حول المهمة ونتائجها ، لم يقف عند حد العرض الموضوعي لمجريات اللقاء ومعطياته كما جرت العادة ، بل ضمنته جملة من الاقتراحات البناءة حول كيفية التعامل مع المتمردين واعوانهم ، لدرء اخطار نشاطهم التخريبي وعجم عودهم وهزيمة مخططاتهم التآمرية العميلة .

كان المقدم تاج السر والرائد يوسف قد توجها لمقابلة اللواء احمد الشريف الحبيب قائد القيادة الجنوبية في جوبا حين عدت من مهمتي تلك ، فانتهزت الفرصة وجعلت تقريري من صورتين احداها لقائد الحامية ، والاخري لسيادة اللواء احمد الشريف . وما كاد قائد القيادة الجنوبية يطلع علي محتويات التقرير حتي نال رضاه وبادر بارساله الي جهات الاختصاص ، كذلك تحمس له - الرائد وقتها - عبد الماجد حامد خليل اركانحرب عمليات القيادة الجنوبية ، واردفه بآخر يدعمه .

لكن للاسف فان قادة الخرطوم لم يتجاوبوا مع منطق العقل والعلم العسكري والحقائق الموضوعية لظروف التمرد في الجنوب ، فجاء ردهم امرا قاطعا بعدم التعرض للكنائس ورهبانها مهما كانت الاسباب والدوافع ، فوضعوا بذلك مزيدا من الاغلال حول ايدينا ، ولم نملك الا الرضوخ لمشيئتهم ، وجري ماء الحياة في عروق الخوارج ، واضحت الكنائس قلاعا حصينة للتآمر والفتنة ، من دخلها فهو آمن ، وان كانت يداه تقطران بدم الضحايا والابرياء .

اذكر انه كان يتردد علي حاميتنا احد قساوسة كنيسة (لاارومبا) الشهيرة ، علي بعد اربعين كيلومترا علي طريق يي - مريدي ، وكانت تربطه بالملازم حسن خليفة احد ضباط الحامية علاقة ود وصداقة ، فظل ذلك القسيس يظاهرنا بمقته الشديد وعدائه السافر لكل الاجانب البيض والاستعمار البريطاني بصفة خاصة ، لدوره المفضوح في اشعال نار الفتنة وبذر الشقاق بين ابناء الشمال والجنوب ، بل ان الرجل ما فتيء يردد انه من المؤمنين بالانجيل الحق ، الذي جاءت فيه البشري برسول الاسلام محمد (صلعم) !! ومن ثم فهو مؤمن به مصدق لرسالته برغم تجرده للتبشير بالمسيحية ، وزعم انه يؤمن بوحدة التراب السوداني ايمانا مطلقا ويدين المخططات الرامية لتمزيق اواصر الاخاء بين ابنائه

في الشمال والجنوب ، ولتأكيد وده ومزاعمه المعسولة حرص علي ان يحمل الينا في زياراته المتعاقبة كميات وافرة من عسل نحل منطقة لاروميا علي سبيل الهدية او بثمن زهيد ، وبهذا وغيره استطاع ان يكسب ثقتنا ويخدر مشاعرنا متوسلا للعقول بالبطون !! وكانت فرحتنا بزياراته ولقاءاته الودية عظيمة لا تحد ، وهو من جانبه اشد حرصا علي انماء تلك الصلات وتوثيقها ، فلا يمض اسبوع الا ويحل بيننا ضيفا عزيزا مرجو النوال ، وقد درجنا علي تكريمه والاحتفاء بمقدمه في كل حين ، ومن آيات ذلك اننا كثيرا ما نقضي شطرا من الليل معه في سمر عفوي نكسر به حواجز الرتابة والضجر ، فتنطلق السنتنا من عقالها تضرب في كل واد بغير تحفظ ولا حرج ، حتي الاسرار العسكرية تتناثر في طيات الحديث وتختلط بصخب السامرين ، ولكنها تستقر في حافظة الرجل علما نافعا ومعلومات مفيدة !! وخاصة ما تعلق منها بامر شحنات الاسلحة وانواعها وسبل ترحيلها وتسليمها .

كانت معظم اطواف ترحيل الاسلحة تتعرض لكمائن الخوارج المتربصين وهجماتهم الغادرة ، ونجحوا في كثير منها في الاستيلاء علي ما تحمل من سلاح ومعدات وذخائر ، واكثر ما يحدث ذلك حين توكل قيادة الطوف لثوار السميا ، فلم يدر بخلدنا ابدا ان يكون صديقنا القسيس هو مصدر معلومات الخوارج ، فقد كانت حبال الود بيننا وبينه تزداد مع الايام قوة ومتانة ، والي جانب هداياه ومشاعره النبيلة الدافقة ، ما برح ياتينا بقطع من السلاح يزعم انه اخذها من بعض المتمردين الذين قصدوا كنيسته كدأبهم مع الكنائس الاخري ، ولكنه استطاع ان يقنعهم بالاقلاع عن مواصلة التمرد وحمل السلاح ضد اخوتهم في الوطن ، والعودة الي الحياة الآمنة المطمئنة في رحاب قراهم واسرهم ، وتسليم اسلحتهم للدولة !! ولانهم يخشون بأس افراد الجيش وبطشهم ، فقد تركوا له مهمة تسليم الاسلحة وعادوا الي مناطقهم مؤمنين بوحدة الوطن والشعب .

ومن عجب عجاب ..

كنا نصدقه ونثني علي مجهوداته القيمة المقدرة !! حتي كان يوم تسلمنا فيه رسالة من الاخوة اليوغنديين ، يطلبون منا ايفاد ضابط مسئول ، للالتقاء بهم علي الحدود عند مشارف حامية كايا ، بغية التشاور حول امر عاجل وهام ،

وكنت انا ذلك الضابط ، فصعقتني الدهشة وهم يؤكدون بالدليل ان حشدا من الخوارج يتجمعون في كنيستي تورلي ولاروميا ، تأهبا للانقضاض علي مدينة يي واحتلالها ، بمعاونة عناصر تتدثر بزائف الولاء للحكومة ، منها مفتش المركز الجنوبي وضابط السجن والمساعد الطبي بالمستشفي وآخرين !!

فوجئنا صبيحة اليوم التالي بهروب مفتش المركز والمساعد الطبي ومعظم المسئولين الجنوبيين !! فاسقط في ايدينا وادركنا الذهول ، وغضب الرائد يوسف لفوات فرصة المبادئة وتعرض المدينة للخطر .

في مساء ذلك اليوم قدم الي يي الطبيب الجراح النذير فضل المولي [illegible]ـيله الطبيب جميل ، ليتفقدا حال المستشفي الذي اصبح خاويا الا من حالات المستعصية وبقايا الاسرة والاثاث ، وشاءت الاقدار ان يحضر بعض ثوار [illegible] قد بقرت بطنه وبرزت احشاؤه للعيان ، ولكنه مايزال يتعلق باهداب [illegible]ـلب الموت الذي يحدق به من كل جانب ، حدث مرافقوه عن ظروف اصابته القاتلة بان الرجل كان في طائفة من ثوار السمبا تقارب المائة وهم يحملون سلاحهم وعتادهم من مريدي الي ياي ، عن طريق رأس اولو ولاروميا ، فاستوقفهم كاهن الكنيسة واكرم وفادتهم بلحم ماعز ومريسة ، ولكن ما ان اكلوا وشربوا حتي راحوا في سبات عميق وغيبوبة تامة ، فقد وضع لهم مخدر قوي المفعول في الشراب ، ثم اعمل فيهم الراهب ومن معه سيف الغدر فقضوا عليهم واستولوا علي اسلحتهم ومعداتهم ، فلما انصرفوا عنهم تسلل ذلك الرجل زاحفا بين القتلي حتي ادرك الطريق ، ومضي يصارع آلالام الي ان عثر عليه نفر من السمبا فحملوه سراعا الي (يي) .

وجهنا للرجل المصاب قدرا من الاسئلة حول ذلك الراهب في لاروميا الذي استدرج القوم وفتك بهم ، وكم كان دهشتنا حين تطابقت اوصافه مع صديقنا القسيس المؤمن بالاسلام ووحدة السودان وشعبه !! وجاء ذلك نذيرا بصدق ما اورده اخوتنا اليوغنديين حول ما يراد بالمدينة ويدبر لها في الخفاء .

جري ذلك كله في دقائق معدودات ، امضاها الجراح البارع النذير فضل المولي في اعداد غرفة العمليات وهو يأمر معاونيه بكل امر يستلزمه اسعاف الرجل ودرء خطر الموت عنه ، كان الليل قد ارخي سدوله علي الكون آنذاك ، وفوجئنا من جديد بخلو المستشفي من المعدات والاضاءة اللازمة ، فاستعان

الجراح بما يحمل في حقيبته من معدات جراحية قليلة وقام باجراء العملية بمعاونة الدكتور جميل تحت ضوء مصباح عادي ، واستغرق اجراء العملية زهاء الساعتين او يزيد قليلا ، ثم حمل الرجل الي غرفة الانعاش حيث لازمه بعض الجند في شكل نبوتجية . وجاءت عناية الله تعالي مؤكدة لبراعة الدكتور النذير وشاهدا علي عظيم نبوغه ، فنجحت العملية وتماثل المصاب لاولي درجات الشفاء في اليوم التالي ، وفي اليوم السابع كان بين الاحياء يضحك ويرزق !!

تفجرت في نفوسنا براكين الغضب ، وتراكمت فيها دوافع الثورة علي تلك الحال ، فلم نعد نأبه لأوامر القيادة الجنوبية المكبلة بارادة الحالمين في الخرطوم والقاضية بعدم المساس بالكنائس المسيحية وقساوستها حتي لو ثبت جرمهم وتآمرهم !! ولهذا عول الرائد يوسف علي العمل بوحي من فكره وضميره في مواجهة حركة التمرد ومن يقف وراءها ، فامر بارسال قوة تستكشف طريق يي - مريدي مرورا بكنائس تورلي ولارومبا ، وقمت بوصفي اركانحرب العمليات بتجهيز الطوف بقيادة الملازم ابراهيم حسن ، ورجع هذا بعد يومين ليؤكد افادات المخابرات اليوغندية ، ويقطع بتورط صديقنا راهب كنيسة لارومبا في عمليات الغدر والتآمر ، وجاء في حديث الملازم قائد الطوف ، ان ذلك الراهب قد حرص علي لقائه في قارعة الطريق ولم يسمح له ولا لافراد قوته بدخول حرم الكنيسة ، ثم عمل علي اقناعه بمغادرة المكان بذريعة الخوف من اثارة شكوك عيون المتمردين في علاقته بالقوات المسلحة النظامية !!

ولكن الملازم ابراهيم من موقعه علي الطريق قد لاحظ وجود اعداد غفيرة من الخوارج وهم يحاولون التخفي بين جوانب الكنيسة ومبانيها الممتدة ، كما لاحظ وجود ملابس عسكرية معلقة علي حبال الغسيل في باحة الكنيسة ، ولاحظ ايضا وجود تجهيزات عسكرية حديثة التكوين تتمثل في خنادق ومتاريس وغير ذلك !!

وقف الرائد يوسف علي هذه الحقائق الدامغة وامرني علي اثرها ان اجهز قوة مناسبة لتفتيش كنيستي تورلي ولارومبا متجاوزا اوامر وتعليمات القيادة الجنوبية وليكن بعد ذلك مايكون ، وحدد لتحرك تلك القوة باكورة صباح اليوم التالي مباشرة .

اكملت تجهيز القوة من سرية مشاة تدعمها اربع مدرعات واربع مدافع

هاون عيار ستين مليمتر ، واحتطت للظروف بكميات كبيرة من الذخيرة وخاصة ذخيرة المدرعات والهاون ، وقبيل تحركنا حضر المقدم عبدالله محمد عثمان من جوبا في طريقه الي مريدي التي نقل اليها حديثا من مدرسة المشاة ، فابدي رغبته في مرافقة القوة ، ولكن المقدم تاج السر المقبول نصحه الا يصحبنا متعللا بخطورة الطريق والمهمة فلا ينبغي ان يعرض نفسه لخطر الاستشهاد قبل ان يبلغ محطة عمله الجديدة ويتولي مهام منصبه فيها ، غير ان المقدم عبد الله اصم اذنية عن كل نصح ، واصر علي مصاحبتنا مهما تكن العواقب !!

فتحركنا باسم الله والوطن نبتغي الحرب في دور كان ينبغي ان تكون معاقل للاخاء والسلام ، ولكن قساوستها اضرموا نار الشقاق والدمار ، وبذروا مكان المحبة جرثومة الحقد الاسود ، وظلوا في نهم وتعطش لدماء الضحايا والشهداء ، علها تطفيء نار ضغائنهم المستعرة في طيات الصدور .

توقف زحفنا قريبا من كنيسة لارومبا في مواجهة مدخلها العتيق وذلك لنستجمع قوتنا ونرتب خطة التقدم علي ارض الواقع ، كانت كنيسة (لارومبا) حصينة واسعة الارجاء ، محاطة في بعض جوانبها المكشوفة بالمتاريس والخنادق ، فلم يخامرنا شك في مناعة دفاعاتها الداخلية في تلك الظروف .

ثم امرني المقدم عبد الله ـ بعد تفكير عميق ـ بان اخترق بالمدرعات في سرعة مباغتة حرم الكنيسة لاصل الي المبني الرئيسي فيها ، علي ان يتبعني مباشرة بسرية المشاة لمفاجأة قوات العدو ان وجدت .

نفذت الامر ، وانطلقت بالمدرعات صوب الكنيسة ، ففوجئنا بنيران الخوارج تمطرنا من كل جانب ، وواصلنا اندفاعنا تحت وابل الرصاص والقذائف حتي بلغنا مبني الكنيسة الرئيسي اخيرا ، وجاءت علي اثرنا سرية المشاة لتحتل المبني من الداخل بعد ان طهرته من جيوب المقاومة المتمردة ، واتخذت المدرعات وعربات السرية مواقعها عند سواتر كان الخوارج قد اعدوها باحكام للدفاع ، واستمر تبادل اطلاق النار ساعة كانها الدهر ، حتي اذا شعر المتمردون بتفوق قواتنا وفداحة الخسائر التي تكبدوها ، عمدوا الي الفرار جماعة اثر اخري حتي خرست مواقعهم تماما عن كل حركة وصوت . ثم انهالت علينا فجأة قذائف مدفعية مكثفة ومركزة علي صرح المبني الذي اخذ يتهدم من فوق جنودنا وتطايرت احجاره وكتل بنائه في كل اتجاه ، فلم نجد سبيلا للتقدم او الانسحاب

، واعمل المقدم عبد الله عقله في ظل الخطر المحدق سريعا واصدر امره لي بمهاجمة مواقع مدفعية العدو واقتحامها بمدرعاتي واسكاتها الي الابد .

اصدرت اوامري للقوات المدرعة عبر جهاز اللاسلكي (B. 47) فلم الجأ لطريقة الضرب مع الحركة ، بل الهجوم في قول منتشر وبسرعة فائقة ، ونفذ الجنود الامر بدقة وجرأة وبسالة ، فلم تمض الا بضع دقائق حتي حالفنا التوفيق ونجحنا في المهمة الخطيرة وشققنا طريقنا من بعد عائدين الي ان وصلنا مبني الكنيسة حيث تربض سرية المشاة والمقدم عبد الله في تأهب واستعداد . كانت قوات الخوارج الرئيسية تحتل المباني المتفرقة حول الكنيسة ، ومنها اخذوا يراشقوننا بالنيران حتي تحولت الارض الممتدة بيننا وبينهم الي ارض قتل لصالح عدونا ، فلم نحاول الانسحاب ومكثنا في مواقعنا نناوشهم بالنيران بحساب ومقدار ، حذر ان تنفذ ذخيرتنا ونحن فيما يشبه الحصار ، بينما يتمتع الخوارج بارض واسعة للمناورة والامداد .

بدا لنا ان العدو في موقف يغريه بمواصلة الضغط وطول الحصار ، فشرعنا نتلمس لانفسنا اسباب البقاء .

مرت علي ذلك ساعة من زمان ونحن محصورون داخل الكنيسة ، وعلي حين فجأة ارتفع علي البعد منا علم ابيض ، وصوت يصيح باللغة الانجليزية يدعو للتفاوض بين الجانبين ، فخشيت ان يكون الامر مكيدة مدبرة وحذرت المقدم عبد الله ، ولكنه استجاب للنداء وطلب مني ان اصحبه لمفاوضة العدو الشقيق ، فرجوته ان يترك لي تدبير الامر في ذلك اللقاء فلم يمانع ، عند ذلك اصدرت امرا لمدرعاتي بتصويب نيرانها في خط ثابت حيث سنتجه للتفاوض ، كما امرت مدفعجية الهاون ان يصوبوا مدافعهم في ذات الاتجاه .

ثم صحت اخاطب العدو لاحدد مكان التفاوض وعدد المفاوضين ، فجاءنا صوت من الطرف الآخر يقول :

- سيحضر لمفاوضتكم اثنان منا ، هما القائد ومعاونه ، وبالمثل نطلب منكم أن يخرج القائد ومعاونه لاجراء المفاوضات .

كان الصوت ياتينا من وراء جدار مبني مهدم غير بعيد ، وبعد قليل ظهر اثنان يخطوان نحونا في تؤدة وحذر ، وساد صمت ثقيل مشحون بالترقب والانفعال ، فتحركنا المقدم عبد الله وانا في معيته نحوهما ونحن نتوقع كل

غدر وخيانة ، فلما تواجهنا في المكان المعين الفينا احد الرجلين برتبة اللواء والاخر برتبة العميد .

تحدث الينا الرجلان بلغة انجليزية ركيكة ليطلبا منا التسليم دون قيد او شرط !! فاستنكرنا هذا الطلب ، وسخرنا منها زاعمين اننا قادرون علي مواصلة الصمود والحرب واحراز النصر ، فتراجعا عن الطلب قليلا وعرضا علينا الانسحاب الي يي سيرا علي الاقدام بعد تجريدنا من الآليات والسلاح والعتاد ! وبذلا لنا الوعد بالا يتعرضوا لقواتنا المنسحبة العزلاء، وقال اللواء في بسط هذا الخيار :

ـ هذا وعد اعدكم به ، فاذا رفضتم قبوله فليس امامكم سوي الموت جوعا وعطشا وقصفا لايبقي ولا يذر .

فرد عليه المقدم عبد الله :

ـ الموت اهون علينا مما تطلبون .

فاستشاط اللواء المتمرد غضبا وعاد ادراجه في خطوات حثيثة وما ان تواري خلف الساتر حتي انطلقت نيران جنوده صوبنا وصوب قواتنا داخل الكنيسة وفي نفس الوقت رفعت انا يدي لجنودنا ملوحا باشارة اطلاق النار فارسلت المدرعات ومدافع الهاون قذائفها نحو مواقع المتمردين ، وعدونا انا والمقدم عبد الله مسرعين في اتجاه الكنيسة تحت صيب من الرصاص والحمم المتفجرة وكانت عناية الله بنا اكبر من طائش الرصاص ، حتي بلغنا حمي قواتنا سالمين .

فجع الخوارج وثارت ثائرتهم وجن جنونهم فاعدوا عدتهم لهجمة شرسة فاصلة بينما كانت ذخيرتنا تهدد بالنفاذ ، فامر المقدم عبد الله بالا نطلق النار الا عند اقتراب العدو اقترابا يمكن من اصابة الهدف في مقتل اكيد ، وبدأ المتمردون يطلقون النار تجاهنا وهم يتقدمون في بطء وحذر ، فلما رأوا صمت اسلحتنا عن الرد عليهم ، وقع في روعهم ان ذخيرتنا قد نفذت تماما ، فاندفعوا زرافات وصفوفا متراصة نحو الكنيسة يتصايحون في فرح وحقد وشعور بالظفر ، حتي اذا اصبحوا علي بعد خمسين ياردة من مكاننا صدر امر المقدم باطلاق النيران فتساقط جند الخوارج قتلي وبينهم قائدهم اللواء ومعاونه وانقلب الناجون منهم علي اعقابهم خاسرين .

ما كاد ينجلي غبار المعركة ، حتي اقبل علي المقدم عبد الله وهزني من كتفي وهو يقول بانفعال باد :

ـ اشكرك لاستجلاب هذه الكمية الوافرة من الذخائر ، وكأنك تستقريء الغيب .

قلت له مازحا :

ـ ده من تعاليمك لينا ياسعادتك .

فضحك المقدم راضيا منتشيا بما قلت ، ولم اكن اجاوز الحقيقة في ذلك ، فهو احد اساتذتي بالكلية الحربية ومن ثم في فرقة مدرسة المشاة الحتمية بجبيت

اصدر المقدم امره بالاستعداد للاختراق والرحيل الحثيث في جنح الظلام وكانت السماء لحظتئذ ملبدة بالغيوم والسحب ، وبين فينة واخري يومض برق خاطف يمزق غلائل عتمة الليل الوليد ، ثم اخذ قصف الرعد يتوالي ويصم الآذان ، وقبيل موعد انطلاقنا تفتحت ابواب السماء بماء منهمر ، فلما ازف وقت الرحيل رفع المقدم عبد الله عقيرته بالامر :

ـ تقدم

فاندفعنا بمدرعاتنا وآلياتنا ومدافعنا وما تبقي لنا من ذخيرة واحس العدو بهدير الآليات وازيز العربات وعاد يمطرنا نارا كقطر الماء المتدفق من عنان السماء ، ففذونا السير حتي بلغنا طريق مريدي ، وانطلقنا عليه لا نلوي علي شيء ، وعند الساعة الثالثة من فجر اليوم التالي كنا علي مشارف حامية (راس اولو) فتلقانا قائدها الملازم السر الشيخ وجنوده واكرموا مقدمنا بما استطاعوا في تلك الساعة المتأخرة ، بعد ان ادرك حاجتنا لقسط من الراحة والنوم اثر عناء طويل ، ثم تحركت ركائبنا في رابعة النهار نحو مريدي ، نرومها نحن نزلا موقوتا ، ويبتغيها المقدم عبد الله موئلا لحين من الدهر ، وهناك رحب بنا العقيد صلاح حامد صالح الملك قائد الحامية والرائد سعد بحر يوسف اركانحرب العمليات وكان قد نقل للحامية حديثا من الخرطوم . وجري بعد وصولنا تبادل الاشارات والافادات بين حامية مريدي ورئاسة القيادة الجنوبية في جوبا ومقر حاميتنا بيي ، فتقرر من خلالها ان تشكل قوة من فصيلتين واربعة مدرعات اضافة الي قوتنا السابقة وتوضع كلها تحت قيادتي لتعاود الهجوم علي كنيستي تورلي ولارومبا ثم نرجع الفصيلتان ومدرعاتهما الي مريدي واعود انا

بقوتي الي يي .

كان علي رأس فصيلتي مريدي - تحت قيادتي - الملازم جبر بابو نمر ، فانطلقنا صوب وجهتنا نبتغي احد الحسنين النصر للوطن او الاستشهاد في سبيله ، وكم كانت دهشتنا ونحن نجد الكنيستين خاويتين علي عروشهما الا من معدات غير عسكرية ، فقمت بتوزيع القوات بينهما وامرت بالبقاء فيها يوما كاملا تحسبا لعودة الخوارج الذين اضحوا هدفا مشروعا بعد الذي كان ، ولكن احدا منهم لم يظهر ، فتبادلنا الرسائل اللاسلكية مع قيادات يي ومريدي وجوبا ، وتلقيت الامر بقيادة قواتي الي يي ، وتوجيه قوات مريدي بالعودة اليها فورا

صدعت بالامر وعدت ادراجي الي الحامية في يي ، وقد ترسبت من وحي تلك الاحداث في نفسي ووجداني قناعة بان الاخوة الرهبان المبشرين بدين السيد المسيح وتعاليمه ليسوا كلهم محض شر ولاهم جميعا خير صرف ، وان تزيؤوا بازياء الحواريين وارتدوا مسوح الرهبان !!

بل هم كما وصفهم القرآن الكريم اذ يقول :

{ومن اهل الكتاب من ان تأمنه بقنطار يؤده اليك ومنهم من ان تأمنه بدينار لا يؤده اليك الا مادمت عليه قائما * ذلك بانهم قالوا ليس علينا في الاميين سبيل ويقولون علي الله الكذب وهم يعلمون} . صدق الله العظيم

في طريق عودتنا الي يي ، واذ نحن علي مشارف المدينة ، اثار دهشتنا مشهد طائرتين كنغوليتين عسكريتين تحلقان علي ارتفاع منخفض ، ثم اخذتا تدوران حولنا بغير اكتراث ، وبدا لنا انهما تستكشفان حجم قوتنا وما لديها من عتاد وآليات ، فساورني من ذلك شيء من قلق فامرت القوة - عبر اجهزة المدرعات اللاسلكية - باتخاذ وضع تشكيل الدفاع المتحفز ، كما امرت باطلاق نيران مدافع المدرعات (البراوننق) اذا ما عاودت الطائرتان التحليق والاقتراب .

وسرعان ما تبدي صدق ذلك الشعور بالقلق الذي خامرني منذ لحظات ، فاندفعت الطائرتان نحونا في شكل هجوم منقض ، وهما تمطراننا وابلا من نيران مدافعهما الرشاشة ، وبادلناهما نيرانا بنيران ، بل كلنا لهم الصاع صاعين حيث اشترك في الاطلاق كل افراد القوة حتي المشاة منهم ، رغم علمهم بعجز طلقاتهم عن بلوغ مرمي العدو ، وكان ردنا مفاجئا وقويا جعل الطائرتين تنكصان علي عقبيهما حتي غابتا عن الانظار وتلاشي هدير محركاتهما عن الاسماع . عند

ذلك خرج الجميع من خلف السواتر وهم يتصايحون في فرح ونشوة غامرة . وكأنهم قد احرزوا نصرا جويا حاسما في معركة فاصلة .

ولعل شعوري كقائد للقوة بالظفر كان اعظم واكبر ، ففي ذروة المشاعر الملتهبة التي طغت علي الجميع ، عادت بي الذاكرة الي ايامي الخوالي بسلاح المدفعية وتدريب الدفاع الجوي ، وكيف كنا نوجه فوهات مدافعنا المضادة في خفة ومهارة علي طائرات وهمية افتراضية نتصور انقضاضها علينا من مختلف الاتجاهات والمسافات ، فنتتبعها باوامر ضربنار ، وكم كنا نتحرق شوقا ولهفة ليوم تتحول فيه الاهداف الوهمية والعدو المفترض الي كيانات ماثلة حية ، تقارعنا كؤوس المنية وتصطلي بنار قذائفنا التي ترج الارض رجا ، وبرغم قناعتنا بمهنة الجندية وما تتطلبه من مهارات وتدريب وخلق مميز نحو الارض والشعب والنفس ، الا ان احدا منا لم يكن ليعرف كيف ومتي يكون اللقاء الحتمي بطيران العدو علي ارض الواقع والحقيقة ، بل ربما لا تتح لبعضنا ابدا فرصة لمثل ذلك اللقاء الحلم ! فيبقي كذلك الي ان يترك الخدمة العسكرية ، او ينقل من السلاح الي سلاح او وحدة اخري ، فيغدو ما تزود به من تدريب وعلم ترفا مهنيا ، وتتباعد بينه وبين اللقاء المرتجي المسافات والمسالك .

كنت احسبني سانضم الي زمرة هؤلاء بعد نقلي من سلاح المدفعية ، ولكن هاهي الظروف تعيدني الي سوحه فجأة بهذا الاشتباك الجوي المثير الذي تجاوبت معه بكل ذرة في كياني وكل خلجة من مشاعري الحبيسة ، وهي مشاعر لايعرفها ويدرك كنهها الا رفاق السلاح!!

تضاعفت دهشتنا ونحن ندخل فجاج مدينة (يي) فقد الفينا الناس فيها عسكريين ومدنيين ووافدين علي حال من الهرج والمرج والغليان ، فظننا - باديء الامر - ان ذلك وليد خراب احدثته الطائرتان في المدينة ، ولم نعرف الحقيقة حتي بلغنا موقع الحامية ، حيث فوجئنا بنبأ هجوم القوات الكونغولية علي منطقة (لاسو) في محاولة منها لاحتلال المنطقة والسيطرة عليها والتقدم منها الي مدينة يي ، وقد حدث ذلك الهجوم الغادر بينما كانت القوات الكونغوليه تطارد ثوار السمبا وتتعقبهم داخل الاراضي السودانية لاجتثاث جذورهم ومداهمة مواقعهم وقوادهم في - لاسو - ويي - ، بعد ان الحقت بهم خسائر فادحة تجلت في مشاهد الجرحي والقتلي الذين تمكن رفاقهم من اخلائهم عن ارض

المعركة ، وقد جري كل ذلك في غياب قائد منطقة يي المقدم تاج السر المقبول وقائد حاميتها الرائد يوسف احمد يوسف ، اللذين توجها الي جوبا تلبية لاستدعاء قائد القيادة الجنوبية للتشاور معهما حول الموقف الامني والعسكري .

كان في - ياي - وقتئذ - خمس سرايا مشاة وبطارية مدفعية مضادة للطائرات ، وبالرغم من ان الهجوم الكونغولي علي لاسو قد مضي عليه قرابة الست ساعات ، الا ان المفاجأة قد شلت تفكير قادة السرايا ، واعجزتهم عن التصرف ، خاصة وقد كانوا في معظمهم من اولئك الصفوفيين (Rankers) ، فلم يأخذ الضابط الاقدم فيهم بزمام الموقف ويحرك قوات - يي - لصد الهجوم الكونغولي ومنعه من التقدم !! وباستفساري عن السبب - بوصفي اركانحرب العمليات - افادني مساعدي في عمل الاركانحرب الملازم ابراهيم حسن بان هؤلاء القادة قد اعتذروا عن تحمل مسئولية قيادة القوات ، فلم يسبق لاي منهم قيادة قوة تجاوز حجم السرية ، اما قائد بطارية المدفعية المضادة للطائرات فقد اعتذر بانه مقيد بحدود واجبه الفني المتمثل في قيادة بطاريته لا غير .

رأي الجميع في تلك الظروف ضرورة افادة قائد المنطقة وقائد الحامية بمجريات الاحوال من خلال اشارة عاجلة ، وانتظار عودتهما من جوبا لقيادة العمليات واتخاذ التدابير اللازمة ، فتساءلت محرضا :

- هل ينتظر العدو وصولهما الميمون ، ام انه سيواصل زحفه المظفر ؟!

وأتي السؤال اكله سريعا حيث كان يقف الي جانبي كل من الملازم ابراهيم حسن والملازم محمد البلة حمزة الذي بدا عظيم الانفعال بالحدث فاجاب :

- قطعا سيواصل العدو تقدمه واستغلال نجاحاته والظروف المواتية ، ولا أشك لحظة في وقوع يي في قبضته قبل وصول القادة !

قلت : وقد اطمأننت لنتائج ذلك السؤال التحريضي .

- اذن علينا ان نعمل فورا علي صد هذا الهجوم الغادر مهما كانت التضحيات .

وتساءلوا : ولكن كيف السبيل لاقناع قادة السرايا بهذا التوجه النبيل ؟

قلت : انا - بوصفي اركانحرب العمليات - ساصدر امرا من خلال (دفتر الدور الدائر) ادعو لاجتماع قادة السرايا في مكتب القائد للتنوير ، ولكني في الحقيقة سأضع خطة عمليات انتحارية تقضي بتخصيص قوة مكونة من عشرة

فصائل اضافة الي فصيلة المدرعات ، ولسوف يتم تكوين هذه القوة من سرايا المشاة ، فصيلتان من كل سرية من السرايا الخمس ، بحيث نترك لقائد السرية فصيلة واحدة تحت قيادته ثم نأمرهم بتامين مدينة يي وسأكون من الفصائل العشرة قوة ثلاث سرايا بكل ثلاث فصائل ، احداها تحت قيادتي ، والثانية تحت قيادتك انت ايها الملازم ابراهيم حسن ، والثالثة تحت قيادتك انت ياملازم محمد البلة ، اما الفصيلة العاشرة مع فصيلة المدرعات فستكونان بمثابة قوة احتياطي هجوم : وهذا يعني ان المشاة ستتقدم المدرعات في تشكيل هجوم منتشر لوجود الغابات الكثيفة الممتدة ، علي ان تدعم المدرعات اي قوة تتعرض لمقاومة العدو ، هذه خطة الهجوم العمومية ، سأقوم بعمل تقدير موقف اوفي ووضع خطة عمليات اكثر دقة وتفصيلا ، واصدارها للقادة عند اجتماعهم المرتقب ، وانا جد واثق من تقبل القادة وانصياعهم للامر رغم أني الاحدث رتبة .

راقت الخطة للاخوين ابراهيم حسن ومحمد البلة ووافقاني تماما علي ضرورة الاخذ بها في مواجهة الظروف ، وخرجنا عاقدي العزم علي تنفيذها .

في مكتب القائد جري كل شيء وفق ما خططنا له من قبل ، وقد كانت البداية حضور قادة السرايا لمكان الاجتماع ، ولم ادع لهم وقتا للتفكير وتقدير الاولويات والرتب ، فتصنعت الحزم والصرامة واصدرت علي الفور اوامر العمليات فانصاع لها الجميع بغير جدال ، وتحركنا بقواتنا صوب لاسو حثيثا ، وهناك بدأنا هجومنا الانتحاري الشرس في مواجهة القوات الكونغولية ، وللامانة والتاريخ أسجل هنا موقفا شجاعا رائعا للملازمين ابراهيم حسن ومحمد البلة حمزة وقواتهما الباسلة المقدامة ، فقد كانوا جميعا في غابات لاسو وحدود الكنغو ليوثا ضارية لا ترهب الموت او تحرص علي الحياة ، وكنت اتولي قيادة الهجوم من القلب ، وعلي الجناح الايمن الملازم محمد البلة ، وعلي الجناح الايسر الملازم ابراهيم حسن ، فدارت بيننا وبين القوات الكونغولية معركة حامية الوطيس ، زأرت خلالها المدافع وعوت البنادق وزغردت الرشاشات وثار النقع فوق الرؤوس ، وتقدمت المدرعات الصفوف عند كل عقبة او مقاومة ، وكم اجهضت للعدو من حملات غير متوقعة ، وفي غمار ذلك تعالت صيحات الجند الحماسية واختلطت بصرخات الالم ودوي القذائف ، استمر ذلك لاكثر من ثلاث ساعات كأنها الدهر .

ونحن ندحر فلول المعتدين مرة بعد اخري ، فلما كثر فيهم القتل والنكال الشديد ولوا الادبار ونحن نتقدم نحوهم في ثبات وجرأة ، تلاحقهم خطواتنا المتئدة الواثقة وهم يلوذون بالفرار حذر الموت الزؤام .

عند ذلك امرت بالتوقف واعادة تنظيم القوة وقفلنا راجعين بعد تأمين حدود البلاد الي لاسو لندعم امنها من كيد المعتدين . ثم ارسلنا برقية النصر الي قائد القيادة الجنوبية وقادتنا معه في جوبا ، وارسلنا اشارة اخري الي رفاقنا في يي فلحقوا بنا جميعا في صبيحة الغد ، واضحينا بينهم ابطالا معززين .

اسفر هجوم القوات الكونغولية علي منطقة لاسو عن تطورات ايجابية في مجال الامن والقدرة القتالية ، اذ امر قائد القيادة الجنوبية بدعم قوة المنطقة المعتدي عليها ببطارية من مدفعية الميدان ، اضافة الي سرية مشاة اسندت قيادتها فيما بعد للملازم محمد البلة تقديرا لموقفه الشجاع وكفاءته المشهورة !! فلم يكن ذلك الا من قبيل جزاء سنمار ، حيث كوفيء علي بسالته ومواهبه القيادية الفذة وانتصاره العظيم بوضعه في فوهة البركان ومكمن الخطر ، فمنطقة لاسو ـ يومئذ ـ كانت الاكثر عرضة لهجمات القوات الكونغولية بين حين وآخر ، وهذا ما جعل البعض يطلق عليها تجاوزا اسم (لاوس) وهكذا بقي ود البلة قرابة نصف عام او يزيد في ذلك المرجل يصلي نار العدو آناء الليل واطراف النهار ، فكان كالمعدن النفيس تزيده النار صفاء والقا وبريقا ، واثبت لرفاقه وقادته مزيدا من الكفاءة والشجاعة والصبر علي المكاره ، ومع ذلك فقد تعرض هذا الضيغم الهصور للفصل التعسفي من قواتنا المسلحة لاسباب سياسية !! واضطرته الظروف من بعد للعمل بجيش دولة الامارات العربية ، في وقت كانت فيه قواتنا المسلحة في مسيس الحاجة لامثاله وهم كثر .

لم يقف اثر الهجوم عند ذلك الحد ، فقد قام قائد القيادة الجنوبية بتحرك استراتيجي كبير تجاه المسألة الكونغولية ، وطالب القيادة العامة باقناع حكومة الخرطوم بوقف دعمها لنشاط ثوار السمبا بعد ان اضحي يشكل خطرا كبيرا علي الامن في الجنوب ، الا ان الحكومة ـ فيما يبدو ـ لم تكن تري او تسمع سوي شعارات الثورة التقدمية والنضال الافريقي !! كيف لا وبين اعضائها اثنان من ابناء الجنوب عرفا بالتطرف والغلو وهما السيد كلمنت امبورو الذي كان يتولي منصب وزير الداخلية والسيد ازبوني منديري الذي كان وزيرا للمواصلات

ولكن رغم كل ذلك ..

ارتفعت داخل مجلس الوزراء بعض الاصوات الوطنية الناضجة المدركة ، ونادت باتخاذ قرار يرعي مصالح البلاد وامنها وسلامة قواتنا المسلحة ، ويأتي السيد محمد جبارة العوض في طليعة هؤلاء ، وكان يتولي اعباء وزارة شئون الرئاسة ، ولما كان اكثر الاصوات اهتماما بالامر ومطالبة بالتحقيق فيه ، فقد اصدر رئيس الوزراء قرارا بتكليفه بزيارة معسكرات اللاجئين في - يي - والتعرف علي موقفهم العسكري والسياسي وما ينتج عنه من آثار امنية ، ومن ثم كتابة تقرير مفصل بذلك لمجلس الوزراء لاتخاذ الاجراء المناسب بشأنهم .

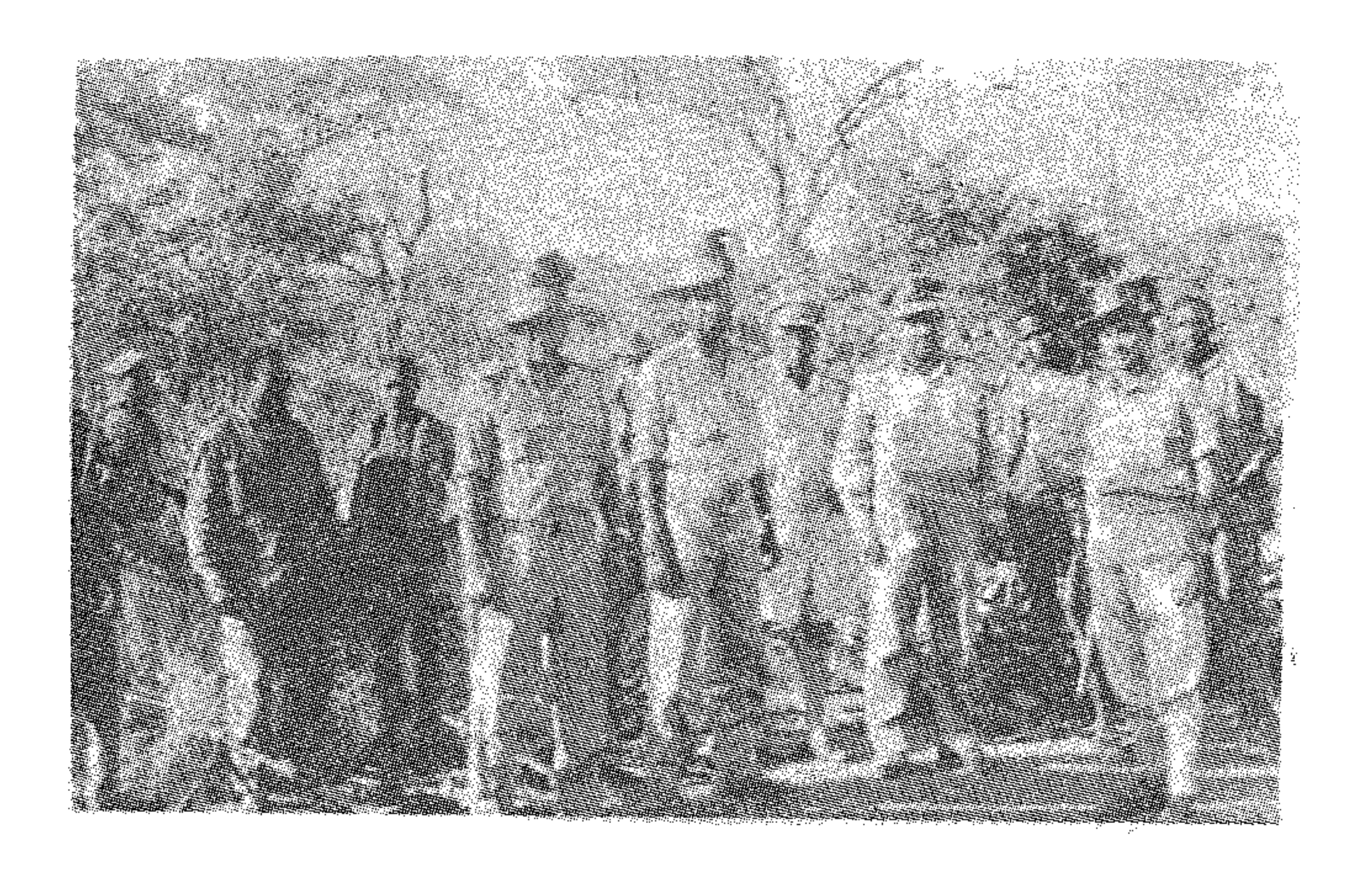
وماهي الا ايام قلائل حتي وضع القرار موضع التنفيذ ، وجاءتنا من جوبا برقية سرية تخطرنا بزيارة السيد محمد جبارة لذلك الغرض ، وتطالبنا ببذل كل الجهود لتوضيح الحقائق العملية حول موقف اللاجئين وآراء افراد القوات المسلحة تجاه المسألة الكونغولية ، وتؤكد البرقية في نفس الوقت ان زيارة وزير شئون الرئاسة تعتبر نقطة تحول هامة في اتجاه حكومة الخرطوم ، قمت بفك رموز الاشارة وسلمتها للمقدم تاج السر المقبول والرائد يوسف احمد يوسف ، وعلي الفور اصدر المقدم تاج السر اوامره بحصر ثوار الكونغو داخل معسكرهم وجمعهم في شكل قلعة طابور عند زيارة السيد الوزير لهم والقيام بعمل فرش متاع لاسلحتهم وذخائرهم ومعداتهم العسكرية الاخري ليقف الوزير علي حجم ما لديهم من سلاح وعتاد مقارنا بعدد الافراد المقاتلين منهم ، لاثبات حقيقة تسرب السلاح الي ايدي الخوارج في الجنوب .

جاء الوزير بطائرة عسكرية في الموعد المضروب للزيارة ، ومن المطار توجه مباشرة الي معسكرات الثوار الكونغوليين ، فادركه بالغ العجب لما رأي ، وتمني - علي رؤوس الاشهاد - ان لو رافقه كل اعضاء مجلس الوزراء في تلك الزيارة ، ليتضح خطل ما ينهجون من سياسة حول مهزلة اولئك الثوار ، ويروا بام اعينهم خناجرهم المسمومة التي ترتد الي صدور جنودنا حين يتسرب السلاح والعتاد الي ايدي المتمردين من ابناء الجنوب !!

أجتمع بنا السيد الوزير واوضح صراحة انه لن يسكت علي مجريات الاحوال القائمة ، وسينقل صورة الاوضاع المخزية الي السيد رئيس الوزراء ووزير الدفاع ووزير الخارجية ، واكد لنا القول بان قرارا حازما حول مسألة الثوار

المؤلف يصدر اوامر العمليات الحربية لقادة السرايا المقاتلة .





بعض القادة في زيارة لمنطقة (لاسو) بعد اندحار القوات الكنغولية المعتدية



العسكرتاريا والأتون المتقد !



{الحلقة الرابعة}
العسكر تاريا ـ والآتون المتقد

عدنا سيرتنا الاولي نقاتل هنا وهناك بلا هدف ولا حماس ولا هوية ، وقد ترسخ في نفوسنا ان حكام الوطن الجريح يدفعون بنا في عبث ماجن مستهجن الي صراع اشبه بعراك الديكة ومصارعة الثيران ، وهاهم يطلون علي ساحة الموت من مقاعدهم الوثيرة في مكاتبهم المكيفة الهواء في الخرطوم ، يتلذذون بمرأي الدماء وصرخات الالم !! ازاء ذلك شرعنا ـ في لقاءاتنا ومجالسنا ـ نفكر جديا في اعادة صياغة واقعنا العسكري ، تسودنا روح الاحباط واليأس ، وبلغ الزهد بالبعض منا ان يقول كاسفا انه اخطأ في اختيار طريقه المهني !! وقال آخرون : لماذا نقاتل ؟ وماذا لو احتل المتمردون كل الاقاليم الجنوبية ؟ واردف بعض ثالث : بل لماذا لا نعمل نحن بكل اصرار علي فصل الاقليم الجنوبي سلميا وكفي الله المؤمنين القتال؟!! فأنكر ذلك آخرون جريا علي مبدأ وحدة الوطن ترابا وشعبا والذود عنه وعن ارادة مواطنيه ، ولا يتم ذلك بالاماني والاحلام والعواطف ولكن بالتفاف الناس حول حكومة قادرة مستقرة تدرك مسئولية الحكم والبناء ، ولما كانت (الجمرة بتحرق الواطيها) كما يقولون ، فلا مناص من ان تكون هذه الحكومة المرتجاه عسكرية مدنية بحيث لا ينفرد المدنيون بقيادة السلطة السياسية !! والسبيل الي ذلك واحد وحيد وهو ان نجعل عاليها سافلها!

ولكن .. كيف ؟ ومتي ؟!

هذا ما يجب ان نفكر فيه بجدية وموضوعية .

ثم يتلاشي مثل هذا الرأي الثوري المتطرف في هدير الضحكات الجماعية الساخرة ولكنه يبقي في اعماق النفوس وميضا لا يخبو وحلما مؤرقا في الصحو والمنام ، وعلي كل حال ، يظل اكثر القوم علي صراط الجندية يتقبل الامر الواقع بغير تفكير ، فينفذ الاوامر العسكرية دون جدال او تردد ، حتي وان تأكد له انها تحمل في طياتها اسباب هلاكه ، كان هؤلاء هم السواد الاعظم والكثرة الغالبة بين العسكريين في صفوف القوات المسلحة ، وقد اطمأن السادة الحكام المدنيين لهذه الحقيقة ، فجعلوا يلقون باوامرهم ونواهيهم الي قادة الجيش

وصراعات شخصية ، الا انها تمت ونفذت بسلام آخر الامر ، وكان لها اثر ايجابي واضح علي استقرار الاحوال الامنية والسياسية في شمال البلاد وطرحت حركة التنقلات الكبيرة ثمارها المبتغاة ، فقد تمكن قادة النظام الحاكم من شغل العناصر الثورية بانفسهم وصرفهم عن امور الحكم والسياسة الي حين ، ثم حدث ما كانوا يحذرون ، اذ نقل هؤلاء نشاطهم وتطلعاتهم السياسية الي الجنوب .

ومن عجب ، فان نفرا من قادة الحاميات والضباط العاملين بالجنوب ، كانوا يرون في اوامر النقل الجماعية لضباط الشمال الي الجنوب حكمة وعدلا وعملا صائبا ، لما نعموا به من تمييز وتدليل ، فقد تخرج بعضهم من الكلية الحربية فنقل الي احدي وحدات العاصمة وظل فيها سنين عديدة حتي اضحي من كبار ضباطها المرموقين ، وهكذا لم يعرف من الحياة العسكرية الا بريقها ولم تثمر طاقاته ومقدراته العلمية والتدريبية الا ترفا فكريا وعنجهية فارغة ، فكان لزاما ان تتاح له فرصة التعرف علي الجانب الآخر من حياة الجندي وما فيها من قسوة وتضحية وفداء .

كان من بين المباركين لحركة التنقلات الرائد يوسف احمد يوسف قائد حامية (يي) ولكي يتبع القول بالعمل ويترجم قناعته بجدوي ما يؤمن به امرني - بوصفي اركانحرب العمليات - ان اقوم بتجهيز قوة احتياطية تكون علي اهبة الاستعداد للتحرك في مدي ثلاثة ساعات ، ثم اصدر امرا آخر باسم قيادة حامية يي بتحريك القوة ، وطلب مني ان ابدأ اصدار الامر الاول في دفتر دور داير العمليات بتوليه هو شخصيا وانا معه لقيادة العملية الاولي حتي لا يكون لغيره عذر او مندوحة في تنفيذ الاوامر من بعد .

ثم امرني - بعد العودة من العملية الاولي - بان اصدر امر تحريك القوة لاي ضابط زائر لحامية (يي) من الضباط المنقولين من الخرطوم دون رتبة المقدم وان كان عابرا ، علي ان يبقي هذا الامر سريا حتي لا يحجم هؤلاء عن زيارة (يي) التي عرفت واشتهرت بجودة اخشابها من اشجار التك التي تغري بعضهم باختلاق الاسباب والمعاذير لزيارة المدينة فيكون الغرض الظاهر هو التعرف علي المنطقة ولقاء رفاق السلاح او حتي قيادة القوات المتحركة ، اما باطن الزيارة وحقيقة الهدف منها ، فهو الحصول علي اخشاب التك النادرة ، ولم يكن يدور بخلد احد منهم ان قائد حامية (يي) بحيط علما بظاهر الامر وباطنه ، ولهذا

فقد بقي لهم بالمرصاد .

وقع كثير من هؤلاء الاضياف في براثن الكمين ، فكان بعضهم يحاول التنصل والتمرد علي الامر الصادر بتحريك قوة طوف العمليات نحو الهدف المحدد ، و رغم اني ظللت اصدر اوامر تكليف الخروج للعمليات في دفتر الدور الدائر تحت امرة قيادة حامية (يي) بتوقيع قائد الحامية ، الا ان بعضهم كان يساوره الظن بأني اصدر الامر بوصفي اركانحرب العمليات ، وخاصة حين يري توقيعي عن قائد الحامية (ع/قائد حامية يي) ، فيلجأ الي الرائد يوسف يستنجد به باعتباره ضيفا فقط وليس من ضباط الحامية ، فكان الرائد يجيبهم في مكر خفي فيفتح لهم الصفحة الاولي من الدور الدائر ، ويشير الي الامر الاول فيه بتكليفه هو شخصيا بالخروج !! ولا ينسي ان يضيف ان ذلك امر ميداني لا مناص من تنفيذه فقيادة الحامية لا تخضع له وحده فهناك قائد المنطقة المسئول المقدم تاج السر المقبول ، فاذا ما لجأ الضابط المكلف للمقدم تاج السر ولاذ به هربا من التكليف وجد نفسه كالمستجير من الرمضاء بالنار ، اذ يحاصره بسؤال تقليدي لا يختلف بين حالة واخري فيقول له في استهجان شديد:

- انت ياخوي جاي هنا تتفسح واللا جاي لمهمة عسكرية ؟ اذا جايي تتفسح نفذ الامر وخليها تكون فسحة عسكرية ، واذا جايي لمهمة عسكرية اعتبر دي امتداد لمهمتك ، الاوامر واضحة ، وعدم تنفيذها يعرضك لمحاكمة ميدانية تتم فورا هنا في (يي) ، دي منطقة عمليات نشطة زي ما انت شايف .

عندئذ يسقط في يد الضابط الزائر ولا يجد مفرا من تنفيذ الامر الصادر وهو كاره لليوم الذي جاء به الي (يي) وحاميتها وقادتها واركانحرب عملياتها ، فاذا عاد سليما معافي من مهمته البغيضة عجل بالرحيل تاركا ما جاء به اصلا من مقر عمله ، وهو لايخفي مشاعر الغضب والاحباط ، فنودعه بعد محاولات مظهرية لاستبقائه اياما اخري بين ظهرانينا فيزداد بذلك انفعالا وغيظا وكلما كان الزائر حنبلي المزاج ضيق الصدر بما نقول تتفاقم من جانبنا عبارات الهزؤ البريء .

كان يثير عجبنا ان هؤلاء الضباط الزائرين عند عودتهم الي وحداتهم لا يكشفون سر (كمين الضيافة) لرفاقهم ابدا ، بل يتعمد بعضهم الكذب استدراجا

للآخرين فيصف حامية (يي) وضباطها الكرام بالكرم الفياض وحسن المعاملة والحفاوة البالغة !!

ومن طرائف (كمين الضيافة) ما حدث يوم زارنا علي غير سابق موعد رفيق سلاحي الرائد علي علي صالح الذي نقل قائدا للمدرعات بالقيادة الجنوبية ، وهذا يعني صيرورتي تلقائيا تحت قيادته بصفتي قائدا لفصيلة المدرعات (بيي) قبل كوني مساعد ضابط الاتصال واركانحرب العمليات ، المهم انني كنت في استقبال الرائد علي مع لفيف من قادة الحامية ، وقد تصادف مجيئه مع موعد وجبة الغداء علي ما اذكر ، فدعاه المقدم تاج السر والرائد يوسف الي منزلهما ونالني من الدعوة نصيب ، ورغم ان الدعوة لم تكن عن سابق تدبير واهتمام ، فقد كانت وليمة فاخرة بحق بحساب الظرف والمكان ، ولان الرائد علي وثيق الصلة وتربطه بهما علاقة ود باق وصداقة حميمة فقد اطلق لنفسه واحاديثه العنان فشرق وغرب بغير تحفظ ، ثم تساءل عن كيفية تزجية اوقات الفراغ في (يي) ، عندها تبادل مضيفاه نظرات لا يخطيء مغزاها بصري ولا بصيرتي المتمرسة ، فهالني الامر اذ لم يدر بخاطري لحظة ان يصبح قائدي وصديقهما ضيفا علي (كمين الضيافة) بحال !! فاشار لي الرائد يوسف بطرف خفي ان اتبعه الي الخارج ، وهناك اصدر امره القاطع وحدده بقوله :

- قايدك عاوز يتسلي ، سليه بالدور الدائر .

اذن فقد صدق حدسي ووقع المحظور ، فحاولت جاهدا مراجعته في الامر ، ولكنه قطع علي خط الرجعة وهو يقول :

- ده امر وكمان ما تنسي مسألة الحفاظ علي السرية .

فلم اجد بدا من الانصياع ورددت عليه وانا اتخذ وضع انتباه :

- حاضر جنابك .

ثم سرت متثاقلا الي مكتبي ، حيث سودت احدي صفحات دفتر الدور الدائر بالامر الصادر مرغما ، فلما تم عرضه علي الرائد الزائر صعقته المفاجأة ، وحسبه صادرا بتدبير مني ، وجنح الي الشطط في معاملتي ولكني افهمته الحقيقة وان الامر صادر عن قيادة الحامية ، فراجع فيه الرائد يوسف بدون جدوي ، ولم يملك بعدها سوي الخضوع والتنفيذ . ونالني من ذلك حرج بالغ وانا اودعه خارجا لمهمته القتالية واثر عودته في اليوم التالي غادرنا الي جوبا جوا علي

متن احدى طائراتنا الحربية ولعله اراد ان يثأر لنفسه مني اذ اسر الي عند وداعي له بان حامية طمبرة تعاني من حصار ضربة المتمردين حولها منذ ايام . ولم يكن هذا امرا خافيا عني فقلت له : اعلم ذلك ، فاردف قائلا :

ـ لقد رأي قائد القيادة الجنوبية كسر حلقة الحصار وضرب الخوارج بقوة كبري قوامها كتيبتان وسرية مدرعة وسرية مدفعية ولهذا سوف يتم نقلك الي بحر الغزال ويتم نقل الملازم عبد القادر احمد محمد من بحر الغزال الي (يي) ، علي ان يبقي هذا الأمر سرا بيننا من اجل سلامة العمليات اجبت بحاضر فاردف يقول :

ـ ستصل اشارة من قائد القيادة الي قائد منطقة (يي) في غضون اسبوع واحد في هذا الصدد ، فكن علي اهبة الاستعداد لمغادرة (يي) فور وصول الاشارة كررت اجابتي بحاضر ، ثم ودعته ، وشرعت من ساعتي في اعداد عدة الرحيل دون ان اخبر قادة حامية (يي) وزملائي الضباط ، ثم جاءت الاشارة وفق ماحدد لها من زمان في شكل خطاب سري للغاية حمله النقيب طيار خالد الزين ضمن ما كان يحمل من مهام وبعثة فنية بقيادة عميد الفن الغنائي يومئذ الفنان احمد المصطفي وآخرين ، جاءوا للترفيه عن قوات (يي) ، فاقاموا ليلة ساهرة حافلة بمتاع الروح وصنوف الابداع بدأت اولا في العراء وامها صف الضباط وعامة الجنود واكثر اهل المدينة ، ثم اختتمت داخل منزل الرائد يوسف واستمرت حتي الساعات الاولي من فجر اليوم التالي ، وفي ضحي ذلك اليوم علم عميد الفن عرضا بوجود الملازم محمد البلة علي الحدود الكنغولية السودانية ، فادركته الحمية والاعجاب ، واصر علي زيارة البعثة الفنية لموقعه المتقدم والترفيه عن رفاقه الميامين ، رغم محاولاتنا لاثنائه واحاطته علما بخطورة الطريق واشتعال الموقف علي الحدود ، فذهبت محاولاتنا هباءا ، وابتسم عميد الفن ابتسامته الوضيئة المشرقة وقال :

ـ لا يرضي اهل الفن وحداة الوطن ونحن منهم ان نكون اقل من قائد قوات الحدود فهم قد ضربوا لنا المثل الاعلي في الوفاء والشجاعة .

ازاء اصراره النبيل قمت بتشكيل طوف حراسة للبعثة الفنية وتوليت قيادته بنفسي ، وخرجنا مع العميد ورفاقه الي ـ لاسو ـ ، ثم جاوزناها الي الحدود السودانية الكنغولية حيث يربض الملازم محمد البلة وقواته الباسلة ،

فابتلت عروق المجاهدين برحيق النغم وتصايح الرجال طربا ونشوة ، وامتلأت نفوسهم بحب الوطن واهله وازدادوا كيل بسالة وفداء .

كانت لفتة بارعة من عميد الفن وبعثته ما زال اولئك النفر من ابناء القوات المسلحة يذكرونها في معرض التلاحم بين فن الغناء وفن القتال من اجل الوطن ، كما يذكرون له مواقفه الشجاعة الماجدة ابان الحرب العالمية الثانية وهو ينتقل بين ساحات القتال غير هياب ولا وجل ليغزو مشاعر جنود قوة دفاع السودان برائع الالحان والاداء والكلم ، حتي سطروا في صحائف المجد بطولات سار بذكرها الركبان وشهد لهم بها العدو قبل الصديق . فكما ان الانسان لا يحيا بالخبز وحده ، كذلك يمكن القول : ليس بالبندقية وحدها يقاتل المجاهدون .

بينما كنت اعد العدة لمغادرة (يي) ، استبقاني الرائد يوسف قائد الحامية ريثما يتم لقاؤه باللواء احمد الشريف قائد القيادة الجنوبية بهدف الغاء نقلي الي واو بحجة اني اشغل واؤدي ثلاثة مهام في وقت واحد ، ولن يتسني لضابط آخر ملء الفراغ الذي سيترتب علي نقلي ، خاصة في وجود ثوار السمبا الكنغوليين ، فاستجبت لرغبته مؤملا في نجاح مسعاه ، ولم يستغرق الامر الا ثلاثة ايام ، عاد بعدها من جوبا وعلي ثغره ابتسامة عريضة موحية ، ثم همس في اذني قائلا :

ـ استعد للتحرك اليوم الي جوبا ومنها الي واو التي لن يطول بقاؤك فيها باذن الله ، وهاك تفاصيل ما تقرر ، فقد تم اختياري انا مساعدا للملحق العسكري بلندن ، وسوف اغادر (يي) بعد ايام قلائل الي جوبا ، الخرطوم ، لندن ، كما تم اختيارك انت لحضور فرقة قادة فصائل مدرعة بالمملكة المتحدة (ومد يده الي بورقة واضاف) وهذه اشارة تدريب الخرطوم ، لهذا لم احادث اللواء في موضوع نقلك كما كنت اعتزم ، لاني خشيت ان تنجح المحاولة لاستبقائك (بيي) ويلغي ترشيحك للفرقة .

شكرت له صنيعه بحرارة والقيت نظرة عجلي علي سطور الاشارة ثم رفعت رأسي لاقول:

ـ ستبدأ الفرقة في شهر نوفمبر القادم ، ولا بأس من تجديد مكان عملي بالجنوب ، اهو كله حرب في حرب .

ابتسم الرائد يوسف ونصحني بكتمان الامر عن رفاق السلاح حذر الحسد

والغيرة ، فوعدته شاكرا مقدرا ، ثم غادرت (يي) - حسب امر التحرك - الي جوبا ثم الي واو بطائرة الخطوط الجوية السودانية ، فلما نزلت عن سلم الطائرة الفيت معظم ضباط حامية بحر الغزال بارض المطار ، حيث درجوا علي انتظار الطائرات القادمة كنوع من الترفيه وكسرا لرتابة الحياة والروتين ، اضافة الي ما تجلبه لهم من الرسائل والصحف والمجلات والاخبار الشفهية علي السنة الركاب المدنيين .

التقيت بين اولئك الضباط بصديقي وابن دفعتي النقيب عثمان الحاج حسين (ابو شيبة) وكان يشغل منصب قائد سرية رئاسة حامية بحر الغزال ، فتلقاني بما عهدته فيه من صادق الود والحفاوة البالغة والمشاعر الدفيقة ، ثم اخذني في صحبة قائد الحامية الرائد/ابراهيم محمد ابراهيم زعوط والملازم/عبد القادر احمد محمد قائد قوة المدرعات بواو علي عربة الاول

في طريقنا الي معسكر (قرنتي) مقر رئاسة الحامية اخبرني ابو شيبة انهم اختاروا لسكني منزلا داخل مدينة واو يشاركني فيه الرائد حيدر النور قائد ثاني الحامية ، والنقيب عثمان الدابي قائد بطارية مدفعية الميدان ، ولم يتركني ابو شيبة بعد ان بلغت ذلك المنزل ، بل بقي معي مؤانسا واخذني في جولة طويلة ليعرفني علي اهم معالم المدينة وخاصة مواقع القوات والمعسكرات وبعض زملائه من الضباط وهم في مواقع العمل والسكن ، ثم ختم الجولة لاماكن اللهو والترفيه بالمدينة وخاصة نادي الاغاريق ، ولازمني ابو شيبة لثلاثة ايام احتفاءا بمقدمي وتجديدا لدم الحياة في شرايين صداقة باقية ، كما اشرف بنفسه علي مهمة تسلمي لقيادة المدرعات من الملازم عبد القادر ، وفي مساء اليوم الثالث اقام حفل عشاء ساهر بمناسبة استقبالي ووداع الملازم عبد القادر ، وهكذا كان دأب صديقي ابو شيبة ابدا فهو كريم مضياف متلاف طبعا وسجية .

كانت حياة ضباط وجنود حامية بحر الغزال في واو ومحطات الحامية الاخري مصداقا لمقولة الفيلسوف الانجليزي الشهير (برناردشو) وهو يصف حياة رجال القوات المسلحة ويلخصها في ثلاث واوات هي :War Women & Wine)(

وان كانت الاولي قد غلبت علي الآخرين لدي افراد الحامية ، من ذلك انه في اليوم الخامس لوصولي وردت اشارة من (القائد/جوبا) ان الخوارج قد فكوا حصارهم المضروب علي حامية طمبرة ، ومن ثم فقد الغيت التدابير

والاستعدادات المزمعة لتحريك قوات واو لفك الحصار ولكن القائد - في نفس الاشارة - ينذر حامية بحر الغزال ويحيطها علما بان هناك معلومات تؤكد وفود قوات كبيرة من الخوارج علي منطقة واو في محاولة منها للقيام باعمال تخريب وشن هجمات مفاجئة ضاربة علي مواقع القوات المسلحة ثأرا وانتقاما لضحايا (حفل الزواج المشئوم!!) .

سألت صديقي ابو شيبة عما جري في حفل الزواج ذاك ولماذا هو مشئوم فقال :

- احتفل احد اخوتنا من ابناء الجنوب بزواج ابنتيه الي شابين من بحر الغزال ، ولما كان الاب ذا مكانة اجتماعية مرموقة وجاه عريض ، فقد دعا لحفل عرس كريمتيه الذي اقيم ليلا كل الشخصيات اللامعة والكبيرة من الجنوبيين والشماليين من مختلف المهن ، وكان بينهم ضباط الجيش والبوليس والسجون والاداريين وقادة الخدمة المدنية . فاجتمع عنده خلق كثيرون من علية القوم في باكورة تلك الليلة حوالي الساعة الثامنة مساءا وما يزال آخرون يتوافدون زرافات ووحدانا ، فحدث ما لم يكن في الحسبان ، اذ اشاع البعض ان من بين المدعوين نفرا من غلاة المتمردين باسلحتهم النارية فسرت الشائعة سريان النار في الهشيم وتسربت الي صف وجنود سرية المساعدة التي اتخذت من مباني المدرسة الصناعية ثكنات لها قريبا من مكان حفل العرس ، وكرد فعل للاشاعة امر قائد السرية ومساعده افراد السرية بالاستعداد تأهبا لكل احتمال !! وعند الساعة الثامنة والنصف مساءا اصدر القائد لمساعده امرا بتحريك السرية بكاملها لتطويق مكان الاحتفال تمهيدا لتفتيشه والتحقق من شخصيات المدعوين ، وحوت اوامر القائد الاشارات الكودية وحدد فيها اشارة اطلاق النيران بضرب مجموعة رصاص ، فلما تم تطويق المنزل خرج شخص مخمور وحاول الدخول في حوار مع قائد السرية لمعرفة سبب الحصار ، فتصدي له احد ضباط الصف ، ولكن الرجل المخمور انفلت بعنف من باب الدار واخذ يصيح مناديا قائد السرية ، فما كان من الصف ضابط الا ان اطلق عليه مجموعة من مدفعه الرشاش ، فاعتقد افراد السرية ان تلك هي اشارة فتح النيران ، فامطروا المنزل ومن فيه وابلا من الرصاص حتي افنوهم عن آخرهم ، وكان عدد القتلي مائة واربعة وثلاثين نفسا ، بينهم الطبيب البيطري (الدكتور بابيتي) وكان من

الشخصيات السياسية والاجتماعية البارزة ، علي اثر ذلك ساد المدينة كلها هرج ومرج وهلع شديد ، ولاذ الناس بمساكنهم يترقبون ما تأتي به الاحداث من مفاجآت ومضاعفات ، وخف رجال الامن من الجيش والشرطة والسجون لمكان الحادث وعلي رأسهم الرائد ابراهيم زعوط قائد الحامية ، وهناك اصدر امره الي قائد سرية المهندسين بنقل الموتي ودفنهم ليلا في مكان قصي من المدينة ، فنفذ الامر وجري نقل ضحايا الحادث علي خمس عربات ، وواروهم ثري آبار حفروها خصيصا لهذا الغرض ، غير ان احد المصابين بدأ يتأوه قبل ان يهيلوا عليه التراب فتنبه سائق احدي العربات لبقائه حيا بين الجثث ، ونقله الي جوار مجري قريب ، ثم دفن الآخرون !!

خلق الحادث المشئوم جرحا ظل ينزف طويلا في نفوس ابناء بحر الغزال عامة وابناء مدينة واو علي وجه الخصوص ، حيث ساد الاعتقاد بينهم بان الحادث وليد تدبير غادر استهدف تصفية الصفوة من ابناء الاقليم الذين تأكد وجودهم في تلك المناسبة الكبيرة وازهقت ارواحهم في ذلك الأتون المأساوي المتقد . وساق بعض الناقمين دليلا علي ذلك القدر المبيت بان احدي الفتيات من بنات الاقليم الاستوائي القاطنات بمدينة واو كانت برفقة احد صف الضباط من سرية المساعدة قبل وقوع الحادث ، وقد افضي اليها بخبر المأساة المزمع تنفيذها ، وطلب منها تحذير ذويها من ارتياد منزل العرس ففعلت !! ولكن اهلها سربوا النبأ الي أخوتهم من ابناء وبنات الاقليم الاستوائي كافة ، فلم يستجب احد منهم للدعوة ، ولزموا ديارهم بالمدينة فكانوا بمنأي عن المجزرة وعاشوا سالمين !! ومما يثير الدهشة ويدعو للعجب في امر هؤلاء . ان صحت الواقعة . لماذا لم يحاولوا قط تحذير الآخرين من ابناء جلدتهم من ابناء بحر الغزال ، وكأنهم كانوا علي اتفاق في القصد والمشاعر مع افراد تلك السرية وقائدها ، والادعي للدهشة في ذلك كله ، ان قائدالسرية قد جرع في قابل الايام من ذات الكأس ولقي نفس المصير ، وذلك ابان محاولة الجبهة الوطنية للانقضاض علي سلطة مايو ، ففي خضم تلك الاحداث جري حصار قائد السرية وكان وقتها يشغل موقعا كبيرا وهاما في الجيش وبرتبة اعلي ، فاعتقله الانقلابيون مع غيره من اعوان النظام ، وحصدوهم بالرصاص داخل جراج !! فراح ورفاقه المحصورين ضحية للصراع السياسي ، ليلحق بضحاياه في ليلة العرس المشئوم بواو ، وهكذا تعبث بنا

الاقدار ، فما نزال حتي يومنا هذا يحصد بعضنا بعضا في أتون هذا الصراع الرهيب ، بلا تعقل ولا رحمة ، وكل يدعي لنفسه الحق ، ويرمي غيره بالباطل!!

في سياق ذلك الحدث ايضا ، يروي بعض الذين خبروا ظروفه ودواعيه عن قرب وعايشوه لصيقة ، فيؤكدون انه تم بغير تدبير ولا مقدمات ، ومن هؤلاء المهندس/حامد المأمون الريح مدير محطة كهرباء مدينة واو وقت الحادث ، وهو .. كما عرفته رجل ثقة دمث الاخلاق صادق الرواية ، تميز عن اقرانه من موظفي الخدمة المدنية واصدقائه من رجال القوات النظامية في مدينة واو يومئذ بنقاء وطهر كبير رغم اندماجه واختلاطه بافراد ذلك المجتمع المتميز ، فكان لهم واحة ظليلة يتفيأون ظلالها ويولونها كل الحب والاجلال ، حتي بلغ الامر ببعضهم ان يعهد اليه بعائلته في عقر داره اذا تعين ارساله في مأمورية خارج المدينة وكان الرجل يومئذ اعزب يعيش وحيدا بغير انيس الا شمائله وسجاياه !! ولم يكن ذلك صنيع اخوته من ابناء الشمال وحدهم ، بل شاركهم فيه ابناء الجنوب ايضا ، فمكانته عندهم ارفع واعظم ، وهذا ما يدفعني الي الثقة بما يقول حول ذلك الحدث . روي حامد عن ملابسات الامر قائلا :

- يوم الحادث ، كنت مع غيري من ابناء الشمال في زمرة المدعوين ، وفيهم قائد الحامية ومدير البوليس والسجون والاطباء وكل موظفي المدينة واعيانها ، كنا نتأهب لتلبية الدعوة والليل يبسط رداءه علي المدينة ، فقد جرت عادتنا ان نذهب لتلك المناسبات سويا ، وقبل ساعة واحدة من وقوع الكارثة كان معي الرائد زعوط قائد الحامية والنقيب ابو شيبة قائد سرية الرئاسة والنقيب شرطة حسن الجيلي فاعتذرت لامر ما عن مرافقتهم ووعدتهم بالحضور الي مكان العرس في حوالي الساعة التاسعة فلم يعترضوا وغادروني لشأني ، ولو كان الحادث مدبرا - كما يزعم البعض - لكانوا علي علم به وحذروني وعملوا علي ابعادي وانفسهم عن مسرح الجريمة ، وفي طريقي الي الحفل مررت بصديقي نكولا الذي رأي ان يحمل معه بعض الهدايا من متجره لاهل العروسين وخاصة بعض المشروبات ، وبينما كان يرتب هداياه وينتقيها تراءي الي اسماعنا من بعيد صوت اطلاق النيران ، فادركنا ان حدثا غير عادي يقع في تلك اللحظة ، فتركنا ما كنا بصدده واعتصمنا بدار نكولا حتي صباح اليوم التالي ،

حيث علمنا بما كان .

هذه افادة الاخ حامد المأمون وقد ايدها آخرون علي رأسهم الرائد زعوط والنقيب ابو شيبة ، وقد اكدوا جميعهم ان الحادث لم يكن عن قصد وتدبير ، ولكنه علي كل حال احدث جرحا غائرا في نفوس ابناء الجنوب ، وخاصة ابناء بحر الغزال والمدينة المفجوعة علي وجه الخصوص ، ولكن مبضع الايام كان كفيلا بمداواته وازالة آثاره ، اذ سرعان ماعاد اهل المدينة والقائمون علي امرها من عسكريين ومدنيين سيرتهم الاولي ولم يبق للحادث من اثر الا منزل العرس او مسرح الفاجعة الاليمة ،

ومن قبيل التحوط والترقب لما قد يتمخض عنه الحدث من نتائج لزم افراد القوات المسلحة جانب اليقظة والحذر اياما عديدة ، تحسبا لانتقام ابناء بحر الغزال الذين تمردوا علي نظم الدولة وشرائعها وارادة مواطنيها وخرجوا علي اجماعهم وشعاراتهم الوحدوية ، واختاروا العنف غير المقنن منهجا وسلوكا .

في اطار ذلك الحادث واعقابه وردت الاشارة السرية التي تحذر من ردة فعل هؤلاء المكلومين ، ولكن يبدو ان جرثومة التمرد اقوي من حواجز الزمان والمكان والعرق ، فسرعان ما اصابت افراد حامية بحر الغزال من ابناء دارفور من قوة كتائب القيادة الغربية ، فلم يمض علي ذلك الحدث المأساوي وقت طويل حتي تمرد هؤلاء علي النظم العسكرية ورفضوا التحرك والمشاركة في العمليات الحربية ، وقد حدث ذلك بسبب معلومات مضللة وردت اليهم من افراد حامية (اويل) ، مفادها ان قائد الحامية النقيب عبد الحي حسني قام بوضع صف الضباط والجنود في السلاسل والاغلال وربطهم الي جذوع الاشجار وجلد البعض منهم بحجة مخالفة الاوامر المستديمة لخروجهم علي موجبات الضبط والربط !! لهذا تمرد افراد قوات بحر الغزال ورفضوا الخروج للعمليات الحربية ضد المتمردين ، ثم تجمعوا فيما يشبه التظاهر مطالبين قائد الحامية بالتحقيق في الامر واتخاذ ما يلزم من اجراءات .

كان موقفا عصيبا ، فقد شقت عصا الطاعة الاداة التي تردع التمرد ، وبمرور الوقت تأزم الموقف وازداد حرجا وتوترا ، فلم يجد الرائد زعوط بدا من تكوين لجنة تحقيق اذعانا لمطالب المتمردين الجدد ، وارسل اللجنة علي الفور الي (اويل) للتحقيق في الامر بعد ان فوضها كل الصلاحيات ومن بينها وضع قائد

الحامية في الايقاف اذا ثبت صحة المعلومات الواردة للجنود !!

عادت لجنة التحقيق بعد يوم واحد وفي جعبتها حقائق مذهلة مفادها ان قائد حامية اويل كان قد اعتزم تحريك بعض الاطواف المقاتلة لضرب معسكرات الخوارج ، ولكن افراد حاميته رفضوا تنفيذ الاوامر بالتحرك والاشتراك في العمليات الحربية لاسباب اجملوها في الآتي :

اولا : في الوقت الذي يعانون فيه من شح السلاح الحديث والذخائر والمهمات العسكرية والتعيينات ، تقوم حكومات موسكو والصين والجزائر ومصر عن طريق حكومة الخرطوم بارسال الاسلحة الفتاكة واحدث المعدات والمهمات العسكرية لثوار السمبا ، فيقوم هؤلاء بدورهم بتسليمها للمتمردين السودانيين بصورة او اخري ، وهذا يعني ان حكومة الخرطوم - بوعي منها او بدون وعي - تعمل علي هلاكهم وافنائهم ولهذا فقد قرروا عدم محاربة الخوارج حتي تكف حكومة الخرطوم عن دعم ثوار السمبا غير المسئول !

ثانيا : انهم - اي افراد حامية بحر الغزال عموما وحامية اويل علي وجه الخصوص - تعوزهم التعيينات الطازجة والملابس العسكرية ووسائل الاتصال البريدية مع اسرهم وعائلاتهم في الشمال ، فضلا عن غلاء اسعار الحاجيات في الجنوب وقلة المرتبات ، فهم وعائلاتهم يعيشون علي الكفاف ويعانون شظف العيش ، بينما تهمل الدولة واجبها تجاه الشهداء والجرحي والمعوقين بسبب العمليات الحربية في الجنوب ، ويتضاعف عدد هؤلاء يوما بعد يوم بسبب ضعف الامكانات الطبية وانعدامها في كثير من الاحيان ، ولهذا فهم يطالبون بتجنيد اصحاب المهن الطبية وارسالهم ولو قهرا الي الجنوب .

ثالثا : انهم يلقون عنتا وسوء معاملة من ضباطهم وعدم مراعاة وتقدير لظروفهم النفسية والميدانية ، حيث يدفعون بهم في شكل آلي لعمليات يعلمون سلفا ان توازن القوي فيها لصالح المتمردين ، رغم انهم لاينكرون ابدا ان ضباطهم يقودون هذه العمليات غير المتكافئة .

رابعا : انهم - صف الضباط - قد امضوا اكثر من عام ، اضافة لما تحدد لهم في خدمة الجنوب ، ومع ذلك لم يعمل قائد القيادة الغربية علي تغييرهم بافراد من الشمال .

خامسا واخيرا : زعم بعض الصف والجنود ان الضباط من (اولاد البحر)

يتعاملون مع (اولاد الغرب) بعنجهية وتعال كأنهم - اي اولاد الغرب - عنصر اقل شأنا ومكانة ، ولا يستحق سوي القهر والاذلال !!

افاد اعضاء لجنة التحقيق بانهم عملوا جاهدين لتهدئة الخواطر وازالة اسباب التوتر في حامية اويل ، وحالفهم التوفيق بعد ان طلبوا من قائد الحامية الغاء اوامره بتحريك قواته للعمليات ريثما ينجلي الموقف ويتم الاتصال والتشاور مع الرائد زعوط ، فاستجاب لهم نزولا علي مقتضيات الموقف .

وجاء في تقرير لجنة التحقيق ما يشبه الادانة لتصرف قائد الحامية ونصحت بنقله فورا الي الشمال ، كما رأت استدعاء العميد/عبد الحميد خير السيد قائد القيادة الغربية لمعالجة الموقف بعد ان اعتذر قائد القيادة الجنوبية عن الحضور لوعكة طارئة المت به ، فعمل الرائد زعوط بما ارتأته اللجنة ، ولكن تطورات الموقف لم تمهله كثيرا اذ انتقلت عدوي العصيان والتمرد سريعا الي افراد حامية واو ، وتسربت اخبارها الي المدنيين والخوارج ، فجاءت المعلومات تتري بان المتمردين يعدون لهجوم كاسح وشيك علي مدينة واو عاصمة الاقليم ، وتقاطرت هذه المعلومات الي صف الضباط والجنود العصاة من افراد الحامية ، فعقدوا اجتماعا قر رأيهم علي تحريك قوات بقيادة كبرائهم رتبة لتأمين مداخل المدينة المستهدفة ، ووضع كل القوة في حالة استعداد قصوي تحسبا للظروف . ولكن ذلك لم يثنهم عن مواصلة تمردهم حيث رفضوا اداء جميع المظاهر والشكليات العسكرية مثل التحية والوقوف في وضع انتباه للضباط وغير ذلك ، ثم اصدروا آخر الامر تحذيرا للضباط من محاولة استخدام العربات في تحركاتهم !! وانهم لن يترددوا في القاء القبض عليهم واحتجازهم ريثما يقرروا ما يرونه بشأنهم !!

ازاء ذلك دعا الرائد زعوط الي اجتماع عاجل للضباط بميز معسكر (قرنتي) وطلب مني والنقيب عثمان الدابي قائد بطارية المدفعية ان تقوم قواتنا التي لم تشترك في حركة العصيان بحراسة مكان الاجتماع ، فاتجهنا الي قواتنا وقمنا بتحريكها من مواقعها في المدينة الي معسكر (قرنتي) وهناك فوجئنا بالصف والجنود قد فرضوا حصارا علي الضباط المجتمعين ، فقمت - بعد التشاور مع النقيب الدابي - بتطويق المحاصرين بمدرعاتي ، ثم انذرتهم بان المدرعات ومن خلفها بطارية المدفعية ستتصدي لهم اذا ما حاولوا المساس

بالضباط المجتمعين او مداهمة مقر الاجتماع ، فانبري لمحاورتي بعض صف الضباط وزعموا ان تمردهم موجه نحو قادة وضباط القيادة الغربية فقط ولا شأن لهم بضباط وصف وجنود الملحوقات من المدفعية والمدرعات ، ورجوني بعدم التدخل في الامر !! فاوضحت لهم خطأ مسلكهم اولا ، ثم خضوعي لاوامر قائد الحامية التي تفضي بالمواجهة تأمينا لسلامة اولئك الضباط بداخل الميز ، ونصحتهم ـ حقنا للدماء ـ ان ينسحبوا عن مواقعهم ويفكوا الحصار والا يتعرضوا للضباط وتحركاتهم ، فاستجابوا للنصح مكرهين .

ظلت قواتنا من المدفعية والمدرعات علي اهبة الاستعداد للتعامل مع الموقف بعد تنسيق الواجبات والعمل ، بحيث جعلنا ثلث القوات في وضع الراحة والثلثين تحت السلاح فلما كان اليوم التالي ، وردت اشارة من (القائد/جوبا) مفادها ان قائد القيادة الغربية سيصل بطائرة الخطوط الجوية السودانية ، فجرت كافة الاستعدادات لاستقباله ، وفي اطار ذلك طلب الرائد زعوط من الصف والجنود ان يباشروا واجباتهم العسكرية نحو الزائر الكبير وفي مقدمتها استقباله بقرقول شرف ، ولكنهم اجمعوا علي مداومة العصيان ورفض المهمة ، فتمخض عن ذلك موقف حرج يدعو للاسي والحزن ، اذ جري استقبال قائد القيادة الغربية دون مراسم عسكرية !! وزاد من حرج الموقف رفض الصف والجند اداء مجرد التحية العادية والوقوف في وضع انتباه حين مروره بمواقعهم ومحاولته التحدث اليهم !!

تجاوز العميد عبد الحميد خير السيد ذلك الموقف بكثير من الصبر والحكمة ، ثم دعا الصف والجنود المتمردين الي مقابلته بعد ان اقنع بعضهم بانه جاء خصيصا للنظر في شكواهم وحسم مشاكلهم ، فلبوا دعوته للقاء واعادوا علي مسامعه نفس الاتهامات والمطالب والظلامات من الضباط ، واوردوا في معرض ذلك اسماء ضباط بعينهم زعموا انهم يسيئون معاملتهم ، فوعدهم العميد عبد الحميد بالاجتماع باولئك الضباط وغيرهم لمعالجة الموقف واعادة الامور الي نصابها ، كما التزم لهم باجابة كل مطالبهم رغم شح الامكانات . ولكن بعضهم لم يقنع بما بذل له من وعود سخية وجه العميد يقول :

ـ انهم لا يثقون باحد سوى اللواء محمد ادريس عبد الله وطالبوا بحضوره شخصيا لتأكيد استجابة قيادة الجيش والحكومة لمطالبهم ..

فمد لهم القائد حبال الصبر رغم مرارته ووعدهم ايضا بتبليغ ذلك الطلب للقيادة العامة بالخرطوم واللواء محمد ادريس شخصيا ، فارضي ذلك غرورهم وعادوا سيرتهم الاولي في اداء واجباتهم بدءا بتعاملهم معه منذ تلك الساعة ، فوقفوا لتحيته واعتذروا عما كان منهم من قبل ثم انقلب العميد عبد الحميد علي ضباط الحامية مدفوعا بتأثير تلك المشاعر فافرط في تأنيبه لهم وندد بمسلكهم تجاه الصف والجنود ، فأثار ذلك في نفوسهم عاصفة من الغضب والاحتجاج حتي اوشك زمام الامر ان يفلت من يده وينفرط عقد النظام والولاء بينهم ، ولكن تدخل الرائد زعوط لتهدئة ثائرتهم وتوجيه دفة الاحداث نحو بر الامان والسلامة ، فانفض الاجتماع والشمس تنحدر الي خدرها في الافق الغربي حاملة دواعي التوتر والشقاق .

صبيحة اليوم التالي وردت اشارة من (القائد/الخرطوم) تفيد ان اللواء/محمد ادريس سيحضر الي واو وفي معيته العميد/عبد الرحمن الفكي المستشار القانوني للجيش ، فما كاد الخبر ينتشر بين افراد الحامية كبارا وصغارا حتي عمهم فرح طاغ عظيم ، فقد كان اللواء/محمد ادريس يجسد لهم سلطة الجيش والدولة معا ، فلما حطت طائرته الميمونة بارض المطار جري استقباله بصورة زاهية رائعة .

وفي ميدان الطابور بمعسكر قرنتي التقي اللواء بكل افراد الحامية من ضباط وصف وجنود ، وجلس يستمع الي مزاعم الاخيرين ومطالبهم اولا ، ثم اتاح الفرصة لنفر من الضباط فتحدثوا وفندوا افتراءات الصف والجنود ، ومن بعد طلب من العميد/عبد الرحمن الفكي توضيح الجوانب القانونية حول نقاط الخلاف والاختلاف بين الفرقاء ، حتي بدأ الامر كأنه محاكمة كبري في نزاع جماعي شائك ، واخيرا وقف اللواء وبدأ حديثه معاتبا معنفا صف الضباط والجنود علي مسلكهم وتصرفاتهم ، وامرهم بالانصياع للاوامر والنظم والقوانين العسكرية في كل الظروف والاحوال ، ثم وجه الضباط بالتزام جانب الحق والحكمة ودواعي الضبط والربط في معاملة مرؤوسيهم من غير تفريط ولا افراط واختتم حديثه بوعد قاطع بنقل المطالب الي قيادة الجيش والسلطة الحاكمة وبذل كل جهد لاقناعهم بالاستجابة لها فورا ، وخاصة ما تعلق منها بوقف امداد ثوار السمبا بالسلاح وتجنيد بعض العاملين في المهن الطبية للعمل بالجنوب ،

والعمل علي زيادة المرتبات والعلاوات والارتقاء بمستوي التعينات ، وفيما يتصل بالتسليح والمعدات والمهمات العسكرية اكد للجميع انها مسائل ظلت موضع اهتمامه منذ وقت طويل ولن يألوا جهدا في تحقيقها بكل سبيل وسأل الله تعالي ان يكلل مساعيه بالنجاح من اجل مصلحة الجيش والوطن .

ازال حديث اللواء/محمد ادريس عبد الله في ذلك اللقاء الحاشد شوائب الاحن والبغضاء من النفوس ، فعادت العلاقة بين الضباط والصف والجنود الي سابق عهدها من ود وصفاء ، وبقي معنا اللواد/محمد ادريس والعميد حقوقي عبد الرحمن الفكي يوما حافلا بالعمل والانجاز ، وقبيل عودتهما عقدا اجتماعا آخرا ضم الجميع من كل الرتب ، وابرز ماجاء فيه سؤال صف الضباط عما اذا كانوا سيقدمون لمحاكمات عسكرية بسبب عصيانهم وتمردهم ، فوعدهم اللواء بالعفو عن ذلك مؤكدا لهم انه لايضمن استمرار اي فرد منهم في الخدمة العسكرية بعد انقضاء مدته ، فتلك مسألة من اختصاص قائد القيادة الغربية وحده ، فاردف آخر من الجند متسائلا عن حقه في ترك الخدمة قبل وفاء المدة ، فالتفت اللواء الي العميد الذي كان يجلس الي جواره وقال له في نبرة اخوية صادقة :

ـ ارجو ان تستجيب لطلب كل من يرغب في ترك الخدمة العسكرية من افراد هذه القوة ولكن بعد عودته الي الشمال .

فوعده العميد عبد الحميد بذلك ، ثم انفض الاجتماع وغادرنا اللواء والعميدان علي طائرة الخطوط الجوية السودانية وعدنا سيرتنا الاولي نصطلي لهيب الحرب والغدر ، ونغترف من اللذات بلا قيود ، فمن عصارة الالم واللذة كان نسيج حياتنا في واو ، حتي ان الافعال وردودها تمازجت في مفاهيمنا وسلوكنا تمازجا عضويا لا انفصام له ، حيث تماثل نبض مشاعرنا ازاء الدعوة لحفل ساهر ماجن بتنفيذ امر صادر بالخروج لعمليات حربية لضرب اوكار التمرد ومواجهة الخطر !! ويبدو ان ذلك الخلط التلقائي كان نتاجا طبيعيا لمعايشتنا الدائمة للاحداث المأساوية المتعاقبة ، فالحدث الذي لاتصنعه ايدينا يبلغ اسماعنا من مختلف انحاء الاقاليم الجنوبية من خلال تقارير الموقف اليومية فننفعل به سلبا وايجابا ، مثال ذلك تلقينا لنبأ مأساوي ورد في تقرير للموقف وكان مسرحه حي الملكية في مدينة جوبا ، جاء فيه ان بعض الاخوة الجنوبيين قد

تحرشوا باحد جنود القيادة الجنوبية بينما [illegible] منازل الحي ، فتآلبوا عليه وسلبوه ما يحمل من سلاح واردوه قتيلا .

فلما بلغ النبأ رفاقه ادركهم بالغ الحزن وعاصف الغضب ، فتحركوا بغير امر او تدبير من قادتهم وقاموا بمحاصرة الحي واخذوا يمشطونه بنيران بنادقهم الموتورة ، حتي صرعوا عددا غفيرا من سكانه آخذين البريء بذنب المجرم في غير تمييز ، وفي خلال ساعة واحدة سقط ما يربو علي مائة قتيل ضحايا لذلك الحدث ، ولولا تدخل القيادة الجنوبية وضباطها لتضاعف عدد القتلي وبلغ الآلاف المؤلفة !!

جاء ابو شيبة بتقرير الموقف الذي تضمن ذلك الحادث ، ومن عجب ، فقد انحصرت انفعالاتنا وتعليقاتنا حول مصير ذلك الجندي القتيل وكيف أن اهل ذلك الحي قد اغتالوه غدرا كدأب عامة الجنوبيين منذ بداية اندلاع الحريق عام ١٩٥٥م والغريب في الامر اننا لم نكن نتحرج في اطلاق مثل تلك التعليقات وغيرها في مجالس تضم طائفة من ابناء وبنات الجنوب ولا نأبه البتة لمشاعرهم وما قد تنطوي عليه سرائرهم من ضيم وغبن يزيد النار اشتعالا ، ولئن كانوا يتظاهرون امامنا بعدم الاكتراث فيقيني ان اعماقهم تضطرم بانفعالات الحقد والكراهية ولا يمنعها من السفور الا الحاجة او الخوف وقد بدا ذلك واضحا في مقدار ما تجرعوا من كئوس ـ ساعة ورود النبأ ـ وفي ضمور حيويتهم وعزوفهم عن الرقص ، ورغم ذلك فقد كانوا يتجاوبون مع صخب الحفل وضحكات الحاضرين بهمهمات وابتسامات مريرة مصطنعة تفضح ما تجيش به افئدتهم الحري من حزن دفين ، ثم كشفت لي الايام من بعد انهم كانوا يكظمون الغيظ ولايعفون عن الظالمين ابدا ، ولكنهم ظلوا يترقبون الفرص المواتية لتفجير شحنات الحقد العاصف قتلا وتنكيلا وتخريبا ونهبا ، فهم يرومون لشفاء ما بانفسهم من جنس الداء ، وهكذا تبقي نار الفتنة ساهرة ولا يشفي غليلها او يخفف من غلوائها ناس ولا حجارة ، فهي ابدا في صراخ محموم تطلب المزيد !!

في مطلع اكتوبر من العام ١٩٦٥م تجمع في مدينة جوبا عاصمة الاقليم الجنوبي نيف وسبعون ضابطا من مختلف الرتب ، لاداء امتحانات الترقي ، ولغير ما سبب معروف ، شكلوا من بينهم لجنة قيادية ضمت نفرا من اعضاء تنظيم الضباط الاحرار ثم عقدوا امرهم بليل ، وقر رأيهم علي اعلان سيطرتهم علي الوضع السياسي في الاقليم الجنوبي !! ومن ثم ارسلوا اشارة برقية للسيد رئيس الوزراء ووزير الدفاع والقائد العام للقوات المسلحة ، وطلبوا منهم ان يوافوهم بمدينة جوبا للتفاكر حول جملة من المطالب وصفوها بالعدالة والحيوية ، وفي حال تخلف القائد العام ووزير الدفاع عن الحضور ، فانهم يحملانهما مسئولية ما قد يترتب علي الموقف من تبعات !! وكان واضحا من هذا التحذير الاخير انه يعني تحرك اولئك الضباط بما لديهم من قوات نحو الشمال لاستلام السلطة السياسية في البلاد عنوة !!

علمنا ان الحكومة لم تجد بدا من معاملة الموقف المفاجيء بالحكمة اللازمة ، فغادر الخرطوم الي جوبا القائد العام الفريق الخواض محمد احمد ، ووزير الدفاع بالانابة الدكتور عبد الحميد صالح ، وبمجرد وصولوهما الي جوبا وضح ان البعض قد خرج علي اجماع الضباط ورأي في ذلك الحدث والمسلك خروجا علي دواعي الضبط والربط واقتحاما لمجالات العمل السياسي الذي يجب علي العسكريين ان ينأوا بانفسهم عنه ، ومن ثم انعزلوا بقواتهم عن اجتماعات الضباط المتمردين وتدابيرهم ، ثم حدث امر مباغت للضباط والقائد العام ووزير الدفاع بالانابة ، وهو علمهم بان بعضا من الصف والجنود قد أحاطوا بمقر اجتماع الضباط في الميس فيما يشبه الحصار بغية اعتقالهم واخضاعهم لمشيئة القائد العام وامره !! ولكن اولئك الصف والجنود لم يحكموا التخطيط والتدبير اذ فاجأهم كل من الرائد فاروق عثمان حمد الله بمدرعاته والنقيب ابو القاسم محمد ابراهيم بقوات مظلاته واصدرا لهم الامر بفك الحصار والخضوع لما يتلي عليهم من اوامر وتعليمات ، والا كانت المواجهة بين الطرفين لا محالة !!

ادرك الجند وصف الضباط ان توازن القوي ليس في صالحهم ، فاذعنوا للامر وسلموا مكرهين ، ثم جري الاجتماع الذي خطط له الضباط مع القائد العام ووزير الدفاع بالانابة اللذين استمعا لمطالب الضباط العادلة ، فوعدا غير صادقين بتنفيذها ، وكانت المطالب في جملتها مهنية تتعلق بالتسليح والتدريب

والعتاد وظروف العمل العسكري في السودان عموما والاقاليم الجنوبية علي وجه الخصوص .

ثم عاد القائد العام ووزير الدفاع بالانابة للخرطوم ومن هناك اصدر الاول امره باستدعاء اعضاء اللجنة القيادية ، ثم اصدرا امرا بفصلهم من الخدمة العسكرية بعد ذلك !! ومن عجب فان بين اعضاء اللجنة ثلاثة من اعضاء الحزب الشيوعي السوداني وهم الاخوة/بابكر النور سوار الدهب ، وعبد المنعم محمد احمد الشهير بلقب الهاموش ، ومحجوب ابراهيم المعروف باسم محجوب طلقة وثلاثتهم في الواقع القادة الحقيقيون لحدث جوبا ، ومع ذلك لم يتم فصلهم ضمن الآخرين !! وهذا ما جعل البعض يعتقدون ان مسألة الفصل قد جرت بتدبير غير معلن من قيادة الحزب الشيوعي ، وقد استهدفت من وراء ذلك استعراض قوة عضلاتها السياسية لضباط الجيش عامة ، ثم التخلص من اعضاء اللجنة من قادة تنظيم الضباط الاحرار ، لينفرد ضباطها بالقيادة العسكرية والسياسية لذلك التنظيم ، وتفجير العمل الثوري بواسطتها فيما بعد .

مهما يكن الامر ، فقد ظل اعضاء الحزب الشيوعي في اللجنة القيادية لحدث جوبا ، بمنأي عن الفصل السياسي التعسفي الذي حاق بالآخرين ، ومما يثير الدهشة ايضا ان النقيب ابو القاسم محمد ابراهيم كان من ابرز قادة الحدث ، وقد تصدي لمجابهة القائد العام والسيد وزير الدفاع بالانابة في لقائهما بالضباط بكل شراسة وقوة ، ولكنه لم يذهب ضحية لقرار الفصل ! حتي ظن البعض ـ وليس كل الظن اثما ـ ان عصبيته من الهاشماب قد لعبت دورا هاما في هذا الصدد ، وذلك لانتماء كل من النقيب ابو القاسم والسيد محمد احمد محجوب رئيس الوزراء ووزير الدفاع يومئذ لذات الدوحة الهاشمابية العريقة ، وهكذا كان لمحسوبية الحزب الشيوعي وعصبية الهاشماب الاثر البالغ في تاطير الحدث وتحديد كباش فدائه !!

كان للحدث وما ترتب عليه اثره وصداه في نفوس الجند ، خاصة اولئك الذين عايشوا وقوعه وملاباساته يقيني ان حقائق ذلك الحدث وملابساته واهدافه ودواعي فشله ما تزال قابعة في صدور قادته والمشاركين خاصة اولئك الذين صدرت بحقهم احكام بالابعاد من صفوف القوات المسلحة ومعظمهم بين ظهرانينا علي قيد الحياة ولكنهم يتدثرون بالصمت ويؤثرون الكتمان ناسين او

متناسين واجبهم الوطني في كشف حقائق التاريخ وايفاء كل ذي حق حقه خاصة اولئك الصامتين قسرا تحت التراب .

لم يطل بقائي في مدينة واو ، رغم إلفتي لاجوائها وأدوائها ، وظفزي في مجتمعها المحدود بمراتع للحياة الوارفة وبطانة ودودة رجوت لصادق معزتها الدوام ، ولكن اشارة من القائد جوبا قضت باخلاء سبيلي وتمكيني من التوجه للخرطوم حسب اشارة قائد سلاح المدرعات فوضعت بذلك حدا فاصلا لبقائي بعاصمة بحر الغزال ، وغادرتها مودعا بعبق مشاعر الاخوة من رفاق السلاح وغيرهم من المدنيين .

وصلت الخرطوم ، فتركزت اولي اهتماماتي بعربتي الفلوكسواجن التي كنت - قبل توجهي للجنوب - قد اودعتها احد جراجات سلاح المدرعات ، وكانت بحق تمثل احدي اهم مقتنياتي بعاصمة البلاد ، بل ظللت طوال مدة غيابي عنها اشتاق واحن اليها ولا تغيب ذكراها وذكرياتها عن خاطري الا لماما وكأنها انثي حسناء تربطني بها اواصر الحب والفتون ، فما وطئت قدماي ارض العاصمة حتي توجهت اليها وقمت بتجهيزها ثم اخذت اجوب بها الشوارع والاحياء والمرافق في سعادة ونشوة فابتعثت في اعماقي ذكريات لم تطمس الايام معالمها وآثارها .

ولدي لقائي بقائد السلاح في صبيحة اليوم التالي لوصولي ، وضع بين يدي رتلا من الاضابير والاسفار الضخمة باللغة الانجليزية وحدثني قائلا :

- طلبت منا رئاسة الجيش دراسة هذه المراجع واعداد مذكرة باللغة العربية حول خطة واحتياجات السلاح من حاملات الجنود المدرعة والدبابات ، اضافة الي طرق ووسائل الصيانة والاستخدام وطموحاتنا المستقبلية ، وقد رأيت الاستعانة بخبرتك ومقدراتك في الترجمة والصياغة في هذه المهمة لما اعرفه فيك من مواهب علمية وادبية ، فشكرته علي حسن ثقته بي ، ثم اردفت في قلق ظاهر:

- وماذا عن ايفادي للبعثة سعادتك ؟

فادرك الرجل ما يعتمل بين جوانحي وقال مبتسما :

- علينا ان ننجز هذا العمل في مدي اسبوع واحد ، والمقرر لبعثتك ان تبدأ بعد هذا التاريخ ، فلا تعارض في المهام ولا داعي للقلق .

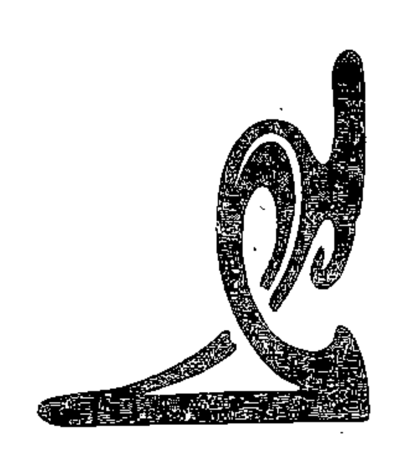
فانتشت نفسي بافادته وقلت :

- اذن ، كيف ومتي نبدأ ؟

اجاب في حزم وجدية :

ـ الآن .

ثم افرد لي مكتبا قريبا منه ، وبدأنا العمل الكبير ، واقبلت عليه في همة ونشاط وهو يتابع ويوجه حتي انجزناه قبل الوقت المحدد له ، وبدأت اعد نفسي للبعثة المرتقبة .



عَلىَ دربَ أولاد جون وطوارى الأحداث !!



{الحلقة الخامسة}
علي درب اولاد جون وطوارق الأحداث

يخطيء من يظن ان العقل والملم قادران علي توجيه مسار حياة الفرد منا توجيها شاملا لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها ، ولاشك ان للصدفة اثرها وخطرها في هذا التوجيه احيانا كثيرة ، وقد صدق من قال : وتقدرون فتضحك الاقدار .

كان لي ـ كغيري من الناس ـ مع الصدف مواقف واحداث علي درب الزمان ، فقد حدث ان التقيت علي غير سابق موعد بزميل دراستي الاستاذ/حسن شريف عرضا علي قارعة الطريق بين الخرطوم وامدرمان ، فاستوقفني ومضينا معا في نفس الاتجاه ، كان ذلك قبل سفري المرتقب الي بريطانيا بعدة ايام ، كنت اذ ذاك اقود عربتي متوجها الي حامية امدرمان وانا بكامل زيي العسكري ، وكان هو في انتظار عربة تقله الي مقر عمله بمدرسة امدرمان الثانوية للبنات وكما يجري عادة في مثل هذه الاحوال ، فقد تذاكرنا احداث زمالتنا الدراسية بمعهد امدرمان العلمي ، وما تلاها من ذكريات في الازهر الشريف بمصر ، واخذنا نجتر الاحداث والطرائف وكيف تفرقت بنا السبل ومسارب الحياة من بعد ، فاصبح هو بعد اكمال دراسته الجامعية معلما للغة العربية بمدارس السودان الاميرية ، وغدوت ضابطا بجيش البلاد ، فالتقينا اول الامر بمدينة عطبرة كل في طريقه المرسوم يتقلب في ظروفه الخاصة ، فتزوج الاستاذ حسن من احدي تلميذاته بالمدينة ، وكان ذلك مدخلا للحديث عن زواج الاساتذة بالتلميذات ، فانكرت عليه ذلك ووصفته بما لا يليق ، بحجة ان علاقة الطرفين ينبغي ان تحتويها اطر المثالية والتجرد التام عن رغبات الجسد !! فالاستاذ اب روحي لتلميذاته ، وللمدرسة حرمة وقداسة تتنافي مع دوافع الزواج الغريزية التي لابد ان يكون لاهواء الجسد ونزعاته الحيوانية فيها نصيب ! وقف زميلي الاستاذ مدافعا عن نفسة ، فاقسم بايمان مغلظة انه لم يخلط قط في علاقته بتلك الفتاة التي غدت من بعد زوجته ، بين صفتي التلميذة والخطيبة ، وان علاقته بها كخطيبة نمت وتطورت من خلال اسرتها بعيدا عن حرم المدرسة .

عرضنا . ونحن نقطع الطريق الي امدرمان . لهذه الحادثة الطريفة وغيرها من حديث الذكريات ، وفي اطار ذلك سردت عليه شيئا من مفارقات حياتي وما فيها من مغريات ومنغصات ، ولكني تجاوزت عمدا الحديث عن زواجي وطلاقي من قبل ، وابديت له رغبة اكيدة في الزواج باحدي حسناوات مدرسة ام درمان الثانوية للبنات ، مؤكدا له كامل قدراتي المالية علي نفقات الزواج والمعيشة . فقال حازما :

- انه يبارك امر زواجي ويسعي له لانه يحقق لي نصف ديني ، اما النصف الآخر فانه غير واثق تماما من حيازتي له او تحققه باي سبيل !!

اغرقنا في الضحك ساعة ثم اردف :

- لسوف ابحث لك عن زوجة حسناء كما تريد ، ولكن لن تكون من بين تلميذاتي بحال ، فهذا يتنافي ويتناقض واخلاقيات المهنة .

قلت مستنكرا :

- كيف تنهي عن خلق اتيت بمثله ؟ احلال عليك وحرام علي الغير ؟!

وواصلت هجومي علي قلاعه الحصينة وانا اعرف مواطن الضعف فيه والهزوها تباعا ، فاستسلم اخيرا للامر الواقع ولكنه قال متحفظا :

- اخشي ان احمل وحدي وزر هذه المهمة يوما ، فالعلاقة الزوجية قد تفضي الي مشاكل اسرية غاية في التعقيد والخطورة ، وعندها ستنصب لعنات الطرفين معا علي من كان السبب ، ولهذا فسوف اشرك معي اربعة من اصدقائي من اساتذة المدرسة بعد ان اقنعهم بجديتك في طلب الزواج واهليتك له .

كنا . عندئذ . قد بلغنا بوابة المدرسة ، فطلب مني ان ادخل معه للتعرف علي اولئك الاساتذة الاصدقاء وتحيتهم ليكون هذا عاملا مساعدا في انجاز المهمة ففعلت ، ثم ودعتهم علي امل اللقاء بعد اسبوع لاستبيان حصاد سعيهم الميمون . وكم كانت فرحتي ودهشتي عندما علمت . وانا اعاود زيارتهم . بان اجماعهم قد انعقد علي فتاة بعينها ذات جمال فارط وخلق كريم واصل عريق ، فضلا عن ملاءمتها لظروفي الموضوعية ، ثم اختلق الاستاذ حسن سببا وهميا لدعوتها لمكتب الاساتذة ، واتاح لي بذلك فرصة لرؤيتها ، عملا بقول الشاعر القديم : ومارأى كمن سمع !!

كنت حينئذ في كامل زيي العسكري ، فأدركني العجب العجاب اذ

احسست لاول وهلة بألفة بالغة نحوها ، حتي لقد خيل الي وأنا اراها لاول مرة انها ليست غريبة عني !! وبدا لي ذلك في مسلكها حيث حيتني في غير تكلف وكأن لها بي سابق معرفة حميمة رغم تأكيد صديقي حسن لي بانه لم يخطرها قط ولم يفصح لها عن حقيقة توجهاتي ولو تلميحا ناهيك عن التصريح !!

كانت الفتاة تجسيدا للمثال في اعماقي ، فلم اضع وقتا واعددت للامر عدته عجلا متلهفا تقود خطاي آلاف الرؤي والاحلام ، صحبت نفرا من علية القوم وطائفة من ذوي قرابتي وطرقت باب اسرتها طالبا القرب والزواج ، وبعد جهد جهيد حققنا نجاحا محدودا ، حيث وافق اهلها علي شخصي زوجا لابنتهم من حيث المبدأ والمظهر ، ولكنهم ذكروا بان كريمتهم تصر علي مواصلة تعليمها والانخراط في العمل الوظيفي من بعد باعتباره مساهمة اجتماعية وواجبا وطنيا لا ترضي القعود عنه ابدا ، ومن ناحية اخري فان بعضا من شباب الاسرة من بني عمومتها وخؤولتها قد سبق ان تقدموا لخطبتها وفيهم بعض رفاقي في القوات المسلحة ، غير انه لم يبت في امرهم بتعلة ان ذلك حدث وحديث سابق لاوانه ، وهذه ايضا مسألة تحتاج لاعادة النظر والمفاضلة ولهذه الاعتبارات فهم يرون ان اتوجه لدراستي في الخارج ، لافسح لهم الفرصة والوقت لحسم الامر بصورة قاطعة .

وجدتني ضيق الصدر بهذا الحل الوسط غير راض بما انتهي اليه الامر ، فاعتبرت المسألة معركة صممت علي كسبها واحراز النصر فيها مهما كانت الصعاب والتضحيات خاصة وقد اضرم تردد الاسرة ووجود المنافسين نار طموحي وضرام رغبتي ، ورأيت - والحال كذلك - ان افيد من خبرتي وتجربتي في ساحات الحرب والنزال فاخضعت الامر برمته الي اجراءات المعركة العسكرية ، فقمت اولا بتحديد القصد وكان واضحا ، ثم المعلومات اللازمة عن العدو والقوات الصديقة ، وعقدت موازنة دقيقة بين القوي بعد دراستي الوافية لارض المعركة ، فعلمت في هذا الاطار بان للسادة عبد الله الفاضل المهدي وبابكر عوض الله علاقة قربي غير مباشرة وصداقة وطيدة بوالد الفتاة ، فعملت علي كسبهما دعما لاسلحة هجومي فتوجهت اولا الي السيد بابكر عوض الله لسابق علاقتي به طالبا منه ان يزكيني لدي والد فتاتي ففعل فكانت تلك اضافة لا يستهان بها ولما لم تكن لي علاقة مباشرة بالسيد عبد الله الفاضل فقد توجهت لسعادة

اللواء الطاهر عبد الرحمن المقبول بعد ان علمت بان ثمة صلة قوية تربطه بالسيد عبد الله الفاضل ، وهو في ذات الوقت من ابناء مدينتنا سنجة وبينه وبين والدي وشائج ود والفة ، فلم يتردد اللواء في اجابة طلبي ، ومن عجب انني عندما عاودت زيارته بحثا عن اليقين ضحك في سخرية وقال لي :

ـ تعرف يا محجوب ، السيد عبد الله فاتحني في موضوعك قبل ان احادثه فيه انا !!

تساءلت دهشا : وكيف كان ذلك ؟!

قال : لقد استشاره والد الفتاة في امر زواجها منك فاستمهله السيد عبد الله ريثما يسأل عنك ليبدي مشورته عن فهم وادراك ، وكنت انا ذلك المسئول !

عند ذلك تنفست الصعداء ، وادركت ان قواتي الصديقة لم تأل جهدا في تعزيز مواقعي وقدراتي القتالية وانها معقد الرجاء في الجولة الحاسمة . فقمت بحشد قواتي واسلحتي وعتادي وتحركت بها ـ صوب منطقة التجمع استعدادا لاصدار اوامري الاخيرة ثم التحرك لقطع خط الابتداء ، ليبدأ من ثم الاقتحام الذي تعقبه مرحلة اعادة التنظيم واستغلال النجاح .

عزيزي القاريء ..

كان بودي ان اطلعك علي تفاصيل وملابسات تلك المعركة في حياتي ، غير ان محور الصراع فيها ـ زوجتي وام ابنائي وبناتي آمنة خالد بشير ـ رأت ان هذه التفاصيل اسرار عائلية لايحق لي وحدي الكشف عنها ، ولم تشأ ان تفعل ، فنزلت علي رأيها احتراما لآصرة الزوجية والرأي . ويكفيك ان تعلم ـ اخي القاريء الكريم ـ انني اتفيأ معها ظلال حياة سعيدة زاخرة بالعطاء والمجد والصمود مضي عليها اكثر من عشرين عاما ، انجبنا خلالها كوكبة من الفرسان والازاهير : خالد وخالدة ومازن ومحمد نور وحاتم والصغيرة نادرة ونطمع ان نزيد . خاصة وابناؤنا ـ بتوفيق من الله ـ يحرزون قصب السبق ويتقدمون رصفاءهم في ساحة العلم والدراسة ، ويحدونا عظيم الامل والرجاء ان يحققوا يوما مالم يحالفنا الحظ في تحقيقه من آمال عراض ومطامح وطنية دونها كل طموح ، فقد تهيأت لهم الاسباب ، وطوقنا اعناقهم بمآثر وتضحيات اسرية ووطنية ظللنا نؤكد انها لو توفرت لنا لكنا .. وكنا .. ولكان بالامكان اكثر واروع مما كان !!

في مطلع نوفمبر ١٩٦٥ غادرت الخرطوم الي لندن علي طائرة الخطوط الجوية السودانية الكومت لحضور فرقة قادة الفصائل المدرعة بالمملكة المتحدة ، فتجاذبتني ـ والطائرة تحلق في الفضاء العريض ـ انفعالات تناغمت في عنفها مع ازيز المحركات الصخابة ، ولم اجد للانفلات من سيطرتها الا الاغراق في الخيالات وتهيئة النفس للظروف الجديدة التي سأعيش فيها بعد ساعات قليلة ، كنت قد رسمت للحياة في اوربا عامة وبريطانيا علي وجه الخصوص صورا شتى من الكمال والانضباط من خلال ما قرأت او سمعت عبر السنين ، فتصورت ـ والحال كذلك ـ صعوبة التجربة التي اوشك ان امر بها بعد حين ، ووقع في روعي انه ما ان تطأ قدماي الارض الاوربية حتي اصاب بصدمة حضارية قاسية قد تؤدي الي قلب تكويني النفسي واهتزاز مشاعري وقناعاتي الفطرية فاصابني من ذلك شيء من الرهبة .

ومن عجب فقد وجدتني ـ وانا اغادر مطار هيثرو حيث حطت بنا الطائرة ـ استقبل الاشياء كلها والناس ومظاهر الحياة الحضارية الباذخة بلا رهبة ولا انفعال ، وكأنها أشياء مألوفة لدي قد عايشتها وتقلبت فيها من قبل !! فحار عقلي في تفسير هذا الشعور الجديد !!؟

ومهما يكن الامر ، فقد غادرت مطار هيثرو الي بيت السودان (برتلاند قيت) حيث التقيت بطائفة من الطلبة السودانيين المبعوثين هناك وقد شكلوا فيما بينهم جالية صغيرة .

وفي صبيحة اليوم التالي اتصلت هاتفيا بدفعتي النقيب/احمد محمد عثمان ، وكان قد سبقني الي المملكة المتحدة موفدا من سلاح الاشارة الي كلية فرادي الفنية لدراسة هندسة اللاسلكي ، وهو يقيم بانحاء (بادنجتون) بلندن ، وقد اتصلت بيننا الرسائل والمكاتبات قبل مبارحتي ارض السودان ..

بادر احمد بلقائي اثر تلك المحادثة الهاتفية ، واحتفي بمقدمي كثيرا ، ثم صحبني الي مكتب الملحق العسكري بسفارة السودان بسان جيمس ، وهناك التقينا بالملحق العقيد (أ.ج) مزمل سلمان غندور وساعده الرائد يوسف احمد يوسف ، فلم يألوا جهدا في الترحيب والاهتمام المفرط بأمر بعثتي الي تلك البلاد ، وزوداني بشرح واف للدورة الدراسية المرتقبة كما امداني بالكتب والمراجع اللازمة ، وقبل ان اغادر مكتب العقيد مزمل دعاني هو والرائد يوسف احمد

لتناول وجبة العشاء بمنزله في نفس ذلك اليوم ، وكان الرائد يوسف يشاطره السكن بذات العمارة ..

في المساء الفيتهما معا في شقة العقيد مزمل ، وفي معيتهما لفيف من الضباط المبعوثين الذين الفوا دعوات العقيد المنزلية ، فالعقيد مزمل - وليس للمجاملة مكان فيما اقول - عرف بالكرم المفرط كما عرف بغزارة العلم والذكاء وطموح سياسي لا تحده حدود ، روي غرسه عبر السنين بتلك الصلات الطيبة مع مختلف رتب وفئات الضباط ، لدرجة ان بريده اليومي كان يعج برسائل الاصدقاء من الضباط ، ورغم ذلك لم يجن من ثمار ذلك الغرس ما يرضي مطامحه وتطلعاته البعيدة رغم انه تقلد عدة مناصب هامة حيث اضحي سفيرا ثم وزيرا للداخلية ، ثم مستشارا لرئيس الجمهورية للشئون الاقتصادية ، ولكنها جميعا لم ترو ظمأه للمجد ، فما كان لنفسه ان ترضي بغير منصب الرئيس بديلا، تلك قناعته التي غذتها الايام ومشاعر الصحاب . ومع ذلك فقد كان بعضا من اضرابه واترابه يأخذ عليه بعضا من الهنات !!

اذكر انه في ذلك العشاء السامر بمنزله ، ظل آخذا بناصية الحديث يديره في جاذبية واقناع ، ولكنه في محاولته للتبسط والتمثل بعامة الناس تنزل من عليائه كثيرا ، وصدرت عنه الفاظ وعبارات - في معرض التواضع - ما كان ينبغي ان تسمع من مثله ففي حوار ابتدره بعض الحضور وشارك فيه مضيفنا وجه نقدا لاذع لسلوك واداء بعض كبار الضباط والشخصيات السياسية ، فلم يعجب الطرح نفرا من الحاضرين وانكروه ، فانبري العقيد للدفاع عن نفسه واولئك الذين ابتدروا الحديث قائلا :

- نحن لا نظلم من لم يظلم نفسه قولا او فعلا ، ويتوجب علينا في هذه الحال ان نواجهه بالنقد دون خشية او موارية ، فنقول للاعور انت اعور مهما كانت مكانته وموقعه ، بل نتجرأ ونقول ان البغلة ليست في الابريق وليكن بعد ذلك ما يكون ، فما يعرف يجب ان يقال ، والسكوت علي الخطأ تعاميا او تدليسا يؤدي لاوخم العواقب !!

كنت استمع الي آراء العقيد بكثير من العناية والاستغراق ، وما كاد يخلص الي ذلك الجزء الاخير الجريء منها حتي اعتملت في صدري تساؤلات وقفت ازاءها طويلا :

ـ هل النقد دائما وابدا ضروري ومفيد ؟ وهل نتمسك بالمصارحة سبيلا لاحقاق الحق وان آذت مشاعر الاخرين ؟ السنا مطالبين بقدر من السماح الاجتماعي وغض الطرف احيانا حفاظا علي الروابط والعلاقات الانسانية من تسرب المواجد والخلل ؟! الا يقتضي الحال احيانا ان نحتفظ ببعض آرائنا الشخصية والا نواجه الناس بما يكرهون وان كان حقا صريحا ؟!

ذكرني ذلك الذي تشاغلت به عن لجاج الحاضرين بمسرحية (بعض الناس) للكاتب الفرنسي الكبير موليير وكنت قد قرأتها مترجمة ، وفيها اراد موليير ان يؤكد من خلال طرحه الدرامي الاخاذ ان الصراحة المطلقة ليست دائما صفة اجتماعية محببة ، وان من يتخذها مبدأ صارما في تعامله مع الناس قد ينتهي به الامر لان يعيش معزولا عن الآخرين ، فقد كان بطل المسرحية يؤمن بانه من الضروري لتقويم حياة الناس الاجتماعية وردع المفسدين فيها ان نواجههم بآرائنا الحقيقية فيهم دون تحفظ او موارية ، فمضي يطبق ذلك فيمن حوله من الاقارب والمعارف والاصدقاء ، فانتهي به المطاف اخيرا الي فقدان كل علاقة له بهم وتباعدهم عنه وعزوفهم عن معاشرته !! في حين ظل صديقه المجامل المتحفظ المنافق احيانا يشق طريقه في الحياة صاعدا محاطا بالحب والتقدير والاعجاب !!

لقد هدف موليير الي تأكيد حقيقة مثيرة مؤداها انه لكي نشوه سمعة احد بني البشر او ندمر حياته تماما فما علينا الا ان نذكره للاخرين بسوء ثم نترك لخيالهم الجامح مهمة الاثبات وتلفيق البراهين وانه لكي نرفع من قدر احد منهم قيد انملة واحدة فانه يلزمنا ان نبذل جهدا خارقا في الاقناع ، وهي مهمة اشبه ما تكون بالولادة المتعسرة ، وقلما يحالف القائم بها التوفيق والنجاح .

كنت قد تعمدت الوصول الي لندن قبل بداية دورتي الدراسية بعدة ايام حتي اتيح لنفسي فرصة البقاء والتعرف علي العاصمة البريطانية فأجوب طرقاتها وأتأمل معالمها وصور الحياة فيها ، وقد تحقق لي ذلك الغرض الفضولي السياحي كما املت ، وكانت لي مواقف طريفة نظمتها في عقد ذكرياتي وتعلمت منها الكثير ، من ذلك مثلا انني وصديقي احمد كنا نتجول في منطقة بيكاديللي فابصرت رجلا انجليزيا في خريف عمره يجلس في احد الاركان ليمارس مهنة مسح الاحذية للسابلة لقاء اجر معلوم ، فارتفع صوتي متسائلا :

ـ تري هل يقبل هذا الرجل ان يمسح حذائي ؟!

فاجاب صديقي احمد بعفوية :

- ولم لا ؟ تلك مهنته ومصدر قوته في الحياة ، عندئذ تساءلت فيما بيني وبين نفسي: - تري كم من الازمان والقرون اخضع هؤلاء البريطانيين رقاب الشعوب في العالم الثالث وداسوا عليها باحذية السلطة في صلف وجبروت ؟!

ومضيت احدث نفسي :

- هاهي الفرصة اتيحت لي في عقر دار هؤلاء الطغاة المأفونين ، فلاجعل احدهم يقوم بمسح حذائي اذلالا وانتقاما لا لحاجة او ضرورة .

سألت صديقي احمد :

- كم يتقاضي هذا نظير مسح الحذاء ؟

قال : ليس اكثر من عشرة بنسات .

عندها قررت ان امنحه عشرين بنسا بدلا من عشرة اظهارا للتعالي واخضاعا لمشاعره لسطوة مالي ، ثم تقدمت نحو الرجل واثقا منتصب القامة ووضعت حذائي فوق صندوق ادواته وانا انظر اليه من عل !! فاشرع نحوي عينين كليلتين في نظرة فاحصة ، ثم بدأ يعمل في صمت ، احسست حينها باني أثار للملايين من ابناء وطني الذين عانوا ويلات صلف المستعمرين وعنجهيتهم لما يربو علي نصف قرن من الزمان ، واذ انا ممتلء النفس بنشوة الظفر ، جاءني صوت الرجل يتساءل في انكسار :

من اي اجزاء افريقيا انتما ؟!

- السودان .

- السودان ؟! رددها مرارا في عمق ثم واصل :

- لقد كان احد اقربائي يعمل هناك حين كان السودان مستعمرة بريطانية ، ولكم تمنيت ان اجيب دعوته لزيارة السودان ولكني لم اتمكن من ذلك .

سألت الرجل ساخرا :

- وهل كان قريبك ذاك يعمل مثلك ماسحا للاحذية ؟ فتوقف الرجل بغتة كمن لدغته افعي واخذ ينظر الي شذرا ، ثم ضحك في سخرية لاذعة واجاب وهو يواصل مسح الحذاء :

- لا ، بل كان يعمل موظفا في احدي الشركات البريطانية ولواتيحت لي فرصة السفر الي السودان لعملت موظفا بتلك الشركة لا ماسحا للاحذية كما هو

حالي الآن هنا .

قلت بمزيد من السخرية :

- ولم لا ؟ ربما كانت اتيحت لك الفرصة ايضا لتتولي منصبا اداريا رفيعا فتصبح حاكما علي بلادنا !

توقف الرجل مرة اخري وسألني في جدية بادية :

- هل انت سياسي افريقي تعادي البريطانيين ؟! علي العموم هذه مسألة عادية ، فانا اذهب كل يوم احد الي ركن هايد بارك لاسمع آراءكم المتطرفة المناوئة لبريطانيا والبريطانيين ، ولا اجد سببا لهذا الحقد الاسود ..

ثم ضرب الرجل في انفعال علي جانب الصندوق معلنا عن انتهاء مهمته ، فسحبت رجلي ببطء واخرجت من جيب سترتي عشرين بنسا ودفعت بها اليه في زهو وخيلاء ، فتناولها وعدها ثم اعاد لي عشرة بنسات وهو يقول :

- هذا يكفي ، مشيرا للعشرة بيده الاخري واضاف :

- لا تدفع اكثر من هذا .

سيطر علي شعور بان الرجل يتفضل علي بالنصح ، ويتصدق علي بحر مالي !! فآلمني ذلك ولكني تجاوزت مرحلة الالم وقلت له :

- لك ان تحتفظ بالعشرة الاخري ..!!

فقبلها شاكرا وانصرف يجمع ادواته ، عند ذلك راودني احساس ممض بانني ابذل مالي وافرط فيه كالاخرق ، واخذت اعقد مقارنة سريعة بين استغلال بريطانيا لمواردنا الاقتصادية يوم كنا نفرط فيها بغير وعي وبين استغلال هذا الرجل لقدراتي المالية المحدودة بتفريط مني واصرار !! ثم تلاشي ذلك الخاطر في زحام المدينة العملاقة العريقة .

ومن المفارقات والطرائف في تلك الايام ايضا ، انني وصديقي احمد كنا نتجول في ميدان الطرف الاغر بين اسراب الحمام ، ذلك الميدان الذي اقيم تخليدا لذكري معركة بحرية هامة حمل اسمها وعرف بها ، وقام في وسطه تمثال قائد المعركة (نلسون) يناطح السحاب في العاصمة البريطانية تحيط به اسراب الحمام فاجتمع في رحاب الميدان الشهير رمزا الحرب والسلام في آن واحد .

بينما كنت مستغرقا في هذه التأملات ، اذا باحدهم يدفع نحوي بفتاة بيضاء اللون ذات جمال آسر وسحر يخلب الالباب ، كانت الفتاة انيقة الملبس

حتي لتحسبها احدي ملكات التاريخ جلالا وبهاءا ، واذ انا مأخوذ بما جري سابح في بحار الفتنة والدهشة واصل الرجل دفع الفتاة نحوي حتي لاصقتني تماما ثم رفع ذراعها ووضعها في مودة ودلال مفتعلين علي كتفي !! فأرسلت الفتاة ضحكة غنجة طليقة من قيود الحياء والاحتشام ، وكشفت بذلك عن معدنها وهويتها منذ الوهلة الاولي !! وتباعد الرجل عنا بضعة امتار ووجه نحونا آلة تصوير يحملها والتقط لنا صورة فوتغرافية في ذلك الوضع ، وماهي الا دقائق معدودة حتي اقبل نحوي مادا يده ببطاقة وهو يقول :

- هذا هو عنوان الاستديو ، عليك ان تحضر غدا لاستلام الصورة ، وبالطبع فانت تستطيع ان تباهي شباب بلدك بان لك صديقة حسناء كهذه !! فقط يتوجب عليك أن تنقدني جنيها واحدا من اجل هذا الجهد والجمال ، وعلي فكرة ، يمكنك ايضا ان تطلب التقاط مشاهد اخري مع نفس هذه الفاتنة في اماكن اخري متفرقة بنفس القيمة لكل مشهد ، وبهذا تؤكد قولك لرفاقك بان هذه صديقتك البريطانية !!

انفجرت ضاحكا من اعماقي وانا موزع النظرات بين الرجل والفتاة وصديقي احمد يراقب من بعيد ، ثم فجأة تحول ضحكي الي ثورة عارمة وقلت :

- ما هذا الذي تفعلون بحق السماء ؟! ابمثل هذه الاحابيل والترهات تبتزون اموال الزوار؟

صعق الرجل لثورتي وقال مقاطعا :

- هذا شأن الافارقة والآسيويين ، ونحن نستجيب لرغباتهم ونرضي غرورهم الزائف وتطلعاتهم الحبيسة وبذلك نحقق كسبا مجزيا لنا وكذبا وتدليسا لهم ! وشرقت الفتاة بالضحك لمرئى صديقها في ذلك الموقف الحرج وقالت :

- لماذا تصارحه بكل هذا ؟

فاجاب بالقول :

- يبدو لي انه الحق ، وهذا كل مافي الامر !!

ثم تركها ووجه حديثه الي قائلا :

- لا عليك ان لم ترغب في الصورة ، الي اللقاء !!

وانصرف الرجل بفتاته الحسناء يبحثان عن زائر افريقي آخر او آسيوي ، والفتاة اذ تلتقي بالغنيمة المرتجاة فتلتصق بها في تغنج ودلال ومودة مفتعلة

هي قطعا تضحك وتسخر في اعماقها ممن يقف الي جانبها كالابله في انتظار صك الفحولة وسند زائف باختراق دفاعات الشرف البريطاني المرتجى !!

غادرت لندن الي محافظة دورست بالقطار حيث توجد مدرسة المدرعات الملكية بكل من معسكري باڤتجتون وللورث ، كانت رحلة ماتعة بما تجدد فيها من مناظر الريف الانجليزي ذي الخضرة الممتدة ، وفي مقعدي بقمرة القطار ، الفيتني مع ثلة من اهل البلاد ، شاب يحتضن فتاة ويهمس في اذنيها ولا يكف عن تقبيلها ابدا ، والي جواره كهل بريطاني لا يرفع عينيه عن كتاب يطالعه باستغراق مفرط ، وقد نسي او تناسي كل ماحوله ومن حوله تماما ، فلم يكن يصدر عنه الا صوت الصفحات يقلبها بانتظام وحرص ، والي جواري جلست امرأة في حوالي الستين من العمر ، والي جانبها قبالة النافذة فتاة في منتصف عقدها الثالث خيل الي للوهلة الاولي انها ابنتها لما كان يدور بينهما من حديث ودي متصل ، كانت الفتاة ترتدي ثوبا قصيرا جدا (ميني جيب) يكشف عن معظم مفاتن جسدها الابيض الفض ، ولم يكن ذلك منها الا جريا وراء الموضة في تلك الايام ، فالفستان المتناهي القصر زي مألوف ينم عن الذوق ومواكبة الحضارة في بلدها وكل الاقطار الاوربية الاخري ، ويمثل نوعا من الانتفاضة والتحرر بين الشباب ، اما مشاهد التلاحم والقبل وما شاكلها فلم تعد تثير اهتمام احد وان حدثت في الطرقات والميادين ووسائل المواصلات العامة !! ومن عجب فقد ظننت وقتها - وليس كل الظن اثم - ان ممارسة التقبيل عند الشباب الاوربي يمثل غاية في حد ذاتها وليست وسيلة او مرحلة لما بعدها ، اذ ان برودة الطقس وعوامل المناخ الاخري لها اثرها في شل حركة الجسد في تلك البلاد .

كانت العجوز الي جواري تتصفح باهتمام شديد جريدة مسائية ، وفي صدر صفحتها الاولي خبر بارز يحكي عن مغامرة عاطفية مع صورة كاريكاتيرية تبلور الحدث في سخرية بعيدة ، اجتذبني الخبر وشد انتباهي فاذا بعيني مشدودتين الي السطور في محاولة للتعرف علي تفاصيل الحدث المثير ، فاثار تصرفي هذا غضب السيدة العجوز التي نظرت الي شذرا وازاحت الجريدة عن عينيها وخاطبتني بامتعاض :

- لا شك انك كثير الفضول !

فتعمدت تجاوز الشعور بالحرج وقلت ساخرا :

- اري ان انتفاضة الجنس قد امتدت وتجاوزت كل الحدود !!
تفحصتني العجوز باستغراب وتعجب وهي تقول :
- اسمع ياهذا ، نحن لا نقبل تجريحا او نقدا ، وخاصة من ملون مثلك .
ثم اردفت متساءلة :
- هل انت افريقي ؟
قلت : نعم
قالت : هذا واضح ، فاشواك الغاب ، لازالت عالقة بلسانك !
تمالكت نفسي وسيطرت علي انفعالاتي واكتفيت بالنظر اليها شذرا كرد علي الاساءة والتحقير ، ويبدو انها احست بشيء من الضيق لنظراتي الغاضبة فطلبت من ابنتها ان تبادلها المقعد ، ففعلت هذه وجلست الي جواري ، ثم ابتدرتني قائلة :
- لا تغضب ، فوالدتي - شأنها شأن كبار السن في هذه البلاد - لاتحب الملونين ، وتنفعل قسرا حين تصطدم بهم في زحام الحياة ، اذ ان الملونين يمثلون نسبة عالية بين سكان الجزر البريطانية وهذه حال يضيق بها كثير من اهل البلاد
مسحت كلمات الفتاة ماران علي قلبي فسألتها :
- وماذا عنك انت ؟ هل تحسين بالضيق مثلهم ؟
فاشرق وجهها وقالت :
- البحث الاجتماعي مهنتي ، وهذا ما يجعلني اتعامل مع الناس كل الناس بغض النظر عن الوانهم كعينات علمية دون مشاعر عنصرية متحجرة ، اكملت الفتاة عبارتها مع توقف القطار وهي تغادر مع والدتها التي كانت ماتزال تنظر الي شذراً وودعتني الفتاة بتحية مقتضبة .

بدأنا الدورة التدريبية بمقدمة تاريخية عن انواع المدرعات والدبابات وحاملات الجنود ونشأتها وتطورها عبر القرون ، القاها علينا احد المعلمين داخل المتحف الحربي ، وعند نهاية الدرس - وكنا قد وقفنا علي كل اشكال وصور المدرعات وتاريخها ومراحل تطورها - انتصب ذلك المعلم الي جوار دبابة بريطانية حديثة من طراز (شفتن) ووضع مؤشر عصاه عليها واخذ يردد في حماس وانفعال ظاهر قوله :

ـ هذه الدبابة هي اعتي اعداء الانسان علي وجه الارض قاطبة ، منذ ان عرف الانسان العراك والحروب! انها غول هذا الزمان ، هي وحدها القادرة علي بلوغ مواقع الاعداء خلف الهضاب والموانع الطبيعية والصناعية علي السواء ، هي وحدها التي لا يمنع تقدمها شيء .. هي وحدها القادرة علي التحرك من خلال الوحل والدماء الي الحقول الخضراء .

هنا همهم احد الطلبة البريطانيين الي جواري هامسا لزميل له :

ـ الم يسمع هذا الاحمق الجاهل بالصواريخ الموجهة والقنابل النووية ليصف هذه الكتلة من الحديد بانها غول هذا الزمان ؟!

بلغ همس الطالب اذن المعلم فقطع حديثه وقد ازداد انفعالا وقال للطالب:

ـ انت ايها الابله ، بم تهمهم وماذا تقول ؟

فاضطرب الطالب لحظة ثم اجاب بسرعة وذكاء :

ـ انا ياسيدي شديد الاعجاب بعبارتك (انها غول هذا الزمان !! هذه العبارة ياسيدي آية في البلاغة والجمال) !!!

تركت الاجابة اثرها في نفس المعلم فانفرج ثغره بابتسامة عريضة عبرت عن زهو وخيلاء ، ثم طاب له ان يقول في معرض الفخر بثقافته العسكرية ـ ان هذه العبارة قالها يوما القائد الالماني روميل !! وتجاوب الطلبة معه بالتعليق وقال احدهم :

ـ ياله من عدو عبقري يا سيدي المعلم !

فجأة تغيرت ملامح الرجل المعلم واعتراه الغضب فقال :

what are you facking saying !!

وذهل الطالب لغضبة معلمه المفاجئة ، وادركه الخبال والارتباك ، فقال متلجلجا :

ـ قصدت يا سيدي ، اعني .. اردت ان اقول ..

فلم يمهله المعلم وقاطعه :

Ridiculous ماذا تقول عن مونتجمري وآيزنهاور وبرادلي مادمت تصف روميل بالعبقرية ايها المأفون ؟

واذ يحاول الطالب ان يجد له مخرجا من المأزق الذي وجد نفسه فيه ، يلاحقه المعلم آمرا له بالصمت المطبق ، ثم يصليه نارا حامية من عبارات التقريع

والاهانة .

علي شاكلة هذا المعلم ، الفينا رفاقه المعلمين بمدرسة المدرعات الملكية عموما ، في صرامة مسلكهم وطرائق تدريسهم واسلوب معاملاتهم ، كلمات مثل : قذر ، احمق ، سخيف facking وما يماثلها ، لا تفارق السنتهم في قاعات الدراسة ومواقع التدريب .

اذكر ان احد هؤلاء المعلمين كان يدمن التدخين من غليونه بشراهة بالغة ، وفجأة جاءنا ذات يوم بلا غليون ، زاعما انه قرر الاقلاع عن عادة التدخين الذميمة ، وسألنا : كيف نراه بلا غليون ؟!

قلت له بعفوية :

ـ انك يا سيدي تبدو عاريا بغيره !!

فانفجر زملائي من الطلاب ضاحكين ، وانفجر المعلم غاضبا ، ورشقني بحمم من العبارات البذيئة .. ولكني قابلتها ببرود وسخرية ، فقد كنت موقنا انها لا تجاوز شفتيه الي مواقع القصد والاقتناع في نفسه .

استمرت الدورة التدريبية علي هذه الحال لمدة ثلاثة اشهر جري تقسيمنا خلالها الي ثلاثة مراحل دراسية هي مرحلة تدريب وتعليم قيادة وصيانة المدرعات ، ثم مرحلة التعليم والتدريب علي المدفعية والاجهزة اللاسلكية ، ثم اخيرا مرحلة تعلم وتدريب تكتيك المدرعات بمعسكر تدريب (للورث) المجاور لباڤنجتون ، وقد كان لي من رصيدي السابق من العلم والتدريب في اطار الاستعداد لهذه الدورة خير معين لاستيعاب علومها المتقدمة ، اذ افدت كثيرا من مراجع وخبرة الضباط الذين سبقوني اليها من ابناء البلاد ، ولهذا لم اواجه فيها عسرا ولا رهقا ، بل احرزت فيها الدرجات العلي حتي علي الضباط البريطانيين .

كان من بين مهام تدريباتنا وامتحاناتنا العملية تكليفنا باعداد والقاء دروس نظرية واخري عملية علي اقراننا في الدورة ، وذلك لصقل علم وموهبة وخبرة واختبار المعلم فينا وتأهيلنا لهذا الغرض بعد التخرج .

في هذا الاطار تحدد لي القاء درس (استخدام المدرعة صلاح الدين في عمليات الاستكشاف) فبذلت جهدي لاستيعاب الموضوع واثراء حصيلتي في هذا الجانب من المراجع العسكرية في مظانها المختلفة حتي تشبعت تماما

بالموضوع وقتلته بحثا وتحليلا ، وفي اليوم الموعود بدأت الدرس بمقدمة مركزة عن البطل صلاح الدين الايوبي الذي حملت المدرعة اسمه واشتهرت به ، فشكرت البريطانيين صناع المدرعة علي تخليدهم لذكري الابطال من غير امتهم ، ثم عرجت علي سيرة البطل صلاح الدين وعصره وملكات القيادة التي كان يتحلي بها وما كان يواجه الامة الاسلامية من اخطار ، فتحدثت عن انتصاره الرائع في موقعة (حطين) الي الشمال الغربي من مدينة طبرية ، وهو نفس الموقع الذي القي فيه السيد المسيح عليه السلام (موعظة الجبل) . كما تحدثت عن فتحه التاريخي لمدينة القدس امنا ومحجة للناس من كل جنس ودين ، مسلمين ونصارى ويهود ، وعن نبله وكريم شمائله التي جعلته في غمرة الشعور بلذة النصر والظفر لا ينسي ان يكرم عزيز قوم ذل تحت وطأة الهزيمة والانكسار الا وهو [illegible] (رتشارد قلب الاسد) القائد البريطاني العظيم ، فضرب صلاح الدين بذلك [illegible] الامثال في الشهامة والنبل والمثل الاعلي لسلوك الفارس ومسلك الفروسية الحق ، وفي مجال الاستخدام العسكري قلت :

ان البطل صلاح الدين استخدم كتائب الفرسان المحمولة علي العربات [illegible] التي تجرها الخيول ، واوكل لها في كل حروبه قيادة قلب الهجوم ، وسماها كتائب الفرسان ، ولهذا اطلق العرب اسم سلاح الفرسان علي قوات دروعهم الحديثة .

وقلت ايضا : ان البطل الذي ولد بقلعة تكريت بالعراق عام ١١٢٨م ثم انتقل الي جوار ربه عام ١١٩٣م بدمشق ، قضي جل عمره علي صهوة جواده غازيا ومحاربا في سبيل الله ومجد العروبة والاسلام ، فانتزع بسيفه وعزمه الذي لا يفل خلود الذكر علي مر الايام . فقد اثمر جهاده دولة عربية شاهقة البنيان عزيزة الجانب مرهوبة من الاعداء ، وحدت ارض مصر وبلاد الشام وبعض ديار العرب وربطت شعوبها برباط وثيق ، فكان صلاح الدين حقا اول صانع للوحدة والقومية العربية في العصور الوسطي .

ثم انتقلت ـ بعد المقدمة ـ الي الحديث عن استخدام المدرعة صلاح الدين في اغراض الاستكشاف ، فأوفيت الموضوع حقه من التفصيل والبسط ، وفي نهاية الدرس نهض مراقب الحصة والحماس يأخذ بمجامع نفسه وهنأني بحرارة بالغة وقال :

ـ المقدمة التي ذكرتها عن البطل صلاح الدين الايوبي لا تدخل بحال في الدرجات المقررة لعناصر الدرس المطلوب ، ولكني لا املك الا ان امنحك عليها درجات لفرط اعجابي بها ، وهذا ـ لعمري ـ ما لم يحدث لاحد قبلك !!

اثلجت كلمات المراقب صدري وحفزتني لمزيد من العطاء ، وعند نهاية الدورة التدريبية غادرت مدرسة المدرعات الملكية الي مكتب الملحق العسكري بسفارة السودان في لندن ، وكنت قد طلبت من قبل عطلتي السنوية وهي شهر ونصف الشهر ، ففاجأني العقيد مزمل بافادة مفرحة فحواها ان قيادة الجيش استجابت لطلبي ، ونصحني ـ وهو يعلم بقدراتي المالية الكافية بقضاء شطر من عطلتي في ربوع ايرلندا بشقيها البريطاني والمستقل ، واستجبت لنصحة شاكرا مقدرا .

وزرت ايرلندا من بعد ، ثم غادرتها الي العديد من المدن الاوربية ، تحفزني علي التجوال بينها سيارة المانية جديدة من طراز (المرسيدس) ابتعتها من مدينة فرانكفورت ، وتوليت في ايام عطلتي تلك قيادتها مخترقا القارة الاوربية وبلاد الاتراك والشام الي ميناء بيروت السياحي المسالم الوادع وقتها !! وهناك اودعتها جوف احدي السفن البحرية وهي في طريقها الي بورتسودان ، كانت الرحلة بحق مثيرة مدهشة يلزم لوصفها حيز طويل عريض وليس الي ذلك من سبيل ، مهما يكن الامر ، فقد عدت في نهاية المطاف الي السودان ، احتقب العلم والتكنولوجيا الاوربية فكرا ومادة الاخيرة تمثلت في عربتي الالمانية الفارهة الجديدة !

علي الصعيد المهني عاودت عملي الرسمي بسلاح المدرعات ، وكان قد نقل لقيادته حديثا العقيد مبارك عثمان رحمة ، وبدا لي منذ اليوم الاول لعودتي للسلاح ان العلاقة بين العقيد مبارك قائد السلاح والعميد/علي حسين شرفي قائد حامية الخرطوم وقتئذ والتي يخضع لها سلاحنا المدرعات : لم تكن علاقة سويه ولا ايجابية ، اذ استدعاني سعادة العميد بصفة شبه رسمية وطلب مني ان اعد بحثا سريا من ثلاثة فقرات :

الاولي : عن تاريخ المدرعات عامة وسلاح مدرعاتنا خاصة بدقة وتفصيل

والثانية : عن تنظيم الوحدات المدرعة من الفصيلة الي الفرقة (تنظيم غربي) وتحديد النظم الحالية التي يأخذ بها سلاحنا ، ثم اقتراح تنظيم جديد

للسلاح يجاري تطور نظرائه في العالم ، مع وضع الاعتبار اللازم لامكاناتنا الاقتصادية كدولة نامية لا تتحصل علي حاجتها من السلاح المدرع بيسر وسهولة .

والفقرة الثالثة والاخيرة : عن الاستخدام التكتيكي للمدرعات ، واحتياجات السلاح البشرية والادارية مع التركيز علي تعاون المدرعات والمشاة .

ثم قال لي العميد في نهاية تكليفه :

ـ انه يثق بي وبقدراتي العلمية والادبية ، ولهذا فهو يأمل ان افرغ من المهمة واتقدم له بالتقرير في مدى شهر واحد فقط !! مع لزوم المحافظة علي سرية التكليف ، ثم اردف : ومن اجل هذه السرية لن آمر بتفرغك ، واترك لك حرية اختيار الاسباب التي تتيح لك فرصة انجاز المهمة في الوقت المحدد !!

وجدتني حفيا بالتكليف مشرقا لانجازه ، فلما انتهي من حديثه اجبته بالموافقة ، بل قطعت له الوعد بالفراغ مما طلب في غضون اسبوعين فقط فشد علي يدي شاكرا وهو يودعني ولم ينس ان يزودني ببعض المراجع والنصائح والآراء ، فلم يخرج التقرير حين قدمته له عن تلك الاطر ، وذلك يعني انه كان لي فقط فضل الصياغة وترتيب الحقائق ، وقد تكشف لي يومئذ ان سعادة العميد/ علي حسين شرفي ذو علم عسكري غزير وخبرة علمية واسعة ، وهذا ماكان يجهله عنه الكثيرون آنذاك ، وخاصة العقيد/مبارك عثمان ، فما كان اصرار الاول علي كتابة ذلك التقرير السري ، الا لان العقيد مبارك كان قد تقدم بتقرير مماثل ، مقترحا تنظيما للسلاح متطورا طموحا ، تحت قيادته ، ولكنه بدلا من تقديم التقرير حسب الاجراء العسكري الروتيني عن طريق العميد علي حسين قائد الحامية ، تخطي العميد ورفعه مباشرة الي قيادة الجيش !! وبرر ذلك التخطي بغياب قائد الحامية وقت رفعه ! اما العميد/علي فقد اعتقد ان ذلك التخطي كان مقصودا لذاته ، اذ ليس للتقرير صفة الاستعجال ، ولهذا رفض كل مقترحات التقرير وفقراته عند عرضه عليه للتعليق ، كما استدعي العقيد/مبارك الي مكتبه منفردا ، وانبه علي ما بدر منه من تصرف وصفه العميد بانه مسيء !!

فوجدها العقيد/مبارك فرصة للتحرش بالعميد علي حسين في ذلك اللقاء تشاجر الرجلان واختصما ، ثم رفع كلاهما الامر الي قيادة الجيش بحثا

عن سبيل لفك الارتباط بينهما ، فصدر امر بنقل العقيد/مبارك قائدا لحامية بحر الغزال بالاقليم الجنوبي ، ولم يكن الشجار وحده هو سبب نقل العقيد ، فقد سبق ان ورد لقيادة الجيش تقرير سري من قيادة القيادة الجنوبية جاء فيه ان الضباط المشاركين في حادث تمرد جوبا كانوا علي صلة بالعقيد مبارك لما توسموه فيه من صفات ثورية !! ومكانة يمكن الافادة منها ، فطلبوا منه ومن العقيدين عمر الحاج موسي / والعقيد عثمان حسين / ان يحضروا الي جوبا للتفاوض معهم باسم قيادة الجيش ، ولكن هذا لم يحدث ؛ وكل ماحدث هو وضع العقيد مبارك في القائمة السوداء للضباط الثوريين !! وتبع ذلك تحقيق واستيضاح له بعد نقله الي بحر الغزال . اما العقيدان/عمر الحاج موسي وعثمان حسين ، فقد تمكنا من تقديم مبرر لطلب الضباط المتمردين لهما ، ان كان هناك اصلا مثل هذا الطلب ، فاكدا انه لم يصل الي علمهما قولا ولا عملا ذلك الطلب الموهوم . ويقيني ان العقيد/مبارك لم تعوزه القدرة علي اختلاق حجة مماثلة بعد ذلك .

ومن عجائب الدهر ..

ان العلاقة بين الرجلين في قابل الايام اضحت متينة حميمة بارزة للعيان ، وفي ذلك دلالة بان الخلق السوداني القويم يطغي دائما وابدا علي كل الخصومات في مجال العمل ، والعلاقات الشخصية ، وهكذا عاد العميد علي والعقيد مبارك اخوين صديقين .

وفي مجال العمل ايضا ، كان لي حدث آخر مع امتحان الكفاءة للترقي الي رتبة (الرائد) فبعد عودتي من بريطانيا بحوالي اسبوعين ، اصدرت قيادة الجيش قائمة باسماء الذين سيجلسون للامتحان لرتبة الرائد ، حوت اسماء مائة وخمسة عشر ضابطا من مختلف الرتب الي جانب ابناء دفعتي ، حيث كان بعض الضباط قد ترقوا الي الرتبة استثنائيا بسبب الخدمة في الجنوب او لذهابهم للدراسة خارج البلاد ، وعليهم ان يؤدوا الامتحان من بعد ، ولم اعثر علي اسمي في قائمة الممتحنين فتظلمت طالبا ادراجي لاداء الامتحان ، وحاول العميد/علي حسين ان يثنيني عن عزمي وهو يتلقي ظلامتي من قائد سلاح المدرعات ليرفعه بدوره لفرع التدريب بقيادة الجيش ، وفي معرض ذلك الاثناء ، تعهد لي بالعمل لترقيتي استثنائيا مع دفعتي ، بحجة انني كنت في بعثة

خارجية ، ولم تتح لي فرصة كافية للاستعداد للامتحان .

اسفر العميد عن قلب عامر بالخير يخشي علي العجز عن اداء الامتحان بغير استعداد ، فطمأنته وابديت اصرارا عظيما علي الطلب ، وشكرت له مشاعره الكريمة نحوي ، ولم يجهد كثيرا في ادراج اسمي في قائمة المتحنين للترقي .

كنت وقتئذ قد احسنت استيعاب كتاب (كتيبة المشاة) ومجموعة (واجبات الاركانحرب في الميدان) ومجموعة (التدريب من اجل الحرب) وكلها باللغة الانجليزية لم تترجم الي العربية بعد ، وكان لي الخيار في اللغة التي اؤدي بها الامتحان ، فاخترت الانجليزية ، وذلك حق مكفول للجميع خاصة ابناء الاقليم الجنوبي بسبب قصورهم في العربية !!

كان ذلك الاختيار للغة الانجليزية مثار عاصفة هوجاء من تعليقات ابناء الدفعة وتندرهم وسخريتهم اللاذعة ، فظن بعضهم - وبعض الظن اثم - انني بذلك احاول ان اجد منفذا لاستعراض العضلات والتفلسف بالانجليزية لكسب اعجاب المصححين !! لتنزلق اقلامهم بدرجات لا استحقها في الواقع ويبدو ان ظن هؤلاء قد وجد تربة خصبة في صدور المنافسين بعد الاعلان عن نتيجة الامتحان ، اذ لم ينجح من مجموع المائة وخمسة عشر ضابطا ممتحنا سوي خمسة فقط !!

وكنت منهم بحمد الله وتوفيقه ..

فاضاف هذا الانجاز الي رصيدي من اعجاب قادتي بقدراتي العلمية الشيء الكثير ، وظللت حفيظا علي ثقتهم انميها بكل سبيل ، وحفزني ذلك للقراءة الجادة ، والغوص في بحار المعاني وكهوف العلم بحثا عن المعرفة ، وفي غمار نهمي وبحثي عن تلك الغاية ، طرقت كل الابواب من العلم الالهي والعلوم الانسانية وضروب الادب والفن ، حيث كان بعضها يقود الي بعض ، ولعل في هذا الشمول مايبرر صيرورتي من بعد موزعا بين مطامح المهنة ، ومجد القلم ، وبريق الفنون !! ولكن جهدا اعظم كنت ابذله في اكتساب العلم العسكري ، بحسبانه وسيلة لطموح بعيد ، ودرعا لبلادي في البلايا والمحن ، ومنفذا لاجتذاب الاعجاب من قادتي ورفاقي وان كابروا !!

من قبيل ذلك ، ان القائد العام الفريق المتراض استدعاني لمكتبه عن طريق مدير فرع التدريب برئاسة الجيش ، وهناك عرض علي بعض المذكرات

الخاصة بحاملات الجنود المدرعة من كل من بريطانيا وامريكا وتشيكوسلوفاكيا ، وطلب ، ي ترجمتها اولا ، من الانجليزية الي العربية ، ثم عقد مقارنة بينها من حيث لخواص والاداء والاسعار ، واهم من ذلك ميزات استخدامها في السودان . فاقبلت علي المذكرات اتفحصها لماما فسألني بعد ذلك :

ـ كم يستغرق انجاز هذا العمل ؟

قلت له : اسبوع واحد .

قال:كلا،بل اسبوعين ، فلا تسلم تقريرك لفرع التدريب قبل هذا الموعد

فاجبته بحاضر ، وانصرفت للعمل بكثير من الحماس والاقبال ، وامضيت الساعات الطوال في انجازه معرضا عن طيبات الحياة ومباهجها ، وكم كانت دهشتي حين وضعت القلم بعد ثلاثة اسابيع بالتمام والكمال !! رغم جهدي واصراري علي الفراغ من المهمة في اقل من ذلك ، وادركت حينها ان للفريق الخواص حاسة تقديرية لا تخطئ اضافة الى ما له من مزايا رصفات مشهودة .

عند تسليمي للاوراق لمدير فرع التدريب ، منحني سبعين جنيها كحافز خاص ، وكانت السبعون يومئذ مالا كثيرا يصنع المعجزات اذا ما قورن به اليوم !! ومن ثم اصبح امرا مألوفا لدي ولدى رفاق السلاح ان يجري استدعائي لفرع التدريب بين حين وآخر ، وتكليفي باداء مهام خاصة بالمدرعات ، وكان يجري مثل ذلك مع فرع العمليات وغيره في رئاسة الجيش . فقد اصبحت دون جلبة او اعلان حول سلاحنا المدرع ، وكنت ـ الي جانب مهامي القيادية بالسلاح ـ اقوم بتدريس مادة (الاستخدام التكتيكي للمدرعات) بمدرسة السلاح والمدارس العسكرية الاخري مثل مدرسة المشاة والكلية الحربية .

وعلى هذا الدرب ، طلب مني مدير فرع التدريب بالقيادة العامة ذات يوم ان اقوم بصياغة واعداد محاضرات (Precies) خاصة بدروس الاستخدام التكتيكي للمدرعات ، حتي يمكن تعميم تدريسها بالمدارس العسكرية ، ومن اجل هذا الغرض اصدر قراره لقيادتي بتمكيني من اداء المهمة وعدم ربطي بواجبات ومهام ضباط السلاح الروتينية فاستجاب قائد السلاح للامر ، واسند لي فقط مهمة تدريس الاستخدام التكتيكي بمدرسة المدرعات ، وكانت تلك سانحة اخري للايغال في دروب العلم والمعرفة .

صرفت من عمري نصف عام بالتمام ، حتي انجزت العمل الكبير بما يوافق

طموحي كباحث في الفكر العسكري ، فاعددت ثلاثين محاضرة في الاستخدام التكتيكي للمدرعات ، حظيت كلها باعجاب وتقدير مدير فرع التدريب ، فعاد مرة اخري ليمنحني سبعين جنيها اخري ، وتقبلتها منه لا كثروة عارضة ولكن كشهادة انجاز فكري يبقي علي الايام . ثم عرض ماكتبت علي القائد العام - في غياب رئيس الاركان اللواء حمد النيل ضيف الله - فاعجب بها وشارك مدير فرع التدريب ثناءه علي شخصي وملكاتي العلمية ، ثم اصدر قرارا بمنحي وسام الجدارة ، وطبع المحاضرات في المطبعة الحكومية لتكون كتابا ومرجعا عسكريا سودانيا !!



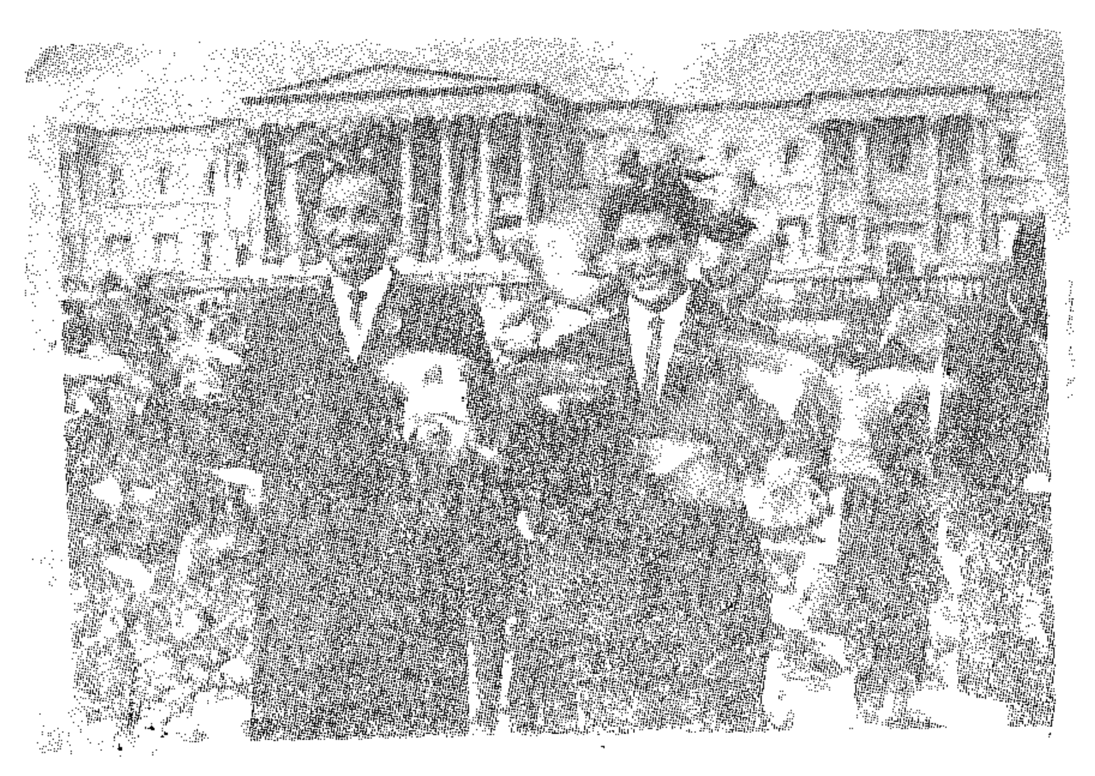


المؤلف وحرمه السيدة امنة خالد بشير



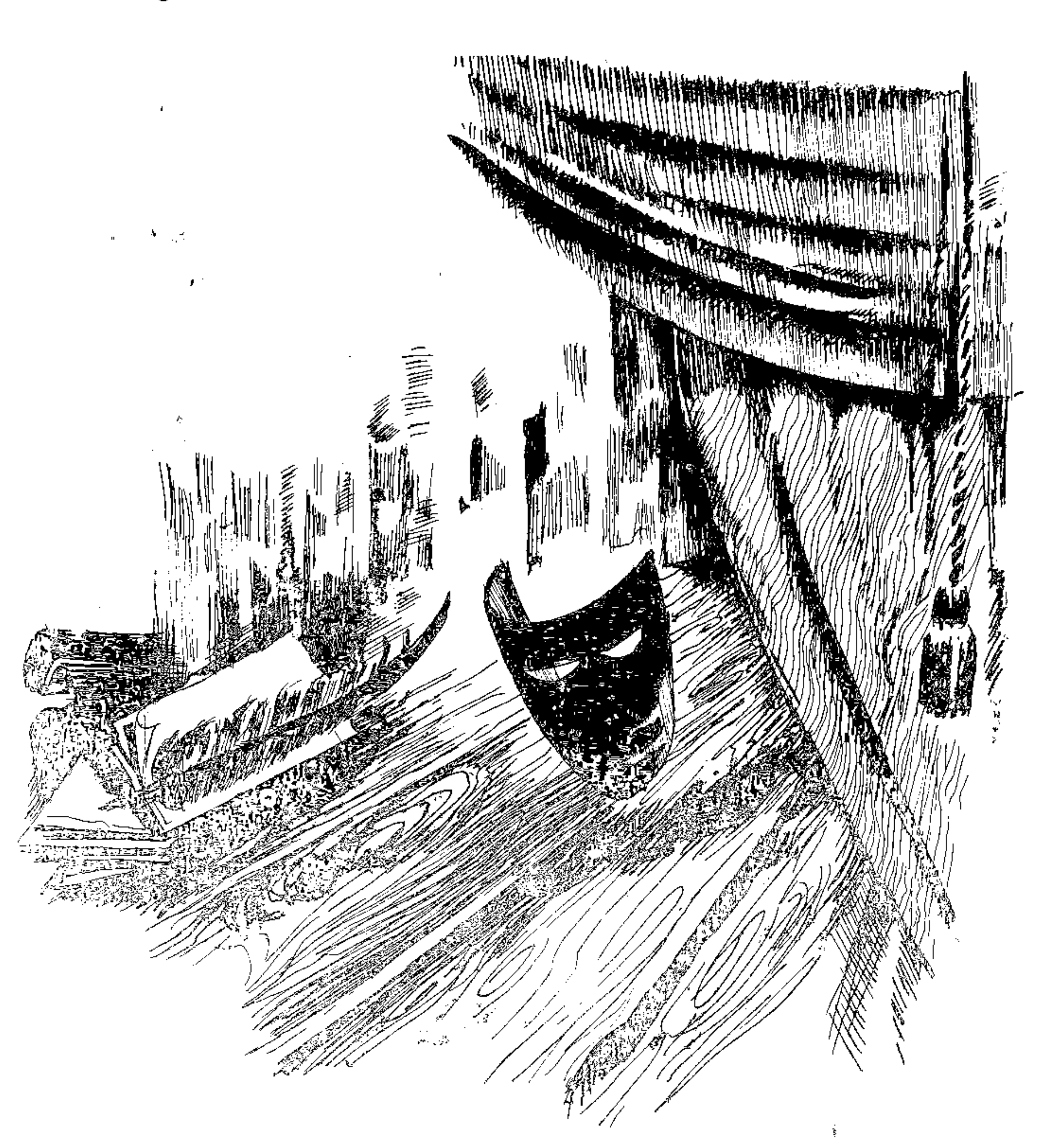
صورة أخرى للمؤلف مع العائلة

صورة للمؤلف يتدرب على مدفع رشاش



صورة للمؤلف ورئيس الحزب »

صراع القوى الوطنية !



{الحلقة السادسة}
صراع القوى الوطنية

بلغت صلتي بالاخ فاروق عثمان حمد الله من النماء والقوة حدا بعيدا ، وكان ذلك نتاجا لجملة موثرات ، فالي جانب رفقة السلاح وعضوية التنظيم كنت وثيق الصلة باسرته واصهاره ، اذ ان شقيق زوجته الدكتور عثمان النور كان زميل دراستي في المرحلة الثانوية ، ومن خلاله توثقت صلتي بالاسرة حتي غدوت كأحد ابنائها ، وبهذه الصفة الخصوصية كان فاروق يحدثني دون حرج عن دقائق شئون الحياة الاسرية وما يعتريها احيانا من عوارض المشكلات وطوارق الاحداث ، حتي لقد افصح عن ذلك يوما وهو يتفحصني بامعان واستغراق وقال:

- عندما احادثك في شئوني الاسرية يا محجوب ينتابني شعور قوي باني احادث صهري الدكتور عثمان النور ، ولا اجد بينكما فوارق تذكر .

لم اعلق وقتها بشيء ، حيث كان صمتي ابلغ آيات الافصاح عن عمق صلاتنا الاسرية ، وكيفما جاءت بداية الحديث بيني وبين فاروق ، فانه ينتهي دائما وابدا بشئون السياسة واحداث الوطن عموما ، وشئون القوات المسلحة خاصة ، وكم حاول فاروق ان يعيدني الي عرين تنظيم الضباط الاحرار ، ولكنني افهمته مرارا باني شديد الحرص والتمسك بحريتي الشخصية لا اطيق قيود السياسة والتنظيم والالتزام ، وبهذا الرأي والمفهوم وجدت لي مخرجا وخلصت منه نجيا ، واقتعدت في لقاءاتي به مقعد المستمع البصير ببواطن الامور ، مع ابداء ما يعن لي من رأي وحكم علي مجريات الاحوال ومواقف الفرقاء السياسيين في اليمين واليسار والوسط من موقع الحياد وحرية الفكر .

اذكر ان فاروق - في ذلك الوقت كان قد اصبح وثيق الصلة بقيادة الحزب الشيوعي السوداني ، اذ كان يعتقد جازما ان مطامح تنظيم الضباط الاحرار واهدافه لن تتحقق وتؤتي اؤكلها وثمارها مالم يرو غرسها الحزب الشيوعي ويقوم علي رعايتها قادته الميامين ، فبدا لي من ذلك ان فاروق قد اضحي متطرفا عقائديا ، كان يتحدث عن نضال الحزب وتوجهاته الثورية في موازنة

بينه وبين الاحزاب التقليدية المتجسدة في سطوة الطوائف وزعامات البيوتات الدينية !! فيتحدث بفرح طاغ عن نجاحات المعارضة الشيوعية داخل الجمعية التأسيسية ، واحباطات القوي الرجعية في مواجهتها !! وكيف ان هذه قد لجأت الي وسائل غير ديمقراطية في صراعها مع قوي النماء والتقدم والثورة ممثلة في الحزب الشيوعي ، وضرب لذلك مثلا بابعاد النواب الشيوعيين عن المشاركة في لجنة الدستور التي تكونت داخل الجمعية برئاسة الدكتور الفاضل شداد وعضوية الحزبين المؤتلفين وممثلين لبقية الاحزاب عدا حزب الشعب الديمقراطي الذي قاطع الانتخابات ولجنة الدستور . هذا وقد ضمت لجنة الدستور لجنة استشارية من بعض رجال القانون منهم الدكتور حسن عبدالله الترابي والدكتور محمد ابراهيم خليل وآخرين .

كان الصراع محتدما بين القوي السياسية المختلفة ، فانعكس ذلك علي اعمال لجنة الدستور واعاق انجازها ، وانبثق جوهر الخلاف بين الجميع حول طبيعة الدستور المرتقب ووجهته هل يكون اسلاميا ام علمانيا ؟! وما اذا كانت الجمهورية المرتجاه ستكون برلمانية ام رئاسية ؟! وبطبيبعة الحال كانت القوي التقدمية تسعي الي دستور علماني وجمهورية برلمانية ، وهذا مالم يتحقق !!

في خضم ذلك التطاحن والصراع السياسي ، حدث مافجر موقف القوي التقليدية في مواجهة الحزب الشيوعي ، اذ ان شابا متطرفا من اعضاء الحزب الشيوعي تحدث في ندوة سياسية اقيمت بمعهد المعلمين العالي بام درمان ، فتناول حادث الافك بما يمس جلال بيت النبي (صلعم) فاثار حديثه ثائرة الحاضرين وغضبهم ، واعتبروا حديثه ذاك ترجها شيوعيا يرمي لتقويض كيان المجتمع الاسلامي . فخرجت المظاهرات الغاضبة والمواكب الشعبية من المساجد ودور الاحزاب والمنتديات السياسية تجرم الحزب الشيوعي وتدين تأثيره علي فكر الناشئة ، مطالبة بعزله عن المشاركة السياسية وحظر نشاطه الي الابد ، وخرجت الصحافة تدعم ذلك الاتجاه ، وتجاوبت معها القوي السياسية التقليدية اظهارا لحمية الدين وافادة من اندفاع التيار ، وكان اكثر الجميع انفعالا بالحدث وتأجيجا لاواره جبهة الميثاق الاسلامي ، كذلك ركبت السلطة الحاكمة ومؤسساتها التشريعية موجة السخط والاستنكار فاصدرت الحكومة قرارا ايدته الجمعية التأسيسية بتحريم الممارسة الشيوعية في السودان ، واعقب ذلك قرار

آخر اجازته الجمعية التأسيسية ايضا بتعديل فقرة من الدستور المؤقت المعمول به في باب الحقوق والحريات والتي كانت تقرأ :

(لجميع الاشخاص الحق في حرية التعبير عن آرائهم والحق في تأليف الاتحادات والجمعيات في حدود القانون) .

فاضافت الجمعية التأسيسية لهذه الفقرة حكما شرطيا يقرأ في ذيل الفقرة وهو :

(علي انه لا يجوز لاي شخص ان يروج او يسعي لترويج الالحاد او عدم الاعتقاد في الاديان السماوية ، او يعمل او يسعي للعمل عن طريق استعمال القوة او الارهاب او أية وسيلة غير مشروعة لقلب نظام الحكم) .

كما اضيف بند ثالث للمادة الخامسة من الدستور يقرأ :

(كل منظمة تنطوي اهدافها او وسائلها علي مخالفة الحكم الشرطي الوارد في ذيل الفقرة الثانية من البند الخامس تعتبر منظمة غير مشروعة ، وللجمعية التأسيسية ان تصدر اي تشريع تراه ملائما لتنفيذ احكام ذلك النص) .

ووفقا لهذا التعديل في الدستورالمؤقت ، اصدرت الجمعية التأسيسية قرارا بحل الحزب الشيوعي السوداني وطرد اعضائه من الجمعية !!

كان لهذا القرار اثره الفعال في زعزعة كيان النظام الديمقراطي الليبرالي وحكم القانون ، فلجأت قيادة الحزب الشيوعي الي القضاء ، وصدر قرار القاضي / صلاح حسن ببطلان قرار الجمعية وعدم قانونيته ، كما اصدرت المحكمة العليا حكما آخرا بعدم دستورية القرار !! ولكنه رغم كل ذلك اصبح قرارا نافذا وأمرا سياسيا واقعا .

لم تخلد قيادة الحزب الشيوعي وانصارها الي الاستكانة والرضوخ لما كان ، فقامت المظاهرات والندوات السياسية في العاصمة واقاليم السودان المختلفة ، ووزعت المنشورات التي تشجب القرار وتندد بالقوي التقليدية ، ومن بينها منشور باسم الضباط الاحرار ، اذكر اني سألت فاروق عن مصدره ، فاعترف انه لم يحرره ، ولكنه سمح لقادة الحزب الشيوعي باصداره وتوزيعه !!

وثمة حدث آخر مهم طرأ علي قيادة القوات المسلحة ، وهو تعيين السيد/ امين التوم وزيرا للدفاع بديلا للسيد محمد احمد المحجوب الذي كان

رئيسا للوزراء ووزيرا للدفاع ، ولم يكن السيد امين التوم معروفا لدي افراد القوات المسلحة الا بانه احد اقطاب حزب الامة ، ولكن الرجل بعد يومين من تسلمه لمهام منصبه دعا لاجتماع موسع للقادة ، القي فيه خطابا مطولا اكد خلاله انه ـ رغم انتمائه لقيادة حزب الامة ـ الا ان قيادته للجيش لن تكون الا من موقع الشمول والقومية ، كما قطع الوعد بتزويد القوات المسلحة بالاسلحة والمعدات التي تحتاجها ، مع الاهتمام بتدريب الافراد داخل القطر وخارجه لاكتساب مزيد من العلم والخبرة ، ثم قام بزيارات تفقدية للاسلحة والقيادات وخاطب افرادها مؤكدا وعوده السابقة . ولكن الوقت لم يمهل السيد امين التوم ليحقق ماأراد ، فلم يزد بقاؤه في الوزارة عن اربعة اشهر فقط ، انتهت بسقوط الحكومة .

وحدث ثالث في تلك الآونة ، وهو بلوغ السيد الصادق المهدي سن الثلاثين ، وتأهله بذلك لدخول الجمعية التأسيسية ، ولتحقيق هذا الغرض استقال عضو الجمعية عن دائرة الجزيرة ابا السيد بشري السيد حامد مفسحا المجال لرئيس حزب الامة ليفوز بالتزكية ويصبح عضوا بالجمعية التأسيسية ولم يكن ذلك هدفا في حد ذاته ، بل وسيلة لغايات ادناها توليه رئاسة الوزارة يومئذ ، ومن اجل هذا جري الاتصال بالسيد المحجوب ليتنازل له بدوره عن موقعه كرئيس للوزراء ليقود السيد الصادق مسيرة البلاد عبر الوزارة المؤتلفة ، ولكن مطامح الرجلين تضاربت في هذا المعترك ، فمحمد احمد المحجوب تخرج من كلية غردون كمهندس ، ثم درس القانون فاصبح قاضيا ومحاميا مرموقا ثم شاعرا واديبا متحدثا ذرب اللسان ، الي جانب خبراته السياسية في الحكم والقيادة وجهاده في قيادة حزب الامة ، رصيد هائل لم يتوفر لمنافسه ، فضلا عن قيامه بدور المستشار القانوني للامام عبد الرحمن المهدي وابنه الصديق من بعد والهادي المهدي آنذاك ، وهذه مهام تجرد لادائها واخلص فيها منذ عام ١٩٥٦م حين انضم لقيادة حزب الامة رغم انه لم يكن من طائفة الانصار ، ولعل هذا منشأ شعار الحزب (كل انصاري حزب امة وليس كل حزب امة انصاري) وبذلك فتح الحزب ابوابه لغير الانصار من المثقفين المؤمنين باهدافه وبرامجه ووسائله .

كان المحجوب ـ بهذا الماضي الحافل بالامجاد ـ يري انه الاحق بقيادة

الوزارة الائتلافية ، ولم يجد كبير عناء في اقناع امام الانصار السيد الهادي المهدي ، الذي كان يتطلع بدوره لان يصبح رئيسا للجمهورية باعتبار ان قيادة الدين لا تنفصل عن قيادة الدولة ، فالاسلام دين ودولة ، ولم يكن السيد الصادق - كما نقل الي عمه الامام - من دعاة هذا الرأي ، بل كان من رأيه ان يتجرد الامام للزعامة الدينية ، تاركا امور السياسة والحكم لقيصرها !! ومن هنا شجر خلاف مدمر ، اذكي اوراه المحجوب وغيره من المتضررين بزعامة السيد الصادق وبروز نجمه في الافاق . فكانت المواجهة والتحدي بين الصادق المهدي رئيس حزب الامة وعمه راعي الحزب الامام الهادي ورئيس وزرائه المحجوب .

استطاع السيد الصادق - من موقع رئيس الحزب - ان يكسب ولاء الهيئة البرلمانية وبعض وزراء الحزب ونفرا من آل بيت الامام الهادي المهدي وشطرا كبيرا من طائفة الانصار ، ومن هذه الارضية انطلق رسله الي عمه الامام الهادي والمحجوب يدعونهما للتسليم بالامر الواقع حفاظا علي وحدة الحزب وتماسك الطائفة ، ولكن الرجلين - يؤازرهما بقية اعضاء الهيئة البرلمانية والوزراء والانصار - لم يسلما بامر بدا لهما غير واقع وفضلا المجابهة والصمود .

بلغ الشقاق في حزب الامة وطائفة الانصار ذروته ، فجري الاتصال بين السيد الصادق المهدي والزعيم اسماعيل الازهري للتشاور حول اسقاط حكومة المحجوب القائمة وتشكيل حكومة ائتلافية جديدة ، فوافق الازهري بعد ان تأكد له فعلا ان اكثر من ستين نائبا من الهيئة البرلمانية لحزب الامة يقفون مع السيد الصادق من مجموع تسعين نائبا !! وكانت تلك فرصة مواتية للازهري وقادة حزبه ليعمقوا الشرخ في حزب الامة ويفتتوا قوته المنافسة لهم ، ويكرسوا الفرقة والشتات بين صفوفه ، ليسود البلاد حزبهم الاتحادي ، ولعل في موافقة الازهري الفورية ما يشير الي هذه النوايا ، خاصة وقد علم ان هناك مساعي تجري في الخفاء لرأب الصدع في حزب الامة !! وتأكيدا لهذا الاتجاه نشطت محاولات الاتحاديين في ذلك الظرف ايضا لتقريب شقة الخلاف بينهم وبين قادة حزب الشعب الديمقراطي المنشق لتعود للحزب اغلبيته وقوته المعهودة .

وبشيء من التأمل في المواقف الحزبية والشخصية يقوم الدليل علي ان الزعيم اسماعيل الازهري كان مدفوعا بعوامل حزبية بحتة في سعيه لاسقاط حكومة الامام التي يرأسها المحجوب ، اذ يعني ذلك طرديا اضعاف موقف

منافسه الامام الهادي في انتخابات رئاسة الجمهورية المقبلة !!

وثمة أمر آخر ، وهو ان السيد الصادق المهدي كان حديث سن وعهد بتولي مهام رئاسة الوزارة ، وليس له - في نظر الاتحاديين على الاقل - تجربة المحجوب الثرة وخبرته الطويلة ، وبحكم ذلك لايصعب احتواؤه وتوجيه الامور بين يديه !! وحسب الازهري - وهو معلم الحساب المقتدر - وجمع وطرح ثم ضرب حزب الامة وقسمه بقبول الائتلاف مع السيد الصادق المهدي غير عابيء من بعد بما يصيب الشريك المقبل والمدبر معا من كسور ومضاعفات .

هكذا سقطت حكومة المحجوب الاولي من داخل البرلمان ، حيث اقترح احد نواب حزب الامة توجيه اللوم لها لقصورها السياسي والتنفيذي ، فوقف المحجوب بقامته المديدة وصوته القوي المؤثر ليقول :

(انني لا انوي الدفاع عن حكومتي واعمالي ، بل كل ما اود الاشارة اليه هو ان مانشهده اليوم هو ازمة في ديمقراطيتنا وازمة اخلاقية وازمة في العلاقات الانسانية ، ومن العار ان الذين دافعت عنهم طوال حياتي هم انفسهم يكبلون يدي ويحطمون قوسي ويستعيضون عن سيفي الفولاذي الحاد بسيف من الخشب !!

ثم جلس المحجوب بادي الانفعال ليسمع ادانة الجمعية له ولحكومته ، ووقف من بعده عضو آخر من حزب الامة ايضا ، واقترح علي الجمعية ان تطرح الثقة بالمحجوب وحكومته بعد تلك الادانة ، فلم يستغرق هذا الامر - من وحوش الديمقراطية كما سماهم المحجوب وهو جالس علي مقعده داخل الجمعية يبدو نابه اذ يغضب - وقتا طويلا ، وتم سحب الثقة عن حكومته وتنفيذ مخطط الائتلافيين الجدد ..

وفي اليوم التالي ٢٦ يوليو ١٩٦٦ تشكلت حكومة السيد الصادق المهدي الائتلافية الجديدة فنهض المحجوب خطيبا في النواب وقال :

(اني لا اريد ان افسد علي السيد الصادق بهجة يومه هذا ، ولكن اود ان اشير الي ان مهمته ستكون صعبة ، ومهما يكن من امر ، فاني اعد بان اقف في صف معارضته موقفا بناءا وابذل قصاري الجهد لمساعدته) .

وبالطبع لم يثق السيد الصادق المهدي في صدق مشاعر المحجوب وامكانية تعاونه ، ولكن خريج اكسفورد الذي لم يتجاوز الثلاثين بعد - وهو

يحقق اولي مطامحه بتقلد رئاسة الوزارة . لم يكن ميكافللي السياسة في حكمه وان استخدم شيئا من اساليبها احيانا ، واصطبغ عهده علي قصره بعنفوان الشباب وثورته واندفاعه ، وضرب صفحا عن نصح الحادبين من كهول الانصار الذين طالبوه برأب الصدع في بيت المهدي وحزب الامة والانصار ، فاستفحل الخلاف بينه وبين عمه الامام الهادي واتسع الخرق علي الراتق ، ومضي السيد الصادق في طريقه المرسوم علي هدي من فكره وآماله الوطنية ، يصادم العواصف والمؤامرات .

في الجانب الاخر ، حاول بعض اقطاب حزب الامة ومن والاهم من الاتحاديين الافادة من انقسام آل بيت الامام المهدي وحزب الامة في بناء مجدهم السياسي بعد ان انقسم الحزب الي جناحين هما جناح الامام الهادي المهدي وجناح السيد الصادق المهدي الحاكم .

ولم تكن القوات المسلحة بمعزل عن احداث الحكم والسياسة فقد تمخض التشكيل الوزاري الجديد عن تولي الامير عبد الله عبد الرحمن نقد الله لمنصب وزير الدفاع ، وقوبل ذلك بكثير من الابتهاج والبشري من افراد القوات المسلحة ، واعلن الرجل في اول لقاء له بهم عن تمسكه بقومية الجيش رغم هويته الحزبية ، ووعد بالعمل الجاد لتلاحم الجيش والشعب في كل مجالات الحياة الامنية في البلاد ، وانه لن يألو جهدا في تطوير القوات المسلحة وفق امكانات السودان وموارده الاقتصادية ، وعن عمليات الامن الداخلي في الجنوب ذكر انهم بصدد عقد اتفاق مع حزب سانو يمنح الجنوب حكما اقليميا يرضي طموحات ابنائه ويطفيء نار الفتنة الي الابد ، وقال ان التفاهم بين قيادة حزبه وبين رئيس حزب سانو السيد وليم دينق قد قطع شوطا بعيدا ، وان علاقات الود والصداقة قد ملأت قلبيهما وازالت مشاعر الحقد والعداوة . كما تحدث الامير ايضا عن علاقات حسن الجوار ، وتجنيب القوات المسلحة الدخول في صراع مسلح مع الدول المجاورة وكان يعني بطبيعة الحال اثيوبيا في الشرق وتشاد في الغرب ، وكانت الخلافات مع تشاد خاصة قد بلغت اقصي درجات التوتر والغليان ، اذ اعتقدت السلطات التشادية ان السودان يمد ثوار تشاد المناوئين لنظام الرئيس (فرانسوا تمبل باي) بالمال والسلاح والعتاد ، ويسمح لهم باستخدام اراضيه كقواعد انطلاق ضد مواقع القوات التشادية المسلحة ، ولم يكن هذا الاتهام

عاريا تماما من الصحة ، فقد دأبت حكومة المحجوب على مساندة حركات التحرر الافريقية حيثما وجدت ، فكان للثوار التشاديين نصيب من تلك المساندة ، لتمكينهم من الخلاص من حكم تمبل باي الذي وصفوه بانه دكتاتور غاشم يقف موقف العداء للعرب والاسلام في تشاد ، ويقيم دعائم سلطانه وجبروته علي قوة ابناء الجنوب الزنوج المسيحيين .

هذا ولما كانت سياسة المحجوب الخارجية ذات طابع عربي اسلامي فقد بذل لاهل تشاد الشماليين العرب المسلمين المتمردين علي حكم الرئيس تمبل باي كل عون ومؤازرة ، فلم يخف ذلك علي الرئيس تمبل باي وحكومته ، وعملوا - كرد فعل مضاد - علي حشد قواتهم علي الحدود السودانية التشادية ، كما قاموا بمطاردة الثوار التشاديين داخل الاراضي السودانية وقذفوا القري التي احتمي بها اولئك الثوار بنيران مدفعيتهم مما نجم عنه مقتل بعض السودانيين واصابة آخرين منهم بجراح .

في مواجهة ذلك الاعتداء ، اصدرت حكومة المحجوب قرارها بحشد القوات السودانية علي الحدود مع تشاد ريثما يصدر لها الامر بالتحرك لردع القوات التشادية المعادية وتجاوبت قيادة الجيش مع الامر الصادر ، فقامت بتحريك بطارية مدفعية مضادة للطائرات وبطارية ميدان وسرية مدرعة وكتيبة مشاة لدعم قوات حامية الجنينة ، كما جري تعيين الرائد/مأمون عوض ابو زيد من فرع الاستخبارات العسكرية كضابط استخبارات ، والمقدم محمد الحسن محمد علي قائدا لحامية الجنينة .

وفي غضون الايام الاولي لتولي الامير نقد الله شئون وزارة الدفاع حدث تحرش واشتباك آخر مع القوات التشادية في القري السودانية علي الحدود ، بحجة مطاردة الثوار التشاديين ونتج عن ذلك قتل وجرح كثير من السودانيين والتشاديين علي السواء ، حتي امتلأت ساحات مستشفي الجنينية باجساد الموتي والجرحي ، فقام الامير بزيارة لمنطقة الحدود لمواساة المكلومين ومعالجة الموقف المتأزم هناك ، وكنت في معيته ضمن آخرين من ضباط الخرطوم ، فتساءل الامير عن حجم القوات التشادية علي الحدود واماكن تواجدها وتسليحها وكفاءتها القتالية وما اذا كانت مدعومة بقوات فرنسية ، وكانت تلك اسئلة خبير عسكري يحاول معرفة ميزان القوي لتقدير الموقف العسكري تقديرا

صحيحا ، وجاء ذلك مثيرا للدهشة والاعجاب ، ولكن مع الاسف كانت هذه المعلومات غائبة وليس من سبيل ميسور للحصول عليها ، فتطوعت انا وطلبت منه ان اتخلف عن طائرته لالتحق بحامية الجنينة ، وتعهدت بالخروج في طوف استكشاف للحصول علي تلك المعلومات الحيوية ، ووافق الرجل علي ما طلبت بعد مشاورة قائد حامية الجنينة المقدم / محمد الحسن محمد علي .

انطلقت من حامية الجنينة مع طوف استكشاف صغير مكون من خمسة افراد اخترتهم من ابناء عرب دارفور ، كما اخترت ان اتسلل الي الاراضي التشادية بزي العرب في تلك الجهات .

جاءت حصيلة مهمتي الاستكشافية في تلك الجهات اجابات محددة قاطعة لما كان السيد وزير الدفاع قد طرحه من اسئلة ، دبجت بها تقريرا ضافيا عن قوة العدو وعتاده ومواقعه وكل ما يتصل بامره من معلومات ، سلمت صورة منه لقائد الحامية وضابط مخابراته النقيب مأمون عوض ابو زيد ، وحملت الصورة الاصلية من التقرير معي الي الخرطوم علي متن طائرة الخطوط الجوية السودانية ، وقد وضح من تقريري ان القوات التشادية علي الحدود كانت من القلة والضعف بحيث تستطيع قواتنا المرابطة في الجنينة سحقها في اية مواجهة مسلحة ، وانه لا توجد قوات فرنسية تدعم التشاديين ، ولكن يوجد بعض المرتزقة الاوربيين في قيادة وحدات القوات التشادية !!

قرر فرع العمليات الحربية اثرذلك ، ان تتقدم قواتنا لاحتلال بعض قري الحدود التشادية كمظهر للقوة واخذا بثأر السودانيين ضحايا الاعتداء ، غير أن الامير نقد الله اعترض علي هذا القرار قائلا :

- اننا سنتمسك بعلاقات حسن الجوار من موقع القوة .

علي أثر تلك الاحداث المأساوية هجر ابي واخي احمد حياة الاغتراب في الديار التشادية ، وعادا بتجارتهما للسودان ، حيث استقر ابي في مدينة كسلا الى جوار امي وشقيقتي فاطمة ، ولم ينس ان يصحب احدي زوجاته وابنائها ليقيموا بمنزل مجاور ،

حقا كان ابي رجلا مزواجا ، كثير ـ مل ، وافر النشاط بعيد الهمة واسع الطموح ، وكأني به يأخذ بتوجيه الذكر الحكيم {وابتغ فيما آتاك الله الدار الاخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا} . ولكنه الي ذلك ، حريصا علي آخرته يعمل لها بكل سبيل .

اما اخي احمد فقد تزوج باحدي سرائم الاسر في جزيرة توتي والجبت له كوكبة من الازاهير والفرسان ، فظل عاكفا علي بيته واولاده حينا من الدهر ، ثم تزوج باخري ، ولم ينجب منها ، وقد اختار الاقامة في السودان الاوسط ، حيث يمارس التجارة .

جاءني احمد عند عودتي من الجنينة ، وفي معرض الحديث عن نشاطه التجاري ، حدثني انه اشتري كمية كبيرة من الذرة ، وقد قر رأيه علي استبقاء بضاعته تلك حتي ترتفع الاسعار ويتحقق له الربح المرتجي ، ولم اكن خبيرا في هذا الشأن ، فاكتفيت بالعلم في ابداء المشورة ، ومرت الايام ، وظلت اسعار هذه السلعة في انخفاض مستمر وبصورة كبيرة ، وبقي احمد صامدا ممتنعا عن البيع ، حتي بلغ نشاطه التجاري مرحلة الشلل والجمود التام نتيجة لوضعه كل ما يملك من المال في الذرة .

وبينما كان يحاول الخروج من ذلك المأزق ، ويبحث له عن مجال للحركة ، دخل في منافسة عطاء لتموين بعض الجهات الحكومية بالغذاءات ! ووقع عليه الاختيار فاعمل فكره سريعا في احتياجات العمل الجديد ، وبدا له ان الضرورة تقضي بالحصول علي ثلاجة كبيرة باقساط مريحة ، وطلب مني معاونته في ذلك ، فلم اخيب رجاءه ، وقمت من فوري بدفع ثلث قيمة الثلاجة من خالص مالي نقدا ، وحررت بالثلثين المتبقيين شيكات للخواجة ميخائيل اسكندر احد تجار ام درمان ، وعاد احمد الي الدندر يحمل الثلاجة ويحتقب الآمال العراض ، وعدت الي داري ممتلىء النفس بالسعادة .

وقبل ان يمضي علي ذلك شهر واحد ، رجع احمد ليقول انه يمر بأزمة مالية

اخري ، حيث بدا له ان العمل يقتضي امتلاكه لعربة لوري بدفورد ، وسألني معاونته في الامر ، علي ان يتم الشراء باقساط مريحة ايضا ، مؤكدا لي الفوائد العظيمة التي يرجوها بامتلاك اللوري ، والذي سيستخدمه في ترحيل الفحم والذرة من مناطق الانتاج الي المدن والاسواق البعيدة ، الي جانب ما يؤديه من خدمات ضرورية اخري ، ولن تعجزه القدرة - اي اخي احمد- في تسديد الاقساط السابقة واللاحقة معا بيسر وسهولة اندفعت من جديد بكل مشاعر الاخاء والولاء والحب ، لتحقيق ذلك الطلب وطفقت ابحث لي عن مخرج يعصمني من الحرج ، فاسعفني خاطري فجأة بوميض امل ، فقد نما الي علمي من قبل أن متعهد الحامية علي صلة باحد المرابين الاجانب او هو وسيط له ، وكثيرا مالجأ اليه بعض ضباط الحامية والسلاح لحل ضائقة مالية او ازمة طارئة ، فلم اتردد في الذهاب اليه وبسط حاجتي الملحة للمال ، وبعد حوار قصير ، عرض علي المتعهد عرضا ملزما وهو ان يقوم بالتوسط لدي المرابي لتسليفي مبلغ الدين وقدره ثلاثة آلاف من الجنيهات ، مقابل مبلغ اربعة آلاف ونصف الالف يتم سدادها بشيكات مؤجلة ، صعقني الرقم المطلوب كفائدة للقرض السيء الكريه وقبل ان افيق من هول الصدمة صحبني المتعهد الي ذلك المرابي ، فاختلي به دقائق قبل ان يأخذني اليه داخل متجره ، واستقبلني هذا ببشاشة وترحاب مفرطين ، ووضع بين يدي المبلغ (ثلاثة آلاف جنيه) نقدا ، فطويتها وقمت بتحرير شيكات السداد من دفتر بنك مصر الذي حملته معي خصيصا لهذا الغرض . خرجت من عند الرجلين غير مصدق بان المبلغ الكبير قد تم تدبيره فسلمته اخي احمد ليقوم بشراء اللوري والصندوق الحديدي . فذهب احمد الي بورتسودان راضيا قرير العين . ولكنه ويا للعجب !!! رجع من بورتسودان بعد اسبوعين ، ونقل الي ان اللوري قد تعرض لحادث اليم وهو يصعد مرتفع العقبة في طريقه الي الخرطوم !! وانه قد تهشم تماما واصبح لا يصلح لشيء ولا قدرة له علي الحركة !! ولهذا فقد تم بيعه لاحد تجار الخردة في بورتسودان بثمن جد زهيد ، فاسقط في يدي ووقع بي هم مريع .

لم تمض ايام معدودات علي هذا الحدث ، حتي حل موعد صرف الشيك الاول للمرابي ، وكان طبيعيا ان يرتد الشيك ولا تصرف قيمته لعدم وجود رصيد مالي في حسابي يكفي لتغطيته عند الصرف ، وكنت اتوجس شرا من

ردة فعل ذلك المرابي الحريص ، وقرينه المتعهد المتمرس الذكي ، ولم اجد وسيلة لدرء شرهما وخطرهما ابدا ، فقيمة الشيك مستحق الصرف هي خمسمائة جنيه بالتمام والكمال ، وهذا مبلغ لا قبل لي بسداده في ذلك الظرف الكئيب ، ومن ثم فقد فوضت امري الي الله وانتظرت ما تأتي به الاقدار .

لم يدم انتظاري طويلا اذ استدعاني قائد سلاحي الي مكتبه ، ليخطرني بان امرا قد صدر من مدير ادارة الجيش بالمثول امامه ، وانه سيصحبني اليه بوصفه قائد السلاح الذي انتمي اليه ، وهناك في مكتب مدير الادارة فوجئت بوجود المتعهد والمرابي وهما يجلسان ويتبادلان الحديث مع المدير في ود والفة ، وقد اثار ذلك عجبي ودهشتي معا ، اذ اشتهر مدير الادارة بين صفوف القوات المسلحة بانضباطة العسكري وسلوكه القويم ، الي جانب ثقافته الواسعة وعلمه الغزير وخلقه السمح وتدينه ، ذهلت حقا لمرأي الرجلين في حضرته وهما علي تلك الحال من التبسط والانشراح ، واديت ـ مع قائدي ـ التحية العسكرية ، فرد المدير التحية بايماءة من رأسه واشارة من يده وامرني بالانضمام الي المجلس وذلك لحل الاشكال ـ كما اسماه ـ ثم طلب مني ان اكون صريحا في عرضي لحقيقة الامر بكل تفاصيله ودقائقه وملابساته ، فاعتدلت في جلستي وطرحت عليه ما جري بيني وبين الرجلين علي مدي خمس دقائق تقريبا ، وكان اثناء حديثي ـ يرمق المتعهد والمرابي بنظرات تنم عن العجب حينا والغضب والعتاب احيانا ، وكانا يواجهان نظراته وزفراته الحري بخنوع وانكسار ، وفي نهاية بسطي للاحداث ومجرياتها ، اتجه نحو الرجلين يسألهما ان كان لهما تعليق علي حديثي ، فقال المرابي في ضيق وانفعال :

انا مش عاوز دوشة كتير ، هو قال كلام صحيح وكلام مش صحيح ، لكين خلينا نقول كله صحيح ، طيب ايه الحل دلوقتي ؟ انا عاوز فلوسي .

فسأله قائدي : فلوسك كام ؟

فرد المرابي عجلا : اربعة الف وخمسماية جنيه .

عندها حدجه القائد بنظرة منكرة غاضبة اردفها بقوله :

ـ اربعة الف وخمسمية ؟! عرفنا الثلاثة اهي اعترف بيها الضابط ، لكن الالف وخمسمية ..

فقاطعه المرابي بقوله :

ـ فلوسي دي لو انا اشتريت بيها بضاعة كان ممكن تكسب اكتر من كده

كتير .

وتدخل مدير الادارة وقال :

ـ لا يا خواجة ، الالف وخمسمية الزيادة انت مابتستحقها لانها ربا وسحت نهي الله عنهما في كتبه السماوية .

فتساءل المرابي في انفعال :

مين قال كدة يا هبيبي ؟!

فاجاب مدير الادارة : ربنا قال كده .

فعاد المرابي للسؤال في سخرية :

ـ انت قابلت ربنا وهو قال ليك كده ؟

رد المدير : ربنا قال لينا من غير ما نقابله ، قال في القرآن الكريم (يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا مابقي من الربا أن كنتم مؤمنين ، فان لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله وان تبتم فلكم رؤوس اموالكم لا تظلمون ولا تظلمون) صدق الله العظيم .

هنا جهد المرابي ليملك زمام نفسه ويقول :

– يا هبيبي ، يا هبيبي ده كلام بتاع قرآن وانا مش مسلم ، المهم ايه النهاية ؟

فاجابه مدير الادارة : النهاية انت ليك ثلاثة الف جنيه بس .

وسكت المرابي لحظة وقال :

ـ تيب انا موافق ، ربنا يعوضنا نعمل ايه ؟ ياللا هاتوا تلاتة الف جنيه

عندها نظر الي مدير الادارة حائرا ، فادركت معني نظراته .

وران علي المكان صمت ثقيل ، قطعه مدير الادارة وقال :

ـ شوف يا محجوب ، في تلاتة حلول ومافي غيرها ، الاول هو ان اصدر قرارا بتشكيل لجنة تحقيق في هذه المسألة فتصدر لجنة التحقيق توصية باعلان تفليسك ، وفي هذه الحالة ستبعد من صفوف القوات المسلحة ، ولكنك ستنال مكافأة خدمتك العسكرية ، علي ان يتم سداد دين الخواجه ، ولا تتعجب كثيرا ، فمسألة التفليسة هذه واردة في القانون العسكري ، رغم اننا لسنا تجار بل عساكر ، ولكن هكذا سماها المشرع !!

والحل الثاني لمسألتك هو ان تكتب استرحاما الي القائد العام اوصي عليه

انا ، وذلك ليدفع عنك دينك من مال القائد العام ، علي ان يسترد المبلغ اقساطا علي عدد من السنين ، ولكن هذا الدين سيكون له اثر سيء علي مستقبل حياتك العسكرية .

اما الحل الثالث والاخير ، فهو ان نستقطع ربع راتبك الشهري للدائن بامر مستديم او باتفاق بينكما ، وفي هذه الحالة سنقوم بنقلك الي احدي القيادات ، واوصي انا قائدها بارسالك الي الجنوب لتتاح لكل فرصة الحصول علي علاوة الجنوب الاضافية .

هنا تدخل قائدي ليقول :

- لا انا لا اوافق علي نقله ، نحن في حاجة ماسة اليه في السلاح .

فعقب مدير الادارة : اعرف هذا ، ولكن النقل امر حتمي ، وهو جزاء بموجب المادة (١٤٤) من قانون الجنايات ، وهذه المادة من القانون تمنع موظفي الحكومة من الاشتغال بالتجارة دون اذن مكتوب من مدير المصلحة ، وفي حالة الضباط فان مدير المصلحة هو القائد العام وليس احدا سواه ، ولن اتسامح في هذا الشأن ابدا ، ويكفي انني تجاوزت بنقله فقط الي القيادة !! (ووقف عن الحديث برهة وتمتم الي القيادة الغربية ، ولسوف اطلب من قائدها العميد ابراهيم احمد عمر ارساله الي الجنوب .

عندها رشق قائدي ذلك المتعهد بنظرة مقت وقال :

- الله يجازي الكان السبب !!

توجه الرجل المرابي نحو مدير الادارة وسأل :

- من فضلك ، كم راح يكون القسط بتاعي انا ؟

فاجابه المدير بغير اكتراث :

- عشرين جنيها شهريا .

في ذعر واحتجاج صاح المرابي موجها حديثه لمدير الادارة : من النهار ده مافيش زابت راح يأخذ مني فلوس ، اديلم أنت هدرتك !!

ثم رمقني بنظرة تحمل الغضب والمقت معا .

كف مدير الادارة عن الضحك وقال بحزم مفتعل :

ياضابط !! انصراف !!

فانصرفت تاركا قائدي والمتعهد والمرابي في مكتب مدير الادارة الهمام .

كانت الساعة قد جاوزت الثانية بعد الظهر ، وهو موعد الانصراف الرسمي ، فاتخذت مقعدي علي عربة الترحيل لتقلني الي مسكني بودنوباوي في امدرمان ، حيث كنت يومئذ اشاطر اصهاري السكن بدارهم الفسيحة العامرة ، بعد ان خصصوا لي وزوجتي جزءا خاصا من الدار .

ظللت طوال الطريق افكر فيما حدث ،فتمخض الفكر عن شعور ممعن بالحرج والاحباط ، وانعكس ذلك علي وجهي قتامة واستياءا والما ، حتي ظن السائق اني اعاني من مرض ما ، فلم يتردد ان يسألني ان كنت بحاجة لزيارة الطبيب !! فاخرجني حديثه من بؤرة المعاناة ، وشكرت له مشاعره الطيبة ، فقد كنت فعلا احتاج لمن يهتم بحالي ويواسيني في مصابي ومرضي الاليم ، وهو بالطبع مرض يقع في دائرة الامراض النفسية العارضة ، وهذا مالم يخطر للسائق ببال . فخطر لي فجأة اللجوء الي شخص ابثه لواعج نفسي وافيد من مفاكرته في توسيع دائرة المعرفة بمثل هذه الامور العارضة ، خاصة وقد تمخض عنها نقلي مرتين : الي القيادة الغربية اولا ، ومنها الي الجنوب تلقائيا !! ولم يكن ممكنا ان اصارح زوجتي واصهاري بالحدث وما اسفر عنه من اجراءات سلبية مقيتة لهم جميعا ، وذلك حتي لا تتجه مشاعرهم بالحقد لمن كان السبب ، وهو اخي احمد

كان ذلك الشخص الذي رأيت ان الجأ اليه وابثة ما بنفسي هو صديقي فاروق عثمان حمد الله ، فامرت السائق من فوري انّ يتجه بي الي منزله ، وهناك قيل لي ان بعضا من رفاق السلاح حضروا اليه ثم خرج معهم الي جهة لا يعلمونها ، ولكنهم ذكروا لي بعض اسماء اولئك الرفاق ، فوقع في روعي ان الامر الذي دعاهم للخروج هو اجتماع تنظيمي بمكان ما ، فطلبت من والدته ان تخبره لدي عودته باني انتظره بنادي القوات المسلحة في حوالي الساعة السابعة مساء ذلك اليوم لامر هام . وودعتها وانا علي قناعة بان اهمية اللقاء بيننا ليس لها وجود حقيقي في الواقع ، لولا ما جبلت عليه من حب استطلاع .

قبل السابعة بقليل كنت في نادي الضباط ، فالفيت ثلة من الاصدقاء ، بينهم الصديق الشاعر النقيب عوض مالك ، فدعوني لمشاركتهم المجلس فاستجبت شاكرا ، وبعد قليل حضر فاروق ليجدني بينهم ، فهشوا للقائه والحوا في دعوته ، ولكنه اعتذر لهم بانه لم يحدث ان تردد علي النادي بعد تقاعده ، حتي لا يحرج من يجالسهم بحكم سابق المعرفة والزمالة بوصفه احد الضباط

المبعدين سياسيا !! فجا ت نفس النقيب عوض مالك وقال :

ـ يافاروق انت فاهم غلط ، النادي ده اسمه نادي ضباط الجيش ، وزي ماعارف ، اندية الضباط بتضم ضباط الخدمة والمعاش ، ومعني كده انت عضو في النادي ده بحكم انتماءك السابق للجيش .

بدا فاروق مقتنعا بما قيل او هكذا تظاهر لهم ، فاعتذر بانه علي موعد مسبق وانه جاء فقط لاصطحابي معه ، ولهذا يكتفي من الدعوة بتناول مشروب مثلج . فقال له عوض مالك:

ـ نحن يا فاروق علي موعد مع ليلة شعرية بمعهد المعلمين العالي بام درمان ، وهي تقام احتفاءا بذكري ثورة اكتوبر المجيدة ، وارجو ان تتمكن والاخ محجوب من الحضور والمشاركة ، اذ ان ما سيلقي في هذه الليلة من قصائد وكلمات سيكون تجسيدا للانتماء والشعور الوطني .

سأله فاروق : هل ستلقي انت قصائد وطنية ؟

ورد عوض بالايجاب .

فقال فاروق بحماس :

ـ اذن سنحضر .

فاشرق وجه عوض مالك ، وخرجنا من بعد لتنطلق بنا عربة فاروق الذي سرعان ما سألني عن الوجهة التي اريد ، فقلت : لا ادري ، فلنتحدث ونحن نتجول في طرقات المدينة ، ضحك ساخرا وقال :

ـ اذن نذهب الي معهد المعلمين بام درمان لنشهد كرنفال الابداع من بدايته ، فانا اجد غذاء روحيا في مثل هذه المناسبات .

قلت له : لا مانع ، فلنذهب الي هناك . ثم ابتدرته بالسؤال عن اجتماعه التنظيمي !! فضحك وقال :

ـ وكيف عرفت انه اجتماع تنظيمي ؟

قلت بعفوية : من اسماء من صحبوك وانت تغادر منزلكم فنظر الي مليا وقال :

ـ اسمع يامحجوب،هناك فيلسوف قديس اسمه (قسطنطين) هل سمعت عنه؟

قلت : نعم ـ قال :

ـ هذا الفيلسوف يري ان ينقطع القساوسة الي الله تاركين الدنيا وما فيها

من ارث ومتاع ، وشعاره في ذلك هو : اما ان تكون مع الله او مع غير الله .
قلت ضاحكا :
- وما يعنيني من ذلك ؟
فاجاب كمن نفذ صبره :
- يعنيني انا ان تختار لنفسك : اما ان تكون معنا في تنظيم الضباط الاحرار من جديد ، واما الا تكون ، ولكل خيار حقوق وواجبات .
قلت وقد ادركت مقصده :
- اذن اعتذر عن السؤال وحب الاستطلاع .
فسألني بدوره عن الموضوع الهام الذي اطلبه فيه ، فلم اجد حرجا في الافضاء اليه بكل تفاصيل ماحدث ، فلما فرغت وافرغت كنانتي ضحك وقال معلقا :
- المس في سردك للامر ونبرة حديثك عنه شعورا بما يشبه الذنب !!
قلت : نعم ، واجد نفسي اشد التزاما بالسداد لكامل الدين دون مواثيق عندما يتيسر حالي من بعد .
فضحك فاروق في سخرية وقال :
المرابي مهنته الربا طوال عمره ولا اعتقد ان احدا سواك استطاع ان يهضمه حقه في المال الحرام ، فاذا غضضنا النظر عن المراباة كنوع من العمل او النشاط الهدام وغير المشروع ، فان التجارة دائما عرضة للربح والخسارة ، وقد ظل هذا اللعين يربح الالوف المؤلفة طوال عمره ، فماذا لو خسر هذه المرة ؟
ومضي فاروق يقنعني بالحجة ان ما اتيته من عمل امر عادي لا غبار عليه ، خاصة وقد جاء نتيجة لدوافع انسانية محضة ، ولكنه لم ينس ان يحذرني من تكرار ذلك ، اذ ان الخير والشر يتجاذبان شعرة معاوية الشهيرة ، في مباراة اشبه برياضة شد الحبل ، وهو يريد لي ان اكون من الاخيار لا الاشرار
وصلنا معهد المعلمين العالي ، فاذا المكان يرفل في الزينات ، والاضواء ونضرة الوجوه ، كان الناس يتبادلون التحايا وعبارات الود والضحكات ، فغمرنا شعور البهجة ونحن ندلف وسط خضرة ممتدة ، وقد ضاعف ذلك الشعور استقبال بعض دارسات المعهد من معارفنا وحفاوتهن بمقدمنا ، ثم بدأ الحفل باي من الذكر الحكيم ، واعقب ذلك كلمات مطاطة لا معني لها ولا جدوي ، صب قائلوها

عنايتهم علي رونق الاسلوب وجماله المصنوع واهدروا جلال المعني وقداسة الالفاظ ، فاستمعنا لها بضجر وصبر نافذ ، ثم توالي علي المنصة الشعراء الواعدين ، وقذف احدهم في وجوهنا بقصيدة لا تعرف ولا تعترف بمواصفات الشعر من عروض وبحور وقواف ، مكررة كلماتها ومترادفة بغير طباق ولا جناس ، والادهي والامر من ذلك ان شاعرها او مستشعرها لا ادري بلغ ذروة الانفعال والتشنج وهو يلقي بها علي عواهنها في وجوه الحاضرين ، حتي اذا انتهي حمدت الله في سري كثيرا ، فادهشني ان دوي المكان بالتصفيق والهتاف لذلك الشاعر الفج الغرير ، بعد ان وجه السباب في غير حياء ولا التواء لرجال القوات المسلحة ووصفهم بالجبن والخور في مواجهة حكم الطغاة من رفاقهم !! وانهم اذ يفعلون ذلك لا يتنكرون لمهنة القتل والمجازر التي يتقاضون أجورهم عنها من قوت الشعب وعرقه !!

شعرنا فاروق وانا بحرج بالغ ، وخاصة من نظرات معارفنا من الطلبة والطالبات ، والتي بدت كانها اعتذار عما نالنا من تجريح ، وعندها سألني فاروق بغتة :

- انك - ولاشك - اديب طويل الباع ، اليس لك شيء من الشعر ترد به علي هذا الدعي المأفون ؟!

قلت له وانا اكتم الضحك :

- اعترف اني لست بشاعر مجيد ، وحتي لو كنت كما تريد ، فان ارسال الشعر علي البديهة في موقف كهذا يحتاج لملكة شاعر ملهم قوي العارضة حاضر البيان ولست ذلك الرجل .

فتلفت فاروق يمنة ويسرة ثم جبهني بالسؤال :

- اين النقيب عوض مالك ؟

وشاركته البحث عنه بين الحاضرين فلم نعثر له علي اثر ، وفجأة دخل ومعه بعض الصحاب ، فاستقبلهم الطلبة والطالبات بكثير من الترحاب . فتحركت من مقعدي لاجلس جوار الصديق عوض مالك ، ثم قدمت له تقريرا وشرحا لما فاته من كلمات وقصائد وبتركيز علي آخرها وما حملته من سباب وتجريح لافراد القوات المسلحة ، فاشعلت كلماتي حماسته وغيرته ، واعتدل في مجلسه وقال :

ـ اذن سابدأ بقصيدة تناسب المقام . ثم اشار الي احدي الطالبات وهمس في اذنها ، فارسلت هذه من يعلن علي المنبر عن تقديم الشاعر النقيب عوض مالك ، فقام هذا من مقعده صوب المنبر وسط هدير من التصفيق والتهليل ، فاعتلي المنصة واثقا والقي القصيدة التالية لتلقف ما كانوا يأفكون :

بضياء عيني بانطلاق فؤاد
افديك حـــرا ياتراب بلادي
لك في الدماء حكاية صفاقة
لا تنتهي ، الا علي ميعاد
وهنا باعراقي تعيش شرارة
تذكي حرارتها دفين ودادي
وطني حملتك فكرة عملاقة
تبقي علي الايام كالاطــواد
ذرات ارضك ان تكــن تياهة
فلانها الاصرار في الاجســاد
شربت نجيعا لا يجف وعانقت
تاريخ ماض كان للاجـــداد

* * *

الجيش يا وطني فداؤك كلما
نادي باسباب الجهاد منادي
ما كان يوما بالجبان اذا بدا
للموت كالح ناجذ وســـواد
قد باع حتما للممــات حياته
وسعي الي العلياء في اســتعداد
افهل يخاف من اللقاء مجند
ينقض كالاقدار في ارعــاد
يرعي روابيك الانيقة ساهرا
عافت مشـــاعره لذيذ رقاد
افلست انت لديه اغلي فكرة

طبعت قداستها بكل فؤاد

***

شعبي وما كنت الجبان ولم يكن
للخوف ظل في مدي اندادي
وطنيتي قد لاتحد حدودها
شيء يفوق تصور الحساد
حق يقدسه الرفاق تفرعت
اغصانه صبحا علي الاجناد
ما الشعب الا من اخي وشقيقتي
وحبيبتي وصديق عمر هاد
رصاصتي ان تستقر بصدرهم
احيا حزينا ضائع الامجاد
انا ما ادخرت عزيمتي لجريمة
بل ادخرت رصاصتي لاعاد
يا شعب نصرك من صديق مخلص
في الجيش يأنف ان يخون بلادي
ومن الشهيد يسيل حر دمائه
في الارض يبعث ميت الاعواد

عادت الاكف تدوي بالتصفيق ، وتعالت الحناجر بالهتاف والشفاه بالصفير ، واستمر ذلك وقتا طويلا اثلج صدورنا وازال مواجدنا من قبل ، فنظرت الي صديقي فاروق اتبين مشاعره ، فاذا هو في ذروة الرضا والانفعال بالقصيدة واثرها علي الحاضرين ، حتي لقد ترقرقت الدموع في عينيه لمحتها بوضوح في ضوء المصابيح الخافت ، وكأني به قد اشبع حاجته الروحية حتي بشم ، فجرني من يدي خارجا وهو يقول :

- لن استمع بعد هذه لشعر ولا حديث .

فتبعته مكرها وانا مشوق للمزيد ، وهالني امره بعد ذلك ، فقد ظل طوال الطريق الي منزلنا بودنوباوي صامتا ، ثم فتح الله عليه اخيرا فقال :

. لم اكن اعلم ان جيشنا يضم نفر تجيش صدورهم بمثل هذه الملكات الابداعية الفذة ، ما اروع ان يمتلك الانسان ناصية السلاح والبيان !!

جدير بالذكر ان الشاعر النقيب عوض مالك من قبيلة الشايقية ، وهو (جونير) لي ، اي من الدفعة التي تليني في التخرج من الكلية الحربية ، وقد انخرط في العمل السياسي في قابل الايام ، فاضحي عضوا باللجنة المركزية ، وامينا للقوات النظامية بالاتحاد الاشتراكي السوداني ، ثم سكرتيرا للامانة العامة لنفس التنظيم ، وهو الان من كبار رجال الاعمال في السودان ، واحد الشعراء المطبوعين يقول القصيدة من الشعر وينام ملء جفونه عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم !! ولعل عنايته بالشعر وتجويده نتاج لشعوره بتأثيره في افئدة الناس ، والحق ان للشعر في وجدان الانسان السوداني اثر لا يطاول ، فكم الهب الحماس ، وفجر ينابيع العاطفة الوطنية ، فكانت معارك الشرف والجهاد والثورة .

صدر الامر بنقلي الي القيادة الغربية ضمن اشارة عادية لنقل الضباط ، وقبل صدور هذا الامر استدعاني قائدي ، وافضي الي بان سبب نقلي سيبقي سرا لا يعرفه الا هو ومدير ادارة الجيش وانا بطبيعة الحال ، وذلك حفاظا علي سمعتي كضابط بالقوات المسلحة يعتقد هو ومدير ادارة الجيش بان ظروفا ضاغطة خارجة عن ارادتي هي التي دفعتني لذلك المسلك ، واردف انهم لم يخبروا قائد القيادة الغربية بحقيقة ازمتي المالية ، ولكنهم نقلوا اليه فقط ان التزاماتي العائلية الجسيمة تستدعي حصولي علي علاوة الجنوب تخفيفا لوطأتها وعملا علي تجاوزها في اقرب وقت . ثم طلب مني قائدي بعد ذلك الحديث الودي ان ابرر به امر نقلي لرفاق سلاحي بما اشاء من مبررات مختلقة !!

عافت نفسي اختلاق المعاذير وافتعال الاسباب الوهمية لتبرير نقلي المفاجيء لرفاق السلاح ، واكتفيت باظهار الخضوع للاوامر بغير جدال ، ثم غادرت الخرطوم مخلفا اسرتي ورفاقي وحياة الضجيج والاضواء وراء ظهري متجها الي الفاشر ، وهناك استقبلني اركانحرب القيادة الغربية (الرائد وقتها) بشير محمد علي ، وقد تدرج فيما بعد في سلم الترقيات حتي شغل منصب القائد العام ووزير الدفاع ، وجاء بصحبته في ذلك اللقاء ثلة من ضباط القيادة ، والواقع ان بعضهم درج علي استقبال كل طائرة تهبط بالمطار كاجراء روتيني

دائم او تحقيقا لمنافع غير ذات بال كالحصول علي الصحف والمجلات ومعرفة الاخبار من افواه المسافرين .

وفي مكتبه الفخم . التقيت بالعميد/ابراهيم احمد عمر قائد القيادة الغربية ، فتلقاني بكثير من البشاشة والترحاب ، وعبر عن سروره بمقدمي وانه كان يود ان تطول اقامتي بينهم ، ولكن ظروف العمليات بالجنوب اقتضتهم ان يعززوا قوة حامية رمبيك بسرية مشاة علي وجه السرعة ، وهذه السرية المزمع ارسالها جاهزة للتحرك من الفاشر برا الي نيالا ومنها بالقطار الي مدينة واو ، علي ان يتم التحرك خلال ثماني واربعين ساعة فقط !! وقد رأي العميد قائد القيادة ان اتولي قيادة السرية ، فابديت حماسا لاداء الواجب الوطني جعله يدعو لي بالتوفيق ، ثم حييته مودعا بالتحية العسكرية وانا اغادر مكتبه في ختام ذلك اللقاء .

ثم تلقيت الامر بالتحرك في مكتب اركانحرب القيادة وجري تنفيذ خطة تحركنا ووصلنا الي مدينة واو عاصمة اقليم بحر الغزال ، حيث الفيت العقيد أ.ج . مبارك عثمان رحمة قائد سلاحي السابق قائدا للحامية ، فاحسن لقائي واكرم وفادتي وهو يعيد شتات الذكريات وسالف المواقف الطريفة ، امعانا منه في التبسط والحفاوة ، وكان ذلك شأنه في توثيق اواصر المودة بينه وبين مرؤسيه ، ولعل اعظم ما افعم قلبي وحبب الي المكان اني وجدت بين ضباط الحامية اربعة من ابناء دفعتي يعملون بالحامية وهم : النقيب/السر محمد احمد/اركانحرب العمليات النقيب علي احمد علي خالد قائد سرية المساعدة والنقيب/عوض محجوب/ قائد حامية التونج / والنقيب / عثمان الحاج حسين (ابو شيبة) قائد حامية رمبيك ، التي صدر امر العقيد مبارك بتوليتي قيادتها خلفا للنقيب ابو شيبة الذي تقرر نقله الي موقع اركانحرب ادارة .

الفينا مدينة رومبيك لدي وصولنا اليها في حالة توتر شديد ، وحدثني ابو شيبة ان معلومات وردت اليهم مفادها ان الخوارج يعدون العدة لهجوم كاسح علي المدينة بغية السيطرة عليها !! ومن ثم فقد اتخذت الاحتياطات اللازمة للدفاع عنها وحمايتها من كل خطر ، فاحاطها بكمائن مدبرة ، وامر قواته باحتلال المباني والمواقع الاستراتيجية ومن قبيل الحيطة والحذر القي القبض علي بعض المشتبه في ولائهم للمتمردين من محترفي السياسة وعلي رأسهم السيدين

صمويل أرو وازكيا كودي اللذين يعتقد بانهما ضالعان في مخطط التمرد واعمال العنف والقتال في الاقليم الجنوبي ، بل يغلب الظن انهما من زعماء الخوارج ورؤوسهم المخططة ، ومضي ابو شيبة الي القول بان الخلاص من امثال هؤلاء النفر لهو اضافة موجبة في سبيل القضاء علي الفتنة برمتها ، ثم اضاف محنقا :

- ما جدوي قتالنا لافراد الانيانيا العاديين ونحن نترك امثال هؤلاء يندسون بين صفوفنا طابورا خامسا وعقولا ترصد وتخطط وتدبر ؟!

جبهته بالقول :

- عندما كنت انت في الخرطوم منذ ثلاثة اشهر تقريبا في مهمة عسكرية ، وخلال اجتماعنا علي العشاء بمنزل الاخ فاروق عثمان حمد الله ، دار الحديث بيننا حول الاطر الفكرية لزعماء الجنوب وتوجهاتهم السياسية ، فلم تخف ما تكنه من مودة وتعاطف واحترام لدفعتك (جوزيف لاقو) وهو - كما تعلم - رأس الفتنة وقائد حركة التمرد ، كذلك ابديت نفس المشاعر نحو رفيقه (وليام دينق) وهو فيما اعلم الاب الروحي والعقل المفكر لجوزيف لاقو واضرابه من قادة التمرد ، وليس هؤلاء الذين تم القاء القبض عليهم الا اتباعا وحواريين لذينك الرجلين الكبيرين .

انتفض ابو شيبة وقال بحماس :

- كلا ، ليس الامر كما تعتقد ، فان صمويل ارو وازكيا كودي يجري التمرد في عروقهما مجري الدم ، ولن تخمد نار الفتنة ابدا مالم تخمد انفاسهما ومن يتبعهما في طريق التمرد الي يوم الدين !!

سألته : هل لك معرفة شخصية بهؤلاء المقبوض عليهم ؟

قال : عرفت ذلك عنهم من بني جلدتهم ومن اناس اثق في صدق اقوالهم.

قلت له :

- ربما يكون هؤلاء من منافسيهم او اعدائهم .

قال : وربما لا يكونون ، وفي مثل هذه الحال ، يجدر بي ان افسر الشك لصالح وحدة الوطن وامنه وسلامته ، وليس لصالح هؤلاء الافراد باي حال من الاحوال .

عدت اسأله من جديد :

- وماذا عن جوزيف لاقو ووليام دينق ؟
اجاب ابو شيبة بكثير من الثقة :
- جوزيف دفعتي وانا به عليم ، فهو - برغم قيادته لحركة التمرد - وعلي ماعرف عنه من عداء للانتماء العربي للبلاد ، فهو في نفس الوقت شديد الحرص علي وحدة القطر وشعبه ، بما لا يتعارض مع قناعته بحق الاقليم الجنوبي واهله في حكم فدرالي !! ولا ينفي ذلك عنه نزوعه وولاءه لفكر الغرب وتوجهاته الرأسمالية ، وهذا ما يجعلني اصنفه في عداد المتمردين حتي تضع الحرب اوزارها .

اما الاخ وليام دينق فهذا معدن متفرد رغم مايعلق به من شوائب التمرد ، وقد اتيحت لي فرصا عديدة لمحاورته والتعرف عليه عن قرب من خلال لقاءات مباشرة ، ووليام - كما حدث عن نفسه واخبر عنه الآخرون - ذو فكر اشتراكي تقدمي ، ولولا خوف الشطط والمغالاة لما ترددت في وصفه بانه شيوعي متخف لاسباب يعلمها هو ، ولكنه حقيقة من المؤمنين ايمانا لا يتزعزع بوحدة المصير والتراب السوداني ولكن في اطار نظام فدرالي يشمل اقاليم البلاد كلها وليس خاصا بالجنوب وحده ، انه يعترف بما تنطوي عليه القومية السودانية من تمايز حضاري وعرقي وديني ، ويري في ذلك التمايز مصدرا للامن والنماء والقوة ، اسوة بما درجت عليه الدول الكبري مثل الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الامريكية ، ولا مجال للشك ابدا في ان وليام دينق من ابرز الداعين الي السلام في وطنه والعالم اجمع ، وهو ايضا من المؤمنين بالوحدة الافريقية .

قلت له ضاحكا :
- من يراك تتحدث بهذا الحماس عن السيد وليام دينق وفكره وتوجهاته السياسية لا يخالجه شك في انك من اتباعه ومريديه .
قال مستنكرا :
- ولماذا لا تقول من مناصريه ؟ انا يا محجوب من المؤمنين حقا بان حل مشكلة الجنوب يكمن في اعترافنا بالفوارق العرقية والبيئية والثقافية والدينية ، وهذه جميعها يمكن احتواؤها في اطار حكم فدرالي وتوظيفها لبناء أمة ماجدة عظيمة ، ان الضرورة والآمال الوطنية تقضي بان تتجه الدولة والقائمون بامرها للدعوة لمؤتمر مائدة مستديرة آخر يكون اطاره الحكم الفدرالي للجنوب اولا ، ثم

تعميم التجربة فيما بعد علي بقية اقاليم السودان اذا ثبت نجاحها وتأكدت جدواها ، في اعتقادي ان مجرد الاعلان عن موافقة الزعماء الشماليين علي منح الجنوب حكما فدراليا سيجعل كل زعماء وساسة الجنوب ـ وفي طليعتهم جوزيف قو ووليام دينق ـ يقبلون علي المؤتمر ويجنحون الي السلم ، وبذلك تضع الحرب اوزارها ويكفي الله السودانيين شر القتال .

استدركت عندئذ قائلا :

ـ ولكن هناك تخوف لدي اهل الشمال وزعمائهم من ان الحكم الفدرالي للجنوب قد يكون بمثابة خطوة اولي في طريق الانفصال !!

قال ابو شيبة في ايمان عميق :

ـ اذا حدث مثل هذا الجنوح الي الانفصال يوما فان بمقدورنا ان نعود الي الوضع الراهن وهو الحرب اما اذا لم يحدث وثبت بالتجربة انه مجرد وهم ، فانا نكون قد كسبنا الامن والسلام والوحدة ، واعطينا شعوب العالم درسا آخرا في الوطنية ومغالبة الصعاب .

ضحكت ساخرا وانا اقول له :

ـ ما دمت تري ذلك يا صديقي فلا اقل من ان تطلق سراح رهينتيك صمويل وازكيال ، فهما حتما سيكونان من حضور مؤتمر المائدة المستديرة الثاني الذي تقترحه ، فهل تراك فاعلا ؟

ضحك ابو شيبة وقال :

ـ انت الاقدم رتبة والقائد الجديد للحامية ، فان كنت تري ذلك وتأمر به فما علي انا سوي الطاعة والتنفيذ .

قلت له وقد تمازج في نبرتي الجد بالمزاح :

ـ اذن اطلق سراحهما فورا ، وهذا امر !! فقال في ضيق وتبرم حاول اخفاءهما في دثار من الضحك :

ـ حاضر جنابك .ثم اصدر امره فعلا باطلاق سراح الرجلين .

ظلت مدينة رمبيك وحاميتها لعدة ايام في حال من التوجس والتوتر الشديد بسبب ما اشيع من هجوم وشيك للخوارج عليها ، ووسط هذا الجو المشحون بنذر العاصفة حضر لمقابلتي المواطن (شايب احمد شايب) الانصاري وهو من تجار المدينة نزح اليها من بلدته (القطينة) في الشمال ، وقد عرف بحبه

للحياة في الجنوب وما فيه من بساطة وطبيعة ساحرة واناس طيبين ، مما اكسبه لقب (بنج شايب) اي الزعيم شايب ، جاء ينقل الي انه قد علم من مصدر ثقة ان هناك حربا بين بطون قبائل الدينكا / القوق / والاقار / والالواج / بسبب خلافات قبلية . وان جموع الخوارج قد انقسمت علي نفسها لتعود كل فئة الي القبيلة الام تشد من ازرها وتناصرها في الحرب ، وحتي لا تتدخل قوات الجيش وتؤثر علي مجريات الصراع بين القبائل المتناحرة فقد اطلق المتمردون اشاعة بهجوم مزعوم علي رمبيك ، لكي يقيدوا حركة الجيش ويضعوه في موقف الدفاع عن المدينة ، ثم رجاني شايب ان احرك قواتي علي الفور صوب منطقة فاكام علي بعد حوالي مائة كيلومتر ، حيث تقرر ان تكون ساحة للحرب القبلية ، واضاف انه وبحكم معرفته وخبرته الطويلة باقليم بحر الغزال وطبائع اهله وعاداتهم ، ليجزم ان هذه الحرب ستطحن ارواح المئات من هؤلاء الناس البسطاء ، وتترك اثارها المدمرة علي حياتهم الاجتماعية والمعيشية لبضع سنوات اخري !! بما تخلفه من احن وضغائن وثارات !! وفي ختام حديثه الحف الرجل في الرجاء ، وناشدني باسم السودان واهله وباسم الانسانية الا اقعد عن واجبي لدرء خطر هذه الحرب المقيتة ، وقال انه معقود الصلات بنفر من عقلاء الدينكا الحادبين علي السلام والاخاء بين القبائل وقد ابدوا استعدادهم للتحرك في معية قوات الجيش كادلاء مرشدين الي منطقة فاكام .

بدا لي المواطن شايب مخلصا صادقا في طلبه ودوافعه ، فدعوت مجلس الامن في رمبيك وهو مكون من مفتش المركز (وهو يومئذ السيد سيف الدين الزبير حمد الملك) من احد بيوت الزعامة القبلية في اقصي شمال السودان ، ويضم المجلس ضابط البوليس واركانحرب عمليات الحامية مقررا وقائد الحامية رئيسا ، وكان وقتها الصديق ابو شيبة اذ لم تكن اجراءات التسليم والتسلم قد اكتملت بيننا بعد ولكنني ترأست اجتماع المجلس بحكم اقدميتي في وجود ابو شيبة .

قرر مجلسنا ارسال اشارة بالشفرة الي رئاسة حامية بحر الغزال ليدلي قائدها العقيد أ.ج مبارك عثمان رحمة برأيه حول تلك المعلومات بما يؤكدها او ينفي صحتها ، ومن ثم اصدار الاوامر والتعليمات الملائمة ، وسرعان ما وردت لنا افادتهم بالشفرة وهي تؤكد صحة الخبر والمعلومات ، وتطلب مني ان اتحرك

مع قوة مناسبة الي منطقة فاكام للحيلولة دون نشوب تلك الحرب القبلية ، علي ان يبقي ابو شيبة في رمبيك بما تبقي من قوات مدافعا عن المدينة لخبرته بمواقع دفاعاتها وكيفية استخدامها فاستجبت للامر الصادر من قيادة بحر الغزال

وقبيل تحركنا نحو منطقة فاكام ، اتصل بي كل من السيدين صمويل ارو وازيكيال كودي . وكانا ما يزالان بالمدينة . وطلبا مني السماح لهما بمرافقة القوة ، مؤكدين قدرتهما علي التأثير الايجابي في نفوس الفرقاء المتحاربين ، بوصفهما من القادة السياسيين للدينكا ، ويجدر بالذكر ان صمويل ارو كان من ضباط البوليس قبل احترافه للعمل السياسي في حزب سانو حتي اصبح من كبار القادة السياسيين وتقلد في مسار عمله السياسي عدة مناصب قيادية ووزارية آخرها منصب وزير الري المركزي ، اما السيد ازكيال كودي فهو ايضا احد القادة السياسيين من ابناء الجنوب ، شغل عدة مواقع قيادية ووزارية آخرها منصب حاكم اقليم بحر الغزال ، نصحني ابو شيبة بالموافقة علي اصطحاب الرجلين وان ابقيهما تحت ناظري دائما ، مؤكدا لي انهما سيعملان جهد طاقتهما علي حماية القوة وتجنيبها مواقع الزلل وموارد الهلاك دفاعا عن نفسيهما قبل الآخرين . كما اكد لي قوة تأثيرهما علي افراد بطون الدينكا وزعمائهم وخاصة الخوارج منهم ، بوصفهما من قادة حركة التمرد المتسترين !! فاخذت بنصح ابو شيبة واصطحبت الرجلين معي متجها نحو فاكام .

كان الطريق وعرا ضيقا لا يتسع لاكثر من مركبة واحدة ، تحيط بجانبيه الحشائش الاستوائية ومياه التوج وهي مياه يزيد عمقها عن المترين تغمرها الحشائش الكثيفة ، فاذا جفت تلك المياه في بعض فصول السنة اصبحت الحشائش يابسة قابلة للحرائق التي يشعلها الاهالي لاعداد الارض للزراعة حينا ، ولطرد الصيد البري ومحاصرته حينا آخر ، وقد اعترضتنا ونحن نحث الخطي صوب فاكام . احدي هذه الحرائق الكبيرة ، حتي ظننا باديء الامر انها من تدبير الخوارج يراد بها وقف تحركنا وضرب قوتنا ، خاصة وقد حاصرنا الحريق من كل الجهات واوشك ان يلتهمنا بالسنة اللهب لولا عناية الله ولطفه ، ثم اتضح لنا خطل ذلك الظن بعد خروجنا من دائرة النيران المستعرة .

واصلنا السير حثيثا حتي غدونا علي مقربة من فاكام حوالي الساعة الخامسة مساء ، وكنا بدأنا المسير من رمبيك عند فجر ذلك اليوم ، اثار

دهشتي رؤية صقور يربو عددها علي المئات وهي تحلق في سماء المنطقة في اشكال هندسية بديعة وعلي ارتفاعات مختلفة ، وبعضها في عراك وصدام مع بعضها الاخر ، وباستفساري عن حقيقة امرها وتكاثرها وصراعها قيل لي انها صقور الرمم ، اي انها تقتات اجساد الموتي من البشر ، وهي تدرك بفطرتها زمان ومكان الحرب قبل وقوعها !! فتطير محلقة ترقبا وانتظارا لمغانمها المرتجاة ـ تعجبت وذكرت عندها اغنية الشاعرة (بت مسيمس) وهي تحث الزبير باشا علي حرب خديوي مصر المتمثل في حاكم عام السودان آنذاك وعرب الرزيقات وسلطان الفور ابراهيم قرض بعد ان بعثوا اليه بثلاث رسائل تحمل الوعيد والتهديد بالحرب ، قالت في اغنيتها تلك :

جنك تلات ورقات جيب ردهن
صقور الجو حلقن ، قوم غدهن
يا مقنع الكاشـــفات لي حدهن

ثم سرحت بذهني بعيدا في اعماق التاريخ واغوار الماضي السحيق ، وعجبت لحال الانسان ذلك الذي خلقه ربه في احسن تقويم وعلمه الاسماء كلها وحجبها عن ملائكته المطهرين .

(وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضها علي الملائكة فقال انبئوني باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم الحكيم) .

ثم فضل الله سبحانه وتعالي الانسان علي مخلوقاته كافة وامرها ان تسجد لبديع صنعه وآية قدرته فسجد الملائكة اجمعين الا ابليس الذي ابى وتكبر ومضي يتربص بابن آدم ويفتنه ويغويه ويزين له الخطيئة متدرجا من اللمم الي الكبائر ، فوقع الانسان في حبائله حتي قتل اخاه فكان من الخاسرين .

ثم تابع الانسان رحلة السقوط والغواية والانحدار في مهاوي الرذيلة ومطاحن الشر ، فاصبح بحمقه صيدا سهلا وطعاما ميسورا للذئاب والسباع والجوارح ، وابتدع عقله وسائل الدمار والابادة من كل نوع وجنس ، ومازال يتفتق عن مخترعات الفناء الجماعي التي لا تبقي ولا تذر ..

وكزني الرقيب اول الجالس خلف مقعدي في عربة الاسكاوت المكشوفة ليعيدني من كهوف الفكر والتاريخ وقال وهو ينظر الي اسراب الصقور المحلقة :

- هل تعلم يا جنابك ان هذه الصقور تنهش اجساد جرحي الحرب وتبقر بطونهم وتفقأ اعينهم وهم ما يزالون احياء يجري ماء الحياة في اوصالهم ؟! وليس الصقور وحدها تفعل ذلك بل الذئاب والسباع ايضا ، ان وجوه الموتي الذين يتعرضون لنهش الصقور والذئاب والسباع يجللها الرعب والفزع ، فتبدو دائما مخيفة بشعة .

اجبت محدثي بايماءة من رأسي وانا اصدر الامر لقواتي من جهاز اللاسلكي بان تتخذ تشكيل التقدم للاشتباك (Advance to Contact) كنا ندخل اطراف قرية فاكام بحذر واستعداد لكل مفاجأة حتي ولجنا باطنها بسلام ، وقد اثار دهشتي ان اهل القرية لم يهربوا منا كعادة سكان القري في الجنوب عند رؤيتهم للجنود ، تضاعفت دهشتنا حين بدا لنا ان كل اهل القرية من النساء والاطفال والشيوخ فقط !! وبسؤالنا عن الشباب والرجال الاشداء قيل لنا انهم تحت امرة زعيم الاقار وقد خرجوا للحرب !!

أمرت افراد القوة باتخاذ وضع الدفاع الحولي ، بعد ان حددت لهم موقعا حاكما ومناسبا داخل القرية ، ثم استدعيت اولئك الادلاء وحملتهم رسائل لزعماء البطون المتحاربة :/ القوق والاقار / والالواج / شاركني في صياغة مضامينها صمويل ارو وازكيال كودي بلغة الدينكا . وقبل ان ينطلق الرسل اقتحمت مجلسنا امرأة عجوز تجاوزعمرها السبعين سنة ، وقد حاول الجند اعتراضها ، فاندفعت من بين ايديهم حتي بركت امامي وهي تضرب الارض بكلتا يديها في اشارات موحية ، وتهذي بكلام لم افهمه ، كانت تضغط بكلماتها في تؤدة طورا وتصرخ بها و،تبكي طورا آخر فامسكت بمنكبيها واوقفتها ثم طلبت من احد الادلاء من بني جلدتها ان يترجم لي ماتقول ، فاخذ يحاورها ثم بدأ يحدثني وقال :

- انها جد سعيدة بمقدمي مع الجند لوقف الحرب القبلية البشعة التي بدأت بمناوشات محدودة بين المتحاربين ولكن المعركة الكبري ستقع غدا عند طلوع الشمس ، وقال ايضا : ان المرأة حدثته بان خبر تقدمنا نحوهم لمنع القتال قد بلغهم منذ منتصف النهار عبر وسائل الاتصال القبلية السريعة ، وعرفوا ان قائد القوة رجل طيب وشجاع يصحبه بعض السياسيين الجنوبيين ، وهي تأمل ان يكون ما بلغهم من علم هو الحق ، وان لا نكون قد جئنا في ثياب الرهبان لكي

نسلك طريق الشيطان !!

نظرت الي العجوز مليا وانا اتفرس ملامحها وتجاعيد وجهها ونظرات عينيها الغائرتين ، كانت عارية الا من اسمال بالية ، في حين الفينا كل اهل القرية حفاة عراة تبدو ضلوعهم بارزة من اثر الجوع والهزال ، كذلك عجبت كثيرا لحذق هؤلاء القوم في ابتكار وسائل اتصال قبلية متناهية الدقة والسرعة ، حتي خامرني الظن بان لديهم اجهزة لاسلكية يديرها الخوارج من ابناء البطون المتحاربة ، ظلت المرأة تحدثني في نبرات تنم عن الصدق والاحترام والتقدير . ورددت عليها عبر المترجم مخاوفها وشكوكها ، واكدت لها اننا لا نسعي لشئ سوي اقرار السلام واشاعة الامن بين البطون المتحاربة .

قالت : وهي تنظر الي المترجم كمن ترجوه أن يكون امينا في الترجمة :

- ان فرقاء الرحم المتحاربين يريدون السلام حقا ولكن يدفعهم للقتال شعور بالعزة بالاثم ونعرة قبلية طاغية ، ولعل تدخلي الايجابي مع قواتي يدرأ الخطر المحدق بالرقاب ، ويمحو عنها هذا الشعور الآثم ، ويجعل الجميع يجنحون للسلم وصوت العقل ، ثم رجتني المرأة العجوز الا اتعرض للخوارج من ابناء البطون المتحاربة في هذا الظرف العصيب ، حذر ان يؤدي ذلك المسلك الي فشل مسعاي الانساني النبيل .

فلم اجد بدا - تحت فيض مشاعرها الدفيقة - من وعدها بما تريد ، واجابة مطلبها بنفس يملؤها الحب والخير لكل الناس بغير تمييز ، ثم سألتها ان كانت هي زعيمة القرية ؟ فاجابت ضاحكة وهي نشوي بنجاح مقصدها :

- كلا ، انا فقط امرأة مسنة من قبيلة الدينكا بطن الاقار ، وكل المتحاربين - علي اختلاف بطونهم - بمثابة ابنائي ، اروم لهم كل خير وامان ، فقد سبق ان فقدت زوجي وثلاثة من ابنائي في الحروب القبلية المتعاقبة ، فكرهت الحرب ، ونذرت مابقي لي من عمر لتمجيد السلام وتحقيق الامن .

كانت تتحدث والدموع تنثال غزيرة من مآقيها ويتهدج صوتها ويتلاشي احيانا اذ تخنقها العبرات حتي ان المترجم - وهو يقوم بترجمة الحديث - ادركه شيء مما تجد المرأة العجوز ، واشرق وجهه بنور الحب ، فجاءت كلماته الي موشحة بالجلال والحكمة ، عميقة كأنها صوت الغيب ، فكان الموقف مشهدا ملحميا في زمن النفاق والصراع ، ختمته المرأة مودعة داعية لي بالتوفيق

والسداد .

بعدها أمرت اولئك الرسل بالتوجه الي زعماء القبائل بما يحملون من رسائل تدعوا الي حقن الدماء ونبذ الحرب ، وامرتهم ان ينقلوا لابناء القبائل المتحاربة حديث المرأة العجوز معي ، وندائها لهم بالكف عن القتال .

جرت العادة في مثل مهمتي تلك ، ان يتم الاستعداد للحرب والسلام معا ، ولكل منهما ادواته ولوازمه ، ولهذا فقد حملت معي منذ بداية الرحلة عدة جوالات من الذرة والملح وبعض اثواب الدمورية لاوزعها علي اهل البلاد الطيبين الحفاة العراة الجياع ، كنت قد لمست هذه الحقيقة المرة خلال تجوالي الطويل بين اصقاع الجنوب المختلفة ، رأيت بعض هؤلاء الاخوة والاخوات الجنوبيين يتضورون جوعا بل يموتون ، وخاصة المسنين والمرضي والاطفال !! بينما يعاني بعض اخوتهم في الانسانية من امراض التخمة والسمنة ، غير آبهين لهؤلاء وغيرهم من ذوي الحاجة المعدمين ، فيبوءون بإثمهم علي الارض ، ويلقون جزاءهم العادل في السماء :

(الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم) . صدق الله العظيم .

وقد لا تمهل عدالة الله الناجزة بعض الناس كثيرا ، فيكون الجزاء من جنس العمل ، ويهلك الظالم بما ظلم ، وتحمل الاماني في طياتها المنايا ، اذكر في هذا المقام قصة رواها لي ابي حكي ان رجلا خرج من داره ليلبي دعوة صديق له ذات يوم ، وكان صديقه من ارباب الثراء العريض ، واذ هو في طريقه اليه ، مر برجل يمسك ببطنه ويلتوي من الالم ويصرخ !! فاقبل الحكيم يسأل الرجل عما يجد ، فقال الرجل :

- انه لم يذق طعاما منذ بضعة ايام مضت ، وان الجوع يفتك به !! فأطرق الحكيم وهو يرثي لحال الرجل ، وفجأة صرخ هذا صرخة لفظ معها آخر انفاسه وسقط جثة هامدة !! ومثل هذه الصرخة عرفتها البشرية قديما وحديثا ، وقد تبقي ما بقي علي وجه الارض انسان ، يسميها اهل العلم صرخة الجوع .

ثم واصل الحكيم طريقه حتي بلغ منزل صديقه الثري ولدهشته وجد الرجل يبكي ويتلوي ويصرخ وهو ممسك ببطنه ايضا ، فلما سأله عما به اغرورقت عيناه بالدموع وتلاحقت انفاسه واخذ يرسل انينا وشخيرا كفعل الذبيح

، وقال :

ـ انها التخمة ! فقد تناولت من الطعام ما لا تتحمله معدتي المريضة .

وعاد يمزق سكون الليل بالصراخ والعويل ، وماهي الا لحظات حتي زفر زفرة فاضت روحه اثرها وفارق الحياة ، وتلك زفرة عرفتها الدنيا ولسوف تظل معروفة حتي يرث الله الارض ومن عليها ، وهي ما يسميه ذوو العلم زفرة الافراط او خرجة التخم .

اطرق الحكيم مليا ، ثم قال يحدث نفسه :

ـ عجبي ، لو زكي هذا ماله ، فمنح قليلا من طعامه لذاك ، لما تألم الاثنان ، ولعاش كلاهما سعيدا !!

أمرت ثلة من الجند ان يحملوا بعضا من الذرة ، وشيء من الملح وقطعة من الدمور الي مسكن المرأة العجوز ، وسرت خلفهم الي هناك ، وكم كانت سعادتي حين الفيت المرأة تتوسط حشدا من حفدتها والي جانبها شيخ ضرير مهزول ،

حدثت العجوز ـ عبر ترجمان ـ عن فرط تقديري واعجابي بحبها واخلاصها لبني قومها وشجاعتها في مخاطبتي ، مما دفعني لايثارها بتلك الهدية التي بين يديها ، فانتفضت العجوز واتت بحركة من بين يديها تنبيء عن الرفض والانكار !! وقالت في حدة وحزم :

ـ ثق انني لم اسع للقائك ومخاطبتك لانال مكسبا شخصيا ، كلا فعلت ذلك من اجل اهلي قاطبة ، واعني بهم قبيلة الدينكا بمختلف بطونها وهذا ما يجعلني ارفض أن يكون لنجاحي معك ثمن غير ما طلبت منك ووعدت به !!

قلت لها وانا اسير لعاطفة طاغية :

ـ انني عندما حملت في ركابي هذه الهدايا لم اكن اعلم الغيب بلقائها في هذا الموقف النبيل الشجاع ، بل حملتها بدافع الانسانية والحب لاهلي واخوتي في الوطن ، وهي واسرتها منهم بلا شك .

نزلت كلماتي بردا وسلاما علي العجوز ومن معها ، فضحكوا بعد عبوس وتجهم ، ثم سألتني وهي ترسم علامة الصليب :

ـ هل انت مسيحي يا بني ؟

قلت : لا ، بل انا مسلم . فلم يبد علي ملامحها انها فهمت للمسلم

والاسلام معني !! وحز ذلك في نفسي كثيرا ، وادركت ان ثمة قصورا في نشاط جمعياتنا الداعية الي الاسلام في احراش الجنوب ، وان اهل الصليب اوفر نشاطا وحظا في اجتذاب القلوب الظامئة الي عدل السماء ونور الحق .

قامت العجوز - علي مشهد منا - ثم اشارت لافراد اسرتها فانتظموا جميعا في صف وهم يتهامسون فرحين ، وطفقت المرأة تملأ كفيها من الملح وتهيله علي الايدي الممتدة في شراهة والحاح ، فاذهلني ان رأيت قومها صغارا وكبارا يلتهمون حفنات الملح التهاما !! وتطحنه اسنانهم بصوت مسموع في نهم ولذة ، وكان صمويل ارو قد جاء لتوه ليشهد ما يجري بمنزل العجوز ، فوقف الي جانبي وعلق بقوله :

- انهم يأكلون الملح بهذه الشراهة استجابة لحاجة اجسامهم الماسة لمادته كعنصر غذائي لا يتوفر لهم كثيرا ، وفي هذا برهان كاف علي ضرورة التنمية المتوازنة بين الشمال والجنوب .

ندت عني ضحكة ساخرة وقلت له :

- اراك لا تتخلي عن ممارسة السياسة حتي هنا في فاكام !!

ثم توجهنا الي المكان الذي جري اعداده مقرا لنزلي لنتناول وجبة عشاء شهية ، وقبل ان نفرغ منها ترامت الي مسامعنا اصوات تغني غناءا جماعيا متداخلا صادرا من مواقع المتحاربين هنا وهناك ، كانت الاغاني شديدة الحماس قوية الصدي في ليل الغابة المطبق ، تزيدها قوة وهديرا اصوات الطبول والرزم الموقع وصرخات الراقصين ، وبالسؤال عن هويتها ومغزاها علمت انها اغاني الحرب يعمدون بها الي شحذ همم المقاتلين ، وتسرد من خلالها قصص المواقع الحربية السابقة ومواقف ابطالها وتضحياتهم من اجل القبيلة . وعلمت كذلك انها ستستمر حتي الساعات الاولي من الفجر ، وانه - رغم اتساع الشقة الفاصلة بين مواقع الفرقاء - الا انهم يستمعون لاغاني بعضهم البعض لمعرفة مدي قوة الروح المعنوية او ضعفها في الجانب الآخر !!

عاد رسلنا الي الزعماء بافادات تحمل الموافقة علي وقف الحرب من حيث المبدأ ، غير انهم جميعا طالبوا بضمانات تؤكد التزام الآخرين بالسلم ! فظل الرسل - طوال الليل - جيئة وذهابا بين زعماء القبائل حتي انتهينا آخر الامر الي قرار جماعي بوقف الحرب ، وعقد اجتماع للزعماء تحت اشرافنا بالقرية عند

مطلع الشمس .

وفي باكورة صباح اليوم التالي ، تكامل وصول الزعماء وتم الحوار بينهم ونحن نوجه الامور نحو بر السلام ، وكان لصمويل ارو وازكيال كودي وتفهمهما لاحوال اخوتهم ابناء الدينكا وعاداتهم وتقاليدهم اكبر الاثر في انجاح ذلك المؤتمر القبلي الذي انتهي بصلح دام ـ كما علمت من بعد ـ لاكثر من خمسة عشر عاما ، قبل ان يتجدد القتال وتدور معارك محدودة لاترقي لذلك الصراع الكبير المقيت .

ادركت يومئذ ان الاخوين صمويل ارو وازكيال كودي ليسا قائدين سياسيين فحسب ، بل هما حقا وفعلا زعيمان قوميان ولاؤهما للسودان كله شماله والجنوب . ثم غادرنا فاكام الي رمبيك ، حيث اكملت اجراءات استلامي لقيادة حاميتها من زميلي ابو شيبة ، بعد ان طاف معي علي محطاتها الخارجية وخاصة محطتي (شوبيت)و (يرول) .

وقفت ـ خلال طوافي علي المحطات الخارجية لحامية رمبيك ـ علي معالم بيئية وفولكلورية شائقة ، منها مشاهدتنا لرقص النقارة بمحطة يرول ، ورغم ان الغناء والرقص هما نشاط ابداعي ترفيهي ، وسمة غالبة علي اهل الجنوب قاطبة ، الا ان سكان يرول اختصوا برقصة بعينها نسبت اليهم وعرفت باسم (نقارة يرول) ، وفيها يجتمع الراقصون شيبا وشبابا من الجنسين في دائرة تتسع وتضيق مع حركة القوم مدا وجزرا ، بينما تتوسط الدائرة نقارة مثبتة علي الارض يقرعها عدد من الضاربين المهرة ، فتصدر عنها ايقاعات قوية مجلجلة تتداخل معها اغان جماعية يرددها الراقصون في تناغم فريد ، وخلال ذلك تهتز رقاب الفتيات واردافهن واعطافهن في توافق حميم مع اللحن والايقاع ، ويغلب علي جمهرة الراقصين وخاصة من الصبيان والصبايا ارسال النفس والجسد علي الفطرة ومقتضيات البيئة الاستوائية فيتحللون من كل محيط ومخيط ، ويرقصون عراة كما ولدتهم امهاتهم غير آبهين لشيء سوي الاغراق والاستغراق في الرقص الساخن العنيف وترديد الاغنيات الصاخبة ، فاذا المشهد لوحة فنية بارعة التصميم بادية السحر .

تبدأ رقصة النقارة عادة عند الظهيرة ، وقد تمتد حتي فجر اليوم التالي احيانا ، فيتفرق الراقصون في فجاج القرية لا يحسون رهقا ولا كلالا الا عندما

يخلدون الي مراقدهم ينشدون الراحة ، وهي راحة علي كل حال موقوتة بساعات النوم ، اذ ان هؤلاء الناس لا يكفون عن الغناء والرقص في كل زمان ومكان ، تجدها في ممارساتهم الحياتية وطقوسهم الدينية ومعالجاتهم الطبية البدائية ، وكل شأن من شئون الحياة .

لم يطل بقائي بحامية رمبيك طويلا .. اذ وردت اشارة من قائد ـ بحر الغزال ـ تأمرني بتسليم الحامية للضابط الذي يليني رتبة ، والتوجه الي (واو)ومنها الي مدرسة المشاة بجبيت لحضور (فرقة سرايا المشاة) الحتمية مع رفاق دفعتي . فسلمت الحامية ، وغادرت رمبيك حاملا ذكريات ايامي في ربوعها وما كان لي من مواقف فيها .

* // *

غادرتها الي جبيت مرورا بالخرطوم ، كانت مدرسة المشاة بجبيت بحق منارة سامقة للعلم العسكري ومرتعا خصيبا للبحث والتحصيل في ضروب الفكر العسكري وفنون الجندية والقتال ، نقل اليها حديثا من موقعه كملحق عسكري في سفارة السودان بلندن العقيد .أ.ج مزمل سلمان عندور ليتولي قيادتها ، فعمل وسعه لزيادة تحديث مناهجها ووسائل التدريس والتدريب فيها ، وكان من جملة ما استحدثه في ذلك الحين هو تكليف كل طالب باعداد بحث تاريخي عن احدي المعارك الحربية الشهيرة ، يتركز علي ابراز الجوانب الاستراتيجية والتكتيكية والدروس المستفادة منها ، ولم ينس العقيد مزمل وهو يكلف الطلبة الدارسين بهذه المهمة ان يمدهم بالمراجع اللازمة ، وكان قد جاء بها خصيصا من لندن لمثل تلك الاغراض .

التقيت ـ في زمرة الطلاب الدارسين ـ بالاخ النقيب / هاشم العطا ، وقد احرز البحث الذي قدمه عن (معركة شيكان) قصب السبق علي الجميع ، حيث افاد هاشم من خبرته كمعلم سابق بمدرسة المشاة وتلقية لدورات تدريب متخصصة بالمملكة المتحدة ، فاستخدم كل وسائل ومؤثرات التعليم الصوتية والمرئية ، اضافة الي النماذج مثل تربيزة الرملة (Sand modele) فجاء عرضه شائقا مثيرا ، وفصل النواحي الاستراتيجية في معركة شيكان ، فتحدث عن الهالة الاستراتيجية للامام المهدي ، وكيف حاولت بريطانيا تحطيمها بغير جدوي ، اذ كان الامام قد اكتسبها بعد انتصاره في شيكان !! ولتحقيق غايتها تلك عمد

دهاقنة الفكر العسكري في الامبراطورية العجوز لتبرير هزيمتها في مواجهة الانصار ، فزعموا ان الامام واتباعه حين هاجموا حملة هكس باشا وقواته ، كان هؤلاء في عداد الاموات لما نالهم من الارهاق والعطش ، وانه لم تكن هناك معركة بالمعني المفهوم ، اذ تمكن الامام المهدي وانصاره من القضاء علي جيش هكس في مدي ثلاث وعشرين دقيقة !! ورتبوا علي ذلك انه امر لا يحدث لجيش لديه روح المقاومة وقد كانت قوات هكس حقيقة تتفوق علي الانصار عددا وعتادا ودراية بفنون الحرب الحديثة . بل ذهبت محاولات الانجليز الي ابعد من ذلك اسفافا ، حين وصفوا الامام بانه اسد اقتات بالجيف علي غير عادة الاسود !!

بمثل هذه الترهات والتبريرات الخادعة المضللة ، مضي الكتاب والمحللون الانجليز يعملون علي حفظ ماء وجه الامبراطورية البريطانية العظمي ، لان الاعتراف بهزيمة جيش جرار حديث ، يقوده نفر من خيرة القادة وامهرهم ، ويحمل من السلاح والذخائر والمؤن ما تنوء بحمله الارض والجمال ، من شأنه ان يحطم الهالة الاستراتيجية لامبراطورية لا تغرب الشمس عنها ، وتضفي علي الامام هالة استراتيجية تجتذب اليه مزيدا من الانصار والمؤيدين والمؤمنين ، خاصة وقد ارتبطت معركة شيكان بكرامات عديدة للامام المهدي عليه السلام ..

قال هاشم في سياق بحثه ذاك :

ان من المؤسف حقا ، ان يبتلع بعض المؤرخين السودانيين طعم الزيف ويروجوا في احاديثهم ومؤلفاتهم لمثل تلك الدعاوي والاراجيف بغير تمحيص ، فالثابت عن طريق الرواة الثقاة الذين شاركوا في تلك المعركة ان الامام المهدي قد جمع بين صلاتي الصبح والظهر يوم المعركة ، وذلك يعني ان المعركة بدأت عند الفجر واستمرت حتي وقت الظهيرة ، وعلي عكس ما اورده الكتاب الانجليز ، فقد كانت شيكان معركة شرسة ، انتصر فيها المهدي وانصاره بجدارة واقتدار ، فاذا حكمنا العقل والمنطق : هل يمكن ان ينجلي غبار تلك الموقعة الحاسمة بالوسائل المستخدمة آنذاك من خيل وبغال وحمير ومشاة فيما لا يزيد عن ثلاث وعشرين دقيقة فقط؟!

واردف هاشم في خاتمة بحثه يقول :

انني ـ وانا معلم للتكتيك ـ لو اعطيت فصيلة مشاة واحدة ، وهي

المستوي والتنظيم الادني ، وطلب مني احتلال شيكان في مواجهة عدو هيكلي لاستغرق ذلك مني اكثر من ساعة ، فما بالك بجيش جرار استخدم الخيل والحمير والجمال والبغال ؟! ان في هذا دافعا ودعوة لاعادة كتابة تاريخنا المفتري عليه .

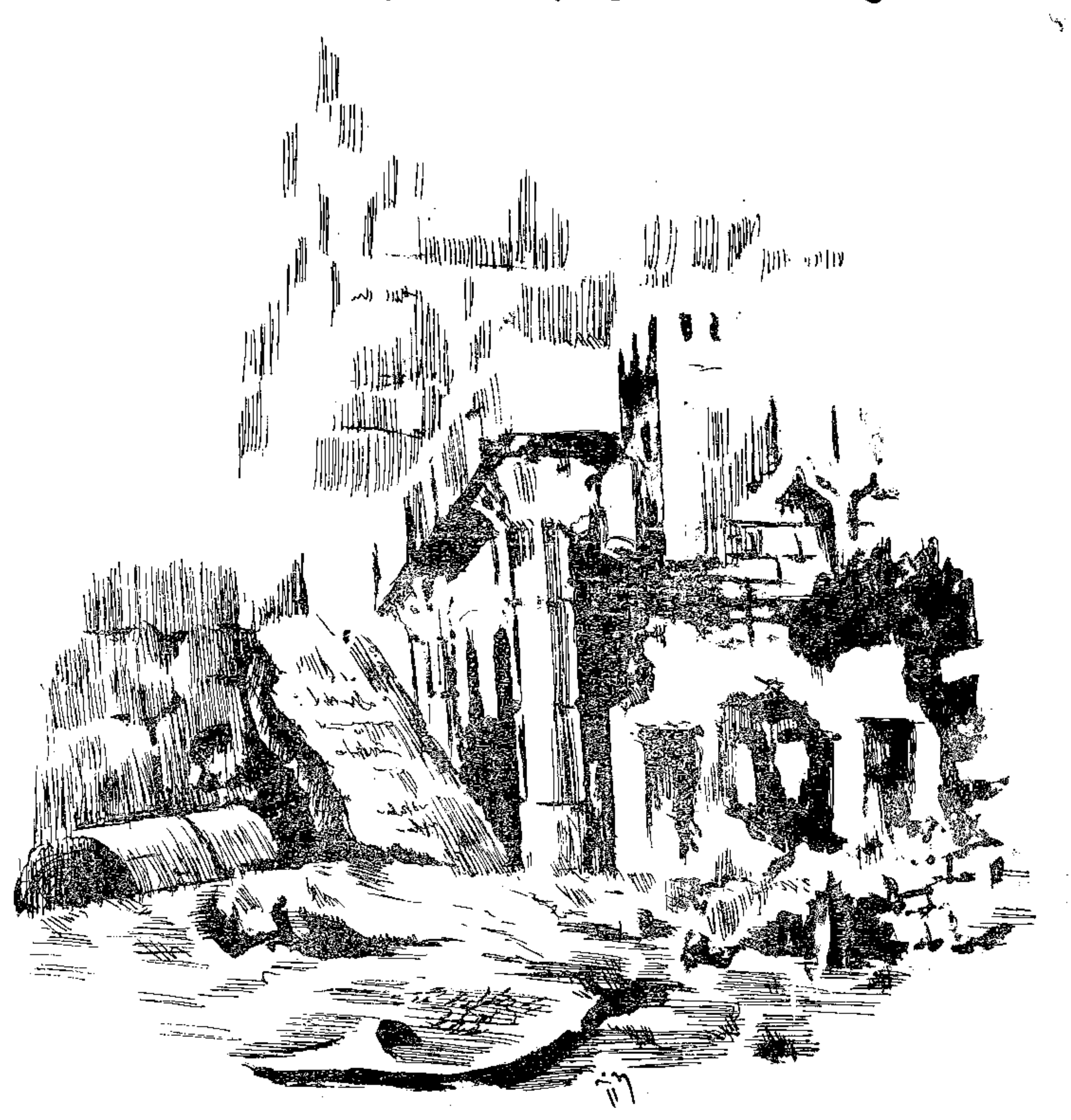
كان من بين معلمي الفرقة النقيب / الرشيد نور الدين ، وقد اعد وقتها بحثا في شكل كتيب عن حرب العصابات تقرر تضمينه منهج الفرقة الدراسي ، وكان بحق بحثا قيما ما زالت قواتنا المسلحة ومدارسها العسكرية تفيد منه حتي يومنا هذا .

تولي العقيد مزمل بشخصه تدريس بعض محاضرات الاستخدام التكتيكي للمدرعات ، وكلفني ـ رغم كوني طالبا بالفرقة ـ بتدريس البعض الآخر منها ، وعند نهاية الفرقة دعاني لمكتبه ، واخبرني انه يعتزم كتابة خطاب لمدير ادارة الجيش ، يطلب فيه نقلي من القيادة الغربية الي مدرسة المشاة ، لاقوم بتدريس وتدريب جوانب الاستخدام التكتيكي للمدرعات ، وسألني رأيي في هذا الامر فأبديت موافقة يجللها الحماس ، ولكن يبدو ان مدير ادارة الجيش عرض طلب العقيد مزمل علي قائد سلاح المدرعات قبل نقلي ، فأبدي الاخير اعتراضه وطالب باعادتي الي السلاح ، فلم يتوان المدير في اجابة مطلبه ، غير انه رأي ان يتم نقلي في الكشف العام للتنقلات بعد عدة شهور مقبلة .

عدت من جبيت الي الخرطوم ، حيث وردت اشارة من قائد الغربية تأمرني بقيادة كنفوي عربات يحمل السلاح والمعدات والمؤن والجنود الذين جري تدريبهم بالاقليم الشمالي للعمل بالقيادة الغربية ففعلت .

وفي الفاشر صدر قرار بتعييني قائد ثان للكتيبة الثالثة مشاة ، وتعين لقيادتها الرائد صلاح فرج ، كما صدر قرار مرادف بتدريب تلك الكتيبة بمعسكر مدينة (كبكابية) التدريبي ، بهدف اعدادها للعمل في الجنوب ، وقد تحركنا صوبه بعد نهاية مهمتنا التدريبية مباشرة ، فكانت بحق رحلة حافلة مثيرة ، شهدت كثيرا من الطرائف والمفارقات وعند وصولنا الي مدينة واو صدر قرار قائد حامية بحر الغزال والقاضي بنقلي من الكتيبة الثالثة قائدا لحامية قوقريال بينما انيطت مهمة حماية منطقة رمبيك للكتيبة الثالثة بقيادة الرائد صلاح فرج والذي اصر علي بقائي معه وملازمته لمدة شهر كامل ليفيد من خبرتي السابقة بحامية رمبيك ومنطقتها قبل توجهي الي قوقريال ففعلت .

السودان وحرب الأيام الستة !



{الحلقة السابعة}
السودان وحرب الأيام الستة

كان مركز قوقريال عند قدومي اليه يضم الحامية العسكرية ، ومن ضباطها حينذاك : الملازمين عبد الرحيم شداد ومنصور عبد الرحيم وشهاب الدين المنشاوي ، ويضم قوة الشرطة وعلي رأسها النقيب شرطة مصطفي سربل ، وقوة السجن ويقوم عليها احد صف ضباط السجون ، والمجلس البلدي وضابطه التنفيذي الاخ محمد الامين ، وعلي رأس هؤلاء جميعا مفتش المركز الاخ عبدالله مزمل من ابناء مدينة الكاملين بالجزيرة ، وهو ابيض البشرة ناعم شعر الرأس لدرجة ان بعضا من اهالي قوقريال كانوا يظنونه بريطاني الجنسية وريثا لدم المستعمرين وملكهم الغابر !! خاصة وقد كانت له آنئذ كل سلطات وصلاحيات المفتش الانجليزي وسطوته ، وصورته ما برحت باذهانهم لم تطمس بعد .

ومن معالم مجتمع قوقريال واهم قطاعاته فئة التجار وفي طليعتهم الخواجة جريجوري ابو لجمة ، وهو يوناني الجنسية والمنبت قضي في الجنوب زهاء الاربعين عاما ، تزوج باحدي الفتيات الجنوبيات وانجب منها ، وقد انصهر تماما في بيئة الاقليم ومجتمعه فلم يعد يميزه عن عامة اهله سوي بياض بشرته ولكنته الاغريقية .

كان جريجوري كريما مضيافا متلافا محبوبا من الناس كافة ، فاضحي متجره ومنزله قبلة لطلاب الحاجات والنوال من اهل المركز والمناطق المجاورة ، ومنتدي حبيبا لنفوس العسكريين والموظفين والاعيان ، يتجاذبون فيه الوان الحديث والاخبار ، ويغترفون من حياض كرمه صنوف الطعام والشراب بلا قيود او حرج ، وهو بينهم بادي البشر كثير الهذر خفيف الروح سعيد ابدا باضيافه من كل عرق ودين .

كنت قد حملت معي الي قوقريال جهاز راديو ومسجل كاسيت فخمين ، وكمية من الاشرطة مليئة بكل ضروب الموسيقي والغناء ، مما اتاح للاصدقاء ورواد ذلك المنتدي فرصة سماع الاخبار وتتبع الاحداث في مختلف اذاعات العالم

، يتحلقون حول الجهاز يتنطسون ويناقشون ويحللون ويصدرون الاحكام ! حتي اذا دهمنا الليل وطوانا تحت ردائه الاسود ، تحول مجلسنا - حوالي الساعة الثامنة - الي باحة منزل احد السمار دوريا ، لنقيم حفلا راقصا صاخبا علي انغام اشرطة الكاسيت علي شاكلة حفلات الديسكو المعروفة ، وللارتقاء بمستوي هذه الحفلات الروتينية وتنظيم الخدمات فيها كنا نستجلب مع طوف التعيينات والمواهي الشهري من مدينة واو فتيات يقمن بشئون الاعمال المنزلية عموما ، واضفاء البهجة والانس والطلاقة علي النفوس بصفة خاصة !! غير آبهين لتحذيرات قادتنا ومخاوفهم من ان تكون اولئك الفتيات عيونا ترصد اقوالنا وافعالنا واسرار تحركاتنا العسكرية ، وتفضي بها لاعدائنا الاشقاء المتمردين .

اثبتت التجربة والمعاشرة الحميمة صدق حدس قادتنا ، وقام الف دليل ودليل علي ان الخادمات الفاتنات كن بالفعل دسائسا وعيونا للخوارج ، ولما غدونا علي يقين من ذلك ، درجنا علي خداعهن والايقاع بهن بادعاء تحركات موهومة ، نتعمد البوح بها جزافا وعفو الخاطر علي مسمع من هاتيكم الفتيات ، ثم نرقب مايكون ساعة التنفيذ من جانب المتمردين ، فنتركهم فريسة للاحباط والفشل تارة ، ونوجه لهم ضربات موجعة تارة اخري .

ليس ذلك فحسب ، فقد سخر بعضنا علاقاته الشخصية باولئك الفتيات لخدمة اهداف العمليات العسكرية ، ومعرفة مخططات العدو ، كنا نعلم ان للعاطفة اثرها الفعال في نفس المرأة ، وخاصة في لحظات الضعف والغياب !! ومن ثم كنا نستدرجهن للافضاء بمعلومات هامة عن قوة العدو واهدافه ونقاط ضعفه ، وكان بعضهن يفضي بمعلومات عن تحرك مرتقب للخوارج علي جهة او هدف بعينه ، من باب التحذير والخوف علي حياة الضابط الحبيب !! كيلا يتعرض للخطر والموت في هجوم مباغت !!

اذكر انه جري نقل العقيد أ.ج. انس عمر قائدا لحامية بحر الغزال مكان العميد مبارك عثمان رحمة الذي اعيد الي الشمال ، كما جري نقل العقيد شرطة / محي الدين سليمان بديلا للعقيد / يوسف ابو قرون فقرر الرجلان : انس ومحي الدين الطواف معا علي حاميات بحر الغزال ، ووردت الينا اشارة بالزيارة الثنائية المرتقبة ، فشرعنا نعد العدة لاستقبال القائد الجديد ، ودبت في المكان روح العمل والنظام والترقب ، وفي خضم ذلك جاءني احد الجنود واسر الي

ان فتاته التي يزمع الزواج بها اخبرته بان احد اقاربها من فصائل الانيانيا قد زار قوقريال خلسة ، ثم غادرها الي جهة معينة علي طريق قوقريال - واو ، وقد نقل اليها انهم يدبرون في تلك الجهة كمينا ثلاثيا وخطوط نيران ثابتة ، حتي يفاجئوا بها قائد بحر الغزال الجديد ومدير الشرطة ، اذ ان مصادر معلوماتهم افادتهم بان الرجلين الكبيرين سيزوران قوقريال في غضون الايام التالية .

طلبت من محدثي ان يتيح لي فرصة اللقاء بفتاته فلم يمانع ، وهيأ لي سبيل اللقاء ، فالفيت فتاته خائفة متوترة الاعصاب تخشي العواقب ، وظلت تردد بين الفينة والاخري انها من دعاة الوحدة بين الشمال والجنوب ، ولا تريد لاحد ان يذهب ضحية لحرب رعناء ، وهذا ما جعلها تدلي بالخبر ، ثم الحفت في الرجاء الا اكشف سرها ابدا !!

وعدتها بما تريد حتي اطمأن قلبها ، ثم قدمت لها جائزة مالية مناسبة ، فامتنعت عن قبولها في اباء وشمم ، قائلة : ان جائزتها الكبري ان تري الوية الامن والسلام ترفرف علي كل مدينة وقرية وبيت في الجنوب ! كانت صادقة الشعور متوهجة العاطفة ، يشرق وجهها بنور الحب والامل ، فكررت لها الشكر والاعجاب وتركتها تبحر في عيني حبيبها بلا انتهاء !!

دبرت امري بليل ، ثم تحركت مع بزوغ الفجر في قوة كافية نحو موقع الكمين الغادر المدبر علي طريق قوقريال / واو ، فلما صرنا علي مشارف المنطقة ، تعمدت ان اطلق نيران مدفع المدرعة البراوننق الرشاش ، وكم كانت دهشتي حين تجاوبت معي نيران العدو من مكامنه ، وكنا لحسن الحظ بعيدين عن مداها المؤثر ، ثم تقدمنا نحوهم في تشكيل اقتحام ، فولت فلول الخوارج هاربة امامنا في ذعر وفوضي ، وتركت جزء من رجالي يحتلون مواقع العدو التي اخلاها ، وتقدمت بالآخرين الي محطة كواجوك ، حيث التقيت بالعقيد انس وقائد الشرطة الجديد ، وعدت معهما الي قوقريال .

ودهش العقيد انس والعقيد شرطة محي الدين وهما يريان بام اعينهما ما كان الخوارج يدبرون لهما من غدر خبيث ، ومصير محتوم لولا افادة تلك الفتاة العاشقة ، التي اضحت من بعد زوجة لذلك الجندي وقد ادركت من ذلك ان المرأة دائما وابدا سلاح ذو حدين ، لك او عليك.

وثمة حدث آخر يتعلق بالذاكرة ..

كان قائد حامية قوقريال السابق لي النقيب آدم بخيت قد جند ثلاثة من ابناء الاقليم الجنوبي ، زعموا له ان قوات الانيانيا قتلت اهليهم وخربت ديارهم ونهبت ثرواتهم وما عندهم من ابقار ، ولهذا جاءوا للتعاون مع الجيش طلبا للانتقام والثأر قبل كل جزاء مادي ، وانخرط ثلاثتهم في سلك الجندية ، فلما توليت قيادة الحامية بعدئذ ، حدثني النقيب / آدم بخيت عن شكوكه حول هؤلاء المجندين ، وبالسؤال عن مأتي هذه الشكوك وما يدعمها من براهين ، قال النقيب آدم : ان جميع مواقع المتمردين التي داهموها من قبل وجدت خاوية علي عروشها خالية تماما ، بينما تعرضت قواتنا في تقدمها ورجوعها لكمائن العدو الغادرة .

رأيت ان اخضع شكوك النقيب آدم للفحص والاختبار ، فطلبت من بعض صف الضباط ان يسلطوا بعض من يثقون بهم من الفتيات علي الجنود الثلاثة لمعرفة حقيقتهم ، ولم افاجأ كثيرا حين جاءت الافادة بانهم يتعاونون سرا مع قوات الانيانيا ضدنا ، وانهم صنائع مبثوثة في صفوفنا ، فامرت بالقاء القبض عليهم فورا ، ولكن لم يعثر لهم علي أثر ، اذ كان ثلاثتهم قد عجلوا بالفرار !! وكنا قد ازمعنا الخروج لمهاجمة احد معسكرات الخوارج بمنطقة (اكون) ، فخرجت علي رأس قوة ضاربة ، ونجحنا في مهمتنا ايما نجاح ، بعد مسيرة ثلاثة ايام علي الاقدام ، دون ان نتعرض لاية كمائن او مفاجآت كما كان الحال من قبل ، غير اننا . ونحن في طريق العودة الي الحامية ضللنا الطريق وظللنا نجوب الغابات بغير هدي ليومين كاملين ، نفذ خلالهما ما كنا نحمل من ماء حتي كدنا ان نهلك من العطش الشديد قبل ان نعثر علي بركة آسنة لوثتها بقايا الحيوانات الوحشية والطيور وربما الزواحف ، فاندفع الجند وضباطهم يجرعون منها في نهم وافراط ، عندها تذكرت قصة سيدنا طالوت عليه السلام مع جنده :

(فلما فصل طالوت بالجند قال ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فانه مني الا من اغترف غرفة بيده ، فشربوا منه الا قليلا منهم) صدق الله العظيم .

جاء في بعض التفاسير ان مياه ذلك النهر لم تكن محرمة لذاتها ، بل كان التحريم منصبا علي الافراط في شربها بعد ذلك الظمأ الشديد ، لان احساس الانسان بالري لا ينتهي بمجرد شرب الماء ، بل حتي تبتل عروقه رويدا

رويدا ، فالهلاك يكمن في الافراط والامتلاء .

وهذا ما دعاني لاصدر امرا بمنع الاندفاع الي شرب ذلك الماء الاسن القذر ، والابتعاد عنه ، ثم اقمنا الي جواره لثلاث ساعات تجرعنا منه علي مهل وتؤدة ، قبل ان نتحرك صوب قوقريال . ثم حدث ما كنت اخشي من قبل ، اذ اصاب الغثيان عددا من افراد القوة واخذوا يتقيأون في الم مريع .

وحدث آخر انه :

في الاسبوع الاول من شهر مايو ١٩٦٧م وردتنا اشارة سرية من قيادة بحر الغزال تفيد ان الخوارج يعدون العدة لمهاجمة مدينة قوقريال بغتة ، بهدف الاستيلاء عليها واحداث خسائر فادحة بقوتها العسكرية ، وطلب مني قائد بحر الغزال - في صلب الاشارة - اخذ جانب الحيطة والحذر ، ريثما تصلني التعزيزات اللازمة ، وذلك باحكام خطط الدفاع عن المدينة وتوجيه معظم القوة العسكرية نحو هذه الغاية ، وتجميد النشاط الهجومي علي معسكرات المتمردين حتي اشعار آخر .

تمشيا مع الظروف الامنية غير الامنة ، وعملا بنصح قيادة حامية بحر الغزال ، اصدرت امرا بحظر التجول في قوقريال بعد الساعة السادسة مساء ، ووجهت قواتي باقامة كمائن عند مداخل المدينة ، وفي ظل هذه الظروف ، اصبح جهاز الراديو هو الوسيلة الوحيدة للترفيه وتزجية الوقت ، نتجمع حوله في الامسيات ، لنتابع اخبار السودان والعالم من حولنا ، كنت شديد الحرص علي سلامة الجهاز من العطب ، فاقتضي ذلك بان اتولي بنفسي ادارة اقراصه ومفاتيح تشغيله ، وحققت براعة عظيمة في هذا المجال ، والماما بعيدا بمواقيت نشرات الاخبار الرئيسية والبرامج السياسية الهامة في اذاعات صوت العرب ولندن وموسكو والقاهرة وصوت امريكا وتل ابيب رغيرها ، نستمع الي الخبر الواحد بروايات مختلفة ، ثم نخوض في جدال وتحليل سياسي لوجهات النظر المتباينة .

من اهم الاخبار التي استمعنا اليها من اذاعة القاهرة وصوت العرب يوم ١٣ مايو ١٩٦٧ خبر مفاده ان اسرائيل تحشد قواتها علي طول الحدود السورية وتتركز بشكل خاص خلف بحيرة طبرية بما يجاوز ثلاث عشرة فرقة ، وذلك للهجوم علي هضبة الجولان والاستيلاء عليها !! وكرد فعل لهذا الصنيع اعلن

الرئيس المصري جمال عبد الناصر ان الدفاع عن سوريا هو جزء لايتجزأ من الدفاع عن مصر ، ثم ارسل انذاره بانه اذا هوجمت سوريا من جانب قوات العدو الصهيوني المحتشدة فان الجيش المصري سيدخل الحرب لا محالة !!

في اليوم التالي ١٤ مايو تناقلت وكالات الاخبار واذاعات العالم قاطبة خبرا من مصر فحواه ان الرئيس جمال عبد الناصر قد حرك فرق الجيش المصري باتجاه سيناء ، لتأخذ مواقعها علي الحدود المصرية الاسرائيلية وهكذا غدت نذر الحرب وارهاصاتها تملأ الاثير وتتصدر نشرات الاخبار في الاذاعات العالمية ، كما اثار الحدث عاصفة من ردود الافعال بين دول المنطقة والدول الكبري ، فنشط المحللون السياسيون في تناوله والتكهن بتطوراته ونتائجه ، واختلفت وجهات النظر حول من سيكسب الحرب ويكتب له النصر وتكون له الغلبة ، قالت الاذاعات في مصر : ان الجيش المصري هو اكبر قوة ضاربة في الشرق الاوسط ! وان الطيران المصري هو صاحب السيادة المطلقة علي الاجواء في الشرق الاوسط ، فاذا ما اضيف الي ذلك قوة العرب السياسية والمادية والمعنوية ، ودخلت سوريا والاردن الحرب رغم قدراتهما العسكرية المحدودة اضحت اسرائيل لقمة سائغة للجيش المصري ، يطوي ارضها ويدحرها بعد طول احتلال ، ويلقي بسكانها في مياه البحر الابيض المتوسط !! ولن يحول دون ذلك تدخل الولايات المتحدة الامريكية والدول الغربية الاخري لدعم اسرائيل ومساندتها ماديا وادبيا ، مادام الاتحاد السوفيتي العظيم وحلفاؤه في الشرق يفعلون نفس الشيء مع مصر والعرب !! ومن ثم فان النتيجة الحتمية لموقف الدول الكبري من طرفي النزاع هي التزام جانب الحياد والمؤازرة الادبية في المحافل الدولية لاغير ، تلك هي محصلة التحليلات والتعليقات السياسية التي طرحتها اذاعتا القاهرة وصوت العرب ، وظلتا تقرعان طبول الحرب بلا انقطاع ، شعارات طنانة واناشيد حماسية مدوية .

ومن عجب عجاب ، اننا استمعنا الي تحليل سياسي حول الموقف المتوتر بين اسرائيل والعرب من الخواجة قرقوري ابو نجمة ، اوضح فيه وجهة نظره مدعمة بجملة من الافادات العلمية والاسانيد التاريخية ، فخلص الي استنتاج عسكري يؤكد ان ميزان القوي في صالح اسرائيل لا العرب !! وقال ان هذه الحقيقة معروفة لكل الدول العربية وزعمائها ، وهو ماقالوا به هم انفسهم في

آخر مؤتمر قمة عربية جري عقده بالدار البيضاء . وقال الخواجة قرقوري ان الحرب الحديثة تعتمد علي نوعية القوة لا كمها ، وفي هذا تتفوق اسرائيل علي العرب ، فهؤلاء - رغم تعدادهم الذي يتجاوز مائة مليون نسمة - الا ان تضامنهم غير متكامل ان لم يكن غير موجود اصلا ، في حين ان الشعب الاسرائيلي - وتعداده ثلاثة ملايين فقط - هو بمثابة يد حديدية واحدة ، وان الجندي الاسرائيلي يتميز بروح قتالية عالية املتها غريزة الدفاع عن النفس والدين والمواريث ، واذكت اوارها روح عدائية افرزتها عوامل التربية الوطنية ومظالم القرون ، اما الجندي العربي والمصري علي وجه الخصوص فهو يعتقد انه يحارب دفاعا عن حقوق الآخرين وهم عرب فلسطين الذين يكن لهم عداءا غير معلن ، بل يحملهم مسئولية ما حاق بهم من تشريد وظلم ، حيث مهدوا الطريق لليهود لامتلاك الارض واقامة الدولة وفرض الوجود ، فالثابت ان كثيرا من عرب فلسطين قد باع ارضه وتخلي عنها لليهود طائعا مختارا !!

وقال قرقوري ان المصريين قد الفوا معاشرة اليهود من قبل في بلادهم وبين ظهرانيهم في مصر ، اذ عاش هؤلاء اليهود مواطنين لهم كل حقوق المواطنة في حارة اليهود وغيرها من احياء القاهرة ومدن القطر المصري المختلفة ، ولكنهم لم يعرفوا الفلسطينين الا كمشكلة سياسية تستعصي علي الحل وتفرض عليهم تضحيات جسيمة !!

وجاء في تحليل الخواجة قرقوري ايضا :

ان اسرائيل لا تحتل ارضا مصرية ، ولا تهدد - بصورة مباشرة - المصالح السياسية والاقتصادية لمصر ، وان الجندي المصري لا يستشعر غبنا او ثأرا ضد اسرائيل ، خاصة بعد ان انتصر عليها وعلي بريطانيا وفرنسا فيما عرف بالعدوان الثلاثي عام ١٩٥٦م ، حين احرز المصريون اعظم الامجاد في مدن القناة الباسلة وفي طليعتها بورسعيد ، كل هذه العوامل مجتمعة تفل من عزم الجندي المصري وتمتص حماسته ودفق روحه المعنوية ، وليس بعد مصر في المنطقة العربية قوة تأبه بها اسرائيل رغم الهدير المخيف . وعلي نقيض حال الجنود المصريين ودوافعهم الي الحرب كانت اسرائيل !!

وقال قرقوري : ان الحرب شيء كريه وبخاصة بين العرب واليهود ، لانهم ابناء عمومة ورحم ، اذ ينتمي العرب الي جدهم اسماعيل وينتمي اليهود الي

اسحق ، وكلاهما من صلب ابراهيم !! ويزيد من بشاعة هذه الحرب انها قد تجر الي مواجهة مدمرة بين القوي العظمي في العالم ، مواجهة يصعب التنبؤ بنتائجها علي حاضر ومستقبل شعوب العالم قاطبة .

ولعل اغرب ماجاء في تحليل الخواجة قرقوري ذاك قوله : ان الجندي المصري قد ذاق ويلات الحرب في جبال اليمن ، وان الهالة الاستراتيجية للجندي المصري واسطورة قدراته القتالية وصبره علي الحرب وصموده فيها قد انكشفت بما الحقه رجال القبائل اليمنية رغم بداوتهم وبدائيتهم من هزائم مأساوية متكررة بجيش مصر القادم لتأمين سلطة الحكم في بلادهم !!

وأردف قرقوري :

وان اسرائيل وجندها المتحضرين وعتادها الحربي الحديث والدول التي تساندها في غرب اوربا والولايات المتحدة لهي قوة فاعلة واعظم تأثيرا من المملكة العربية السعودية كظهير لمصر ودول المواجهة العربية الاخري ، وهذا يتيح للجندي الاسرائيلي فرصة اكبر لكسب الحرب !!

كنا نستمع لحديث الخواجة قرقوري باهتمام بالغ ، والي جواري الاخ عبد الله ومصطفي سربل ومحمد الامين وبقية الضباط شداد ومنصور وشهاب الدين ، وبانتهاء الخواجة قرقوري من تحليله دار بيننا نقاش طويل حول ما طرحه من حقائق واستنتاجات ، كانت بدايته عن هوية المحلل نفسه ، فاجمع الحاضرون علي انه بلاشك لا يختلف كثيرا في فكره ومشاعره عن بني جلدته من خواجات الغرب الاوربي ووصفوا تحليله وافاداته بالمبالغة والتهويل . ثم تحدث البعض عن موقف روسيا من ذلك الصراع ، وقرر بصورة قاطعة ان الاتحاد السوفيتي - رغم وعوده وتصريحاته الموالية للعرب - الا انه يقف حقيقة وراء اسرائيل يعضدها ويشد من ازرها !! ولعل الباحث عن دليل لهذا الموقف الروسي المزدوج لا يجهد كثيرا في تحقيق طلبته ، فقد تناقلت وكالات الانباء في ذلك العام ان روسيا قد سمحت لثلاثمائة الف يهودي من مواطنيها بالهجرة الي اسرائيل !!

وذهب نفر من شهود مجلسنا ذاك الي القول بان الحرب بين اسرائيل والعرب لن تقع مادامت القوي العظمي تمسك بخيوط اللعبة سياسيا وعسكريا وتخشي عواقب الحرب ومضاعفاتها هنا وهناك ، وجزم فريق بان الحرب واقعة لامحالة ، وتطرف آخرون فقالوا بان مايبدو علي ساحة المنطقة والعالم ليس نذر

حرب بين العرب واسرائيل بقدر ماهو ارهاصات حرب عالمية لا تبقي ولا تذر ، ستستخدم فيها قطعا القنابل الذرية والهيدروجينية المدمرة ، فيفني العالم المتحضر تماما ، وتزداد الدول المتخلفة تخلفا ، ويعود العالم الي سيرته البدائية الاولي !!

كانت الصورة ممعنة في التشاؤم ، حتي انعكس اثرها علي نفوسنا فاغرقنا في ضحك مجلجل طويل ، ثم رشحنا ـ في معرض المزاح والهذر ـ الاخ عبد الله مزمل سلطانا علي قوقريال وما جاورها ، ورشحوني قائدا لجيوشه المظفرة علي نسق ماكان بين الزبير باشا ورابح فضل الله في بحر الغزال قبل قرن من الزمان .

عدنا امسية اليوم التالي لنتابع مستجدات الموقف من خلال الاخبار ، وكان كل يوم جديد يحمل مزيدا من البراهين القاطعة بنشوب الحرب بين العرب واسرائيل ، خاصة بعد ان طلب عبد الناصر من الامين العام للامم المتحدة ١٦ مايو ١٩٦٧م سحب قوات الطواريء الدولية من قطاعات غزة وشرم الشيخ وخليج العقبة ، وكانت الامم المتحدة قد ارسلت هذه القوات بطلب من عبد الناصر في اعقاب العدوان الثلاثي ١٩٥٦م علي بلاده ، لتقوم بمهمة حفظ السلام علي الحدود بينها وبين اسرائيل ، ولما كانت هذه القوات قد جاءت بطلب من مصر ، فان من حقها ان تطلب سحبها متي شاءت ، فاستجاب الامين العام لطلب مصر وقام باجلاء القوات الدولية فورا ..

عندها بدأ جليا ان الموقف يوشك ان ينفجر بين طرفي النزاع في الشرق الاوسط ، فقادت الولايات المتحدة الامريكية وحلفائها حملة ضارية ضد طلب عبد الناصر سحب قوات الامم المتحدة ، الا ان يوثانت سكرتير عام الامم المتحدة لم يجد بدا من تنفيذ الطلب ، ثم فاجأ عبد الناصر المجتمع الدولي من بعد باعلانه قفل ممرات تيران في وجه الملاحة الدولية علي اعتبار انها مياه مصرية ، فثارت مجددا حملة الانتقادات والمعارضة لقرارات سلطة الحكم في مصر ، وقادت بريطانيا هذه الحملة وتكهنت بان قفل ممرات تيران سيتبعه بصورة تلقائية قفل خليج العقبة ، فاعلنت مع عدد من الدول البحرية الموالية لها ان خليج العقبة يعتبر طريقا مائيا دوليا وليس من حق مصر اغلاقه او السيطرة عليه ، وانها ـ تحسبا لهذا الاجراء ـ قررت وضع اسطولها في المنطقة في حالة استعداد تام .

في الجانب الآخر قال عبد الناصر في مؤتمر صحفي :

ـ اننا لا نواجه اسرائيل فقط ، بل نواجه ايضا الغرب ، الذي يقف وراء اسرائيل ، وسنعلم الغرب الذي يستخف بنا وبقدراتنا كيف يحترمنا !

ثم مضي عبد الناصر يتحدي الولايات المتحدة وكل الدول الغربية ان تجرؤ علي رفع الحصار عن خليج العقبة باساطيلها وكل ما اوتيت من قوة ، وقال محذرا :

ـ انه في حالة اي تدخل مسلح من جانب الولايات المتحدة الامريكية او الدول الغربية سيغلق قناة السويس ! وقال في حديث صحفي آخر :

ـ ان القضية ليست حول خليج العقبة او مضائق تيران او سحب قوة الطواريء الدولية ، بل هي في الاساس قضية الاعتداء علي الشعب الفلسطيني عام ١٩٤٨م بمساندة بريطانيا والولايات المتحدة .

بعد هذه التصريحات وما تبعها من اجراءات تحوطية ، اضحي جليا ان الحرب هي الخيار الاوحد لاطراف النزاع في المنطقة والعالم شرقا وغربا ، وفي ذروة التوتر والقلق اللذين سبقا هبوب العاصفة ، استنام كل العرب وكثير من دول العالم خارج المعسكر الاشتراكي الي قناعة راسخة بان الاتحاد السوفيتي لن يتخلي عن عبد الناصر والعرب ويتركهم فريسة لاطماع الرأسمالية العالمية ، ولكن عبد الناصر اذهل العالم اجمع واسرائيل علي وجه الخصوص وهو يعلن في مؤتمر صحفي لاحق بانه لاعلاقة للاتحاد السوفيتي بالحرب بين العرب واسرائيل ، وقال في تحد شديد : انه حتي لو تدخل الاسطول السادس الامريكي في المعركة لصالح العدو ، فانه لن يطلب تدخل الاتحاد السوفيتي ابدا !

كان عبد الناصر قد وصل في خطواته العملية وتحدياته لاعداء مصر والامة العربية مرحلة ازالت كل الشكوك في انه يمارس عملا دعائيا او مناورة سياسية ، ولما كانت المبادأة من اهم عوامل النصر في الحروب ، واعظم مبادئها ، فقد اخذ العالم كله يرقب وينتظر ويتساءل : من سيأخذ بزمام المبادأة اولا ، عبد الناصر ام اسرائيل ؟!

وعلي الصعيد الداخلي في السودان .. كنا قد استمعنا يوم ١٥ مايو ١٩٦٧م لاذاعة لندن والقاهرة وهي تنقل خبرا عن سقوط حكومة السيد الصادق المهدي اثر صوت ثقة طرحه هو بحكومته ! وكنا نعتقد ـ نحن ضباط الحامية

وموظفي الدولة في قوقريال. اننا ننفرد بالاهتمام بمثل تلك الشئون السياسية ، ونتأثر بها ، ولكننا فوجئنا في اليوم التالي بمظاهرة صاخبة ضمت كل ابناء المدينة وبناتها واتجهت نحو الحامية وهناك ابدي المتظاهرون رغبتهم في مقابلتي والتحدث الي ، فلما خرجت اليهم عبروا عن تأييد ابناء الجنوب عموما للسيد الصادق المهدي وحكومته ، لانه اولا صديق للسيد وليام دينق ، ولانه ثانيا يؤمن بحق اهل الجنوب في حكم فدرالي !! واكد لي المتظاهرون ان الجنوبيين لن يشاركوا في اي حكومة لا يكون السيد الصادق طرفا فيها ، وطلبوا مني ارسال برقية بهذا المعني لقائد حامية بحر الغزال ليرسلها بدوره الي حكومة الخرطوم ، فوعدتهم بذلك .

كان مثار دهشتي ان بعض اولئك المتظاهرين لا يتحدثون سوي لغة الدينكا ، وقد جري الحوار بيني وبينهم عن طريق مترجم منهم ، فأذهلني حقا ما لمسته من وعي سياسي لم يكن يخطر علي بالي ابدا ، وظللنا لثلاثة ايام نتابع اخبار الخرطوم ومجريات الصراع فيها بين القوي السياسية المتناحرة ، حتي علمنا يوم ١٨ مايو ١٩٦٧م ان حكومة ائتلافية جديدة قد تم تكوينها بين حزب الامة جناح الامام الهادي المهدي والحزب الاتحادي الديمقراطي (بعد ان توحد جناحاه وهما حزب الشعب الديمقراطي والحزب الوطني الاتحادي) علمنا ان الوزارة الائتلافية الجديدة قد تشكلت برئاسة السيد محمد احمد المحجوب وضمت ستة من وزراء في حزب الامة وثمانية وزراء من الحزب الحليف ، بحيث جري تقسيمها مناصفة بين جناحيه ، اربع حقائب وزارية للوطني الاتحادي ومثلها للشعب الديمقراطي ، كما ضمت الوزارة ثلاثة وزراء من ابناء الجنوب هم : هلري لوقالي من الجبهة الجنوبية وزيرا للعمل ، والفرد وول من حزب سانو وزيرا للاشغال ، وبوث ديو من الاحرار وزيرا للري .

قامت الدنيا ولم تقعد في قوقريال ، والفيت الناس جميعا يتحدثون الي في ثورة غاضبة ، واتجهت آراؤهم الي اتهام الاخوة الجنوبيين الذين تم اشراكهم في الوزارة الجديدة بالخيانة والتفريط في قضية الجنوب ، وخاصة السيد الفرد وول احد ابناء بحر الغزال وعضو اللجنة التنفيذية لحزب سانو ، كما وصفوا الزعيم الازهري ورصيفه المحجوب بالميكافيلية وشهوة الحكم !! وقد ضاعف من هذا الشعور في نفوس القوم ما حملته انباء الايام التالية من انضمام السيد

وليام دينق وحزبه سانو الي جناح السيد الصادق في المعارضة .

في تلك الظروف ، تنبأ الناس في قوقريال بان المعارك ستعود الي سابق عهدها من الشراسة والقوة بين الجيش وقوات الانيانيا بسبب الاوضاع السياسية الجديدة في الشمال ومضاعفاتها في الجنوب .

عدنا من جديد نزجي اوقات فراغنا في اللهو وتنطس الاخبار من جهازي ذي القدرة الفائقة علي التقاط المحطات الاذاعية في الداخل والخارج ، وكان مثار الالم والعجب معا اننا في كثير الاحيان كنا نستقي اخبار بلادنا وتطورات الاحداث فيها من اذاعات لندن والقاهرة وصوت امريكا واسرائيل !! ثم تتأكد هذه الاخبار بعد يومين او ثلاثة من اذاعة ام درمان التي لا تصلنا الا لماما . وكثيرا ما دار الحوار بيننا حول ضرورة اهتمام الدولة بالاذاعة وتقوية ارسالها حتي يبلغ كل انحاء السودان ، وذلك لبث الوعي السياسي والثقافي عموما ، عملا بدواعي القومية والوحدة وحق الناس في الترفيه الحلال ومعرفة اخبار بلادهم والعالم اجمع .

تلقينا ـ بعد تولي المحجوب رئاسة الوزارة ـ اشارة من قيادة بحر الغزال ، مفادها ان حكومة السودان بصدد ارسال معونة عاجلة من الابقار الي الشقيقة مصر دعما لمجهودها الحربي ومساهمة من شعب السودان لاخوتهم في الشمال ، وطلبت مني القيادة احاطتها علما بامكانية الحصول علي قدر من الابقار من منطقة قوقريال ، حتي تحصل من يقوم بشرائها وارسالها برا الي محطة (اويل) الحديدية.

كنت اعلم ـ علي وجه التقريب ـ ان الابقار متوفرة باعداد كبيرة ، ورغم ذلك تشاورت في الامر مع الاخ / عبد الله مزمل ، ربما ليطمئن قلبي ، ثم افدت القيادة بالايجاب ـ كان الاخ عبد الله شديد الحماس لمصر وقائدها عبد الناصر ، عظيم الاهتمام بمعركة المصير التي ستخوضها آنذاك ، ولا اعدو وجه الحقيقة ان قلت ان ذلك شأن معظم الاخوة رفاق السلاح في قوقريال !! صغارا وكبارا .

وفي فورة الحماس لتلبية طلب القيادة بتوفير قدر من الابقار ، يقطع الفيافي ، ويمتطي ظهور السكك الحديدية والبواخر والشاحنات ، الي شعب مصر الشقيق في اقصي الشمال ، تساءلنا في حيرة واحباط :

- هل تمتد المعركة مع اسرائيل شهرا او شهرين حتي تبلغ الابقار مصر وتدعم قدرتها علي مواصلة القتال ؟!

- ام انها ستذبح قرابين في احتفالات النصر بعد دحر اسرائيل والقاء اهلها في البحر ؟!

- الي اي مدي تكون مساندة حكومة المحجوب لنظام عبد الناصر في معركة الخلاص والمصير ؟ خاصة ونحن نعلم ميول المحجوب العربية المتطرفة ، ودافق حماسته للعروبة ومعاركها وثقافتها الذي هو احد مبشريها وصناعها !

فاتفق رأينا جميعا بان مساندة المحجوب لجهد مصر الحربي لن تقف عند حد اللحوم والفداء ، بل سيرسل قوات سودانية الي ارض المعركة والجهاد ، وقد اكون انا ، او بعض ضباط الحامية ، او غيرنا في اي مكان آخر ، من طلائع هذه القوات المرسلة لتمثيل شعب السودان في ساحة النضال العربي !!

- اذن فلنكن علي استعداد للفداء !!

حقا - لا مجرد ادعاء زائف - ان المشاركة في حرب العروبة ضد الصلف الصهيوني ، كانت امنية كل سوداني وتثير فيهم عواصف الثورة والغضب ، وتبعث في مواريثنا الخلقية روح التجلي علي مشهد من الآخرين من ابناء العمومة في الوطن العربي ، كما فعل آباء لنا من قبل عقدين من الزمان ، حين ابلوا احسن البلاء في الدفاع عن شرف العروبة في فلسطين الجريحة عام ١٩٤٨

كنا نعيش المعركة من بعيد ، فعكفنا نتنسط اخبار اندلاعها في اذاعات العالم اجمع ، وتحليلات المعلقين حولها ، وازدياد الموقف توترا وقلقا وقابلية للانفجار .

وكم عجبت لحالنا يومذاك !!

فقد الفيتني وكل الرفاق من كل الرتب ، لا نرضي بالحرب بدلا ! وما كان للسلم مكان في امانينا !! وكأنما اردنا للكابوس الجاثم علي صدر الوطن العربي بالقهر والعدوان ، ان ينتهي الي غاية تطمئن اليها النفوس ، وترتضيها كرامة الامة ، وتغسل عار السنين ، وليس كالحرب شفاء !!

وكان الموقف بين الفرقاء يزداد اشتعالا :

تابعنا تحركات الاساطيل الانجليزية والامريكية البحرية في مياه البحر المتوسط تجاه الساحل المصري !!

وحين بلغ شهر مايو ١٩٦٧ تمامه ، اطلقت اذاعات العالم خبرا عن توجه الملك حسين جوا الي القاهرة لتوقيع معاهدة دفاع مشترك مع مصر ، وافادت بعض تلك الاذاعات بان هذه المعاهدة قد تقررت بصورة مبدئية في مؤتمر القمة العربي الاخير في المغرب ، حيث تعهدت مصر بدعم قوات الاردن العسكرية بالاسلحة والمعدات .

ثم جاء في الاخبار ان الفريق عبد المنعم رياض قد طار الي الاردن بعد توقيع المعاهدة مباشرة لتنسيق العمليات المشتركة . جدير بالذكر ان هذه المعلومات والتحركات كان يفترض ان تكون سرية ـ ولكن !!

وكانت طبول الحرب تدمدم من الخليج الي المحيط !! واناشيد الفداء والجهاد تأتي من كل فج عميق في ارض العرب ، وبدا ان المارد العربي قد صحا من سبات القرون ، ليكتب صفحة من صحائف النصر والمجد والخلود !!

وكان العدو الاسرائيلي يعمل في صمت ، ويتظاهر بالدعوة الي السلام ، ليبدو في نظر الشعوب وديعا مستهدفا تحاصره الذئاب التي يسمع العالم عواءها وزمجرة الحقد في صدورها الموتورة !! واكتفت ـ في معرض الاستعداد للحرب ـ بتعيين الجنرال موشي دايان ، وزيرا للدفاع !! في اليوم الثالث من يونيو ١٩٦٧ !

وفي الرابع من يونيو تواترت الانباء عن اجتماع وزراء النفط العرب في بغداد ، لوضع خطة حرب استراتيجية سلاحها البترول العربي .

وقع في روعنا ـ ونحن نتابع الاخبار وتطورات الاحداث ـ ان كل الدلائل تشير الي اقتراب ساعة الصفر ، واندلاع لهيب الحرب في اية لحظة !! ثم كان صباح السادس من يونيو ١٩٦٧م .. فسمعنا من اذاعتي القاهرة وصوت العرب معا ان الحرب قد نشبت ، وان معركة الكرامة ثار نقعها في وجوه الصهاينة المعتدين علي ارض العرب ومجد العرب وشرف العرب !!

جلجل صوت المذيع احمد سعيد في صوت العرب وهو يعلن ان الطيران المصري قد وجه الضربة الاولي المفاجئة للقوات الاسرائيلية في عقر دارها ، فحطم طائراتها ودمر مطاراتها وشل قوتها الجوية والارضية تماما ! واضحت له السيادة علي اجواء المنطقة بلا منازع ، ولعلع صوت المذيع احمد سعيد ايضا كالهدير من بعد ، وهو يعلن ان القوات البرية المصرية : مدرعات ، مشاة ،

مدفعية ، ووحدات فنية اخري ، تحركت كلها صوب سيناء ، تروم اسرائيل فريسة سهلة ، ولن يتوقف زحفها المقدس الا في العاصمة تل ابيب .

لدي سماعنا لتلك الاخبار ، تطايرنا في المكان فرحا ونشوة ، وسرت روح الحماس في صفوف جندنا المغاوير ، وتفاعلوا مع الشعور الغامر بالامتلاء ، والتوق الي القتال ، حتي انهم كانوا يطلقون نيران بنادقهم الرشاشة في الهواء فرحا اثر كل بلاغ حربي بالطلعات الجوية المظفرة والانتصارات الارضية العظيمة ! ثم ادركهم بالغ الحماس وحب الجهاد ، وعم ذلك كل افراد الحامية ، فاجتمع لدي الضباط والصف والجنود ، يطلبون مني ان ارسل اشارة الي قائد بحر الغزال اخطره فيها برغبتهم العارمة في التوجه فورا الي جبهة القتال ! ففعلت ، وجاءنا رد القائد باشارة بليغة تقول : ان معركة الشرف والكرامة لا تقف عند حدود سيناء ، بل تمتد الي العمق العربي الاستراتيجي في السودان ، وان تأميننا للموقف في قوقريال هو جزء من صميم المعركة ، كما هو الحال في الاردن والجولان وسيناء ، حيث يلزم حماية ظهور المجاهدين ، ومدهم بوقود الحرب من رجال ومؤن وعتاد ونصحنا القائد - في آخر الاشارة - بالا ننساق وراء نشوة الظفر والانتصار علي عدو الامة العربية فنهمل واجبنا الاساسي في الدفاع عن قوقريال التي يتهددها الخوارج ارباب اسرائيل في افريقيا .

اخذنا بنصح القائد واعماقنا تضطرم بمشاعر الفرح وزهو الانتصار ، ولم نحفل - في غمرة ذلك - بما كانت تردده اذاعات لندن واسرائيل وصوت امريكا وغيرها من انباء محبطة عن اغارة القوات الجوية الاسرائيلية علي خمس وعشرين مطارا في مصر والاردن وسوريا والعراق ، وعن تحطيمها لقوات هذه الدول وطائراتها وهي قابعة في مواقعها لم تتحرك بعد! وعن سيادتها الجوية المطلقة اثر تلك الغارات ، وبررت اسرائيل هجومها الغادر باتهام مصر بالهجوم علي النقب .

ثم جاءت انباء اسرائيل تترى عن انتصارات عسكرية متلاحقة حققها (جيش الدفاع الاسرائيلي) ، وظلت اذاعات لندن وصوت امريكا ومونتي كارلو تدعم وتؤكد هذه الانتصارات كما زعمت ان اسرائيل هاجمت رفح والعريش وخان يونس مخترقة خطوط القوات المصرية حتي الساحل ، كما تمكنت من احتلال مدينة القدس العربية !!

كنا نسمع هذه الاخبار ونصيح في غضب وانكار :

- كذابين يا يهود يا ملاعين .

ثم نسمع خبرا من صوت العرب عن انتصار او صمود ، فنتصايح في فرح طفولي ويطلق الجنود صيحات الفخر ممزوجة بدوي الرصاص !

وصدق حدسنا حول ما يمكن ان تقدمه حكومة السودان من عون ومساندة للاشقاء العرب في معركة الكرامة والشرف السليب ، فاتخذت حكومة المحجوب جملة من القرارات العظيمة الدالة علي عمق الاواصر بين شعب السودان والامة العربية حيث :

* اعلن رئيس الوزراء من داخل الجمعية التأسيسية ان السودان قد اصبح في حالة حرب مع اسرائيل !
* قرر ارسال كتيبة من القوات المسلحة السودانية فورا لمشاركة الاخوة العرب في تحقيق النصر علي العدو الصهيوني ، وترجمة المطامح القومية المشروعة .
* اعلن أن موانيء السودان الجوية والبحرية قد تم اغلاقها في وجه سفن وطائرات الولايات المتحدة وبريطانيا وكل الدول التي تساند اسرائيل .
* ان السودان سيقطع علاقاته الدبلوماسية مع اي بلد يساند اسرائيل بصورة مباشرة او غير مباشرة .

وعلي الصعيد الدولي ، عقد مجلس الامن دورة طارئة مساء يوم ٥ يونيو ٦٧ ، حيث اتهمت كل من اسرائيل ومصر الاخري بانها البادئة بالعدوان ، واقترحت الهند داخل المجلس وقف الحرب فورا وعودة كل من قوات البلدين الي مواقعها قبل نشوب القتال ، فايد الاتحاد السوفيتي ذلك الاقتراح جملة وتفصيلا ، بينما تحفظت الولايات المتحدة الامريكية وايدت فقط وقف القتال .

وفي الساحة العربية ، اعلنت جميع الدول العربية تأييدها لدول المواجهة مصر والاردن وسوريا . وكان وزراء النفط العرب مايزالون ببغداد ، فقرر مجلسهم وقف ضخ البترول الي اي بلد يساند اسرائيل ويؤيدها ، وخرجت المسيرات والمظاهرات الهادرة في كل العواصم العربية تحيي نضال الامة وتندد باسرائيل ومن يقف وراءها خفية او جهارا ، ولا ترضي للنصر بديلا !! ثم اعلن الرئيس عبد الناصر قفل قناة السويس امام الملاحة الدولية .

وظل دهاقنة الاعلام العربي والمصري خاصة ، يخدرون مشاعر الجماهير العربية بافانين القول والبلاغات الحربية والاخبار الملفقة عن انتصارات وهمية !! فكنا حتي ذلك الحين في قوقريال نصدق ونجزم بحقيقة الانتصار العربي علي اسرائيل ، ولا نصيخ سمعا لما تردده اذاعات اسرائيل وحلفائها عن تقدم جيش الدفاع الاسرائيلي صوب النصر الحاسم الاخير .

ثم كانت المفاجأة المذهلة !

اعلن عبد الناصر ان الاساطيل الامريكية والبريطانية تساند العدوان الاسرائيلي ! وان سلاح الدولتين الجوي ..يقاتل جنبا الي جنب مع الطائرات الاسرائيلية ، ويصنع غطاءا جويا لكل مدن واراضي اسرائيل !!

كان صوت عبد الناصر يفتقد ذلك البريق الذي يصدر عن الثقة بالنفس والشعور بالقوة ويحمل في طياته نبأ الفاجعة الاليمة !! وكان البيان كافيا لندرك ان السيطرة علي اجواء المنطقة قد اضحت بيد اسرائيل ، اذ لو صح ما أعلنه عبد الناصر فلا قدرة لمصر علي مواجهة الاساطيل الجوية لامريكيا وبريطانيا واسرائيل ، وهذا يعني ان عدوانا ثلاثيا جديدا يواجه مصر والاردن وسوريا ، وبدأ الشك يساورنا في كل ما يصدر عن تقدم الجيوش العربية او صمودها في ساحات القتال ! خاصة عند سماعنا نبأ انسحاب القوات المصرية من شرم الشيخ ، وما كنا لنصدق النبأ ان لم يصدر في بيان حربي مصري !! ثم جاء نبأ آخر عن استسلام قطاع غزة لقوات العدو الصهيوني ! فصدقناه للتو واللحظة رغم سماعنا له في بلاغ حربي اسرائيلي ، وصرنا من بعد نصدق كل ما تقول به اسرائيل وبريطانيا وامريكا ، وما تذيعه من بلاغات عسكرية وتحليلات سياسية موجهة !!

ومرت بنا اوقات كئيبة محزنة ، ونحن نستمع لما يقول اعداء العرب ولا نملك له دفعا ولا تكذيبا ، فيتسرب الي اعماقنا كالسم الزعاف ، ويقتل فينا بذرة الامل في نصر موعود .

وجاء اليوم الثالث للقتال ..

وحملت انباؤه استسلام الضفة الغربية في الاردن لسيطرة اسرائيل ، وقبول الملك حسين وقف اطلاق النار الفوري ، وقد ابلغ بذلك مجلس الامن !! بينما رفضت مصر ذلك المصير ، واعلنت انها ستواصل الحرب حتي النهاية . ولم

نكن حتي ذلك الحين نسمع شيئا عن جبهة القتال السورية وموقف الحرب فيها ، بل ان بعض وكالات الانباء نقلت ان سوريا لم تدخل الحرب اصلا !!

وفي اليوم السابع من يونيو ١٩٦٧ ارسل الاتحاد السوفيتي نداءا الي كل من مصر واسرائيل يدعوهما فيه الي وقف القتال فورا ، وجاء ذلك النداء من داخل مجلس الامن الدولي .

وفي اليوم الثامن قبلت مصر واسرائيل مبدأ وقف اطلاق النار ، شريطة ان يكون الطرف الآخر هو البادىء بالوقف !

وفي اليوم التاسع من يونيو اعلنت اسرائيل ان سيناء باسرها قد سقطت في قبضتها ، وان الجنود المصريين يهيمون في الصحراء بغير هدي ، وهم حفاة عراة جياع تحت رحمة الطيران الاسرائيلي وتلاحقهم القوات الاسرائيلية البرية . كما اعلنت ان قتالا ضاريا يجري علي مشارف بحيرة طبرية والجولان ، وان الاخيرة قد اصبحت قاب قوسين او ادني من الاستسلام للقوات الاسرائيلية ، ثم اعلنت سقوط الجولان وضرب الطيران الاسرائيلي للعاصمة السورية دمشق ، وتحطيم الطائرات السورية !!

وجاء العاشر من يونيو متشحا بالسواد سمعنا من اذاعة القاهرة ان الرئيس جمال عبد الناصر اعلن اعترافه بالهزيمة ، ثم قدم استقالته من جميع مناصبه الدستورية والتنفيذية ، وانه بصدد تسليم الحكم والسلطة للسيد زكريا محي الدين ، احد اعضاء مجلس قيادة الثورة المصرية ٢٣ يوليو ١٩٥٢م وكان معروفا بميوله الامريكية وعدائه للاتحاد السوفيتي والدول الاشتراكية ، فايقنا من ذلك أن عبد الناصر قد استسلم اخيرا للولايات المتحدة وحلفائها بعد طول عداء وصمود .

ذهلنا للنبأ الفاجع في حامية قوقريال شأن الناس في كل ارجاء الوطن العربي !! فخرجت جموعنا في مظاهرة صامتة يجللها الحزن وتعتصر أفرادها مشاعر الاحباط والهزيمة ، وكنا قد سمعنا النبأ ونحن جلوس حول راديو الخواجة جريجوري بمنزله ، اذ كان قد دعانا لعشاء خاص من الدجاج المشوي ، فآلمه ما اعترانا من حزن ووجوم وعلق قائلا :

- لا اعتقد ان عبد الناصر سيتخلي عن حكم مصر طواعية واختيارا ، وانه سيتخذ فقط هذا الزكريا ستارا ليوقف زحف القوات الاسرائيلية نحو مصر

وعاصمتها القاهرة بضغوط من الولايات المتحدة ودول الغرب الراسمالية ، علي اعتبار ان سلطة الحكم قد آلت الي يد احد اتباعهم ولا اقول عملائهم !! وفي نفس الوقت ، يحقق عبد الناصر بتنازله هدفا آخر اكثر حيوية لتاريخه كزعيم مرموق ، وهو امتصاصه لغضب الشعب المصري من جراء الهزيمة ، ولكن رغم ذلك - في رأيي - ان الاتحاد السوفيتي وانصاره في مصر لن يقفوا مكتوفي الايدي وهم يرون شمس سلطانهم تؤذن بالغروب ليئول الحكم الي شخص عرف بميوله الغربية الصارخة ، واجزم ان صراعا شديدا سينشب في كواليس السياسة المصرية في هذا المنعطف التاريخي الخطير . وما يحدث فيما بعد - كما ارى - هو نفس القصة المتكررة في التاريخ الاغريقي القديم ، حيث كان الملك المهزوم في الحرب يعمد الي كباش فداء من خاصته واعوانه ، فيحملهم اوزار الفشل والهزيمة ، واكثر ما تكون تلك الكباش من قادة جيشه وكبار ضباطه ، ويزعم الملك للشعب انهم خالفوا مارسم لهم من خطط بارعة ، او لم ينفذوها بالدقة اللازمة ، وقد يستخدم الملك الدين والمعتقدات الروحية ، فيدعي انهم خالفوا تعاليم الآلهة واوامر النجوم ، فاستحقوا لذلك الموت الزؤام !! وهكذا يمتص الملك غضب الشعب وثورته للهزيمة ، ويستعيد حبه واخلاصه ، فتتعالي الهتافات من جديد :

- عاش الملك ، يحيا الملك !!

ضحكنا لتعليق الخواجة جريجوري ونحن نغالب الشعور بالفجيعة والالم ، ولا احسب ان احدا منا يشاركه الرأي فيما ذهب اليه ، رغم اعترافنا بحنكته السياسية وبصره بالامور ومجريات الاحوال في دهاليز السياسة العالمية خاصة ، بحكم متابعته الحميمة لتطورات الصراع والاحداث في العالم من خلال جهاز الراديو الذي لا يفارقه ليلا .

وكم كانت دهشتنا حين فاجأتنا اخبار القاهرة في اليوم التالي مباشرة ان الشعب المصري بكل قطاعاته وفئاته يطالب بعودة الزعيم عبد الناصر لقيادة مسيرة النكسة ومرارة الهزيمة ، وان هذه التظاهرات قد عمت كل ارجاء الوطن العربي وخاصة بيروت !! فلم يجد الزعيم بدا ولا مناصا من الرضوخ والاذعان لارادة الجماهير ومجلس الامة المصري ، ولهذا فقد سحب استقالته وعاد الي موقعه القيادي !! وكان ذلك مصداقا لنبوءة الخواجة جريجوري .

ثم تحدثت الاخبار عن احتلال القوات الاسرائيلية لكل مرتفعات الجولان !! فاضحت تسيطر علي ارض سيناء حتي القنال ، والضفة الغربية لنهر الاردن ، ومدينة القدس اولي القبلتين ، وكل هضبة الجولان السورية . واغلقت بصورة عملية قناة السويس كمعبر مائي عالمي يدر دخلا كبيرا علي مصر ، ويؤثر بصورة مباشرة علي اقتصاد العالم ، ولا شك ان الزعيم عبد الناصر هو الذي جر مصر والعالم العربي الي هذا المصير رغم المبررات والدعاوي الباطلة . ومع ذلك ظلت الجماهير العربية تهتف باسمه وتشيد بزعامته في الآفاق ولا غرو ان يكون ذلك حال بعض الرفاق في قرقريال ، فقد كانوا ـ برغم الهزيمة ـ خاضعين لسحر الزعيم وبريق زعامته ، ينتحلون له المعاذير ومبررات الهزيمة ، ويلقون بوزرها علي الولايات المتحدة وتوابعها في الغرب ، اما انا فقد كشف الله تعالي غطائي ، فاضحي بصري بحقيقة عبد الناصر يوم ذاك مديدا سديدا ، وكان لي في سابق وجودي بمصر رصيد من معرفة بالرجل ، حيث كنت طالبا بالازهر الشريف ، وعضوا في تنظيم الاخوان المسلمين ، وشهدت بام عيني قهر وطغيان اجهزة الزعيم في مواجهة الخصوم والمشتبهين ، وعسف رجال امنه وبطشهم بالصفوة من اخيار المجاهدين في الله والوطن ، اولئك الذين صدقوا ماعاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضي نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا .

كانت حرب الايام الستة وما تمخض عنها من مفاجآت وآثار مدمرة للاقتصاد العربي والعالمي اضافة الي قلب موازين القوي الاستراتيجية في منطقة الشرق الاوسط ، هي مدار اهتمامنا واحاديثنا بعد ان تجرعت الشعوب العربية غصص هزيمة فاجعة نكراء ، وليست مجرد نكسة عابرة كما سماها عبد الناصر واجهزة اعلامه وحوارييه !! واذ كنا غارقين في بؤرة الالم والذهول والمرارة نسينا جرحنا النازف وواقعنا الامني في الجنوب الملتهب ، فلم نعد نحفل بما يدبره الخوارج من هجوم وشيك لاحتلال قوقريال او غيرها ، ثم عدنا سيرتنا الاولي نرهق الفكر والجسد ربما بهدف استعادة الثقة بانفسنا من جديد ، لان آثار العدوان الاسرائيلي لم تقف عند حد احتلال الارض وحدها ، بل امتدت الي قناعات ومعنويات الانسان العربي وتاريخه ووجوده .

ولم البث بعدها كثيرا في حامية قوقريال اذ وردت اشارة من قيادة بحر الغزال ، تفيد بنقلي الي سلاح المدرعات ، كما وردت اشارة اخرى من القائد الخرطوم تأمر باخلاء سبيلي فورا ، فطلب مني قائد بحرالغزال تسليم الحامية للضابط الذي يليني في الرتبة والتوجه الي واو في غضون اسبوع واحد ففعلت ، وغادرت قوقريال بعد حفل صاخب اقامه الرفاق لوداعي وكذلك فعل اقرانهم في واو قبيل توجهي منهم الي الخرطوم .

عدت للعمل بسلاح المدرعات من جديد ، واخذت موقعي بين رفاق السلاح وهم يحتفون بعودتي بعد طول غياب ، وقد جاء وصولي الي الخرطوم في اعقاب مؤتمر وزراء الخارجية العرب الذي جري عقده بالعاصمة السودانية اثر الفواق من هزيمة يونيو او النكسة كما يحلو للبعض تسميتها ، وقد تم الاعداد في ذلك المؤتمر لقمة عربية طارئة للملوك والرؤساء العرب تعقد في الخرطوم خلال شهر اغسطس ١٩٦٧م ، وكان واضحا ان رئيس الوزراء السوداني السيد محمد احمد محجوب قد لعب دورا بارزا في انجاح المؤتمر وترتيب الظروف الملائمة لعقد القمة العربية الطارئة ، وقد اكد لي هذا الدور واثره صديقي فاروق عثمان عند لقائي به وانا حديث عهد بالخرطوم وما تشهده من احداث وغليان .

كان فاروق - علي غير ما الفته منه - متطرفا في ولائه للموقف العربي ، ومناصرة عبدالناصر ، وتأييد المحجوب في موقفه تجاه القضية العربية ، فتجاوزت ما طرأ علي فكره من تحول لاضع بين يديه جملة من التساؤلات ،

فاجاب بقوله :

ـ انه يري ان المسألة لا تقف عند حدود الصراع العربي الاسرائيلي كما يتبادر الي الاذهان ، بل هي صراع استراتيجي عالمي بين الدول الامبريالية التي تمثلها الولايات المتحدة ودول غرب اوروبا واسرائيل وبين الدول النامية المتحررة التي تمثلها الدول العربية وفي طليعتها مصر وزعيمها عبد الناصر .

وقال عن عبد الناصر والمحجوب :

ـ ان زعامتهما لا تقف عند حد بلديهما في مصر والسودان ، ولكنها تمتد الي اقطار العالم العربي والدول النامية الآخذة بمباديء الحرية والتقدم ومناوأة الاستعمار ، وهذا ما يجعله نصيرا للرجلين الزعيمين برغم مآخذه علي المحجوب فيما سبق ، وهو ـ اي فاروق ـ يري ان الناس والاحداث والاشياء نسيج من السلب والايجاب ، وقد فاقت ايجابيات ناصر والمحجوب ما كان لهما من سلبيات ومآخذ .

ثم طفق صديقي فاروق يدعم رأيه ذلك بادئا بالتماس المبررات لهزيمة العرب في يونيو وخطيئة عبد الناصر في تلك الحرب المهينة ، فأورد جملة من المزاعم قال انه سمعها من مصادر موثوقة عليا ، من ذلك ان عبد الناصر كان يعلم بهجوم طيران العدو الاسرائيلي المفاجيء ، ومن ثم فقد امر الطيران المصري بالاستعداد للمعارك الجوية ، وتقضي خطته بارسال ثلثي السلاح للتحليق في سماء مصر ، وابقاء الثلث الاخير علي اهبة الاقلاع في اية لحظة ، ولكن ماحدث ان الامر قد جري تنفيذه جزئيا في يومي الثالث والرابع من يونيو قبل نشوب الحرب ، ثم اهمله القائمون بامر السلاح الجوي في اليوم التالي ٥ يونيو ، بل ان هؤلاء ذهبوا اكثر من ذلك حيث سمحوا للطيارين المصريين بحضور حفلات جماعية صاخبة ليلة الخامس من يونيو عشية الحرب !! وقد اجتهد عملاء العدو المتسترين في تلك الحفلات ، لتدمير لياقة الطيارين وانهاك قواهم ، كما جري الامر نفسه في معظم وحدات الجيش والبحرية بل حتي ان المشير عبد الحكيم عامر لم يكن بمعزل عن آثار ذلك الكيد الخبيث !! فلما غير قائد الجيش المصري وقادته عما بانفسهم من ايمان واصرار علي الجهاد والاخذ باسبابه ، تغير نصرهم المحتوم الي هزيمة استحقوا بموجبها القصاص والجزاء العادل ، ولهذا عمد المشير عامر للانتحار تحت وطأة الشعور بالذنب .

هنا قاطعت فاروق متسائلا :

- ولكن هل انتحر الرجل ام نحروه ؟

اجاب عجلا وهو يواصل الحديث :

- لا يهم في شيء ان يكون انتحر ام نحروه !! بل المهم ان الزعيم عبد الناصر لم يكن مسئولا عن الهزيمة ولان احساس الشعوب لا يخطيء ابدا ، فقد برأه شعب مصر والشعوب العربية وهي تتمسك بزعامته وقيادته حتي بعد الهزيمة !

عند ذلك عادت بي الذاكرة ، وسرحت بافكاري بعيدا عن فاروق وهو يواصل الحديث بحماس عن براءة عبدالناصر وزعامته والآمال المعقودة عليه لتجاوز النكسة ، وتلاشي صوته في اذني وانا ارجع بذاكرتي الي حديث الخواجة جريجوري في قوقريال عن قدماء ملوك اليونان وكيف انهم درجوا علي اسقاط جرائر هزائمهم العسكرية علي قادة جيوشهم تنصلا من كل مسئولية ووزر ، وكيف كانت شعوبهم تصدق ما يزعمون من اسباب مختلفة ملفقة !! خاصة حين ينحرون اولئك القادة قرابين في هياكل الدعاوي الباطلة والكذب المفضوح ، فتهتف شعوبهم المضللة الرازحة تحت آثار الهزيمة :

- يحيا الملك ، عاش الملك !!

وانتبه فاروق الي شرودي فجأة فصمت وظل يحدق في وجهي ساعة ثم ختم مقالته :

- اعرف انه لا جدوي من الحديث معك في هذا الشأن ، وان رأيك في عبد الناصر لن يغيره شيء ، ولربما دعمه هذا الحدث وزاده رسوخا ، اعني النكسة الحالية .

ضحكت عندها وحاولت تغيير مجري الحديث معه وفلحت . ومرت الايام سراعا حتي كان شهر اغسطس ٦٧م موعد مؤتمر الملوك والرؤساء العرب في الخرطوم .

في ذلك الحين ، صدرت لنا الاوامر في سلاح المدرعات ان نكون علي أهبة الاستعداد لحماية الملوك والرؤساء ، وذلك بتعيين عدد من المدرعات والطواقم الحراسة اضافة الي سرية [illegible] كقوة احتياطية ، وقيل لنا وقتها ان السيد رئيس الوزراء المحجوب قد طلب من قيادة الجيش ان يجهز تشكيل قوات

حراسه الملوك والرؤساء علي هيئه معاصره عسكريه لكي تطمئن قلوبهم الواجفة بفعل الهزيمة . ونقلوا عن المحجوب قوله :

. انه لايريد تلك القوة كافية وقادرة فحسب بل واضحة الكثرة بادية النظام والكفاءة ، علي ذات الصورة التي شاهدها الملوك والرؤساء في قوة الحراسة اثناء مؤتمر القمة العربي الذي انعقد قبل الحرب بالمملكة المغربية .

بدا للرفاق ان المحجوب كان مبهورا بالمغرب ومليكه والنظم الامنية لجيشه ، فاراد ان يتمثل بكل ذلك في الخرطوم ، وقد حالفه التوفيق في ذلك وغيره من مرام تصدي لتحقيقها بعزم الرجال وقوة البيان وصدق العاطفة القومية ، فجاءت نتائج مؤتمر الخرطوم اكثر ايجابية من سابقتها في المغرب ، وقد تمثلت ايجابيات مؤتمر الخرطوم الذي انعقد يوم ١٩٦٧/٨/٢٩م فيما يلي :

اولا : تنقية الجو السياسي العربي من الخلافات والشقاق وتأكيد التضامن ووحدة الصف العربي ، وكخطوة عملية اولي في هذا الاتجاه ، عمد المحجوب لتدبير لقاء ودي بمنزله بين عاهل المملكة العربية السعودية الملك فيصل ، والزعيم جمال عبد الناصر ، تمخض عن انهاء ما كان بينهما من ضغائن وخلافات بسبب الحرب اليمنية والمهاترات الاعلامية والمكائد السياسية ، فتصافح الرجلان وزالت مواجدهما في نهاية ذلك اللقاء ، وحل الوفاق محل الشقاق.

ثانيا : تعهد الزعماء العرب بان تتحمل الدول العربية ذات الثروات البترولية عبء تخفيف آثار العدوان واعداد جيوش دول المواجهة واعادة قدراتها القتالية لاستعادة الاراضي المحتلة ، وتحمل الضغوط الاقتصادية الناجمة عن الحرب بعد أن فقدت مصر عائد قناة السويس وهو يقدر بمائة وعشرة مليون جنيه سنويا وفقد الاردن الضفة الغربية وما كانت تدره علي خزينته من مال يقدر بحوالي اربعين مليونا ، هذا بالاضافة الي تدمير الاسلحة والمعدات العسكرية للدولتين وحاجتهما لبناء قواتهما من جديد ، ولتحقيق ذلك تعهدت المملكة العربية السعودية بدفع مبلغ خمسين مليون جنيه استرليني كل عام لدول المواجهة وتعهدت الكويت بدفع مبلغ خمسة وخمسين مليونا استرلينيا وتعهدت المملكة الليبية بدفع مبلغ ثلاثين مليون جنيه سنويا كما تعهدت هذه الدول ان يكون الدفع كل

ثلاثة اشهر ومقدما يبدأ من اكتوبر ٦٧م ، ويستمر حتي تزول كل آثار العدوان ولتمكين هذه الدول من الوفاء بتعهداتها المالية اصدر المؤتمر قرارا بمعاودة ضخ البترول دعما لقدرة الدول المنتجة ، وكان وقف تصدير البترول قد تم اثر العدوان بقرار من وزراء الخارجية العرب ، باعتباره سلاحا استراتيجيا هاما موجها ضد دول الغرب المساندة لاسرائيل ، كما اقترحت الكويت في هذا الصدد انشاء صندوق لدعم الاقتصاد العربي والتنمية ، وحظي الاقتراح بموافقة كل المجتمعين .

ثالثا : تصفية القواعد الاجنبية في الدول العربية كافة واقرار مبدأ اللاءات الثلاثة : لا صلح ، ولا اعتراف ، ولا مفاوضات مباشرة مع اسرائيل ، بل اصرار علي تحرير الاراضي العربية المحتلة ، واسترداد حقوق الشعب الفلسطيني كاملة غير منقوصة .

ثم انفض المؤتمر التاريخي في اول سبتمبر ٦٧م بعد صدور هذه القرارات ، وبهذا اضحي مؤتمر قمة الخرطوم اكثر المؤتمرات العربية نجاحا علي الاطلاق ، حيث تجسدت فيه وحدة الصف العربي رغم غياب سوريا ومقاطعتها لمداولاته ومقرراته بل حتي مجرد المشاركة بالحضور ، وقد حضر مؤتمر الخرطوم كل من الرئيس اسماعيل الازهري ورئيس وزرائه نجم العروبة الساطع وقتها السيد محمد احمد المحجوب ، ومن كبار المشاركين الملك فيصل بن عبد العزيز ، والملك حسين بن طلال والامير صباح السالم الصباح والامير حسن الرضا ولي عهد المملكة الليبية والدكتور محمد بن هيما ممثلا للملك الحسن الثاني ، والرئيس جمال عبد الناصر والرئيس عبد الرحمن عارف والرئيس شارل حلو والسيد الباهي الادغم وزير الدولة التونسي ممثلا للرئيس الحبيب بورقيبة ، والرئيس عبد الله السلال ، والسيد عبد العزيز بوتفليقة وزير خارجية الجزائر ممثلا للرئيس هواري بومدين

يتضح من ذلك ان دول المغرب العربي (ليبيا ، المغرب ، تونس ، الجزائر) قد ارسلت للمؤتمر بممثلين لملوكها ورؤسائها ، ورغم ذلك كان حضور الامير حسن الرضا ولي عهد ليبيا ايجابيا من ناحية الالتزام المالي لدعم دول المواجهة .

هذا ولم يفد السودان من معونات الدول المنتجة للبترول المخصصة لدعم دول المواجهة ، ولكن المحجوب تمكن من عقد اتفاقات ثنائية مع كل من الاتحاد السوفيتي وتشيكوسلوفاكيا لامداد الجيش السوداني باسلحة متطورة ومعدات

عسكرية اخري ، وجاء ذلك تتويجا لاتصالات مع الكتلة الشرقية بدأت عام ١٩٦٦م بعد ان فشلت مساعية للحصول علي تلك الاحتياجات من دول الغرب الرأسمالية وخاصة الولايات المتحدة الامريكية ، ولتفصيل ذلك نرجع الي كتاب المحجوب (الديمقراطية في الميزان) فنقرأ في صفحة ٢٥٥ ما يلي :

(في عام ١٩٦٦ كنا في حاجة ماسة الي بعض الهليكوبترات والطائرات الحربية ، ففاتحت السفير الامريكي في الخرطوم المستر روانتري طالبا الهليكوبترات فوافق علي تزويدنا بحاجتنا ، غير انه بعد اتصاله بواشنطون قال ان ذلك مستحيل لان الولايات المتحدة في حاجة الي جميع هليكوبتراتها من اجل استخدامها الخاص ، حتي انه لم يقل أين ستستخدم هذه الطائرات ، ولكن طبعا عرفت انها في حاجة اليها في فيتنام ، ثم اقترح السفير تزويدنا بطائرات قال انها تستطيع الاقلاع من مدارج لا يتجاوز طول الطائرة ثلاث مرات ، وقبلت العرض ، وقال لي السفير: (اننا سنقدمها علي اساس تجاري - يسدد ثمنها خلال سبع سنوات ، مع فائدة سبعة في المائة) وطلبت ان تكون الطائرات مزودة بالرشاشات وبعض الاجهزة العسكرية ، فرفض قائلا :(ان للسودان ان يبحث عن طائرات في مكان آخر) .

وبحثنا في مكان آخر ..

في تموز ١٩٦٧م وخلال الدورة الطارئة التي عقدتها الامم المتحدة للبحث في حرب الايام الستة ، عقدت عدة اجتماعات مع اندريه غروميكو الذي كنت اعرفه منذ عام ١٩٤٧ ، واجتماعين مع رئيس الوزراء السوفيتي الكسي كوسيجين ، وقد سألت عما اذا كان الاتحاد السوفيتي يستطيع ان يلبي حاجتنا الي الطائرات والدبابات ، وقد وافق الاثنان علي الطلب بشروط سخية جدا ، التسديد خلال ١٢ سنة بفائدة ٥ر٢ في المائة ، واجتمعت ايضا الي رئيس وزراء تشيكوسلوفاكيا وبحثت في العلاقات التجارية بين بلدينا ، وقال ان بلده مستعد لتقديم مساعدات اقتصادية للسودان علي شكل قروض لانشاء صناعات ، كما عرضت تشيكوسلوفاكيا تقديم الخبرات اللازمة .

ونتيجة لهذه المباحثات ارسلت وفدا الي الاتحاد السوفيتي مع لائحة توضح الاحتياجات فأدت المفاوضات الي التوقيع علي الاتفاق عليها في الوقت المحدد - انتهي حديث المحجوب .

كان لاتفاقات التسليح هذه اثر بالغ في رفع الروح المعنوية لافراد القوات المسلحة السودانية ، واضافة الي ما حققه المحجوب من نجاحات في مؤتمر قمة الخرطوم ، فقد حظي بكثير من الالق السياسي وسمو المكانة بين زعماء البلاد وقادتها ، لدرجة ان الاعتقاد قد ساد بين المتطلعين من اعضاء تنظيم الضباط الاحرار بان انقلابا لا يكون المحجوب طرفا فيه لن يكتب له النجاح ابدا !! ولن يدوم الا ساعات قلائل اذا حدث . ولعل هذا ما جعلهم ينقسمون علي انفسهم الي قلة يحدوها الامل في مجد ثوري يدفعها الي الاصرار والمغامرة وتحدي الصعاب ، واكثرية يقعدها شعور اليأس والاستسلام للنظام الليبرالي الذي يترأس حكومته المحجوب . وفئة ثالثة جعلت من امتهان العمل العسكري موئلا وغاية فارتضت واقع الحال السياسي دون محاولة للتدخل والتأثير .



دورة الدروع التقدمية واخوة العرب !



{الحلقة الثامنة}
دورة الدروع التقدمية واخوة العرب

في مطلع عام ١٩٦٨م تم ترشيحي والرائد ابراهيم احمد جلق لحضور فرقة قادة دروع تقدمية ، بالمملكة الاردنية الهاشمية ، وهي المرة الاولي التي تقام فيها مثل هذه الدورة هناك ، حيث تقرر قيامها بمدرسة الدروع بالزرقاء ، وان يشارك فيها اخوتنا الضباط الاردنيين والسعوديين .

غادرنا الخرطورم بطائرة الخطوط الجوية السودانية الي بيروت ، وكانت مخصصاتنا المالية قد ارسلت الي سفارة السودان بها لعدم وجود تمثيل دبلوماسي مقيم بين الاردن والسودان يومذاك ، وعند وصولنا الي العاصمة اللبنانية بيروت فوجئنا بان تلك المخصصات لم تصل بعد !! والقي ذوو العلم بمجريات الامور في السفارة تبعه ذلك القصور علي بنك السودان وموظفيه واجراءاته السلحفائية ، فاسقط في ايدينا ، ولكن سفيرنا مصطفي مدني تصدي للموقف بما عرف عنه من مروءة وحب للمكرمات والشهامة ، وحرر لنا شيكا من حسابه الخاص لحين وصول مخصصاتنا المالية ، ولم يأل الرجل جهدا في تقديم كل مساعدة ممكنة لتذليل ظروف الرحلة الي الاردن .

وانطلقنا بعد صرف مبلغ الشيك الي عمان عاصمة المملكة الاردنية برا عن طريق دمشق ، كانت رحلة مثيرة بحق ، اذ لم تعرف بلاد الشام وقتها دوي القنابل وزمجرة السلاح والمجازر الجماعية التي تسودها اليوم ، ولكن كان الجو مشحونا بنذر الكارثة وعوامل الانفجار ، والنفوس تطفح بالعداء والكراهية والخلاف بين الفرق الدينية والسياسية المتناحرة ، غير ان الامر لم يتعد مرحلة التراشق بالقول والدعاوي لتأكيد الحقوق ، ولم يترجم بعد الي لغة التصفيات الجسدية والعنف الثوري .

كانت احاديث الرفاق الاردنيين ـ منذ وصولنا وبداية الفرقة الدراسية ـ تكاد لا تنقطع عن حرب الايام الستة ونتائجها ، رغم انهم لم يجرؤا علي القول بخطأ الملك حسين وتورطه في الحرب دون تقدير سليم لموقف بلاده السياسي والعسكري ، واندفاعه بلا وعي خلف عبد الناصر وسياساته بعد ما كان بينهما

من عداء سافر طويل اضافة الي تراخي عبد الناصر في دعم قدرات الاردن العسكرية وفق ما تقرر في مؤتمر قمة المغرب من قبل !! ولعل ملك الاردن - كغيره من قادة وشعوب العالم العربي - كان راسخ الاعتقاد بان النصر معقود بلواء الزعيم المصري شأن كل المعارك السابقة !! فخشي عواقب ماقد يترتب علي تقاعسه عن المشاركة في تحقيق النصر المرتجى من دعم لقدرات المنظمات الفلسطينية ومساعدتها في القضاء علي عرش الهاشميين وضم الاردن من بعد الي فلسطين المحررة من قبضة اليهود الذين سيبتلعهم البحر المتوسط لا محالة ، ولكيلا يحدث ذلك للعاهل الاردني ومملكته بعد الحرب التي آذنت بالوقوع وشيكا ، طار الملك حسين للقاء عبد الناصر في القاهرة ، وسماء العروبة ترتعد وتبرق بالخطر والقلق والتوتر ، فهلل العرب وكبروا للقاء !! وازدادوا يقينا بالنصر الموعود . وعقد الملك مع الرئيس عبد الناصر اتفاقا غير موفق ، افقده ساعة اليأس القدس والضفة الغربية لنهر الاردن، كما افقده الامن والسلام وعلاقاته الودية التقليدية مع دول الغرب والولايات المتحدة .

ولكن برغم ما حدث ويحدث بعد الحرب ، ظلت قبضة الملك علي زمام الحكم في بلاده قوية محكمة ، وهذا ما جعل صوت المعارضة للنظام - وخاصة بين الضباط - ينطلق كالهمس او الفحيح الحذر ، فلا يعد الا مجرد تساؤلات حيري مثل :

- لماذا اردنا الحرب ؟ لقد كانت لنا القدس والضفة الغربية قبلها ، وهي بالقطع ليست اراضي اردنية ، بل جزء من فلسطين السليبة ، آل لنا بعد حرب عام ١٩٤٨م بين العرب واسرائيل وهذا يعني اننا لا نقل منفعة في فلسطين من يهودها ومن يقف وراءهم من دول الغرب ، ولكننا اضعنا ذلك المكسب هدرا بسبب اندفاع الملك وتهوره وارتمائه في احضان من كانت اجهزة اعلامه علي مدار السنين تنعته بكل نقيصة .

وينبري - في ذلك النقاش الهامس - صوت يدافع عن موقف الملك وتصرفه بشيء من التجرد وقليل من الحماس ، ولكنه لا يلبث ان يرفع راية الاستسلام للرأي الآخر !

واعجب العجب ، اننا الفينا بعض اخوتنا من الضباط الفلسطينيين وهم ينحون باللائمة علي الملك حسين لدخوله الحرب واضاعته القدس والضفة الغربية

!! او لعلهم كانوا يحسبونه اوفر دقة من اليهود في حفظ الحقوق لاصحابها من بعد !! واكثر هؤلاء اللاثمين كانوا من ابناء الضفة الغربية ، استسلموا - بين حربي ٤٨-١٩٦٧م - للامر الواقع ، وارتضوا الانتماء للاردن حيث لا خيار ، ونعموا بالحياة في مدنهم وقراهم عقدين من الزمان في دعة وامن وخضرة سابغة وظل ظليل ، اما بنو جلدتهم الرازحون تحت قهر اسرائيل في بقية فلسطين المحتلة ، فلم تكن تربطهم بهم الا اواصر الانتماء للوطن الواحد ، حيث عاشوا من قبل اقاليم وقبائل ومذاهب دينية متباينة ، شأن الناس في سوريا ولبنان حتي اليوم ، ومن ثم كان اهل الضفة الغربية علي شاكلة العرب عموما في احساسهم بجرح فلسطين ، وتجاوبهم مع النداء لتحريرها .

ومن دواعي الحسرة والالم ، ان بعض ابناء الضفة الغربية ، كان لايعير الوجود الاسرائيلي في ارض فلسطين اهتماما ، الا بالقدر الذي يبديه الرأي العام العربي مدا وجزرا بفعل الاحداث ! وبعض آخر منهم ، كان له في الوجود اليهودي في ارض بلاده منفعة يحرص عليها ، ومن هؤلاء ضابط فلسطيني في الجيش الاردني ، كان يشغل منصب امين المخازن الفنية ، سولت له نفسه ان يتعاون سرا مع العدو الاسرائيلي ، حيث كان يرسل لمخابراته الرواجع الدورية بكل المركبات والمعدات العسكرية التي بين يديه !! وقد ظن ان حقيقته تخفي علي المخابرات الاردنية وان حقيقته ستبقي في الخفاء الي الابد !! ولكن اغفل ذلك الضابط صروف القدر ومشيئة الايام ، اذ انكشف امره للمخابرات الاردنية بمحض الصدفة ، ومارست معه طرائقها في انتزاع الحقائق ، حتي اعترف بجرمه العظيم ، ثم جري اعدامه علي مشهد من الجميع ، ليكون عبرة وعظة ومصيرا لكل من يخون . حدث ذلك في اول يوم لبداية فرقتنا التقدمية ، كان الموقف مؤثرا حقا ، حتي حسبنا ان ذلك الجاسوس المأفون سيكون خاتم الخونة والعملاء ، ولكن لم تمض الا اياما قلائل حتي اذيع علينا نبأ جاسوس آخر ، تم اعدامه بعد افتضاح امره وسحقا لاصحاب السعير .

كان الضباط الاردنيين من غير الفلسطنيين يفاخرون دائما بان ليس فيهم من يتجسس علي بلاده لصالح العدو ، ويباهون كثيرا باخلاصهم للوطن والعرش ، وولائهم لمليكهم الحسين بن طلال ، يرسلون هذا وغيره من ضروب المباهاة والفخر في وجوه الاخوة الفلسطينيين الذين ينتمون لاكثر من اربعين

منظمة ، والمنظمة منها تنقسم احيانا الي عدة فرق وطوائف واجنحة متصارعة ، تجمع التبرعات العينية والنقدية ، تخلق الزعامات ، وتدعي الانفراد بالعمل الثوري والبطولات !! وقد يقتضي الحال ان تنكر شرعية غيرها من المنظمات ! رغم ان الهدف ـ آخر الامر ـ واحد هو محو عار الهزيمة ، واستعادة الحق السليب !! ولكن حتي يتحقق ذلك الحلم البعيد ، يبقي كل قوم بما لديهم فرحين ، ناعمين بما تهيأ لهم من مكانة واسلحة ومعدات عسكرية واموال عربية ونشاط فدائي ـ حقيقي او مزعوم ـ داخل الاراضي المحتلة !! وقد يقتصر ذلك النشاط لدي بعض المنظمات علي مناوأة الانظمة والقيادات التي تملك المال والبترول ، او حتي التي تخالفها في الفكر والولاء لاحدي الكتلتين الشرقية او الغربية .

لاجدال ابدا ان النشاط الفدائي عمل رائع ونبيل ، ولكن بعضه للاسف كان غير سوي ، يأخذ البريء بذنب المجرم ، كإختطاف الطائرات ومهاجمة السفارات واحتلالها وقتل الرهائن وتصفية الخصوم ، مما سبب الذعر والهلع للآمنين في كل ارجاء العالم ، وافقد شعب فلسطين كثيرا من مواقع التأييد والمناصرة ، وبالطبع لم يعجب هذا الحال ملك الاردن وشعبه وخاصة القبائل البدوية وابناءها في الجيش ، مما جعلهم ساخطين علي الوجود الفاعل للمنظمات الفلسطينية المسلحة داخل الاردن ، يتهمونها بكل نقيصة ومثلبة .

ولا يقف الحال برفاق السلاح الاردنيين عند حد الافصاح بحقيقة النشاط الفلسطيني المدمر ، او بعضه علي الاقل ، بل يعمدون لحصر نشاط المنظمات ووضعها تحت سيطرة الدولة بحكم وجودها في الاراضي الاردنية ومسئولية النظام تجاه شعبه والاعراف الدولية ، وصراعه من اجل البقاء . ومن هنا ينشأ الخلاف بين الملك حسين وشعبه وافراد جيشه من جانب ، والكيانات الفلسطينية بارض بلاده من جانب آخر ، وكم من مرة تطور مثل ذلك الخلاف في لحظات الغضب الي موقف متأزم يوشك علي الانفجار ، فيسود الناس اعتقاد وتحفز بان الملك لا محالة سيقود حربا شعواء ضد المنظمات الفلسطينية بارض بلاده ، تستأصل شأفتهم وتضعف قدرة الثورة الفلسطينية علي النضال ، ثم تمر لحظات التوتر والتحفز للعراك ، وتنقشع سحائب الخطر من سماء البلاد ، ويتراجع الفرقاء قسرا تحت وطأة الشعور بعمق المأساة ، وحقيقة العدو الذي يجب ان يوجه نحوه السلاح ، وتتدخل عناية الله لتمنع حدوث ما ايقن الجميع انه واقع

لا محالة ، عندها يتنفس الاردنيون والفلسطينيون ونحن معهم الصعداء ، وتمضي الحياة بنا وبهم هادئة لا يعكر صفوها شيء .

هكذا اضحينا بوجودنا في الاردن طرفا في محور الصراع الاردني الفلسطيني الاسرائيلي ، ولكنه طرف سلبي يتأثر بحكم انتمائه للامة العربية ، ولكنه لا يحاول التأثير خضوعا للقوانين وموجبات الضيافة ، كانت مدرسة الدروع بمنطقة الزرقاء بعيدة نسبيا عن مواقع ذلك الصراع ، ورغم وجود عدد كبير من الضباط وصف الضباط المعلمين من اصل فلسطيني وكذلك بعض الطلبة الدارسين في الفرق المختلفة ، الي جانب الاردنيين بالمدرسة ، فقد ساد الجميع شعور الاخاء والانتماء للقومية الاردنية ، وظلوا كلهم يتفانون في اداء الواجبات العسكرية ، ولا اغالي اذا قلت ان مدرسة الدروع الاردنية من حيث كفاءة المعلمين وقدراتهم التدريبية والتنظيمية العظيمة ، لا تقل في شيء من ذلك عن مدرستي الدروع الملكيتين البريطانيتين في كل من باڤنجتون وللورث ، ان لم تتفوق عليهما !! وليس لهاتين المدرستين من سبق او ميزة الا وجود وسائل وادوات تعليمية متقدمة بعض الشيء وهو مظهر للفارق الحضاري بين البلدين .

هكذا الحال في كل معاهد التعليم العسكرية الاخري هناك ، فالكلية الحربية الاردنية بشهادة الخبراء والمعلمين البريطانيين انفسهم ليست ادني مستوي من رصيفتها سانت هيرست البريطانية ، وكلية القادة والاركان في الاردن لا تحني رأسها تواضعا لرصيفتها كمبرلي البريطانية ، وكل هذا فيما اري جاء نتاجا مباشرا لرعاية الملك حسين للمؤسسات والمعاهد العسكرية وعنايته الدائمة بتطويرها وابقائها في القمة بين مثيلاتها في العالم العربي ، وقد درج جلالته علي القيام بزيارات مفاجئة لهذه الكليات ، وتفقدها بين آونة واخري ، حتي لم يعد ذلك امرا يثير دهشة طلابها والقائمين علي امرها ، ومن ثم حرص الجميع في كل حين علي الاخذ باقصي درجات النظام والانضباط في العمل ، وكان ذلك شأن الملك مع كل وحدات الجيش الاردني في مختلف القطاعات والخطوط ، وهذا ما يجعل الملك حسين نموذجا ومثلا اعلي للقائد العربي بخبراته وعلمه وشجاعته واعتزازه بشرف الانتماء العسكري وارتداء زيه الرسمي

اذكر اننا قبيل انتهاء فترتنا الدراسية ، جري الحاقنا باللواء {٤٠} علي

خطوط القتال الامامية ، وبينما نحن بين افراده نشاطرهم الخطر ولذة الفداء ، الفينا الملك حسين بيننا فجأة ، جاء ليتفقد خطوط الدفاع وخططه ، وشرع في ابداء ملاحظاته وتوجيهاته للمسئولين عن قيادة اللواء ، فأخذ المشهد بمجامع قلوب الجند والصف والضباط ، فهتفوا بحياته وهم يلوحون بقطع السلاح كناية عن الولاء والفداء ، وتمنيت عندئذ ان لوكان كل القادة العرب علي شاكلته!! وتساءلت :

- هل يمكن ان يحدث في الاردن انقلاب عسكري والحال كهذه ؟! وهل يكتب له النجاح؟!

فاجابني ضابط اردني ساخرا :

- نعم يمكن ان يحدث انقلاب عسكري وينجح ! شريطة ان يكون الحسين بن طلال هو قائد ذلك الانقلاب !! وليس احدا سواه .

هكذا تتأكد قيادة الملك وتسيطر قبضته الحديدية علي جيشه وشعبه ، ولعل ذلك ما جعلهم يطلقون اسمه علي اكثر الاشياء والمنشآت الحيوية ، حتي غدا الحسين علي كل لسان اردني ، وقد لايروق ذلك لابناء الانظمة الديمقراطية ، ولكن الاردنيين لايجدون غضاضة ، ولايوجهون نقدا لهذه التسميات ! ويتعاملون معها بكثير من الاحترام والعفوية .

استأثر تحصيل العلم العسكري في قاعات الدراسة ومعسكرات التدريب خلال وجودنا في الاردن بجل اهتمامنا ووقتنا وجهدنا ، ولكنه لم يكن الثمرة الوحيدة التي جنيناها من ذلك الوجود ، فقد حفل بالكثير من المواقف والمفارقات والاحداث ، ومن جماع ذلك ترسبت في وجداننا خبرات جديدة بالحياة وحقائقها وطرائق الناس في مغالبتها ، فكان لذلك اعظم الاثر علي مداركنا وتوجهاتنا في قابل الايام .

اذكر علي سبيل المثال ، انه في اول ايام اقامتنا بميس ضباط الزرقاء - وهو مبني حديث به مصلي - دعاني الاخ / ابراهيم جلق مع عدد من الضباط لاداء صلاة المغرب جماعة فيه ، واذ كنا نتهيأ للصلاة ، تقدم ابراهيم وارتفعت عقيرته بالاذان في صوت قوي ، فلما فرغ بعد جهد جهيد لم يبخل عليه الاخوة الاردنيين بشيء من كلمات الاستحسان والتشجيع ، فنادوه مداعبين :

- تعال يا بلال وصل بنا اماما !

فتمنع ابراهيم رغم اصرار الاخوة الاردنيين والحافهم في الطلب ، وبعد تفرقنا من الصلاة الفيت ابراهيم غاضبا يتلظي ،

قال : ـ ان الذين دعوه بلالا ، انما كانوا يسخرون من سحنته السمراء ، ولعلهم وصفوه هامسين بالحبشي !!

ضحكت طويلا لانفعال ابراهيم وذهابه الي ذلك المدي البعيد ، ثم قلت له كمن القي عليه محاضرة :

ـ هون عليك يا اباخليل ، فقد فضل الله ورسوله بلالا علي غيره من الاعراب لدينه وتقواه ، فهو احد ثمانية شرح الله تعالي صدورهم للاسلام والناس في باطل الجاهلية يعمهون.

كان بلال يومئذ مستضعفا ذليلا بسبب عبوديته ، فلما اسلم واشتد ايذاء المشركين له وخاصة اباجهل الذي افتن في تعذيبه وهو يأمره بذم النبي (صلعم) ونبذ دين التوحيد ، صبر بلال علي الاذي ، ولم يجب آمره الا بقوله:

ـ احد احد .

وظل بلال يصلي الوانا من العذاب فلا تنال من عقيدته ولا تضعف ايمانه حتي افتداه اخوه في الاسلام ابوبكر الصديق بشرائه وعتقه ، فانطلق بلال في الحياة مؤمنا مجاهدا عظيم الهمة في العبادة ، كرمه الرسول بدعوته للآذان لاول مرة في تاريخ البشر ، حدث ذلك والمسلمون يتخذون المسجد الاقصي قبلة للصلاة مع غيرهم من اهل الكتاب ، بعد ان شجر بينهم خلاف علي كيفية النداء لصلاة الجماعة ، فرأي نفر منهم ان يقرع الناقوس ، واشار آخرون بايقاد النار في مكان مرتفع ، ورفض اكثرهم هذا وذاك لانه تمثل بالمجوس واهل الكتاب ، فنادي منادي النبي الكريم فيهم (الصلاة جامعة) فاجتمع الناس .

نال الرسول (صلعم) من امر الصلاة يومئذ هم جليل ، وقاسمه اصحابه المؤمنين مايجد ، حتي فرج الله عنهم بتلك الرؤيا الملهمة ، حيث رأي الصحابي عبد الله بن زيد فيما يري النائم رجلا عليه ثوبان اخضران وفي يده ناقوس ، فسأله عبد الله :

ـ اتبيع الناقوس ؟

قال الرجل : وماتريد ان تفعل به ؟

قال : اقرعه لاجمع به الناس للصلاة .

فقال الرجل : بل احدثك بخير من ذلك ، تقول :

الله اكبر الله اكبر ، اشهد الا اله الا الله ، واشهد ان محمدا رسول الله ، حي علي الصلاة ، حي علي الفلاح ، الله اكبر الله اكبر ، لا اله الا الله .

ثم نادي الرجل بذلك وهو قائم علي سقف المسجد ، وجلس ، ثم نهض فاقام الصلاة . فلما استيقظ عبد الله بن زيد ، ذهب من فوره الي النبي (صلعم) ووصف له رؤياه ، فقال له النبي :

{قم الي بلال ، فالق عليه ما قيل لك} ففعل .. وبعدها امر النبي الكريم بلالا ان ينادي بذلك للصلاة فارتفع صوت بلال بالاذان لاول مرة ، ثم زاد عليه بلال (الصلاة خير من النوم) في آذانه لصلاة الصبح خاصة ، واقره رسول الله علي ذلك ، وغدا سنة الي اليوم ..

وفي يوم الفتح الاعظم ، وكتائب الاسلام تدخل مكة تهدم الاصنام وتعلي راية الحق ، خص النبي عليه الصلاة والسلام بلالا بشرف تطاول لاحرازه عامة المسلمين وخاصتهم وذوو النبالة فيهم ، فقد امر (صلعم) بلالا ان يعلو الكعبة ويؤذن فصدع بالامر في موقف مهيب رهيب ، وكان ذلك اول آذان علي الكعبة في تاريخ الاسلام .

هكذا اتم الله نعمته علي خاتم الانبياء والمرسلين بعد ان ظل واصحابه ثلاثة عشر عاما يولون وجوههم شطر بيت المقدس للصلاة ، جاعلين الكعبة بينه وبينهم اذ يصلون الفروض والنوافل . ولم يكن النبي الكريم ـ طوال ذلك ـ راضيا قرير العين بهذا الصنيع ، حتي اذا هاجر الي يثرب ومكث بها سبعة عش شهرا ، نزلت الآية الكريمة :

{قد نري تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره} صدق الله العظيم.

فاتجه المسلمون بعدها صوب المسجد الحرام وبلال يؤذن للصلاة نحو قبلة يرضونها ، وهو ممتلئ النفس بالسعد والاشراق ، بعد ان بشره النبي الصادق الامين بالجنة والنعيم المقيم ، اذ قال له يوما :

{اني سمعت دف نعليك بين يدي في الجنة} وفي الناس طائفة من ذوي الجاه والمكانة والحسب والسبق في الاسلام !! وبلال هو الذي ..

وقبل ان اواصل الحديث ، رأيت الدموع تنثال من عيني الاخ ابراهيم جلق

، فامسكت احتراما لمشاعره وانا انكس رأسي الي الارض ، هزني الموقف بعنف ، فاخذت افكر في ملامح وملكات الاخ جلق كما اعرفه ، فهو من الضباط المتمسكين بدينهم المؤدين لفروضه وشعائره الواقفين عند حدود ما نهي الله عنه ، بل يتميز عنهم بملازمته للمساجد والاغراق في التأمل والعبادة وله شغف عظيم برفع الآذان ماوجد الي ذلك سبيلا !! ولعل هذا النزوع الروحي والعناية ببيوت الله وعمارها هو ماجعله يتعاون مع الاخ اللواء {م} عمر محمد الطيب في اقامة مسجد التقوي بمنطقة كوبر في وقت لاحق ، كان جلق بعيد الهمة في اكتساب الفضائل والخلال التي تجعله من المهتدين ..

{انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر واقام الصلاة وآتي الزكاة ولم يخش الا الله فعسى اولئك ان يكونوا من المهتدين} . صدق الله العظيم ..

كنت شديد الاهتمام بشخصية بلال بن رباح ، فمضيت اتسقط سيرته عبر الايام من كل مصدر ، حتي فوجئت يوما بحديث كقطرات الندى بلل روحي سمعته من البروفسير عبدالله الطيب وهو يحدث عن اصل بلال ومنبته ، قال :

- انه من اصل سوداني ، ومنبت دنقلاوي عريق ، هاجر اهلوه الي جزيرة العرب قبل الاسلام ، في واحدة من الهجرات المعاكسة بين اهل السودان والجزيرة العربية ، وهي هجرات اغفل التاريخ ذكر دوافعها ومواقيت حدوثها ، ولكنها علي وجه التأكيد سبقت الفتوحات الاسلامية لمصر والسودان بعدة قرون ! وعلل البروفسير وصف بلال بالحبشي بقوله :

- كانت العرب تطلق علي كل العناصر الحامية مثل اهل السودان والحبشة والصومال صفة الاحباش ، كما كانت تسمي بلاد السودان عموما ببلاد الحبشة .

وقال في حديثه عن بلال :

- ان استرقاق بلال لم يكن بسبب لون بشرته او رداءة اصله ، ولكنه ظاهرة اجتماعية واقتصادية سادت جزيرة العرب والعالم قاطبة ، فلم تخل منه امة ولا شعب من الشعوب ، ومن قبيل ذلك ان العرب كان يسترق بعضهم بعضا في الحروب القبلية التي تشجر بينهم بين حين وآخر ، فيأخذون - فيما يأخذون من الغنائم - نساء المهزومين سبايا واسراهم واطفالهم عبيدا يباعون في اسواق النخاسة ان لم يقدر اهلوهم علي الفدية المقررة التي يحددها المنتصرون .

او كما قال العلامة الكبير .

وهكذا يصبح انتماء الاخ ابراهيم وغيره من ابناء السودان لجدهم بلال رضي الله عنه شرفا باذخا يفاخرون به العالمين !!

* // *

وثمة حدث آخر جري خلال وجودنا في الاردن :

فقد دعينا يوما لاحتفال عرس فخيم كان العريس ضابطا بالجيش ، وهو شاب وسيم قسيم وافر القرة والبهاء ، اما عروسته فقد كانت احدي مليحات الاسر الاردنية ذات المكانة والجاه ، حدثنا العارفون ان الزواج كان خاتمة لقصة حب مشهودة ، واجه فيها العاشقان كثيرا من صنوف المكائد والصراع والالم ، حتي انتصر لهما الاهل ورفاق السلاح اخيرا ، وتوجرا ذلك العناء بالرضا والاذعان لارادة الفتي والفتاة ، فجاء حفل عرسهما عيدا للنصر وكرنفالا للفرح.

نحرت الذبائح واقيمت الزينات وصفت موائد (المنسف) والمنسف وجبات قومية محببة عند اهل الاردن . وهي خليط من الخبز والارز واللحم الثريد والمرق الممزوج باللبن ، يقدم عادة في طبق كبير من الصيني (صحن باشري) او الطلس ، يتحلق حوله الآكلون فينسفون محتوياته الشهية في شراهة ونهم ولذة ، وربما ينفرط عقدهم وفي الاناء بقية من طعام ، فالغالب علي هؤلاء الآكلين الا يتفرقوا الا والقصعة خاوية علي عروشها !! ولعل ذلك ما جعلهم يسمون الطعام بالمنسف او لعله اسم لفعل الآكلين ، لاادري .

كان الحفل بهيجا بحق ، ففي داخل السرادق الغارق في اضواء الزينات الملونة ، قدمت المشروبات والشاي بنوعيه الاخضر والاحمر وكلاهما (محوج) لكي يساعد علي سرعة الهضم واذابة دسم المنسف في البطون ، ثم تعطر جو المكان بالغناء والموسيقي العربية والرقصات الشعبية التقليدية ، وقد تمازج ذلك باصوات الطلقات النارية للاسلحة الخفيفة وهي تنطلق في الارجاء تباعا ، حتي ليحسب سامعها من بعيد انه في مواجهة معركة حربية حامية الوطيس !!

دفعني الفضول وحب الاستطلاع لاسأل عن طقوس الزواج في الاردن الشقيق ، وعلمت من افادات القوم ان دخول الزوج بزوجته يتم في ليلة ذلك الحفل بعد ان ينصرف المدعوون ، وهو شبيه بما يعرف عند اهل السودان (بليلة الدخلة) ولكن الفارق هنا ان كلمة الدخول في عرف اخوتنا الاردنيين تعني كمال الاتصال الجنسي بين العروسين في تلك الليلة ذاتها ، فالزوج مطالب بتقديم

البرهان والدليل القاطع بان زوجته التي دخل بها عذراء لم يدنس شرفها احد ! ويقوم هذا الدليل بازالة الزوج لغشاء البكارة وما يسفر عنه من نزيف دموي تتناثر قطراته علي ثياب الزوجة والفراش ذي الملاءة البيضاء !!

وبغير هذا الدم المسفوح ، يصبح الزوج عرضة للاتهام بالقصور والعجز الجنسي ، والزوجة بالتفريط والعبث بعفتها وشرف ذويها ! ومن ثم يتأهب الزوجان ويتهيبان اللقاء في تلك الليلة الليلاء .

ومن عجب ..

فان احداثا مأساوية فاجعة لا حصر لها ، نجمت عن تلك العادة البالية الذميمة ، فكثيرا ما تؤدي رهبة اللقاء وشحنة الانفعال النفسي والخوف من قالات السوء وسخرية الناس وتندرهم ، الي فشل الزوج في اختراق حاجز الشرف المزعوم !! فيصاب بالاحباط والشعور بالعجز والضغوط النفسية المدمرة !

وقد يحدث ايضا ان يكون غشاء البكارة في العضو التناسلي للزوجة غائرا فلا ينضح دما عند الجماع والاتصال الجنسي لاول مرة ، فتتهم الفتاة ظلما في عفافها وشرفها من جراء ذلك ، وقد يثور بعض ذويها من غلاة الآخذين بالمعني الحسي للشرف فيسفك دمها ليغسل به العار وهو يتمثل بقول الشاعر

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذي **** حتي يراق علي جـــوانبه الدم

دفع تكرار هذه الاحداث المأساوية بعض الامم والشعوب والقبائل التي تتمسك بهذا التقليد البدائي الي استحداث وسائل عديدة للتأكد من عفاف الزوجة وعذريتها ، كأن يوكل الي الزوج امر ازالة غشاء البكارة باستخدام احد اصابعه وهي ملفوفة بمنديل ابيض !! وقد يوكل الامر الي بعض النسوة بذات الوسيلة ولنفس الغرض احيانا ، وهناك وسائل اخري متعددة لا تقل وحشية وتخلفا ولا تمنع وقوع تلك الاحداث المأساوية المتكررة ، وهذا ماحدث لعريسنا الوسيم القسيم الممتليء فتوة وقوة ، ففي صبيحة ليلة عرسه الفخيم ، سمعنا نبأ انتحاره في ذات الليلة بسبب عجزه عن الوفاء بما اوكل اليه من امر ذميم ممعن في البداوة والتخلف ، ففضل الموت علي حياة يواجه فيها نظرات الاحتقار والزراية والاتهام بالقصور ! ودارت حول الحدث عشرات الاقاويل والتخرصات ومضي الناس يعملون اخيلتهم المريضة في الامر ونحن نألم لما يأفكون .

ثم انجلي غبار الحقيقة واسفر عن كل قناع بعد ذلك بعدة ايام ، فقد التقينا في مجلس احدي زياراتنا للعاصمة الاردنية بسيدة راقصة ومغنية من

ذوات الثراء السريع والولع بالفن والليل والزلم فلاكت السنة الحاضرين في حضورها قصة ذلك الضابط الاردني المنتحر ، وشرقت في الحديث عن مأساته وغربت ، ثم تصدرت تلك السيدة للامر ، فانكرت علي الناس ما ذهبوا اليه ، وشهدت للفتي المنتحر بكمال الرجولة والفحولة ، ولم تستشعر حرجا في القول بان حكمها وشهادتها يصدران عن تجربة ذاتية طويلة !! ومضت تحدث عن نفسها فقالت :

ـ شؤم انا علي الدنيا والوجود ، فقد ولدت وامي تلفظ انفاسها الاخيرة ، فامتزجت اولي صرخاتها بعويل اهلها والمفجوعين وبكائهم !! هكذا حدثني اقاربي وهم من احسن الناس ان كنتم لا تعلمون ، هم من ذوي المكانة والخلق والاصل الكريم ، اما نساؤهم فكن مضرب الامثال في العفاف والشرف والتزام التقاليد ..

قاطعها احدهم ضاحكا :

ـ هذا واضح تماما ، ثم ماذا ؟

واصلت ـ وهي تند ضحكة ساخرة كادت تصدر عنها كرد فعل علي ذلك التعليق ـ فقالت :

ـ ترعرعت وشقيقي الذي يكبرني بعدة اعوام في مدينة عمان فلما شببنا عن الطوق واصبحت في ميعة الصبا وريعانه ، فاجأني اهلي ذات يوم بان شيخا ثريا طلب الزواج مني ، ولما كنت علي فطيرة الرأي فقد تحمست للامر ووافقت علي الزواج بذلك الشيخ الذي لم اره من قبل الا لماما ، بل انكرت علي بعض اهلي اعتراضهم علي الزواج وهو اعتراض قائم علي عدم التكافؤ وفارق السن البعيد بيني وبين ذلك الشيخ الذي جاوز الستين من عمره ، وانا بعد دون سن العشرين بقليل !!

ولكن البعض الاخر من اهلي ناصر حماستي للزواج من ذلك الشيخ ، وهم يرون ان الحياة اخذ وعطاء ، فلئن عجز الزوج عن اشباع رغباتي الجنسية العارمة فان له من المال الوفير ما يعوض ذلك القصور ، ومن ثم يكون التعادل بين السعد والحرمان !! فانتصر هؤلاء علي المعترضين وتم الزواج .

ومن عجب فقد حدث ما تخوف البعض منه وتكشف لي ذلك بعد انتقالي الي بيروت في صحبة ذلك الشيخ الطاعن في السن .

اعترف لكم باني كنت باديء الامر مبهورة بحياة المدينة وصخبها واهوآئها ، اما زوجي فقد كان شديد الفخر بان له زوجة علي قدر عظيم من الصبا والجمال والسحر ، وظل يتصيد الفرص والمناسبات ليعرفني بذوي قرابته وصداقته في كل حين ، بعد ان كساني من فاخر الثياب والحلي والزينة ما يجسد حذقه في هذا الاختيار ، كان كمن يمتلك عربة فارهة حديثة الطراز ، او جوهرة ثمينة نادرة الوجود ، لا يجد سبيلا للمفاخرة بها الاسلكه بغير تردد ولا حرج ، وفيما عدا ذلك ، كانت حياتنا الزوجية صحراء قاحلة خالية من العاطفة وروح الانصهار ، فلم يكن لحياة هذا شأنها ان تثمر او تستمر ، فقد ذهب الحرمان والخواء بكل شيء بيننا حتي مجرد الاحترام ، فاصبحت فراغا عريضا وبيداء لا تنبت فيها الا الاشواك والآلام ، شجار وضجر وسباب وقشور زائفة لا غني فيها لفتاة يضج جسدها بالرغبة كالبركان ، حتي اذا نفذ صبري علي احتمال ذلك الحرمان ، ارغمت الشيخ علي طلاقي ، ثم تركته راغم الانف ذليلا سليب الارادة والقدرة ، وانطلقت في رحاب الحياة حرة افعل ما اريد !!

كنت منذ يفاعتي وباكورة صباي عاشقة للفن ، فلما فرغت له بتحللي من قيود الحياة في كنف الاسرة والزوج ، الفيتني اكرس له كل ما املك من وقت وحب وموهبة ، فكنت اتمرغ في ترابه واتذوقه بكل ذرة في كياني ، واشم رائحته في الهواء الذي اتنفسه ، واراه في صحوي ومنامي ، وآكل من ريعه ، فكما يعيش بعض الناس للاوطان والقيم والعقائد ، فقد عشت راهبة اتعبد في محراب الفن ليل نهار ، امارس طقوسه وادعو له وارفع لواءه واعتكف في منابته لا ابرحها ابدا كما ترون .

قلت لها ـ وانا اشعل سيجارتها ـ : هذا عنك فماذا عن فقيدنا المنتحر ؟!

رمقتني بنظرة آسية وقد جلل محياها الوضيء الحزن والالم ، ثم قالت من خلال سحائب الدخان المنبعث من فمها :

ـ كان الفقيد الراحل قليل التردد علينا في صالوننا الفني ، وعلي قلة زياراته وندرتها ، كانت له صولات وجولات مشهودة ، فهو خبير يعرف كيف يختار ! ومتي يصطاد ويحدد ساعة الحظ ويبذل في سبيلها المال الوفير ، وكانت الفتيات مغرمات به يتمنين لقاءه ويتنافسن عليه ، ويتحدثن بكثير من الاعجاب والصدق عن روعة ادائه وطول باعه في السباحة في بحار اللذة والغوص الى الاعماق بحثا عن لآليء لا ينالها كل الصيادين !!

كانت محدثتنا ترسل القول عفو الخاطر لا تحس حرجا في البوح بادق الاسرار عن نفسها والآخرين ، غير انها كانت شرهة لا تصبر عن التدخين دقائق معدودة وفي اكثر الاحيان تشعل سيجارة من اخري ، وكأنها اضحت لا تطيق النظر الي وجه الحياة والاحياء الا من خلال سحب الدخان مشفوعة بزفرات حري ترسلها بين حين وحين ، ورغم ... فهي لا تكف لحظة عن الهذر والمزاح والغمز بكلمة موحية او نظرة ذات ... عميق !! كانت تتميز بمقدرة فائقة ودراية عظيمة بكيفية امتصاص المشاعر السلبية القائمة في نفوس جلسائها ، وابتعاث دواعي البهجة والنشوة والطلاقة فيهم بما تبدعه من افانين القول والدعابة والتعليقات الساخرة المرحة .

فسألتها من جديد :

- ما خلاصة رأيك في انتحار عريس الحور اذن ؟

وبدا لي انها تجهل مأتي ذلك الاسم الغريب الذي اطلقته علي الراحل الفقيد ، فاردفت مبينا :

- انه - في عرف اهل السودان - الشخص الذي يتوفي قبل الدخول بزوجته او عروسته ، اعتقادا منهم بان الله يعوضه عن فقده حور الجنان !!

قالت بعد ان اطرقت برأسها لحظة :

- لا جدال انه حدث مأساوي غامض ، آثر حبيبنا الراحل ان يحمل سره معه الي الابد .

ثم تفكرت هنيهة وقالت :

- اتعلم ان احد معارفي انتحر ليلة عرسه ايضا ، لانه ظن جهلا بانه قد خذل فيمن احبها ، فزهق روحه بيده ليهب لها الحياة !! وقد اصبح مثل هذا الشطط والافراط المأساوي في الحب وتقديس الشرف امرا عاديا لا يثير الدهشة في الناس ، فالجنس غريزة في البشر قادتهم للمهالك منذ بدء الخليقة وطفولة الوجود .

... كادت السيدة تصل الي ذلك حتي علق احدهم بقوله :

- ...علم يا اخي ان في منطقة الروشة بلبنان صخرة نائية علي شاطئ البحر المتوسط ...عانقها امواجه الصخابة الهادرة في كل حين ، اشتهرت باسم صخرة العشاق ؛ اذ ينتحر عندها كل عاشق فاشل في حبه يؤثر مغادرة الحياة ؟!

اجبته : نعم .. سمعت خبرها .

سرحت بذهني بعيدا عن المكان ، ولم اعد اتابع حديث الآخرين وهم ينصرفون الي مواضيع اخري متباينة .

فقد ذكرني حديث الحب المأساوي ما قرأته من قبل في قصة عبد السلام بن رغبان ولقبه (ديك الجن الحمصي) نسبة الي مدينة حمص بارض الشام . ذلك الذي اختلف الرواة في تحديد مكانته الاجتماعية في المدينة ، فقيل انه كان حاكما عليها ، وقيل انه كان من كبار تجارها ونبلائها ، وزعم آخرون انه من ذوي الثراء العريض فيها وتربطه بحاكمها وشائج الدم وصلات القربي بقدر يسوغ له ارتكاب اي جرم فلا يعاقب وان كان جرمه هو القتل بلا مبرر او سبب !!

ومهما كانت اوجه الخلاف بين مؤرخي قصة ديك الجن الحمصي حول مكانته وصفته بين اهل المدينة ، فقد اتفقوا جميعا علي انه من شعرائها المعدودين المبرزين ، واتفقت آراؤهم حول قصة حبه المأساوية المثيرة .

يرون انه كانت لديك الجن جارية وغلام بلغا اعلي درجات الحسن والجمال ، وفاض الحب بقلب ديك الجن الذي ادركته نار الغيرة وحب التملك والاثرة فقتلهما معا ، واحرق جسديهما وخلط رمادهما بشيء من الصلصال وصنع من مزيج ذلك قدحين لشرب الخمر حتي اذا نصبت مائدة الشراب في مجلسه وضع احدهما عن يمينه والآخر عن يساره ، ثم يقبل القدح المتخذ من رماد الجارية وينشد :

يا طلعة طلع الحمـــام عليها
وجني لها ثمـــر الردي بيديها
رويت من دمـها الثري ولطالما
روي الهوي شفتي من شفتيها
حكمت سيفي في مجال خناقها
ومدامعي تجـــري علي خديها
فوحق نعليها وما وطئ الثري
شيء اعز علي من نعليـــــها
ما كان قتيلها لاني لم اكـــن
اخشي اذا سقط الذباب عليها

لكن ضننت علي العيون بحسنها
وانفت من نظر الحسود اليها

ثم يأخذ ديك الجن القدح المتخذ من رماد الفلام وينشد في حرقة :

اشفقت ان يرد الزمان بغدره
او ابتلي بعد الوصال بهجره
فقتلته وله علي كرامة
فله الحشا ، وله الفؤاد باسره
عهدي به ميتا كأحسن نائم
والحزن يسفح عبرتي في نحره
لوكان يدري الميت ماذا بعده
بالحي حل بكي له من قبره
غصص تكاد تفيض منها نفسه
وتكاد تخرج قلبه من صدره .

تلك صورة من الحب المأساوي جسدها ديك الجن تجسيدا يوشك ان يصنفها في عداد الاساطير لولا انها واقع يروي علي السنة الرواة والثقات ، وقد وردت قصته هذه بصور مختلفة في كتب الاقدمين ولكنها تدور في ذات الفلك وتحمل نفس القصائد الباكية المؤسية ، وجاء في بعض الروايات ان ديك الجن قد اوصي وهو علي فراش الموت ان يجعلوا ذينك القدحين من رماد الفلام والجارية شواهد علي قبره ، ففعلوا !!

وموقف آخر اثري تجربتي مع الحياة ونحن في رحاب الاردن الشقيق ، كان ذلك ابان عطلة مداها اسبوع واحد اعقبت فترتنا الدراسية الاولي ، عزمت علي الاخ ابراهيم جلق ان نمضيها في عاصمة بلاد الشام ودرة مدائنها دمشق ، واذ كانت العربة تنطلق بنا علي طريق جرش / الرمثا / درعا ثم دمشق ، ظل مسجل العربة يردد باقة من الالحان الآسرة ، ومن بينها اغنية الشام الشهيرة :

يا مال الشام والله يا مالي
طال المطال ياحلوة تعالي

حركت كلمات الاغنية في نفسي دفق عاطفة من مواجد الذكريات والحنين

لماض غابر بعيد ، وكلما كانت عجلات العربة الفارهة تدور وتطوي الارض والمسافات الفيت ذاكرتي ترجع سريعا الي اغوار التاريخ الاسلامي التليد ، يوم كانت دمشق حاضرة للدولة الاموية وقصبة الملك لخلفائها العريض ، والدنيا طوع بنانهم والدهر خادم والارض جنات ورياحين :

بنو امية للابناء ما فتحـــــوا
وللاحاديث ماســـادوا ومادانوا
كانوا ملوكا سـرير الشرق تحتهم
فهل سألت سرير الغرب ما كانوا
في الارض منهم سماوات والوية
ونيرات وانـــواء وعقبـــان
معادن العـز قد مال الرغام بهم
لو هان في تربه الابريز ما هانوا

ظللت استرجع هاتيكم الابيات في معرض الذكري والحنين لامجاد بني امية في تلك الارض التي تظلنا سماؤها ونحن من فرط الجلال صامترن ، فقد كانت المرائي من حولنا تستثير كوامن الاشجان في النفوس ، وتبعث فيها مشاهد من تاريخ الامويين الحافل بالاحداث المأساوية من بدئه الي منتهاه . فقد حفظ التاريخ لرأس دوحتهم الشماء (ابو سفيان بن حرب) ما كان له من مواقف في حرب الاسلام ومصاولة المسلمين انتهت باسلامه وتكريم النبي صلي الله عليه وسلم له يوم الفتح الاعظم لمكة المكرمة ، اذ قال :

(من دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار ابي سفيان فهو آمن) .

ومن عجب ، فقد كانت دار ابوسفيان هي دار زوجه هند بنت عتبة وام ابنه معاوية بن ابي سفيان مؤسس الدولة الاموية من بعد ، وقد جسد الرسول الكريم بذلك تسامح الاسلام ايما تجسيد ، فهند بنت عتبة هذه هي التي حرضت يوم احد . وحشي الحبشي علي قتل اسد الاسلام وعم النبي (صلعم) حمزة بن عبد المطلب !! فما انجز وحشي ما طلبت منه غدرا علي ارض المعركة حتي وقفت علي جثة حمزة وهو مضرج بالدماء ، فبقرت بطنه وانتزعت كبده من بين احشائه واكلتها جريا علي عادة الجاهلية شفاءا لغلها وريا لغليلها بعد مقتل ذويها في بدر الكبري علي يدي بطل الاسلام ناصر الحق حمزة بن عبد المطلب .

كان من عادة اهل الجاهلية وتقاليدهم الرعناء انه اذا توفي احدهم او قتل

ان يجمع زعيم القبيلة بطونها وافخاذها وينادي فيهم :

ـ من له ضغن او موجدة علي القتيل فليتقدم نحو جثمانه ويأكل من جسده ما يشفي غليله ويذهب موجدته .

فيفعل من يفعل ، ثم يقضي العرف عندهم الا يذكر الناس لذلك الميت الا محاسنه وخلال الخير فيه ، ومنهم من يكره ـ علي ما يجد ـ ان يأكل لحم اخيه ميتا ، وقد عرض القرآن الكريم لهذا الصنيع في قوله تعالي :

(يا ايها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسي ان يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسي ان يكن خيرا منهن ولا تلمزوا انفسكم ولا تنابزوا بالالقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فاولئك هم الظالمون ، يا ايها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ايحب احدكم ان يأكل لحم اخية ميتا فكرهتموه واتقوا الله ان الله تواب رحيم) صدق الله العظيم .

ولم تكره هند ان تأكل كبد حمزة ميتا ، ومع ذلك فقد عفا عنها النبي الكريم ادراكا منه ان فعلتها الآثمة كانت ارث جاهلية اعمي بصيرتها عن الحق ، وقد جاء الاسلام ليقطع دابره في العالمين .

ظن بعض الناس ـ وليس كل الظن اثم ـ ان جذور جاهلية بني امية وعداءهم لبني هاشم آل الرسول (صلعم) كانت اعمق من ان تقتلعها سماحة الاسلام ، فهاهم في ظله يتهمون ابن عم النبي عليه الصلاة والسلام وزوج ابنته علي بن ابي طالب كرم الله وجهه زورا وبهتانا بقتل خليفة المسلمين عثمان بن عفان الذي ينتمي للامويين نسبا ورحما ، ثم يرفعون قميصه الذي استشهد فيه مطالبين بدمه والثأر من قتلته وتولية معاوية بن ابي سفيان خلافة المسلمين . وفي سبيل ذلك يؤلبون بعض صحابة النبي وآل بيته وبينهم ام المؤمنين عائشة رضي الله عنها ضد الكرار علي بن ابي طالب ومن والاه من المؤمنين .

شجر الخلاف بين اهل الاسلام وتفرقت بهم السبل ، وبدأ الامر للحادبين علي بيضة الدين الحنيف ملحمة اخري في مسلسل الصراع بين بني هاشم وبني عبد شمس ، واتسع الخرق علي الراتق ، فدارت المعارك سجالا بين الطرفين ، حتي اذا كانت موقعة (صفين) وكادت تنتصر جيوش علي وانصاره علي اتباع معاوية في الحرب ، لم يجد معاوية بدا من اللجوء الي الخداع والحيلة وله فيها

القدح المعلي ، فامر جنوده برفع المصاحف طلبا للسلم وتحكيم القرآن في الامر ، وكان له ما اراد ، ثم تنتهي المعركة علي نحو ماهو معروف في التاريخ ، فاحتال داهية العرب عمرو بن العاص ممثل معاوية في التحكيم علي ابي موسي الاشعري ممثل علي رضي الله عنهم اجمعين ، اذ اقترح عليه ان يخلع كلاهما صاحبه علي رؤوس الاشهاد ، ويجعلا امر الخلافة شوري بين المسلمين ، فبادر ابو موسي بخلع صاحبه علي ، ونكص عمرو علي عقبيه فاثبت حق صاحبه في الخلافة ومن جراء ذلك انشق انصار علي وخرجت عليه طائفة منهم ، فضعفت قوته وآذنت شمسه بالمغيب !! وعلي نقيض ذلك كان الامر مع معاوية الذي قال:

- اعنت على علي بن ابي طالب باربع خصال : كان رجلا واضحا صريحا وكنت كتوما لسري ، وكان يبقي حتي يفاجأه الامر وكنت ابادر لذلك ، وكان في اخبث جند واشدهم خلافا ، وكنت اقدر منه علي نفعهم ، وفي ذلك يقول بعض جنده علانية :

- سيوفنا مع علي وقلوبنا مع معاوية !!

ومهما يكن من امر ، فقد دان المسلمون من بعد بالولاء طوعا او كرها لدولة بني امية ومؤسسها معاوية بن ابي سفيان بعد مقتل الامام علي بيد الآثم عبد الرحمن بن ملجم ، وتحولت خلافة المسلمين الي ملك عضوض . غير ان المأساة لم يكتب لها النهاية بذلك الفصل الدرامي الاليم ، فامتدت احداثها لتنتظم الابناء وتلقي بهم في مهمة الصراع المقيت علي السلطان والملك ، وقام الحسين بن علي بن أبي طالب في حشد من شيعته ضد وريث العرش الاموي يزيد بن معاوية بن ابي سفيان ، كما جري بيانه في احد فصول الجزء الاول من هذا الكتاب ، لينتهي الامر بمقتله في معركة كربلاء ويخلص الملك لبني امية ردحا من الزمان طويل . ولعل في الرجوع الى الجزء الاول من هذا الكتاب (مواقف علي درب الزمان) تكملة لصورة هذه الملحمة التاريخية والاحداث المأساوية ..

هذا وقد عرف معاوية بالحلم والمكر والدهاء ، فهو القائل : لا اضع سيفي حيث يكفيني سوطي ولا اضع سوطي حيث يكفيني لساني ، ولو ان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت . فاصبحت (شعرة معاوية) هذه مثلا يضرب للحكمة ورحابة الصدر وسعة الحيلة .

كانت لمعاوية الى جانب ذلك مآثر وسجايا قليلا ما توجد في الرجال بذلك الكم الهائل والكيف المعلومين ، فهو احد كتاب الوحي على قلتهم في عصر الرسالة بين العرب ، وصفه معاصروه بانه كان ينطق عن علم ويسكت عن حلم ، اذا اعطى اغنى واذا حارب افنى !! بعيد المطامح متوقد الذكاء نافذ الرأي والبصيرة .

ومن امجاد دولته الفذة ، انشاء اول اسطول بحري عربي اسلامي ، قاده جنادة بن ابي الازدي وفتح به جزيرتي قبرص وردوس اليونانيتين . وفي عهد الدولة الاموية ايضا تمت الفتوحات العظيمة غربا الى الاندلس وشرقا الى بلاد الصين ، وظهرت نخبة من امهر القادة في تاريخ الاسلام منهم الحجاج بن يوسف الثقفي وزياد ابن ابيه وموسى بن نصير وطارق بن زياد وقتيبة ابن مسلم الباهي وغيرهم كثير .

اما مؤسس الدولة الاموية معاوية بن ابي سفيان فقد كان رجل دولة وسياسيا من الطراز الاول ، كتب الى احد ولاته يقول :

(لا ينبغي ان نسوس الناس بسياسة واحدة فيكون مقامنا مقام رجل واحد ، ولكن تكون انت للشدة والغلظة ، وأكون انا للرأفة والرحمة ، فيستريح الناس بيننا) .

ابتغى معاوية فيما آتاه الله الدار الآخرة ولم ينس نصيبه من الدنيا ، فقد شاد له قصرا منيفا في قصبة ملكه (دمشق) اطلق عليه اسم (قصر الخضراء) اقام لافتتاحه حفلا عظيما فخيما دعا له الصحابة والولاة وذوي الشأن والعلم والجاه ، من بينهم ابو ذر الغفاري الذي سأله معاوية قائلا :

- كيف ترى قصري يا ابا ذر ؟

فاجابه الصحابي الجليل : ان كنت بنيته من مال الله فانك من الخائنين ، وان كنت بنيته من مالك ، فانت من المسرفين .

فاطرق معاوية وقال : صدقت يا غفاري . ثم بكى فابكى من كان معه .

ومما يروى عن قصر الخضراء من الطرائف، قصة اعرابية تزوجها معاوية وجاء بها من شظف الحياة في البادية واسكنها قصره المنيف ، فلم تكن اسعد حالا بعيشها فيه ، لان السعادة امر نسبي عناصره الزمان والمكان والمجتمع وما يختلج فيه من ضروب العمل والتقاليد والعلاقات بين افراده ، فتتولد من جماع

ذلك حالة شعورية تسود الجماعة والفرد ، وينعكس في اعماقهم احساسا بالاستقرار والرضا وحب الحياة ، او قلقا نفسيا ونزعة طاردة لدواعي البقاء في تلك البيئة وذلك المجتمع .

في قصر الخضراء ومافيه من الوان الحياة الرغدة الناعمة ، افتقدت الاعرابية التي بزوج بها خليفة المسلمين معاوية - كل عوامل السعادة والاستقرار النفسي ، وغلب عليها شعور غامر بالكآبة والحزن ، فذبل عودها وزالت نضارتها ولازمها الشقاء ، فعبرت عن مواجدها وتعاستها بالحياة في افياء ذلك القصر بقصيدة طويلة آسية من ابياتها :

لبيت تخفق الارياح فيه
احب الي من قصر منيف
وكلب ينبح الطراق دوني
احب الي من قط اليف
ولبس عباءة وتقر عيني
احب الي من لبس الشفوف
واكل كسيرة في عقر داري
احب الي من اكل الرغيف
... الي آخر القصيدة .

فلما بلغت مقالتها هذه خليفة المسلمين معاوية رق لحالها وادركته الرأفة بها فطلقها واعادها الي اهلها ومراتع صباها ونفسه بها عالقة شغوف !!!

دارت بخاطري هذه المشاهد التاريخية وغيرها ونحن علي ظهر العربة الفارهة نقطع المسافات وتطوي الارض حثيثا حتي اشرفنا علي مدينة دمشق ، فتذكرت عندئذ شيئا هاما حدثت به صديقي ابراهيم جلق الذي كان يجلس الي جواري في صمت ويتأمل المرائي المتعاقبات علي جانبي الطريق ، قلت له :

- هل تعلم ان اهل دمشق كانوا ولا يزالون يعتقدون ان مدينتهم هي اقدم مدن الارض قاطبة ؟!

فنظر الي ولم يحر جوابا ، فاردفت ذلك بسؤال آخر :

- وهل تعلم ان اسم مدينة دمشق قديما هو جلق ؟

اي انك تحمل اسمها ؟

وجاء رده بالايجاب والتأكيد ، فضحكنا طويلا نعجب لمنشأ اسمه في التاريخ وارتباطه بالمدينة التي بلغنا غايتنا فيها في تلك اللحظة !!

جعلنا مقر اقامتنا في دمشق فندقا يطل علي ميدان الشهداء فيها ، والشهداء المعنيون هم شهداء القومية العربية كما علمنا من القوم ، وجدير بالذكر في هذا المقام ان هناك خطأ شائعا بين الناس وخاصة اهل مصر والسودان ، اذ هم يعتقدون ان اول من جهر بالدعوة للقومية العربية في التاريخ هو الرئيس المصري جمال عبد الناصر ، وانه اول من عمل علي نشرها وتحقيقها بلا منازع !! ولكن الحقيقة غير ذلك ، فالقومية العربية فكرة نبعت من ارض الشام منذ اكثر من مائة عام ، وكان مهدها سوريا ولبنان علي وجه الخصوص ، حيث جاءت كرد فعل للاحتلال التركي لهذه البلاد وغيرها من اقطار الوطن العربي منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي ، يوم قام الحكم التركي فيها تحت مظلة الخلافة الاسلامية التي آلت في عصورها المتأخرة للاتراك واتخذوا مدينة الاستانة حاضرة للخلافة ومقرا للسلطان ، ومعلوم ان هؤلاء نهضوا باسم الاسلام في آسيا الصغري ثم فرضوا سلطانهم علي بلاد الشرق العربي واتخذ حكامهم لقب خليفة المسلمين .

لم يمض وقت طويل علي حكم الاتراك للشعوب العربية حتي تكشفت لهم مساوئه ومفاسده ، وبدا واضحا ان العنصر العربي - من غير المسلمين - كان اشد ضيقا وتبرما بذلك الحكم . فقاد المسيحيون منهم حركة المعارضة للخلاص من نيره وطغيانه ، ولم يجدوا خيرا من شعار القومية العربية لجمع شمل العرب وتوحيدهم واستثارة مشاعرهم ضد الحكم التركي والدعوة لقيام الدولة العربية الموحدة الكبري التي يحكمها ابناؤها حكما علمانيا يوفر لغير المسلمين حقوق المواطنة والمشاركة في البناء والحكم ، بعد زوال السيادة التركية ، وحكمها الاسلامي .

لتحقيق ذلك انبري بعض شباب الشام ، وخاصة المثقفين منهم لمناهضة حكم الاتراك ، فاسسوا جمعيات سرية باسم (جمعيات القوميين العرب) نشطت في العمل لنشر افكارها ومبادئها سرا في ظل الهيمنة التركية علي البلاد ، حتي اذا اشتد عودها وقويت شوكتها نسبيا قامت ببعض الاعمال الفدائية المحدودة ضد الحكام الاتراك في ارض الشام ، ثم اخذت تروج لدعوتها وتؤسس

فروعا لها في مختلف الاقطار العربية الرازحة تحت عسف الاتراك وطغيانهم ، وخاصة في مصر . فاتخذ هذا النشاط شكلا فاعلا عظيم التأثير في مواجهة مفاسد الحكم التركي .

وفي الجانب الآخر ، لمس الاتراك خطر هذه الدعوة ونماءها وانتشارها فلم يقفوا مكتوفي الايدي ، وعملوا علي سحق القوميين العرب والتنكيل بهم اينما ظفروا بهم في سوريا او لبنان . حتي اذا ضيقوا عليهم الخناق فر بعضهم مهاجرا لمصر وغيرها من الاقطار العربية ليواصل جهاده من هناك .

من رعيل المهاجرين الاوائل في تلك الحقبة من تاريخ القومية العربية ، الصحفي الاديب المؤرخ اللبناني (جورجي زيدان) الذي استقر بمصر هربا من قهر الاتراك ونكالهم بدعاة القومية العربية في ارض بلاده ، فاسس دارا للنشر هي (دار الهلال) التي تصدر عنها صحف ومجلات دورية ، وقام بتأليف سلسلة روايات في تاريخ العروبة والاسلام . ومنهم ايضا الاخوان (تقلا) اللذان اسسا جريدة الاهرام ، وغيرهم ممن حملوا لواء الدعوة للقومية العربية الي مصر ، وكانوا - في نفس الوقت - ركائز نهضتها الادبية والاعلامية في اواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين .

اتصل نشاط هؤلاء الرواد المهاجرين بغيرهم من دعاة القومية العربية في ارض الشام ، مثل : ابراهيم اليازجي صاحب القصيدة القومية الشهيرة التي مطلعها :

تنبهوا واســــتفيقوا ايها العرب
لقد طما الخطب حتي غاصت الركب

ومنهم الاخوين بطرس وسليمان البستاني ، وبطرس اول من وضع معجما ودائرة معارف عربية في التاريخ الحديث ، وسليمان اخوه اول من نقل الادب الاوروبي الي اللغة العربية ، كما ترجم الي العربية بتصرف الملحمة اليونانية المعروفة (الالياذة) ، وهناك آخرون من اعلام الفكر والادب والترجمة من رواد القومية العربية اثروا الفكر العربي بمؤلفاتهم وما نقلوا عن التراث الانساني قديما وحديثا ، ولا يتسع المجال لحصر هؤلاء الرواد وبسط سيرتهم واعمالهم الخالدة وجهادهم في سبيل القومية العربية .

مما يثير الدهشة حقا ، ان بعض الكتاب في مصر ، صنفوا نفرا من ائمة

الاسلام وزعماء النهضة الفكرية في العالمين العربي والاسلامي مثل الامام محمد عبده ، والثائر جمال الدين الافغاني ، في عداد من حملوا لواء القومية العربية وجندوا لها فكرهم وجهدهم ، وهذا لعمري خطل ومحض افتراء ، اذ ان دعوة القومية العربية اساسها شعوبية العرق وعلمانية الفكر ، وغير خاف علي احد موقف الاسلام من دعاوي الشعوبية والعلمانية ، والامامان محمد عبده وجمال الدين الافغاني رائدان من رواد البعث الاسلامي ، يختلفان فكرا وعقيدة مع دعوة القومية العربية ، اضف الي ذلك ، انهما - برغم مناوأة مسلك الحكام الاتراك وجبروتهم وفساد دولتهم وانحلالها - كانا من المنادين بوحدة الامة الاسلامية ، والانضواء تحت امرة خليفة المسلمين حتي لو كان سلطان تركيا القائم آنذاك !! وهذا ما خفف من غلواء السلطان وولاته في ديار الاسلام والبلاد العربية في مواجهة الرجلين والدعوة التي يبشران بها ، فلم يجد الحكام الاتراك في فكر الرائدين الكبيرين وجهادهما والتفاف الناس حولهما ، ما يدعو لممارسة العنف والتصفيات الجسدية كما يفعلون مع من كانت مناهضتهم لهم تقل كثيرا عما يصدر من الامام محمد عبده والثائر جمال الدين الافغاني ، الذي اكتفوا بنفيه عدة مرات ليس غير .

اطلق الاوربيون علي الدولة التركية اسم (رجل اوربا المريض) لما انحدرت اليه من فساد وضعف وانحلال ، وكانت الشعوب العربية تعاني مر العناء من ذلك التفسخ البعيد ، فاشعل الغضب نار الثورة في صدور ابنائها ، ووجدت الدعوة للقومية العربية في هذه الظروف تربة خصيبة لتنمو وتزدهر ، فتبلور نشاط دعاتها سافرا خلال سني الحرب العالمية الاولي (١٩١٤-١٩١٨) ، وهذا ما جعلهم يقعون صيدا سهلا في يد الحاكم التركي جمال باشا في سوريا ولبنان ، فاصدر امره باعدام اعداد كبيرة منهم في ساحة البرج بمدينة بيروت علي مشهد من اهلها والوافدين اليها صباح الحادي والعشرين من اغسطس ١٩١٥!! وهذا ما حدا باهل بيروت ليطلقوا عليها اسم (ساحة الشهداء) ، كما اعدم جمال باشا طائفة اخري من القوميين العرب في ميدان المروبة او ساحة الشهداء بمدينة دمشق !! ثم ظل يطارد بقاياهم وخلاياهم في كل مكان ، حتي بلغ به الحال ان اصبح يأخذ الناس لمجرد الشبهة والاتهام بالانتماء لجمعيات القوميين العرب ، فيرسل افواجهم في غير رحمة ولا عدل الي [illegible]

كان العالم خلال الحرب العالمية الاولى في غفلة عما يجري في سوريا ولبنان من وحشية وعسف وجبروت ، وظل جمال باشا يرهب الآهلين كافة والقوميين العرب على وجه الخصوص ، حتي كان اليوم المأساوي المشهود في السادس من شهر مايو ١٩١٦م ، ففي ذلك اليوم المشئوم ازهق السفاح التركي ارواح المئات من اهل الشام ، ودفع بمن تأكد له انتماءه للقوميين العرب الي ساحات الشهداء . في حمامات الدم الجماعية ، فلاقي اولئك الشهداء الابرار ربهم قانعين بما بذلوا وضحوا من اجل قوميتهم العربية وشعوبهم الرازحة تحت قهر الاتراك وطغيانهم ، وبقيت مبادئهم من بعدهم نبراسا يهتدي بها العرب في طريق الحرية والوحدة حيث تحررت من بعد الشعوب العربية من سيطرة الاتراك بعد الحرب العالمية الاولي ، وجري توزيع ارض العرب كغنائم حرب بين الحلفاء المنتصرين ، فقام الاستعمار الفرنسي في سوريا ولبنان ، وتكرس الوجود الانجليزي في مصر والسودان وفلسطين ، وحظيت ايطاليا باعتراف الآخرين بنفوذها علي ليبيا ، وفي ظل السيادة الاوربية ، خفت صوت القوميين العرب ، واستحدثت شعوبهم اطرا جديدة للكفاح وتحقيق الآمال الوطنية وظل ذلك حالها حتي نهاية النصف الاول من القرن العشرين .

ثم جاء جمال عبد الناصر بثورته في ٢٣ يوليو ١٩٥٢م ، فجدد الدعوة الي القومية العربية ، وقطع بها في طريق النجاح شوطا غير بعيد ، وذلك لاسباب موضوعية في الواقع العربي المعاصر ، وكيفما يكن حجم النجاح الذي اصابه جمال عبد الناصر في توجهه القومي ، فقد راق لخصومه ومناوئيه ان يزعموا ان والده اختار له اسم جمال تيمنا بالحاكم التركي السفاح جمال باشا !!

جدير بالذكر ان بعض رواد القومية العربية كانوا ينادون في دعوتهم للعلمانية باحلال مشاعر الود والمحبة بين العرب مكان التناحر والشتات السياسي والديني فيهم ،

وفي هذا يقول نفس معارضي الرئيس جمال عبد الناصر من رعيل عصره دعاة القومية العربية انه قد هدم ركيزة الحب العربي المتجرد ، بما بذره من فتن ومكائد وعداوات سياسية بين الملوك والرؤساء العرب وشعوبهم المختلفة !! وهذا الصنيع يجعله مخربا لا مجددا لدعوة القومية العربية او كما قالوا !

استقر بنا المقام في مدينة جلق او دمشق عند الساعة الواحدة ظهرا علي

وجه التقريب ، ولما كان صديقي ورفيق دربي ابراهيم جلق مولعا بالمساجد وضوعها الروحي - كما ذكرت آنفا - فان اول ما فكر فيه هو زيارة المسجد الاموي الشهير ، وكان له المام وعلم بتاريخه مما قرأ وسمع عبر الايام ، فحدثني من غزير علمه بتاريخ المسجد قائلا :

- لقد بناه الخليفة الاموي الوليد بن عبد الملك سنة ٩٦هـ ، وكان في موضعه معهد روماني تحول الي كنيسة مايزال اثرها قائما في قلب المسجد ، اذ كان الوليد قد امر بعدم هدمها وبناء المسجد حولها اجلالا لدين المسيح واحتراما لمشاعر النصاري من رعاياه وقال صديقي عن المسجد ايضا :

- انه يحوي قبر نبي الله يحي بن زكريا الذي ناداه ربه آمرا (يايحي خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا) صدق الله العظيم . وفي المسجد بضع خصلات من شعر النبي (صلعم) وبه مقام سيدنا الخضر عليه السلام ، وقال ان به رأس سيدنا الحسين بن علي كرم الله وجهه ، وبه ايضا ..

فقاطعته غير مصدق :

- لا اعتقد ان المسجد يضم كل هذه النعم ، فلربما كانت هذه مزاعم ساقها بعض بني امية او اهل دمشق ليجعلوا مسجدهم محجة لاهل كل ملة ودين . شأن بعض اهلنا الطيبين في السودان ، وفيهم ظرفاء متحذلقون يزعمون احيانا ان قطبا دينيا مشهودا له بالولاية والصلاح قد (تبين) ظهر للعيان بعد موته في بقعة بعينها ، فينصبون حولها الرايات والبيارق لتصبح مزارا لمريدي ذلك الرجل الصالح ، ويشهد من زعموا تبينه في المكان منافع لهم لا ينقطع موردها ابدا ، وقد يقوم احدهم بامر المزار مرتديا مسوح الدراويش المجاذيب .

نظر الي جلق مليا كمن يسلم بما قلت ، ولكنه عاد ونفض رأسه في حركة لا ارادية وقال:

- لا لا ، هذه النعم التي تنكرها قد اثبتت وجودها في ذلك المسجد كتب التاريخ وافادات الرواة الثقاة ..

قلت له : انت تقول ان رأس سيد شباب اهل الجنة موجود بالمسجد ، فيما يؤكد اخوتنا في مصر ان الرأس مدفون بمسجد صاحبها الحسين بن علي رضي الله عنهما بالقاهرة ، فاي المخبرين صحيح ؟ خبر اهل الشام ام خبر اهل مصر ؟!

- لا اعلم .

قالها صديقي جلق متبرما ضيق الصدر بالحوار ، ثم اردف ليحسم الامر:
- لا تسألوا عن اشياء ان تبد لكم تسؤكم ، قم بنا لزيارة المسجد والصلاة فيه ، ودع اللجاج - هيا بنا قالها..

في غير أكتراث ، خرجت في اثره علي طريق المسجد ، مرورا بسوق الحميدية وهو اشبه بسوق الموسكي في مصر ، ولكنه مسقوف ظليل ، فاستوقفنا فيه محل لبيع الفطائر الشامية المتنوعة والايس كريم ، واستسلم جلق لاصراري علي تناول شيء من الفطائر ذات الالوان والروائح الجذابة والايس كريم المثلج قبل ان نواصل سعينا المبرور الي المسجد ، الذي بلغناه بعد لاي وعسر شديد ، فقد سلكنا اليه طريقا ضيقا متعرجا مزدحما بالمارة والباعة ، ثم طالعنا - المسجد ببنائه الشامخ المهيب ، ومن عجب فقد الفيناه مكتظا بالسواح الاجانب من الجنسين بازيائهم وسحناتهم المتباينة ، وكأنه دار للآثار او متحف للتاريخ !!

دلفنا بين الجموع نحو باحة المسجد الرحيبة ، وحول قبر نبي الله يحي علية السلام او يوحنا المعمدان كما يسميه اتباع المسيح التف حشد من الحواريين والحور الاوربيين وهم ينصتون في شغف الي شرح المرشد السياحي ، وقفت اتأملهم باعجاب وتذكرت ابيات شاعرنا الفذ التجاني يوسف بشير :

آمنت بالحسن بردا وبالصبابة نارا
وبالكنيسة عقدا منضدا بالعذاري
وبالمسيح ويمن حوله استجارا
ايمان من يعبد الحسن في عيون النصاري

ويأبي صديقي جلق الا ان يفسد علي هذا الصفاء الروحي ، اذ جذبني من يدي عنوة الي موقع آخر ، فتبعته مأخوذا بجلال المكان والمشاهد الرائعة ، وبينما انا كذلك قفزت من واعيتي فجأة قصة حب شائعة الذكر عرفتها جدران هذا المسجد وسجلتها كتب التاريخ وتناقلها الرواة ، وهي قصة الشاعر ابي محمد عبد الله التميمي ، وشهرته (الدرامي) .

قيل انه احب جارية مغنية يملكها احد تجار دمشق ، فقال فيها شعرا سارت به الركبان في كل اتجاه ، فلما برح به الشوق وشقة الوجد والهوي ، بذل لسيدها التاجر كل ما يملك من المال ، ولكن هذا ابى ان يبيعها الا بمثل وزنها

ذهبا وفضة ، ولعل الجشع او الاعجاب بالجارية مادفعه لذلك الطلب المعجز ، فلما اقعد اليأس الدرامي العاشق عن نيل بغيته ، وضاقت ذات يده عن ارواء ظمأه من ينابيع حسنها الدفاقة ، تسامي بعشقه روحيا ومزج حبه لها بالزهد والتصوف ، فصام وصلي واعتكف بالمسجد الاموي زاهدا متنسكا حتي ذبل عوده ، فسمعت الجارية بخبره وادركتها به الرأفة والحب ، فاعدت له طعاما وقامت الي المسجد سرا تزوره وتخفف عنه لواعجه ، فلما ذهبت عنه انشد يقول:

قل للمليحة في الخمار الاسود
ماذا فعلت بزاهـــد متعبد
قد كان شمر للصـــلاة ثيابه
حتي خطرت له بباب المسجد
ردي عليه صـــلاته وصيامه
لا تقتليه بحق دين محـــمد

* // *

فشاع في المدينة ان الدرامي رجع عن زهده ، وكاد الحب يررده موارد الهلاك ، وسمع الوالي ابيات شعره وخبره في الناس ، فاشتري الجارية من صاحبها وارسلها هدية منه للشاعر العاشق اجلالا وتعظيما لدين الحب وسلطان الهوي !! هذا وتروي القصة ايضا علي غير هذا الوجه والسياق . فقيل ان تاجرا اوحي بمضمون الابيات للشاعر الدرامي ليروج لتجارته من الخمر الاسود . ولكن هذه الافادة ضعيفة رغم شهرتها .

وجدتني اسيرا لذلك النزوع الديني الغلاب الذي يمتلك صديقي جلق فلم يكتف بما شهدناه في مسجد بني امية من فخامة البناء وكثرة (النمم) وعظمة التاريخ ، بل طوفنا في ارجاء المدينة نجتلي مزيدا من الضوع الروحي لدي مزارات الصحابة الاجلاء وأئمة العلم والتقي والصلاح وصناع التاريخ ، رغم ان البعض منها مشكوك في امره لا يقوم علي سند من التاريخ والمنطق ، فمن ذلك مثلا ضريح للسيدة زينب بنت الامام علي ابن ابي طالب كرم الله وجهه ، اذ يوجد لها ضريح آخر مشهور في مدينة القاهرة في الحي الذي عرف باسمها ، وبين الضريحين تتوه حقيقة التاريخ وعقل الانسان !!

ثم جريا علي سنة الوجود وطبيعة النفس البشرية الموزعة بين نوازع

الدين والنزعات الدنيوية ، لبثنا اياما في دمشق نغترف من ينابيع الفيوض الروحية ولا ننسي نصيبنا من الدنيا ، حتي عدنا ادراجنا من بعد الي الاردن .

انقضت فترتنا الدراسية بمدرسة الدروع الاردنية بمناورة عسكرية شارك في انجاحها لواء اردني مدرع وبعض من كتائب المشاة وقبل مغادرتنا للديار الاردنية المضيافة طلبنا من المسئولين بالمدرسة ان يتيحوا لنا الفرصة لزيارة عاهل البلاد واخذ صور تذكارية معه ، ولكنهم اعتذروا لنا بمشاغله الجمة في ذلك الظرف ، وافاضوا علينا مزيدا من الحفاوة وحرارة الوداع تعويضا عن ذلك الطلب ، ثم غادرناهم جوا الي بيروت لنواصل منها رحلة العودة الي ارض الوطن

واذ كنا في بيروت ، وباصرار بعيد المدي مني ، رأينا ان نتلكأ في رحابها اسبوعا بهدف التسوق وزيارة الاماكن السياحية ، فاستأجرنا شقة متوسطة الحجم في منطقة الروشة المطلة علي شاطئ المتوسط . ووضع لنا الاخ جلال عتباني - وكان وقتها سكرتيرا اول بالسفارة السودانية - برنامجا سياحيا شاملا لكل المواقع الهامة في المدينة ، تلك التي خلد بعضها امير الشعراء احمد شوقي بشعره ذائع الصيت .

وقفت من بين هذه الاماكن عند (بعلبك) وكنت من قبل لا اعلم عنها شيئا سوي انها اسم ممنوع من الصرف !! فلما بلغتها وتأملت افياءها وآيات جمالها مضيت اسأل عن تاريخها القديم والحديث ، فاذا هي مدينة معرقة في القدم ، بنيت في عهد الفينيقيين ، وكانت آنذاك تسمي (مدينة الشمس) (هليوبوليس) والفينيقيون - كما قال دليلنا السياحي - هم اول من وضع حروف الكتابة في التاريخ ولهم حضارة تضاهي حضارة مصر الفرعونية وبلاد الاغريق ، وهم اول من انشأ الاساطيل البحرية ، وهم .. وهم .. وهم .

ولكن ، ولما كان دوام الحال من المحال ، فقد قضت علي دولتهم وحضارتهم جحافل الرومان الغازية من روما ، وما كان ذلك ليحدث لولا انهم كانوا قد ركنوا الي الدعة والحياة المترفة وهجروا جهودهم الحربية وعزفوا عن التدريب والقتال في عالم تحكمه القوة ، فماتت روحهم العسكرية وكانوا من قبل اشداء علي الاعداء رحماء بينهم ، غيروا ما بانفسهم فغير الله مابهم من مجد وقوة وسلطان واضحوا بعد ذلك اذلاء تابعين للرومان الغزاة المنتصرين .

ويأبي الرومان - كالعهد بهم دائما - الا ان يخلفوا آثارهم وبصمات حضارتهم في البلاد ، فاقاموا بها معبدا شامخا للاله (جوبيتر) عام ٢١٧ قبل ميلاد المسيح ، ولكن علي مر العصور والحقب وتعاقب الدول والحكام ، تهدم ذلك المعبد الكبير ولم يبق من بنائه السامق الا اعمدة ستة ظلت تتحدي صروف الدهر وعوامل الفناء ، وبجانبها معبد باخوس اله الخمر ، بقي يصارع البلي حتي اليوم .

ضم المعبدان نماذج لكل الآثار الرومانية القديمة ، فهناك تمثال ڤينوس الهة الجمال ، وكيوبيد اله الحب ، ومنيرڤا الهة الحكمة وكليوباترا وقد لسعتها الحية ، وغير ذلك من الآثار والتماثيل التي تحكي عن عصور الفينيقيين والرومان وغيرهم ممن تعاقبوا علي حكم بلاد الشام ومدنه عامة وبعلبك علي وجه الخصوص .

جلسنا نتناول وجبة طعام شهي في احد مطاعم بعلبك ، فحدثنا دليلنا السياحي وهو رجل في حوالي الخمسين من عمره ، بدا لنا انه ملم خبير بمعالم بعلبك وتاريخها - قال :

- كانت المدينة عبر تاريخها الطويل عروس الشام المدللة يتجدد شبابها وليالي عرسها كل عام ، اذ تقام بها اعياد واحتفالات للخمر والجمال والرقص والغناء وكل ضروب الفنون الشعبية والتراث ، وتستمر لثلاثة اسابيع متوالية ، ويدعى لها الادباء والشعراء ، واساطين الفن والموسيقي والطرب والابداع ، فيؤم حشدهم مهرجان بعلبك ويقدمون روائع ابداعهم فيه ، حتي اذا انقضت ايامه الرسمية انصرفوا لمهرجان آخر مماثل في دمشق ، جرت العادة ان يبدأ بنهاية الاول في بعلبك ، ثم يتجهون بعده لمهرجان ثالث يقام في (قاصرينا) وهكذا تتوالي تلك المهرجانات الابداعية الحافلة طوال فصل الربيع ، فيخلدها الشعراء والفنانون ابداعا يبقي علي مر الاجيال والعصور .

واضاف الرجل : ان حكومة لبنان تفكر جديا في احياء مهرجان بعلبك السنوي بصورة حديثة مبتكرة ، فالصورة القديمة لم تعد تناسب روح واخلاقيات عصرنا المسيحي الاسلامي .

اثارت هذه الافادة تساؤلنا عما كانت عليه الصورة القديمة قبل المسيحية والاسلام ، فارضي المرشد بادرة فضولنا قائلا :

ـ كانت بعلبك قديما بمثابة المدينة السياحية الحرة ، وهي اشبه بجنة ارضية مترفة النعيم والملذات ، يجد فيها الزائر كل ما يشتهي من متاع الدنيا القليل ولذاتها العابرة المحدودة ، الخمر والنساء واللهو والفن والوان المطاعم والمشارب حلالها وحرامها ، وخاصة خمر باخوس المعتقة التي لا تضاهيها جودة سوي خمور بابل والاندرينا المعتقة الشهيرة . وقد اختلف رواة التاريخ وكتابه فيمن هو صاحب فكرة الخمر المعتقة ، اهو الاله باخوس ام هم اهل بابل ؟!

اجبت الرجل في تحد وقلت : بل هم اهل بابل ، وقد قرأت ذلك في بعض الاسفار والكتب .

حرك حديثي شهوة الرجل والاخ ابراهيم جلق لمعرفة واقع التاريخ حول الخمر المعتقة ، فنظر الي كلاهما مليا ينتظران ما يدعم ذلك الحكم القاطع ، فقلت :

ـ قرأت ان احد الآشوريين من ملوك بابل قد ازمع ان يقيم احتفالا بمناسبة تتويجه علي البلاد خلفا لوالده المتوفي ، فدعي ملوك وامراء الممالك المجاورة والبعيدة لشهود المناسبة ، وكان الملوك وقتها ينتقلون في اسفارهم بمعية جيوشهم التي تؤدي واجب الحراسة في الحل والترحال ، ومن ثم فقد توقع الملك المتوج وصول اعداد هائلة من الاضياف في تلك المناسبة ، فامر باعداد المآكل والامكنة وكل مايلزم للحفاوة بهم وتكريمهم ، ، ومن قبيل ذلك ، ان تجهز للجند وصغار الوافدين كميات كبيرة من الخمور تحفظ في باطن الارض تحت ظل سرداق كبير ، اما الملوك والامراء فتصنع لهم خمور طازجة لدي وصولهم واقامتهم ، فحدث مالم يكن في الحسبان حيث هاجمت قبائل الهكسوس مملكة بابل قبيل حفل التتويج ، ودارت الحرب بين الطرفين سجالا لعدة اعوام ، انصرف خلالها الملك الآشوري وجنده للحرب ونسوا امر تلك الخمور المحفوظة في باطن الارض ، حتي كتب له النصر اخيرا علي اعدائه ، فجدد الدعوة للملوك والامراء لحضور حفل التتويج المؤجل ، واخذ يعد العدة لاستقبالهم من جديد . وكم كانت دهشته ودهشة اتباعه عندما تذكروا الخمور المدفونة فاستخرجوها من باطن الارض فاذا هي اقوي اثرا واعظم جودة من الخمور الطازجة !! اذ كانت تعتقت بفعل الزمن . فامر الملك بتقديمها للضيوف من كل الطبقات دون تمييز ، فلما اقيم الاحتفال وشرب الناس الخمور المعتقة صرعتهم جميعا بجودتها وطيب

مذاقها ، فعادوا يلهجون بشكر الملك والثناء علي خمره التي نسبوها الي الارض التي عتقتها وهي بابل ، فعرفت منذ ذلك الزمان باسم (البابلية) وصار اسم بابل ملازما لكل خمر معتقة اينما صنعت .

ضحك مرشدنا ساخرا وقال :

ـ صدقت يا هذا ، ولو انك امهلتني قليلا لمواصلة الحديث لرويت لكما نفس القصة التي رويتها انت الان . ولكني اضيف ان الرأي الآخر يقول ان فكرة الخمر المعتقة هذه جاء بها الاله باخوس من السماء الي معابده علي الارض ، وربما كانت له معابد في الاندرينا وبابل وغيرها كمعبده في بعلبك ، وهذا احتمال وارد علي كل حال ، وكما هو معروف فان خمر بابل والاندرينا يصبح لونها ذهبيا عند مزجها بالماء ، وهذا ماصوره لنا الشاعر الجاهلي عمرو بن كلثوم في معلقته الشهيرة التي يبدأها بقوله :

الا هبي بصحنك فاصبحينا
ولا تبقي خمور الاندرينا
مشعشعة كأن الحص فيها
اذا ما الماء خالطها سخينا

كان هذا حال الخمر عموما ، حتي جاء اهل بعلبك بخمر ذات مذاق ولون جديد ، فلونها يغدو ابيض فضيا حين تمزج بالماء ، وهي مانعرفه في بلاد الشام باسم (العرق) وقد صور امير الشعراء احمد شوقي ذلك بقوله :

تلك الكروم بقية من بابل
هيهات ينسي البابلي جناك
فكرت في لبن الجنان وخمرها
لما رأيت الماء مس طلاك

فشوقي هاهنا يشبه خمر او عرق الشام بلبن الجنان ، اذ يتحول لونها الي ابيض عند مزجها بالماء .

قلت للرجل : قرأت ان للخمر التي تقدم في معابد الاله باخوس طقوسا وآدابا معلومة ، فما حقيقة ذلك ؟

قال الرجل علي الفور :

ـ هذا حق ، وقد ترجم هذه المسألة الحسن بن هانيء الشهير (بابي نواس)

في احدي خمرياته فقال علي لسان الخمر :

لا تمكنني من العربيد يشـربني
ولا اللئيم الذي ان شـمني قطبا
ولا السفال الذي لا يستفيق ولا
غر الشباب ولا من يجهل الادبا

ضحكنا طويلا لحديث الخمر علي لسان ابي نواس ، واردف الرجل معلقا : وهذه الافادة تؤكدها قصة لعمرو ابن كلثوم ، فقد روي انه كان احد ثلاثة يعاقرون الخمر عند صاحبة حان تقوم علي خدمتهم وسقياهم ، وكنيتها (ام عمرو) فظلوا في حانها عاكفين حتي اوشك الفجر ان يبزغ ، وكان ابن كلثوم قد افرط في الشرب ، فخشيت عليه (ام عمرو) مغبة السكر وصرعه ، فكانت تسقي صاحبيه وتتجاوزه في القسمة ، فانكر منها ذلك مؤكدا انه اهل لمزيد من الخمر دون ان يدركه مجونها ، والا لما شربها في مهرجانات دمشق وبعلبك وقاصرينا حيث سماحة الخلق جواز لمرور تلك الاماكن ، اما الهلاك فانه لا يخشاه لانه مصير كل حي ، قال معاتبا ام عمرو :

صبنت الكأس عنا ام عمـرو
وكان الكأس مجراها اليمينا
وماشـــر الثلاثة يا ام عمرو
بصاحبك الذي لاتصـــحبينا
وكأس قد شـــــربت ببعلبك
واخري في دمشق وقاصرينا
وانا ســـــوف تدركنا المنايا
مقـــــــدرة لنا ومقدرينا

- الا رحم الله ابن كلثوم وغفر له ، فقد عاش للحب والشعر والخمر والتنادي بمجد بني تغلب .

قالها الرجل وهو يتأملني وأضاف :

- خي ، انا ماحسبت ان للاخوة السودانيين مثل هذا الاهتمام بالادب العربي قبل اليوم .

عندها مال علي الاخ ابراهيم جلق وهمس في اذني :

- لم يبق للرجل من الثناء الا يناديك ببلال الحبشي !

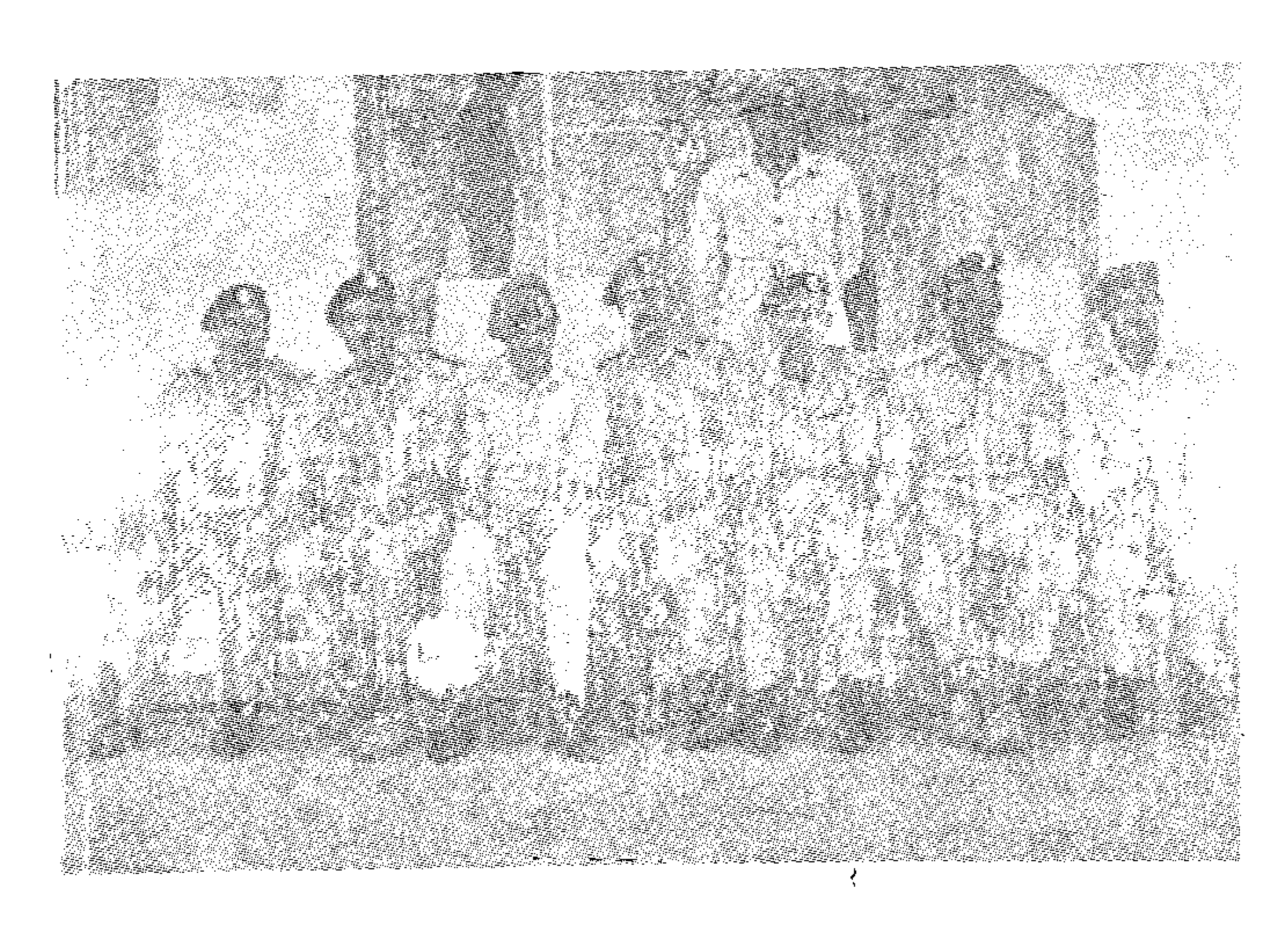
فتساءل الرجل عما دار بيننا همسا فقلنا له :

- لا شيء ، انه فقط حديث خاص .

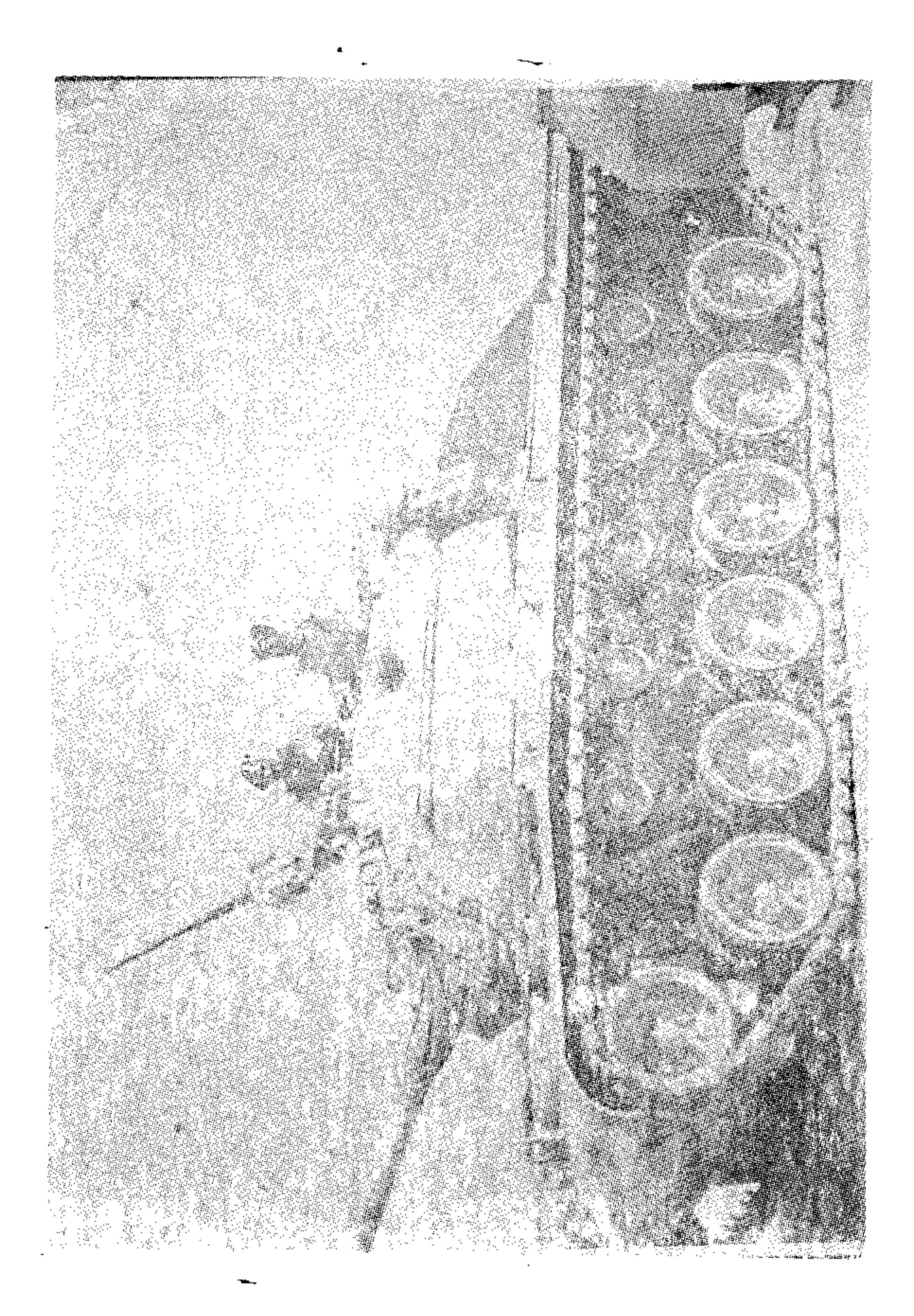
فانصرف عنا يحادث النادل ويطلب منه فاتورة الحساب ، ثم اتجه نحونا واقسم بيمين مغلظة ان يقوم هو بدفع فاتورة الطعام مهما تكن ، مؤكدا ان هذا حق ضيافتنا عليه ، وانه قانع بما اخذه منا من اجر نظير قيامه بمرافقتنا خلال تلك الجولة السياحية ، ويختتم حديثه بكلمة (ولو) فاستجبنا لمطلبه شاكرين ثم ودعناه وانصرفنا .

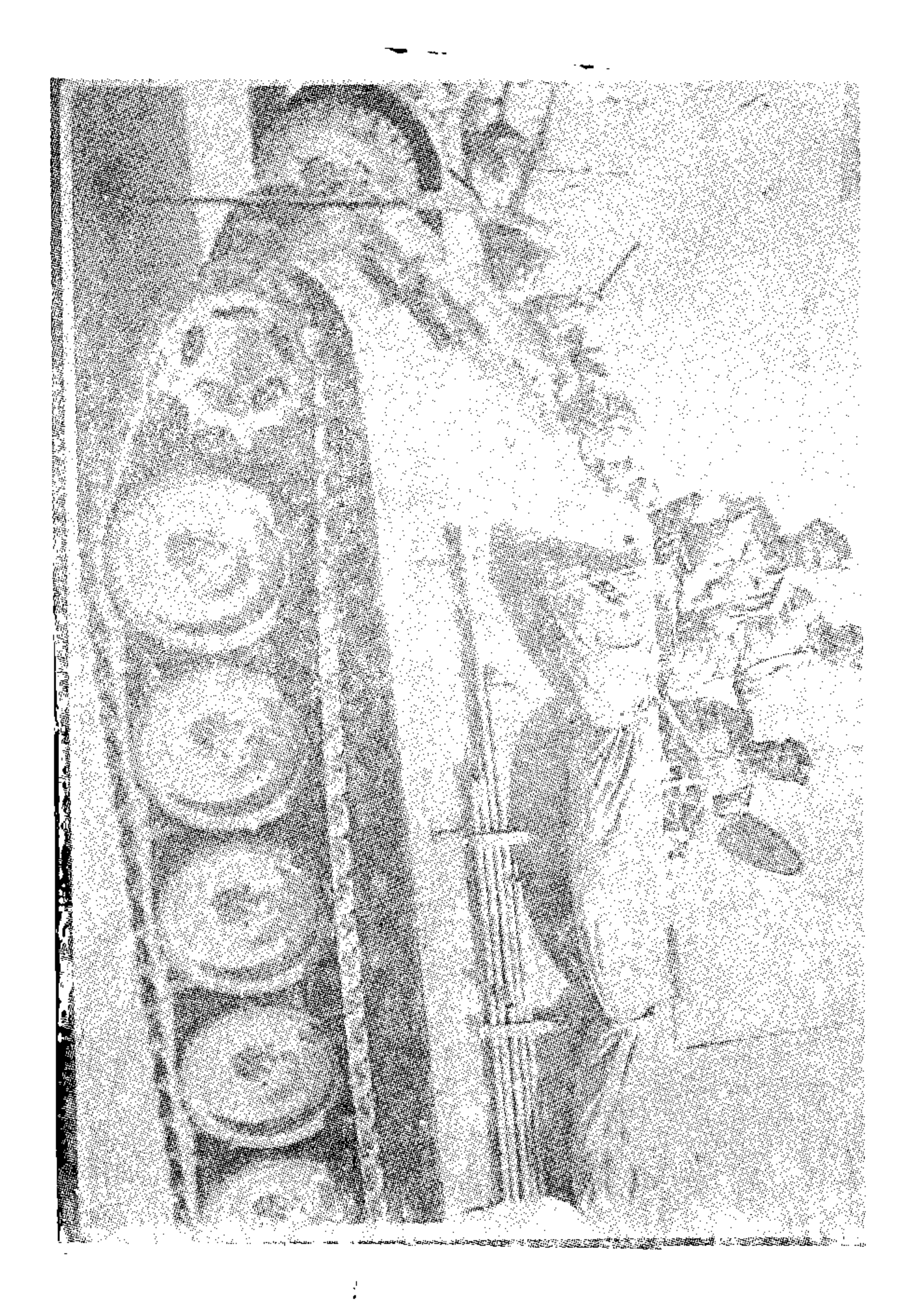
كانت ايام الاسبوع قد تصرمت سراعا ، فلم يطل بنا المقام في بيروت التي توجهنا منها الي السودان .





المؤلف بين بعض رفاق دورة الدروع التقدمية بالاردن





تسليح الجيش والصراع الليبرالي



{الحلقة التاسعة}
تسليح الجيش والصراع الاستراتيجي

توافق وصولنا الي ارض الوطن مع وصول الدفعة الاولي من حاملات الجنود المدرعة امريكية الصنع من طراز (كوماندوز) وهذه الحاملات جزء من صفقة اسلحة امريكية تعاقد عليها اللواء حسن بشير نصر نائب القائد العام قبل اكتوبر ١٩٦٤م ، وتشمل حاملات الجنود المدرعة هذه ، ومعدات الدفاع الجوي وبعض طائرات الهليوكوبتر ، وقد تمت الصفقة مع الحكومة الامريكية بقرض ميسر اشبه ما يكون بالعون الخالص ، ولكن ذلك تغير بعد سقوط النظام في السودان ، ومجيء الانتفاضة بحكومة ملزمة بتنفيذ مباديء وشعارات يسارية مناوئة الغرب الرأسمالي عموما ، والولايات المتحدة الامريكية علي وجه الخصوص .

فلما تولي المحجوب رئاسة الوزارة بعد السيد سر الختم الخليفة ، حاول معاودة الوفاق مع الادارة الامريكية كما اسلفنا القول ، ولكنه لم يوفق ، لتوجهه العربي ومساندته الايجابية للرئيس جمال عبد الناصر في مواجهة اسرائيل ، والسياسية الامريكية في الشرق الاوسط ، ثم اضرمت حرب الايام الستة (يونيو ١٩٦٧) بين العرب واسرائيل ، وموقف السودان خلالها مزيدا من وقود علي نار العداء بين الطرفين خاصة وان حكومة المحجوب بادرت بقطع علاقاتها الدبلوماسية مع الولايات المتحدة لموقفها المؤيد للاسرائيليين ، فاستاء الامريكيون كثيرا من ذلك التصرف ، ونقضوا كل عقودهم وعهودهم بتزويد السودان بالاسلحة والمعدات العسكرية والمدنية الخاصة بمشاريع التنمية في البلاد ، وكان الصراع الثاني الغاء تعهدهم السابق بمد شعب السودان بالقمح والذرة ، ثم اشتطوا في الرد علي مساءة قطع العلاقات الدبلوماسية معهم ، والغوا اتفاقية المساعدات الامريكية للسودان حتي تلك التي اجازها الكونجرس واخطروا الحكومة السودانية بها رسميا ، وتبع ذلك قطع المنح الدراسية بالجامعات والمعاهد الامريكية ، وهكذا تهدمت كل جسور الود والوفاق .

ثم حاول المحجوب جهده ليرأب صدع العلاقات السودانية الامريكية ،

متذرعا ـ في مواجهة قوي اليسار ـ بالرأي القائل : ان مواقف الصداقة والعداء بين الدول عادة تمليها المصالح المشتركة بينهما ، وهذا مايدفع حكومة السودان لاستئناف العلاقات الدبلوماسية مع الولايات المتحدة الامريكية ، ونجح مسعاه اخيرا ، وعادت العلاقات تدريجيا الي سابق عهدها او قريبا منه ، فكان من ثمارها وصول تلك الدفعة الاولي من حاملات الجنود المدرعة (كوماندوز) ، يصحبها مدرب امريكي لتدريب ضباط وصف ضباط سلاح المدرعات السوداني علي استخدامها وصيانتها .

عقد المدرب فرقة مكثفة لهذا الغرض ، وكنت احد افرادها ، ولم يكن ذلك شأن الخبراء والمدربين الروس حيال مثل هذه المهمة !! فقد حدث ان وردت علي السودان اولي منائحهم من المعدات العسكرية ، متمثلة في كتيبة دبابات من طراز (ت٥٥) وذلك في مطلع ١٩٦٨م فجاء في صحبتها جمهرة من المعلمين والخبراء الروس ، وتكبدت حكومة السودان دفع مرتباتهم الباهظة بالدولار الامريكي وجملة من الامتيازات المكلفة من سكن وترحيل وخلافه ، اما حاملات الجنود المدرعة الامريكية ـ كما سبق ذكره ـ فلم يكن في معيتها سوي خبير واحد يؤدي مهمته علي نفقة الادارة الامريكية ! اضف الي ذلك ايضا ، ان المعدات السوفيتية تم استجلابها باسعار باهظة جري الاتفاق علي مقايضتها بالقطن السوداني طويل التيلة !! ورغم كل هذه الاعباء المرهقة لخزينة البلاد ، وصلت المعدات الروسية بادوات تدريب محدودة لاتفي بالغرض ، وبسؤالنا عن الكتب والمراجع الخاصة بشرح خصائص المعدات ومزاياها ، تبرع الخبراء بالاجابة فقالوا : انهم سيبقون بين ظهرانينا مراجع حية من لحم ودم حتي تكتمل معرفتنا وتدريبنا ، ولن يبرحوا ارض السودان قبل ذلك ابدا!!

وبينما شرع الخبير الامريكي في دورته التدريبية فور وصوله بصورة جادة مكثفة ، كان الخبراء السوفيت قد بدأوا معنا دورتهم التدريبية بعد ثلاثة شهور بالتمام والكمال ، ثم اخذوا في العمل بصورة بطيئة وعطاء محدود ، فالدرس الذي يمكن اداؤه في حصة واحدة من ساعة ، كانوا يصرون علي القائه علينا في اكثر من اسبوع ، يعيدون الحديث ويكررون المعلومات بشكل ممل ممجوج لا يحتمل . وبعبارة موجزة . ظلوا معنا اشهرا عديدة ، فلم يخرجوا بنا من مقدمات فرقة قادة الفصائل المدرعة !! وثالثة الاثافي في امرهم : ان المعدات

التي جاءوا بها تنقصها قطع الغيار اللازمة وليس معها من الذخيرة سوي قدر محدود ضئيل للتدريب فقط !! ويسؤالنا عن الحكمة في هذا ..

نصحنا احد الخبراء السوفيت في لحظة صدق وتجل باننا ـ ان اردنا نيل قسط من العلم والتدريب الجاد علي معداتهم يلزمنا التوجه لمدارس المدرعات بكل من سوريا ومصر ، لان حكومتي القطرين قد تخطيتا كل العقبات والمراحل الاختبارية من خلال محاولات دؤوبة بالطرق المباشرة وغير المباشرة ، فاكتسب العسكريون فيهما خبرات واسعة وعلما غزيرا في استخدام هذه المعدات ، فضلا عن انهم تمكنوا من ترجمة بعض المراجع الهامة في هذا الجانب ، وقد حدث ذلك رغم مخالفته لتوجه وسـياسـة القيادة العسكرية في الاتحاد السوفيتي! .

لم نجد بدا ـ ازاء هذا العنت والقصور المتعمد ـ من الشكوي لقائد سلاح المدرعات العميد (وقتها) عبده حسين محروس ، واتهام الخبراء الروس بالمماطلة والتسويف في تدريبنا وتعليمنا طلاسم معداتهم المعقدة كما انهم رفضوا صراحة عقد دورات تدريبية لصف الضباط والجنود ، وبمواجهة العميد لهم ـ عن طريق القيادة العامة ـ تذرعوا بحجة ان المعدات معقدة التركيب ولا يتيسر استخدامها للجندي العادي ، ولهذا فهم يرون ان يجند لهذه المعدات افراد ممن اكملوا تعليمهم الاوسط بنجاح ، واجتازوا امتحانا خاصا بالذكاء واللياقة البدنية .

استجابت القيادة العامة في الخرطوم لطلب قائد سلاح المدرعات بتجنيد كتيبة مستجدين تنطبق عليهم مواصفات الخبراء الروس ، وصدر قرار قائد السلاح بتكليفي بهذه المهمة ، فقمت ـ عن طريق قائد مركز التدريب الموحد ـ بالاعلان عن طلب التجنيد ، فتدفقت جموع الراغبين بما يربو علي ثلاثة آلاف ، ووقع اختياري من بينهم علي ثلاثمائة ممن استوفوا شروط التجنيد كافة ، وقد اثار انتباهي خلال هذه المرحلة اهتمام القيادة العامة غير العادي بامر هؤلاء المستجدين ، فاعملت فكري في دواعي هذا الاهتمام ، ثم عزوته اخيرا الي ان تلك هي المرة الاولي التي يتم فيها تجنيد افراد بمثل هذه المواصفات ، وربما كان ذلك ماجعل فرع التدريب بالقيادة العامة يقوم بتخصيص برنامج تدريب خاص بهم كفئة مميزة ، بمركز التدريب الموحد ، حيث يتلقون تدريبات المشاة العادية قبل الحاقهم بمدرسة المدرعات للتدريب المتخصص.

كنت في تلك الآونة قد نقلت داخل السلاح من السرية الثالثة الي مدرسة المدرعات كقائد ثان وكبير للمعلمين ، وكان الرائد خالد حسن عباس قد جري نقله قائدا للمدرسة من القيادة الشمالية وكانت قد شملته من قبل الاجراءات الرامية لنقل اعضاء التنظيم اثر ثورة اكتوبر فنقل من سلاح المدرعات الي القيادة الشمالية ومنها اعيد نقله للمدرعات مرة اخري ، ولاعادة نقله لسلاح المدرعات قصة تروي : فقد واكب ذلك نقل العقيد عمر الحاج موسي من قيادة سلاح الاشارة الي ادارة الجيش ، وكان ـ كما مر بيانه ـ نصيرا شديد التعاطف مع تنظيم الضباط الاحرار ، فعمل من هذا المنطلق على اعادة خالد الي عرين المدرعات وجاء ذلك في كشف تنقلات مفاجيء !! واراد الفريق الخواض ـ بطلب من العميد / عبده حسن محروس ـ الغاء هذا النقل ، فبذل العقيد عمر الحاج موسي مجهودا جبارا في اقناع الرجلين بضرورة نقل الرائد خالد لقيادة مدرسة المدرعات وحاجة السلاح والمدرسة لقدرات هذه القلة من الضباط ، خاصة مع ورود المعدات السوفيتية الحديثة الي البلاد ، فكلل جهوده بالنجاح آخر الامر .

ومن عجب ، فقد علمت بنقل الرائد خالد من صديقي فاروق عثمان حمد الله قبل ظهور كشف التنقلات !! افضي الي فاروق بتلك الافادة الخاصة مؤكدا انه لم يقف بصورة مباشرة او غير مباشرة وراء ذلك النقل ، ولكنه فقط استقي الخبر من احد ضباط فرع شئون الضباط التنظيميين ، ممن انيطت بهم مهمة اعداد واصدار كشف التنقلات ، وهو عين الضابط الذي نقل اليه خبر جهود العقيد عمر الحاج موسي لتحقيق ذلك النقل .

كنت التقي بصديقي فاروق لماما ، فنتحدث في الشئون العامة والخاصة بغير تحفظ ولا حرج ، وفي معرض ذلك ، باءت كل محاولاته لاقناعي بالعودة الي بوتقة التنظيم مرة اخري بالفشل ، ولكنه ـ برغم ذلك ـ كان يفضي الي ببعض ما يقوم به من نشاطات سياسية وينقل لي اخبار التنظيم واعضائه ، تلك التي لا تقع في دائرة تحركهم السري ، وكان يسمي تلك الافادات غير المحظور افشاؤها بطرطشة الحديث ، ولعله كان يجد في اطلاعي عليها نوعا من التنفيس والعلاج السايكلوجي لنفسه المكلومة من جراء التقلبات السياسية ومواقف اعضاء التنظيم في مواجهتها ، حتي الرفاق الذين شايعهم لاعتقاده بانهم احرار ثوريون صدقوا ماعاهدوا الله عليه ، تقاعسوا وبدلوا تبديلا !!

فاصابه من جماع ذلك يأس واحباط ، وكم تمني ان تتاح له الفرصة لمغادرة السودان واهله مهاجرا في بلاد الله الواسعة من خلال العمل في السلك الدبلوماسي ولم يكتفي بالتمني والاحلام ، فاتصل بالمحجوب من اجل ذلك ولم يفلح معه ، وعاود الكرة عن طريق الاديب الدبلوماسي جمال محمد احمد بغير طائل ، اذ كان كلا الرجلين الكبيرين يتعلل باعذار واهية ، قالا له مثلا : ان العمل الدبلوماسي يتطلب مؤهلا جامعيا خاصا وغاب عنهما انه قد تخرج من كلية الآداب (قسم اجتماع) من جامعة القاهرة فرع الخرطوم وحصل علي الليسانس ، اضافة الي مؤهلاته وخبراته العسكرية الجمة ووعيه بمجريات الحياة السياسية في الداخل والخارج ولما فاجئهما بذلك اتخذا معاذير وحجج اخري .

ومن تعلات الرجلين ايضا قولهما : ان نشاطه وتجربته الثورية وما عرف عنه من نزوع جارف للتغيير ، تقف كلها حجر عثرة في طريق تقلده للمنصب الدبلوماسي الحساس !! الي غير هذا وذاك من الوان الاعتذار المبرر اللطيف ، وبعد الحاف في الطلب طالباه بالانتظار واحتقاب الامل عسي ولعل !! فلم ينتظر فاروق ذلك الامل السراب ، وعاد يحث الرفاق علي التحرك الثوري ونبذ التراخي والخنوع ، وكان قبل ذلك يظن ان بوسعه ان ينأي بهم عن مزالق التطرف والثورية .

قلت له ضاحكا :

ـ ان حالك مع السلطة الحاكمة والرفاق شبيه بحال الشاعر تليد العتبي ، وكان من صعاليك العرب المتأخرين يقود عصبة منهم على طريق الغواية ونهب القوافل ، فتعقبه واتباعه جند الخليفة عمر بن عبد العزيز والقوا القبض عليهم واستجار تليد بحلم الخليفة وحماه فوعده الخليفة بالعفو عنه وعصبته اذا هم تابوا واقلعوا عما كانوا فيه من شرب خمر وغواية وضلال ، وانضموا لجيش المجاهدين ، فتظاهر تليد بالندم علي ما فرط منه ، واظهر التوبة والاذعان لامر الخليفة ونفسه لم تبرأ بعد من جنوح لحياة الصعلكة ، فقال في ذلك :

يقولون جاهـــــر يا تليد بتوبة
وفي النفس مني عودة ساعودها
الا ليت شعري هل اقودن عصبة
قليل لرب العالمين ســــــجودها

ضحك فاروق بملء شدقيه وعلق قائلا :

- كلنا ذلك التليد ، كان يقطع طريق القوافل ونحن نقطع طريق الحكام ، خاصة هؤلاء الذين يوصدون ابواب التوبة في وجوهنا .

ثم تحولت من جراء ذلك مشاعر فاروق المناصرة للمحجوب وحكومته بعد حرب الايام الستة لمؤازرة غريمه في الحزب والطموح السيد الصادق المهدي ، دون ان يخطره بذلك ، وكان يحلو لفاروق ان يسمي هذا التحول بانه (حب من طرف واحد!!) وغدا يتلمس لهذا الحب اسبابا ومرتكزات فكرية ، منها مواقف السيد الصادق التي وصفها فاروق بانها تقدمية ومتوافقة مع توجهات التنظيم ، وضرب لذلك مثلا بدعوة السيد الصادق للاخذ بالتقدمية الاشتراكية والديمقراطية الشمولية المتمثلة في نظام الحزب الواحد ، ومجاهرته - في نفس الوقت - بالعداوة للطائفية التقليدية عبر مواقفه المشهودة في مواجهة عمه الامام الهادي ، كل ذلك وغيره جعل حفيد الامام المهدي يكسب اراضي جديدة في ساحة الصراع السياسي ازاء غريمه المحجوب ، وقد انسحب هذا ايضا علي اعضاء الجمعية التأسيسية آنذاك ، حتي اصبح بوسع السيد الصادق ان يحجب الثقة عن حكومة المحجوب الثانية وخاصة بعد تفشي الفساد الديمقراطي بين اولئك الاعضاء انفسهم ، فاضحت الجمعية - كما قال فاروق - سوقا !

ومن عجب ، ففي هذه السوق الليبرالية اتحدت احزاب الامة جناح السيد الصادق وجبهة الميثاق الاسلامي والحزب الشيوعي رغم طرد نوابه من الجمعية وسحب الاعتراف بشرعية وجوده ونشاطه في البلاد ، فاستطاع هؤلاء جميعا استقطاب طائفة من نواب الجمعية ذوي الاتجاه والميول المريبة !! ومن جماع هذه القوي المتباينة تأكدت قدرة المعارضة علي اسقاط الحكومة الثانية للمحجوب برئاسة المحجوب ، وكي لا يحدث ذلك عمدت قيادة الائتلاف الحاكم الي حل الجمعية التأسيسية بموجب المادة (١٦-أ) من الدستور والتي تقرأ :-

(يبت في كل المواضيع التي تطرح لاخذ قرار عنها في الجمعية التأسيسية باغلبية الاعضاء الحاضرين الذين يشتركوا في التصويت ، الا في حالة اجازة الدستور الدائم فيبت فيها باغلبية ثلثي الاعضاء.) وتحت مظلة هذه المادة تحركت قيادة الحزبين لتضع نهاية لعمر الجمعية فيما يشبه الاغتيال ، فامرت نوابها بتقديم استقالات جماعية وانصياع اولئك النواب للاشارة المقدسة

واستقال في وقت واحد خمس اعضاء الجمعية ، ففقدت بذلك قدرتها واهليتها لاجازة الدستور الدائم وهي المهمة الاساسية لانتخابها اصلا . فاعلن الرئيس اسماعيل الازهري في نفس اليوم وبوصفه رئيسا لمجلس السيادة قرارا بحل الجمعية التأسيسية والاعداد لاجراء انتخابات عامة اخري لقيام جمعية جديدة !!

فقامت من جراء ذلك دنيا السياسة السودانية ولم تقعد ، فقد اعلنت احزاب المعارضة المؤلفة من جبهة الميثاق الاسلامي وحزب سانو وحزب الامة جناح السيد الصادق عن معارضتها لقرار حل الجمعية باعتباره خرقا للدستور ، وفقا للمادة (٥٣-أ) التي تقرأ :

(تستمر الجمعية التأسيسية لمدة سنتين من بداية اول انعقادها ولا يجوز حلها)!! فحاول بعض الحادبين مراجعة الزعيم اسماعيل الازهري في قراره بحل الجمعية ومطالبته بالعدول عنه لمصلحة البلاد ، فاتصل به في مساء نفس اليوم نفر من اقطاب الحركة السياسية علي رأسهم السيد وليم دينق زعيم حزب سا ر والامير عبد الله عبد الرحمن نقد الله ، عن حزب الامة جناح السيد الصادق المهدي ، والسيد عبد الماجد ابو حسبو عن الحزب الوطني الاتحادي ، والسيد محمد ابراهيم خليل من حزب الامة جناح السيد الصادق ايضا ، ولكن الزعيم ازهري اوضح لهم ان قراره امر لارجعة فيه ، وقد ساق ذلك باسلوب دبلوماسي مطاط جعل البعض منهم يتوهم امكان اعادة الزعيم النظر في القرار !! فخرجوا من عنده وهم يصفونه بطيبة القلب والحرص علي الديمقراطية الليبرالية وتأمينها من اخطار المغامرين العسكريين . فلم يمض وقت طويل حتي تبددت احلام هؤلاء الاقطاب علي صخرة الواقع السياسي القائم ، فصبوا جام سخطهم علي الزعيم واتهموه صراحة بخرق الدستور !!

وفي محاولة عملية جادة لاسقاط قرار حل الجمعية التأسيسية ، زحف نواب المعارضة يتقدمهم اعضاء جبهة الميثاق الاسلامي في صبيحة اليوم التالي نحو مبني الجمعية لاتخاذ قرار بالاغلبية من داخلها بالاستمرار ، ولكنهم ووجهوا بقوات من الجيش والشرطة تسد عليهم كل الطرق المؤدية الي المبني ومداخله ، فتعذر عليهم بلوغ غايتهم ، وعندها اجتمعوا خارج مبني الجمعية وعقدوا جلسة برئاسة النائب محمد يوسف محمد من جبهة الميثاق ، ثم تواصلت جلساتهم بمنزل الامام الصديق المهدي ، وعلي ضوء ما اتخذوا من قرارات حول

الازمة السياسية ، تقدم السيد الصادق المهدي زعيم المعارضة بطلب الي الفريق الخواض القائد العام للقوات المسلحة يقضي بالتدخل المسلح لحماية الدستور والنظام ، كما رفع في ذات الوقت قضية دستورية لدي المحكمة العليا وتجاوب الشارع السياسي مع المعارضة تجاوبا بعيد المدي ، فاندلعت نار السخط في كل مكان ، وخرجت المواكب والمظاهرات الهادرة تندد بحكومة السيدين وتشجب تصرفها ، ولكن قوات الشرطة تصدت للمتظاهرين وفرقت جموعهم بالسرعة التي طلبتها حكومة الائتلاف القائمة آنذاك .

اما داخل المؤسسة العسكرية فقد كان للاحداث انعكاساتها وصداها ، وقيضت لي الاقدار ان اشهد واشارك في حدث تاريخي مثير ، اذ كنت عضوا في لجنة فنية برئاسة اللواء محمد ادريس عبد الله وعضوية كل من العقيد اركانحرب / ابراهيم ابو الفتح الضوي وشخصي مندوبا من سلاح المدرعات ، وقد انيطت بتلك اللجنة مهمة فحص وتقنين بعض العروض الخاصة بشراء حاملات جنود مدرعة والتوصية بشأنها ، وهي عروض مقدمة من بريطانيا والولايات المتحدة الامريكية وتشيكوسوفاكيا والاتحاد السوفيتي .

اثارت مهمة اللجنة اهتمام الفريق / الخواض القائد العام ، فحرص ان يتابع معنا بشخصه كل مرحلة واجراء ، ومن خلال ذلك تكشفت لي قدراته العظيمة الفذة في قراءة وتلخيص الكتب والمراجع الاجنبية ، وكان له في درايته الواسعة باللغة الانجليزية ومصطلحاتها العسكرية خير معين علي تنمية تلك القدرات ، من ذلك مثلا انه قام بتلخيص كتب (المانيوال) و (البروشرز) الخاصة بحاملات الجنود البريطانية (السرسن والاسكوربيون) خلال ثلاثة ساعات فقط !! اعتكف فيها بمكتبه ، ثم خرج علي اللجنة بعدها ليقدم العرض البريطاني ومعداته ملخصا - باللغة الانجليزية - في حيز ثلاثة صفحات فقط .

كان الفريق الخواض - رغم علمه وقدراته ، ورغم انه صاحب الرأي الاخير والقرار الفصل في كل عروض التسليح - يثق بصورة مطلقة في خبرة ودراية وقدرات اللواء / محمد ادريس عبد الله ، فكلا الرجلين من جيل عسكري يعرف اقدار الرجال ويعترف بها حتي في الشحناء ، فقد وصف الخواض في عديد من المواقف والتجمعات اللواء / محمد ادريس عبد الله بانه الضابط الاكثر حرصا علي تسليح الجيش ورفع كفاءته القتالية ، وانه قمة باذخة في

النقاء وعفة اليد واللسان ، وهذا ما يجعله ـ اي الفريق الخواض ـ يركن اليه في مدلهمات الامور ، ويأخذ برأيه وخاصة فيما يتصل بامر التسليح والعمليات العسكرية .

اضرم هذا الموقف المتحيز من القائد العام نار الغيرة المهنية بين اللواء محمد ادريس عبد الله واللواء حمد النيل ضيف الله نائب القائد العام ، وخلق ـ بصورة او اخري ـ شعورا بالجفاء غير مفتعل بين الرجلين ، او هذا علي الاقل ما تهامس به الضباط يومئذ ، ولكني ـ شخصيا ـ لم المس في مسلك الرجلين وعلاقتهما ما يؤكد او ينم عن حقيقة هذه القالة ، ربما لان التصاقي بهما لم يتعد حدود العمل في اللجان الرسمية ، من موقع الضابط صغير السن والرتبة مع قادته العظام .

كان اللواء محمد ادريس عبد الله قد غادرنا اثناء تلك اللجنة ـ في مهمة رسمية الي احدي الدول الافريقية ، ثم تزامن ذلك مع تكليف العقيد ابراهيم ابو الفتح بمهام اخري مستعجلة ، فطلب مني الفريق الخواض ان اقوم وحدي بتلخيص بقية المراجع والعروض المطروحة ، وارفعها له دون ابداء الرأي فيها ، ريثما يعود اللواء محمد ادريس من مهمته ، علي ان اوافيه اولا باول بما انجز من عمل ، ولتمكيني من ذلك طلب من قائد سلاح المدرعات ان يلحقني بمكتبه بصفة مؤقتة ففعل .

واذ كنت اؤدي تلك المهمة بمكتب الفريق الخواض القائد العام للجيش وردت مذكرة السيد الصادق المهدي سابقة الذكر التي تطالب بتدخل الجيش لحماية الدستور ، كان الفريق الخواض يعلم ان لي صلة مباشرة برئيس القضاء مولانا بابكر عوض الله ، فقد سبق له ان رآنا معا بنادي الضباط قبل احداث اكتوبر ١٩٦٤م ، ثم توسطه لالغاء نقل النقيب فاروق حمد الله بعد الاحداث والذي لم يستجب له الفريق الخواض بينما استجاب لوساطة الامير نقدالله ، فاحدث هذا التصرف شرخا في علاقة الرجلين الكبيرين او نوعا من الفتور ، ولعل ذلك مادفع الفريق الخواض ليسألني ـ بعد تلقيه لمطلب السيد الصادق ومشاورة كبار الضباط بشأنه ـ عن مدي علاقتي برئيس القضاء مولانا بابكر عوض الله ، فاوجزت له الامر ، ثم عاد يسألني عن شعور الرجل نحوه بعد ماكان منه من امر الوساطة ، وعما اذا كان واجدا مما حدث ، فقلت له :

ـ لا اعتقد ذلك ، خاصة وان سعادتك لم تستجب للامير بالغاء نقل فاروق ، بل ارجائه فهمهم بصوت مسموع :

ـ انتم بلا شك معاول هدم لنظم الجيش وتقاليده ، ومصدر حرج لنا مع الآخرين ، ولن تعود للجيش عافيته الا اذا بترتم جميعا من جسده .

ظننت ـ لبرهة من الوقت ـ ان الرجل من فرط غضبه وتحامله علي جيلنا ، سيطردني من مكتبه والجيش معا ، ولكنه بدلا من ذلك سلمني خطابا مقفلا ، افصح عن فحواه بقوله :

ـ هذا خطاب السيد الصادق المهدي الموجه الينا وهذا خطاب مني لمولانا رئيس القضاء ، اسأله فيه رأيه في الامر ، قبل ان تفصل فيه المحكمة الدستورية ، واريد منك في نفس الوقت ان تنسي علاقتك الشخصية به وان تذكر فقط انك ضابط في القوات المسلحة ، فمهمتك هذه اشبه بمهمة ضابط الاستخبارات ، اريدك ان تحاوره بذكاء ولباقة ، لتوافيني بكل ابعاد رأيه ومراميه .

قلت له وقد اطمأن قلبي :

ـ حاضر سعادتك .

رمقني بنظرة فاحصة طويلة ، كأنه يتشكك في كمال صدقي وولائي له ، ثم دعا لي بالتوفيق وامرني بالانصراف .

في مكتب مولانا بابكر عوض الله ، وجدتني بين حشد من رجال السياسة والقانون ، فتقدمت ووقفت امامه محييا ثم سلمته الخطاب ، فدعاني للجلوس وهو يفض الخطاب في عجلة واهتمام ، ثم عقب بقراءة الخطاب الآخر بكثير من التؤدة والتركيز ، وما كاد يفرغ حتي استأذن جلساءه وقادني الي مكتب مجاور ، وهناك سألني عن رقم تليفون الفريق الخواض المباشر فاخبرته به ، ولكنه قبل ان يدير قرص التليفون اتجه نحوي بكليته وسألني ان اصدقه القول دون مبالغة ولا تهويل عن رد الفعل وموقف القوات المسلحة عموما وموقف الفريق الخواض علي وجه الخصوص من ذلك الحدث !!

فاجبته بكل الصدق قائلا :

اعتقد انهم جميعا في دوامة .

ضحك مولانا وعلق بقوله :

- هذا - لعمري - حال السودان بأجمعه ، لقد فاجأنا القرار ، ولا علم لنا بتحرك القوي السياسية ومواقفها سوي ما يبدو للعيان .

ثم رفع السماعة وادار قرص التليفون مرات وسرعان ماجاءه صوت الفريق الخواض من الجانب الآخر ، فتبادل معه عبارات التحية والمجاملة ، ثم اخذ ينصت باهتمام بالغ لمحدثه الذي لم اعرف ما يقول علي وجه التحديد ، ولكني حفظت عن ظهر قلب ردود مولانا عليه ، وسجلتها - بعد مغادرته - في دفتر مذكرات صغير كنت احمله ، اذكر منها :

- والله ده حالنا كلنا .

- طبعا القرار خاطيء وخرق صريح للدستور المؤقت .

- لا لا . قرار المحكمة الدستورية حياخذ وقت طويل .

- وفي رأيي ، انكم تضعوا حراسة مسلحة علي مبني الجمعية ، وتتيحوا الفرصة لاجتماع النواب لممارسة عملهم الديمقراطي ، لكن الرأي ده ليه ابعاده !!

- اقصد مثلا ، يستطيع الرئيس ازهري ان يصدر قرارا باعفائك انت وكبار الضباط المناوئين له ، ويرقي او يعين في مكانكم من يشاء من الضباط الموالين ، وده حق بيكفله ليه القانون والدستور .

- ايوه صاح ، لكين ده الحاصل الحال رجع اسوأ مما كان عليه سنة ١٩٥٨ ، والمسألة متروكة لتقديركم.

- انا لا استطيع تقديم فتوي رسمية الا من خلال المحكمة الدستورية .

- في رأيي انا ، ده محك سياسي ومنعطف تاريخي خطير ، والمسألة زي ماقلت ليك متروكة لي تقديركم .

- اخوانا المصريين عندهم مثل بيقول : ما بجبرك علي المر الا الامر منه ، صحيح زي ما قلت انو اشتغال الجيش بالسياسة مسألة كريهة ، لكين تعملوا ايه مع النتانة الحاصلة دي ؟

- طيب حاضر ، انا حارجع ليك طلب الصادق مع محجوب ، مع السلامة ، ربنا يوفقكم وزي ماقلت ليك ده محك سياسي ومنعطف تاريخي مع السلامة .

تأوه مولانا بابكر وزفر زفرة حارة وهو يضع السماعة مكانها ، ثم سألني بتركيز شديد :

- تفتكر زولكم ده فيه عمار ؟
قلت : الله ورسوله اعلم .
فضحك يائسا من استدراجي وودعني منصرفا الي مكتبه وجلسائه .

عدت ادراجي الي مكتب الفريق الخواض احمل خطاب السيد الصادق المهدي اليه ، فعلمت انه في اجتماع مع كبار الضباط فلم اشأ ان اقتحم مجلسهم رغم حيوية مهمتي ، واكتفيت بمحادثته عبر التليفون ، فطلب مني تسليم الخطاب للنقيب / صديق حمد سكرتير مكتب وزير الدفاع الدكتور آدم موسي مادبو (وقتها) وهو احد وزراء حزب الامة المرموقين في جناح الامام الهادي ، وكان في رحلة عمل لدي بعض الدول الاشتراكية ، هدفها التعاقد علي شراء كمية من الاسلحة والمعدات العسكرية خاصة المدرعات والطيران والدفاع الجوي ، وعلمت من النقيب / صديق ، ان الوزير في مدينة صوفيا وسيغادرها في اليوم التالي عائدا الي الخرطوم . واضاف النقيب صديق حمد : ان الفريق الخواض وكبار ضباطه ، قد ارجأوا اتخاذ القرار بشأن طلب السيد الصادق لحين عودة السيد وزير الدفاع ، بحجة ان الامر برمته مسألة سياسية وصراع حزبي ، ولابد من الوقوف علي رأي وزير الدفاع بحكم موقعه وصفته . وانهم لمثل هذا منتظرون .

في الموعد المرصود تماما حضر الوزير مبكرا الي رئاسة الجيش فور عودته من الرحلة الميمونة ، وقد فوجئت بوجوده مع الفريق الخواض في ذلك الوقت المبكر ، ولم يكن ذلك بمستغرب من الفريق ، اذ درج علي الحضور الي مكتبه في مثل تلك الساعة كل صباح ، وجبهني الدكتور مادبو بالسؤال عن النقيب / صديق حمد ، فاخبرته انه اعتاد التواجد المبكر بسلاح المدرعات قبل الحضور الي مكتبه . فطلب مني استدعاءه علي الفور وفعلت .

عند عودتي مع النقيب صديق ، دعا القائد العام الي اجتماع كبار الضباط والقادة مع وزير الدفاع ، وقمنا انا والنقيب صديق حمد بترتيب اجراءات ذلك الاجتماع الساخن ، فلما انتظم عقد المجتمعين ، بدأ الدكتور موسي بهجوم عاصف شنه مباشرة علي القائد العام وكبار الضباط لمسلكهم المتجاوب مع المعارضة ولو بصفة غير مباشرة ، ووصف ذلك بالخروج علي مقتضيات الضبط والربط والتعدي الصريح لحدود مسئولياتهم العسكرية والتردي في مهاوي

اجتماعات مطولة جادة لتحقيق ذلك الطموح ، وفيها برز تيار معارض يقوده الرشيدان (الرائد وقتها الرشيد نور الدين والرائد الرشيد ابو شامة من سلاح المهندسين) . وكم عجبت لموقف هذا الاخير وهو يدلي بشهادته في محكمة مدبري انقلاب مايو في قابل الايام ، واثار دهشتي بافاداته السالبة عن حركة تنظيم الضباط الاحرار وتفاعلهم الثوري مع الاحداث والاماني الوطنية ومبعث العجب والدهشة في ذلك أنه هو شخصيا كانت له مواقف تنضح بالشجاعة والثورية ، شهدتها ابان عضويتي بالتنظيم وانخراطي بين افراده ، ثم اضاف اليها وقوفه مع الآخرين من معارضي فكرة الاستيلاء علي السلطة في ذلك الظرف السياسي الدقيق ، بوصفه من الاحرار الدستوريين .

كيفما كان الامر ، فقد استطاع هؤلاء الاحرار الدستوريين ان يحبطوا فكرة الاستيلاء علي السلطة والتحرك العسكري ضد القوي الحزبية الحاكمة ، وحجتهم في ذلك ان الممارسة الديمقراطية لم تأخذ خطها الكامل وحقها المشروع في الحكم وان الخلاف والاختلاف السياسي هو جزء من طبيعة النظام الديمقراطي الليبرالي .

وبالطبع لم يعجب هذا الطرح الضباط الاحرار الثوريين في التنظيم ، ورموا اصحابه بالتخاذل والقصور عن المسئولية الوطنية ، وسماهم فاروق باتباع الطائفيين ، ونصحهم هازئا بخلع الزي العسكري واستبداله بزي شباب الختمية والانصار لانه الانسب لهم والاكثر رقة وبركة!!

كان فاروق ـ كما الفيته مرارا يتحرق اسي وحسرة علي ضياع مثل تلك الفرصة المواتية ، فقد قام بتحرك سياسي واسع النطاق في سبيل غرضه واهدافه الثورية ، من ذلك اتصاله المكثف باقطاب القوي السياسية المتطلعة الي مراقي المجد ومواقع التغيير مثله ، فوعدوه خيرا في حال نجاح تحركه العسكري ، كما اتصل ببعض رؤساء الاحزاب وجاء ردهم متفاوتا بين القبول والرفض ، ورغم انه لم يطلعني علي نتائج اتصالاته بقادة الاحزاب كافة فقد حدثني ساخرا عن موقف اثنين منهم هما الاب فيليب عباس غبوش الذي جري اتصاله به ، فوصف له الاب فيليب الموقف السياسي بقوله :

ـ اختلف اللصان ـ الحكومة والمعارضة ـ فظهر المسروق !!

وبسؤال فاروق عن ذلك المسروق اجاب الرجل :

ـ انه السودان الزنجي المسيحي !!

ثم اردف فاروق : انه اتصل بصديقه الزعيم (وليام دينق) سكرتير حزب سانو وفي ذلك اللقاء قال الزعيم وليام بصريح العبارة :

ان هدف حزبه الحلم هو تحقيق نظام وعلاقة حكم فدرالي بين الشمال والجنوب في اطار السودان الموحد ، تلك غايتهم المحددة ، وسيان ان تتحقق بالنضال عبر دروب الليبرالية او تجيء عن طريق العمل العسكري المسلح !! رغم التزامه هو شخصيا بالنهج الديمقراطي ما وجد الي ذلك سبيلا . وفرضه لهذا النهج علي قيادة حزبه باعتباره الوسيلة الانجع والاسلم . وسيحاول جاهدا من خلال الانتخابات القادمة ومداولات الجمعية التأسيسية وحوار القوي الوطنية المرتقب ، ان يصل بحزبه واخوته في الجنوب الي مرافيء الحكم الفدرالي ، ولكن اذا لم تنجح كل هذه المحاولات والوسائل ، وبقي حالهم علي ماهو عليه ، واستولي الجيش علي السلطة في البلاد ، فانهم قطعا لن يرفضوا استجابة رجال العهد الجديد لمطلبهم وحلم جهادهم الطويل . ولكنهم من حيث المبدأ لن يشاركوا في تدبير وتنفيذ اي تحرك عسكري للاطاحة بسلطة الحكم القائم ، وتقويض النظام الديمقراطي .

وواصل فاروق افادته لي بقوله :

انه جري اتصالا آخر بالزعيم وليام دينق لتحديد مطلب الجنوب المرتجي ، فقال وليام :

(١) يعقد اتفاق بين السلطة المركزية في الشمال وقيادة حزب سانو ، يتم بموجبه منح الجنوب حكما ذاتيا فدراليا حقيقيا واقليميا من حيث التسمية (لحساسية اخوة الشمال من كلمة فدرالي) وذلك لمدة ثلاثة سنوات ، ثم تصبح التجربة اساسا ونموذجا تحتذيه اقاليم السودان الاخري في الشمال والشرق والغرب ، وتبقي الخرطوم اقليما قوميا .

(٢) ان يتم استيعاب قوات الانيانيا العسكرية في القوات المسلحة /جيش / سجون بوليس ، علي ان يعملوا جنبا الي جنب مع اخوتهم الشماليين

(٣) ان تلتزم الحكومة المركزية بالصرف علي البند الاول من ميزانية حكومة الجنوب الاقليمية اثناء الفترة الانتقالية .

(٤) ان تتخذ الحكومة المركزية خطوة عملية في طريق التنمية القومية

بين الشمال والجنوب

(٥) ان يتم هذا الاتفاق بين الشمال والجنوب تحت مظلة منظمة الوحدة الافريقية والامم المتحدة ، حتي لايكون هناك سبيل للتراجع او النكوص عنه ، مع اعتراف صريح بالفوارق العرقية والدينية والثقافية والتاريخية بين الشمال والجنوب ، وهي التي املت هذا الاتفاق ، وهذا ما سيجعله قائما حتي لو لم توافق الاقاليم الشمالية علي نظام الحكم الفدرالي بينها وبين الحكومة المركزية .

وواصل الزعيم وليام دينق مطالبه ، فرأي ان تعلن القيادة العسكرية فور استيلائها علي السلطة عن هذا الاتفاق ، او علي الاقل اعترافها الواضح الصريح بتلك الفوارق ، وعزمها علي حل معضلة الجنوب في اطار الحكم الذاتي الاقليمي .

قال فاروق :

- بوصفي سكرتير التنظيم المفوض من الضباط الاحرارللتفاوض مع الزعيم وليام دينق وافقته علي كل ما طلب ، وطلبت منه ان نؤدي القسم بان يكون هذا هو الاساس لحل المشكلة المزمنة ، وانه لو تم سيعمل هو من جانبه علي تحقيق السلام بين الشمال والجنوب ووقف نزيف الدم الذي استمر سنين عديدة ، فاجابني لما طلبت ، واقسمنا معا ، هو علي الانجيل وانا علي القرآن الكريم .

عند ذلك مددت انا يدي بالتهنئة لفاروق علي هذا النجاح وقلت له بالانجليزية انك حقا مفاوض لا تقهر .

رمقني فاروق بنظرة فاحصة طويلة وهو يوجه حديثه لي :

اريدك ان تعود الي عرين الاسود الاحرار ، وقد افضيت لك بهذه المعلومات لتعلم اننا نسير في الطريق الصحيح لتحقيق المطامح الوطنية ، ولا ارضي ان تتخلف عن الركب .

فقلت له متمهلا بغير انفعال :

- انا يافاروق قد حددت موقفي من التنظيم عن قناعة سياسية ، ولم يحدث مايدعوني للعدول عن ذلك الموقف بعد .

فاخذ فاروق يلحف في الرجاء ويحاول اقناعي بكل سبيل ، فلما اسرف في ذلك قلت له :

- لا اعتقد انني بمثل هذه الاهمية للتنظيم .
رشقني بنظرة آسية وقال ساخرا :
- تعرف يامحجوب ، انت زي الجوكر ، امنية ومطلب كل اللاعبين ، ولكنك بموقفك المحايد هذا ، تصبح مثلا ايضا صالحا لكل الاوراق !!
سكت برهة اتأمله ، ثم سألته :
- ده شكر واللا .. ؟
فلم يمهلني حتي اكمل عبارتي ورد علي في عجل :
- صدقني شكر ،شكر والله ، انت عارف طبعا نحن كلنا مجرد اوراق في يد القدر ، وانت حقيقية جوكرنا .
ضحكت وقلت له ساخرا :
- بس الحريف ما بحتاج لي جوكر ، بلعب من غيره ويكسب .
ادرك فاروق ما اعنيه فشاركني الضحك وهو يقول :
- علي العموم شكرا ، خلاص موقفك وضح لينا ، لكين من التزامك السابق للتنظيم ارجو انك تحافظ علي سرية هذه المعلومات .
قلت له مطمئنا :
- دي مسألة ما محتاجة لي وصية .
فشد فاروق علي يدي ، ثم ودعني وانصرف .
تمخضت الزوبعة السياسية والازمة الدستورية الحادة اللتان اثارهما قرار حل الجمعية التأسيسية عن لاشيء !! فاصبح القرار امرا واقعا لا معدي عنه ، ونامت عين العدالة عن جرم سياسي بشع في تاريخنا الوطني الحديث ، واصيب صناع اكتوبر بخيبة الامل والاحباط والقنوط .
اعلنت الحكومة القائمة قرارها باجراء الانتخابات البرلمانية وشفعت ذلك باتخاذ الاجراءات اللازمة ، فوجدت النفوس والاقلام الموتورة المحبطة متنفسا للضحك والسخرية والاستهتار من قرار الزعيم ازهري الغاضب بحل الجمعية ، وتفتقت عبقرية فنان الكاريكاتير المبدع عز الدين عن مجموعة رائعة من الرسوم الساخرة ، كان لها فعل السحر في نفوس الموتورين .
ايا ما كان الامر ، فقد مضت كل القوي السياسية تعد العدة للانتخابات القادمة ، وجندت كل طاقاتها وامكاناتها من اجل الفوز باكبر قدر من مقاعد

الجمعية الجديدة ، ومنذ الوهلة الاولي ، كان واضحا للعيان ان الحزب الاتحادي الديمقراطي سيكون له القدح المعلي في ذلك السباق المحموم علي كراسي الحكم واحتياز السلطة ، اذ قيض له ان يدخل معركة الانتخابات كيانا قويا متحدا اسما ومعني ، بينما قدر لغريمه حزب الامة ان يقبل علي المعركة وهو منقسم علي نفسه يكيد زعماؤه وقادته بعضهم لبعض ، اما قاعدته العريضة من الانصار فقد اخذت تضرب في تيه الولاء بغير هدي ولا كتاب مبين . فاستظل بعضها بجناح الامام الهادي ، وانخرط الآخرون في جناح الحفيد الثائر ، وفشل الحادبون في رأب الصدع بعد ان اتسع الخرق علي الراتق بفعل دهقان الحزب الاتحادي الديمقراطي الذي مارس مع فرقاء الانصار لعبة (فرق تسد) جاعلا من دعاء الختمية الشهير : واشغل اعدائي بانفسهم وابليهم ربي بالمرج !! منهجا وشعارا غير معلن وحاول السيد الصادق المهدي - وهو يومئذ حديث تجربة بصراع المحترفين - ان يدعم جناحه ببعض قوي المعارضة السياسية ، مثل حزب سانو وجبهة الميثاق الاسلامي وغيرها ، اما الشيوعيون فقد رأي من الحكمة ان يهادنهم ويستبقي شعرة معاوية بينه وبينهم تحسبا لظروف لا تخفي عليه .

جرت معركة الانتخابات في جو ديمقراطي معافي الا من امراض الكيد والصراع الحزبي المعروفة ، وجاءت النتيجة مذهلة للبعض ومتوقعة للبعض الآخر خاصة اولئك الذين يمسكون بخيوط اللعبة الليبرالية المثيرة وفي مقدمتهم الزعيم الازهري .

كانت النتيجة حافلة بالمفاجآت احرز فيها :

١- الحزب الاتحادي الديمقراطي مائة مقعد ومقعد .
٢- حزب الامة جناح السيد الصادق ستة وثلاثين مقعدا .
٣- حزب الامة جناح الامام الهادي ثلاثين مقعدا .
٤- حزب سانو خمسة عشر مقعدا .
٥- جبهة الجنوب عشرة مقاعد .
٦- جبهة الميثاق الاسلامي ثلاثة مقاعد
٧- الحزب الشيوعي مقعدا واحدا .
٨- المستقلون ستة مقاعد .

وكان من اعظم المفاجآت قاطبة سقوط السيد الصادق المهدي في دائرته

المغلقة (الجبلين) وفاز مرشح جناح الامام وهو السيد محمد داؤود الخليفة ، الذي نال اكثر من اثني عشر الف صوت ، بينما نال السيد الصادق المهدي خمسة آلاف صوت فقط !! كذلك هزم الامير عبدالله عبدالرحمن نقد الله في دائرته المقفلة سنار ، وجاءت هزيمته بعدد ضئيل جدا من الاصوات بالتحديد ستة عشر صوتا لاغير !! وقد عزا بعض المراقبين لمجريات المعركة الانتخابية بين الامير ومنافسه ، عزا سقوطه الي ضعف حملته الانتخابية او تآمر بعض القائمين بها مع الخصوم حيث تعطلت او تخلفت خمسة من عربات النقل الكبيرة (اللواري) عن نقل اشياعه من الناخبين الي مراكز الاقتراع البعيدة ، وتجرعت جماهير الجناح الراديكالي في حزب الامة غصص الهزيمة بسقوط رئس الجناح وعقله المفكر معا ، وادهي من ذلك وامر ، سقوط السيد احمد المهدي في عقر دار انصار جده الامام المهدي (الجزيرة ابا) حيث فاز عليه من لا يمت لطائفة الانصار بعقيدة دينية بل بمجرد الانتماء السياسي لحزب الامة وهو السيد محمد احمد المحجوب الذي نال كل الاصوات !! واقول كل الاصوات مجازا او تقريبا للحقيقة المذهلة ، اذ ان السيد احمد المهدي لم يحرز من اصوات الناخبين مايكفل له استعادة مال التأمين الذي فقده بذلك السقوط المريع .

ثم جاءت الطامة الكبري والداهية الدهياء علي قوي المعارضة عامة والسيد الصادق المهدي وجناحه خاصة حين وردت الانباء المفجعة تعلن مصرع الزعيم الوطني وليم دينق يوم اعلان نتائج الانتخابات ، كان الفقيد في طريقه الي مدينة يرول بعد ان غادر رمبيك علي عربته الخاصة في نفر من اتباعه وافراد اسرته ، فلم يكتشف مقتله الا حين افتقده كبار معاونيه في معركة الانتخابات في الجنوب ، فافصحوا لقوات الامن عن مخاوفهم ، ومن ثم تحركت اطواف الاستكشاف ، ووجدته مقتولا هو ومن معه في مكان ناء عند منعطف طريق داخل الغابة ، حيث حاول الجناة اخفاء معالم جريمتهم البشعة الآثمة فاشعلوا النيران في جثث القتلي ومن بينهم الزعيم وليم دينق !! ثم اشعلوا النار في عربته من بعد .

اشارت اصابع الاتهام الي اكثر من جهة في وقت واحد ، فاتهم البعض قوات الجيش ! ولكن سرعان ماسقط ذلك الاتهام الذي لايسنده منطق ولاواقع ، فالمعلوم ان الزعيم الفقيد حظي بالدعم والتأييد المطلق من كل افراد القوات

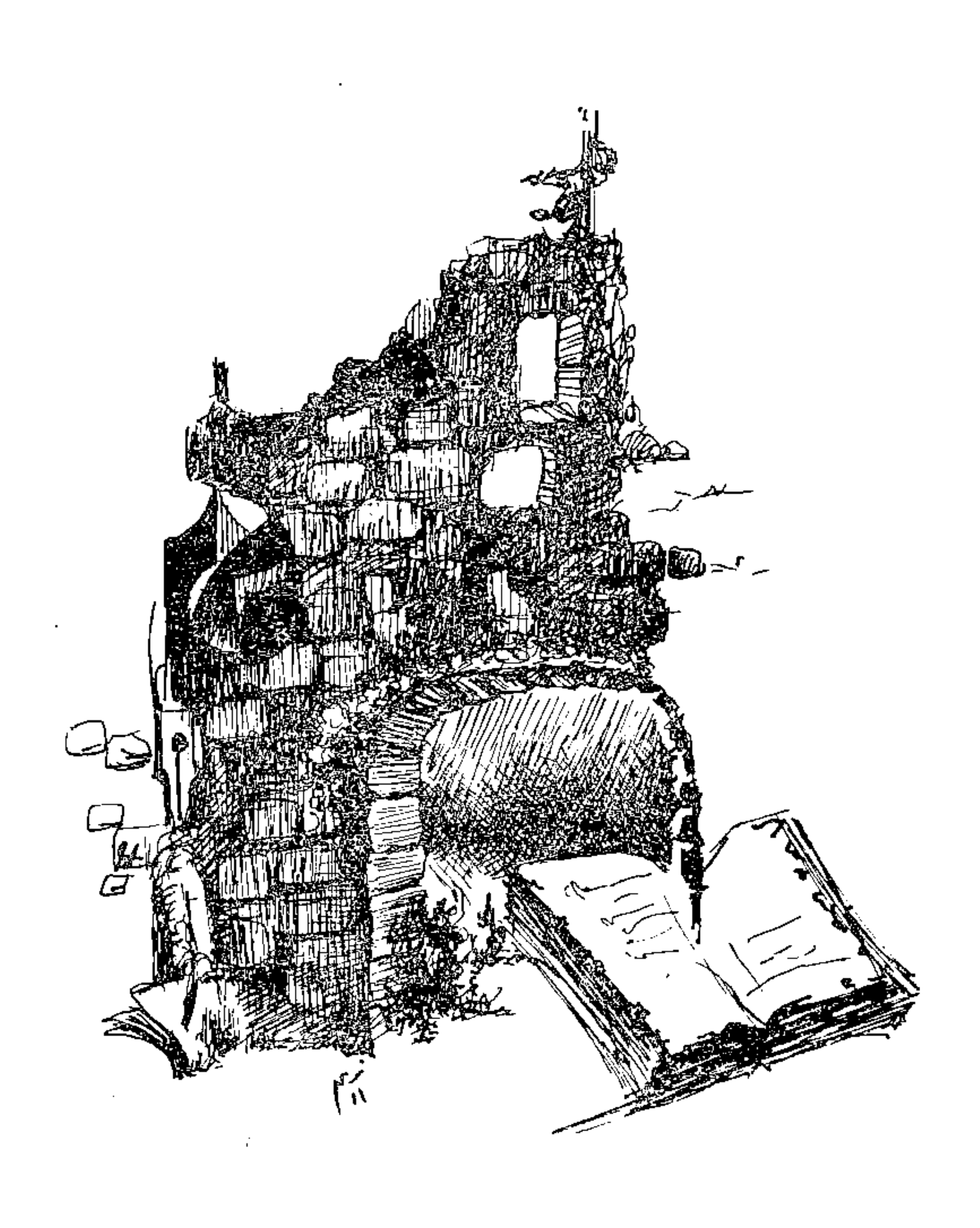
المسلحة وخاصة حامية بحر الغزال ، بل انهم جميعا كانوا ينادون بشعاراته ويمجدون اهدافه وان لم يعلنوا ذلك صراحة ، واكثر من هذا ، فان قادة تلك الحاميات ما فتئوا يلحون علي الزعيم القتيل الا يتحرك بين احراش الجنوب الا تحت حراسة اطواف عسكرية مسلحة يهيأونها له متي شاء !! ولكنه لم يستجب للالحاح وكان يصر دائما وابدا علي التحرك بغير حراسة علي عربته الخاصة ، زاعما لاولئك القادة ، مؤمنا في دخيلة نفسه بان ليس له عداء سياسي او شخصي مع احد من الناس !!

عادت اصابع الاتهام تشير الي بعض مراكز القوي داخل حزب سانو نفسه ، خاصة ابناء الاقليم الاستوائي المناوئين لزعامة الفقيد وليم دينق المطلقة ، فهو من قبيلة الدينكا كما هو معروف ، والتنافس القبلي علي اشده بين قبائل الجنوب كافة ، ولكن هذا الاتهام ايضا لم يجد له سندا ولا دليلا ، حيث فشل المحققون والباحثون في تحديد دوافع ومعالم الجريمة تماما لاسباب موضوعية ، فذهب دم الشهيد ورفاقه - مع الاسف - هدرا ، والتقي الجميع حتي القتلة الجناة بدار حزب سانو بالخرطوم ، ليتعاقب الخطباء علي منبر التأبين يذرف بعضهم دموع التماسيح !! في تلك الليلة ، صحبت صديقي فاروق حمد الله الي هناك والاسي يعتصر قلبينا ، فكانت كلمة السيد الصادق المهدي هي ابلغ واعمق ما قيل عن جهاد الزعيم الراحل وشمائله وتوهج حسه الوطني ، كانت الكلمة ذات تأثير قوي في النفوس لمعانيها النافذة الرصينة ، ولما جاشت به نفس الصادق من مشاعر الحزن والاسي والانكار وتعاقب الخطباء من بعده ثم اعتلي فاروق منصة التأبين فالقي كلمته ، حاول خلالها تبرئة ساحة القوات المسلحة من وزر الجريمة ، مؤكدا ان رفاق الراحل العظيم سيواصلون كفاحه ويحققون اهدافه وحلمه النبيل يوما ما ، كانت تلك هي المرة الاولي التي اشاهد فيها صديقي فاروق خطيبا ، فلما فرغ وفرغنا لانفسنا سألني بلهفة عن صريح رأيي في قدراته الخطابية ، فقلت له مازحا رغم مايكتنفنا من جو مأساوي حزين :

- انت يا بركة تصلح للعمل اكثر منك للقول .

لم ترض كلماتي الصريحة غروره ، فنظر الي عابسا وقال يثأر لكبريائه الجريح : - الما بتلحقه جدعه !

دست الحكم والسباق المحموم !



{الحلقة العاشرة}
دست الحكم والسباق المحموم!!

انتهت الانتخابات علي النحو الذي سبق بيانه من قبل ، فتكونت حكومة ائتلافية جديدة برئاسة المحجوب من ثمانية وزراء للحزب الاتحادي الديمقراطي صاحب الاغلبية وستة وزراء لحزب الامة جناح الامام ، ووزيرين من جبهة الجنوب ، وظل الزعيم ازهري يمثل رأس الدولة .

وتألفت المعارضة من جناح السيد الصادق المهدي وبقية القوي السياسية بزعامة السيد احمد ابراهيم دريج لعدم دخول السيد الصادق كعضو بتلك الجمعية .

وعادت الحياة السياسية سيرتها الاولي ، صورة مكررة لما كان عليه الحال قبل نوفمبر ١٩٥٨م وبعد أكتوبر ١٩٦٤، اما الشيء الوحيد الجديد علي خريطة الواقع آنذاك فهو ان الازمة الاقتصادية اضحت اشد طحنا لقطاعات الشعب البائسة ، وعادت الالسن تجتر وتلوك اخبار الفساد والصراع والمحسوبية ، بينما حرصت بعض القوي السياسية ان تعمل جاهدة لنقل تفاصيل هذه الاخبار - المختلق بعضها علي اقل تقدير - الي داخل المؤسسة العسكرية ، في محاولة لاحتوائها اداة للفوز بسلطة الحكم عبر افواه البنادق ، بعد ان تعذر الفوز بها عن طريق اصوات الناخبين .

في حوالي النصف الثاني من شهر ابريل عام ١٩٦٩ دعا العميد (أ.ج) عبده حسين محروس قائد سلاح المدرعات آنئذ قادة وحدات السلاح لاجتماع سري وهام بمكتبه ، فتوجهت مع الرائد خالد حسن عباس قائد مدرسة المدرعات لحضور ذلك الاجتماع بوصفي قائد ثان المدرسة وكبير المعلمين وقائد جناح التكتيك .

وفي الزمان والمكان المحددين للاجتماع التأم شمل قادة الوحدات ، فافضي الينا العميد (أ.ج) عبده حسين بمعلومات هامة في شكل تنوير عسكري مفادها ان هناك حركة عنصرية مسلحة ، يقف وراءها تنظيم الزنوج الاحرار وقادته من امثال الاب فيليب عباس غبوش وغيره ، وقد خططوا لقلب

نظام الحكم والسيطرة علي القيادة العسكرية في السودان لفرض هيمنة التنظيم السياسية والقضاء علي غلبة العنصر العربي والدين الاسلامي وتحويل هوية السودان ليصبح دولة زنجية مسيحية شأن معظم الاقطار الافريقية جنوب الصحراء !!

واردف قائد السلاح ان هذا المخطط العنصري قد تحدد لتنفيذه اليوم الخامس من شهر مايو ١٩٦٩م وفق ما افادت به استخبارات الشرطة واكدته الاستخبارات العسكرية وجهاز الامن العام ، واضاف ان بعض المعلومات الواردة من هذه المصادر قد اكدت ان من بين الضالعين في هذا المخطط التخريبي عسكريين في قوات الجيش والشرطة والسجون اضافة الي بعض العسكريين المبعدين من صفوف القوات النظامية والمحالين الي التقاعد كما افادت وحدات الامن ان خطة هذا التحرك الآثم تنطوي علي اعمال تخريبية داخل الاسلحة والوحدات العسكرية المختلفة . وابلغ العميد (أ.ج) عبده حسين المجتمعين انه في مواجهة ذلك اتخذت قيادات الجيش والشرطة والسجون اجراءات تحوطية لاحباط المخطط وتأمين سلطة الحكم والمؤسسات المستهدفة . وقد تحددت مهمتنا نحن في سلاح المدرعات في مراقبة وتطويق هذا النشاط العنصري بين صفوفنا والعمل علي كشفه واتخاذ جانب الحيطة والحذر فيما يخص ضبط وامن الاسلحة والذخائر والافراد . واضاف قائد السلاح ان قيادة الجيش بالتنسيق مع القوات النظامية الاخري ستضع خطة متكاملة لضرب الحركة العنصرية والقائمين بها ، وانه سيدعونا لاجتماع آخر فور تسلمه لخطة قيادة الجيش وتحديد دورنا ومهامنا القتالية والاجرائية فيها .

سأل الرائد خالد العميد بعد ان فرغ من تنويره لنا عن الحكمة في تأخير القاء القبض علي قادة وافراد المخطط حقنا للدماء وللحيلولة دون استشراء خطرهم بمرور الايام .

فاجاب العميد بانه يتفق مع السائل فيما ذهب اليه مر رأي وتوجه ، ولكن لقيادة الجيش رأيا آخرا مخالفا لذلك ، فهي تري ان تترك للمتآمرين الحبل علي القارب حتي يمكن كشفهم والقضاء عليهم جميعا في الوقت المناسب ، واردف انه هو شخصيا قد حذر القائد العام من مغبة هذا المسلك وعواقبه ولكن هيئة اركانه قد اقنعته بجدواه ! ثم عقب العميد - بعد فترة صمت قصيرة -

ان هناك امورا تجري علي مستوي القيادة العامة لا يفهمها او لعله لايدرك ابعادها ، خاصة وان القيادة لم تجهد نفسها بتنويره وبقية القادة بكل حقائق المواقف ومراميها ، واضاف ـ في نبرة تنم عن السخرية ـ قائلا : اخشي ان يكون قادتنا يمارسون معنا لعبة عساكر وحرامية !!

فضحكنا لمقالته طويلا ، ثم انفض جمعنا علي وعد من العميد بلقاء آخر مرتقب لتلقي المزيد من التفاصيل والتعليمات ، بعد ان امرنا بكتمان امر الاجتماع ودواعيه وما يتلوه من اجتماعات حول نفس الشأن .

عدنا ادراجنا ـ انا والرائد خالد حسن عباس ـ الي مكاتبنا بمدرسة المدرعات ، حيث بدا لي الرائد خالد بما صدر عنه من تعليقات ساخرة ساخطة شديد الغضب علي مسلك القيادة العامة الذي وصفه بالضعف والتخبط كما وصف كبار القادة بالتهاون والقصور ، وقال عنهم : ان فكرهم القيادي لا يتعدي تسليح البندقية ماركة اربعة وطوابير الشرف والبيادة التقليدية ، بينما نحن في عالم اليوم بحاجة الي قيادة ثورية واعية ، خاصة في بلدان العالم الثالث النامية ، وجزم الرائد بانه لاوجود لمثل هذه القيادة في رتب الجيش الحالية العليا حتي رتبة العميد !!

قلت له مداعبا :

ـ اراك تتحدث بلسان الضباط الاحرار .

حدجني الرائد خالد بنظرة منكرة وقال :

ـ الم تكن يوما ما احد هؤلاء ؟!

اجبته ساخرا :

ـ نعم كنت ذات يوم احد عناترهم ، ولكن هذا الوقت فيما اري ليس زماني ولا زمانهم .

قال :

ـ ربما ليس زمانك انت ، ولكن لايحق لك التقرير بشأن الآخرين ، كما لايحق لك الخوض في شئونهم واسرارهم بما لك من خلفية سابقة ، وهذه مسألة يفرضها عليك الالتزام الخلقي وما اديته من قسم الولاء للتنظيم فيما سبق .

قلت له مطمئنا :

ـ انا ادرك ابعاد ما ترمي اليه يا خالد ، ولكن ثق باني ـ رغم انسلاخي

عن التنظيم لقناعة سياسية باقية . مازلت علي العهد حفيظا لاسراره ولا اتدخل فيما ليس لي به علم .

نظر الي مليا وقال :

ـ هذا اقصي ما ارجوه منك .

ثم شرع يجمع بعض حاجياته وقد آذن يوم العمل الرسمي بالانقضاء ، ولكنه عاد ليقول لي قبل ان ينصرف :

ـ لماذا لا تأتي معي علي عربة ترحيلي وطريقنا الي ديارنا واحدة ؟

فاستجبت لدعوته وصحبته علي عربة الجيب ، وفي طريق ذهابنا احسست به وكأنه يريد ان يواصل الحوار ، ولكنه عدل عن ذلك وانصرف الي احاديث عادية حتي افترقنا عند منزله جوار معهد القرش بام درمان ، واذا كانت العربة تمضي بي علي طريق منزلنا بودنوباوي استعادت واعيتي شريط احداث واحاديث ذلك النهار بصورة عفوية ، ولم الق بالا او اهتماما بحديث الاخ خالد ، فمثل هذا الحديث الذي يرمي الي اتهام القيادتين العسكرية والسياسية بالقصور وضرورة تصدي الطلائع الثورية لاستلاب السلطة واحداث التغيير التقدمي المنشود اضحي امرا روتينيا وحديثا معادا تلوكه السنة الضباط عموما تنظيميين وغيرهم .

عقدت الدهشة لساني حين وصلت الي المنزل لاجد رسالة من الاخ فاروق عثمان حمد الله يطلب مني فيها موافاته بفندق السودان عند الساعة الثامنة من مساء ذلك اليوم لامر هام وعاجل ، وذيل تلك الرسالة بالحاح شديد في عدم التخلف !!

وفي الموعد المحدد الفيت فاروق مع صديقه (×) الاشارة هنا الي ذلك الصديق باسم (×) استجابة لطلب المعني بالا اذكره باسمه الحقيقي حذر اتهامه بالتواطؤ مع ثوار مايو ، رغم انه تأكد لي في قابل الايام انه لاصلة له البتة بمجريات الاحداث والتخطيط لما تم في مايو ..

بادر فاروق الي لقائي هاشا باشا بصورة لا تخلو من مبالغة وتفريط وما ان انتظم ثلاثتنا في المجلس حتي بدأ معي حوارا موضوعيا حول ضرورة خروج قوة المستجدين بمدرسة المدرعات في مهمة تدريب خلوي ! وكانت دهشتي بالغة اذ وجدته ملما بادق التفاصيل عن تلك القوة ، حجمها وتاريخ تجنيد افرادها

ومستوياتهم العلمية والقائمين بامر تدريبهم من الضابط وصف الضباط ، بل حتي اسماء البعض منهم !!

وبسؤالي له عن مصادر معلوماته عن القوة وسر اهتمامه بها ، افاد بان موقعه كسكرتير لتنظيم الضباط الاحرار يحتم عليه ان يلم باخبار الجيش عامة واسلحة المدرعات والمظلات والطيران والمدفعية والاستخبارات العسكرية خاصة ، باعتبارها الوحدات القادرة علي احداث التغيير المنشود في اي وقت من الاوقات ، وعن مصدر معلوماته قال انهم اعضاء التنظيم من الضباط الاحرار . وفي اجابة منه علي سؤال مباشر لي عما اذا كانت هذه القوة ستستخدم مع غيرها لاحداث التغيير المأمول ، انتفض في افتعال ظاهر وهو ينفي هذا التوجه والاتجاه جملة وتفصيلا ، غير اني جبهته بشعوري بافتعال ذلك النفي ، فابتسم قائلا :

- اسمع يامحجوب ، رغم شعوري بالاحباط تجاه موقفك المتحجر ورفضك المستمر للعودة الي عرين التنظيم ، رغم ذلك وبعد تقديري للموقف السياسي الراهن في البلاد ، اجدني منساقا معك علي الاقل في الاخذ بالرأي القائل باعطاء الممارسة الليبرالية فرصة كافية قبل الحكم عليها بالفشل ، وهذا ما يجعلني اؤكد لك اننا في التنظيم لا نفكر في احداث انقلاب عسكري لانتزاع السلطة ، علي الاقل في الوقت الراهن ، ربما بعد اعوام مقبلة عامين او ثلاثة اذا بلغ سيل التردي السياسي زباه ، ولكن ليس قبل ذلك باي حال من الاحوال ، وكل جهودنا الآن تنصب في مساندة مولانا بابكر عوض الله في انتخابات رئاسة الجمهورية القادمة بعد ترشيحه لها في مواجهة الزعماء الازهري والامام الهادي ، وسوف نعمل من خلال التنظيم علي حث افراد القوات المسلحة علي التصويت لصالحه وكذلك كل القوي التقدمية واليسار عموما ، واعتقد ان فرصته في الفوز ستكون كبيرة ، خاصة اذا وقفت معه الشقيقة مصر ودعمت حملته الانتخابية ماليا واعلاميا .

قلت له :

- وماذا اذا تخلف مولانا عن الركب في السباق المحموم ؟

قال بصورة عفوية :

- عندئذ يعلو ازيز البنادق علي اصوات الناخبين ، ويغدو السيف اصدق انباءا من الكتب !!

قلت له : ـ انقلاب عسكري يقوده التنظيم وتدعمه مصر ؟

قال : ربما ، ولكن ليس قبل اربعة او خمسة اعوام من الآن ، وعندها تكون الممارسة الليبرالية قد اخذت فرصتها كاملة ، فاذا ما ثبت انها تنفع الناس وتمكث في الارض فلن يكون هناك مبرر لانقلاب او تغيير ، ذلك لاننا نضع مصلحة البلاد فوق مطامح التنظيم ومصالح افراده الذاتية .

وسألته عن مدي ارتباطه وعلاقته كسكرتير للتنظيم بالزعامات والقوي السياسية المختلفة ، فادركه شيء من الامتعاض للسؤال في بادئ الامر واطرق كمن يفكر في مخرج ، ثم اجاب مكرها بعد الحاح :

ـ اننا في التنظيم علي وفاق مع بعض الاشخاص المؤثرين من ذوي الوزن والمكانة لدي قواهم الحزبية .

سألته : وبتحديد اكثر لتلك القوي ؟

فاجاب : هي الحزب الشيوعي السوداني ، القوميون العرب ، الاتحادي الديمقراطي ، وحزب سانو ..

ثم اردف في حزم :

ـ لا تطلب مني تفاصيل اكثر ، فلن افضي لك بالاسماء والتوجهات ونقاط الالتقاء والخلاف فهذه من اسرار التنظيم وانت لست عضوا فيه ومن ثم لا يحق لك ان .. قاطعته حازما :

ـ حسبك ، فلن يدفعني حب الاستطلاع للعودة الي حظيرة التنظيم والمشاركة في .. وقاطعني بدوره :

لا تستخدم كلمة (حظيرة) في التعبير عن اطار التنظيم ، فاني استهجنها لانها ـ كما اعلم ـ تعني مربط السوائم لا بوتقة الثوار !!

قلت له :

ـ ولكنكم جميعا تسخدمونها !

قال : ليس بعد اليوم .

وبدا محدثي نهبا للتوتر والغضب علي غير عادته ، فلزمت الصمت مكرهين ،

غرس موقف فاروق المتوتر في نفسي كثيرا من الشكوك ودواعي الارتياب فيما ينتوي عمله مع رفاق التنظيم بعد عامين او ثلاثة كما قال ،

ولكن لم يدر بخلدي مطلقا ان التخطيط يجري علي قدم وساق لعمل يوشك ان يتم تنفيذه ويصبح واقعا يغير مجريات الاحداث والتاريخ !! وقد عزوت رغبته الملحة في لقائي ذاك الي حرصه علي اعادتي الي تنظيم الضباط الاحرار ، فلما فشل في تحقيق طلبه ثارت ثائرته علي نحو ماجري بيننا في الحوار الذي سبق تفصيله ، وليس ادل علي ذلك مما حدث ونحن نغادر فندق السودان عند نهاية اللقاء العاصف ، فقد اصطدم فاروق بباب الفندق الزجاجي حتي تهشم ولم يصب فاروق الا بخدش طفيف !! ثم افترقنا كل الي منزله وغايته .

وبعد ايام قلائل ، وبينما كنت اقوم بتدريس حصة في تكتيك المدرعات باحدي حجرات الدراسة بمدرسة المدرعات ، اذا بالعميد عبده حسين محروس يدخل الفصل بغتة ويتخذ مجلسه في آخر الصفوف ، ولم يكن ذاك منه بالامر الغريب ، فقد درج علي حضور حصص التعليم ومراقبة الطوابير في كل سانحة من زحام العمل ، ولعل تولية لمنصب قائد مدرسة المشاة من قبل ثم شغله لمنصب مدير فرع التدريب بالقوات المسلحة كان يثير اهتمامه البالغ بامر التدريب والاشراف المباشر علي اعداد الجند والاسلحة والمعدات ، فهو ـ كما يعرفه افراد قواتنا المسلحة ـ احد اساطين العلوم العسكرية الافذاذ ، وموسوعة عسكرية في كل ما يتصل بتاريخ الجيش ونظم القيادة والادارة والتدريب ، ومن ثم كان كل المعلمين يتحسبون لزياراته المفاجئة ومراقبته لطرائق ادائهم في التعليم .

واصلت الدرس بكثير من العناية والتركيز ، ورغم ذلك كان يساورني القلق باني ساواجه بنقده وتعليقاته وتوجيهاته عند نهاية الحصة ، ولكنه اثار دهشتي وهو يشير الي بطرف خفي ان انهي الحصة قبل تمامها ، فلم املك الا الاذعان لامره ، فقمت بتلخيص الدرس في مدي دقيقتين او ثلاث ، ثم اذنت للدارسين بالانصراف ، بعد ان اعطيته التمام العسكري المعهود . وعلي غير ماكنت اتوقع ، لم يعلق العميد عبده بشيء يتصل بذلك الدرس ، ولكنه طلب مني ان القاه بمكتب قائد مدرسة المدرعات !!

هناك سألني عن الرائد خالد حسن عباس الذي كان في اجازة مرضية طارئة ، فطمأنته انه بخير وسوف يعود لمزاولة عمله في الغداة ، ثم سألني عن المستوي التدريبي للدارسين وعما اذا اصبحوا اهلا للتدريب الخلوي ، فاجبت بالايجاب ، فقال علي الفور :

ـ عليك اذن ان تعد الآن مسودة لبرنامج تدريب خلوي بمنطقة كرري او خور عمر ، وان تحضرها الي مكتبي قبل نهاية اليوم !!

قال ذلك بصورة آمرة حاسمة ، حتي بدا لي انه ليس مصدر ذلك القرار ، وانه لابد قد صدر اليه من القيادة العامة ، اذ كان قبل ايام قلائل غير مقتنع بخروج قوة المدرسة للتدريب الخلوي ، وقد جري ذلك عندما كنا نناقش معه مسألة التطبيق العملي لمرشد تدريب الجيش ، فابدي جملة من الاسباب الوجيهة لاقناعنا برأيه المعارض ، من ذلك ظروف الطقس وقلة المعلمين وشح الذخيرة اللازمة للتدريب وحاجة الدارسين لمزيد من التدريب الداخلي والمحاضرات النظرية

راجعت العميد عبده في امره المفاجيء عسي ان [illegible] منه ما دعاه لتغيير قناعته السابقة ، ولكنه جبهني بقوله :

ـ هذا امر ، فلا تحاورني فيه .

قالها بلهجة اقنعتني تماما بانه قد تلقي ذلك الامر من جهة عليا وليس له الا فضل البلاغ والتنفيذ . فخرجت من عنده لاعكف علي اعداد [illegible]ج المطلوب ، ثم سلمته المسودة في حوالي الساعة الواحدة ظهرا . ومن [illegible] الرجل لم يلق نظرة علي المسودة ، وهذا لا يتسق مع ماعرفناه من [illegible] القيادي الفاحص المدقق ! بل اعادها الي وامرني بطباعتها علي ورق الرونيو وتنفيذ محتوياتها فورا . ثم طلب مني ان اتصل في نفس ذلك اليوم باركانحرب مكتب مدير فرع التدريب لاخطاره بخروج المأمورية ، وكان هذا الاركانحرب هو دفعتي (الرائد وقتها) مساعد النويري ، فحاولت مراجعته في ذلك ايضا بحجة ان خروج وحدة مسلحة للتدريب الخلوي يتم عادة بطلب من قائد السلاح الي مدير فرع التدريب وعلم الاستخبارات العسكرية ويجري التشاور حوله مع رئيس هيئة الاركان وبعلم القائد العام ، وكل هذه الاجراءات تتم علي مستوي قائد السلاح واولئك القادة العظام ، بينما يطلب هو مني ان اتولي كل ذلك علي مستوي شخصي واركانحرب فرع التدريب دفعتي !!

استمع العميد لما قلت بصبر نافذ ، حتي اذا فرغت عاد يامرني بصورة اشد حسما بان انفذ الامر كما صدر لي دون جدال ! فادركت انه ليس برما بمراجعتي فحسب بل بالامر ذاته ايضا ، وازددت ايمانا بان الامر صدر له عن غير اقتناع ، فقمت بتنفيذه وفق ما طلب .

في صبيحة اليوم التالي حضر الرائد خالد حسن عباس وحين اخبرته بما جري ثار ثوره عارمة ، اذ كان يشاطر العميد عبده قناعته السابقة بان الوقت لم يحن بعد لخروج المأمورية ، فاعتقد والحال كذلك باني انا الدافع المحرك لتلك المأمورية في فترة غيابه القصيرة ، ولم يبرئني من ظنونه الا حضور العميد الي المدرسة برفقة اركانحربه الرائد حمادة عبد العظيم ، ولعله قد جاء خصيصا للتأكد من سير الاجراءات ، فتحدث اليه الرائد خالد بما يفيد انه كقائد للمدرسة لن يتمكن من تنفيذ امر خروج قوة المدرسة بتلك السرعة المذهلة ، ثم شرع يردد نفس الاسباب التي اوردها العميد من قبل . ولكن العميد - وهذا ايضا يخالف طبعه الحليم وسجيته المتأنية في معالجة الامور - ثار في وجه خالد بصورة عنيفة مذهلة !! وهدده بوضعه في الايقاف الشديد وطلب نقله من السلاح اذا لم ينفذ الامر فورا !!

عندئذ تدخل الرائد حمادة وكان صديقا لخالد ويمت بصلة القربي للعميد في نفس الوقت ، فاستأذنه وصحب خالد علي مبعدة منه الي جوار مخزن للذخيرة ، حيث اقنعه بضرورة تنفيذ الامر علي علاته ، ولم تكن لحمادة - كما اعتقد - من خلفية سوي ان هذا الامر امر عسكري يتعلق ببرنامج تدريب خلوي لا مناص من تنفيذه .

وعاد بعد ذلك ليقنع العميد بعدم اتخاذ اي اجراء ضد صديقه خالد ، فكان بذلك بمثابة حمامة السلام بين الرجلين ، واستطاع بما له من صلات حميمة بهما ان يذيب ركام الغضب ويذيل سوء التفاهم الناجم عن ذلك الامر ، فعادا كما كانا صفيين من قبل .

صحبني خالد في نفس ذلك اليوم الي رئاسة الجيش حيث تجدد لقائي بالرائد مساعد النويري الذي سلمنا قرارا موقعا عليه من مدير فرع التدريب بالموافقة علي خروج المأمورية ، وكم ادركني العجب اثناء تواجدي برئاسة الجيش وانا المس اهتماما بالغا بخروج المأمورية الشيء الذي وضع امامي - في قابل الايام - العشرات من علامات الاستفهام ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟ وظل السؤال يطرق ذهني بلا رحمة : لماذا كان اصرار رئاسة الجيش علي خروجنا لمأمورية خور عمر؟! لماذا؟!

وازداد عجبي اضعافا في اليوم التالي اذ اندفع الرائد خالد بصورة غير

عادية للاسراع بتنفيذ المأمورية وهو في قمة الحماس والروح المعنوية ، بل لا اجاوز الحقيقة اذ اضفت كلمة الفرح في وصفي لحالته النفسية !! فقد طلب مني ان اصحبه برفقة الملازم عاصم جمال محمد احمد قائد فرع الاشارة بالمدرسة لنستكشف ونحدد مكان المعسكر ، بعد مفاضلة بين منطقتي كرري وخور عمر ، فوقع اختياره علي خور عمر بعد استكشاف سريع ، ثم عدنا ادراجنا لينخرط خالد من جديد وبنفس الحالة النفسية التي سبق وصفها في العمل علي تمكيننا من الخروج في الوقت المحدد الذي وافق اواخر شهر ابريل ١٩٦٩م . ويومئذ لم تكن تماثل فرحة خالد سوي ما يمكن تصوره من مشاعر سيدنا موسي عليه السلام وهو يخرج بقومه من مصر ينشد ارض الميعاد ! وقد تعمقت هذه الفرحة بما كان يطلقه الجند وصف الضباط من صيحات الروري وما يصدر عن المدرعات والآليات من ازيز رخيم وهي تعبر شوارع العاصمة وتصعد نحو قمة هرم الاحداث في مدارج التاريخ ولعل هذا (وغيره) ما كان يحرك مشاعر الرائد خالد ويدفعه لمزيد من النشوة والحماس .

اما انا فلم يدر بخلدي لحظتئذ سوي اننا نخرج في مأمورية تدريب عادية يتم تنفيذها مع قصور في الامكانات وتجاوز للاجراءات ، وبغير قناعة شخصية من قائد السلاح !! ورغم ذلك فها انا علي الدرب ومع الركب اسير ، ولم يكن ثمة مايدعوني الي التخلف والعصيان ، بل ما كان بوسعي ان افعل وقد اقسمت يمين الولاء والطاعة ان انفذ مايصدر لي من قائدي الاعلي برا وبحرا وجوا .

بلغت المسيرة غايتها اخيرا ، فاخذنا موقعنا بمعسكر خور عمر ، وعلي التو بدأنا نشاطنا التدريبي المكثف حسب ما وضعنا من برنامج ، وكنا ننتظر زيارة قائد السلاح لنا - كما جرت العادة - ليقف علي حال المعسكر ومجريات التدريب ، خاصة وقد كانت قوتنا قوة ضاربة رئيسية بالقياس الي حجم سلاحنا ، حيث كان بمعيتنا معظم مدرعات السلاح (صلاح الدين والفرت وحاملات الجنود الكوماندوز وقدر كبير من الذخيرة وتركنا خلفنا في معسكر السلاح بالشجرة الدبابات الروسية (ت٥٥) بحكم اننا لم نكمل تدريبنا عليها بعد ولم نتدرب عليها بالذخيرة الحية ، فبقيت كتلا من الحديد لا غناء فيها - بالنسبة لحال العمليات العسكرية حتي ذلك الحين .

وآية العجب ان العميد عبده حسين محروس ـ وهو القائد الحريص المدقق المحنك ـ لم يقم بزيارتنا في المعسكر علي غير عادته !! فلم اخف بالغ دهشتي عن الرائد خالد حسن عباس ، وقلت له :

ـ لقد سمعت العميد عبده حسين يقول انه لن يؤمن عربته المرسيدس الفارهة الا تأمينا اجباريا بحكم انه لايخطيء ابدا في قيادتها ، فاذا جاء الخطأ من غيره في حال حدوث حادث حركة فان من ارتكب الخطأ سيكون ملزما باصلاح سيارته ، فهل تراه يتعامل معنا وفقا لهذه القاعدة ؟!

سألني الرائد خالد :

ـ ماذا تعني ؟

قلت : اعني ان العميد ـ كما وضح لي جليا ـ لم يكن راغبا في خروجنا لهذه المأمورية ، بل فرضت عليه فرضا من رئاسة الجيش ، واحسب ان تخلفه عن زيارتنا ليس قصورا ولا تفريطا من جانبه ، ولكنه تعبير عن السخط والاحتجاج غير المعلن ، ولعله يريد ان يقول ـ بالفعل لا بالكلمات ـ انه غير مسئول عما يحدث لقوتنا الضاربة هذه (او منها) !!

ضحك خالد في سخرية وعلق علي ذلك بقوله :

ـ اريدك في معسكرنا هذا قائدا ثانيا لي وكبيرا للمعلمين وقائدا لجناح التكتيك ، ولاشيء اكثر من ذلك !

ثم اردف :

ـ اعني الا تحاول ان تكون فطنا المعيا ، فهذه حال قد تقودك الي تحليلات خاطئة انت ونحن في غنى عنها .

بدا لى انه تعمد ان يتخذ السخرية دثاراً يخفى جديته في الحديث ، وأن ما صدر عنه من قول هو امر عسكري واجب التنفيذ فقمت ووضعت يدي الي جانبي ـ كمن يقف انتباه) ، وقلت له ساخراً ايضا

ـ حاضر جنابك !!

نظر الي مليا كأنه يستبطن اعماقي ثم انصرف لقضاء بعض حاجيات معسكرنا بالخرطوم . بينما مضيت انا لمباشرة بعض الشئون الادارية ومن بينها خدمة الضباط النوبتجية ، فجعلت النوبتجية علي ضابط واحد فقط كل يوم ، ولقلة عدد الضباط في المعسكر وضعت نفسي في عداد من يقومون باعباء

النوبتجية ، وتخيرت ان اتولي نوبتجية يوم الجمعة المقبلة ايثارا للآخرين لاتيح لهم فرصة عطلة ذلك اليوم يقضونها بين اهليهم او فيما يرغبون من لهو ومراح .

في يوم من ايام الاسبوع الاول لشهر مايو ٦٩ عاد الرائد خالد حسن عباس عند منتصف النهار من رئاسة سلاح المدرعات ، وفور وصوله الي المعسكر طلب ان يجتمع بي علي انفراد في خيمته ، وهناك افضي الي بافادات منها ان معلومات قد وردت عن تأجيل الاب فيليب عباس غبوش وزمرته من العنصريين لموعد تنفيذ مخططهم التخريبي المرصود الي يوم ٢٥ او ٢٧ مايو الجاري ، وان رئاسة الجيش قد اوكلت الي سلاح المدرعات ضمن خطة احباط المؤامرة العنصرية ـ مهمة الهجوم المضاد علي الرئاسة عند تحرك العنصريين ، وقد اسند سلاح المدرعات هذه المهمة لقوتنا الضاربة بالمعسكر ، ورأي العميد عبده حسين ان اقوم انا شخصيا بوضع خطة الهجوم المضاد وقيادته ساعة التنفيذ ، كما اوكل للرائد خالد عدة مهام في هذا الصدد ، واضاف خالد :

ـ لذلك فان عليك يامحجوب ان تضع فورا خطة هذا الهجوم المضاد ، وهو سيكون ـ بطبيعة الحال عندئذ ـ في شكل تقدم للاشتباك ، اذ ان الهجوم المضاد بمعناه الاصطلاحي المعروف يتم عادة في الدفاع ، كذلك ينبغي ان تضع في الاعتبار ان هناك سرية مشاة بوادي سيدنا ستكون في معيتنا عند التحرك ، وعليه فاني ارجو ان تضع الخطة وتعرضها علي لنقوم بمناقشة تفاصيلها معا بغية الوصول الي اتفاق بشأنها في وقت مبكر .

ثم طلب مني ـ فيما يشبه الامر ـ ان يبقي امر الخطة والتحرك سرا حتي علي السادة الضباط فلا يعلمه احد قط ، وهذا امر صادر عن قيادة الجيش والسلاح امعانا في الحيطة والحذر .

قمت بوضع الخطة المطلوبة بعد ان اخذت بعين الاعتبار ما ابدي خالد من ملاحظات ، ثم عرضتها عليه واشتركنا معا في وضع لمساتها الاخيرة ، وقد شملت الخطة القوة العسكرية وكيفية التحرك والنواحي الادارية ، بحيث يكون في مقدورنا ان نتحرك في خلال ساعتين لتنفيذ المهمة المنوطة بنا . ومن عجيب المفارقات ان شعار تلك الخطة كان (النصرلنا) وقد اقترحه خالد ، وهو نفس الشعار الذي اقترحه فيما بعد لتحرك طلائع مايو من خور عمر !!

وفي ضحي يوم الجمعة من اوائل شهر مايو ١٩٦٩ توليت عمل الضابط

النويتجي ، وقبيل وقت الافطار كنت في خيمة الميز والي جانبي الجندي الفنان عمر الشاعر الذي استدعيته مع آلة عوده لتناول الافطار معي والترويح ببعض اغانيه وخاصة اغنية كسلا تلك المدينة التي ينتمي اليها كلانا ، وهذا الانتماء المشترك كان مصدر الالفة والود بيننا ، وهو الذي حطم كل الحواجز والفروق في اوقات الفراغ .

واذ كنت غارقا في نشوة الاستماع له وهويصدح باغنياته والحانه الشجية ، جاءني احد افراد الدورية ـ ليبلغني بان شخصين يرتديان الزي المدني يقتربان من موقع القرقول بالمعسكر ، وقد لوحظ انهما يتفقدان معالمه بكثير من الاهتمام ، ثم سألني عما آمر به من تصرف حيالهما ، فطلبت منه ان يدلهما علي موقعي ويصحبهما الي ، وخرجت في اثره من الخيمة ارقب الامر ، فاذا الوافدان هما صديقي فاروق عثمان حمد الله وسكرتير الحزب الشيوعي السوداني السيد عبد الخالق محجوب !!

تقدمت نحو الرجلين وتبادلنا التحيات وعبارات الود ، ثم دعوتهما الي خيمة الميز ، وقدمت لهما الفنان عمر الشاعر فعلق الاخ عبد الخالق قائلا :

ـ اري ان هذا المعسكر يضم كل انماط الكوادر حتي الابداعية !

وجه حديثه الي فاروق مداعبا ، فضحكنا لمقالته ، وانصرف عمر الشاعر اثر اشارة خفية مني وترك الرجلين في ضيافتي ، ابادر فاقول ان ذلك اللقاء بالاخ الثائر عبد الخالق محجوب لم يكن الاول بيننا ، وقد حدث ان التقيت به عدة مرات في صحبة الصديق فاروق ، وبمنزل مولانا بابكر عوض الله ، واذكر ان احد هذه اللقاءات جري عام ١٩٦٣م وانا برفقة فاروق ، حيث سلمناه منشورا لتنظيم الضباط الاحرار قبل طباعته وتوزيعه ، وكان نشاطه التنظيمي السياسي مدار حديثنا واسمارنا في كثير من الاحيان ، وفي قابل الايام اذكر ان فاروق في بداية عام ١٩٦٩ تقريبا حدثني في غير تحفظ ولا تكتم فردي ان صديقه محمد احمد سليمان ـ احد اعضاء لجنة الحزب الشيوعي المركزية ـ قد خصه بافادة فحواها ان الرفيق عبد الخالق قد جري اتصال وتنسيق بينه وبين حزب الامة جناح السيد الصادق المهدي علي التعاون بينهما لقلب نظام الحكم القائم واقامة نظام ديمقراطي سوي خلفا للائتلاف الحاكم الذي خرق الدستور وفرض علي البلاد ديكتاتورية مدنية ، ولكن هذا التعاون بين الطرفين لم يبلغ

غايته بسبب اختلاف وجهات النظر وقد تكتم السيد عبد الخالق علي هذا التحرك ولم يفض به للجنة حزبه المركزية رغم اهميته ، حتي واجهه به الرفيق محمد احمد سليمان في احد اجتماعات الحزب القيادية وادي ذلك الي مواجهة حامية وشجار عنيف بينهما حسمه عبد الخالق بانه ليس من اختصاص رفيقه محمد احمد سليمان ان يراقب نشاط سكرتير الحزب ويحصي عليه تصرفاته ويحاسبه عليها !!

اذكر ـ للتاريخ ـ انني التقيت فيما بعد بالاخ محمد احمد سليمان فأكد لي ما سبق ان رواه فاروق عن هذه المواجهة بينه وبين سكريتر الحزب الشيوعي ، ثم تهيأ لي ان التقي بالسيد الصادق المهدي في حضور الاخ التجاني عبد اللطيف مؤلف كتاب (الخيار الصعب) فأكد السيد الصادق الحدث ولكن بافادة مغايرة نوعا ما !!

نعود الي ذلك اللقاء بيني وبين الاخوين فاروق عثمان حمد الله والمناضل عبد الخالق محجوب بخور عمر ، حيث كانت البداية حوارا عاما عن شئون واحوال القوات المسلحة بصفة عامة ومعسكرنا علي وجه الخصوص ، واتضح لي من خلاله ان فاروق علي علم بكل تفاصيل معسكرنا ، ويحاول ان يبسط معلوماته بين يدي رفيقه عبد الخالق فكان يطرح الاسئلة ويتولي الاجابة عليها دون ان ينتظر مشاركة مني في هذا الطرح المتعلق باسرار قوتنا ، وكمثال لذلك وجه الي سؤالا فقال :

ـ طبعا يامحجوب هذه هي القوة الضاربة الرئيسية بسلاح المدرعات اليوم ، ومعها ذخيرتها الحية .

ثم ينصرف عني الي رفيقه عبد الخالق ليجيب علي سؤاله :

ـ الدبابات الروسية لم يكتمل التدريب عليها بعد ، بسبب تلكؤ المعلمين الروس في التدريب ، كما انها تفتقر الي الذخيرة اللازمة للتدريب .

ويفتعل ضحكة ساخرة ليواصل :

ـ اهلكم الروس يابركة زيما عارف مابيدوا اسلحتهم ومعداتهم الا بشروط صارمة ، ومع ذلك فهم يرسلونها وهي تفتقر الي الذخائر والاسبيرات ومعدات التدريب حتي يجعلوا الدول المتلقية لهذه الاسلحة في حاجة وارتباط دائم وصلات حميدة معهم ، والا اصبحت هذه الاسلحة كتلا من حديد في يد

متلقيها .

وهكذا الحال مع كل الافادات الاخري ، فيما عدا غير السرية التي ينتظر اجابتي عليها ، مثل السؤال عن خالد وبعض الشئون العامة التي لاصلة لها بالشئون العسكرية .

وعند فراغ الاخ فاروق من اسئلته وافاداته الموجهة لعبد الخالق التفت اليه في جدية وحزم وجبهه بالسؤال :

ـ اها يا بركة ايه رأيك ؟

فاجاب عبد الخالق في غير اكتراث لوجودي :

ـ لا مانع لدي من حيث المبدأ ، ولكن سأعود في هذا الشأن للتشاور مع الاخوة القياديين ، وهذا بالطبع لا يتعارض مع استمراركم في العمل الثوري ، ولكن مع ذلك فان لي شروطا لابد من قبولها من اجل الموافقة النهائية علي مشاركة حزبنا وكوادره العسكرية في تحرككم .

هنا اتجه اليه فاروق بكلياته ينتظر سماع تلك الشروط بعد ان سأله عنها ، فاوجزها عبد الخالق فيما يلي :

اولا : نتولي نحن قيادة العمل الوطني والتنفيذي ونعد الميثاق السياسي والخطة الاقتصادية .

ثانيا : ان يعدل اسم جمهورية السودان ليصبح جمهورية السودان الديمقراطية ، اشارة الي توجهها الاشتراكي الديمقراطي ، وان يستبدل علم البلاد الحالي بعلم اكثر ثورية .

ثالثا : ان تنتهج سياسة خارجية متلائمة ومتجاوبة مع العالم الاشتراكي الحر ، فيتم علي الصعيد الخارجي الاعتراف الفوري بالدول الاشتراكية التي لايعترف بها المعسكر الغربي ، ولتأكيد هذا الاعتراف لابد من اصدار امر ثوري باغلاق معهد جوتة الذي تتخذه المانيا الغربية مركز تجسس ومخلب قِط في الخرطوم .

رابعا : ان تتخذ اجراءات اشتراكية فورية ، كالمصادرة والتأميم وتمكين العمال من السيطرة علي ادوات الانتاج الكبري ، فالارض لمن يفلحها وقيادة المصانع للقوي المنتجة .

لم يطق فاروق صبرا فقاطعه بقوله :

ـ يابركة نحن نتحدث لغة مشتركة ولاخلاف بيننا في هذا الطرح الثوري

هنا تدخلت انا بعد طول سماع وقلت :

ـ يا جماعة انتو بتقولوا في شنو ؟ انتو عاوزين تستخدموا معسكرنا ونحن ماعرفين واللا ايه ؟! صعقت كلماتي عبد الخالق فنظر الي في دهشة وتعجب ، ثم اتجه الي فاروق يسأله :

ـ هو الاخ محجوب مش من الاحرار ؟

فاجابه فاروق ساخرا :

ـ ايوه هو من الاحرار ، بس قديم شوية وما مواكب . عندها عاد عبد الخالق ينظر الي والدهشة ما زالت ترتسم علي ملامح وجهه ، وسألني في تردد :

ـ يا اخ محجوب ، باعتبارك احد الاحرار هل يضيرك في شيء ان تقود القوي التقدمية مسيرة العمل الوطني ؟ اعني بالتحديد ، هل تري غضاضة في ان يتولي الحزب الشيوعي دفة الحكم في البلاد ؟

قلت له علي الفور :

ـ قطعا لا يضيرني هذا ... كنه لن يحدث ، واذا حدث فلن يكتب له البقاء .

فغر عبد الخالق فاه عجبا ... يسألني :

ـ ما الذي يمنع حدوثه ؟

اجبته بقولي :

ـ لقد تعلمت حكمة من الرئيس عبود ، مفادها ان اي قوي وطنية او عسكرية لا تستطيع ممارسة الحكم والقيادة مالم تمتلك ما يوازي نسبة ٧٠٪ من السند والتأييد الشعبي كرصيد دائم ، اما الـ ٣٠٪ المتبقية فهي تمثل القوي التي تضار مصالحها الشخصية وعقائدها وتوجهاتها السياسية بمستجدات الامور ، ولا خطر ابدا من قيامها بدور المعارضة ، وهي لا تفسد للود قضية .

نظر الي عبد الخالق مليا ثم سألني :

ـ او تظننا لا نحظي بهذه النسبة من السند الشعبي ؟

قلت له :

ـ نعم هذا ما اعتقده ، ونتائج الانتخابات الديمقراطية منذ الاستقلال خير شاهد واصدق برهان .

هنا فوجيء فاروق بصديقه عبد الخالق يعلق قائلا :

- صوت العقل يتحدث ، وانا اتفق معه تماما !!

ثم اتجه نحوي وواصل الحديث :

- اسمع يا اخ محجوب ، انا معك كما تري ، وما سمعته من حديث وحوار هو فقط من نوع التفكير بصوت مسموع ، ولكنا بالقطع لا نعني ، مانقول ، واريد ان اؤكد لك حقيقة هامة ، ان مبادئنا وتوجهاتنا في الحزب الشيوعي تقف مناوئة لحركة الانقلابات العسكرية فاذا سمعت احدا يزعم ان الحزب الشيوعي السوداني سيقوم بانقلاب عسكري فلا تصدقه .

وتولي فاروق دفة الحديث فحاول اقناعي بان ما دار من حوار انما يمثل قناعاته الذاتية ولا يعبر عن فكر الحزب الشيوعي السوداني ولا حركته السياسية او التنظيمية ، وان قوة معسكرنا لا ولن تستخدم في عمل انقلابي ، او كما قال .

انصرف الاخوان عبد الخالق وفاروق ، وتركاني في بهمة بين الشك واليقين!! حتي جاء الاخ خالد حسن عباس في المساء وافضيت له بكل ماحدث ، فلم يكترث للامر كثيرا ، غير انه بدا حريصا علي نفي جدية التحرك عن صديقه فاروق فقال :

- انت عارف فاروق يا محجوب حين تستمع اليه في مثل هذه الاحوال والاحاديث . يقع في روعك انه سيقوم بانقلاب عسكري بعد ساعة او اقل ، وما ذلك الا لفرط حماسته وتشبعه بهموم الوطن وغيرته عليه ولكنه دائما لا يعني مايقول :

فتلاشت ظنوني بهذا التأكيد الذي ابداه خالد ، فانصرفت الي مهام التدريب وقيادة العمل الروتيني بالمعسكر ، وفي اليوم التالي - السبت - رجع خالد في حوالي الساعة الثانية عشرة ظهرا وطلب مني ان القاه بخيمته علي انفراد ، وهناك حدثني انه علي اثر اجتماعه بالعميد عبده حسين محروس صدر له الامر بضبط وتحديد تحركاتي ، حتي اكون متواجدا بالمعسكر عند الحاجة الي قيادة الهجوم المضاد المزمع ، لانه - برغم توافر المعلومات عن تأجيل العنصريين لموعد تنفيذ مخططهم الا انه لابد من التزام جانب الحيطة والحذر ، وان نكون علي اهبة الاستعداد في كل حين . ثم اردف خالد بانه قد امر بتعيين عربة

عسكرية واحد صف الضباط لقيادتها ليكونا تحت تصرفي في اي تحرك اقوم به ، حتي يكون قائد العربة علي علم بمكان تواجدي دائما وابدا - ولهذا فهو - اي خالد - يامرني بتسليم مفتاح عربتي الخاصة له ، كما يأمرني بعدم مغادرة المعسكر الا باذن منه شخصيا !! علي ان يبقي هذا الامر ايضا سرا بيننا .

فقلت له ساخرا :

- انا بوصفي قائد ثاني المعسكر الذي يمنح الضباط والرتب الاخري الاذونات بالخروج اصير في حاجة لمن يمنحني اذنا ؟!

رد خالد بقوله :

- هذه هي سنة نظمنا العسكرية ، كذلك لا تنسي انني قائد هذا المعسكر

قال ذلك في جد وصرامة وبصورة غير عادية ! ولكن - رغم ذلك - لم يخطر ببالي امر سوي حرصه المفرط علي تنفيذ الامر الصادر له من قيادة الجيش والسلاح وهو الامر الخاص بخطة وتحريك قوة الهجوم المضاد . ولكني - في قابل الايام - عرفت منه هو شخصيا ومن الاخ فاروق حمد الله ان تلك الاجراءات التحوطية الخاصة بتقييد حركتي في ذلك الظرف املاها موقفي غير المتجاوب عند زيارة هذا الاخير ورفيقه المناضل عبد الخالق محجوب للمعسكر . كما افضيا لي ايضا - اعني خالد وفاروق - ان رأيهم قد قر علي استبعادي من التخطيط والتدبير لثورة مايو ، تحوطا لما قد يصدر عني من تحرك مضاد يؤدي الي تعويق او احباط الحركة قبل تنفيذها . وصارحني خالد ايضا بانه حاول ان يتلمس عذرا لتحديد اقامتي بصفة دائمة بالمعسكر ، ولكنه خشي تعنتي في قبول ذلك فعدل عن رأيه خوفا من افتضاح المحاولة وما وراءها ، غير انه - امعانا في الحيطة والحذر - طلب من الرائد مأمون عوض ابوزيد ان تجري مراقبتي بصورة دائمة ومحكمة بواسطة جهاز الاستخبارات العسكرية ، فقام هذا بالمهمة خير قيام .

تضايقت كثيرا - في بادئ الامر - من تلك الاوامر التي تقيد حركة خروجي من المعسكر ، ولكن لم البث ان استسلمت لواقع الحال ، وبقيت كذلك حتي منتصف مايو ، حين تم خروجي بتدبير من الرائد خالد نفسه الذي حرص ان يجعله غير مباشر ومحدود الغاية والهدف ، اذ اقترح علي الذهاب الي منزلي

لزيارة اهلي بعد طول غياب ، وتكفل بالبقاء بالمعسكر حتي اعود ! فغادرت بصحبة العريف محمد صلاح علي متن عربة اللاندروڤر العسكرية .

في المساء قام صديقي فاروق عثمان حمد الله بزيارتي في منزلي وقد علمت في قابل الايام ان تلك الزيارة كانت مدبرة اوعز بها فاروق لخالد فخرجت للقائه الذي وافق وجود صهري العم خالد بشير وجاره العم الباقر الفكي عبد الله الشهير بالباقر افندي اللذين درجا علي اللقاء يوميا في الامسيات ، فتبادلنا عبارات التحية والود وانتظمنا مجلس واحد بحكم الضرورة ، وتشعب بنا الحديث - وبين ايدينا اكواب الشاي - حول قضايا الساعة السياسية وتركز بصفة خاصة علي انتخابات رئاسة الجمهورية المقبلة ، فحدثنا صهري خالد بشير - وهو كما قلت من شيوخ الانصار بحزب الامة جناح السيد الصادق المهدي - ان الاستعداد يجري علي قدم وساق في اروقة الحزب بجناحيه للاحتفال بتوحيد الحزب بعد نبذ الخلاف ، اثر مؤتمرا للوفاق الذي عقد بدار قبة الامام المهدي وادى الي تصفية اسباب الفرقة والشحناء ، ومن ثم سيدخل حزب الامة معركة الانتخابات قويا ليكسب الجولة الانتخابية علي المستويين البرلماني والرئاسي بما له من رصيد وثقل في قواعد الناخبين .

وعن علاقة السيد الصادق المهدي بعمه الامام الهادي حدثنا صهري فقال :

ان المحبة بينهما قد حلت محل العداوة السياسية ، وان الوئام يسود علاقتهما الشخصية بعد ذلك الصراع المقيت وقد عادت مياه الود بينهما صافية بغير اكدار .

فحركت افادته دواعي الغيرة الحزبية والطائفية في نفس العم الباقر ، وهو من اتباع طائفة الختمية واحد اقطاب الحزب الاتحادي الديمقراطي المنافس لحزب الامة فقال مؤكدا :

- ان جماهير الشعب السوداني الواعية المدركة لن ترضي بغير الاتحاديين وزعامة الختمية بديلا ، ومع ذلك فاني اري - حرصا علي وحدة الشعب ومصلحته - ان يتم التنسيق والائتلاف بين زعامتي الختمية والانصار وحزبي الامة والاتحادي الديمقراطي في الانتخابات القادمة ، حتي يفوتوا الفرصة علي اعدائهم العقائديين المتمثلين في الاخوان المسلمين والشيوعيين والقوميين العرب

، الذين يؤيدون ترشيح السيد بابكر عوض الله ويساندونه بدعم من الشقيقة مصر .

ثم التقط انفاسه واردف :

- لعلكم تعلمون انني وثيق الصلة بالسيد بابكر عوض الله ، فانا خاله ، ولكني - رغم صلة الرحم - لا اؤيد اقتحامه لمعترك العمل السياسي ولا ارضاه ، ففي رأيي ان المناخ الصحي والمجال الطبيعي لبابكر عوض الله هو منصة القضاء لادست الحكم ومعاطن السياسة . واذ كنا نتابع العم الباقر بكثير من الاعجاب لفرط غيرته الوطنية وصراحته في الراي ، اضاف يقول :- ان الامام المهدي - عليه السلام - ينتمي بنسبة الي الامام الحسن بن علي رضي الله عنهما ، اي انه من الاشراف الحسنية وانّ مولانا السيد علي الميرغني يرجع نسبه للامام الحسين بن علي كرم الله وجهه ، فهو من الاشراف الحسينية ، وهذا يعني ان كليهما من اشراف آل البيت ، ولما كانت ولاية الحكم وقيادة المسلمين حق ديني مكتسب لاهل البيت دون سواهم فاني اري ان الوضع الطبيعي الصحيح يقتضي بإئتلاف زعامتي الختمية والانصار وتحالف قواهما السياسية والطائفية سبيلا الي حكم السودان .

هنا آثر فاروق ان يدلي بدلوه ليفجر حوارا يعوزه السند ، ولكنه رغم ذلك ترك اثره في الحاضرين ، قال :

- ان هناك رأيا يقول ان الخلاف بين جناحي حزب الامة سيظل قائما وان الصدع في بيت الامام المهدي سيبقي طويلا رغم محاولات الحادبين من الانصار وشيوخهم علي رأبه ، طالما ان هناك بعض القوي والافراد الموثرين في قيادة الحزب سيضارون حتما من قيادة السيد الصادق وزعامته السياسية المرتقبة ، وطالما ان الامام الهادي لن يرضي ولن تقف مطامحه عند حدود الزعامة الدينية ورعاية الحزب ، يؤكد ذلك اصراره علي ترشيح نفسه لرئاسة الجمهورية المرتقبة فاذا فشل في بلوغ منصب الرئاسة عادوا لمألوف خلافهم وتناحرهم ، وهذا - والحديث مايزال لفاروق - ما يجعلني لا اطمئن كثيرا علي سلامة الموقف في الانتخابات المقبلة لرئاسة الجمهورية !! ثم بدا لفاروق ان يؤكد ذاتيته في ذلك الطرح الخطير فقال :

اعتقد ان بعض القوي الحزبية تسعي لكسب ود القوات المسلحة وضم

بعض الضباط المغامرين الي صفوفها فيما يشبه التنظيم السياسي العسكري بهدف الاستيلاء علي سلطة الحكم في البلاد عنوة اذا ما سارت الامور علي غير ماتؤمل وتريد .

فاجأ العم خالد فاروق بسؤال مباشر عما اذا كان يستند في افادته تلك علي دليل او برهان ملموس !!

فجاء رد فاروق بان ما ادلي به هو استقراء للواقع السياسي وتحليل من عنده قائم علي مايصدر ويتردد من اشاعات !

هنا اطمئن العم خالد علي موقف حزبه السياسي بحسبان ان ماطرحه فاروق مجرد تحليل واجتهاد من وحي خياله الجموح . وهو ما اعتقدته انا ايضا في تلك اللحظة .

ولم اجهد عقلي كثيرا لكشف ماوراء الحديث من غايات مرصودة ، وربما جاء ذلك من قبيل السهل الممتنع ، وبعدها انفرد بي فاروق وحاول اقناعي دون جدوي بالعودة الي صفوف تنظيم الضباط الاحرار ، فلما فشل في ذلك اوهمني ان التنظيم في حاجة الي ملكاتي العلمية والادبية ولاشيء غير ذلك واخذ يؤكد ويرسخ هذا المفهوم في مخيلتي ثم ودعني وانصرف وعدت انا من بعد الي المعسكر برفقة العريف محمد صلاح .

واثناء بقائي بالمعسكر ، اثارانتباهي ان اتصالات غير عادية كانت تتم بين الرائد مأمون عوض ابوزيد وخالد حسن عباس عن طريق رسل من الاستخبارات العسكرية توالي مجيئهم علي عربة الاسخبارات ، وكان خالد شديد الاحتفاء بمقدم هؤلاء الرسل ، فيخرج بنفسه لاستقبالهم او يصحبهم ويبقي معهم علي انفراد ! وعندما سألته عن ذلك افادني بان الرائد مامون يقوم بمراقبة ورصد تنظيم الزنوج الاحرار ، وانهما يتعاونان في ذلك حسب اوامر رئاسة الجيش التي اناطت بقوة معسكرنا مسئولية التحرك العسكري المضاد ، وبالطبع كان هذا التفسير المنطقي كافيا لاقناعي . ثم لاحظت ان الرائد خالد قد انزعج كثيرا لسفر مأمون في صحبة الرئيس ازهري خلال رحلة افريقية مبرمجة ، حتي لكأنه قد ترك فراغا امنيا لا يملؤه سواه ، كما لاحظت ايضا ان الرسل والرسائل قد توقفت تماما في غياب مأمون !! كانما الخطر العنصري لم يعد له وجود !! ثم عاد ذلك النشاط الرسولي لانتظامه اثر عودته .

مع ذلك لم اجهد نفسي كثيرا في تفسير هذه الظواهر المثيرة ، ربما لمعرفتي باواصر القربي التي تربط بين خالد ومأمون ، فاعتقدت ـ والحال كذلك ـ ان اتصالات الرجلين مزيج من مهام العمل والشئون الشخصية ، وكم ادركني العجب ـ فيما بعد ـ حين عرفت ان مأمون كان هو الدينمو المحرك والطاقة المنظمة لكل اجتماعات الضباط الاحرار وغيرهم ممن شاركوا في صنع الحدث ! فبحكم موقعه في جهاز الاستخبارات العسكرية كان هو المنظم والمدبر لازمنة وامكنة تلك الاجتماعات والمشاركين فيها وهو الحفيظ علي امنها وسريتها ، وقد وقفت علي تفاصيل ذلك في وقت لاحق ، غير اني حين ازمعت ان اسطر هذا الجانب من الاحداث واذكر الذين قاموا به خدمة للحقيقة والتاريخ نصحني بعض الاخوة القانونيين بتجاوز ذلك حفاظا علي امن وسلامة اولئك النفر من المساءلة القانونية والجزاء العسكري ! بعد ان اضحت المشاركة في تدبير وتخطيط ثورة مايو ١٩٦٩م جرما يستوجب المساءلة والعقاب ، هذا من ناحية ، ومن ناحية اخري فان مايمكن ان اسجله عن تلك الاجتماعات والعناصر التي اشتركت فيها من قبيل البينة السماعية بحسبان اني لم اكن طرفا مباشرا فيها رغم ان سماعي لتلك الوقائع جاء من افواه صناعها او شهودها الحاضرين ، ويقيني ان بوسعهم ـ عند الملمات ـ ان يتنصلوا عنها ويتبرأوا من صدورها عنهم دفعا للضرر كما فعل بعضهم وهو يدلي بافاداته اثناء محاكمة مدبري ثورة مايو بعد سقوطها !! ويكفي للتدليل علي ذلك قول احدهم وهو يدلي بافادته علي اليمين امام المحكمة بل واجهزة الاعلام المسجلة ، وكان وزيرا للحكومة المحلية في اول وزارة تشكلت صباح ٢٥ مايو ١٩٦٩م ، قال :

ـ اني ومعي فاروق ابو عيسي ـ وكان وزيرا لشئون الرئاسة في نفس الوزارة ـ ومعنا محمود حسيب ـ وكان وزيرا للمواصلات ـ كنا نسهر في منزل مولانا بابكر عوض الله رئيس الوزراء ونائب رئيس مجلس قيادة الثورة حتي الساعة الحادية عشر والنصف ليلة ٢٤ مايو ١٩٦٩م ثم تفرقنا ونحن لا نعلم شيئا عما يجري تدبيره وتخطيطه من انقلاب عسكري !

هكذا !!! يا للعجب العجاب !!

وآخران انكرا كل صلة لهما بمايو واحداثها وافرادها ، في حين ان احدهما هو الذي كتب البيان الاول الذي اذاعه الرئيس جعفر نميري علي الامة السودانية

معلنا نجاح العناصر الثورية في الاستيلاء علي السلطة ، اما الآخر فهو الذي صاغ البيان الذي كان يفترض ان يدلي به الرائد فاروق حمد الله وكلفت انا بالقائه عبر التلفزيون !

عجبي للناس في هذا الزمان !

تري لو ان تاريخ ثورة مايو قدر له ان يكتب ويسجل ومايو في اوج سلطانها ومجدها وهؤلاء المتنصلون في مواقعهم السلطوية فيها ، فهل كانوا يسمحون باغفال ادوارهم واسمائهم وبطولاتهم في صنع ذلك التاريخ ؟!

لهذا اجدني مكرها ان احجم عن كشف هؤلاء المتبرئين من ثورة مايو وادوارهم فيها ، ولكنني اسجل للتاريخ كل حدث كنت طرفا فيه بصفة مباشرة ، او كنت منه علي دليل ويقين ملموس .

من ذلك مثلا ان تنظيم الضباط الاحرار بعد ثورة اكتوبر ١٩٦٤م اخذ شكلا ومضمونا وطنيا متطورا ، مع احتفاظه بقيادته وهياكله ومخططاته واهدافه وسماته القديمة ، ولعل وجه الخلاف الوحيد في هذه المرحلة من تاريخه هو تخلي بعض الاعضاء القدامي عنه وانضمام عناصر جديدة اليه ، ولما كنت ممن آثر الانسلاخ عن عضويته كما ذكرت غير مرة فان ما ادلي به هنا عن التنظيم وحركته استقيته مباشرة من الاخ فاروق عثمان بعد ان اصبحت مايو واقعا يحكم الحياة والاحياء في السودان ، وبعد تجدد انضمامي للتنظيم لفترة قصيرة مؤقتة اقتضها ظروف المرحلة السياسية آنذاك .

ورد في افادات فاروق انهم خططوا لتفجير ثورة مايو بائتلاف واتفاق ثلاثة قوي هي تنظيم الضباط الاحرار يتضافر معهم ويساندها بعض ضباط وصف ضباط القوات المسلحة من خارج التنظيم ثم الحزب الشيوعي السوداني وخاصة قيادته السياسية والعسكرية ، ثم القوميين العرب تساندهم مصر وقيادتها الثورية بزعامة الرئيس جمال عبد الناصر ، غير ان هذه المساندة جاءت بصورة غير مباشرة حتي لا يتحرج موقف القيادة المصرية وتتأزم العلاقات بينها وبين السودان في حالة فشل المحاولة الانقلابية ، وهذا ما دعا الرئيس جمال عبد الناصر الي استبعاد الافراد والعناصر ذات الانتماء المصري من الاضطلاع بالادوار التنفيذية للانقلاب العسكري ، وفي مقدمة هؤلاء الاخوان محمد واحمد عبد الحليم رغم اشتراكهما في مراحل التخطيط والتدبير والاتصالات

السياسية والعسكرية .

كذلك افضي الي الاخ فاروق انهم رأوا - في مرحلة التخطيط - ضرورة الالتزام والتنفيذ بمخطط واهداف تنظيم الضباط الاحرار قبل ثورة اكتوبر ٦٤ وان جاءت الاحداث بغير ذلك بعد تفجير الثورة في مايو . وقال ايضا انهم رأوا اسناد قيادة الثورة لشخصية مدنية لابعاد شبح الحكم العسكري عن اذهان جماهير الشعب ، وهذا ما دعاهم لاسقاط فكرة تعيين حكام عسكريين علي الاقاليم ، دفعا للتشابه بين النظام الثوري الجديد ونظام حكم الرئيس عبود فيما مضي .

ولتحقيق الشق الاول الخاص بتولي شخصية مدنية لامر القيادة - قال فاروق - انهم استعرضوا وفاضلوا بين عدة اشخاص ، منهم رئيس القضاء مولانا بابكر عوض الله ، وقد جري الاتصال به بواسطة المقدم (اللواء فيما بعد) احمد عبد الحليم ، فاستطاع اقناعه بالمهمة الصعبة ، ولكن الرائد خالد حسن عباس عاد واعترض علي مسألة تولي شخص مدني لقيادة الثورة ، خاصة بعد حضور العقيد جعفر محمد نميري من جبيت للمشاركة في صنع الحدث - فجرت اجتماعات تنظيمية متلاحقة في محاولة لاختيار شخصية عسكرية لتقلد ذلك الدور الهام ، ودار الحوار والنقاش حول عدد من الشخصيات العسكرية ، من بينها اللواء احمد الشريف الحبيب والعميد عمر الحاج موسي والعميد محمد الباقر احمد . ولكن عضو التنظيم (الملازم وقتها) سيد احمد عبد الرحيم ابدي اعتراضا قويا علي اختيار شخص من خارج التنظيم لقيادة الثورة ، بحجة ان كبار الضباط لا يؤمن جانبهم ! خاصة اذا ماعرفوا هوية الحركة وكيفية التخطيط والعناصر التي ستقوم بتنفيذ الثورة والوقت المحدد لذلك . وتحسبا لهذا وغيره من العواقب اقترح صاحب الاعتراض ان يتولي جعفر نميري - باعتباره الاقدم رتبة بين الاعضاء التنظيميين - منصب رئيس مجلس قيادة الثورة . وبعد نقاش مستفيض وجدال محتدم بين الاعضاء المشاركين في تلك الاجتماعات قر رأيهم علي سلامة الاختيار ، واستطاع كل من الرائد خالد حسن عباس وفاروق عثمان حمد الله اقناع العقيد نميري بقبول الدور التاريخي !!

ولما كان قد سبق اخطار مولانا بابكر عوض الله باختياره لهذا المنصب الكبير ، فقد جري الاجتماع به في منزله بامتداد الدرجة الاولي بالخرطوم ، في

محاولة من وفد التنظيم اليه لاقناعه بضرورة اسناد الدور لشخصية عسكرية انعقد عليها الاجماع وهي شخصية العقيد جعفر نميري ، علي ان يتولي هو موقع نائب رئيس مجلس قيادة الثورة ورئيس مجلس الوزراء ، لم تكن المهمة سهلة ، ولكن الرائد خالد حسن عباس استطاع اقناعه بالامر .

ثم تولي الرائد فاروق حمد الله بعد ذلك مهمة اقناع القوي السياسية المشاركة في التخطيط - وقد سبق ذكرها - ومن يقف وراءها بضرورة التسليم بما انتهي اليه الحال ، فاضحي الرئيس نميري هو الرئيس المرتجي . وبعد المامه بكل قوي وادوات وتفاصيل المخطط وتدارسه مع القياديين ، قام بزيارتنا في خور عمر ليتسني له استكشاف المعسكر والاتصال المباشر بافراده من غير اعلان .

كان يستقل عربة الرائد محمود توفيق الفلوكسواجن وهو اي محمود توفيق تربطه به صداقة حميمة قبل الثورة ، ثم اضحي بعد تفجيرها من رعيل ضحاياها الاوائل ، حيث ابعد من القوات المسلحة بلا ذنب او جريرة ، ولم تشفع له صداقته ولا تضحياته من قبل - ويقيني انه - لو تم احباط الحركة في مهدها - لكان من المبعدين من القوات المسلحة ايضا لشبهة استخدام عربته الخاصة في الاتصال بمعسكر خور عمر الذي قام بتنفيذ المخطط الانقلابي ولا يختلف حال الرائد محمود توفيق في ذلك عن الكثيرين امثاله ممن استخدم قادة مايو ذواتهم وقدراتهم وادواتهم الخاصة ، ثم اضحوا بعد ذلك ضحايا لنشوة النجاح وغدر الرفاق !!

في زيارة العقيد جعفر نميري الثانية لمعسكر خور عمر اطلق اشاعة دعمها الرائد خالد حسن عباس ، مفادها انه سيجري نقله في تلك الايام من مدرسة المشاة بجبيت الي سلاح المدرعات ، وان اجراءات النقل ربما تتم رسميا باشارة مستعجلة ، بعد ان اخطره بذلك مدير ادارة الجيش شفاهة ، وقد حرص الرائد خالد حسن عباس علي تأكيد هذه الافادة لدي الضباط في اليوم التالي ، وكان يهدف من وراء ذلك اضفاء صفة القائد علي شخص نميري عند قوات خور عمر ، حتي يسلس له هؤلاء قيادهم في الوقت المناسب .

وفي تلك الزيارة ايضا ، دار الحديث وتركز بصفة خاصة علي تسليح الجيش وحال قيادته والوفد العسكري الذي يقوده اللواء محمد ادريس عبد الله في زيارة مزمعة لدول المعسكر الاشتراكي لعقد صفقات تسليح معها ، فابدي

نميري اهتماما بالغا برحلة ذلك الوفد ، ولم يكن لنا سابق علم بها الا منه ، حيث اطلعنا علي تلك الزيارة بصورة عفوية ، فعلمنا - من فحوي افادته - ان السيد رئيس الوزراء ووزير الدفاع محمد احمد محجوب وكذا وزير الخارجية الشيخ علي عبد الرحمن الامين يبديان اهتماما عظيما بسفر الوفد في الوقت المناسب ، وقد تمكنا من اقناع اللواء محمد ادريس عبد الله بقيادة الوفد ، بعد ان اعتذر عن تلك المهمة في باديء الامر .

كنت انا استمع لتلك الافادات ولم يخطر ببالي - فيما يتصل باقحام وزيري الدفاع والخارجية في الموضوع - سوي انهما يسعيان لتحقيق كسب سياسي من وراء تسليح الجيش ، ولكني - في قابل الايام - وقفت ومازلت اقف امام علامة استفهام كبيرة لا اجد لها جوابا وهي :

- لماذا كان اهتمام واصرار وزيري الدفاع والخارجية علي خروج قوة المدرعات الي معسكر خور عمر ؟! وذلك بالرغم من اعتراض قائد سلاح المدرعات العميد عبده حسين محروس علي تلك المأمورية ؟؟!

وثمة سؤال آخر :

- لماذا اردف ذلك الاهتمام والاصرار بمسألة سفر وفد عسكري عال الي خارج السودان في تلك الآونة بالذات ؟!

وقد حاولت ان استشف الاجابة علي هذين السؤالين - فيما بعد - من الاخوة فاروق وجعفر نميري وبابكر عوض الله وخالد حسن عباس ، ولكنهم جميعا اعتصموا ولاذوا بالصمت امام هذا السؤال التاريخي المحير ، ومازالوا يفعلون ! وهذا ما يجعلني لا اجزم باتهام الوزيرين بالمشاركة في التخطيط والتدبير لثورة مايو خاصة بعد مالحق بهما من غبن وضرر من قادة مايو بعد تفجيرها وماسجله قلم المحجوب من نقد لاذع وهجوم عنيف علي مايو وقادتها ومن سلك طريقها بين الناس .

ولكن ، رغم ان كل هذا وغيره قد يصل بنا الي قناعة بخلو طرف المحجوب والشيخ علي عبد الرحمن من اية رابطة او علاقة سياسية بثورة مايو وقادتها الا ان هناك حدثا بعينه لم اجد له تفسيرا مقنعا ، وخلاصته انني - في حوالي النصف الاول من شهر ابريل ١٩٦٩م قمت بزيارة صديقي فاروق عند الاصيل ، فالفيته في عجلة من امره ، وافضي الي انه علي موعد جد هام

بالفندق الكبير بالخرطوم ولن تمكنه عربته من الوصول في الوقت المناسب لما بها من عطل ، وطلب مني ان اصحبه بعربتي .

وفي الطريق الي مكان اللقاء ، اخذنا نتحدث عن بعض الشئون السياسية ، فحدثني فاروق عن علاقة حزب الامة جناح السيد الصادق المهدي بسكرتير الحزب الشيوعي السيد عبد الخالق محجوب (وقد سبق ذكرها) واضاف ان موعده ذلك الهام ذو صبغة سياسية رفض ان يفصح عنها ،

وفي الموعد المضروب ، وقفت امام الفندق الكبير سيارة مرسيدس يجلس في مقعدها الخلفي كل من السيد محمد احمد المحجوب رئيس الوزراء والشيخ علي عبد الرحمن وزير الخارجية آنذاك ، فتركني فاروق واتجه نحو العربة واخذ موقعه فيها الي جوار السائق وانطلقت بهم .

الفيتني ساعتها في حيرة من امري يعتصرني الفضول وحب الاستطلاع ، وظللت علي تلك الحال حتي تجدد لقائي بفاروق من بعد ، وتحت وابل من الالحاح والاصرار علي معرفة حقيقة ذلك اللقاء اجابني فاروق بغير اكتراث بان الامر يتعلق بتعيينه مستشارا بوزارة الخارجية !!

جدير بالذكر ان الاخ فاروق كان يزمع ان يسجل مذكراته اثر ابعاده من قيادة مايو ، ولكن الدهر لم يسعفه ليتم ذلك ، فضاعت بذهابه ولاشك صفحات كان يمكن ان تكشف القناع عن الكثير من الحقائق التاريخية الدامغة .

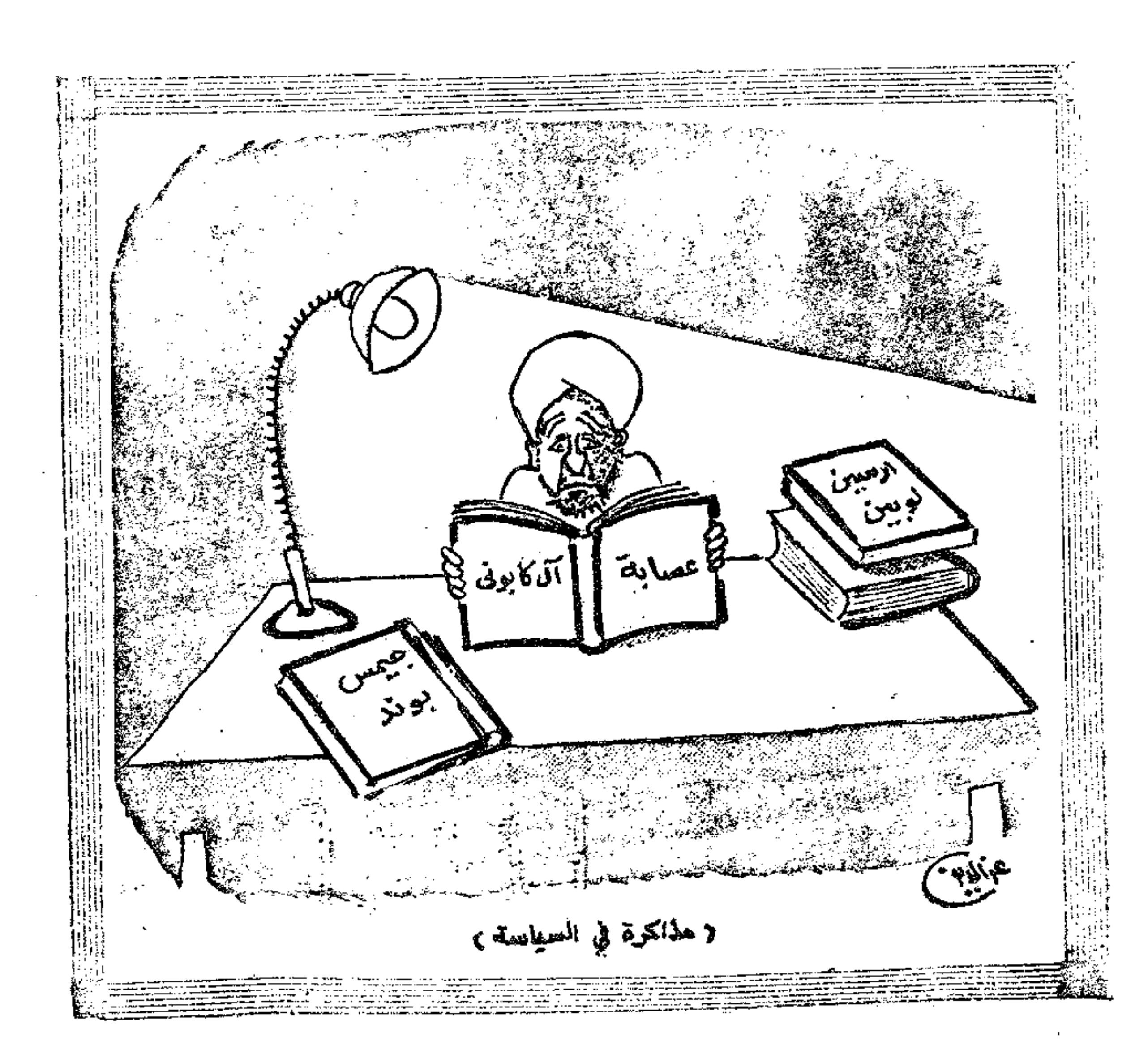
تحدث نميري ايضا ـ في زيارته تلك ـ فتناول مسألة توحيد حزب الامة بجناحيه ، ورغم انه اشاد بمواهب السيد الصادق المهدي القيادية ـ بل تطرف فوصفه بالثورية وصنفه في عداد قوي التقدم ـ الا انه ابدي ضيقا وتبرما بعودة الحزب قويا متحدا ، حتي بدا لنا من سياق حديثه انه كان يرجو الا يحدث ذلك ابدا ، ثم اسفر عن قناعة لا تخلو من تطرف حين جزم بان السودان لن يحظي بشيء من التطور السياسي والتنمية الاقتصادية مابقيت احزابه التقليدية وقياداتها المتخلفة عن ركب العصر قائدة لمسيرته . ووصف هذه القيادات بالقصور السياسي والفكري ، وبانها معاول هدم وجنادل تعوق انسياب حركة التطور التلقائية عبر الايام .

ثم غادرنا نميري والليل يوشك ان ينتصف ، بعد ان شغل عقولنا بمسائل ظننت وقتها انها لا تخرج عن نطاق الاحاديث العادية بين الرفاق ، او هي صورة

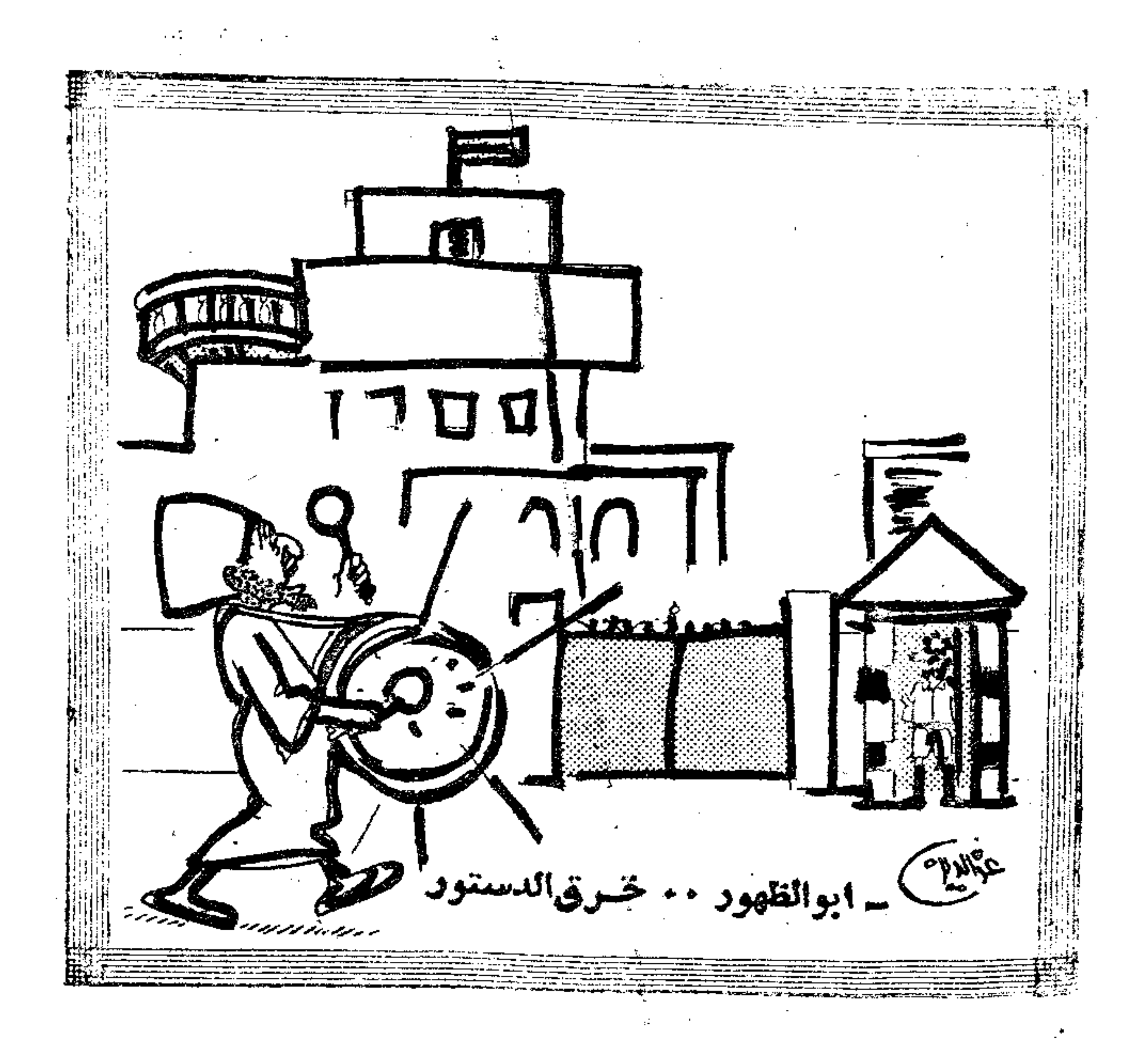
متكررة لما يجري بين عامة اهل السودان من اهتمام بشئون الحكم والسياسة ، ولكني لم اقف علي ابعادها ومراميها الا بعد ان اصبحت مايو هي الحدث ومدار الحديث .

لم تكن زيارة نميري لمعسكرنا في شجر عمر وما تلاها من زيارات حدثا فريدا يسترعي الانتباه ، فقد درج كثير من الزملاء والاصدقاء علي ذلك ، منهم المقدم محمد خضر العبادي والسيد عبد الرحمن النعيم الملقب بـ (حطب) ويمت بصلة القربى لقائد المعسكر خالد حسن عباس ، كذلك امضى معنا الفنان محمد ميرغني نهار يوم ترفيهي وافق عطلة الجمعة ، وهؤلاء وغيرهم جاءت زياراتهم لنا في نطاق العلاقات الشخصية .

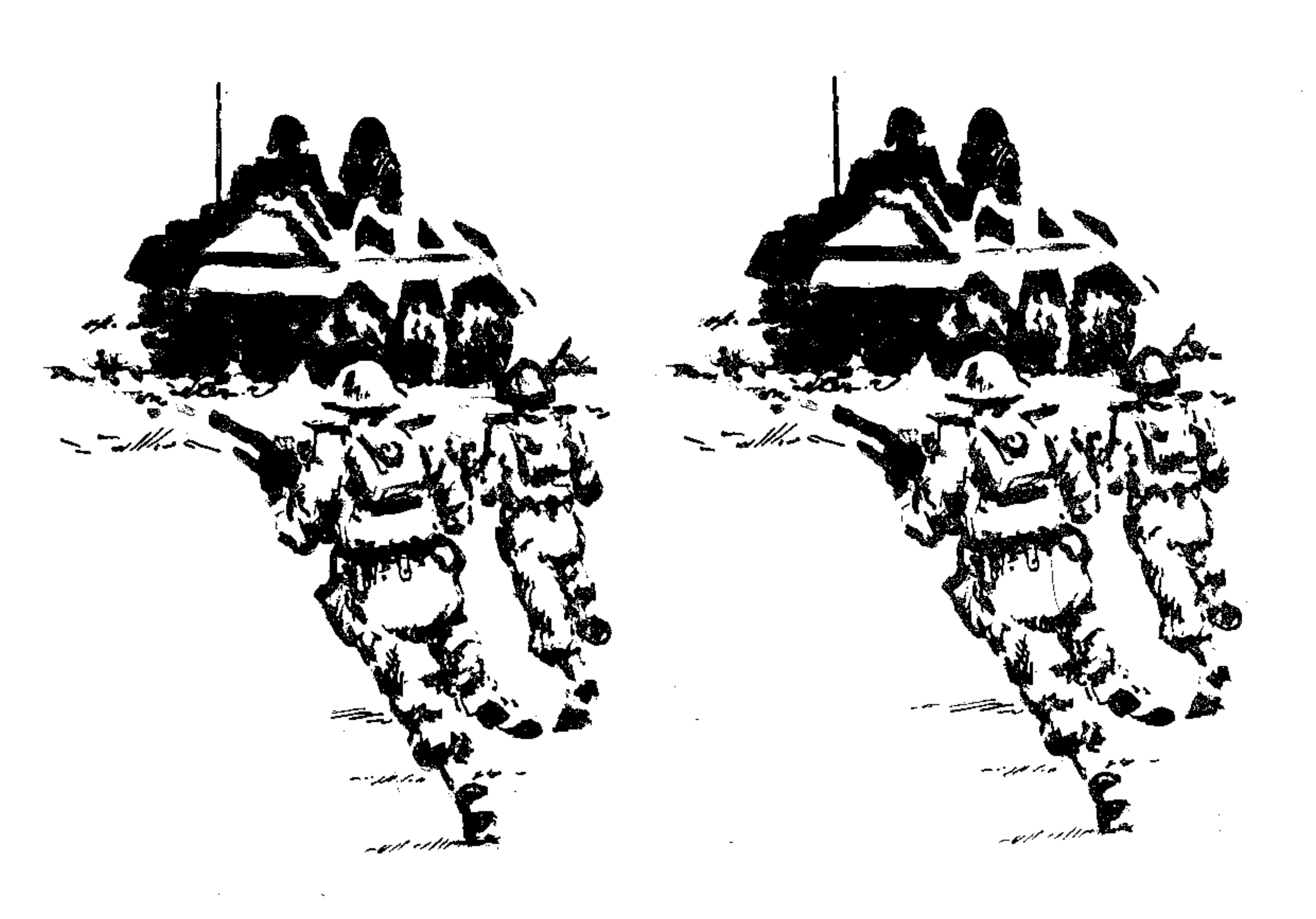




(مذاكرة في السياسة)


ـ ابو الظهور .. خرق الدستور

٢٤ مايو ١٩٦٩ - التدبير والتغيير !



الحادية عشرة

٢٤ مايو ١٩٦٩ - التدبير والتغيير !!

بدأ يوم ٢٤ مايو في معسكرنا التدريبي بخور عمر بداية عادية منذ الفجر الي منتصف النهار ، لم يكن ثمة مايوحي بانه يختلف عن غيره من الايام ، حتي اذا توسطت الشمس كبد السماء وفد علينا اثنان من صف الضباط هما محمد ابراهيم ومحمد عمر من سلاح المظلات بلبس ميدانها ، كنت آنئذ اقف مع الرائد خالد حسن عباس بمنطقة القرقول ، فبدا لي ان خالد حسن عباس يتوقع وصولهما لامر لا اعلمه ، فتحدثا اليه في حضوري واخبراه ان سريتهما المظلية تحت الخطي في طابور سير Route Marsh نحو معسكرنا ، وانها الآن في نواحي منطقة امدرمان الصناعية الجديدة ، فامر الرائد خالد علي الفور بتعيين ثلاثة عربات كبيرة لهما وهي مزودة بالماء ، كما امر بتزويدهما ببعض المدافع من نوع .M.G.42 بذخائرها ، اضافة الي ذخيرة بنادق .G.3. ثم اصدر امرا آخر بتخصيص منطقة الغابة الواقعة خلف معسكرنا لتكون مقرا لهم في ذلك اليوم

اثار نبأ وصول القوة المظلية والاوامر التي اصدرها خالد شيئا من الدهشة في نفسي ، فلما سألته عن جلية الامر اخبرني بان تلك القوة خرجت من معسكرها بالخرطوم في تدريب طابور سير عادي ، وان امرا قد صدر له بتزويدهم بالسلاح والذخيرة والابقاء عليهم في جوار معسكرنا خلال ذلك اليوم ، تحسبا لما قد يحدث من تحرك عنصري متوقع ، فاذا حدث شيء من ذلك القبيل تصبح القوة تحت امرتنا وتتعاون معنا في شن الهجوم المضاد كقوة مشاة فدائية تدعم تحرك مدرعاتنا .

كانت افادة مقنعة ، فانصرفت مع خالد الي خيام الضباط ، بعد ان اصدر اوامره للرائد ميرغني العطا وبعض صف الضباط بتنفيذ كل ما امر به نحو قوة المظلات ، ودون مقدمات طلب مني ان اصحبه الي امدرمان ثم قال لي - كتبرير لذلك الطلب المفاجيء - انه على موعد مع الرائد مأمون عوض ابو زيد من فرع الاستخبارات العسكرية ليستجلي منه حقيقة الموقف الامني ، وقد انتهز تلك السانحة ليتيح لي الفرصة لزيارة عائلتي بعد طول غيبتي عنها ، واردف مازحا

ـ اهي فرصة تتغدي بكسرة بيتكم .

لم يكن ثمة ما يجعلني اتردد في قبول صحبته واريحته ، فخرجت معه صوب ام درمان ، واذ كانت العربة تنطلق بنا احسست به مترددا في الافضاء لي بامر ما ، فلم اطق صبرا علي ذلك ، وجبهته بالسؤال عما تختلج به دواخله وعن دواعي تردده في اطلاعي عليه ، فتبسم في حرج وقال بافتعال باد :

ـ لاشيء سوي انني اتساءل عما اذا كانت قوة معسكرنا تضم بعض الافراد من اعضاء تنظيم الزنوج الاحرار ، فاذا كان الامر كذلك فانهم ـ ولا شك ـ سيكونون قوة تخريبية داخل المعسكر .

فاكدت له في نبره واثقة ان افراد معسكرنا ـ رغم كونهم خليطا من الاعراق والمنابت والالوان ـ هم مثال للتجرد الوطني والضبط والربط والانصهار في بوتقة القومية السودانية ، وليس هناك مايدعو الي رميهم بشبهة العنصرية بحال . فانفرجت اساريره وبدا عليه الرضا والارتياح ، ثم دلفنا الي موضوعات عابرة حتي توقفت بنا العربة امام منزلي بودنوباوي ، حيث اصررت علي خالد ان يتناول عندي بعض المرطبات قبل انصرافه الي مهمته ففعل ، وبمحض الصدفة تناولنا معا مشروب (الحرية) في وجود صهري العم خالد بشير ، فدار بين الرجلين حوار قصير حول اسم المشروب ، ثم تركز الحديث علي معني الحرية النسبي . وانصرف خالد بعد ان افهمني بانه سيعود لاصطحابي الي المعسكر ، او يرسل العريف محمد صلاح لهذه المهمة .

عدت الي المعسكر في حوالي الساعة الثانية ظهرا بصحبة العريف محمد صلاح ووقعت فريسة للدهشة منذ اول وهلة لوصولي ، فقد كان المعسكر في حركة دائبة غير عادية ، البعض منصرف بهمة ونشاط لملء خزانات المدرعات والمركبات بالوقود ، والذخائر توزع على الافراد والجميع بلبس الميدان ، الي غير ذلك ، وبسؤالي للرائد ميرغني العطا وصف الضباط الذين يشرفون علي هذا العمل كالرقيب حسن البدري وعبد العزيز محمود وعمر عجيب واحمد عبد القادر وغيرهم ، كانت اجابتهم انهم ينفذون اوامر الرائد خالد حسن عباس . فتوجهت اليه من فوري ـ وكان يقف الي جوار عربة سكاوت يرقب الطريق العام المؤدي الي منطقة وادي سيدنا فسألته عن دواعي هذا الاستعداد المفاجيء ،

واجابني بان الامر لايعدو مجرد الاستعداد لما يحتمل حدوثه من تحرك عنصري !

وما ان اكمل عبارته حتي شاهد عربة مدنية تقترب ، ثم اشار اليه سائقها ان يتبعه ، فطلب مني اثر ذلك ان اصحبه علي العربة التي قادها بنفسه وانطلق بها في اتجاه العربة الاولي ، وبالقرب من قرية العجيجة وجدنا العربة تقف الي جوار (سبيل) وكان سائقها العقيد جعفر نميري ، فترجلنا لتحيته ، ثم انفرد به الرائد خالد لبضع دقائق ، طلب مني نميري بعدها ان انضم اليهم وكشف ما كان خالد يخفي عني حتي تلك اللحظة ، حدثني نميري فقال :

- ان قيادة الجيش يساندها تنظيم الضباط الاحرار وضباط الوحدات وباتفاق مع القوي الوطنية وقادتها ، اجمعوا علي ضرورة استيلاء الجيش - متلاحما مع هذه القوي الوطنية - علي السلطة السياسية في البلاد لفترة انتقالية مؤقتة اقصاها ستة اشهر ، وذلك لاصلاح الاوضاع السياسية والاقتصادية والدستورية التي خرقها الرئيس اسماعيل ازهري بحله للجمعية التأسيسية قبل انقضاء اجلها المحدد ، وطرده لنواب الحزب الشيوعي السوداني ، وماصاحب ذلك من فساد سياسي وترد اقتصادي وعجز عن وضع دستور دائم للبلاد .

ثم اضاف :

- ان العناصر الطليعية لاستلام السلطة تتألف من قوة معسكرنا في خور عمر مضافا اليها قوة المظلات التي خرجت من معسكرها بالخرطوم بدعوي التدريب في طابور سير الي منطقة جبل الاولياء ، ولكنها انحرفت - حسب المخطط والخطة الموضوعين - الي خور عمر ، لتصبح قوة مشاه مساندة للمدرعات ، وكلاهما - اي قوة مدرعاتنا والسرية المظلية - سيجدان كل وحدات الجيش في العاصمة والاقاليم سندا لهما ، وقد جري ترتيب وتنسيق ذلك كله بواسطة اعضاء تنظيم الضباط الاحرار ، والحادبين علي مصلحة الوطن من القادة والضباط من غير اعضاء التنظيم .

وباستفساري عن (القوي الوطنية) المساندة للتحرك ، قال نميري دون ذكر اسماء :

- ان زعامة الحزب الاتحادي الديمقراطي قد جري الاتصال بها بواسطة بعض قيادييها المتعاونيين مع تنظيم الضباط الاحرار ، وقد وافقت زعامة الحزب علي التحرك الثوري ووعدت بالتأييد الفوري بعد نجاح الحركة .

وعن حزب الامة قال :

- ان اتصالا مماثلا قد تم معهم ، اضافة الي انه يعتبر الطلب الذي تقدم به السيد الصادق المهدي الي الفريق الخواض القائد العام باستلام السلطة من الرئيس الازهري - الذي تجاوز سلطاته كرئيس وتعمد خرق الدستور بحل الجمعية التأسيسية - قال نميري : ان ذلك الطلب مايزال قائما ، خاصة بعد ما افتي رئيس القضاء وما اجمعت عليه كل القوي الوطنية بان فعل الرئيس ازهري خرق صريح وواضح للدستور ، اضافة لطرده - من قبل - نواب الحزب الشيوعي السوداني من الجمعية ، وماصدر من حكم قضائي في هذا الشأن بعدم جواز طرد اولئك النواب من الجمعية .

تعمد نميري ان يعيد الي ذاكرتي تلك الاحداث لما يعرف من علاقتي اللصيقة بها عندما كنت ملحوقا بصورة مؤقتة بمكتب الفريق الخواض القائد العام .

واضاف نميري :

- ان الرأي العسكري والسياسي معا قد اجمعا علي انه لو لم يقم الجيش باستلام السلطة في هذا الوقت الملائم ، فسيفعل ذلك التنظيم العنصري الذي يهدف الي محو هوية السودان العربية الاسلامية ، ليقيم علي انقاضها هوية زنجية مسيحية اشبه بما عليه الحال في الدول الافريقية جنوب الصحراء ، وهذا ما يضفي علي التحرك العسكري بمساندة القوي الوطنية الاخري صفات الوطنية والعروبة والاسلام ، اضف الي ذلك امكان إصلاح الاحوال السياسية والاقتصادية ووضع الدستور الدائم الذي عجزت عن وضعه السلطة المدنية الحاكمة منذ خروج الاستعمار من ارض السودان حتي يومنا هذا . حتي اضحي مثل (حجوة ام ضبيبينة) ، وفضلا عن ذلك كله ، فان سلطات الحكم المتعاقبة كلها وبدون استثناء ، فشلت فشلا ذريعا في ايجاد حل لمشكلة الجنوب ، فاستمر نزيف الدم السوداني علي ارض الجنوب اربعة عشر عاما بلا انقطاع ودون ان تبدو في الافق بادرة امل لوقفه ، ولسوف نوقف النزيف بعد الاستيلاء علي السلطة بتطبيق الحل الذي وضعه تنظيم الضباط الاحرار ، ذلك المتمثل في منح الجنوب الحكم الاقليمي الشبيه بالفدريشن مع الاعتراف الشجاع بالفوارق العرقية والثقافية والدينية والتنموية .

وبسؤالي عن اية اهداف اخري للتحرك المزمع اجاب :

ـ نحن سنطبق حرفيا اهداف تنظيم الضباط الاحرار ومخططاته قبل ثورة اكتوبر ١٩٦٤م ، وانت ـ فيما اعلم ـ علي دراية بها جميعا كعضو سابق في التنظيم واحد المنظرين فيه ، وحال التنظيم اليوم من حيث النظم والمخططات والاهداف لم تختلف عما كانت عليه من قبل .

وفي اجابه له علي سؤالي عن تكوين مجلس الشعب القيادي قال نميري :

ـ انه سيتكون وفق ما جاء في مخطط التنظيم من خمسة عشر عضواً ، تسعة منهم عسكريون وستة من المدنيين ، ولمزيد من التفصيل ، سأكون احد اولئك العسكريين كرئيس للمجلس القيادي وقائدا عاما ووزيرا للدفاع ، وسيكون الاخ فاروق ـ سكرتير التنظيم ـ وزيرا للداخلية ، وذلك بهدف احكام قبضتنا علي القوات النظامية والقوي الامنية في السودان ، اما العسكريون الآخرون بالمجلس ، فسوف يتولي انتخابهم مؤتمر موسع للقادة انتخابا حرا مطلقا ، ولكننا سنقترح علي المؤتمر اسمي الرائد ابل كول آرثر والمقدم ولسون لوباي كعضوين جنوبيين وذلك لاضفاء صفة القومية علي المجلس القيادي ، بوصفهما من الاحرار اولا ، ولانهما يدعوان ويتمسكان بوحدة السودان حاضرا ومصيرا من جهة ثانية . وفي اعتقادي انهما سيحظيان بتزكية المؤتمرين ، لما عرف عنهما من علم واتزان وسلوك عسكري وشخصي قويم ، ومهما يكن من امر فان لمؤتمر القادة مطلق الحق في قبول او رفض انتخاب اي عضو حتي انا وفاروق ، اذا رأوا وجود من يفضلنا لقيادة الثورة وتحقيق اهدافها وامنها ، وسنخضع قطعا لقرارهم ومشيئتهم ونضع انفسنا جندا مخلصين تحت امرتهم ، وهذا هو السبب الذي دعانا لعدم ترشيح طلائع الضباط الذين يفجرون الثورة ، اظهارا لتجردهم الثوري والوطني . ولهذا فلن ينال اي منهم مكسبا شخصيا او ترقية استثنائية بعد نجاح الثورة ، بل سيظلون نماذج للتجرد الوطني والفداء الثوري .

سألت نميري :

ـ كيف سيتم انتخاب الاعضاء المدنيين بالمجلس القيادي ؟

فقال :

ـ نحن قسمنا القوي الي ستة كيانات رئيسية وهي : القوميون العرب ، والحزب الشيوعي السوداني ، وحزب الامة ، والحزب الاتحادي الديمقراطي ،

وحزب سانو ، وجبهة الميثاق الاسلامي .

وسوف نقترح علي كل حزب منها اسماء ثلاثة افراد من اعضائه ممن نعتقد في سلامة حسهم الوطني وقدراتهم القيادية ، ليختار الحزب احدهم كممثل له في المجلس ، فيما عدا القوميين العرب ، فقد رأينا ان يمثلهم مولانا بابكر عوض الله كرئيس لمجلس الوزراء ونائب لرئيس المجلس القيادي ، اما بقية الاسماء المقترحة من جانبنا فهي :

السيد الصادق المهدي ، والسيد عبد الله عبد الرحمن نقد الله ، والسيد امين التوم ، من حزب الامة .والسيد احمد الميرغني ، والشيخ علي عبد الرحمن ، والسيد نصر الدين السيد ، من الحزب الاتحادي الديمقراطي .والسيد محمد ابراهيم نقد ، والسيد احمد سليمان ، والسيد الشفيع احمد الشيخ ، من الحزب الشيوعي السوداني . والسيد حسن عبد الله الترابي ، والسيد محمد يوسف محمد ، والسيد محمد صالح عمر ، من جبهة الميثاق . والسيد جوزيف لاقو - رغم غيابه عن السودان ، والسيد ابل الير والسيد جوزيف ادوهو ، من حزب سانو .

وعلي كل حزب ان يختار من بين الثلاثة المرشحين من اعضائه القياديين واحدا يمثله في المجلس وبهذا يمثل المجلس قومية السودان وقواه الوطنية ، ولن يتسنى لاحد ان يتهمنا - في قابل الايام - بخرق الدستور واستلاب السلطة الشرعية عنوة ، خاصة واننا سندعو الي مؤتمر قومي حسب مخطط ومفهوم الضباط الاحرار ، وذلك في اليوم الحادي والعشرين من اكتوبر هذا العام ١٩٦٩ ، ليكون بمثابة السلطة التشريعية التي تمكننا من تحقيق اهداف التنظيم وبرامجه الوطنية ، وسوف نسلم السلطة للشعب عبر انتخابات برلمانية حرة نزيهة في صبيحة اليوم الاول من يناير ١٩٧٠م الذي يوافق الذكري الرابعة عشر للاستقلال .

ثم طلب مني نميري - بعد ذلك الشرح الوافي - ان اضع نفسي تحت امرته في قيادة التحرك فاستجبت لامره ، ثم طلب من خالد ان يكمل كل اجراءات تنفيذ التحرك ليتم في موعده المقرر قبيل الساعة الثانية عشر مساء نفس ذلك اليوم

ولما كان الرائد خالد شاحب اللون بادي الاعياء والضعف بسبب حمي الملاريا التي كان يجري علاجه منها آنذاك ، فقد تنبه نميري لحالته فجأة ونظر اليه

بامعان ثم تحسس بيده بشرته في اشفاق وحنو ، وعاد يقول له في نبرة آمرة :

ان حالتك الصحية يا خالد لا تسمح لك بتنوير الجند بما يلزم لهذه المهمة من لياقة بدنية تجعل من يقوم بها قادرا علي بث روح الحماس والفداء في النفوس ، ولهذا فاني اوكل مهمة التنوير لمحجوب ، خاصة وهو معروف بقدراته الفائقة علي التعبير والاقناع والبيان ، وسيكون علي محجوب ايضا اصدار الاوامر العمومية ، علي ان يتولي قادة المجموعات صرف الاوامر التفصيلية لافراد مجموعاتهم .

هنا تصدي له خالد وقال :

ـ انا لا اسمح لاحد غيري بالقيام بهذه المهام ، بوصفي قائد المعسكر واحد قادة التخطيط والتنظيم .

فنظر اليه نميري فيما يشبه العتاب المغلف بالجدية والصرامة ، ثم قال له :

ـ هذا امر يا خالد !

ثم نظر الي واردف :

ـ وأمر لك انت ايضا يا محجوب .

فاستجاب كلانا للامر بغير جدال . وقبل ان نمضي لتنفيذ ما امر به ، سألته عن خطة التحرك ، فسأل عنها الرائد خالد الذي اجابه بان الخطة مع الرائد ابو القاسم محمد ابراهيم ، فامره باستلامها منه وتسليمها الي لمباشرة تنفيذها . فاومأ خالد بالايجاب .

بعدها غادرنا نميري متجها صوب امدرمان ، وتحركنا نحن بعده الي المعسكر ، وفي طريقنا اليه سألت خالد عن مدي المام الرائد ميرغني العطا والملازم عاصم جمال وكبار صف الضباط بالمعسكر بحقيقة وهدف التحرك ، فاجاب :

ـ الملازم عاصم يجهل كل شيء عن هذا التحرك ، ولهذا فقد منحته منذ الامس اجازة لاداء امتحان الترقي ، الذي يبدأ اليوم ، وطلبت منه ان يقضي عطلة يوم آخر بمنزله بعد الامتحان . اما الرائد ميرغني العطا فانه علي معرفة تامة بكل تفاصيل الحركة ، وقد شارك في بعض اجتماعات التنظيم المتعلقة بالتنفيذ ، كما ان طائفة من كبار صف الضباط وهم بالتحديد الرقباء عبد العزيز محمود وحسن البدري وعمر عجيب ومحمد كلم ومحمد زين واحمد عبد القادر وعبد الله خير الله والعريف محمد صلاح لهم المام مسبق بامر التحرك ، اما بقية

الصف والجنود فهم لا يعلمون شيئا حتي الآن .

قلت لخالد في نبرة غاضبة :

ـ كيف تأتي لك ان تخطر الرائد ميرغني العطا واولئك الصف ضباط بمثل هذا الامر الجلل ، وتخفيه عني انا حتي هذه اللحظة ؟

اجاب في عفوية وبلا تردد :

ـ لقد تحدد موقفك من هذا الامر عقب الزيارة التي قام بها الاخوان عبد الخالق محجوب وفاروق عثمان الي المعسكر حين ابديت معارضتك لفكرة التحرك امامهما ، فقد رأينا ـ منذ ذلك الوقت ـ ان نفرض عليك ستارا من حديد وتعتيما خبريا كاملا تجاه الامر ، وهذا ما دعانا لتقييد حركتك خارج المعسكر ، وبصراحة اكثر كنا بصدد اختلاق المعاذير لابعادك تماما عن المأمورية والمعسكر . ولكننا ـ فاروق ونميري وانا ـ آثرنا الاستفادة من كفاءتك وقدراتك العسكرية والقتالية ، اضافة لما تتحلي به من شجاعة فذة وموهبة ادبية واعلامية ، والي جانب ذلك فقد كنت قياديا في تنظيم الضباط الاحرار قبل اكتوبر وملما بكل مباديء ومخططات واهداف وفكر التنظيم ، وشخص له كل هذه المزايا والصفات ما كان ليتم تحركنا بدونه ابدا .

واسترسل خالد في الحديث ملاطفا ومعتذرا حتي بلغنا المعسكر ، واذ كانت العربة تتوقف بنا انتبه لامر بدا له من الاهمية بمكان (وهو سرية التحرك) فصاح مناديا الرائد ميرغني العطا ، فلما جاءه وحياه التحية العسكرية ، طلب منه خالد ان يركب العربة معنا ففعل ، فانطلق بنا خالد في اتجاه الغرب صوب جبال المرخيات كمن يود اجراء استكشاف تدريبي ، وهناك اوقف العربة ومحركها ، ثم اخرج من احد ادراجها نسخة من المصحف الشريف ، واخذ ينظر الينا بتركيز شديد ، وقال :

ـ اري يا اخوان ان الواجب الوطني والموقف العسكري يفرض علينا جميعا ضمان سرية هذا التحرك في كل مراحله حتي يكتب له النجاح صباح غد باذن الله ، ولهذا اري ان نؤدي القسم بالا يكشف احدنا سرا يتعلق بالتحرك وقادته ومخططه ومراميه ، خاصة اذا واجهنا فشل غير مرصود وتم احباط تحركنا الثوري ، وعموما فان اداءنا لهذا القسم يقع في اطار امر التنفيذ العسكري .فاستجبنا انا والرائد ميرغني العطا لطلبه وقمنا باداء القسم ، ثم عدنا من بعد

ادراجنا للمعسكر لمواصلة اجراءات اعداد الصف والجنود والاسلحة التي تشمل المدرعات والعتاد الحربي من مركبات وخلافه وكل شئون المعركة الادارية اللازمة لتنفيذ الخطة العسكرية .

بعدها استدعاني خالد الي خيمته ، واخرج بعناية خطة التحرك من حقيبته ، وطلب مني استيعابها ومراجعتها بكل تركيز وعناية ، ثم اوافيه برأيي حولها ، حدث هذا ولم المس مايؤكد او يوحي بان خالد قد تسلم هذه الخطة من الرائد ابو القاسم محمد ابراهيم ، ومن ثم فاني لا اعلم ان كانت هي نفس الخطة التي قال لنميري انها بحوزة الرائد ابو القاسم ، ام ان تلك خطة اخري مغايرة !!

مهما يكن من أمر ، فقد كانت الخطة التي تسلمتها من خالد هي الخطة التي جري تنفيذها بعدئذ ، الا انني بعد فحصي ودراستي لها بامعان ، تبدت لي بعض العيوب التقنية ، تمثلت في تقدير الموقف الزمني وخطة ازمنة وتحرك المجموعات ، وحجم ومهام هذه المجموعات والضباط المنوط بهم قيادتها ومهامهم البديلة والاحتياطية ، اضافة الي بعض الاخطاء والقصور في التعليمات التنسيقية ، وفوق هذا كله عدم وجود طرق حل مفتوحة في تقدير الموقف والخطة ، وعدم وجود خطة بديلة لمواقف العمليات الطارئة وغير المتوقعة ، كما ان الخطة نفسها اعدت وصيغت باسلوب انشائي علي غير شاكلة ونظم وترويبسات خطط العمليات الحربية .

حدثت خالد بهذه الاخطاء ونواحي القصور في الخطة ، فسلم بها معللا ذلك بان الخطة وضعت علي عجل ، وطلب مني ان اقوم باعادة اعدادها وصياغتها بالصورة العسكرية الصحيحة مع الحفاظ علي اساسها ومضمونها عموما ، ووعد بمشاركتي في هذه المهمة ، ثم قمنا معا بذلك ، فامر خالد باجراء بعض التعديلات في قيادة المجموعات ومهامها ، من ذلك مثلا رأي عدم اعتقال الرئيس اسماعيل الازهري والاكتفاء بوضع حراسة خارج منزله فقط ، بل والدفاع عنه وضمان سلامته من كل خطر !! وقرر ان تسند هذه المهمة الي الرائد ميرغني العطا بدلا عنه هو كما كان موضوعا في الخطة الاساسية . وحدد لنفسه مهمة اعتقال اللواء حمد النيل ضيف الله رئيس اركانحرب الجيش لما يشكله من خطورة بالغة في حال تحركه المضاد .

عند ذلك سألت الرائد خالد متعجبا :

ـ لقد ذكر العقيد نميري علي مسمع منك اليوم ان قيادات الجيش وقادته وكبار الضباط قد اجمعوا علي ضرورة هذا التحرك ووعدوا بمساندته عند حدوثه ، اليس سيادة اللواء حمد النيل من بين هؤلاء ؟

اجاب خالد في نبرة قاطعة :

ـ لا ، فهو لاعلم له ولا مصلحة له في هذا التحرك وسوف يقاومه لا محالة ان وجد الي ذلك سبيلا ، وهذا ما يجعلني احرص علي اعتقاله في الوقت المناسب وسأضع نفسي احتياطيا لمزيد من الاعتقالات حسب هذه الخطة ، بالاضافة الي دوري المنوط بي في حصار سلاح الاسلحة ومحاولة ضمه لقوات التحرك الثوري

ثم اضاف خالد :

ـ نحن في هذه الخطة ، وضعنا في اعتبارنا تعاون كل وحدات الجيش والقادة وتلاحمهم مع اعضاء تنظيم الضباط الاحرار ، ولهذا لم نهتم كثيرا بوضع خطة بديلة ، وجل اهتمامنا ينصب فقط علي تأمين القيادة العامة ووحدة سلاح المدفعية التي سيقوم الاخ مأمون بمحاصرتها واقناع قائدها بالمشاركة في التحرك الثوري ، اضافة الي دوري انا مع سلاح الاسلحة ، والدور الهام الخاص باعتقال العسكريين والسياسيين الذين لا نأمن جانبهم ، فاذا ما تم كل ذلك بسلام ضمنا نجاح الثورة التي لا نشك مطلقا في تأييد شعبنا لها ووقوفه معها ومساندته لها ، لانها تمثل ارادته وتطرح مطالبه في التغيير الثوري .

انصرف خالد عني بعد الفراغ من كتابة الخطة بعد مادخل عليها من تعديل تقني ، وكان قد كلفني ـ قبل انصرافه ـ ان اقوم بجمع القوات / مدرعات / ومظلات / وتنوير افرادها بحقيقة التحرك واسبابه ومراميه ، ومن ثم تقسيم المجموعات واصدار الاوامر العمومية لها حسب امر العقيد نميري من قبل ، وقال خالد انه سيكون عندئذ علي مقربة مني تحسبا لاي موقف طارئ .

وبالفعل قمت بجمع القوات وتنويرها بكفاءة عالية الهبت مشاعر صف الضباط والجند واشعلت حماستهم وازكت فيهم روح الفداء والانجاز العسكري ، وقد جاء في خلاصة ذلك التنوير :

١ – ان التحرك تقتضيه ضرورة اصلاح الاوضاع الامنية والسياسية المتردية في البلاد ، وخاصة ضرورة ايجاد الحل الامثل الدائم لمشكلة الجنوب ، ووضع

دستور دائم للسودان وعلاج التردي الاقتصادي وخلق المناخ الملائم للتضامن القومي .

٢- عن ايمان بالضرورات المشار اليها ، فان هذا التحرك الطليعي تقف وراءه وتسانده اسلحة وقيادات الجيش وقادتها وكل ضباط وصف وجنود القوات المسلحة ، ونحن هنا في خور عمر نمثل جزءا من هذه الفصائل العسكرية الثورية ، اضافة الي ايمان القوي السياسية بضرورة هذا التحرك ، ووعدها من بعد بالوقوف سدا له ودرعا يحميه .

٣- من اهداف هذا التحرك :

أ: حل مشكلة الجنوب من خلال الاعتراف الشجاع بالفروق العرقية والثقافية والدينية ، والسعي لعقد اتفاق بموجبه ينال ابناء الجنوب حكما ذاتيا في اطار السودان الموحد .

ب: تطوير القوات المسلحة من حيث الاسلحة والمعدات والتدريب ورفع كفاءتها القتالية وزيادة حجمها وحل مشاكلها الادارية والمهنية وتحسين احوال وشروط خدمة افرادها من الضباط والصف والجنود .

ج: حل الاحزاب السياسية كافة ، واقامة نظام الحزب الواحد الذي يمثل القوي الوطنية المختلفة ، وذلك لفترة انتقالية مدتها ستة اشهر علي الاكثر ، تتم خلالها الدعوة لمؤتمر قومي ينعقد في يوم ٢١ اكتوبر من هذا العام ١٩٦٩م ليضع التصور الامثل لحكم السودان ودستوره الدائم ، ويمكن في اطار هذا المؤتمر اقتراح العودة الي نظام الديمقراطية الليبرالية - اي تعدد الاحزاب - ولكن بصورة معافاة جديدة ، وذلك اذا لم يصل المؤتمرون الي قناعة راسخة بجدوي نظام الحزب الواحد ، كما هو الحال في الدول الاشتراكية وغيرها من الدول الآخذة بنظام الديمقراطية الموجهة .

د: وضع دستور دائم للبلاد ووقف العمل بالدستور الانتقالي الحالي الذي وضعه الاستعمار

هـ:ترجمة شعار التنمية والانفتاح علي الريف الي واقع معاش ، وذلك بتلاحم القوات المسلحة مع قوي الشعب المنتجة في تعاون انمائي يسمي مشروع (ابن وعمر) .

ز: اتخاذ وانتهاج سياسة خارجية ايجابية مؤثرة في عالمنا العربي ، قارتنا

الافريقية وعلي نطاق العالم اجمع ، تتجسد في مبادىء واهداف دول عدم الانحياز ، والدعوة الي التعاون الدولي والسلم العالمي ، والاعتراف بكل الدول التقدمية .

ح: اقامة النظم والمؤسسات الدستورية واجراء انتخابات عامة في كل انحاء البلاد في الفترة بين اول نوفمبر ونهاية ديسمبر ١٩٦٩م .

ط: تسليم السلطة مبرأة من كل العيوب والعلل الي قوي الشعب المنتخبة ، وذلك في الاول من شهر يناير ١٩٧٠م خلال الاحتفال بذكري الاستقلال .

ك: للتمكن من انجاز هذه الاهداف الحيوية العظيمة سيتولي قيادة دفة الحكم خلال المرحلة الانتقالية مجلس قيادي انتقالي مكون من خمسة عشر عضوا ، تسعة منهم عسكريون ينتخبهم مؤتمر موسع للقادة ، وستة مدنيون تختارهم القوي السياسية مجتمعة ، وسيتولي العقيد جعفر نميري رئاسة هذا المجلس ، وينوب عنه السيد بابكر عوض الله الذي يترأس مجلسا للوزراء كله من المدنيين ، عدا وزيري الدفاع والداخلية .

واختتمت تنويري ذاك بالدعوة لطلائع خور عمر والشعب السوداني ، من عسكريين ومدنيين وقوي سياسية وتنظيمات فئوية ، بالترفيق والنجاح والافادة من المرحلة الانتقالية التي سيحققها تحركنا المرتقب ، في بناء سودان قوي شامخ متحد . ثم ابديت استعدادي للاجابة علي كل سؤال او استفسار .

بدأ الرقيب حسن البدري فسأل عن هوية التحرك وقيادته ، وهل هو سوداني خالص املته ظروف المرحلة الوطنية ؟ ام ان قوي خارجية تقف وراء قيادته وتدفعها في هذا الطريق ؟ ثم حدد هذه القوي الخارجية بانها مصر وموسكو !!

اجبت السائل بان مبلغ علمي هو ان التحرك سوداني صرف ، لا تشوب سودانيته شائبة . وسألته ان كانت لديه معلومة تشير او تؤكد غير ذلك ، فاجاب بالنفي وقال ما معناه انه فقط سأل ليطمئن قلبه وقلوب اخوته من صف الضباط والجند .

وسأل آخر - وهو الرقيب عبد العزيز محمود - ان كان في النية تعيين حكام عسكريين مثلما كان عليه الحال ابان حكم الرئيس عبود . فاجبته بالنفي ايضا ، واضفت : أن ذلك لن يحدث حتي لا يظن المواطنون ان حكما عسكريا جديدا قد جثم علي صدورهم مرة اخري .

وسأل ثالث من قوة المظلات ـ عن اسماء ورتب الضباط الذين يقودون طلائعهم من خور عمر . فكانت اجابتي عليه :

انهم العقيد .أ.ج جعفر محمد نميري من سلاح المدرعات ، الرائد ابو القاسم هاشم من سلاح الاشارة ، الرائد خالد حسن عباس من سلاح المدرعات ، الرائد فاروق عثمان حمد الله ضابط بالمعاش ، شخصي الرائد محجوب برير محمد نور من سلاح المدرعات ، الرائد عثمان الحاج حسين ابو شيبة من القيادة الغربية ، الرائد مأمون عوض ابوزيد من الاستخبارات العسكرية ، الرائد ابو القاسم محمد ابراهيم من سلاح المظلات ، الرائد زين العابدين محمد احمد من سلاح المظلات ، الرائد محمد مرسي محمد من سلاح المظلات الرائد كامل عبد الحميد من حامية الخرطوم ، الرائد ميرغني العطا من سلاح المدرعات ، والنقيب سيد احمد عبد الرحيم من سلاح المظلات .

ثم طلب نفس السائل ان تتاح له فرصة التعرف علي هؤلاء الضباط قبل بداية التحرك ، فوعدته باني سأعمل علي تقديمهم من خلال الانوار الكاشفة في اجتماع القوات الاخير قبل التحرك ، كما سيخاطبهم قائد التحرك العقيد .أ.ج. جعفر محمد نميري ، واختتمت بذلك مهمة التنوير ، وبدأت في اعقابها مباشرة مرحلة اخري هي تقسيم المجموعات واصدار الاوامر العمومية لها مجتمعة ، ومن ثم انفض جمعنا المهيب في تلك اللحظات التاريخية ، وانصرفت كل مجموعة لتقوم بالاستعداد لتنفيذ المهمة المنوطة بها وهي ممتلئة حماسة وروح فداء .

واتجهت بعد ذلك الي خيام الضباط ، واجتمعنا امام خيمة الرائد خالد لوضع اللمسات الاخيرة للتحرك .

ولكن ، ماكنا ننتظم في مجلسنا ونبدأ العمل ، حتي فوجئنا بحضور العقيد جعفر محمد نميري تبدو علي سيمائه علائم القلق والاحباط واضحة جلية ، وفاجأ مجمعنا بدون مقدمات قائلا :

ـ يا اخوانا التنفيذ حيتأجل وما باليد حيلة !! حصلت ظروف خارج ارادتنا يستحيل معها نجاح العملية ، ومافي داعي نلقي بانفسنا الي التهلكة !!

او كما قال .

وما ان اكمل عبارته تلك حتي تداخلت كلمات الاسي والاحتجاج والملام من

افواه الرفاق وهم ينظرون اليه غير مصدقين من هول المفاجأة !! وتملك الانفعال الرائد خالد فسأل نميري :

ـ ماذا حدث ؟ ولماذا يتأجل التنفيذ ؟

فنظر اليه نميري مليا ثم اجال بصره بين الآخرين وقال بصوت متهدج ينضح بالاحباط الشديد :

ـ حدث مالم يكن في الحسبان ، فقد تخاذل الشيوعيون ورفضوا الاشتراك في تفجير الثورة ، بحجة ان حزبهم اعرق الاحزاب الشيوعية في افريقيا وامامه مستقبل سياسي طويل عريض ، ولا يرغبون في توريطه في مغامرة غير مأمونة العواقب ، وهم يخشون ان يفشل التحرك العسكري المزمع ، لهذا قرروا الا يشاركوا في مرحلة تنفيذ التحرك ، ولكن لا مانع لديهم ان يساندونا بالتأييد والعمل الايجابي اذا نجحنا في تفجير الثورة ، اي ان مشاركتهم لن تحدث قبل الساعة السادسة من صباح الغد ، بعد ضمان النجاح .!!

وقد حاولت ـ والحديث مايزال لنميري ـ اثناءهم عن القرار ، حاولت ذلك مع عبد الخالق والشفيع وصديقي نقد ، ولكن بدون جدوي ، فقد اجمعوا بان ذلك هو رأيهم الاخير .

فارتفعت اصوات الرفاق تشجب وتألم لما كان ، وعلا من بينها صوت خالد محتدا يسأل عن موقف بقية الضباط والوحدات وخاصة ضباط التنظيم ، فاجابه نميري بانه التقي ببعضهم فبدا له انهم غير متحمسين ، بل ان البعض منهم قد حاول التهرب من لقائه ! وبعض آخر نصحه بعدم التهور والا يلقي بنفسه والآخرين الي التهلكة !! وآخرون نجحوا في الاختفاء تماما فلم يعثر لهم علي اثر ولا يعرف موقفهم من التحرك ورأيهم الاخير !! لهذا كله عمد لاتخاذ قرار الغاء هذا التحرك ، واخطر من التقي بهم من الضباط بهذا القرار .

ثم اردف نميري وقد اكتسي صوته شيئا من الانفعال :

ـ مهما يكن من امر ، فان تنظيمنا مازال قويا متماسكا والثورة لايحدها زمان ولامكان (نحن دلوقتي حنوقف هذا التحرك والتنفيذ ، وزي ماقالوا : الجايات اكتر من الرايحات) .

اكمل نميري حديثه وهو ينظر الي كمن يسألني المؤازرة والتأييد ، ولكني هززت رأسي في اسي وقلت له :

ـ هؤلاء ـ في رأيي ـ هم ضباط مرحلة ما بعد نجاح التحرك ، لا صناعه ! فعندئذ يلتفون حولنا ، ويحملون مجامر البخور ورايات النصر !

كان حديث فاروق وافاداته مقنعة للجميع ، ولكن قلب نميري لم يطمئن تماما ، فسأله :

ـ ولكن لماذا يصر الشيوعيون علي الاشتراك بعد السادسة صباحا ؟! لماذا ؟!

فاجابه فاروق :

ـ لان للنجاح الف اب واب ، والفشل يتيم ، هذا هو السبب ، ولكني اتساءل ياريس ـ قالها ساخرا ـ طالما ان اعضاء الحزب العسكريون سيشاركون في التحرك والتنفيذ ، فلماذا تصر انت علي اشتراك بقية قادة الحزب قبل السادسة صباحا ؟ ماذا تنتظر منهم ان يفعلوا قبل ذلك ؟ هل تريد منهم الخروج في مظاهرات تأييد قبل ميلاد الحدث واعلانه علي الناس ؟! مش كفاية علينا جماهير المولد ؟!

فضحكنا جميعا حتي نميري علي طرافة طرح فاروق وروحه المرحة الساخرة ، وتذكرنا ان تلك هي الليلة الاخيرة من ليالي المولد النبوي الشريف ، وما كان لنا ان ننسي لولا الاستغراق والخطر .

ثم دار حوار قصير بيننا حول الموقف بعد التغيير الذي تحدث عنه فاروق ، فاتحد جمعنا حول قرار التنفيذ والتحرك . عند ذلك استأذن نميري في العودة الي امدرمان فورا ، ليخطر الضباط الذين اخطرهم بالغاء التحرك بقرار العودة اليه في ظل المستجدات عن المواقف ـ وطالب ـ في نفس الوقت ـ بتأجيل ساعة الصفر الي مابعد الواحدة صباحا ، وكان قد تحدد لها قبيل منتصف الليل .

فوافقنا علي مطلبه ، وتعدلت خطة التحرك تبعا لهذا ، وتعدل اسم الثورة ليكون ٢٥ مايو ١٩٦٩م ، بعد ان كان مقدرا لها ان تحمل اسم ثورة ٢٤ مايو !

عاد نميري الي معسكرنا في خور عمر بعد اقل من ساعة واحدة فقط ثم تقاطر بعده الضباط ، حتي اكتمل عقدهم في حوالي الساعة الحادية عشر مساء ، ما خلا الرائد ابوالقاسم هاشم ، الذي تخلف لغير ما سبب معلوم !! فلم يشترك في التحرك عند تنفيذه . فتعدلت خطة مجموعته تبعا لذلك فاضيف دوره ومهامه الي ماعند فاروق من مهام مقررة ، تحددت في قطع الاتصالات ثم اعادتها وقت الحاجة اليها .

عند عودة نميري التف حوله الرفاق في روح معنوية عالية ومودة ظاهرة ، وشرعوا يسألونه وهو يدلي بافادات وقرارات هامة ، من ذلك مثلا قوله : انه بعد عودته جرى تشاورا مع بعض اصدقائه من الساسة المحنكين من الشيوعيين والقوميين العرب والاتحاديين ، فنصحوه بعدم اشراك الجبهة الاسلامية في المجلس القيادي والوزارة لتطرفهم ، ولان هؤلاء الناصحين لن ينسجموا معهم في عمل مشترك واداء سياسي متجانس !! ولكن نميري - رغم ذلك - كان يري اشراكهم لتحقيق قومية التوجه الثوري ، ولكنه الآن بعد تفكير وتمحيص للامور يري ان الجبهة الاسلامية ليس لها ثقل كبير في الساحة السياسية ، وهي تتأثر فقط بما يحدث في البلاد ولا تؤثر فيه ، ولهذا يري استبعادها وعدم اشراكها في الوقت الحاضر ، وسيكتفي باشراك بعض قادتها المنشقين ومن هؤلاء السادة الرشيد الطاهر بكر وبابكر كرار وسيتم اشراك هؤلاء بصفتهم الشخصية وليس لتوجههم السياسي المعلوم .

ثم اردف في هذا الشأن ايضا :

- انه ربما تقتضي لعبة الموازنات السياسية يوما بضرورة اشراك الجبهة وقادتها ، ولكن التفكير في ذلك الآن امر سابق لاوانه .

وقال ايضا :

- انه وحسب مخطط الثورة والاتفاق الذي تم ، سيترك امرتشكيل الوزارة لمولانا بابكر عوض الله ، لثقتنا المطلقة فيه أولا ، ولتجرده الوطني ومعرفته برجال الحكم والسياسة ثانيا ، ولهذا فلن يفرض عليه شخص بعينه عدا بعض الذين سبق ان اقترحهم عليه ووافق عليهم ، وهم السادة الدكتور محي الدين صابر لمكانته المرموقة علي نطاق المنظمات الاقليمية والدولية في حقل العلم والتعليم ، ولعلاقة الرحم التي تربطه بالرائد عثمان الحاج حسين (ابوشيبة) والآخر هو السيد موسي المبارك لمكانته السياسية وحسه الوطني اضافة الي امر ذي خصوصية وهو ان السيد موسي المبارك بالتضافر مع الرائد صلاح عبد العال والعميد عمر الحاج موسي قد عملوا جهدهم مجتمعين لاخراجه من الورطة التي ادخله فيها الملازم خالد الكد بانقلابه المزعوم ، ولولا جهود هؤلاء الرجال المقدرة لكان هو اليوم في عداد ضباط المعاش ، ولا يخفي ماقد يسببه ذلك من احباط وبعد عن مواقع التأثير والحركة التي بقي فيها حتي اوصلته الي قيادة هذا

التحرك الثوري . ولهذا فقد آل علي نفسه ان يرد الجميل لهؤلاء الرجال عندما تؤاتيه الفرصة ، وحدّث نميري ان موسي المبارك في تلك الساعة بمصر ، وهو يعلم بالتحرك ، وقد كلفه بمهمة سياسية خاصة تتعلق بالاتصال بالرئيس جمال عبد الناصر ، ولكنه لا يعلم بامر تكليفه الوزاري المرتقب .

وسأل فاروق نميري :

- هل سبق له ان تشاور مع هؤلاء الرجال في امر تعيينهم في الوزارة ؟

فاجاب نميري بالنفي ، وعلق فاروق بقوله :

- ولكن ربما يتعارض هذا التعيين المرتقب مع الظروف السياسية والخاصة لهؤلاء السادة ! بالاضافة الي ضرورة اخذ موافقة الناس عموما في مثل هذه الامور الهامة !!

ضحك نميري في سخرية وهو ينظر الينا واحدا بعد الآخر ، ثم قال :

- الآن سالقي عليكم اول دروس سياستنا الثورية المرتقبة !!!

السياسة يا فاروق سوق عملتها السلطة وبضاعتها السياسيون ، فاذا استطعت ان تملأ يديك من السلطة تستطيع ان تدخل سوق السياسة وتشتري منها وتبيع كما يحلو لك فلكل سلعة ثمن معلوم ، والرجال معادن بين النفيس والخسيس .

ثم اضاف في ثقة وحزم :

- نحن لن نستشير ابدا من نرغب في تعاونهم معنا في امر تعيينهم لاي موقع كان . بل سنفاجئهم دائما بالوقوف وجها لوجه امام المنصب المرموق ، وبنفس هذه الطريقة يغادرونه حين ينضب معينهم وتتوقف قدراتهم عن العطاء الثوري . وفي هذا العدل كل العدل ، فالذي يرتضي المنصب بطريقتنا هذه عليه ان يقبلها عند عزله ايضا !! فالقاعدة تقول :

If You Hire You Can Fire . فضحكنا جميعا للحكمة التي حسبناها عندئذ طرفة او دعابة ، واتجهنا بعدها الي مائدة الطعام فتحلقنا حولها وهي عامرة بما لذ وطاب من صنوف الطعام والوان الفاكهة ، وتسابقت ايدينا لتحيل ذلك العمران خرابا في دقائق معدودات ، وحدث ان اختطف احدنا من يد آخر قطعة مانجو كبيرة ، فلم يدعها له وحاول استردادها منه في اصرار وبقي الاول حريصا علي غنيمته يدافع عنها جهد طاقته ، حتي تحرج الموقف بينهما ، لولا

تدخل الرفاق الذين جهدوا في اعادة روح المرح الي المكان ، وشاركتهم في هذا السعي الميمون فرويت لهم قصة الصحابية التي جاءت الي ارض المعركة وهي تحمل شربة ماء تكفي لرجل واحد ، واخذت تمشي بين صفوف الجرحي والشهداء حتي ادركت ثلاثة من اصحاب الرسول (صلعم) وهم عطاشي قد اشرفوا علي الموت ظمأ والدم يخضب اجسادهم الطاهرة ، فازمعت المرأة سقيا اولهم ، فاشار الي اخيه وقال بصوت واهن خفيض :

- اذهبي اليه بالماء ، فلعله احوج مني اليه ! فانصاعت الصحابية لامره واتجهت الي اخيه الذي اشار الي ثالثهم وقال :

- لعله احوج واحق بالماء مني

فاتجهت بما تحمل من ماء الي هذا الاخير ، فاشار الي الاول قائلا :

- بل هو احق بالماء مني !

فعادت المرأة الي الاول فوجدته قد فارق الحياة ، وهرولت نحو الثاني فادركته شهيدا لا حراك به ، فسارعت الي آخرهم فاذا به قد اختار جوار ربه !! وتمثل للصحابية عندئذ قول الله تبارك وتعالي :

{ويؤثرون علي انفسهم ولو كان بهم خصاصة} صدق الله العظيم .

تركت القصة اثرها في نفوس الرفاق ، فقلت لهم بعدها .

- ليكن ذلك شعارنا ان كتب لنا النجاح .

فصادف مطلبي هوي في نفوسهم ، بل تحمسوا للشعار وتفاعلوا معه وانفعلوا به ، فقد كان حديث الفداء والايثار في ذلك الموقف يهز مشاعرهم ويحرك وجدانهم ولكنهم - في قابل الايام - انتهي بهم الامر الي التصفيات الجسدية ابان احداث يوليو ١٩٧١م المشئومة .

اذكر ان امر التصفية الجسدية حفاظا علي امن الثورة وبقائها قد ابتدره نميري في تلك الليلة نفسها ، فحدثنا انهم في اليوم السابق كانوا يسجلون بيانات الثورة الاولي في جهاز للتسجيل بمنزل الدكتور نصر الدين احمد بحي المطار وهو عديل مولانا بابكر عوض الله وقد كان في مهمة خارج البلاد بعاصمة اثيوبيا ، فاغتنم مولانا فرصة غيابه واخلي المنزل من ساكنيه لتسجيل البيانات ولكن حدث أن اقتحمت امرأة زائرة المكان وهم يسجلون ، فبدا لهم ان المرأة قد ارتابت في امرهم وعلمت مايجري في الخفاء ، عندها فكرت - والحديث لنميري -

في الخلاص منها بتصفيتها جسديا حفاظا علي امن تحركنا الثوري ، ولكنني عدلت عن ذلك وانا اصارع نفسي في عنف ، فقد اردت لبداية ثورتنا ان تكون بيضاء من غير سوء فاخليت سبيلها .

كان الحديث عن تأمين الثورة والتصفيات الجسدية مثيرا حقا ، فاستمع اليه الرفاق بكثير من الاهتمام ، تحسبا لطواريء الظروف والاحداث ، فلما فرغ نميري من افادته ، تباينت الآراء حول تصرفه ازاء المرأة موضوع الحديث ، فرأي البعض انه قد اخطأ في التصرف ، بحجة ان الشك ينبغي ان يفسر لصالح امن الثورة ولا مناص من التضحية بالافراد من اجل حياة امة باسرها ، ووافق آخرون نميري في ذلك التصرف الرحيم ، وضرورة ان تولد ثورة الخلاص بيضاء من غير عنف ولا دم !! وهؤلاء كانوا وقتئذ علي الفطرة الثورية ، ولكنهم في قابل الايام تبدلوا تبديلا !!

في حوالي الساعة الثانية عشرة تقريبا من تلك الليلة الليلاء ، اجتمع شملنا حول قواتنا من ضباط صف وجنود المدرعات والمظلات والملحوقات ، وتحت الانوار الكاشفة للمدرعات والعربات ، قمت انا بتقديم الضباط لجنودهم الواحد تلو الآخر وفاءا بالوعد الذي قطعته علي نفسي من قبل ، فولد ذلك الصنيع شحنة من الحماس المتعاظم في النفوس ، حيث كانت صيحات صف الضباط والجند تتعالي عند تقديم كل واحد من قادة التحرك ، فتترك اثرا بليغا في الطرفين معا ، حتي جاء دور نميري ! فاهتزت الارض بالهدير الذي خشي من عواقبه فوقف خطيبا يحدث عن الدور التاريخي لذلك التحرك ، وما ينتظر من صناعه في قابل الايام من تضحيات وعمل دؤوب لحماية ثورتهم وامن البلاد ، ثم حثهم علي ضرورة الالتزام بالمسلك القويم والخلق الكريم والضبط والربط ، وفي ختام حديثه دعا لهم بالتوفيق والسداد ، ثم امر بان يتولي السادة الضباط قيادة مجموعاتهم حسب خطة التحرك ، ففعلوا بحماس شديد .

كانت خطة التحرك ـ حسبما طرأ عليها من تعديل في زمن تحرك المجموعات ـ تقضي بتحريك المجموعات بفاصل زمني مقداره خمس دقائق بين كل مجموعة واخري ، علي ان يبدأ التحرك في الساعة الواحدة وخمس وخمسين دقيقة ، فيما عدا مجموعة فاروق عثمان حمد الله المنوط بها قطع خطوط الاتصال ، فقد رأي قائدها ان يتحرك بعد منتصف الليل بدقائق معدودة ، ليكون بمثابة قوة

استكشاف اولا ، ولانه كان قلقا بسبب تخلف الرائد ابو القاسم هاشم عن الحضور الي خور عمر حسبما جري عليه الاتفاق ثانيا .

اذكر ان فاروق حمد الله كان اكثر الرفاق فرحة ونشاطا وتفاؤلا ، وكان يردد علي الدوام اغنية مطربة الشرق ام كلثوم :

هذه ليلتي وحلم حياتي
بين ماض من الزمان وآتي

ولم يجاوز الحق في ذلك ، فقد كانت تلك الليلة وذلك التحرك املا غاليا عقد عليه حياته وربط به مستقبل ايامه بعد طول جهاد ونضال ، ولم يدر وقتها ان الاماني قد يصرن منايا !!

كانت مجموعة احتلال القيادة العامة هي اكبر المجموعات كافة ، وتألفت تقريبا من نصف قوات خور عمر ، مدرعات ، مظلات ، وخاصة القوة المدرعة لتعدد المهام المنوطة بها ، وقد تولي قيادتها كل من العقيد جعفر نميري قائد التحرك وشخصي (الرائد وقتها) محجوب برير محمد نور ، والرائد مأمون عوض ابو زيد والرائد كامل عبد الحميد ، كانت المهام المناطة بهذه المجموعة تقتضي بان تنفصل عنها قبل الوصول الي القيادة العامة فصيلة مدرعة عند مدينة ام درمان بقيادة الرقيب حسن البدري لتأمين موقف الاذاعة والتلفزيون ، ومراقبة ومنع اي تحرك من منزل السيد الصادق المهدي المجاور لمبني الاذاعة القومية .

كان من مهام قوات القيادة العامة ايضا ـ بعد احتلال القيادة وتأمينها ـ ان تتجه منها فصيلة بقيادة الرائد مأمون عوض ابوزيد لتأمين موقف المدفعية جوار كبري شمبات لخطورتها ، اذ هي القوة الوحيدة القادرة علي مصادمة قوة المدرعات الضاربة التي بحوزتنا .

اختير الرائد مأمون لهذه المهمة دون سواه لما له من صلات الدفعة والصداقة بقائد قوة المدفعية (الرائد وقتها) الشاذلي مصطفي . اما الرائد خالد فقد انيط به ان ينفذ بعض الاعتقالات كاعتقال رئيس الاركان وغيره ، ثم يقوم بقيادة فصيلتين من قوات القيادة العامة وفصيلة مدرعة لتأمين موقف سلاح اسلحة الجيش بقرب القيادة العامة لعلاقته الوطيدة وصلاته الحميمة بضباط هذا السلاح وما سبق قوله عن قوة المدفعية ، ينطبق تماما علي سلاح الاسلحة ، فهو بجانب

خطورته التكتيكية والاستراتيجية ، يحتاز اسلحة وذخائر ومفرقعات .

وهكذا يجيء دور قوة القيادة العامة اساسيا في عمليات تفجير الثورة ، وقد بدأت تحركها ـ حسب الخطة الزمنية ـ فانفصلت منها فصيلة الاذاعة عند مدخل مدينة ام درمان ، حيث كانت وثبة القوة الاولي ، عندئذ قمت بمراجعة خط سير القوة مع العقيد نميري بوصفي الضابط الذي يليه رتبة ، اذ كان كل من كامل عبد الحميد ومأمون عوض ابو زيد من الدفعة التي تخرجت بعدي في الكلية الحربية ، فطلب مني العقيد نميري ان اعدل خط سير المجموعة لتسير بمحاذاة النيل تحاشيا لتجمعات الجماهير التي تؤم مكان الاحتفال بمولد النبي (صلعم) وسط المدينة ، خاصة وان تلك هي الليلة الاخيرة من ليالي الاحتفال ، والشوارع مزدحمة بالمركبات والمارة ، قال لي نميري وهويعلق علي التعديل في خط السير :

ـ لا نريد ان نفسد علي اهلنا الطيبين جلال هذه الليلة الكريمة .

فاجبته الي ما طلب ، وعند مداخل القيادة العامة انتشرت قوتنا تحاصر معسكر القيادة حسب خطة العمليات المرسومة ، بينما تقدمت فصيلة اقتحام البوابة الرئيسية في بطء وحذر شديدين ، واعجب العجب ان قوة حراسة البوابة ـ بدلا من ان تتصدي لنا وتقاومنا ـ خرج افرادها مندفعين نحونا وهم يلوحون لنا ببنادقهم في الهواء ويطلقون صيحات الفرح وعبارات المؤازرة والتأييد ، فترجلنا عن المدرعات لملاقاتهم ، وعرفوا علي الفور كلا الرائدين كامل عبد الحميد ـ اذ كان احد ضباط حامية الخرطوم المنوط بها حراسات القيادة العامة ـ ومأمون عوض ابو زيد ضابط استخبارات القيادة والمسئول عن امنها ، كما عرفوني انا اذ كان ضابط قوة الاستعداد المسئول عن امن القيادة في تلك الليلة هو الملازم تاج السر بخيت الذي تربطني به صلات وثيقة ، كما كان نائبه المساعد محمد زين احد صف الضباط المنتمين لتنظيم الضباط الاحرار قبل ثورة اكتوبر ١٩٦٤م .

وتقدم نميري فتعرفوا عليه ايضا ، اذ كان من مشاهير ضباط القوات المسلحة آنذاك ، فالتف الضباط والصف والجنود حولنا والفرح الغامر ملء جوانحهم ، وحدثونا انهم ما ان رأوا قوتنا تقترب من مواقعهم حتي ادركوا عفو الخاطر انها قوة الانقلاب العسكري الذي يترقبه الجيش وينتظره شعب السودان ، لما آلت اليه الاوضاع من ترد سياسي وتدهور اقتصادي وصراع مقيت ! كانوا حقا فرحين

سعداء بهذا التحرك ، حتي خلت لسان حالهم ذلك النشيد الذي صاغه الامل وتغني به من بعد فنان مايو الشعبي ادريس ابراهيم ، حيث يقول :

(جيتنا يامايو زي ولدا بعيد من امه طول غاب . وفجأة بلا خبر طوالي دق الباب . وكنا يامايو زي ولدا بعيد من امه طول طاش ميت بالعطش والشوف بقي له طشاش . جيتنا يا مايو زي مطر السحاب الراش فوق عيشا ضبل بلاه فرهد عاش) .

بهذه المشاعر الدفيقة الحارة استقبلتنا قوات حراسة القيادة العامة من حامية الخرطوم وسلاح الطيران وسلاح المظلات والاستخبارات العسكرية وكتيبة القيادة العامة . فاتخذ نميري موقعه عند مدخل القيادة الرئيسي حيث مكاتب البوليس الحربي ، ثم امر بتطعيم قوة حراسات القيادة بعدد من افراد قوتنا واسند هذه المهمة لشخصي والرائد كامل ، كما اوكل الينا مهمة استدعاء ثلاثة من الضباط قال انهم في انتظار وصولنا بميس الضباط ، وهم الرائد طيار محمد عثمان همرور والرائد مصطفي اورتشي والرائد محجوب ابراهيم الشهير بمحجوب طلقة ، وقبل ان ننطلق لتنفيذ امره ، اردف نميري قائلا :

ـ بعد اخطار هؤلاء الضباط ، ايقظوا رفاقهم الآخرين بحجراتهم بالميس ونوروهم بالحدث ، واطلبوا منهم البقاء بالميس رهن الاشارة والطلب . ففعلنا ، كما امر الرائد مأمون باستدعاء الضابط العظيم . وهو ليلتئذ الرائد عثمان الدابي . ففعل حتي اذا كانت الساعة في حوالي الثالثة صباحا ، اكتملت لنا السيطرة التامة علي القيادة العامة ، عندها رأي نميري ان يقوم ببعض الاتصالات الهاتفية وعلي وجه الخصوص بحامية الخرطوم بحري وبالتحديد بالمقدم حسن ابو العايلة ، فطلب مني الاتصال بالرائد فاروق عبر جهاز المدرعة صلاح الدين (C.12) مع جهاز عربة المدرعة الفرت (C.12) في قوة فاروق عثمان ليعيد الحياة الي المواصلات التليفونية فوعد فاروق باعادة المواصلات علي الفور ، وانجز ماوعد .

بعد ذلك امر نميري الراندين اورتشي ومحجوب طلقة بالتحرك الي منطقة الشجرة للسيطرة علي سلاح الاسلحة والمدرعات بالتعاون والتنسيق مع الضباط وصف الضباط المدرجين في خطة العمليات ، كما امرهما باستدعاء العقيد سيد العمدة قائد سلاح الاسلحة لمقابلته عند حضوره الي السلاح في الصباح الباكر ،

ثم التفت نميري للرائد همرور فامره ان ينفذ ـ حسب خطة تفجير الثورة ـ تحرك سرب من المقاتلات ، ليقدم استعراضا جويا ، اظهارا للقوة في• سباح ٢٥ مايو ، فاجاب بحاضر وانصرف . ثم شرع نميري يدير قرص التليفون مرة بعد اخري ، واجري اتصالات ببعض الضباط في وحداتهم ، ثم نظر الي وطلب مني ان استدعي الرائد مأمون واخطره بالقيام فورا بمهمة التحرك الي قوة المدفعية بكبري شمبات ، فتركته يحادث ابو العايلة عبر التلفون وخرجت ابحث عن مأمون فلم اجده ، فعدت لاخبره بذلك ، فامرني ان اقوم انا علي الفور بالمهمة وبدا غاضبا من غياب مأمون .

فاستجبت للامر ، واذ كنت اهم بالتحرك ، خرج نميري من داخل المكتب واتجه نحوي قائلا:

ـ اسمع يامحجوب ، حاصر معسكر البطارية بمدرعتي صلاح الدين وحاملتي جنود كوماندوز ثم حاول تنويرهم واقناعهم ، فان استجابوا لك اوكل اليهم مهام حراسة كبري شمبات وتحريك فصيلة مدفعية منهم لمراقبة وحراسة طريق الجيلي - الخرطوم ،تحسبا لمصادمة قوات الشمالية في حالة معارضتها للتحرك الثوري ، فاذا لم يستجيبوا واستطعت انت ان تخرج منهم بسلام ، عندئذ اترك مدرعة والحاملات لتضرب عليهم حصارا قويا ، وعد انت بالمدرعة صلاح الدين لمقابلتي لاتخاذ ما يلزم من اجراء .

فاجبته بقولي : حاضر وتحركت بقوتي صوب كبري شمبات بالخرطوم بحري ، ومن عجب فاني واجهت نفس موقف ومشاعر قوات حراسة القيادة العامة ، اذ ما ان رأي افراد قوة المدفعية قواتي وهي تقترب حتي اخذوا يتصايحون فرحين مرحبين ، واتجه بعضهم فايقظ قائدهم الرائد الشاذلي مصطفي الذي تصادف وجوده بالمعسكر بغير تدبير في تلك الليلة ، فامر بجمع قوته وتعرفت انا علي افرادها من صف الضباط ، فقد كانت تلك البطارية من قوة المدفعية هي اول وحدة عملت بها بعد تخرجي في الكلية الحربية ، حيث كان سلاح المدفعية هو سلاحي الاول (Mother Unit) لهذا وغيره من الاسباب العامة ، اخذ الجنود وصف الضباط يتصايحون مهللين في جوف الليل ، واوضحوا لي ايضا انهم كانوا ينتظرون مثل هذا التحرك الثوري علي سلطة الحكم القائمة وطلبوا ان يشاركوا علي الفور في عمليات تفجير الثورة ! فنظرت الي قائدهم الرائد

الشاذلي كأني اسأله رأيه ، فنظر الي ثم قال علي مسمع من افراد قوته :
ـ اسمع يامحجوب ، انت الدفعة القدامي ، يعني ضابط اقدم مني ، وانا بعرف عسكرية مابعرف سياسة عشان كده اديني اوامرك انفذها ليك .
فضحكت شاكرا وافضيت له بالمهام الموكلة اليهم ، وانصرف مباشرة لتنفيذها بينما قفلت انا راجعا الي القيادة العامة واخطرت نميري بما كان . وماهي الا لحظات قلائل حتي حضر الرائد مأمون ، فابتدره نميري عن سبب تخلفه عن المهمة الموكلة اليه ، فاجابه بانه قد شاهد بعض رجال البوليس اثناء تقدمنا نحو القيادة العامة وهم برابطون في الحي المقابل للقيادة ، فاثار وجودهم حسه الاستخباري ، فخرج لاستجلاء هويتهم ، وعلم منهم انهم يراقبون نشاط اللصوص في ذلك الحي . فرمقه نميري بنظرة ساخرة كمن يستهجن تصرفه ذاك ، وامره ان يأخذ موقعه في غرفة عمليات القيادة العامة ، ففعل .
بقيت مع نميري في مكتب البوليس الحربي اتابع مجريات الموقف العسكري وتطورات الاحداث واذ نحن في ذلك حضر كل من مولانا بابكر عوض الله وفاروق عثمان حمد الله علي عربة خاصة ، ونقل فاروق الي نميري ان كل اقسام البوليس بالعاصمة في حالة استعداد تام ، بعد ان تجاوب افرادها مع الحركة الثورية بمجرد اخطارهم بها من قائدهم العقيد علي صديق قومندان بوليس الخرطوم .
في حوالي الساعة الرابعة والنصف صباحا ، حضر الرائد خالد حسن عباس ليتولي قيادة القوة التي انيطت بها مهمة تأمين موقف سلاح الاسلحة حسب خطة العمليات ، وقبل تحركه دار حوار قصير بينه وبين العقيد نميري حول اهمية استدعاء بعض الضباط الاحرار من منازلهم للمشاركة في قيادة وتأمين الموقف العسكري ودعم قوات التحرك ، وعلي رأس هؤلاء الرائد حماده عبد العظيم والرائد احمد محمد علي وغيرهما ، واقترح خالد ان يقوم هو بالمهمة العاجلة لثقة هؤلاء الضباط فيه واحتمال تجاوبهم الفوري معه ، فوافقه نميري علي ذلك ، ثم نظر الي باسما كمن يعتذر وقال :
ـ ما باليد حيلة يا محجوب ، فليس هناك من هو اقدر منك علي قيادة هذه القوة ، وخاصة بعد نجاحك مع قوة المدفعية ، ارجو ان تستغل هذا النجاح في انجاز نفس المهمة مع سلاح الاسلحة .

فاجبته بحاضر ، واذ كنت اهم بالانصراف لقيادة القوة ، استوقفني نميري وقام من مقعده ليضع كلتا يديه علي كتفي في مودة وتقدير ظاهرين ثم خاطبني بقوله :

ـ ظروف العمليات فرضت علينا ان نستغل شجاعتك وقدراتك العسكرية بهذا القدر الكبير .

حدجت نميري في ذلك الموقف بنظرة حاولت ان استشف من خلالها حقيقة مشاعره ، فايقنت انه صادق يعبر عن عرفانه بما انجزت وانجز من مهام تاريخية ، ثم انصرفت لاداء المهمة ، ووصلت بقوتي الي سلاح الاسلحة عند الساعة الخامسة صباحا تقريبا وعلي الفور ضربت علي بوابته الحصار ، وتقدمت باحدي مدرعاتي جنوب البوابة الرئيسية ، فالفيت المقدم سيد محمد يسن قائد السلاح بالانابة ، فابتدرته بالحديث من علي ظهر المدرعة وقلت له :

ـ اود اطلاعكم ضباطا وصف ضباط وجنودا علي الحدث الثوري واهدافه ودواعيه ، ومن ثم اشراككم في خطة العمليات .

فرد علي المقدم سيد في تحد واضح :

ـ اعلم اولا ان سلاحنا هذا معد ومستعد لصد اي هجوم ، وسوف نتصدي لقوتك ان حاولت بها الاقتحام ؛ ثانيا ليس لدينا استعداد للتفاهم او التجاوب معكم علي الاطلاق .

قلت له بغير انفعال :

ـ يحسن ان تتيح لي الفرصة لتنويرك انت والسادة الضباط والصف والجنود بهوية تحركنا وابعاده واهدافه ومداخل المشاركة فيه .

قال : لا فائدة فلن نستمع اليك .

في هذه اللحظة حضر الرائد عوض الكريم ادريس بعربته الخاصة ودخل عبر بوابة السلاح وترجل عن العربة وشرع يتحدث مع المقدم ، فرأيت ان امنح الرائد عوض الكريم فرصة للتدخل الايجابي في الامر بعد ان يعرف من محدثه ، ثم صحت فيهما معا بعد وقت كاف :

ـ اوامري هي دخول هذا السلاح وتأمين جانبه وتنوير قواته بحدث ثوري يجري في هذه اللحظات ولسوف افعل ذلك ان شئتما ام ابيتما !!

فجاءني رد المقدم سيد :

ـ لن نسمح لك ابدا بذلك .

عندئذ بدأت من علي برج مدرعتي اصدر اوامر الاقتحام لقادة المدرعات الذين كانوا جميعا علي مسمع مني وقد برزوا فوق ابراج المدرعات ، وقبل ان اعطي اشارة الاقتحام الاخيرة ، اندفع الرائد عوض الكريم نحو مدرعتي وهو رافع اليدين ، كمن يشير علي بالتوقف ، وواصل اندفاعه حتي صعد مقدمة مدرعتي واصبح في مواجهة مدفعها الرشاش ، ثم صاح:

ـ يا محجوب تعقل ، ان في هذا السلاح مفرقعات معدة للشحن واي اطلاق للنيران سيصيب السلاح والمناطق المجاورة باسرها بالدمار والهلاك !

قلت له بحزم :

ـ لا مفر ، ساقتحم مالم تسمحوا لي بالدخول .

قال :

ـ مايهمني هو سلامة السلاح وافراده والمنطقة من حوله ، فدعني احاول اقناع الاخ سيد من جديد

قلت : لا مانع ، وارجو ان توفق معه .

فعاد مسرعا الي سيد واخذ يحادثه في انفعال وحدة ، بدا لي ذلك من اشارات ايديهما اثناء الحديث ، ثم جاءني عوض الكريم ليقول لي :

ـ لا مانع من دخولك انت بمفردك يامحجوب لتنوير السادة الضباط ، فقط ارجو الا تتحرش بسيد .

فاجبته بالموافقة ، وقبل ان انزل من مدرعتي اصدرت امرا لقادة المدرعات الاخري ، يقضي باقتحام السلاح واطلاق النيران بعد نصف ساعة ان لم اعد اليهم قبل ذلك . كما اصدرت امرا آخر بالسماح لافراد السلاح بدخوله وعدم الخروج منه حتي عودتي واصدار امر آخر . وتعمدت ان يسمع الرائد عوض الكريم والمقدم سيد هذه الاوامر كلها - ثم صحبتهما الي مكتب قائد السلاح وهناك اجتمعت بالسادة الضباط الذين تصادف وجودهم آنذاك ، وبعد تنويري لهم بموجبات التحرك الثوري واهدافه استجابوا جميعا ، ووعدوا بتنفيذ المهمة المنوطة بسلاحهم وهي خروج سرية منه لتأمين خزان وطريق جبل الاولياء .جاء ذلك في اعقاب جدال بيني وبين ضباط السلاح اشترط خلاله المقدم سيد ان يبعد مولانا بابكر عوض الله من قيادة الثورة ، وان لا يتم اي تعاون او تنسيق مع

الشيوعيين ، وان يتولي سلطة الحكم في الاقاليم حكاما عسكريين .

فاجبته علي ذلك باني سانقل وجهة نظره للعقيد نميري قائد الثورة ، وحتي ذلك الحين رجوته ان يسمح لي بتنوير صف الضباط والجنود وارسال السرية من السلاح الي جبل الاولياء ، وقام السادة الضباط بجهد مقدر لاقناعه بذلك الامر

بعدها طلب مني الرائد عوض الكريم ان اعود الي قواتي المرابطة بالخارج لاصدار امر يلغي امر الاقتحام السابق لدنو موعد تنفيذه ، فاجبته الي ماطلب ، ثم عدت لتنوير افراد السلاح بعد جمعهم في ميدان التمام وماكدت افرغ من ذلك حتي اندفع الصف والجند في انفعال ثوري عظيم ، وخرجوا يعانقون اخوتهم قادة المدرعات وافرادها خارج السلاح ، كان مشهدا عاصفا حرك مشاعر الرائد عوض الكريم فعلق بقوله :

- هؤلاء جميعا كانوا سيغدون وقودا لنيران اسلحتكم المتصارعة !!

قلت له :

- لاشك انك قد لعبت دورا هاما في حمايتهم من هذا المصير ، ولسوف انقل ذلك للعقيد جعفر نميري . وقد حدث ذلك بالفعل ، ولكن ويا للعجب ، فقد كان الرائد عوض الكريم من اوائل الضباط الذين تم ابعادهم في الايام الاولي للثورة ، وذلك بحجة انه كان احد الضباط المساندين للواء محمد ادريس عبد الله ودعامة هامة في مركز قوته ، كذلك كان الرائد عوض الكريم عضوا في لجنة خاصة برفع اجور افراد القوات المسلحة وتحسين اوضاعهم الحياتية ، فالصقت به تهمة تعويق اجراءات تلك اللجنة وهو حقيقة من كل ذلك براء .

بقيت مع العقيد جعفر نميري بعد عودتي من مهمتي بسلاح الاسلحة وافادتي له بما تم فيها ، وكان مايزال بمقره في مكاتب البوليس الحربي عند مدخل القيادة العامة ، فحضر المقدم سيد العمدة قائد سلاح الذخيرة في صحبة الرائد اورتشي ، وابدي المقدم سيد تأييده للثورة واهدافها بكثير من الحماس ، وطلب من نميري ان يبقيه في قيادة سلاح الذخيرة ليقوم بدوره في تأمين الثورة اسوة بغيره من الضباط ، ولكن نميري نظر اليه متشككا وقال له :

- اعتبر نفسك يـ سيد في اجازة لمدة اسبوع ، وسنتخذ بعدها الاجراء المناسب بشأنك .

فرضخ المقدم سيد للامر الواقع ، ثم صدر من بعد قرار باحالته للتقاعد في كشوفات الضباط المبعدين سياسيا !!

مايو الثورة والمسار



{الحلقة الثانية عشرة}
مايو التولد !!

اشرقت شمس يوم ٢٥ مايو ١٩٦٩م . وحملت موجات الاثير للامة السودانية اخبار الساعة السادسة والنصف صباحا من اذاعة ام درمان وهي قاصرة علي بيانات الثورة الاولي ، احدها بصوت العقيد جعفر محمد نميري بوصفه قائد الثورة ، والآخر من مولانا بابكر عوض الله بوصفه نائب رئيس مجلس قيادة الثورة ورئيس الوزراء ، كما اعد بيان ثالث تقرر ان يلقيه الرائد فاروق عثمان حمد الله عبر التلفزيون عند بداية ارساله في الساعة السادسة مساء نفس اليوم .

وبقينا في القيادة العامة نترقب ردود الفعل لتلك البيانات في الداخل والخارج ، فلم يمض وقت طويل حتي ورد الينا تقرير بالموقف العام جاء فيه ان الشارع السوداني قد تجاوب مع حدث تفجير الثورة بصورة لم يسبق لها مثيل ، وخرجت مظاهرات التأييد العفوية في كل مكان ، وان الشعب قد استقبل نبأ الثورة بحماس عظيم .

ثم توالت التقارير عن الموقف من بعد في تصاعد مطرد وهي تؤكد التفاف شعب السودان حول ثورة مايو ١٩٦٩ وتأييده المطلق لها بغير حدود . وفي حوالي الساعة الثامنة صباحا انتقل العقيد جعفر نميري الي مكتب القائد العام بالقيادة العامة واصدر قرارا بتعيين الرائد اورتشي اركانحرب له يعاونه نفر من الضباط . وفي ذلك الوقت تقريبا حضر كل من المقدم بابكر النور والرائد ابو القاسم هاشم ، فانفرد بهما نميري لوقت قصير في مكتب منعزل ، ثم خرج ثلاثتهم واعلن نميري لمن حوله من الضباط ان المقدم بابكر النور سيتولي مهام اركانحرب العمليات ، بينما يتولي ابو القاسم هاشم مهام اركانحرب الادارة فضلا عن اشرافه علي سلاح الاشارة ، فاتضح من جماع ذلك ان الرجلين اوصلا العقيد نميري لقناعة راسخة بسلامة وايجابية موقفهما من التحرك الثوري ، فلم يملك الا ان يستجيب لمطلبهما بالانخراط في صفوف قادته وصناعه .كان كل شيء مرتبا بصورة دقيقة متقنة ، ففي الساعات الاولي من صباح ٢٥ مايو ١٩٦٩م اذيع

بيان بالتشكيل الوزاري .
كان هذا التشكيل مفاجأة لنا نحن قبل الآخرين ، فقد جاء مناقضا لمخطط تنظيم الضباط الاحرار وماجري عليه الاتفاق بيننا في خور عمر !! حيث كان التخطيط والاتفاق يقضيان بان يـ تعيين الوزراء في الفترة الانتقالية من التكنوقراط غير العقائدين او الذين عرفوا باتجاهات حزبية وطائفية معينة ! فاهمل التشكيل الوزاري المعلن هذا المبدأ الجوهري ، وجاء الوزراء في جملتهم من قياديي الحزب الشيوعي السوداني والقوميين العرب ! فاثار ذلك التجاوز الخطـ دهشتنا واصابنا باحباط شديد في القوات المسلحة عامة وقوات خور عمر علي وجه الخصوص ، ولم نعد ندري ما اذا كان الامر مدبرا بليل ام انه وليد ظروف طارئة لم تكن في الحسبان .

لهذا توجهنا انا والرائد عثمان الحاج حسين (ابو شيبة) والنقيب سيد احمد عبد الرحيم الي العقيد جعفر نميري نسأله تفسيرا لما حدث . فجاء رده علينا في عفوية مفرطة لعلها كانت مقصودة لذاتها ، قال لنا :

- غريبة التشكيل تم كده ! علي العموم هذه وزارة انتقالية ولفترة محدودة جدا ، وفي اعتقادي ان مولانا بابكر عوض الله قد اختار هؤلاء الوزراء لمواقفهم وحسهم الوطني ، وليس لاعتبارات انتمائهم العقائدي . وما علينا الآن الا ان ندعو له ولهم بالتوفيق والسداد !

عندئذ نظر سيد احمد عبد الرحيم الي نميري في تحد وانكار ولم يتردد في ان يجبهه بقوله: - يا سعادتك دي وزارة ثورة ، وهي اشبه برأس الرمح في مسار الثورة من بعد ، فلماذا يجيء تكوينها مخالفا لما اتفقنا عليه ؟

فاجابه نميري :

- اسمع يا سيد احمد ، اولا انت صغير السن علي العمل السياسي وتجهل شعابه ودروبه المتعرجة ، ونصيحتي لك ان تلتزم جانب العمل العسكري وسيتحدد دورك وعطاؤك في هذا المجال فقط ، وربما يكون هذا هو الدور المنوط بكل افراد القوات المسلحة عموما ، وقوات خور عمر بصفة خاصة ، عشان كده نحن اتفقنا علي عدم تعيين حكام عسكريين لتجنيب القوات المسلحة مزالق العمل السياسي ومسئولياته .

فسأله النقيب سيد احمد بما يؤكد افادته : ـ الا تظن سيادتك ان تحركنا من خور عمر عمل سياسي ؟

ورد عليه نميري بقوله :

ـ نعم ، ولكنه عمل اقتضه مرحلة تفجير الثورة الحتمية وبعدها لابد لنا ان نترك العيش لخبازيه ، ونلتزم نحن جانب حماية امن الثورة ، لنتيح لهم ولها فرصة الانجاز التنفيذي ، خاصة وسنكون نحن في القوات المسلحة قابضين علي زمام قيادة الثورة ، بما نمثله من اغلبية في مجلسها القيادي .

حاول سيد احمد ان يعقب بما يفيد عدم الاقتناع بهذا الطرح ، ولكن نميري رفع يده كمن يشير عليه بالتوقف عن الحديث ، ثم قال له :

ـ صدقني يا سيد احمد ، انا شخصيا لم اتدخل في هذا التشكيل الوزاري الا بقدر يسير ، فكما قلت لكم في خور عمر ، نحن اعطينا مولانا بابكر عوض الله صلاحيات تشكيل الوزارة ، ومن حقه ان يختار لوزارته من يثق في تجانسهم وتعاونهم معه ! ودلوقتي اقول ليكم انصراف ، يا الله شوفوا واجباتكم الاهم من تشكيل الوزارة .

فانصرفنا من عنده محبطين غير مقتنعين بما قال .

اثر ذلك اللقاء بالعقيد نميري ، قمت بتفقد قواتي وعدت في حوالي الساعة العاشرة صباحا الي القيادة العامة ، فالتقيت عند مدخلها الرئيسي بمولانا بابكر عوض الله نائب رئيس مجلس قيادة الثورة ورئيس الوزراء ، كان كمن يبحث عني وهو بادي الاضطراب والقلق ، فما ان ابصرني حتي اقبل نحوي في لهفة بالغة ، وبلا مقدمات او مناسبة خاطبني في ضراعة ورجاء : محجوب ، اوقف نزيف الدم ، نريد لهذه الثورة ان تولد بيضاء ما كان الي ذلك سبيل !

فتجاوزت ما اعتراني من دهشة وسألته مباشرة عن نزيف الدم الذي تحدث عنه ، فقال :

ـ قيادة الحزب الشيوعي اوهمت نميري بوجود ترسانة اسلحة بمنزل السيد الصادق المهدي الذي تجمع انصاره المتطرفين حول منزله ينتظرون اشارة منه للتحرك المسلح لاجهاض الثورة ، وقد اقنعت قيادة الحزب الشيوعي نميري بضرورة اخذ زمام المبادأة وتصفية الانصار الموالين للسيد الصادق بدنيا وهو معهم ! ثم التحرك الي الجزيرة ابا لتصفية الامام الهادي ومن حوله من الانصار

والاستيلاء علي ترسانة اسلحتهم ، ولا اشك ابدا ان تنفيذ هذا المخطط سيترتب عليه كارثة تاريخية ماحقة ، خاصة في غياب اي دليل علي مزاعم الشيوعيين بوجود ترسانات السلاح او تحرك مرتقب من السيد الصادق المهدي لاجهاض الثورة .

قلت له :

ـ ولماذا لم تقنع قادة الحزب الشيوعي بوجهة نظرك هذه ؟

فاجاب عن قناعة راسخة :

ـ انهم لا يرضون بالتصفيات الثورية بديلا لحسم خصوماتهم السياسية المزمنة ، ويبررون مسلكهم هذا بضرورة العنف الثوري لتقويم حال البلاد ، ولكني لا اوافقهم الرأي في ذلك ، فان لعبة السياسة غير لعبة الشطرنج حيث يكون قتل الملك نهاية حتمية لمسار اللعبة !!

قلت لمولانا بابكر عوض الله :

ـ اوافقك في كل ذلك ، ورأيي ان نذهب معا لاقناع نميري .

قال في نبرة يائسة :

ـ لافائدة ، فقد وقر في نفس نميري انه اما قاتل او مقتول بعد ما كان ، ففضل الخيار الاول !! عملا بمبدأ الدفاع عن النفس ، وتأمينا لثورته ونجاحها ، ولكن رغم ذلك اري ان تحاول معه فعسي ولعل ، كما اري لزاما عليك ـ قبل هذه المحاولة ـ ان تبذل قصاري جهدك لوقف التحرك المسلح الذي تقرر ان يقوده الرائد عثمان الحاج حسين (ابوشيبة) كما علمت من مصدر موثوق به .

قلت له مطمئنا :

ـ سافعل .

ثم ودعته من فوري الي هنقر سلاح المظلات حيث توجد قوتنا الاحتياطية من المظليين والمدرعات ، وكم دهشت وانا اري الرائد ابو شيبة يقوم بتجهيز تلك القوة علي عجل ، وحين سألته عن ذلك الصنيع ، افضي الي بان امرا قد صدر له من نميري وقيادة الحزب الشيوعي السوداني بالتحرك السريع لضرب السيد الصادق المهدي وانصاره ! فاستفسرته عن اسماء من اصدروا له ذلك الامر وعما اذا كان السيد عبد الخالق محجوب بينهم .

فاجابني وهو يوجه باستكمال التجهيز :

- ان الامر قد صدر لي من اعضاء الحزب العسكريين وهم تلقوه بدورهم من قيادتهم المدنية   واستطرد ابو شيبة :

- لا تتصور يا محجوب انني ازمع استخدام القوة بغير فهم او رويه وتمحيص ، او قبل تأكدي من صحة المعلومات التي تفيد بحقيقة التحرك المضاد .

ازاء ذلك نقلت اليه ما دار بيني وبين مولانا بابكر عوض الله من حديث ، ثم اصدرت له امرا بفض القوة وعدم تجميعها او تحريكها الا بامر آخر مني ، ففعل وزيادة في الحرص والتحوط ، اصدرت امري الي صف الضباط بعدم التحرك لاية جهة كانت قبل حضوري اليهم ، ففعلوا ايضا .

ثم اتجهت مباشرة لمقابلة نميري بمبني القيادة العامة وهناك انتحيت به جانبا وحدثته بكل مادار حول ذلك الامر ، وبذلت جهدا عظيما لاقناعه بضرورة التروي في معالجته ، فاخذ يتفرس في وجهي طويلا كمن يحاول استبطان دواخلي ، ثم طلب مني ان اتبعه الي مكتب قريب ، وهناك تكررت نظرته الفاحصة والصمت يلف المكان ، بقي كذلك لحظات ابتدرني بعدها بقوله :

- اسمع يا محجوب ، انا شخصيا لم اكن راضيا عن قرار تصفية الصادق والانصار ، فانا انتمي لواحد من بيوت الانصار المعروفة ، ولآل المهدي افضال علي اسرتي وعلي انا شخصيا ، وانا مدين لهم بالوفاء ورد الجميل ، ولكن ما باليد حيلة ، فهذه ثورة ، ولا املك ان اجامل او اغامر بامنها وارواح صناعها ، والقاعدة الثورية هي ان يفسر الشك لصالح الثورة لا الافراد ، لهذا فاني لم اتردد في تصديق افادات الحزب الشيوعي وقادته ، فقررت انتزاع المبادأة من ايدي زعماء الانصار واتباعهم المتطرفين ، ورأيت ان (نتغدي بيهم قبل ان يتعشوا بينا) .

قلت مراجعا :

- مولانا بابكر عوض الله اكد لي ولك كما علمت منه ان قيادة الحزب الشيوعي : هي بهذه المعلومات المضللة المفتراه لتصفية الخصوم ، وما دمت انت مدينا لآل المهدي بالوفاء ورد الجميل ، فلا تأخذهم بالشبهات وتمكن اعداءهم منهم وانت قادر ، خاصة في مثل هذه المواجهات المصيرية .

قال نميري وهو يتأرجح بين الاصرار علي الامر والرجوع فيه :

- محجوب ، انا اثق في ذكائك وقدرتك علي تمحيص الامور واستكناه

الحقائق ، فهل تشاطر مولانا بابكر الرأي في ان هذه المعلومات عارية من الصحة؟

اجبته بحماس بالغ :

- نعم ، هذا ما اعتقده واجزم به .

فاخذته عدوي الحماس وقال :

- اذن سأتيح لك فرصة قيادة القوة المعدة لمواجهة الانصار ! واحسب ان في هذا العدل والامان ! وفيه محك يقطع الشك باليقين . ولكني اشترط عليك ثلاثة شروط ان لم تقبلها فما عليك الا ان تنصرف لمهامك وواجباتك الاخري وتترك لي حرية التصرف حيال هذا الموقف .

قلت مباشرة :

- انا موافق علي شروطك حتي قبل سماعها ، فقط دع لي معالجة الامر برمته .

ورمقني نميري بنظرة خاطفة وقال :

- الشرط الاول ، ان تكتم خبر تدخلي هذا عن الكل ، فلا يعرف اني عينتك لقيادة القوة بدلا عن ابي شيبة ، لاني سبق واتفقت مع قيادة الحزب الشيوعي علي اخذ زمام المبادأة وتصفية الصادق وانصاره ، ولا اريد ان اواجه بالحرج منهم لعدم التزامي بالاتفاق ، ونحن في بداية تعاوننا وحرصنا علي الانجاز الذي تم ، وليكن معلوما لديك منذ الآن انني ساتنصل من كل علاقة لي بتدخلك في هذا الموقف ، بل علمي المسبق به ايضا !

قلت له :

- اعدك بكتمان هذه المسألة وبتجنيبك حرج مساءلة الرفاق .

تبسم في رضا ظاهر وقال :

- الشرط الثاني هو ان تصدر اوامر ضرب مؤجلة لقوتك وهي ترابط حول منزل السيد الصادق المهدي وان تدخل وحدك لمواجهته ، فاذا تبين صدق معلومات الرفاق فلا تتردد في الاشتباك وتنفيذ المهمة كما خطط لها من قبل .

قلت :

- واقبل هذا الشرط ايضا .

قال نميري :

- الشرط الثالث هو ان تنقل لي بامانة مطلقة موقف الصادق السياسي والعسكري من ثورتنا ؟ وتحاول استكشاف ما اذا كانت لديه ترسانة سلاح ام لا ، وهل لديه قصد مدبر للتحرك المسلح في مواجهتنا ؟

قلت له :

- وسأفعل هذا ايضا :

ضرب علي كتفي بيمناه وقال :

- اذن توكل علي الله ، ربنا يوفقك ، والله يكضب الشينة .

قال عبارته الاخيرة ساخرا فتجاوبت معه باشارة م[illegible]ية بالامل والتفاؤل ، وانصرفت لاعداد القوة ، وكانت سرية مدرعة وفصيلين من المشاة المظليين ، اضافة الي قوة حراسة الاذاعة والتلفزيون التي سبق لابي شيبة ان اخطر قائدها لتكون قوة احتياط للموقف .

ما ان فرغت من اعداد القوة واصدار اوامر العمليات لافرادها ، حتي حضر للقائي كل من الرائد خالد حسن عباس والمقدم احمد عبد الحليم ، وكان كلاهما بادي الانفعال والتحفز ، فتحدث الي خالد اولا واخبرني انه علم بجلية الامر ، وانه علي كمال الثقة بعدم صحة ماورد من معلومات عن الصادق وانصاره ، ولهذا فانه يأمرني - اي خالد - بعدم الاشتباك الا للضرورة القصوي ، وبغرض الدفاع عن النفس .

ثم اردف :

- الانصار ديل مهما كانت الحالة اهلنا ، ونحن عاوزنها ثورة بيضاء .

وشايع المقدم احمد عبد الحليم الرائد خالد في كل افاداته واوامره ، ولكنه ذكرني بواجب التجرد العسكري ازاء الموقف وعدم الانسياق وراء العواطف السلبية وردود الافعال ، وختم ذلك بقوله :

- علي العموم الريس مش راضي بتصفية الصادق والانصار وبقول دول هم اهل السودان .

ولم انتبه وقتها لأسال المقدم احمد عبد الحليم عمن هو الريس الذي عناه في افادته تلك ، فقد كنت اعلم - قبل مايو وبعدها - انه كان يشير الي الرئيس جمال عبد الناصر دائما بكلمة (الريس) وكان يستخدمها للاشارة الي نميري ساخرا فينطقها مضخمة طنانة عن قصد وعمد !! ولكنه في ذلك الموقف ارسلها بنفس

العفوية والبساطة التي نعرفها له حين يريد الاشارة الي الرئيس عبد الناصر ، فلم اتبين مرماه .

وفي قابل الايام والسنين ، سألت المقدم احمد عبد الحليم ان كان قد عني بكلمة (الريس) يومذاك الرئيس جمال عبد الناصر ! فنظر الي ساخرا وضحك طويلا وقال :

ـ دي حاجات ما لكشي فيها يا محجوب ، انساها خلاص !!

والمقدم احمد ـ اطال الله بقاءه ـ مستودع لكثير من الحقائق ، فليته يتفضل باماطة اللثام عن هذه الحقيقة التاريخية الهامة ، لان فيها الاجابة القاطعة علي السؤال الحائر الكبير :

ـ الي اي مدي كان تدخل الرئيس جمال عبد الناصر والحكومة المصرية في التخطيط والتحضير لثورة مايو ودعمها وتأمين بقائها ؟!

وكنت حملت هذا السؤال عينه الي مولانا بابكر عوض الله ، ففكر وقدر ثم قال لي :

ـ محجوب ، تذكر ان ليس كل مايعرف يقال .

قال ذلك في نبرة تنم عن عزوفه وعدم رغبته في الكشف عن خبايا السياسة التي يعرفها ، وليته فعل . فكم حاولت اقناعه بكتابة مذكراته عن مايو ، بل تطوعت بكتابتها نقلا عنه ، ولكنه رفض في اصرار شديد !

كيفما كان الامر حول ذلك الموقف وغيره ، فقد تحركت ضحي يوم ٢٥ مايو ١٩٦٩م بقوتي نحو منزل السيد الصادق المهدي في ام درمان ، وعند بداية تحركي جاءني ابو شيبة وعرض علي مرافقتي في القوة كقائد ثان ، حتي يكون علي رأس القوة حين دخولي للقاء السيد الصادق المهدي ، فيتحكم في تنفيذ الامر المؤجل باطلاق النار ، فصحبته معي .

بينما كنت اقترب من منزل السيد الصادق المهدي لحق بي الرائد فاروق عثمان حمد الله ، ونصحني بعدم ترك ابو شيبة علي قيادة القوة عند دخولي الي السيد الصادق المهدي ولقائه ! وقال لي انه سيرقب الموقف عن بعد ، وسيكون الي جوار منزل السيد مهدي مصطفي الهادي المجاور لمنزل السيد الصادق المهدي ليتصل بالقوة في حالة الاضطرار للاشتباك مع الانصار .

سألت فاروق عن دواعي نصحه لي بعدم ترك ابو شيبة علي رأس القوة في

ذلك الموقف ، فقال :

- اخشي ان يخضع ابو شيبة لموجبات التزامه العقائدي فيطلق النار لا لسبب سوي تنفيذ مخطط الحزب الشيوعي الرامي لتصفية السيد الصادق وانصاره تخلصا من اكبر قلاع القوي التقليديه في البلاد !

- واصلت سيري نحو منزل السيد الصادق بعد ان امرت القوة - بصوت مرتفع حرصت ان يصل الي الجموع المحتشدة حول المنزل - باطلاق النار عند سماع افرادها لصوت اطلاق النار بالداخل ، او اذا تأخر خروجي عليهم عن ساعة واحدة ، وكانت هذه الاوامر علي مسمع ومشهد من الامير عبد الله عبد الرحمن نقد الله وهو يعرفني واعرفه ، وقادني والاخ ابو شيبة [illegible] جموع الانصار الي لقاء السيد الصادق المهدي بالداخل ، حيث [illegible] بدوافع تحركنا العسكري ومراميه واهدافنا [illegible] ثم شكوكنا في وجود اسلحة بمنزله ووجود ترسانة من السلاح في [illegible] بامكان تحركه المضاد في مواجهتنا ! واسديته النصح بالا يفعل ، اذ ان الجيش باكمله قد اضحي سندا للثورة ولا يستطيع هو والانصار مصادمة جيش نظامي بقوة غير نظامية ، ثم طلبت منه ان يوضح لنا موقفه من الثورة بعد ان نقلت له عهد الرئيس نميري له بانه سيكون بأمن [illegible] من خطر هو و[illegible] واله وانصاره .

[illegible] السيد الصادق المهدي وقال ما معناه : فيما يتصل بامر عهد الامان فانه لا يريد [illegible] يكون هو و[illegible] انصاره فقط في امن وامان ، بل يجب ان يشمل [illegible] اهل السودان [illegible] عن تحركه المضاد المرتقب : انه قد شاهد تحركنا الانقلابي ليلا ، ولو كان في نيته حقا ان يتصدي لنا لما انتظر حتى هذه الساعة ، فهو لم يفعل لانه اراد اولا ان يتأكد من هويتنا واهدافنا وسندنا العسكري والشعبي .

وعن أهدافنا التي سردتها عليه قال :

هذه الاهداف هي في الواقع اهدافه وشعاراته هو ، وقد طرحها في كثير من خطبه ومنشوراته ، ومع ذلك ، فهو لا يمانع او يرفض ان توضع هذه الاهداف والشعارات موضع التنفيذ ان كان ذلك في الامكان .

ثم تحدث عن موقفه السياسي من الثورة فقال :

ان هذا (الانقلاب العسكري) كان واردا في حساباته لما ساد الساحة

السياسية من صراع وفوضي وعدم استقرار ، ولكنه رغم ذلك يري اننا ـ نحن الذين قمنا بالانقلاب ـ لا نملك الخبرة السياسية الكافية التي تؤهلنا للانطلاق بالثورة وتحقيق اهدافها وادارة دفة الحكم والسياسة ، وفي حاجة لذوي الخبرة بهذه الشئون ليكونوا عونا لنا في الفترة الانتقالية التي حددناها ، لنعيد بعدها السلطة للشعب عن طريق الهيئة البرلمانية المنتخبة .

وقال في ذلك ايضا :

انه وانصاره لا يمانعون في التعاون معنا خلال الفترة الانتقالية ، بل سيتولي اقناع القوي السياسية الاخري بضرورة هذا التعاون لمصلحة البلاد ، شريطة ان نبتعد عن الحزب الشيوعي السوداني وقيادته وشخص بابكر عوض الله !!

وعن نميري قال السيد الصادق :

ما يعرفه عنه انه سليل الانصار ومن احد بيوتهم المعروفة ، وهذا ادعي لتعاونهم معه اذا رغب في ذلك وسعي اليه .

قلت له بعد ذلك :

ـ لكي اكون امينا وصريحا معك ، انا لا اثق في امكان تعاونكم مع الثورة في هذه المرحلة ، لان توجهها الحالي مناويء للاحزاب التقليدية والقوي الطائفية وانت زعيم طائفة ورئيس حزب .

فرد بانفعال ظاهر بقوله :

اذا كان هذا رأيكم ، فلماذا تتعاونون مع الشيوعيين وهم حزب سياسي كغيره من الاحزاب ؟ اني انصحكم بالابتعاد عن هؤلاء ، فلن تجنوا من ورائهم سوي الخراب والدمار .

قلت له مؤكدا :

ـ اني سأنقل وجهة نظرك هذه بكل امانة الي نميري وبقية الاخوة صناع الحدث

عندئذ نظر الامير عبدالله عبد الرحمن نقد الله في ساعة يده وقال لي مازحا :

ـ مايزال لدينا عشرين دقيقة قبل فنائنا وانت فينا !!

فقلت ضاحكا :

ـ ليس لدي ما اضيفه يا امير ، فانا رسول امين ولست صاحب قرار .

فهز رأسه مرات كمن يوافقني الرأي ، ثم ودعني السيد الصادق ومن معه ،

وقام الامير نقد الله باخراجنا الي قوتنا من بين حشود الانصار ، بعد ان وعد خلال لقائنا بالسيد الصادق بالعمل علي تفريقهم من حول منزله حتي لا يثيروا مخاوفنا او يكونوا اداة للتحرش بنا ، فشكرته علي ذلك وانصرفنا من بعد بكامل قوتنا الي القيادة العامة . حيث الفينا نميري وفي معيته مولانا بابكر عوض الله وثلة من الاخوة الرفاق ، فابتدر نميري ابو شيبة بالسؤال عما حدث . وكان ابو شيبة خلال الاجتماع بالسيد الصادق قد نذر علي نفسه الصمت فلم يتحدث مطلقا ولهذا فقد استوعب كل مادار من حوار ونقله بحذافيره الي نميري ومن معه . فما كاد بابكر عوض الله يسمع ابا شيبة ينقل شرط السيد الصادق بابعاد الشيوعيين وبابكر عوض الله من واجهة السلطة ليتم تعاونه معها ، حتي انفجر غاضبا فيما يشبه الهياج وضرب بقبضته منضدة الاجتماعات وقال :

ـ يريد الصادق ان يبعدني عن الثورة ، انا الثورة وانا اقولها بالصريح الواضح ، اما الصادق واما الثورة !!

فتجاوب معه الرفاق وآزروه ، واعقبهم نميري مؤيدا بغير حماس ، ثم قال وهو يشكرنا علي اداء المهمة :

ـ انتو ونحن ادينا العلينا ، وحنتشاور مع اهل الرأي لاتخاذ ما يلزم من اجراءات ثورية تجاه الصادق المهدي وانصاره .

في وقت لاحق من ذلك اليوم ، كلفني الرائد خالد حسن عباس بكتابة تقرير للموقف ، يشمل ما يرد من اشارات التأييد الاسلحة ووحدات الجيش المختلفة في العاصمة والاقاليم ، اضافة الي ما يمكن ايراده من قياس للرأي العام ، فعكفت علي تلك المهمة وانجزتها علي الوجه المطلوب .

شمل ذلك التقرير تأييد كل اسلحة وقيادات العاصمة واجماعها علي الثورة وتفاعلها معها ، وكذا الحال مع جماهير العاصمة المثلثة ماعدا قلة من المعارضين الصامتين بطبيعة الحال ، وذلك الرصيد الوفي المتطرف في ولائه للطائفية والاحزاب التقليدية ! وفيما عدا هؤلاء واولئك جاء تأييد العاصمة مطلقا بلا حدود ، اما الاقاليم فقد وردت اولي اشارات التأييد فيها من حامية ملكال تحت قيادة العقيد عبد الله الهادي ، ثم تقاطرت بعدها اشارات التأييد من كل الاسلحة والقيادات ، ولم يكن من سبيل لقياس الرأي العام فيها .

وعند الظهيرة وردنا تقرير بالموقف من وزارة الداخلية والامن العام

والاستخبارات العسكرية ، مفاده ان السيد الصادق المهدي وانصاره سيجتمعون في ساحة قبة الامام المهدي ، بهدف الاستعداد لمناهضة الثورة وان قوة مسلحة قد جري تجهيزها سرا لتقوم بهجوم مسلح مضاد بقيادة الضابط بالمعاش صلاح عبد السلام الخليفة !

اثار هذا التقرير ردود فعل عنيفة لدي الرفاق ، فتنادوا لاتخاذ ما يلزم من امر حياله ، بعد وجبة غداء سريعة ، كانت الساعة قد قاربت الثالثة بعد الظهر ، وعندها الفيتني في رهق واعياء شديدين ، فقد انقضي نهار الامس وليلته وتحدرت الشمس نحو خدرها ولم يغمض لي جفن ، فاستأذنت نميري لآخذ قسطا من الراحة بميس الضباط ، فاذن لي وسلمني مفتاح حجرة احد الضباط وقال :

ـ صاحب الحجرة في مأمورية خارج العاصمة ، وقد تسلمت منه مفتاحها لاستخدامي الخاص ، فخذه واغلق عليك الباب ، ولا تستيقظ الا صبيحة الغد فاني اريدك لبعض المهام الجسام ، واذا ما اضطرتني الحاجة اليك قبل ذلك فاني علي الاقل اعرف اين اجدك .

قالها ضاحكا وهو يشير علي باخذ لفافة بها طعام حريف من المرطبات واردف :

ـ خذ هذه معك .

ففعلت . وهناك في الحجرة آثرت الاستحمام قبل التوجه الي النوم ، ومن عجب ، ما ان خرجت من الحمام حتى وجدتني نشط صافي الذهن متفتح الوجدان ، وهي حالة تعتريني عادة كمقدمة لرغبة في الافضاء لا تقاوم ، وتدعوني للامساك بالقلم والتحيز للكتابة ، فاستجبت لها وجلست اكتب احداث يومي ٢٤ ، ٢٥ مايو على وجه التفصيل وكنت واثقا انها ايام سيذكرها التاريخ !

ثم توجهت الي السرير الوثير اطلب النوم بلا جدوي ، كان عقلي يدور مع دق الحدث وجلبته كالطاحونة وتقلبت علي جمر الارق وقتا طويلا ، فتركت الفراش وتناولت عشاءا خفيفا ، وبعد استغراق في التفكير والتأمل سعي النوم من تلقائه الي عيني ، فجرجرت ساقي نحو الفراش ، ورحت في سبات عميق لم افق منه الا عند الثامنة من صباح الغد ٢٦ مايو ١٩٦٩م .

صحوت ممتلىء الاهاب بالحيوية والاشراق فخرجت في جولة للتمام علي

قواتي . عادت بعدها لانضم الي الرفاق باجتماع العامه ، وللوهلة الاولي أحسست فيهم حركة غير عادية ، تفسروا مجموعات للانسجام والراحة ، بينما تولي الاخوة بابكر النور وابو القاسم هاشم وحيدر ويعقوب واورتشي وبعض الضباط مهام العمل والمسئوليات ، ومتابعة تطورات المواقف في البلاد من خلال مايرد من اشارات وتقارير ..

كان الظرف كله في صالح الثورة ، ذلك المناخ النفسي الذي ولدت فيه ، حيث ساد السخط كل قطاعات الشعب من جراء الصراع الحزبي ، وما افرزه من سلبيات امتد اثرها الي اواصر الرحم والعلاقات الانسانية بين الناس ، فباعدت بينهم واشعلت الحرب على اسباب الشقاق والفرقة ، فتقبل الناس الواقع الجديد بكل الرضا والتفاؤل

ومحصل القول في هذا الشأن ، ان اشارات التأييد قد وردت من كل حاميات العاصمة والاقاليم ، كما افادت تقارير الموقف السياسي بالتفاف الشعب كله حول الثورة وتأييده المطلق لها ، واذ كنا نتابع الامور وسيرها ، علمنا من الرفاق ان الانصار قد تجمعوا ليلة امس حول قبة الامام الهادي ، فتوجهت لحشدهم قوة عسكرية بقيادة بعض الضباط من ذوي الدراية بشئون الانصار ، فاصدروا لكبرائهم امرا بتفريق الجموع المحتشدة ، حسما للموقف السياسي المعارض ، ووقفا لاعمال التحرش وانتهاك القانون . وبالفعل عمل شيوخ الانصار علي منع الصدام ، واستطاع قادة القوة العسكرية امتصاص مشاعر الانصار العدائية وتفريق جموعهم بالحسني . اما عن السيد الصادق المهدي نفسه فقد قيل انه غادر العاصمة ليلحق بعمه الامام الهادي بالجزيرة ابا ، وتتجه النية للاتصال بهما معا .

في ذلك الجو العابق بالترجس والارهاصات انتحي بنا . انا وابا شيبة . العقيد نميري جانبا وقال لنا انه قد تشاور مع قادة الحزب الشيوعي . وهم كما يري ذوو خبرة وافرة بمسائل السياسة . حول تكوين مجلس الثورة الانتقالي ، فاشاروا عليه بتكوين المجلس من الضباط الذين قادوا التحرك وفجروا الثورة من خور عمر ، علي ان يضاف اليهم ثلاثة اعضاء كممثلين لتنظيم الضباط الاحرارداخل المجلس ، اثنان منهم من الحزب الشيوعي والثالث من القوميين العرب ! وقد رشحوا له من الشيوعيين كلا من المقدم بابكر النور والرائد هاشم

العطا ، ومن القوميين العرب الرائد ابو القاسم هاشم ، بما له من اسهام كبير في الاعداد والتخطيط للثورة ، فلما فرغ نميري من بسط مشورة الشيوعيين اردف قائلا :

- نحن الذين فجرنا الثورة من خور عمر اثنا عشر ضابطا ، واري ان يدخل ستة منا في عضوية المجلس الذي سنطلق عليه أسم (مجلس قيادة الثورة) بدلا من المجلس الانتقالي اما الستة الاخرين فسوف نعمل علي ترقيتهم استثنائيا بواسطة مجلس قيادة الثورة ، بعد اعلان تشكيله ، ليتولوا المواقع القيادية في الجيش ! كما سنعمل علي ترقية ثمانية من صف ضباط المدرعات الي رتبة الملازم ومثلهم من المظلات الي نفس الرتبة ، ليكونوا مؤهلين لقيادة فصائل قوات خور عمر من المدرعات والمظلات .

سأل ابو شيبة نميري عمن سيتم تعيينهم من ضباط خور عمر في مجلس قيادة الثورة ، واؤلئك الذين ستتم ترقيتهم استثنائيا منهم ، فاجابه :

- طبعا اصبحت انا الآن رئيس المجلس ومولانا بابكر نائبا لي وفاروق عضوا اما بقية الاشخاص فلم يحددوا بعد ، وقد كنت ازمع ان اعينك - والخطاب لابي شيبة - في عضوية المجلس ولكن قيادتكم في الحزب الشيوعي اعترضت علي ذلك ، وقالت انها تفضل بقاءك في صفوف القوات المسلحة واختاروا لك موقع قائد الحرس الجمهوري فوافقتهم علي مضض ، اما انت يامحجوب - قالها وهو يلتفت الي بتركيز - فاني اعتقد انك خلقت للعمل والقيادة العسكرية فانت موهوب ومؤهل لذلك ، وهذا ما يجعلني اصر واقرر بقاءك كقائد لسلاح المدرعات ، يعاونك ميرغني العطا ، وسنكلفك ايضا بانشاء الحرس الوطني تحت قيادة سلاح المدرعات ، وفضلا عن هذا وذاك ستتولي قيادة قوات تأمين الثورة الخاصة ، وبعد انقضاء الفترة الانتقالية وتسليم السلطة الي الشعب ، ساعود الي موقعي في صفوف القوات المسلحة كقائد عام ، وعندها سأعمل علي تعيينك رئيسا للاركان ، وهذا يعني اننا نسلمك قيادة امن الثورة العسكري حاضرا ومستقبلا

قالها ضاحكا ثم سألني :

- ها ، ما رأيك ؟

فاجبته :

- فيما يتعلق بشخصي لا اعتراض لدي ، ولكني - كما تعلم - قمت بتنوير القوات في خور عمر بان المجلس القيادي سيتم تشكيله من عسكريين يختارهم مؤتمر القادة ومدنيين تختارهم القوي الوطنية .

فانتفض نميري وقال في حدة :

- لا هذا ولا ذاك ، فقد اقنعني قادة الحزب الشيوعي - واكرر انهم اكثر منا دراية بشعاب العمل السياسي ومزالقه - بان ناس القوي الوطنية لحم راس ، ما بتلموا ولا بتفقوا ابدا ، وحيجونا بخلافاتهم الحزبية وصراعاتهم الطائفية وطموحاتهم الشخصية ليكونوا بيننا معاول هدم للثورة ومسارها التقدمي المعلن

اما عن اختيار الاعضاء العسكريين بواسطة مؤتمر القادة ، فان الاخوة في قيادة الحزب الشيوعي ايضا اقنعوني بعدم جدواه ، فقد يختار القادة اعضاء غير ثوريين ، وقد يحاولون اجهاض الثورة ، واهو زي ما انتو عارفين ، جانا تقرير دلوقتي بان بعض الضباط بحاولوا يتجمعوا لاجهاض الثورة ومنهم المقدم مهندس صلاح ابراهيم احمد ، وعبد الماجد حامد خليل ، ويوسف ترير وصلاح الدين محمد سعيد ، ويوسف احمد يوسف ، وغيرهم ، في حين اننا فقدنا بعض الضباط الافتكرناهم موالين ، واهو مثلا المقدم تاج السر المقبول مدير الاستخبارات زاغ مننا ، انا رسلت ليه في بيته وما لقيته !! والعقيد فؤاد ماهر فريد قائد حامية الخرطوم الكان مولانا بابكر عوض الله هاوسنا بيه واقنعني اعينه علي الفور رئيس اركان برضو زاغ ، وما بعيد يزوغوا مننا آخرين ، عشان كده انا بقول : ماحك جلدك مثل ظفرك ، نحن حنسمع نصيحة اخوانا الشيوعيين ونعين اعضاءالمجلس من عشرة : انا وفاروق ومولانا بابكر وبابكر النور وهاشم العطا وابوالقاسم هاشم ، وسيتم تعيين خالد لصلاته الجيدة بالضباط وثلاثة من ضباط الدفعة ١٣ الاتحركوا من خور عمر .

ها ، ايه رأيكم ؟

وجه نميري سؤاله لنا في نبرة قاطعة كانها أمر بالرضا والقبول ، فتداخل صوتانا ونحن نجيبه باننا لا نوافق ونري ضرورة الالتزام باتفاق خور عمر ومخطط الضباط الاحرار في هذا الصدد ، واهمية اشراك الاخوة الجنوبيين في المجلس .

قال نميري والغضب يعصف به :

- حكاية اخوانا الجنوبيين دي برضو اتشاورنا فيها ورأينا ان نؤجل البت فيها

الي مرحلة مابعد حل مشكلة الجنوب ، بعدين هم يختاروا لينا الدايرنو ، وحيكونوا في الوقت داك اضافة لعضوية المجلس .

ثم نظر الي ابي شيبة وسأله :

- انا بستغرب يا عثمان ، انت ليه ماعاوز توافق علي آراء قيادة حزبك ، انا قلت ليك اتشاورت معاهم وهم الاقترحوا علي الآراء دي ، انت شيوعي براني واللا شنو؟

فرد عليه ابو شيبة :

- انا صحيح شيوعي وملتزم عقائديا ، لكني اضع مصلحة البلد وقوميتها فوق كل الاعتبارات السياسية والعقائدية . وفي رأيي ان ماتم الاتفاق عليه في خور عمر حول تشكيل المجلس سيحقق قومية الثورة ويثري قدرتها علي الانجاز وهذا هو الشيء الذي اقنعت به قواتنا وتحركت لتحقيقه رغم المخاطر والمحاذير .

عندها نظر الي نميري مستنطقا ، فاضفت الي ما اورده ابوشيبة قولي :

- وكمان حكاية الترقيات الاستثنائية دي ، انا بفتكر ما ليها لزوم ، لانها ستحدث شرخا في كيان القوات المسلحة ، خاصة ونحن قد عاهدنا الله وانفسنا بالا نسعي لتحقيق مكاسب شخصية ، وزي ما قال الاخ سيد احمد عبد الرحيم قبل كده : الزول البعمل عمل وطني مفروض يكون هدف عمله مصلحة شعب السودان ، وينتظر هو نصيبه من نتاج عمله كأي مواطن عادي .

فعلق نميري على ذلك بقوله :

- اولا هذا تطرف غير مقبول ، ثانيا نحن صحيح ملتزمين بعدم نيل مكاسب شخصية ، لكن الترقيات الاستثنائية دي بتقتضيها ضرورة توليكم للمواقع القيادية ، وطبعا من غير المعقول ان نسلم قيادنا وامن الثورة ومصيرها لاناس آخرين .

وتصدي له ابو شيبة قائلا :

- الثورة دلوقتي زي ما وضح لينا من اشارات وتقارير ايدتها كل القوات المسلحة وجماهير الشعب ، ويفترض ان تكون حمايتها فرض علي الجميع ، ومفروض نحن نقوم بدور خاص واكثر تطرفا وايجابية لكين بدون ترقيات استثنائية .

ضحك نميري ساخرا وعقب علي ذلك بقوله :

ـ تعرف يا ابو شيبة ده الرأي الوحيد البتلتقي فيه مع ناس حزبك وخاصة بابكر النور ، وهم برضوا بنصحوا بعدم الترقيات الاستثنائية !!

ثم اردف وهو يضحك ساخرا :

ـ تعرفوا انا كنت متهم باني من كوادر الحزب الشيوعي القيادية ، تصوروا حتي الامريكان صدقوا الحكاية دي ، عشان كده اعترضوا علي ايفادي ليهم للدراسة في كلية القادة والاركان ، وما سمحوا الا بعد جهد جهيد وبعد ما تأكدوا من عدم صحة المعلومة !

صمت نميري لحظة ثم نظر الينا بامعان وسأل :

ـ اها يارفاق ، ايه رأيكم دام عزكم ؟!

فتقاسمنا الاجابة في تتابع واستطراد ، وقلنا له اننا لا نرضي بغير التوجه القومي وما جري عليه الاتفاق في خور عمر وهو يوافق مخطط واهداف تنظيم الضباط الاحرار .

فتفرس في ملامحنا وقال يائسا :

ـ المهم انا بسوي العلي وبتشاور معاكم ، لكين المسألة في النهاية بتخضع لمعطيات الموقف السياسي والامني للثورة ، وافتكر دلوقتي ننصرف كلنا لمهامنا الثورية .

فانصرفنا من عنده لما كنا فيه من عمل .

انضممت الي الاخ بابكر النور في فرع العمليات الحربية الذي انيطت به مسئوليته كما مر ذكره ، والفيته يتأهب للذهاب الي مطار الخرطوم الدولي ، وكان قد اصدر امرا باغلاق المطار امام الملاحة الجوية خلال اليومين الماضيين ، وما يزال الامر ساريا حتي ذلك الحين !! فذكر لي انه سمح بصفة استثنائية بهبوط طائرة مصرية ، تحمل وفدا من رجال الصحافة والاعلام بقيادة الاعلامي المعروف عضو تنظيم الضباط الاحرار في مصر احمد حمروش ، واضاف ان اتصالات تليفونية قد جرت بين الرئيسين جمال عبد الناصر وجعفر نميري ، بغرض التشاور حول المسائل العاجلة في علاقات البلدين ، وان الرئيس جمال عبد الناصر يرسل بهذا الوفد للتهنئة وتغطية الاحداث اعلاميا ثم التشاور !

من احداث يوم ٢٦ مايو ايضا ، اننا ارسلنا برقية لسفارتنا في موسكو عاصمة الاتحاد السوفيتي ، تأمر بقطع رحلة الوفد العسكري الذي يقوده اللواء

محمد ادريس عبد الله وتجميد المفاوضات التي يجريها مع السوفيت ، والعمل علي عودته فورا الي السودان .

وفي هذا الصدد اصدر المقدم بابكر النور امره الي فرع الاستخبارات العسكرية باعتقال رئيس واعضاء الوفد حال هبوطهم بمطار الخرطوم وتم تنفيذ الامر من بعد . كما اراد .

شهد نهار ذلك اليوم حركة دائبة في اروقة ومكاتب القيادة العامة ، فجاء بعض الوزراء المدنيين يحتقبون كشوفات للتطهير ، شملت بعض افراد القوات المسلحة فتسلمناها منهم ، وماكاد امرها يعرف بين الضباط ، حتي ثارت ثائرة بعضهم ، واعتبروا ذلك التصرف عملا عدائيا من القوي العقائدية ، موجها لافراد القوات المسلحة من ذوي الميول السياسية المحافظة

وقاد هؤلاء الضباط حملة مناوئة قوية ، تنادي بوقف العمل بتلك الكشوفات وتأجيل اجراء التطهير في القوات المسلحة وفقا لما يحقق الصالح العام ، وفي مسئولية وطنية متجردة ، دون ضرر ولا ضرار . ولكن هذا لم يحدث ، وتم التطهير من واقع تلك الكشوفات وايعاز اصحابها .

ومن احداث ذلك اليوم ايضا ، ان مولانا بابكر عوض الله نائب رئيس مجلس قيادة الثورة ورئيس الوزراء طالب بعقد اجتماع للوزراء المدنيين وصناع الثورة بغرض التعارف والتنسيق ، وقبل ان يتم هذا الاجتماع كلفني نميري بالاتصال بفاروق عثمان واخذ البيان الذي كان مقررا ان يلقيه ليلة ٢٥ مايو من التلفزيون ، ولم يفعل ، وحدثني نميري عن البيان وقال انه يوضح اهداف الثورة وتوجهها ، وهو مكمل لبيانه وبيان بابكر عوض الله ، ثم اردف :

ـ اريدك يا محجوب ان تلقيه علي الشعب بصورة مبسطة مفهومة ، ولكن لا تخرج في ذلك عن مضامينه المحددة .

اجبته بحاضر ، وخرجت من عنده صوب وزارة الداخلية اطلب وزيرها فاروق عثمان حمد الله ، فالفيته في رهط من الناس تتراوح ميولهم السياسية بين الشيوعية والقومية العربية الا قليلا منهم ، فلم اعبأ بهم ودلفت الي الهدف مباشرة ، فسلمني البيان وهو يقول :

ـ كما تعلم فاني اكره الاضواء ومواجهة اجهزة الاعلام ، وهذا احد الاسباب التي اخرت اذاعة البيان عبر التلفزيون ، ادعو لك بالتوفيق والسداد .

حملت البيان الي مبني التلفزيون بام درمان ، حيث التقيت بالاعلامي حمدي بدر الدين في حوالي الساعة الخامسة مساء ، فاتخذ التدابير اللازمة لتسجيله وبثه علي جماهير الشعب بعد السادسة مساءا موعد الارسال التلفزيوني وجاء في حديث مقتضب عن توجهات الثورة واهدافها ، والوضع السياسي والاقتصادي الذي اقتضي تفجيرها حماية لموارد البلاد ووحدتها ثم تأكيدا لقومية الثورة وتجردها الوطني ، ثم عرض موجز للمحاولات الثورية السابقة بعد كبوة الثورة المهدية في كرري وام دبيكرات ، مثل ثورة اللواء الابيض ومؤتمر الخريجين وما تلاه من تصعيد للنضال حتي تحقق الاستقلال ، واختتمت البيان مشيدا بالدور الوطني للزعماء الوطنيين من اهل السودان كافة وعللت تدخل الطلائع الثورية في ساحة الصراع السياسي وانتزاع السلطة ، بان هؤلاء الزعماء الوطنيين قد اندست بينهم فئة فاسدة يعوزها الخلق الوطني القويم فسرت عدوي الفساد والصراع علي المغانم العاجلة في كيان الدولة والقوي الوطنية المتناحرة ، واهبت بكل اهل السودان ان يتضافروا من اجل تحقيق غايات الثورة واهدافها الطموحة لبناء الوطن وحل معضلاته المزمنة وفتح آفاق الحياة الكريمة الباذخة للناس من كل لون ودين في ارجائه المختلفة .

وقبل ان ابارح مبني التليفزيون اتصل بي الرائد معاش محمود حسيب - عن طريق رسول منه - وطلب مني ان اوافيه بعد البيان مباشرة بمبني الاذاعة ، حيث اوكلت اليه مهمة السيطرة والقيادة علي كلا الجهازين ، فتوجهت للقائه ، وهناك فاجأني بيان تشكيل مجلس قيادة الثورة ، وكان البيان مكتوبا بخط اليد في شكل مسودة لم تنقح بعد ، وقد تضمن تشكيل المجلس علي النحو التالي :

- لواء جعفر محمد نميري ، رئيسا للمجلس .
- السيد بابكر عوض الله ، نائبا للرئيس .

وعضوية كل من :

- المقدم بابكر النور .
- الرائد ابو القاسم هاشم .
- الرائد خالد حسن عباس .
- الرائد فأروق عثمان حمد الله .
- والرائد هاشم العطا - وكان يومئذ مساعدا للملحق العسكري بسفارة

السودان بالمانيا الاتحادية .
- الرائد مأمون عوض ابو زيد .
- الرائد ابو القاسم محمد ابراهيم .
- الرائد زين العابدين محمد احمد .
صعقت للمفاجأة وانا اتابع السطور ، فلما بلغت منتهاها وجدتني اصيح مستنكرا :
- هذا استهجان لمواثيقنا وتحركنا الثوري ، وهو ردة بينة عما اتفقنا عليه في خور عمر .
وصادفت كلماتي هوي في نفس حسيب فاردف :
- وهو نقض لما تم عليه الاتفاق بيني وبين نميري وبقية الرفاق ، ولكني لم املك سوي اذاعته رغم اعتراضي عليه جملة وتفصيلا ، وقد آثرت ان اطلعك عليه حتي لا تفاجأ به من عامة الناس .
فشكرته علي تصرفه وقلت له :
- سأعود الان الي القيادة العامة لمعرفة دواعي هذا التشكيل ومبرراته ان وجدت .
وسألني الاخ حسيب ان كان قد سبق لي الاتفاق مع الرفاق علي اشتراكي في عضوية مجلس قيادة الثورة ، فاجبته بالنفي ، ورويت له تفاصيل ماجري عليه الاتفاق بيننا في خور عمر ، واطلعته ايضا علي الحوار الذي دار بيننا انا وابرشيبة وسيد احمد عبد الرحيم من جانب ونميري من جانب آخر ، وما انتهي اليه من رفضنا القاطع لاي تغيير او تعديل في ضوابط تشكيل المجلس المتفق عليها ..
عاد يسألني :
- وماذا انت فاعل الآن ؟
فاجبته :
- سأراجع نميري والرفاق في الامر ، لمعرفة الاسباب التي حدت بهم للخروج علي الاتفاق وتشكيل المجلس بهذه الصورة .
زفر حسيب وقال :
- هذه المسألة اضحت امرا واقعا ولا مجال لتغييره ، وما علينا إلا التسليم

والاذعان ، وسأحاول من جانبي ان اؤثر في مسار الثورة من خلال موقعي كوزير للنقل والمواصلات ، وفي رأيي ان الفرصة متاحة لك ايضا للعطاء والتأثير الايجابي من داخل صفوف القوات المسلحة واجتماعات تنظيم الضباط الاحرار التي ستتواصل اعتبارا من مساء الغد كما علمت من نميري نفسه .

أمنت علي تطلعاته بايماءة من رأسي وقلت له :

ـ هذه اشياء لم يحن وقتها بعد ، ولابد الآن من معرفة مسببات هذا التغيير المفاجيء في تشكيل المجلس .

وعندما كنت اخاطب محدثي بما سبق ، ظل يحدجني بنظرات فاحصة ، بدا لي منها انه يستبطن دخيلتي ليعرف رد الفعل النفسي لذلك البيان ، وما تركه من اثر علي توجهاتي الثورية ، خاصة وقد كنت اعلم الارتباط الوثيق والعلاقة الحميمة بين نميري ومحدثي حسيب ، فوقع في روعي ان هذا الاخير ـ رغم خيبة امله في دخول المجلس ـ قد اضحي وزيرا مرموقا ، وقد يدفعه الحرص علي المنصب الكبير للمحافظة علي الاطار والنظام الذي منحه اياه !!

فتعمدت ان انصرف عنه دون الافصاح عما تضطرم به اعماقي من سخط علي الثورة الجانحة عن طريقها المرسوم .

وجدت القيادة العامة خالية من الرؤوس المدبرة ، وقيل لي ان رفاق لينين قد صحبوا نميري لعشاء سياسي بمنزل احدهم ، وان الآخرين قد لبوا دعوة لعشاء بمنزل الاخ رشدي سيحة بالعمارات ، وكانت تربطه بالرفاق صداقة وطيدة منذ ايام عمله كمتعهد للغذاءات بحامية الخرطوم .

فاخذت اضرب في الارض بحثا عن رفاقي ، فالتقيت ابوشيبة وسيد احمد عبد الرحيم ، فاسلما لي قيادهما وعاهداني علي التحرك الثوري المضاد ، للاطاحة بمن خانوا العهد وخرجوا علي المواثيق واستغلوا نقاءنا وغيرتنا الوطنية.

ثم قمنا ثلاثتنا باجراء اتصالات خفية ببقية الاخوة وكانت مهمة شاقة خطيرة فليس من اليسير ان تميز بين الموالين والمعارضين في دائرة الوسط ، وبالفعل اخطأنا التقدير ونحن نحاول ان نضم الينا الرائد كامل عبد الحميد ، وكان رده علينا :

ـ انه يثق تمام الثقة في دفعته الرائد مأمون عوض ابو زيد ، ومادام هذا

الاخير قد اضحي عضوا بالمجلس ومشاركا في صناعة القرار ، فانه ـ اي كامل ـ علي قناعة، راسخة بان المجلس سيؤدي دوره القيادي التاريخي المنوط به بكفاءة وتجرد واقتدار ، ثم نصحنا بوأد مطامحنا التي وصفها بالشخصية ، والالتفاف حول قائد المجلس واعضائه ، لحماية امن الثورة ودعم خطواتها في تجرد ووطنية.

كان حديث كامل محبطا لنا ، ولكنه لم يقتل فينا روح التطلع الي تصحيح الخطأ وتقويم الاعوجاج ، فصنفنا كامل في عداد المشايعين لاعضاء المجلس ، ثم واصلنا تجميع قواتنا المبعثرة ، وتم اتصالنا بالرائد محمد مرسي ، الذي اجابنا الي مانطلب بكل حماس وثبات ، وختم ذلك بقوله :

ـ انا معكم في كل ماترون ، فقط اتخذوا قراركم لوجه الله والوطن والثورة ، ثم اطلعوني عليه وعلي دوري في تنفيذه .

فودعناه شاكرين لنتجه بعده الي الرائد ميرغني العطا ، وكان رده : انه بعد سماع نبأ تشكيل المجلس قد اصابه احباط وقلق علي مسيرة الثورة ، رغم اختيار ابن عمه هاشم العطا لعضوية المجلس ، ولكن مادام تعيين ابن عمه قد صار امرا واقعا ، فهو لا ينتظر ان يضم المجلس عضوين من اسرة واحدة !! وهذا ما يجعله يستسلم للظروف القائمة ، ويتجرد لحماية الثورة والثوار ، خاصة وان عضوية المجلس ـ مثار اعتراضنا ـ مسألة موقوتة قابلة للتعديل في كل حين واهم منها وابقي عضوية القوات المسلحة المهنية .

لم يكتف ميرغني العطا بذلك ، فبذل قصاري جهده معنا ليقنعنا بمفهومه الداعي للتجرد المهني والدفاع عمن اسماهم بالثوار وقادة الثورة . فاظهرنا له الاقتناع واعماقنا مراجل تغلي بمشاعر الغضب والاحباط واليأس واتخذنا قرارنا بليل علي هدم ما شيدنا من وهم ، لنقيم علي انقاضه في الوقت المناسب الصرح الذي نأمل ونريد .

كان من رأي الاخ ابو شيبة ان يسبق جهودنا لتجميع العناصر الوطنية من ضباط الجيش اتصالات مكثفة بالرفاق احبار السلطة ودهاقنتها المقربين ، لاستجلاء حقيقة الموقف وابعاده ، فطلب من سيد احمد ان يبقي لصيقا بقوات خور عمر ، وحضني علي صحبته للقاء فاروق عثمان بوزارة الداخلية ، حيث وجدنا في معيته المقدم بابكر النور ، فما ان وقعت عينا فاروق علينا حتي ابتدرنا بالقول :

- طبعا انتما محبطان مثلنا بسبب الطريقة التي تم بها تكوين المجلس ، اليس كذلك ؟

ثم اردف :

- بصراحة يا رفاق ، انا شخصيا اعترضت علي هذا التكوين ، كما اعترض الاخ خالد حسن عباس بدوره علي عضوية الاخوة بابكر النور وهاشم العطا وابو القاسم هاشم !

فتراجع بابكر النور في مقعده وعلق ساخرا :

- عضويتنا يا رفاق جاءت بتكليف من قوانا السياسية لنكون ينابيع عطاء ومصدر تشريف لهذا المجلس . ثم ركز عينيه في عيني ابو شيبة وقال له :

- ستصبح يا عثمان قائدا للحرس الجمهوري وستدعم قوة الحرس بقوة ضاربة رئيسية ، بحيث يصبح المجلس وقادته والثورة ذاتها في حماية من يقود الحرس وتحت رحمته ، هذه هي المهمة والموقع اللذان تحددا لك ، فماذا يضيرك في ذلك ؟

اجابه ابو شيبة فقال ؟

- انا لا اناقش المكاسب الشخصية .

فعاجله بابكر محتدا :

- انك يا عثمان تخلط بين مغزي الموقع الثوري والعمل الوظيفي ، كما تخلط بين الالزام والالتزام ! فنظر اليه ابو شيبة كمن يسأله الايضاح ، فقال بابكر :

- انا مثلا يا عثمان لم اختر موقعي في عضوية المجلس بل الزمت به الزاما ، فقبلت الالزام بدافع التزامي الثوري ، وهذا ما اريده منك .

فاومأ ابو شيبة كمن يشير بالايجاب والطاعة ، ثم اشار الي بطرف خفي يدعوني لمغادرة المكان ففعلت وخرجنا لنلتقي بالاخوين محمد مرسي وسيد احمد عبد الرحيم واطلعناهما علي ما كان . وبعد جدال وتمحيص للموقف من كل جوانبه ، طالبني ثلاثتهم بوضع خطة للعمل المضاد ، فوعدتهم بذلك ، علي ان نخلد جميعا الي النوم فورا ، بعد عناء يوم حافل طويل ، وان غدا لناظره قريب.

في صباح اليوم التالي ٢٧ مايو ١٩٦٩م اتخذت طريقي الي مكاتب حامية الخرطوم ، فوجدت ضباط الحامية يتحاورون فيما يشبه الاحتجاج والتظاهر ضد

تكوين المجلس بالصورة المعلنة ، وجاهر الرائد التوم عبد الله باستنكاره لهذا الاجراء ، واعتراضه علي سلوك بعض الوزراء المدنيين الذين ولجوا قيادة الجيش في يومي ٢٥ و ٢٦ مايو وهم يحملون كشوفات جاهزة معلومة المصدر للتطهير وتصفية الخصوم من مواقع التأثير في الخدمة المدنية والقوات المسلحة معا ، فنقل المندفعون المتطرفون في مولاتهم للنظام وقادته آراء واقوال التوم عبد الله المناوئة الي رئيس مجلس قيادة الثورة واعضائه ، فكان في مقدمة قراراتهم ابعاده من صفوف القوات المسلحة ، ثم عادوا من بعد والحقوه بوظيفة مدنية !

إلتقيت في مكاتب الحامية بالاخ الرائد ابو شيبة ، فخرجنا معا في طواف علي قواتنا ، توجهنا بعده الي القيادة العامة ، حيث تهيأ لنا لقاء بالرائد خالد حسن عباس ، فسألناه تفسيرا لما حدث ، فهز كتفيه وهو بادي الانفعال وتساءل في سخرية :

- تفتكروا يا جماعة انا كنت جاري ورا مكاسب شخصية ؟

فاجبناه بالنفي ، واردف :

- ماحدث كان خارج عن ارادتنا وحساباتنا ، ولكنه تم علي كل حال ، وما علينا سوي التجرد لحماية الثورة وقادتها من كل خطر ، وهذا ما سيفعله افراد القوات المسلحة عموما واعضاء تنظيم الضباط الاحرار علي وجه الخصوص ، وسوف نستنفرهم جميعا لهذا الغرض ، وقد قررت من جانبي ان استدعي الاخوين الرشيد نور الدين وسيد احمد حمودي من الكويت ليتوليا معنا قيادة العمل العسكري والتنظيمي .

وفيما يخص قيادة الثورة ، طلبنا من مولانا بابكر عوض الله ان يضع لنا ميثاقا يلتزم به الضباط الاحرار ، وتتحدد بموجبه صورة القيادة الجماعية التي تجعل اعضاء مجلس قيادة الثورة جزء من كل ، وقناة توصل قراراتهم وآرائهم الي مجلس الوزراء لتوضع موضع التنفيذ

واستطرد خالد في تفاؤله ساعيا لرفع روحنا المعنوية وشحذ هممنا بكل سبيل فلم يصل الي بغيته ، وما كان تجاوبنا معه بالصورة والقدر الذي يريد .

كان يراودنا الاحساس بان الثورة لم تعد حرة في اختيار توجهاتها واجهزتها وقياداتها في اعلي المواقع ، واضحي ذلك امرا مؤرقا لاولئك الذين فجروها الا

قليلا منهم ، وذلك ماحدا بنا لمقابلة نميري وبقية الرفاق ، فالتقينا بالرائد مأمون عوض ابو زيد - وفي معيته الرائد حيدر يعقوب - وبسؤال الاول عن السبب بطل العجب !!

قال لنا :

- الحكاية ومافيها انو اخوانا الملكية (يعني الوزراء المدنيين) لما جونا امبارح نميري دخلهم المكتب ، وخرج علينا وهو يشير الينا بيده ويقول : خشوا خشوا! وعند دخولنا فوجئنا به يقدمنا ليهم علي اننا اعضاء مجلس قيادة الثورة !!

صدقوني ياجماعة انتو لو كنتوا معانا في اللحظة ديك كنتوا برضوا بقيتوا اعضاء في المجلس ، وخليكم انتوا الفجرتوا الثورة ، حيدر القدامكم ده كان دخل معانا كان بقي عضو في المجلس ، الموضوع ومافيه ياخوانا (Mere Luck) وما عندي تعليق اقوله ليكم غير Hard Luck .. وانفجر بعدها يضحك في عفوية وهويضرب كفا بكف من شدة العجب ، اما نحن فكان الامر بالنسبة لنا مدعاة للزراية والاستهجان ، ومن ثم تابعنا مسيرة البحث عن الحقيقة وتوجهنا الي الرئيس نميري في مكتبه .

ما كادت عيناه تبصرنا قادمين ، حتي علت ملامحه وقسمات وجهه مظاهر الضيق والتبرم ، فعاجلنا بقوله :

- عارف عارف عاوزين تقولوا شنو!

تشكيل المجلس مش عاجبكم مش كده ؟!

انا برضو ما عاجبني ، لكين دي مسألة فرضها الظرف السياسي ، بس عاوزكم تعرفوا حقيقة هامة جدا ، هي اننا في مجلس قيادة الثورة اتفقنا كلنا علي ان يصبح الضباط الفجروا الثورة ، او شاركوا في تفجيرها من خور عمر ، اعضاء ظل للمجلس ، وبهذه الصفة ، يكون من حقكم حضور جميع اجتماعات مجلس قيادة الثورة متي شئتم ، والمشاركة في الحوار الذي يطرح الي جانب انكم ستكلفون بمهام ثورية خاصة ، ومع ذلك كله ، ستنالون كل ما يناله اعضاء المجلس من امتيازات ومكانة ادبية ، ارجو ان تضعوا هذه الاشياء في حسبانكم اولا ، قبل ان استمع الي وجهة نظركم ، ها عاوزين تقولوا شنو ؟ قول يا عثمان

اعاد ابو شيبة علي مسامع الرئيس نميري ماسبق طرحه علي الآخرين في تلك اللقاءات مع الرفاق ، ثم خلص الي حتمية قومية الثورة وشمولها ، اللذين

يتجسدان في تنوع قيادتها ، علي نحو ماخطط تنظيم الضباط الاحرار ، وجري عليه الاتفاق في خور عمر .

واستطرد ابو شيبة مذكرا نميري بالحكمة القائلة (لو دامت لغيرك لما آلت اليك) ثم علق علي مغزي الحكمة ، بانه قد ينجح البعض في الانقلاب علي الثورة يوما ما ، وتعود السلطة للقوي التقليدية ، وفي هذه الحال ، سيقدم مفجروها لمحاكمة جنائية بتهمة خرق الدستور وتقويض النظام الشرعي القائم ، وقد تكون العقوبة الاعدام ! ولا سبيل الي تجنب ذلك الا باشراك القوي السياسية الوطنية في عضوية المجلس ، وفق ما خططه تنظيم الضباط الاحرار ، وتحركت به قوات خور عمر ، فليس هناك بديل لقومية تشكيل مجلس قيادة الثورة ، بحيث تصبح كل القوي الحزبية المؤثرة ممثلة فيه ومشاركة في مسئوليات العمل الوطني وتبعاته ، علي المستويين التشريعي والتنفيذي ، وتصبح القوات المسلحة شريكا في كل ذلك ، باختيارها الحر لاعضاء المجلس العسكريين ، في مؤتمر القادة .

وفق ابو شبية كثيرا في بسط الامور كما تؤرقنا وتحث خطانا للمواجهة املا في التقويم واعادة الثورة الي طريقها المرسوم ، واضاف :

ـ يأخذني كل العجب من موقف الاخ فاروق عثمان ، فقد كان ما نطالب به دينه وديدنه ، فكيف ساغ له ان ينقلب عليه اليوم ؟!

تجاوز نميري لباب الامر مغتنما سانحة السؤال الاخير ، وقال :

ـ فاروق ـ كما اعرفه ـ يؤمن بشعار (النصر او القبر) ! فلو استطاع البعض الانقضاض علينا وزحزحتنا من مواقع السلطة كما تتصور ، سيكون مصيرنا جميعا القبر ، اذن لن نسلم السلطة ونحن احياء ابدا !!

فغر ابو شيبة فاه صعقا وتساءل :

ـ كيف ؟ هل انقلبتم علي الاتفاق بشأن الفترة الانتقالية ايضا ؟! هل تراجعتم عن قرار اعادة السلطة الي الشعب بعد تلك الفترة ؟

ضحك نميري ساخرا وقال :

ـ هذه مسألة جري حولها حوار مع مولانا بابكر عوض الله والاخوة السياسيين ، فاتفقنا علي الا تحدد فترة الانتقال باجل موقوت ، بل يحدد مداها بانجاز اهداف الثورة والخروج بالسودان من بؤرة الصراع والفساد والانهيار

السياسي والاقتصادي ، وقد يستغرق ذلك سنين عديدة ، ومع ذلك فنحن عاقدون العزم علي الدعوة لمؤتمر قومي في الوقت المناسب ، وحتي ذلك الحين علينا جميعا ان ندعم مسيرة الثورة ، ونؤمنها من كل خطر ، هذا هو واجبنا الاول والمشترك .

فرد عليه ابو شيبة في حدة وجرأة :

- تأمين الثورة يكون بالتضحية والفداء ، ولكي نوطن انفسنا علي ذلك ، لابد للثورة ان تحترم المواثيق وتتخذ لها واجهة قومية يؤمن الناس بقدراتها القيادية ونقائها الثوري ، والمجلس المعلن لا يمثل هذه الواجهة .

تساءل نميري مغيظا :

- وماذا يعيب هذا المجلس ؟

اجاب ابو شيبة في ثبات وهدوء :

- انهم شباب عرفوا بحبهم للحياة وملذاتها ، والقيادة سلوك وعمل لا يأتي من فراغ .

نظر نميري الي ابي شيبة في تحد وقال له :

- هذا اتهام خطير ، ولااريد ان اسمعه من جانب واحد ، فهل توافق علي مواجهة اولئك الذين تظن انهم لا يصلحون لقيادة الثورة ؟

اجابه ابو شيبة في تحد اعظم :

- نعم ، بل الآن ان امكن ذلك !

وعاد نميري يرمقه بنظرة ثاقبة وسأله :

- من تريد ان تواجه منهم ؟

فامطره ابو شيبة سيلا من الاسماء :

- مأمون عوض ابو زيد ، ابو القاسم محمد ابراهيم ، وزين العابدين الخ!

ابتسم نميري في سخرية وتعمد ان يفرض لحظات من الصمت وهو ينظر الينا بامعان ، ثم جبهني بسؤاله :

- هل انت من اصحاب هذا الرأي ايضا يا محجوب ؟!

قلت له في حزم ووضوح :

- اعتقد يا ريس ، اننا بدأنا نتخبط ونحن في بداية مسيرة الثورة .

كانت الاجابة مفاجأة له ، فثبت عينيه في وجهي وسألني في تحد ظاهر :

ـ ماذا تعني ؟

قلت له :

ـ علي سبيل المثال لا الحصر ، عند اعلان التشكيل الوزاري اعلنت نفسك وزيرا للدفاع ، في حين انك ايضا رئيس مجلس قيادة الثورة ، ونائبك مولانا بابكر عوض الله هو رئيس مجلس الوزراء ، فكيف تصبح وزيرا تحت قيادة من هو تحت قيادتك ؟!

قال نميري كمن فطن لتوه :

ـ انت علي حق يا محجوب ، ولهذا سأعين العميد عمر الحاج موسي وزيرا للدفاع في مكاني .

عدت اسأله في سخرية :

ـ وهل تصبح قائدا عاما تحت امرة وزير الدفاع ؟

فدهش للامر لحظة ، ثم قال :

ـ هذه مسألة سنتجاوزها ايضا فيما بعد ، المهم انني الآن القائد الاعلي وموقع القائد العام مكمل للاطار .

لم ادعه يستعيد صفاء ذهنه فأردفت :

ـ لقد اعلنت ترقية نفسك من رتبة العقيد الي رتبة اللواء ، ورتبة العقيد في حقيقتها رتبة تاريخية ، باعتبارها الرتبة التي بلغت بها سلطة الحكم في البلاد ، كما جري به العرف في العالم ، فما كان لك ان تتخطاها الي رتبة اعلي فيبدو الامر وكأنه مكسب شخصي !

لم يجهد نميري في البحث عن اجابة ، فقال :

ـ لقد تم الاتفاق بيننا ـ كما تعلم ـ علي ترقية من يتولي منصب القائد العام او رئيس الاركان الي الرتبة التي يفرضها الموقع ، حتي لايكون نشازا بين رتب الجيش ، وهذا مافعلته انا .

قلت له :

ـ جريا علي هذا المقياس ، لماذا لم ترق نفسك الي رتبة الفريق ، لتتيح لمن يتولي منصب رئيس الاركان رتبة اللواء ؟

فاجاب نميري علي البديهة :

ـ هذه مسألة سنعمل بها بعد ايام قلائل ان شاء الله .

ثم اضاف في ضراعة وتوسل :

- محجوب ، كف بالله عليك ، ولا تستطرد ، فانت تجعلني احس بان صرح ثورتنا من رمل الصحراء ! فضحكت ولزمت الصمت ، بينما تنفس نميري الصعداء ثم رفع رأسه نحو ابا شيبة وسأله :

- وانت يا عثمان ، اما زلت مصرا علي مواجهة اعضاء المجلس اولئك ؟

قال ابو شيبة :

- نعم .

فقال له نميري :

- اذن انتظرني في المكتب المجاور ،وسوف اواجهك بهم جميعا ، واذا استطعت اثبات ما تقول فيهم ، فاني سأعمل علي ابعادهم فورا من المجلس ، اما اذا عجزت عن الاثبات ، فعليك ان تتحمل تبعة اتهامهم بالباطل ورجمهم بالغيب .

قال ابو شيبة ببالغ الحزم والثبات :

- انا علي استعداد .

فامرنا نميري بالتوجه الي المكتب المجاور ، كان الامر شائكا والموقف شديد الحرج ، فليس يسيرا علي المرء ان يعترف بنقائصه في مثل هذا الموقف ، وليس من السهل اثباتها ، وفوق هذا وذاك ، فما اصعب ان تواجه اخاك بما يكره ! وان كان حقا !! فلزمنا الصمت حتي عاد نميري ليقول لابي شيبة في تحد وقور :

- سيواجهك الرائد ابوالقاسم محمد ابراهيم ، اما الآخرون فقد اعتذروا عن المواجهة . وبرروا عزوفهم عنها بانهم لا يريدون الدخول معك في مشادة كلامية لا طائل من ورائها .

ورفض ابوشيبة محاولات نميري لاقناعه بهذه الحجة بل ساقها كبرهان علي صدق ما يقول ، فامتد الجدال بينهما حتي دخل علينا الرائد ابو القاسم محمد ابراهيم وهو مهتاج بادي التحفز والغضب ، فدارت بينه وبين ابو شيبة معركة كلامية حامية ، خرجا خلالها عن الحوار الموضوعي وآداب التخاطب بين اخوة السلاح وابناء الثورة ، فآثر نميري فض الاشتباك وبذل جهدا عظيما حتي تحقق له ذلك ، ثم استغل نجاحه واصدر اليهما امرا مغلفا بنبرة ود واخاء ودعاهما للتصافي والتصافح ، واردف امره بآخر وهو يراهما يتلكآن في مد ايديهما لبعض ، واضاف وهو يضحك في مودة ظاهرة :

- يا ضباط اوامر ، صافحوا بعضكم !
فاذعنا للامر وهما يضحكان .
بعدها ارسلني نميري في مهمة بحامية الخرطوم ، وبقي ابو شيبة معه ساعة ، ثم لحق بي في الحامية وافضي لي بان نميري قد اخبره بعد خروجي بانه سيعمل علي تعيينه عضوا بمجلس قيادة الثورة ، وذلك بعد التشاور مع قيادة الحزب الشيوعي في هذا الشأن ، ولكنه - اي ابو شيبة - رفض هذا العرض المغري ، واقنع نميري بانه انما كان يدافع عن مبدأ قومي عام ، لا سعيا لمصلحة ذاتية ولا حسدا للآخرين . فاكبر نميري فيه غيرته الوطنية وتجرده الثوري .
ثم اردف ابوشيبة يخاطبني :
- وما دامت المسألة متعلقة بقومية الثورة وتجردها فاني اري ان تستمر في وضع خطة العمل المضاد ، لنتمكن من وضع الامور في نصابها .
فوعدته خيرا وعدنا بعدها معا الي القيادة العامة وانضممنا الي الرفاق من اعضاء المجلس.
كنا نعيش احداث اليوم الثالث لميلاد مايو ، ٢٧ مايو ١٩٦٩م ، وظللنا نتابع الموقف ونبني هياكل الدولة واجهزتها ونعقد الاجتماعات بلا انقطاع ، وكان من بين اجندة اجتماع ذلك اليوم : كيفية التعامل مع السيد الصادق المهدي ازاء موقفه المعادي للثورة في ذلك الحين ، او كما توهم البعض سعيا لتصفيته والخلاص منه ! فرأي مولانا بابكر عوض الله ووافقه نميري وكل اعضاء مجلس قيادة الثورة ، بايعاز من قيادة الحزب الشيوعي السوداني والقوميين العرب ، اعتقال السيد الصادق المهدي وابعاده الي حامية جبيت ، ليكون بمنأي عن انصاره ، وهذه - كما قالوا - اولي خطوات القرار الكبير ! وكان واضحا انهم يعنون بذلك التصفية البدنية بصورة لاحقة ان اقتضي الامر .
عقد الرفاق عزمهم علي خداع السيد الصادق والتغرير به ، وذلك بان يرسلوا له - في عرينه ووسط انصاره في الجزيرة ابا شخصا وثيق الصلة به ، يوهمه بان مجلس قيادة الثورة يريد التفاوض معه حول الاوضاع السياسية في البلاد ، وامكان التعاون معه خلال المرحلة الانتقالية ، وعند حضوره الي العاصمة يجري اعتقاله ليلا في منزله ، ويتم تنفيذ المخطط القاضي بنفيه في جبيت .
في مرحلة التنفيذ بدأوا الاتصال ببعض معاونيه وقادة حزبه كالامير عبد

الله عبد الرحمن نقد الله والسيد صلاح عبد السلام وغيرهما وافلح الرفاق في اقناعهم بضرورة التعاون بين قيادة الثورة وحزب الامة ، بعد ان سبقهم الي ذلك خصومهم التقليديون في الحزب الاتحادي الديمقراطي وطائفة الختمية . ومهد ذلك لحضور السيد الصادق المهدي من الجزيرة ابا الي ام درمان . طلب مني نميري ان اتوجه اليه في الجزيرة ابا برسالة شخصيّة يدعوه فيها للحضور ومقابلته للتفاوض ! عندها لم املك زمام غضبي وانفجرت ثائرا في وجه الرئيس نميري والآخرين ، قلت لهم :

ـ انكم تخادعون الناس وتخدعون امانتكم !

فنظروا الي متعجبين ، وواصلت ثورتي غير آبه لما يكون منهم ، وجبهت نميري بالسؤال :

ـ عندما ارسلتني الي السيد الصادق المهدي ، الم تطلب مني ان ابلغه امانك له علي نفسه وماله وانصاره ؟ كيف تحنث الآن بهذا العهد القريب ، وتريد ان تجعلني اداة لهذا الكيد الخبيث؟!

ـ دي سياسة يا محجوب ، والسياسة زي الدنيا متقلبة وما بتركز علي حال ! نحن لازم نجاري الاوضاع السياسية ، وخاصة حين يتعلق الامر بامن الثورة وبقائها !!

قلت له :

ـ لا يبرر هذا الحنث بالعهد والمواثيق .

انتفض الرئيس نميري غضبا وقال في انفعال ظاهر :

ـ اسمع يا محجوب ، انت لم تخيب ظني فيك ابدا ، فقد رسخ في اعتقادي منذ وقت بعيد ، انك لا تصلح للسياسة ودروبها المتعرجة ، رغم ما اعرفه فيك من علم وثقافة وعقل نير نفاذ ، ولهذا فاني اعفيك من هذه المهمة السياسية ومن كل المهام السياسية المقبلة ، وارجو أن تتجرد للعمل العسكري منذ الآن .

نظرت اليه طويلا وقلت :

ـ وانا لا امانع في ذلك ، ولكني سأتحلل من الحنث بوعد نقلته !

تساءل وهو متجهم الوجه حديدي النظرات :

ـ ماذا تعني ؟

فاجبته بغير تردد :

- سأخطر آل بيت السيد الصادق المهدي بما تدبرون !

قال في هدوء مفتعل وهو يتميز من الغيظ :

- ان طاوعك ضميرك والتزامك الثوري علي فعل ذلك فافعل !

ثم انصرف عني الي الرائد خالد حسن عباس ، واخذ يسأله عمن يمكن ان يسند اليه دور احضار السيد الصادق من الجزيرة ابا الي العاصمة ، ففكر خالد لحظات وقال له :

- في رأيي ان افضل من يقوم بهذه المهمة هو دفعتي الرائد الفاتح عابدون ، فوالده كان عضوا بمجلس السيادة ممثلا لحزب الامة ، وله بين الانصار مكانة سامقة ، فضلا عن ..

فقاطعه نميري في ضيق :

- عارف عارف ، خلاص رسل ليه وكلفه بالمهمة . ثم حدجني بنظرة ثاقبة !!

تركت الرفاق في مجلسهم ذاك ، واتجهت من فوري الي منزل السيد الصادق المهدي حيث التقيت بوالدته وزوجته سارة الفاضل وافضيت اليهما بكل ما حدث ويجري تدبيره في الخفاء ! ثم طلبت من السيدة سارة الفاضل ان تكتب لزوجها في الجزيرة ابا بكل تفاصيل المؤامرة ، ليكون علي بينة من الامر ويأخذ حذره مما يراد به . واختتمت حديثي اليهما بقولي :

- اني انما افعل ذلك حتي لا اكون في عداد المنافقين المخادعين ، ولكيما اتحلل من عهد بالامان نقلته من قبل ولم يعد قائما .

فشكرتني السيدة سارة ، وكانت بادية التماسك والثبات والجلد ، ثم هزها الموقف فانثالت من عينيها الدموع في صمت ، وسرت عدوي للبكاء سريعا الي والدة السيد الصادق المهدي ، فشرعت تكفكف ادمعا تحجرت في مآقيها كالغيوم ، وقد علمت - في قابل الايام - ان السيدة سارة الفاضل ارسلت لزوجها رسالة بتلك الافادة عملا بما اشرت به عليها - في ذلك اللقاء .

ثم عدت ادراجي الي القيادة العامة حيث الفيت الرئيس جعفر نميري ومولانا بابكر عوض الله وخالد حسن عباس وبابكر النور ، كانوا يتحدثون ، وتواصل من بعد الحديث بيننا ، فطلب نميري من خالد ان يعمل علي دعوة اعضاء تنظيم الضباط الاحرار الموجودين بالعاصمة لاجتماع طاريء عاجل يعقد بنادي الضباط عند الساعة التاسعة من مساء نفس اليوم ، ثم شرع يسأله عن بعض اعضاء

التنظيم خارج العاصمة ، اذكر منهم كمال ابشر يس ، وكان وقتئذ يعمل قنصلا بنيروبي ، وسعد بحر الذي كان يعمل بالقيادة الجنوبية في مدينة جوبا ، فاجابه خالد بانه قد ارسل لهم بالفعل اشارة مستعجلة بالحضور كما ارسل اشارة الي كل من الرائد سيد احمد حمودي والرائد الرشيد نور الدين في دولة الكويت للحضور ايضا ، اضافة الي اشارة اخري للرائد هاشم العطا بالمانيا لنفس الغرض ، ولربما شارك هؤلاء او بعضهم في اجتماع الليلة .

فلما فرغ خالد اتجه نحوي نميري وقال :

- في هذا الاجتماع ، سنبدأ العمل بالقيادة الجماعية ، ونعمل جميعا لتأمين مسار الثورة ودعم خطاها ، ولهذا فسوف يلتئم شملنا كلنا في عقد الضباط الاحرار ، وخروجك علي التنظيم فيما سبق لا يبرر تخلفك عن اجتماع اليوم ، فانت منذ الآن عضو في التنظيم .

قال عبارته الاخيرة آمرا وراجيا في نفس الوقت فاستجبت لأمره علي الفور ، حرصا مني علي معرفة اتجاهات الرياح ومواطن الضعف لتنفيذ مخططنا الرامي لحل المجلس وفرض قومية الثورة وتقويم انحرافها عن المواثيق ، ثم انصرفنا بعد ذلك لبعض المهام في انتظار الاجتماع الطارئ المرتقب .

في مساء ذلك اليوم ٢٧ مايو ١٩٦٩م ، اتصل بي صهري العم خالد بشير هاتفيا من منزلنا بام درمان وحدثني عن رسالة هامة مستعجلة بعث بها الي السيد الصادق المهدي من الجزيرة ابا بصحبة السيد صالح محمد خير ، والح علي صهري بموافاتهم بالمنزل لاستلام الرسالة ، ففعلت ، وعدت بها الي الرفاق بالقيادة العامة ، اذ كانت الرسالة موجهة لشخصي وللرئيس نميري معا ، وجاء فيها :

(أ) : انه اي السيد الصادق المهدي بحدسه السياسي كان لا يستبعد وقوع الانقلاب الذي تم ، بسبب ما إكتنف الاوضاع السياسية من ترد وصراع عقيم وخرق للدستور والمواثيق ، ولكنه رغم ذلك يري ان يكون الانقلاب العسكري وسيلة للاصلاح ووضع الامور في نصابها العادل الذي يخدم مصلحة البلاد ، لا غاية في ذاته وتكرارا لتجربة فاشلة سبق ان رفضها شعب السودان .

(ب) : انه علي كمال الاستعداد والتأهب للاتصال بالقوي الوطنية ذات الثقل السياسي والدراية بشئون الحكم والسياسة ، وله لديهم مكانة تؤهله

لاقناعهم بضرورة التعاون مع الثورة وهو وانصاره معهم من خلال المرحلة الانتقالية ، مادامت السلطة آخر الامر ستسلم اليهم مبرأة من الشوائب وادران الصراع ، بعد اجراء الاصلاحات السياسية والدستورية اللازمة .

(ج) انه يحذر من التعاون مع قادة واعضاء الحزب الشيوعي السوداني واشباه السودانيين ، (لعله قصد بهؤلاء الاخيرين القوميين العرب) ، لانه يري استحالة تعاون القوي الوطنية معهم لتطرفهم العقائدي وتبعيتهم الخارجية .

(د) : ويؤكد في ختام رسالته تلك انه لم يخطط وليس لديه النية لقيادة تحرك مسلح مضاد للثورة ثم يذكر نميري اخيرا بانه من بيت انصاري عريق الولاء ، وعليه والحال كذلك الا يقف من آل الامام المهدي وطائفة الانصار موقف العداء ، كما يذكرني انا بما بيننا من صلات وثيقة نامية ، وانه ينتظر مني ان اكون رسولا له بين رفاقي قادة الانقلاب .

تسلم نميري مني الرسالة فقرأها عدة مرات ، ثم عرضها علي اعضاء مجلس قيادة الثورة وبعض الوزراء المدنيين اذكر منهم العم منصور محجوب وزير المالية آنذاك ، كان للرسالة فعل السحر في نفس الرئيس نميري ، واسر انه كان شديد الحماس للتعاون مع السيد الصادق المهدي واتاحة الفرصة لاستقطاب تأييد القوي الوطنية وحشد قدراتها لتقبل الامر الواقع والمشاركة فيه ، ولكنه عاد وعدل عن كل هذا بعد ساعات قلائل ، وذلك اثر لقائه ومشاورته لرفاق النضال واخوة العرب ، فاوقعوا في روعه ان السيد الصادق المهدي شديد الطموح لا يرضي بحكم السودان المطلق بديلا ، وان لديه ترسانة من السلاح وجيشا من الاتباع المدربين عسكريا ، فضلا عن علاقته الوطيدة بحزب سانو وقادته في الشمال والجنوب ، بما لهم من قوة ضاربة تمثلها قوات الانيانيا ، وهذا ما يجعله قادرا علي ضرب الثورة والاستيلاء علي سلطة الحكم بالقوة الجبرية اذا ماظل طليقا يناور ويساوم !! واكد هؤلاء للرئيس نميري ان ذلك هو مخطط السيد الصادق المهدي الذي كان يدبر لتنفيذه قبل تفجير الثورة .

اضحي نميري بعد هذه الافادات والتحليلات علي قناعة راسخة بضرورة الانسياق وراء حلفائه الشيوعيين والقوميين العرب ، واخذ برأيهم القاضي باعتقال السيد الصادق المهدي ونفيه في اطراف البلاد كخطوة اولي ، ثم النظر في مصيره ومصير اتباعه بعد ذلك . وهذا ما تم تنفيذه من بعد ، فعندما

استجاب السيد الصادق للدعوة الي التفاوض وخرج من عرينه المكين في الجزيرة ابا ، سعيا للقاء موهوم مع قائد واعضاء مجلس قيادة الثورة ، ارسلوا له اللواء علي صديق الذي جري تعيينه مديرا عاما للشرطة ، فاتصل بالسيد الصادق المهدي في منزله بعد منتصف الليل بدعوي اصطحابه لاجتماع مع قادة الثورة بالقيادة العامة ، حيث وجد السيد الصادق في انتظاره . بدلا من الاجتماع المزعوم . كمينا معدا باتقان ، وارسل علي متن طائرة خاصة الي منفاه بجبيت ، وكان ذلك نهاية لاول فصول ملحمة صراعه مع قادة مايو ومن يقف وراءهم ويوجه خطاهم من الشيوعيين والقوميين العرب وغيرهم من الذين تعاونوا مع مايو باشخاصهم ومطامحهم الذاتية .

في مساء ذلك اليوم ٢٧ مايو ، وفي حوالي الساعة العاشرة اجتمع شمل الضباط الاحرار في اول اجتماع لهم بعد تفجير الثورة بنادي ضباط القوات المسلحة بالخرطوم ، وكان اجتماعا عنيفا صاخبا استمر حتي الساعات الاولي من الفجر ، تضمنت اجندته جملة من المسائل الحيوية ، منها :

١- توسيع قاعدة التنظيم وتكثيف نشاطه في صفوف القوات المسلحة ، علي ان يظل العمل فيه سريا كما كان ، وذلك حتي يتمكن اعضاؤه من العمل علي حماية الثورة ضد كل من تسول له نفسه الانقلاب عليها ، عبر سرية العمل التنظيمي .

٢- تطهير القوات المسلحة علي جناح السرعة ووجه الخصوص ، وعزل كل الرتب فوق رتبة العميد ، وهكذا الحال مع القوات النظامية الاخري ، وحث مجلس الوزراء علي الاسراع بتطهير الخدمة المدنية .

٣- العمل الجاد لتنفيذ اهداف تنظيم الضباط الاحرار التي اعلنتها الثورة .

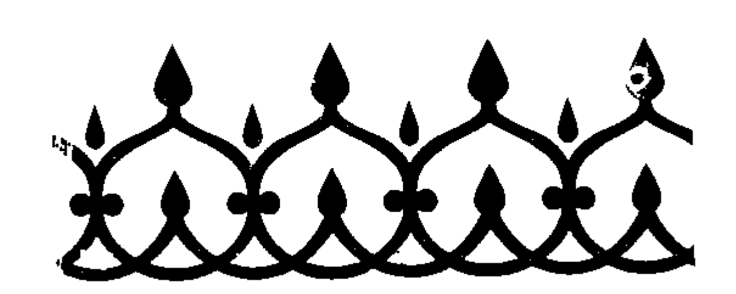
٤- الالتزام بتأييد ومساندة قيادة الثورة ، المتمثلة في رئيس مجلس قيادتها واعضائه بما يستوجبه هذا الالتزام من اظهار الاحترام والتبجيل والاشادة بهم بين عامة افراد القوات المسلحة من ضباط وصف وجند ، علي ان يصبح رئيس المجلس واعضائه المبجلين اعضاء عاديين بيننا في اجتماعات التنظيم .

وقد اختتم ذلك الاجتماع الرئيس نميري بالدعوة الي مزيد من التضامن والتجرد الوطني والعمل الدؤوب بين اعضاء التنظيم ، باعتبار ان ما تحقق من نجاح في تفجير الثورة وهيمنتها علي مقاليد الامور في البلاد هو الحلم الذي

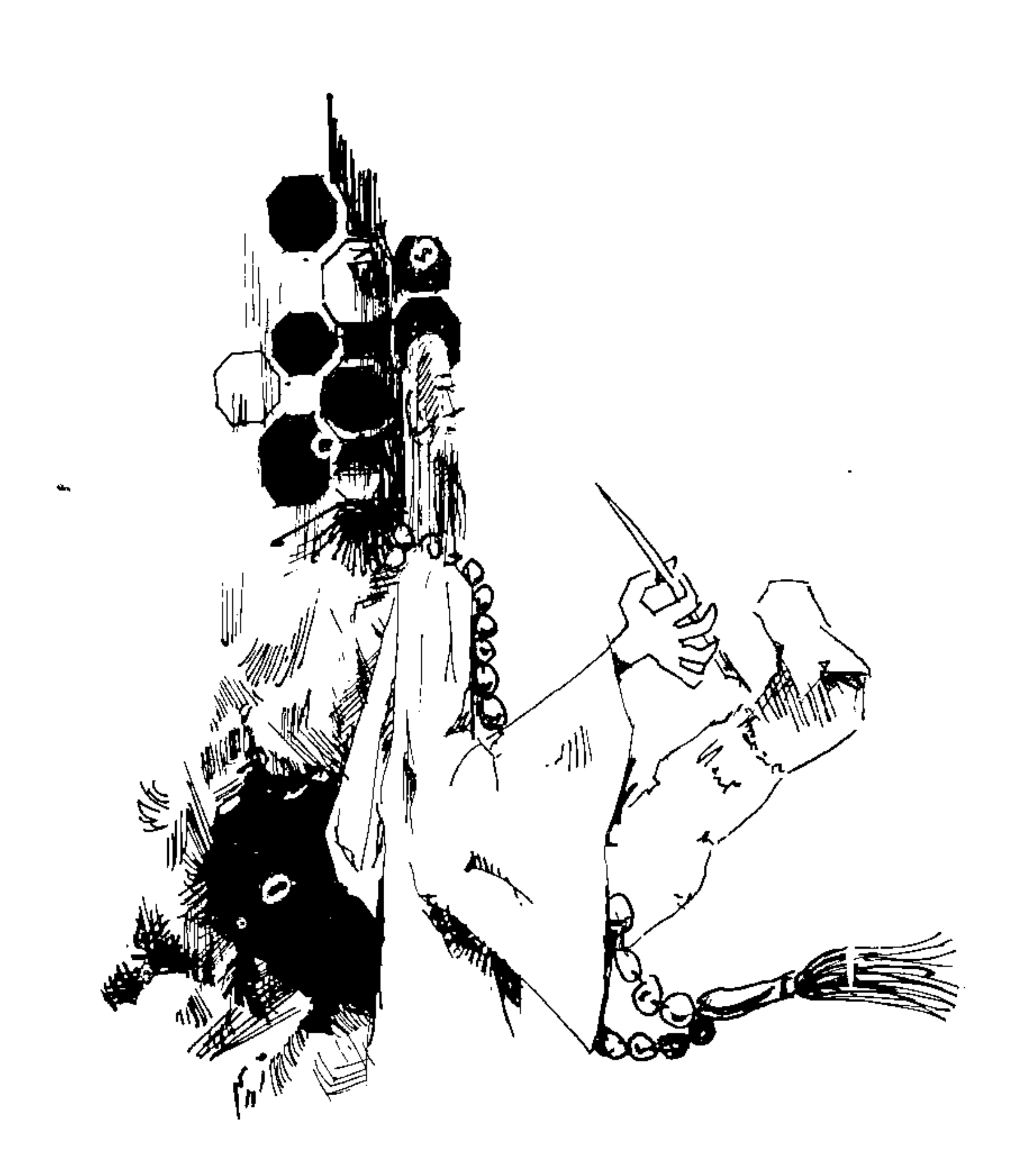
انتظروه طويلا وعملوا له عبر السنين ، وشبه الرئيس نميري الضباط وصف الضباط والجنود الذين تحركوا ليلة الخامس والعشرين من مايو من خور عمر لتفجير الثورة بالمهاجرين ، كما وصف الذين تلقوا الثورة بالتأييد والمساندة بالانصار ، وقال في ختام حديثه مداعبا :

- لا فضل لمهاجر علي نصيرٍ الا بالعمل الجاد والتجرد والعطاء الثوري الموصول .

فضحك الحاضرون لدعابته ، وانفض سامرنا بعد ليلة صاخبة ويوم حافل بالاحداث .



قيادة الثورة وحاكمية
تنظيم الضباط الاحرار !



{الحلقة الثالثة عشرة}
قيادة الثورة وحاكمية تنظيم الاحرار

صحونا مبكرين غداة يوم ٢٨ مايو ، ونحن اوفر نشاطا وثقة ، وقد تميز هذا اليوم بنشاط ثوري جم غير عادي ، ففي ساعات الصباح الاولي توجه اعضاء مجلس قيادة الثورة للقاء الجماهيري الذي اعده لهم رفاق لينين وصناديد العرب خير اعداد ، فخرجت جموع المواطنين تملأ الرحب وتؤكد تأييدها وفداءها للثورة بالدم والروح وكل عزيز ، وكم اسفت لتخلفي عن شهود ذلك اللقاء بسبب انشغالي ببعض المهام الحيوية بالقيادة العامة ، ولكني علمت من تقرير الموقف واحاديث الرفاق انه جاء بصورة تجاوزت كثيرا كل حساباتهم وما كانوا يؤملون ، فبدلا من لقاء شعبي محدود يؤمه رفاق لينين واخوة العرب ونفر من التقليديين الساخطين ، وجد قادة مايو حشودا من الجماهير الهادرة لم يشهد السودان لها مثيلا من قبل ! وقد عقد قدامي القادة السياسيين ممن شهدوا اللقاء مقارنة بينه وبين اللقاءات الشعبية منذ عهد الاستقلال وفي ظل الحكومات والمناسبات المتباينة ، فاجمعوا علي تفرد هذا اللقاء من حيث الكم والكيف ، واكدوا به الشرعية الثورية للنظام الجديد .

عاد الرئيس نميري واعضاء مجلس قيادة الثورة من ذلك اللقاء تملأ جوانحهم الفرحة والنشوة والثقة المفرطة بثورتهم وسندها الشعبي الكبير ، مما حدا بالاخ الرائد خالد حسن عباس لان يبادر فيقول :

ـ لن يستطيع احد بعد اليوم ان يوقف زحف الثورة وانطلاقتها العملاقة ، ولسوف يجرف تيار الثورة كل من يتصدي لها او يعترض طريقها .

وعلق ابو القاسم محمد ابراهيم علي اللقاء وقال :

ـ سيكون الشعب وحده هو الوصي علي الثورة ، وسنعمل منذ الآن بغير احتواء او وصاية من احد !!

كان ابو القاسم وقتها ـ يسعي للفكاك والتحرر من تبعية رفاق لينين خاصة وانه كان في عداد القوميين العرب وفق التصنيف المتعارف عليه بيننا ، وقد نفس هؤلاء علي الرفاق قدرتهم علي التأثير وتوجيه الاحداث .

اما الرئيس نميري فقد علق بقوله :

ـ سنبدأ منذ اليوم مرحلة العطاء الثوري في تلاحم وانسجام مع القوي الثورية ، مستفيدين من تجاربهم الثرة في مجال العمل السياسي والتنفيذي .

وهكذا يبدو البون شاسعا بين ماصدر عن نميري من طرح فكري متعقل في توضيح علاقة الثورة بالقوي التقدمية في البلاد ، وبين ما جاء علي لسان ابو القاسم محمد ابراهيم من عبارات متحفزة متطرفة ، اما تعليقات الآخرين من اعضاء مجلس قيادة الثورة وسواهم فانها لم تخرج عن هذه الاطر الثلاثة ، وقد تراوحت بين الاتزان والتطرف ، ولكن بدا ان كل الفرقاء حريصون علي شعرة معاربة التي تربطهم باليسار السياسي اعظم الحرص .

كنا قد اتفقنا منذ نهار الامس علي ان نعمل في ثلاثة مجموعات لدفع عجلة الثورة من خلال اتخاذ القرارات والاجراءات في جملة من الشئون الحيوية ، وانجاز سيل من المهام المتراكمة ، يساعدنا في ذلك بعض الاخوة الذين انضموا للثورة في ساعاتها الاولي ، وعلي رأس هؤلاء الاخوان محمد واحمد عبد الحليم ، اللذين اصدر الرئيس نميري قرارا ثوريا باعادتهما الي الخدمة العاملة ، وكلف احمد بقيادة سلاح المدرعات بالانابة ، كما عين اخاه محمد مستشارا قانونيا لمجلس قيادة الثورة ، ثم وزيرا للخزانة في وقت لاحق ، والحق ان الرجلين قد اظهرا غاية الولاء والتجرد الثوري ، فاحكم احمد قبضته علي سلاح المدرعات وجعله عرينا ودرعا للثورة والثوار . واقترح تعيين بعض من يثق في ولائهم للثورة ، ليتولوا قيادة بعض الاسلحة الهامة ، وفي مقدمة هؤلاء المهندس عمر محمد سعيد ، فصدر قرار بتعيينه قائدا لسلاح المهندسين بام درمان ، كما اسندت اليه في قابل الايام مهمة انشاء الحرس الوطني ، الذي انتقل بعد ذلك الي سلاح المدرعات ، وشملت قرارات التعيين نفرا من الضباط اعضاء تنظيم الضباط الاحرار وغيرهم ، وخاصة اولئك الذين كانوا يعملون خارج العاصمة .

جدير بالذكر ان السادة اعضاء مجلس قيادة الثورة وهم يرون غيرهم يتولي المواقع القيادية في اسلحتهم ووحداتهم العسكرية ولو بصفة مؤقتة ، قد انزعجوا كثيرا لهذا الامر ، فاجتمعوا بنا وناقشنا المسألة من جوانبها المختلفة ، وصدر قرارنا بان يبقي كل مفجري الثورة الي جانب وحداتهم جزء لا يتجزأ ـ

قوتها وقيادتها ، وقد تحمسنا جميعا لهذا القرار رغم صعوبة تنفيذه البادية للعيان ، لما كنا نقوم به من مهام ثورية اخري تتجاوز كثيرا العمل العسكري المحدود داخل وحداتنا ، ومن بين المهام التي قمنا بها فى ذلك اليوم ، اعداد مذكرة تحوي عرضا وتوضيحا وحلا مقترحا لمشكلة جنوب السودان في اطار مخطط ومفهوم تنظيم الضباط الاحرار .

عكفنا علي اعداد المذكرة شطرا من النهار وسلمناها للرئيس نميري في حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر ، فاطلع عليها بامعان ثم سلمها بدوره لمولانا بابكر عوض الله ، فابدي هذا بعض الملاحظات عليها ، واخطر نميري بانه سيدفع بها للمحامي جوزيف قرنق ليجدد صياغتها في اطار قانوني محكم ، فوافقه نميري علي ذلك ، وقام جوزيف بعد ذلك بصياغتها علي شكل بيان سياسي جري اعلانه في اليوم التاسع من شهر يونيو ١٩٦٩م ، وقد عرف فيما بعد ببيان التاسع من يونيو .

ومن بين ما تم انجازه من قرارات في ذلك اليوم الثامن والعشرين من مايو ، قرار باحالة بعض الضباط وقيادات الخدمة المدنية الي التقاعد ، واعادة آخرين ممن سبق عزلهم ، وفي طليعة هؤلاء صديق الرئيس نميري واول دفعته الفنان الشاعر الغنائي عوض احمد خليفة ، وكان يتولي في الخدمة المدنية عملا يتصل بالجمعيات التعاونية الاستهلاكية ، فلوحي ذلك للرئيس نميري انشاء فرع للتعاون بالقوات المسلحة جعل علي قيادته صديقه عوض احمد خليفة بعد ان اعاده للخدمة في رتبة العميد وقد ترقي بعدها الي رتبة اللواء .

في تلك الاجتماعات خلال الايام الثلاثة الاولي من عمر الثورة ، كنت المس في نفسي قدرة وفاعلية في تحريك الاحداث وتوجيه الآراء واتخاذ القرارات الثورية اكثر من بعض اعضاء مجلس قيادة الثورة ، اضف الي ذلك قناعتي التي ازدادت رسوخا بضرورة قومية الثورة وتوجهاتها ، وحمايتها من محاولات الاحتواء العقائدي المنفرد او المؤتلف ، زد علي ذلك غيرتي المهنية التي خدشت بتعيين ثلاثة من الضباط في مجلس قيادة الثورة وهم اقل مني رتبة واقدمية بل وممارسة للعمل الثوري ! وما كان ذلك يحدث لولا تسلط نميري واتفاق فاروق حمد الله وخالد حسن عباس معه ، فدعاني هذا كله للعودة مجددا لوضع خطة محكمة لتقويض دعائم مجلس قيادة الثورة وبناء قيادة جديدة علي انقاضه .

قيادة يتمثل فيها كل ما كنا نصبو اليه من قومية وقدرات ثورية يمكنها الانجاز والعطاء الثوري بلا حدود .

تحت وطأة هذا الشعور لم اعد حريصا علي المشاركة في الاجتماعات المتلاحقة ، ومضيت لاعيد تجميع صفوف قواتي واشحذ همم الضباط المعارضين لتوجهات النظام وخروجه علي المواثيق ، وكما سبق ذكره كان في مقدمة هؤلاء الضباط ابو شيبة وسيد احمد عبد الرحيم ومحمد مرسي ، فكان لي ما اردت وحالفني التوفيق في مرحلة التخطيط والاعداد ، ولكن سؤالا فرض علينا نفسه في تلك المرحلة وهو : من سيتولي موقع قائد الثورة ؟ ولم يطل بنا التساؤل والبحث كثيرا ، فسرعان ماوجد الاخ ابو شيبة الاجابة المناسبة وقال علي الفور :

- انه العميد .أ.ج. مزمل سلمان غندور !

كان مزمل وقتئذ في فرقة دراسية باكاديمية ناصر بمصر ومعه دفعته العميد أ.ج. محمد الباقر احمد ، وكانت تربط ابو شيبة بمزمل صداقة وطيدة وود عظيم وكنا علي علاقة مماثلة بالرجل ، وهذا ما جعلني اوافق فورا علي ترشيح ابو شيبة له للمنصب الكبير ، كما حظي ايضا بموافقة بقية الرفاق ، وبقي علينا اقناعه واخذ موافقته بعد عودته من مصر ، ولهذا ارجأنا مخططنا الي ذلك الحين ، واثر عودته وزميله العميد محمد الباقر احمد من مصر يوم ٢٩ مايو ١٩٦٩م ، بادرت بلقائه في مقر ضيافة كبار الضباط المجاور لمبني نادي الضباط القديم ، وقد اخترت للقاء بيننا الساعة الواحدة بعد منتصف الليل عقب خروجي من احد اجتماعات التنظيم بنادي الضباط . كنت اخشي ان يسبقني سلطان الكري الي الرجل فاجده يغط في نوم عميق ، وكم عجبت حين الفيته في ذلك الوقت المتأخر من الليل ساهرا يطالع في كتاب نحاه جانبا وهو يستقبلني بشئ من الدهشة والتوجس اول الامر ، فلما ارخي سمعه لمقدمات حديثي حول الثورة اطمأنت نفسه واستعاد رباط جأشه ودعاني للجلوس ومواصلة الحديث ، وظل يستمع الي في صمت حتي نثرت بين يديه كنانتي وما وعته ذاكرتي عن الثورة مذ كانت املا تنطوي عليه الجوانح حتي اضحت واقعا تعيشه البلاد والشعب ولم اغفل بالطبع جنوح الثورة وخروجها علي ما كان بيننا من الاتفاقات والمواثيق ، وما تتعرض له من اخطار الهيمنة العقائدية

وصراع الاقليات ، ثم عرضت عليه خطتي للاستيلاء علي السلطة الثورية ووضعها في يده ، ليبدأ ونحن معه حركة انطلاق جديدة بثورة قومية قادرة معافاة من اخطاء التطبيق وخطايا الاحتواء والتسلط ، فوافقني العميد مزمل سلمان غندور في كل ما عرضته عليه ، ولكنه طلب مني ان امهله الي الغد ليقوم بعملية استكشاف علي الطبيعة للتأكد من سيطرتي علي قوات خور عمر وامكانية تنفيذها لخطة العمل المضاد ، فاجبته الي ماطلب وانصرفت من عنده . بعد ان ادينا القسم بالتنفيذ .

صبيحة اليوم التالي .٣٠ مايو ١٩٦٩م شاركت الرفاق اجتماعا بالقيادة العامة ، اقترح خلاله الرئيس نميري ان يعلن مجلس قيادة الثورة تعيينات في المناصب القيادية للجيش ، واقترح تعيين العميد مزمل سلمان غندور رئيسا لاركانحرب الجيش وترقيته الي رتبة اللواء ، علي ان تتم ترقيته هو - اي نميري - الي رتبة الفريق ، وان يعين العميد محمد الباقر احمد مديرا لفرع العمليات ، والعميد عبد اللطيف النقر مديرا لفرع ادارة الجيش ، الي جانب بعض التعيينات الاخري !!

وجد اقتراح نميري هذا معارضة من بعض حضور الاجتماع وخاصة المقدم بابكر النور الذي تضافر معه في معارضة الاقتراح بقية اعضاء المجلس وكل المشاركين في ذلك الاجتماع ! ازاء ذلك عاد نميري ليقترح نقل اقتراحه ذاك الي اجتماع تنظيم الضباط الاحرار المقرر عقده في مساء نفس ذلك اليوم بنادي الضباط للتشاور حوله والتصويت عليه فوافقناه جميعا علي هذا الاقتراح الاخير .

غير ان الرئيس نميري لم ينتظر اجتماع التنظيم ليقرر في الامر ، وبادر بالاتصال بالعميد مزمل وبقية الذين رشحهم لمناصب الجيش القيادية ، ونقل اليهم رغبته في تعيينهم بتلك المواقع ، فوافقوه كلهم علي ما اعتزم ، ظنا منهم انه صاحب القرار والقول الفصل بوصفه رئيس مجلس قيادة الثورة والقائد الاعلي والقائد العام في نفس الوقت ، ولم يدر بخلدهم ان الرئيس نميري ازاء العمل واتخاذ القرار في تلك الايام الاولي من عمر الثورة كان ديمقراطيا رغم انفه ولا يملك السلطة ولا القدرة علي مخالفة القرار الجماعي للتنظيم !

في اطار هذا الجهل بواقع الحال ، انطلق العميد مزمل ينشر بين رفاقه

واصدقائه من الضباط انه قد اضحي رئيسا للاركان ، وان بمقدوره ان يحكم قبضته علي القوات المسلحة ويبعد عنها رئيس واعضاء مجلس قيادة الثورة بحكم انهم قد انخرطوا في معترك العمل السياسي وهو يزمع ان ينأي بالجيش عن السياسة ، وفي غمرة هذه الاحلام بحث عني والتقي بي ليعتذر عن امكان تعاونه معي في خطة العمل المضاد ، وقطع علي نفسه عهدا بان يكتم سري ولا يبوح به لاحد !! ثم وعدني بانه سيعمل علي تعييني ملحقا عسكريا بالمانيا خلفا للرائد هاشم العطا ، حتي اكون بمعزل عن مسرح الاحداث في البلاد واتجنب معايشة الظروف السياسية التي تشعرني بالغبن والمرارة ، وختم مقالته باسداء النصح لي بان اكبح جماح طموحي المهلك ومشاعري الوطنية المدمرة !!"

كان حديث العميد مزمل وموقفه الذي اعرف دوافعه واهدافه المرتجاة ، امرا مفاجئا ومحبطا لكل آمالي وتطلعاتي الوطنية ، ولكنه اضاف لحصيلتي من المعرفة شيئا كثيرا .تجاوزت سريعا مشاعر الاحباط بعد ذلك اللقاء .

حين هدأت ثائرتي قليلا حضر الرائد ميرغني العطا ، وكان يعمل وقتها مع الرائد خالد حسن عباس بالقيادة العامة ، فاخبرني ان اجتماعا للضباط الاحرار سيعقد في الساعة العاشرة مساء بنادي الضباط ، فصحبته الي ذلك الاجتماع .

تقاطر الضباط الاحرار علي نادي الضباط زرافات ووحدانا حتي اكتمل عقدهم في الموعد المضروب ، حيث بدأ الاجتماع الصاخب الذي ابتدره الرئيس نميري بعرضه لموضوع تعيين العميد أ.ج. مزمل سلمان غندور رئيسا لاركانحرب الجيش ، وكما جرت عادة الرفاق الشيوعيين من قبل ، فقد بادروا بطرح الامر فيما بينهم واتخذوا فيه قرارا قبل موعد الاجتماع ، فانبروا بعد تقديم اقتراح نميري يهاجمون مزمل ويرمونه بكل مذمة ونقيصة ، فادرك الرئيس نميري عندئذ انه اذا طلب حسم الامر بالتصويت لسقط اقتراحه بالاغلبية لا محالة ، ولهذا عمد الي مناورة تنظيمية اجزم انه تحسب لخوضها واعد لها العدة ، فأخذ يدافع عن مزمل منفعلا ويطري شمائله وكفاءته العسكرية وقدراته القيادية .. الخ ثم قال في شيء من الحزم :

- انه لا يقبل ان تكال التهم جزافا لمزمل وعلي المجتمعين ان يلتزموا بالموضوعية في معالجة الامر ، فيحددوا اتهاماتهم ويقيموا عليها الدليل ، وحيث ان العدل يقتضي ان يمنح الشخص فرصة الدفاع ونفي التهم عن نفسه ،

فانه يقترح ان يواجه اعضاء مجلس قيادة الثورة في صبيحة الغد العميد مزمل بما سيق من تهم ضده ، فان استطاع ان يدحضها بصورة مقنعة للمجلس ، يكون من حق رئيس المجلس تعيينه في المنصب المقترح رئيسا للاركان ، وان لم يفلح في الدفاع عن نفسه وتبرئتها ، يصدر رئيس المجلس - بوصفه القائد الاعلي - قرارا بابعاده تماما عن الجيش !

فوافق المجتمعون علي هذا القرار ، ثم انتقلوا الي سواه من الموضوعات المطروحة ، ومنها كشف بتطهير بعض الضباط ، يتصدرهم الرائد - وقتها - معتصم السراج ، وذلك لموقفه المضاد للتنظيم في احداث جوبا ، فتضافرنا انا والرائد - وقتها - كمال ابشر يس في الدفاع عنه بغير سابق تدبير او تفاهم ، واستطعنا بعدجهد جهيد اقناع المجتمعين بسلامة موقف الرائد معتصم خلال تلك الاحداث ، وبررنا صنيعه بانه كان يتصرف من موقع الانضباط العسكري والسلوك المهني الخالص من شوائب العمل السياسي ، فنجحنا بذلك في ابعاده من كشف التطهير غير المقنن .

جرت في ذلك الاجتماع ايضا مناقشة ميثاق العمل الوطني المقبل والخطة الاقتصادية الخمسية ، وكان للرائد ابو القاسم محمد ابراهيم القدح المعلي في ذلك النقاش ، الشيء الذي ادهشني شخصيا ، فما كنت احسبه خبيرا بمثل هذه الشئون .

كذلك تقدم الرائد مأمون عوض ابو زيد بمذكرة طالب فيها باستبدال زي القوات المسلحة المتمثل في البنطلون القصير والقميص بلبس افضل ، واقترح لذلك البنطلون الطويل وغيره من مكملات الزي الادعي للاحترام والثقة بالنفس وكمال المظهر ، فحظيت المذكرة بموافقة الحاضرين ، وتقرر احالتها الي العميد عمر الحاج موسي الذي تقرر تعيينه وزيرا للدفاع ، وذلك لمزيد من الدراسة ثم التنفيذ من بعد .

كما تقرر في ذلك الاجتماع ايضا تشكيل محاكم ثورية لمحاكمة بعض رجال العهد الديمقراطي السابق بتهم الفساد السياسي والاقتصادي واستغلال النفوذ ، وكان واضحا من مدار الحوار حول هذا الامر ان المحاكم المعنية كانت موجهة اصلا لتجريم نظام الحكم السابق ورموزه في واجهات القوي السياسية الحاكمة انذاك قبل ان تتمحص قيمة ادلة الاتهام !!

ثم انفض ذلك الاجتماع عند الساعة الثالثة والنصف صباحا والفجر يؤذن بانبلاج ، وتفرق الاعضاء كل الي وجهته وهو راض او ساخط .

* * *

في نهار يوم ٣١ مايو ١٩٦٩م انعقد مجلس قيادة الثورة لمواجهة العميد مزمل غندور باتهامات اولئك الضباط الاحرار ضده ، فاستطاع الرجل - بما له من علم وخبرة قانونية ومنطق محكم ودراية باحداث السياسة واحوال الضباط - ان يبرر مواقفه من كل الاتهامات التي وجهت اليه ، وخاصة ماورد علي لسان الرائد ابو القاسم محمد ابراهيم من هجوم شرس ، كما نما الي علمنا من بعد . وكاد الرجل الحصيف ان يصل الي مبتغاه في تولي المنصب الرفيع الذي رشحه له صديقه الرئيس جعفر نميري وهو منصب رئيس الاركانحرب ، وتملكته اثر تلك المواجهة ثقة واعتداد بالنفس افصح عنها بلا روية في غير زمانها ومكانهما الملائمين ، اذ اقترح علي رئيس واعضاء المجلس ان يطلقوا له مطلق الحرية والتصرف في تدبير شئون الجيش ، وينصرفوا هم الي القصر الجمهوري ليمارسوا العمل السياسي ! ولولا الملامة لقال لهم : اريد ان انأي بالجيش عن مصابكم السياسي والثوري ! فكان رد الفعل المباشر لذلك الاقتراح غير المتعقل ان انبري اعضاء المجلس لمهاجمة العميد مزمل مرة اخري بشراسة بالغة واتهموه علانية بالطموح الغادر ، وتشككوا في ولائه للثورة وقادتها ، ومن ثم رأوا اخذ المبادأة بابعاده عن الجيش كلية بدلا من ان يتيحوا له فرصة ابعادهم هم عنه في حال توليه لمنصب رئيس الاركان !

واسقط في يد العميد مزمل ووجد نفسه في مأزق لم يحسب حسابه ، فاراد ان يخرج منه باية وسيلة متاحة ، فعول علي التراجع والتزلف سبيلا لما يريد ، ولاثبات صادق ولائه للثورة وقادتها افضي لاعضاء مجلس قيادة الثورة بافادة مذهلة ، مفادها ان احد قادة التحرك من خور عمر قد اتصل به امس وافصح له عن عزمه علي الانقضاض علي الثورة وقيادتها !! وتشكيل مجلس قيادي جديد يناط به تحقيق هوية الثورة ومطامحها ، وقد عرض عليه - اي مزمل - ان يكون رئيسا لهذا المجلس الجديد !

ولم يكتف مزمل في معرض سعيه وراء المنصب المرموق بتلك الافادة فاردف: انه قد تأكد له بعد عمل استكشاف ميداني ان ذلك القائد يملك السيطرة علي

قوات خور عمر ، وهذا مكمن الخطورة في امره ـ واضاف : انه ـ اي مزمل ـ لو كان يسعي للسلطة واقصاء قادة الثورة عنها لوافق علي مخطط ذلك الضابط ، ولكنه بدلا من الموافقة اعتذر له واخبره انه لا يستطيع ان يغدر بالثورة وقائدها صديقه نميري ! وهذا الحدث ابلغ برهان علي صدق ولائه للثورة وقادتها !!

فجبهه اعضاء المجلس بالسؤال عمن هو ذلك الضابط ؟

فاعتذر لهم بانه قد ادي يمينا للضابط ـ وهو يعتذر له عن امكان التعاون معه في مخططه ـ بان يكتم سره ، وهذا ما سيفعله حتما برا بالقسم .

عاد اعضاء مجلس قيادة الثورة يهاجمون مزمل بشراسة وعنف من جديد ، واقترحوا علي رئيسهم نميري ان يتيح لهم فرصة ممارسة الضغط والتعذيب معه لينتزعوا منه الاعتراف باسم ذلك الضابط ، فرفض نميري الاستجابة لمطلبهم ، معللا رفضه بانه قادر علي اقناع مزمل بكشف هوية الضابط المعني . واردف : انه قد وصل الي قناعة بعدم جدوي تعيين مزمل رئيسا للاركان ، كما انه يوافق علي اقتراح الضباط الاحرار القاضي بابعاد كل كبار الضباط من رتبة العميد فاعلي بما فيهم مزمل نفسه عن الجيش . ثم خرج نميري من الاجتماع ليلحق بصديقه مزمل بهدف الكشف عن ذلك الضابط الساعي لتمويض النظام والاطاحة بقادته !!

يبدو ان الرئيس جعفر نميري قد نجح في مسعاه ، اذ جاءني يسعي وانا بين افراد قوة مدرعاتي بمقرهم ، فحياهم ولمس انهم يتجاوبون مع شخصه وتحيته لهم بحماس ظاهر ، ثم انتحي بي جانبا ونظر وهو يضحك في سخرية ، وجبهني بسؤال ايحائي : ان كنت قد سمعت بحكاية بخيت الشواف ؟ فنظرت اليه متعجبا ومحاولا في نفس الوقت كشف بواطنه . فلم يمهلني واخذ يعيد علي مسمعي قصة بخيت رغم سابق معرفتي بها ، اذ هي من الطرائف والحكم السودانية المشهورة .

بدأ نميري يسرد الحكاية المعروفة وقال :

ـ اجتمع نفر من الناس في محاولة لرؤية هلال شهر رمضان المعظم ، وكان بينهم رجل يدعي بخيت ، كان الوقت بعد الغروب وقبل حلول الظلام ، فجهد الناس في رؤية هلال شهر الصوم دون جدوي ، واذ هم في ذلك العناء ، صاح بخيت من بينهم مشيرا بيده الي موقع الهلال في رقعة السماء : انه ذاك ! فاتجه

اليه الحاضرون يسألونه عن مكانه وهو يجيبهم بكلماته واشارات يديه حتي اطمأنوا لرؤيته جميعا ،فاخذوا يكيلون له الثناء علي حدة بصره وظلوا يرددون :

ـ بخيت شواف ، بخيت شواف ـ

فسكر بخيت بخمر الثناء الجزيل وطمع ان يستزيد ! فاتجه صوب الشرق واشار بيده نحو مكان بعينه واخذ يصيح :

ـ وشوفوا كمان داك هلال تاني !!

ثم صمت نميري لحظة واردف :

ـ هذا حالك انت يا محجوب معنا ، لم يكفك انك قد نجحت في تفجير هذه الثورة ، فأردت ان تلحقها بثورة مضادة كما فعل بخيت الشواف .

ادركت عندها ان امري قد انكشف ،كنت اتوقع ذلك وعكسه في آن واحد معا فنظرت اليه في تحد وسألته :

ـ ماذا تعني يا ريس ؟

فافضي الي بكل مادار في اجتماع مجلس قيادة الثورة وهو يواجه العميد مزمل غندور باتهامات الضباط الاحرار ، وحديث هذا الاخير عن الضابط المتربص بالثورة وقادتها !

عندئذ اعملت فكري بسرعة مذهلة ، فوجدت ان انكاري للحدث برمته هو دليل اثبات ضدي لا محالة ، فاخترت المناورة حول الحدث وقلت له في نبرة جادة:

ـ انا يا ريس مازلت غير مقتنع بالصورة التي تم بها تشكيل مجلس قيادة الثورة ، وعلي غير اقتناع بكثير من الممارسات المتصلة بمسارها ، وخاصة تلك المخالفة لاسس ومخطط تنظيم الضباط الاحرار ، وما جري به تنوير القوات في خور عمر ، وهذا كل ما افضيت به للعميد مزمل عند لقائي به عرضا هذا الصباح بالقيادة العامة ، وكان ذلك بحضور كل من العقيد صلاح الدين محمد سعيد والمقدم بشير محمد علي ، والعقيد بشير النقر ، وقد تجاوب معي العميد مزمل في كل هذه الاطروحات ، ولم يحدث شيء سوي ذلك النقد العفوي .

(جري لقائي فعلا ـ عزيزي القاريء ـ بالعميد مزمل غندور بمحض الصدفة في حضور من ورد ذكرهم آنفا بالقيادة العامة ، وقد حاولت خلاله ـ بصورة غير مباشرة ـ ان ادعم ماسبق ان طرحته عليه في اللقاء السابق بيننا ، وان اثنيه عن

موقفه غير المتجاوب معي بعد ان علم ما ينتظره من موقع مرموق) .

كانت ثقة نميري في صديقه العميد مزمل غندور فيما يبدو - قد اهتزت بفعل حرصه وتكالبه علي بلوغ منصب رئيس الاركانحرب بكل وسيلة ، ولربما كان ذلك مادعاه لاستبعاده في زمرة كبار الضباط من المواقع القيادية والجيش في ذلك الاجتماع ، وجاء ذلك عاملا مساعدا في قبول روايتي المختلفة علي علاتها ، فنظر الي الرئيس نميري وهو متأرجح بين الشك واليقين وقال :

- ثق يا محجوب انني سأتأكد من لقائك بالعميد مزمل في حضور من ذكرتهم بعد قليل ، فاذا ثبت حدوث اللقاء فعلا - رغم مابدر منك من تعويق للثورة ومسارها بمثل هذا النقد المرفوض فإني ساتجاوز عن مساءلتك الثورية وسيثبت عندي ان مزمل كان يحاول غرس بذور الشك وعوامل الفرقة بيننا نحن مفجري الثورة بما اورده من حديث عفوي عابر علي انه مؤامرة وخيانة للثورة كان له فضل احباطها ودرء شرورها الحتمية ، اما اذا لم يثبت حدوث اللقاء فان الامر يختلف تماما !!

ادركت حقيقة انني اصبت قدرا من النجاح بما ساقه الرئيس نميري من افتراضات مواتية ، فقلت له مستغلا ذلك النجاح :

- يا ريس ، ان ما افضيت به للعميد مزمل في رأيي ليس قاصرا علي وحدي ، انه رأي كثير من الضباط في الجيش عموما ، وهو رأي كل افراد هذه القوة التي شاركت في تفجير الثورة وانت الآن بينهم ، فلماذا لا تتعرف علي آرائهم فيما جري ؟

تجاوب نميري مع اقتراحي بهزات من رأسه ، وطلب مني ان اجمع له افراد قوة مدرعات خور عمر ليتحدث اليهم ، فاجبته الي مطلبه وتحدث اليهم ، ثم سمع منهم وادركه العجب ، فقد كانوا جميعا علي غير ما ينتظر ويهوي ، ولمس فيهم نضجا سياسيا ومعرفة بواقع الحال لم يعهدها في صغار الجند من قبل ، وصعقته الدهشة فقد بهره مستواهم ووعيهم السياسي بالظروف قبل وبعد الثورة ، فوقع في روعه مما جري من حوار انهم جميعا غير راضين بغير هذا التوجه السياسي الذي تحركوا به من خور عمر وهو قومية الثورة وتوجهاتها ومجلس قيادتها . فادركه من ذلك خوف وتوجس ، وغادرهم وهو اسير لهذه المشاعر المحبطة .

ثم صحبته الى القيادة العامة لمزيد من التأكيد علي براءتي ، فعلق علي

مقالة الصف ضباط والجنود قائلا :

- تعرف يا محجوب ، ديل افظع منك ، وفي رأيي انكم جميعا يا ناس المدرعات في هذه المرحلة ، عوامل سلبية لايجابيات الثورة ، علي العموم انا حأتشاور مع خالد وبقية الاخوة حول هذه المسألة .

قال نميري عبارته تلك بعفوية مفرطة وكأنه يحدث نفسه وهو يخاطبني ، فلما بلغنا مكاتب القيادة العامة لحق بنا الملازم ابو سنينة وهو ينادي نميري قائلا:

- الرئيس جمال عبد الناصر علي الخط ياريس .

فاسرع نميري الي مكان التليفون وانا اتبعه ، وبقيت في انتظاره وهو يحادث الرئيس جمال عبد الناصر وقد نسي وجودي تماما حتي ادركني الملل ، ثم انتبه لي ليجدني امامه فقال لي علي الفور :

- محجوب عاوزك تنضم لفاروق في وزارة الداخلية في شغلانة عاجلة حيكلفك بيها !

فانطلقت الي وزارة الداخلية ، ووجدت سانحة فافضيت لفاروق بكل ماحدث ماعدا ما كان من اتصالي ليلا بالعميد مزمل غندور وتدبيري لمحاولة الانقلاب الذي استجاب له اولا ، ثم صرفه عنه بريق المنصب الكبير الذي ظنه اولي درجات سلم الصعود الي القمة ، فتعثرت خطواته من بداية الطريق . فامن فاروق علي ماقاله الرئيس نميري بان مزمل انما كان يرمي من وراء افادته الي رمي الثورة ومفجريها بسهم قاتل ومدمر للثقة وتضامن الثوار ، ليبني صرح تطلعاته الموهومة علي انقاض الثورة وصناعها .

وبينما كنت الي جوار فاروق في مكتبه بوزارة الداخلية جرت محادثة تليفونية بينه وبين الرئيس نميري ، فنقل اليه فاروق قناعته السابقة حول افادة العميد مزمل غندور ، وختم ذلك بقوله : انه سيكلفني بوضع تصور لتلاحم قوات الشرطة مع الجيش في حراسة المواقع الحيوية والشخصيات الهامة . ثم وضع السماعة واقبل نحوي ليشرح لي معني ذلك التكليف الذي استغرق ما تبقي لي من ساعات ذلك اليوم ٣١ مايو ١٩٦٩م .

ثم تقرر ان اقضي ليلتي مع فاروق بوزارة الداخلية ، حيث افردوا لنا سريرين بمكتبه ، ولكن فاروق لم يخلد الي النوم ابدا ، فما كان يخرج من اجتماع حتي

يدخل في آخر ، فتوالت اجتماعات رفاق لينين به شطرا عظيما من الليل ، وفي احدي السوانح القليلة للاسترخاء والراحة ، اخبرني فاروق بان السيد عبد الخالق محجوب سكرتير الحزب الشيوعي السوداني كان قد رشح له ثلاثة من الثوار اليساريين ليعملوا معه بوزارة الداخلية في هيئة سكرتارية ، وهم الاخوة محمد احمد سليمان ، وسمير جرجس . فاستجاب فاروق للعرض باعتبار ان اليسار شريك اول في سلطة الحكم ، وعلي قادته وقاعدته الجماهيرية تقع مسئولية حماية الثورة وامنها ودعم شعبيتها ، ثم رأي فاروق ان يستعين في هيئة سكرتاريته باحد ضباط الشرطة وصفه بالكفاءة والمقدرة وهو الاخ صلاح التجاني عامر ، وقد ارسل اليه يطلبه من الاقليم الجنوبي حيث كان يعمل كما استعان بالمحامي عبد الباسط سبدرات مديرا لمكتبه .

في صبيحة اليوم التالي ١٩٦٩/٦/١، جرت محادثة تليفونية بين فاروق وبعض مؤسسي حزب البعث العربي وزعمائه ، فتحدث اليه الزعيم البعثي ميشيل عفلق في سوريا وحادث بعده الزعيم البعثي كمال جنبلاط في لبنان ، وقد لمست من هاتين المحادثتين ان فاروق علي سابق اتصال والفة مع كليهما ، فلما فرغ من ذلك سألته عن مدي ومعني علاقته بالرجلين الزعيمين والحركة البعثية التي يتزعمانها ، فلم يتردد فاروق في التصريح بانه يؤمن بمباديء واهداف البعث العربي القومي منه والقطري وانه يتبادل الرسائل مع زعماء الحركة ، ولكن الحركة في السودان ما تزال في طور تنظيم الاشتراكيين العرب ، فاذا ما تطورت ولحقت بالركب البعثي فانه حتما سيكون سندا لها ان لم يتمتع بكامل عضويتها .

ولعل الاخوة سمير جرجس ومحمد احمد سليمان وعبد الباسط سبدرات . بما تهيأ لهم من التصاق وثيق بفاررق في تلك الآونة . يستطيعون الاجابة علي التساؤل الذي طرحه البعض عن هوية فاروق السياسية وما اذا كان بعثيا ام شيوعيا او انه براء من هذا وذاك ؟! فمبلغ علمي به انه ثوري متجرد وقومي الفكر والانتماء ، وهذا ما سبق ان وصفته به في معرض الحديث عنه في حيز من هذا الكتاب ، ولكني اعود فاسلم بالحكمة القائلة (فوق كل ذي علم عليم).

وفي صباح ١ / يونيو ١٩٦٩م ايضا استأذنت فاروق في الذهاب لتفقد احوال اسرتي بودنوباوي فاذن لي واردف انه سيلحق بي في الساعة العاشرة

ليشاركني طعام الافطار ثم يصحبني معه في جولة علي سجون العاصمة وحراساتها . وكانت تلك بحق تجربة مثيرة ووقفت خلالها علي ما بداخل السجون من المآسي والمظالم ، وقد حاول فاروق جهده تخفيف وطأتها علي النزلاء ، ووصل به الامر ان اطلق سراح البعض منهم ، كما اصدر اوامره بتحسين ظروف الحياة ومطالبها من مأكل ومشرب وغير ذلك ، وامر بالاستفادة القصوي من خبرات النزلاء المهنية في الارتقاء بانتاج وعائد مصلحة السجون ، ومن المفارقات في تلك الجولة علي سجون العاصمة ان احد الجنود في سجن كوبر دخل في حوار قصير مع فاروق حول اوضاع افراد مصلحة السجون . ثم علق علي ذلك بقوله : ان المساجين افضل حالا منا نحن السجانين ، لان السجين يفترض ان يكون في عزلة اجتماعية ترفع عنه اعباء الحياة وهمومها ومن بينها الالتزامات الاسرية ، وفي ذات الوقت توفر له مصلحة السجون المأوي والامان وقدرا من الطعام والعلاج وضرورات الحياة الاخري ، وهذا كله غير ميسور للسجان من واقع مرتبه الضئيل الذي لا يكفي لمواجهة هذه الالتزامات والاحتياجات ، مما يجعله يغبط السجين علي وضعه ومكانته!

فضحك فاروق ووعد الجندي بالعمل فورا علي زيادة مرتبات كل افراد السجون من ضباط وصف وجنود ، اضافة الي ايجاد السبل لتحسين احوالهم الاجتماعية والمهنية ، وقد اوفي من بعد بما وعد .

جدير بالذكر ان سجون السودان الحديثة يرجع تاريخها الي عام ١٩٠٢ ، حين بدأ العمل في انشاء اول سجن حديث بعد انهيار دولة المهدية وهو سجن كوبر الذي قام بتصميمه المهندس الايرلندي العقيد مهندس هوفمان كوبر قائد الحملة والاشغال العسكرية بمنطقة الخرطوم بحري ، وقد سميت المنطقة وكذا السجن باسمه .

وفي عام ١٩٠٤ تم افتتاح السجن كاول سجن عام وسياسي في نفس الوقت وقد اودع فيه حينذاك سبعمائة رجل من الانصار بتهمة انهم كانوا يحملون ويقرأون راتب الامام المهدي المحظور في ذلك الوقت ، وفي اليوم العاشر من شهر مايو عام ١٩٠٥م تم اعدام ثلاثين من رجالات الانصار ايضا في سجن كوبر بتهمة حيازة اسلحة نارية افترض الحكام الانجليز والمصريون انهم كانوا يسعون بحيازتها الي اثارة الفتنة ضد حكومة السودان .

هذه المعلومات - اخي القاريء - عثرت عليها من جريدة الرائد عام ١٩١٣م ، وقد اورد هذه المعلومات رئيس تحريرها السيد قليلاتي وهو يتحدث عن احوال السجناء السياسيين في سجن كوبر ، وقد سلمت ذلك العدد من الجريدة الي الاخ فاروق عثمان حمد الله بوصفه وزيرا للداخلية ليكون سندا وثائقيا عند تسجيل تاريخ سجوننا السودانية .

ثم بدعوة من الاخ فاروق حضرت اجتماعا في حوالي الساعة الخامسة مساء بمكتبه بوزارة الداخلية يوم ٣ يونيو ١٩٦٩م ، وشارك في ذلك الاجتماع الامني احد الخبراء الروس وكان الغرض انشاء جهاز امن قومي يتبع في مسئوليته لمجلس قيادة الثورة ويعمل بتنسيق وتضافر مع جهاز الامن العام تحت امرة وزير الداخلية ، فاستمر الاجتماع حتي الساعة التاسعة مساء ، حيث حدد لنا الخبير الروسي اسس وضوابط الجهاز المرتقب ، ونصح في نفس الوقت بالاستعانة بالخبرة المصرية في هذا المجال ، وقد حدث ذلك بالفعل في قابل الايام ، اذ تم انشاء الجهاز المعني بتضافر الخبرة المصرية والروسية وتجربة الامن العام السودانية ، واسندت قيادته الي عضو مجلس قيادة الثورة الرائد مأمون عوض ابو زيد لخبرته السابقة في مجال الاستخبارات العسكرية .

بعد ساعة من نهاية ذلك الاجتماع صحبت فاروق لحضور اجتماع لتنظيم الضباط الاحرار جري الاعداد له بالقصر الجمهوري ، وفيه ناقش الاعضاء مادلي به العميد .أ.ج مزمل غندور عن اتصال ضابط قيادي من مفجري الثورة به للعمل علي تقويضها ! ورغم ان اصابع الاتهام قد اشارت الي غير مرة ، الا انني افلحت في الخلاص منها نجيا ، فانقلب الاعضاء علي العميد مزمل غندور ساخطين ووصفوه بالمكر وخبث الطوية ومحاولة الوصول الي مطامحه بكل سبيل . ثم انصرفوا عن ذلك الي غيره من الشئون ، فرشح الرائد فاروق الدكتور منصور خالد لمنصب وزير الشباب والرياضة ، فابدي الرائد هاشم العطا تحفظا حول ذلك المرشح وقال :

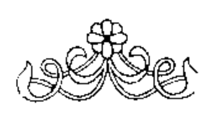
- انه من موقع عمله السابق كمساعد للملحق العسكري بسفارة السودان بالمانيا الغربية ، قد علم من مصدر موثوق به ، ان الدكتور منصور خالد عضو في شبكة جهاز الامن القومي الامريكي (C.I.A) فطلب الرئيس نميري من المجتمعين ان يتركوا له مهمة كشف وتمحيص هوية الدكتور منصور خالد واتخاذ

قرار بشأنه . فتصدي له هاشم العطا وقال :

- ان مبدأنا الثوري يحتم ان يفسر الشك لصالح الثورة لا لصالح الافراد ، ومادمنا نشك في شخص الدكتور منصور خالد فلماذا لا نغلق باب تعيينه الذي قد تهب علينا منه الاعاصير؟!

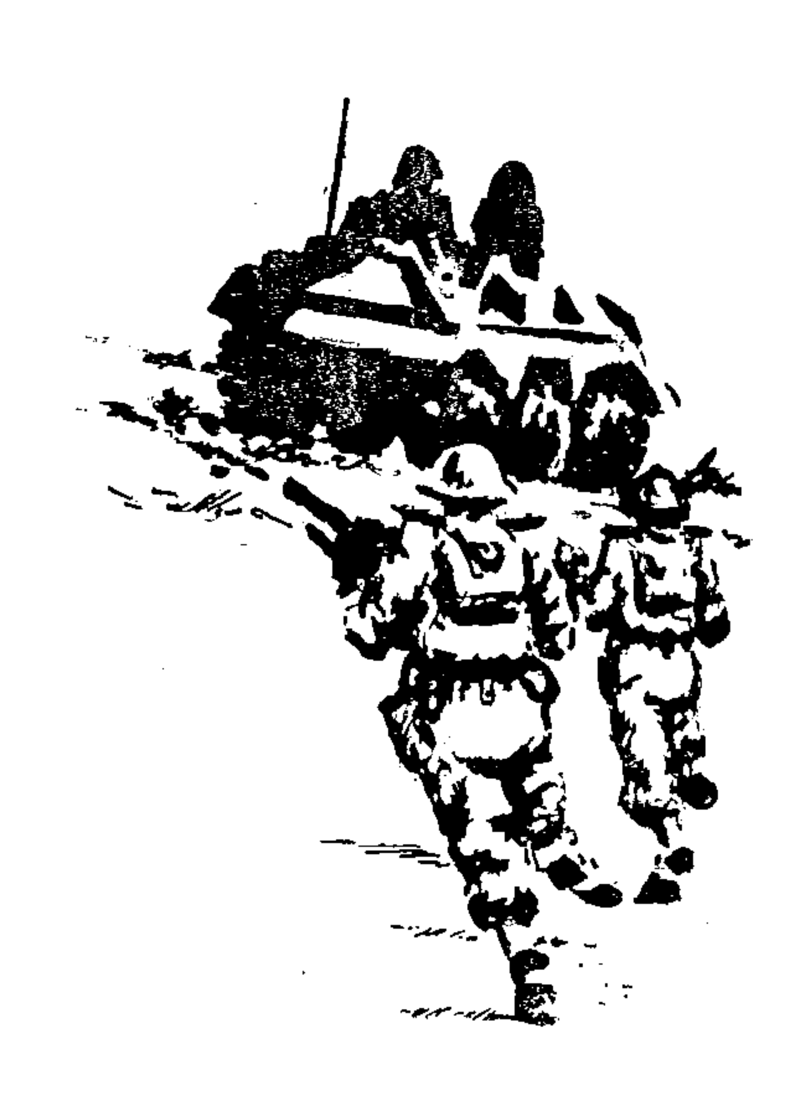
فاعترض الرئيس نميري علي ذلك واخذ يدافع بكثير من الحماس عن الدكتور منصور خالد . ومن عجب فقد تولي الدكتور منصور خالد منصب وزير الشباب والرياضة ، ثم اضحي وزيرا للتربية والتعليم ، فوزيرا للخارجية ومستشارا لرئيس الجمهورية - للشئون السياسية ، ثم جاء حين من الدهر ليؤكد حدس وفراسة الرائد هاشم العطا ، واصبح الدكتور منصور خالد بعد عزله من وزارة الخارجية من الد اعداء ثورة مايو وقائدها الرئيس جعفر نميري ! واتخذ من قلمه سيفا مسلطا علي النظام كله ، فافرد له العديد من الكتب والمقالات في كبريات المجلات والصحف العالمية والاقليمية ومايزال يفعل !! واحسب ان الرئيس نميري قد استبان نصح الرائد هاشم العطا ولكن بعد فوات الاوان .

ثم انفض الاجتماع في حوالي الساعة الثالثة من فجر اليوم التالي ، بعد ان اتخذنا العديد من الاجراءات والقرارات الثورية في مختلف الشئون ، وعدت من القصر الجمهوري الي القيادة العامة حيث قضيت ما تبقي من الليل بين الرفاق .





إبعاد قوة مدرعات خور عمر !



(الحلقة الرابعة عشرة)
إبعاد قوة مدرعات خور عمر

في فجر اليوم التالي الثاني من يونيو ١٩٦٩م ايقظني الرائد خالد حسن عباس قبيل الساعة الخامسة صباحا بقليل ، وطلب مني ان استعد لاصحبه في زيارة الي معسكر مدرعات الشجرة .

وبينما كانت السيارة تنطلق بنا صوب المعسكر افضي الي بنبأ تعمد ان يرسله بصورة عفوية ، فاثار ذلك دهشتي وتوجسي في نفس الوقت ، قال الرائد خالد :

- لقد قر رأينا في مجلس قيادة الثورة منذ يوم امس الاول علي تشكيل قوة خاصة من المدرعات تكون مهمتها حماية امن الثورة وقادتها وسلطتها التنفيذية وقد رأينا ان نستعين في هذا الامر بخبرة الاخوة في مصر ! وبعرض الامر عليهم استجابوا لمطلبنا مشكورين بغير تردد ، وسيرسلون خلال هذا اليوم عددا من طائرات الانتينوف لنقل قوة مدرعات خور عمر الي مصر ليتم تدريب افرادها علي تلك المهام الخاصة ، وليستكملوا تدريبهم أيضا علي دبابات الـ (ت ٥٥ الروسية) ، وبالطبع ستكون انت معهم في هذه البعثة التعليمية !

- انا ؟!

قلتها بصورة من ادهشه الخبر المفاجيء . فقال خالد :

- نعم انت ، وهذا امر لا مناص من تنفيذه .

قلت له مراجعا :

- ولكنكم في امس الحاجة اليوم لهذه القوة ، فالثورة ما تزال في بداية مرحلة الانطلاق !

قال بثقة مفرطة :

- الثورة سيحميها الجيش باكمله ، ومن ورائه شعب السودان الذي آمن بها وباهدافها ، ولن يجرؤ احد ايا كان علي مصادمة الثورة في هذا الوقت ولكن لا يستبعد أن يحدث هذا في وقت لاحق ، وفي ذلك الوقت تكونون انتم قد اكملتم تدريبكم وعدتم من مصر مؤهلين لحماية الثورة من كل خطر .

كان عقلي موزعا بين مطامحي الوطنية المناوئة وكيفية مواجهة هذا القرار المفاجيء ، فرأيت ان اندفع مع التيار حيث لم يكن ثمة سبيل لاعتراضه في ذلك الظرف ، وسألت خالد :

ـ ومتي نغادر الي مصر ؟

فاجاب بسرعة وحزم :

ـ اليوم .

عدت اسأله فيما يشبه الانكار والتعجيز :

ـ اليوم ؟ وهل يكفي اليوم لاستعداد كل افراد القوة ليكونوا جاهزين للسفر الي مصر ؟

قال :

ـ افراد القوة قد جري ابلاغهم بالامر منذ الامس ، اما انت فقد رأى الرئيس نميري كتمان الخبر عنك بينما كنت مع فاروق بوزارة الداخلية ، ربما لانه اضحي يتشكك في صدق ولائك للثورة وقادتها ، ولهذا السبب ايضا امر ان تسند قيادة هذه القوة للرائد علي علي صالح يليه في القيادة الرائد ابراهيم جلق ، كما امر ان يصحبكم الرواد حمادة عبد العظيم وزيادة صالح الشيخ وعثمان محمد احمد اضافة الي الثمانية ملازمين المترقين من الصفوف من مدرعات خور عمر . وذلك لكي تسند اليهم مهام قيادة وحدات القوات الخاصة بعد تلقيها التدريب في مصر وعودتها منها !!

سألته وانا اغالب سورة غضب عاصف :

ـ مادام الامر كذلك لماذا اصحب انا القوة الي مصر ؟ ولماذا ـ مثلا ـ لا يصدر قرار باحالتي للتقاعد لتنتهي علاقتي بالثورة وقادتها ؟!

قال خالد :

ـ هذا ما قلنا به جميعا ، ولكن الرئيس نميري اصر علي ابقائك بالجيش وسفرك مع القوة الي مصر ، لماذا ؟ هذا ما لم يفصح لنا عنه !! ومهما كان الامر فنصيحتي لك ان تنصاع للامر الصادر ، ولا تتح للآخرين فرصة يتحينونها للتحرش بك والخلاص منك مما يجعلك وقودا لنار الثورة المضطرمة ، وانا اسدي لك هذه النصيحة من منطلق صداقتنا وصلتنا الشخصية القائمة وهذا اقصي ما استطيع تقديمه لك في هذا المنحني الثوري الدقيق .

قلت له :

ـ مهما يكن من امر ، فاني اشكر لك نصحك وصراحتك معي لتوضيح الامور ، وسوف انفذ الامر الصادر ، دون اعتبار لمشاعري وقناعاتي الشخصية.

فشكرني خالد علي حسن تفهمي وتجاوبي مع الظروف ، ثم اخذ يحدثني في جملة من الاحداث الاخري حتي بلغنا وجهتنا في معسكر الشجرة ، ومن هناك امر لي بعربة لاندروڤر عسكرية لتقلني الي منزلي بودنوباوي وتبقي في انتظاري لتأخذني الي مطار وادي سيدنا حيث تنتظرنا الطائرات المصرية .

فوجيء اهل منزلي بقرار سفري الي مصر ، فزعمت لهم ان الامر لا يعدو ان يكون مأمورية عادية وبذلت جهدي لاقنعهم بذلك ، ثم بقيت معهم لحظات وودعتهم وانصرفت .

وفي مطار القاهرة الدولي كان المقدم أج.(وقتها) عمر محمد الطيب مندوب القوات المسلحة الي جامعة الدول العربية في استقبالنا مع بعض الاخوة من الضباط المصريين ، وقاموا بترحيلنا الي فندق الضباط بالزمالك ، حيث تم ترتيب اقامتنا طوال فترة بقائنا بقاهرة المعز والتي امتدت زهاء ثلاثة اشهر ، لقينا خلالها اقصي درجات الكرم والحفاوة من اخوة السلاح المصريين ، كما افاضوا علينا من معين خبراتهم وعلمهم العسكري الغزير بغير حدود !! ،وفي نهاية الفترة التدريبية جري الحاقنا بجبهة القتال الدفاعية بمنطقة الجفرة لمدة اسبوعين ، حتي يتسني لنا تطبيق ما تلقيناه من علم نظري علي الواقع العملي فازددنا بذلك كيل علم وخبرة .

ومن معالم تلك الظروف التي قضيناها بارض الكنانة انني قد لمست شعورا جديدا لدي اهل مصر عامة وكبار الشخصيات القيادية خاصة اختلف في اطاره ومؤثراته وطبيعته عما الفت عليه الحال من قبل ، فقد كان وجودنا في تلك البعثة العسكريةيمثل ـ هذه المرة - مرتكزا سياسيا معينا ، نقوي به ذلك النزوع اللهيف تجاه خلق وحدة شمولية بين القطرين ، ومن ثم فقد نعمنا كثيرا بحال المؤلفة قلوبهم طوال فترة اقامتنا في مصر .

ثم عدنا الي سوداننا الحبيب ، بعد انقضاء فترة الحاقنا بقوات الجبهة في مصر ، وفي مطار الخرطوم استقبلنا بعض رفاق السلاح وبينهم نفر من اعضاء مجلس قيادة الثورة هم المقدم بابكر النور والرائد فاروق عثمان حمد الله والرائد

هاشم العطا . وبعد نهاية الاجراءات تطوع الرائد فاروق بتوصيلي الي منزلي بودنوباوي وبرفقته هاشم العطا .

واذ كانت العربة تنطلق بنا ، ابتدرني فاروق عثمان بالسؤال عن احوال صف وجنود قوات خور عمر ، وعما اذا كانت رابطتي بهم ماتزال علي حالها من القوة فاجبته بالايجاب ، فتدخل الرائد هاشم العطا معلقا في ضحكة ساخرة :

ـ اكيد المصريين عملوا ليكم غسيل مخ "Brain Wash- قالها بالانجليزية فتساءلت عن دواعي تعليقه ذاك ، ورد فاروق علي بقوله :

ـ انتو طبعا يامحجوب ابتعدتم عن مسار الثورة منذ ايامها الاولي ولم تشهدوا الصراع الدائر بين القوي التقدمية وجماعة القوميين العرب ، الذين صنفناهم من قبل في عداد هذه القوي التقدمية ، ولكن ثبت لنا بالتجربة انهم اكثر تخلفا ورجعية من رجال الطوائف والاحزاب والقوي التقليدية ، تدفعهم وتسندهم القيادة المصرية والرئيس عبد الناصر بحسبان انهم من المنتمين عقائديا الي ناصريته ، فاعتقدنا نحن ـ ونرجو ان نكون مخطئين ـ انهم في مصر سيعملون علي توجيهكم وتنظيمكم سياسيا وعقائديا في عقد القوميين العرب

قلت له في نبرة صدق :

ـ اجزم ان شيئا من ذلك لم يحدث معنا ، رغم كرم الضيافة وحفاوة المصريين بنا .

عاد هاشم العطا ليتدخل من جديد وقال :

ـ محجوب ، سأكون صريحا معك في توضيح الموقف السياسي وربما هذا ما جعلني احرص علي لقائك بالمطار قبل الآخرين . فاتجهت اليه بوجهي في اهتمام شديد ، فواصل حديثه :

ـ اولا فيما يخصك انت ، فقد تأكد لنا ضلوعك في التآمر مع العميد مزمل غندور ، او علي الاقل هذا ماحدث من جانبك انت ، ورغم ذلك لا اريدك ان تعترف بهذا الجرم للاخوة في المجلس حتي لا تكون عرضة لمساءلتهم وليبق الامر برمته شبهة عالقة بك لا اكثر ، وسنحاول نحن من جانبنا درءها عنك بكل سبيل .

ثانيا : كن علي اتصال دائم بقوات خور عمر وخاصة المدرعات ، ولكن الزم جانب الحذر التام ، ولتعلم اننا في المجلس نصحنا العميد احمد عبد الحليم

واركانحربه ، وخاصة ضابط الاستخبارات بمراقبة تحركاتك واتصالاتك بين قوات المدرعات ! ثم دعم هذه النصيحة الرائد مأمون بخطاب سري الي قائد المدرعات يمنع دخولك السلاح في غير ساعات العمل الرسمية . وقد تقرر في هذا الصدد ان يمنحك قائد المدرعات اجازتك السنوية كاملة بمجرد عودتك من مصر لحين اكتمال النظر واتخاذ القرار في موضوعك .

قلت له :

ـ مادام كل هذا قد حدث ويحدث ، فكيف يتسنى لي ان اكون علي صلة بقوات خور عمر؟ تصدي فاروق للاجابة وقال في حزم :

ستكون انت وقواتك في يوم قريب مربط فرس القوي التقدمية !

سألته مباشرة :

ـ هل افهم من حديثك ان التضامن والوفاق غير متحققين في مجلسكم ؟

فرد هاشم العطا :

ـ تماما هذا هو ما يحدث الآن ، وسوف تتضح لك الصورة اكثر من خلال حضورك لاجتماعات تنظيم الضباط الاحرار ، وقد دعونا لاجتماع في مساء الغد بمنزل فاروق ، وعليك الحضور لتدرك ابعاد ما يحدث من فرقة وشتات .

وقطع فاروق استرسال الحديث بوقوفه امام احد المنازل الحكومية بالحي الغربي ، ثم ترجل عن العربة ودعانا لنتبعه ، وبعد الطواف علي ارجاء المنزل الفخيم دفع الي بمفاتيحه قائلا :

ـ هذه هديتي لك ، فقد حجزت هذا المنزل لسكناك ، كما خصصت لك عربة حكومية لترحيلك رغم انك من الناحيتين الاجرائية والرسمية تتبع لقيادة الجيش وليس لوزارة الداخلية

فشكرته علي فيوض كرمه ، وقلت مازحا :

ـ افهم من هذا انني اتبع من الناحية الرسمية لقيادة الجيش ، ومن الناحية الثورية لقيادتك انت ورفاق التقدم ؟!

فانفجر فاروق وهاشم العطا ضاحكين ثم امسكا ، ووصفاني بالذكاء وباني واقع من السماء سبع مرات ! ثم انطلقنا صوب وزارة الداخلية حيث ترجلا عن العربة ودعا فاروق سائق عربته ليواصل معي الرحلة الي منزلي بودنوباوي .

وفي صبيحة اليوم التالي توجهت الي القيادة العامة ، فالتقيت بالرفاق

اعضاء مجلس قيادة الثورة ، وكانت اجتماعاتهم في ذلك الوقت موزعة بين القصر الجمهوري حيث اضحي لكل منهم مكتب رسمي خاص به ، وبين القيادة العامة حيث كان اللقاء ، واثار دهشتي ذلك الحماس المفرط والاحتفاء الكبير بمقدمي عليهم ، وقد ابتدرني (العميد) خالد "وقتها" معتذرا بانه كان يزمع لقاءنا بالمطار لولا بعض المهام الرسمية التي حالت دون ذلك ! فشكرته ورأيت ان استغل حرارة الموقف فشفعت شكري له بالسؤال مباشرة عن موقف تكليفي في مسار الثورة وموقعي المهني ! كان السؤال مفاجئا لخالد واجزم انه لم يكن يتوقعه في ذلك الحين ، ولكنه استطاع ان يخرج بلباقة من حرج الموقف وقال :

- اسمع يا محجوب لقد قمت بعمل ايجابي كبير في مرحلة تفجير الثورة ثم اردفته بهذه الفرصة الدراسية بمصر ، وفي رأيي انك من جراء كل ذلك مرهق وفي حاجة الي الراحة والاستجمام ، او هذا علي الاقل ما افترضته انا ، ولهذا فقد امرت لك بعطلتك السنوية ، وحتي نفيد منك خلال عطلتك ، رأينا ان تقضي شطرا منها - شهرا علي الاقل - بالجارة الشقيقة اثيوبيا وفي ارتريا علي وجه الخصوص ، لتكتب لنا عند عودتك ومن واقع مشاهدتك الفعلية واتصالاتك الشخصية تقريرا سياسيا عن واقع وتطور الثورة الارترية ، لاننا بصدد دعم هذه الثورة وقادتها بالمال والعتاد والجهود ، اضافة الي ابقائهم علي حدودنا وبين ظهرانينا من اجل تحقيق امانيهم الوطنية في الانتصار علي الامبراطور هيلاسلاسي وبطانة حكمه الغاشم ، واستعادة دولتهم واعلان أستقلالها وسيادة شعبها علي ارضه .

قلت للعميد خالد :

- هذه مهمة قد لا اقدر عليها ، لانها في حاجة الي ضابط استخبارات مدرب بحكم طبيعتها .

قال في حماس مفتعل :

- لا ، انت لها وليس احدا سواك ، فانا اعرف جيدا مواهبك وامكاناتك في البحث والتقصي وتمحيص الحقائق ، ومن ثم ابداء الرأي السياسي الحصيف ! وعلي العموم فان هذا (امر) ولا مجال فيه لحوار .

قالها ثم رفع سماعة التليفون وادار قرصه علي عجل واتصل بالرائد مأمون عوض ابوزيد ، ولم تمض علي ذلك الا بضع دقائق حتي وافانا هذا وهو يحمل

في يده لفافة . فتبادلنا التحيات وعبارات المجاملة ثم جلس وشرع في شرح ابعاد مهمتي الميدانية في ارتريا ، ودفع الي في ختام حديثه بمبلغ من المال قائلا:

- هذا ما يلزمك لنفقات الرحلة واداء المهمة تقريبا واذا ما دعتك الحاجة لطلب المزيد فاتصل بنا عن طريق السفارة في اديس ابابا او القنصلية في اسمرا ، ولكن تذكر اننا نعول كثيرا علي تقريرك في تحديد مدي تعاوننا وارتباطنا بالثورة الارترية ، وارجو ان يتم سفرك في خلال عشرة ايام من الآن .

اجبته بالايجاب وانصرفت الي منزلي ولم ينسي خالد وهو يودعني ان يدعوني لاجتماع تنظيم الضباط الاحرار المقرر عقده في مساء نفس ذلك اليوم بمنزل الرائد فاروق عثمان والذي تم اخطاري به من قبل .

وفي الموعد المضروب كنت بمنزل الاخ فاروق ، وقد استرعى انتباهي بداية وجود عدد من الضباط لم يكن لي سابق علم بانتمائهم للتنظيم ، كما لم يحضروا الاجتماعات التنظيمية التي جري عقدها في الايام الاولي لتفجير الثورة ، وبسؤالي عنهم قال لي فاروق :

- هؤلاء هم احرار مايو الذين نالوا عضوية التنظيم بعد تفجير الثورة لترجيح كفتها بداخله ! وجميعهم يشغلون مواقع هامة في وحدات القوات المسلحة ، ثم ازددت علما من الاخ هاشم بان هؤلاء جميعا من مجندي خالد حسن عباس الذي لقبه هاشم بالمشير ! تشبيها بالمشير عبد الحكيم عامر .

ضحكت لسخريته اللاذعة وقلت له :

- هذا يعني ان الوجوه الجديدة علي غير ملتكم العقائدية ، اعني انهم من زمرة القوميين العرب .

فرد هاشم العطا في ثقة قائلا :

- هؤلاء في رأيي بلا لون ولا هوية ، وقد استجابوا فقط لدعوة خالد التي تمثل مصلحة اولي الامر والنهي ، وربما انخرطوا في التنظيم حرصا علي مواقعهم المهنية وحبا في الزيادة والنماء ، ولكنهم علي كل حال ، صخور وجنادل تعترض جريان نهر التقدم !

سألته علي التو :

- ولماذا لا تحتذون بما فعله خالد فتكثفون وجودكم داخل التنظيم لنفس الغرض ؟

قال هاشم وكأنه يفضي الي بسر كبير :

- هذا ما يفعله وسيفعله فاروق في نطاق وزارة الداخلية وهو ما نقوم به نحن سرا في صفوف القوات المسلحة . انه سباق محموم واتجاه يشكل في رأيي خطرا علي امن الثورة ومسارها ، وكلنا اجبرنا عليه مجاراة لما يفعله خالد وزمرته ومن بينهم نميري نفسه الذي كان يفترض فيه ان يكون قائدا واخا روحيا للجميع عندها تأوه هاشم في زفرة حري !!

في ذلك المساء بدأ الاجتماع هادئا منتظما تسوده روح الالفة والتوافق ، حيث التقت الاراء عند الكثير من المقترحات ، ولكن سرعان مادب الخلاف حول عدد من المسائل المطروحة ، من ذلك مثلا اقتراح تقدم به خالد حسن عباس يقضي بابراز دور رواد الحركة الوطنية ، ومنحهم اوسمة ونياشين ومعاشات شهرية مناسبة وعلي رأس هؤلاء الرواد الزعيم اسماعيل الازهري الذي اقترح خالد ان تسدد عنه الدولة ديونه لدي البنك التجاري اضافة للمعاش اللائق ، كما اقترح خالد ان تتبني الثورة تسجيل تاريخ الثورة المهدية والثورات الوطنية الاخري والاشادة بمواقف وبطولات صناعها والمشاركين فيها ، مع منح هؤلاء الابطال الشهداء رتبا اعلي واطلاق اسماءهم علي بعض شوارع العاصمة وعواصم الاقاليم .

وعلي الرغم من وجاهة الاقتراح وموضوعيته ونبل دواعيه ومقاصده ، الا انه مع ذلك كله سقط عند التصويت عليه ، وقد سقط فقط لان الذي تقدم به هو خالد حسن عباس او المشير كما يلقبه سخرية رفاق لينين ومن يدور في فلكهم من الغاوين !! وجاء ذلك محكا لاختبار حجم القوي المتصارعة داخل التنظيم ومجلس قيادة الثورة ، واظهر قدرا من التكافؤ بين الفريقين حيث سقط الاقتراح بصوت واحد لا اكثر !! فلم يثبط ذلك همة المشير او يزلزل قناعته بالامر ، وظل يعمل لتحقيق اقتراحه في قابل الايام حتي وضعه موضع التنفيذ .

كذلك تقدم الرائد مأمون عوض ابو زيد باقتراح دعا فيه لما اسماه بلم الشمل الوطني تحت مظلة الثورة . وهو ماعرف فيما بعد باسم المصالحة الوطنية . فتجاوب الحاضرون مع مأمون بسخرية جارحة ، وقال له الرائد هاشم العطا :

- ان كنت تدعونا للتعايش السياسي مع هؤلاء ، فمن هم اذن اعداء الثورة ايها المسئول عن امنها ؟!

فغضب مأمون لذلك الاستفزاز الذي لم تتحمله مشاعره المرهفة ، فكتم غيظه وغادر المكان في احتجاج ظاهر والم دفين .

ثم طرح الرئيس نميري اقتراحا يقضي بان يخول اعضاء التنظيم مجلس قيادة الثورة حق اتخاذ القرارات الهامة العاجلة ، التي تحقق ميكانيكية الثورة وسرعة الانجاز . ومن عجب فقد فاز هذا الاقتراح بالاجماع ، وكان ذلك الفوز حجر الزاوية الذي بني عليه نميري ومجلسه اتجاههم الرامي للانفراد بالسلطة السياسية والقرار التنفيذي ، كخطوة اولي في تركيز السلطة وبناء حكم الفرد ، ومن ثم بدأ دور تنظيم الضباط الاحرار في الاضمحلال والضمور ، حتي اصبح التنظيم مجرد واجهة سياسية وترفا ثوريا لا طائل من ورائه ، ولا سلطة له ولا سلطان علي قيادة الثورة وتوجهاتها ، فانحدر الي هاوية التمزق والضياع .

ثم ازمعت السفر الي الجارة اثيوبيا لقضاء عطلتي السنوية المقررة بين ربوعها ، وبتعبير ادق تنفيذا للامر الصادر من رفاق السلاح والنضال ، ولكن ولما كنت موقنا بان هدف تكليفي الاول والاساسي هو ابعادي عن مسرح احداث الثورة ، فقد عقدت العزم علي الافادة من رحلتي في التمتع بمباهج الحياة المترفة ونيل اكبر قسط من الراحة والاستجمام ، ووضع خطة عملية وفق معطيات الظروف القائمة في البلاد لتحقيق مطامحي الوطنية التي تزداد رسوخا ونضجا ونماءا ، ولا ضير بعد ذلك كله من الالمام علي الطبيعة باحوال القطر الاثيوبي عموما ، وابعاد الثورة الارترية وتطورات احداثها علي وجه الخصوص . وهذا ما حققته فعلا بعد قضاء اربعين يوما في تجوال دائم بين ارجاء اثيوبيا واقليم ارتريا بشيء من التركيز ، حيث كان الاخ قنصل السودان باسمرا انذاك عونا كبيرا لي في انجاز المهمة وتفهم حقيقة الاوضاع الامنية ، وقد اكد لي في تلك الظروف وجود كيان ثوري اثيوبي يسعي لتقويض حكم الامبراطور هيلاسلاسي وبناء نظام حكم اشتراكي جديد علي انقاض السلطة الامبراطورية الوراثية في البلاد ، ومضي الي القول بان قادة الثورة المرتقبة هم انفسهم قادة وحدات الجيش الاثيوبي ورجال الامن والادارة ، بل وربما بعض كبار المسئولين المقربين من الامبراطور !! واكدايضا ان الولايات المتحدة الامريكية التي تمتلك قواعد عسكرية استراتيجية في كل مدن اثيوبيا وارتريا لن تتدخل لاحباط الثورة او الانقلاب العسكري ضد الامبراطور ، لان الادارة الامريكية قد

اقتنعت بان النظام الامبراطوري القائم لم يعد صالحا لاثيوبيا ولا مواكبا لروح العصر .

ويواصل الاخ القنصل تنبوءاته فيقول :

- ان الغرب الاوربي عامة والولايات المتحدة بوجه خاص ، سرعان ماسيدركهم الاسف والحسرة علي زوال الحكم الامبراطوري التقليدي المحافظ الموالي للغرب عندما تتكشف لهم هوية الثوار الشيوعية بعد فوات الاوان !!

ويضيف :

- ان وضع السودان الامني في حوار اثيوبيا الامبراطورية - رغم مايفرزه من قلاقل محدودة الاثر - لهو احسن حالا مما يتوقع حدوثه بعد تغيير النظام الاثيوبي ، خاصة اذا انتكس الحل المطروح لمشكلة الجنوب السوداني في يوم من الايام !

ومن رأيه ايضا انه برغم وجود ثورتين مضادتين لحكم الامبراطور في اثيوبيا - وهما الثورة الاثيوبية المتوقعة والثورة الارترية القائمة - فلا شيء يؤلف بين قادة الثورتين ، فهم فرقاء في الاهداف والمباديء والفكر الثوري ، وترتيبا علي ذلك ، فان نجاح الثورة الاثيوبية في الاطاحة بحكم الامبراطور هيلاسلاسي وبناء الدولة الاشتراكية الجديدة لن يساعد الثورة الارترية في تحقيق آمالها الوطنية واهدافها المرتجاة ، فالاثيوبيون علي اختلاف توجهاتهم السياسية لا يعترفون بحق الشعب الارتري في استعادة ارضه ودولته السليبة ، ويرون ان اقليم ارتريا جزء لا يتجزأ من الوطن الاثيوبي الكبير ، ومن ثم فسوف يواجهون ثوار ارتريا بعنف وشراسة لم يعدوهما في العهد الامبراطوري .

ويعقد الاخ القنصل مقارنة مثيرة بين المشكلة الارترية ومشكلة جنوب السودان من حيث الامر الواقع لا الجذور ، ويري انه يمكن الوصول الي حل لهما معا بتطبيق حكم فدرالي في اطار الدولة الموحدة ، ولا شيء غير ذلك ! وان ارتريا المستقرة سياسيا بمناطقها السياحية الجذابة وطقسها الرائع وسكانها المعروفين بتحررهم في استقبال الاضياف يمكن ان تصبح منطقة جذب سياحي فريدة لابناء الامة العربية وبخاصة من دولها المنتجة للبترول ، فتوفر بذلك عائدا اقتصاديا كبيرا يحقق الوفرة والرخاء .

وعلي نقيض ذلك تماما ، فان الكفاح الثوري المسلح تتمخض عنه تلقائيا

حالة من عدم الاستقرار الامني ، وهي تؤدي بدورها الي وقف التدفق السياحي وعوائده فيتكرس بذلك الجهل والمرض في كل اثيوبيا . وفي اقليم ارتريا بصفة خاصة ، وفي آخر المطاف لن تبلغ الثورة الارترية هدفها المنشود الا في اطار الحكم الفدرالي طال الزمن ام قصر ، وهو امر يمكن تحقيقه بالحوار لا بالحرب .

وجدتني - خلال فترة وجودي القصيرة باثيوبيا - مؤمنا علي كل ما طرحه القنصل السوداني من آراء ثاقبة وتحليلات سديدة ، واضفت الي ذلك بعض المعلومات الجغرافية والتاريخية التي تمثل وجهتي النظر الاثيوبية والارترية حول بقاء ارتريا كجزء من الدولة او انفصالها عنها ، وما يدعم ذلك من حجج تاريخية ومطامح وطنية واعراف دولية .

ثم وضعت كل ذلك وغيره في تقرير صغته باسلوب عسكري مختصر وسلمته للرئيس جعفر نميري بعد عودتي للسودان ، فاطلع عليه في وجودي وابدى اعجابا شديدا به ، واخذ يثني علي كفاءتي الامنية وقدراتي التحليلية ، ولكني لم ادعه ينتشي بذلك الاعجاب طويلا ، وفاجأته بقولي :

- هذه المعلومات جميعها استقيتها من قنصلنا باسمرا ، اما الجزء الخاص بالجغرافيا والتاريخ فقد اخذته من كتاب لجغرافية وتاريخ اثيوبيا وبعض الكتيبات التي تعكس وجهتي نظر الحكومة الاثيوبية والثوار الارتريين .

عندها نظر الي نميري غير مصدق وتساءل :

- محجوب لماذا تبخس نفسك حقها في الانجاز ؟

- فاجبته بقولي: اردت فقط ان اوفي القنصل حقه ، خاصة وقد لاحظت ان له علاقات وطيدة بكل من الثوار والسلطة الحاكمة علي السواء ، وهذا مايجعله قادرا ومؤهلا للادلاء بآراء وتقارير موثوقة تمكنكم من اتخاذ القرار المناسب فيما يخص علاقاتنا السياسية والعسكرية بالجارة اثيوبيا .

فبدا عليه انه يوافقني هذا الرأي واخذ يردد :

- مفهوم ، مفهوم .

وساد صمت قصير قطعته بالسؤال عما سيكون عليه وضعي المهني بعد تلك المهمة ! فاجاب في عفوية باني ساكون ضابطا عاديا بمدرسة المدرعات ! ولن تسند الي مهام قيادية او سياسية جزاء ما اقترفت من جرم بمحاولتي تقويض ثورة مايو الظافرة الخالدة ابدا باذن الله .

فانصرفت من عنده محبطا ساخطا ، وفي صبيحة اليوم التالي توجهت مبكرا الي معسكر سلاح المدرعات بالشجرة ، فتلقاني قائده العميد احمد عبد الحليم بكثير من الحفاوة والترحاب ، وصحبني معه في طوافه الروتيني علي طوابير الصباح ، فاذهله ما استقبلني به الضباط والصف والجنود من فرح وتكريم واعجاب ، ولمس نبض مشاعرهم الودية الحارة نحوي ، فعلق ساخرا :

ـ اراك يا محجوب بمثابة الزعيم الروحي لهذا السلاح ، ويبدو انك قد افدت من الفراغ الذي تركته انا بعد اعفائي من الخدمة العسكرية ، وبما اني قد عدت بفضل هذه الثورة الظافرة ، فلا مجال لوجود زعيمين روحيين في قيادة واحدة .

قلت له في نبرة جادة :

ـ افهم من هذا انك لا تقبل بوجودي معك كأحد ضباط السلاح رغم كونك القائد ؟

قال في برود وبغير مرارة :

ـ بصراحة ، لا انا ولا الاخوة في مجلس قيادة الثورة يقبلون وجودك في هذا السلاح ، لما يدور حولك من شكوك امنية !! وبصراحة اكثر ، انا اقترحت علي الرئيس جعفر نميري ان يعينك ملحقا عسكريا ، ولكنه اعترض علي هذا الاقتراح ، وطلب مني ان ابقيك معي في السلاح ولو بصورة شكلية ، رغم وجود توصية من المجلس تحذر من دخولك معسكر السلاح بعد ساعات العمل الرسمية !

ندت عني ضحكة قصيرة هادئة وسألته :

ـ كيف سيكون وجودي الشكلي هذا بالسلاح ؟

فاجاب العميد :

ـ انت الآن في قوة مدرسة المدرعات ، وقد طلبت من قائد المدرسة ان يسند اليك حصتين كل اسبوع لا اكثر ، وعليه فما اطلبه منك انا بصفة شخصية هو ان تعتبر نفسك فيما يشبه الاجازة المفتوحة منذ الآن ، وعليك فقط ان تقوم بتدريس هاتين الحصتين بالمدرسة في الوقت المحدد لهما ، ثم تنصرف عن السلاح دون ان تكشف لاحد سر هذا الترتيب ، حتي لا نكون نحن وانت في وضع حرج بين افراد السلاح وارجو منك اخيرا يا محجوب ان لا تراجعني في هذا الترتيب لانه قد تم بواسطة الريس نفسه ، وهذا يعني انه قد اخذ صبغة الامر العسكري

قلت له :

حاضر سافعل ما تطلبون !!

قلتها غاضبا يائسا ، ودواخلي تضطرم بالحقد والتحدي والثورة ، بعدها دفع الي العميد أحمد بجدول برنامج التدريب بالمدرسة متضمنا الحصص المخصصة لي ومواقيتها ، وانصرفت من عنده وتعمدت ان اتجاهل تحيته بالانصراف !!

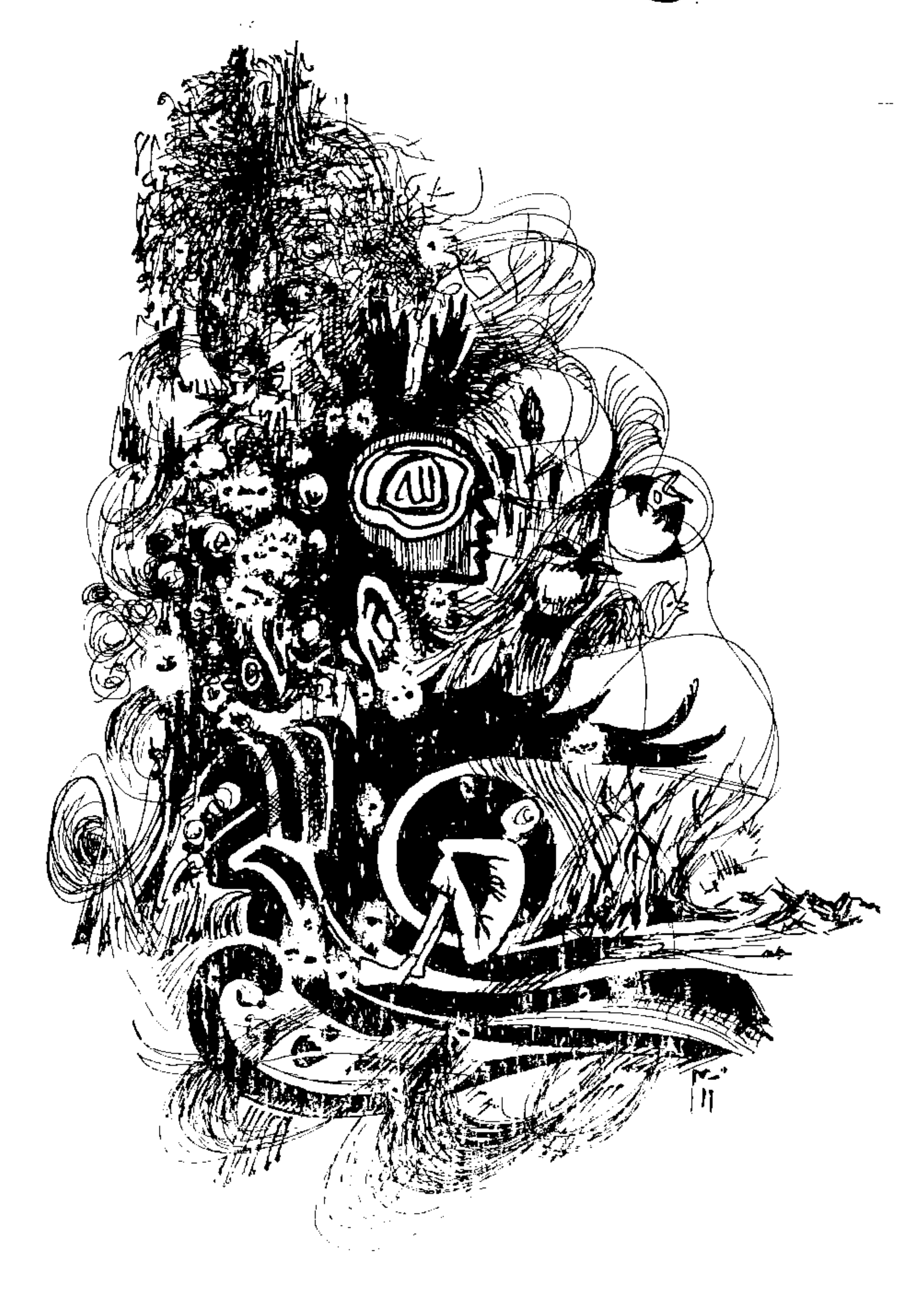
ولم يغب تصرفي علي فطنته ، فاستدعاني وهو ينهض من مقعده متأنيا ، دنا مني وعانقني في ود ظاهر ، ثم ودعني بقوله :

- محجوب افهمها بقي ، انا ما ليش دعوة ، دي لعبة ثوار وانا ما ليش فيها.

فرمقته بنظرة آسية لما بدر مني ، وانا مدرك تماما لمقاصده .



الأفق الضائع !



{الحلقة الخامسة عشرة}

الأفــق الضـاحك

غادرت سلاح المدرعات ودواخلي مراجل تغلي بالحقد والغضب ، وتوجهت مباشرة الي وزارة الداخلية لمقابلة فاروق عثمان ، فالفيته غارقا في زحام العمل كان يتحدث عن تحركات خارجية مشبوهة للسياسي المعروف نصر الدين السيد ، علمت من مجريات الحديث انه كان ينتقل بين لندن والقاهرة وعدن ، في محاولة لاستقطاب الدعم المادي والادبي ضد الثورة ، وهذا ماجعل فاروق يأمر باعتقاله رهن التحقيق .

ثم اخذ فاروق يصدر قراراته وتوجيهاته حول بعض القضايا الامنية الاخري ، من بينها قضية الخواجة جيمي صاحب كباريه غردون (G.M.H) اذ جري اتهامه بسوء استخدام الملهى وقضية ثالثة متهم فيها ايضا خواجة يمتلك مصنعا للخمور ، قيل انه قام بتهريب امواله خارج البلاد !!

وهكذا وجدت فاروق في دوامة من القضايا الامنية فلم أشأ ان اضيف الي اعبائه الجسام عبئا آخر واجبته علي سؤاله عن احوالي باني بخير وغادرته مودعا فخرج معي مجاملا او حبا في تنفس قدر من الهواء الطلق ، وكم كانت دهشته حين وجد الامير عبد الله عبد الرحمن نقد الله في زمرة من ينتظرون الاذن بمقابلته ! فاستشاط غضبا وصاح في مدير مكتبه معنفا :

- كيف تجعلون الامير ينتظرني بالخارج ؟ هل نسيتم انه كان قبلي وزيرا لوزارة الداخلية هذه ؟!

ثم اقبل يعتذر بحرارة للامير ويدعوه للدخول ، وطلب مني ان احضر لقاءه فاستجبت لرغبته ودلفنا الي الداخل مرة اخري .

بعد ان اخذ الرجل مجلسه تساءل عن سبب استدعائه للوزارة ، فافضي اليه فاروق بمخاوفه الامنية التي لخصها في ورود تقرير من جهاز الامن العام ، يفيد بوجود حشود وتجمعات مسلحة للانصار والاخوان المسلمين والاتحاديين اعوان الشريف حسين الهندي بكل من الجزيرة ابا واثيوبيا وان هؤلاء يحاولون تسريب بعض اعوانهم المسلحين الي العاصمة القومية للاطاحة بنظام الحكم الثوري الجديد !!

اعترف الامير نقد الله بوجود تحالف مسلح بين الانصار والاتحاديين والاخوان المسلمين ، وقال انهم يشكلون بالفعل معارضة سياسية لنظام مايو ، وهذه مسألة عادية وافراز طبيعي للاوضاع ، فلا يخلو نظام للحكم في العالم من وجود قوي سياسية تعارضه واخري تناصره ، وحيث ان سلطة مايو لاتأخذ بالنظام الليبرالي الذي يسمح بالمعارضة العلنية المنظمة في الاحزاب والكيانات النقابية وغيرها فليس من سبيل للقوي السياسية المعارضة في البلاد من اللجوء للعمل السري ، ولكنهم مع ذلك لا يسعون لقلب نظام الحكم في الوقت الحاضر علي الاقل .

واعاد الامير على فاروق ما جري بيني وبين السيد الصادق المهدي عند لقائي به يوم الخامس والعشرين من مايو ١٩٦٩ وما تبع ذلك من لقاءات ، وكيف حنث قادة مايو وهو - اي فاروق - منهم بالعهود وتنكروا لمقررات الحوار الوطني والمشاركة القومية ! ثم ما اعقب ذلك من اعتقال للزعماء والقيادات الحزبية وبينهم السيد اسماعيل الازهري والسيد الصادق المهدي وقرر ان هذا سلوك وخلق لم يعرفه السودان وابناؤه من قبل !!

كان الامير يتحدث بجرأة وشجاعة فائقتين ، وظل فاروق يستمع اليه حتي افرغ مافي جعبته تماما ، ثم اخذ يحاوره في تدرج من اللين الي الشدة والشراسة واختتم الحوار بقوله :

- لقد صدر قرار مجلس قيادة الثورة باعتقالك يا امير رهن التحقيق ! وكل ما اعد به ان يتم هذا التحقيق بالسرعة المطلوبة ، ثم اطلاقك فورا اذا ثبتت براءتك .

فرد عليه الامير قائلا :

- لقد كان السجن موئلا للحكماء والانبياء والرسل ، ومن بعدهم زعماء ورجال السياسة ، ولست خيرا منهم ، ثم ان لي تجربة مع السجن السياسي من قبل فافعلوا ما شئتم .

قال ذلك في نبرة ساخرة وهو يضحك رابط الجأش بادي الشجاعة ، فلم يجد فاروق مناصا من الاعتذار مؤكدا له ان الامر لم يصدر منه كوزير للداخلية ، ولكنه قرار مجلس قيادة الثورة .

عندها حاولت ان اتدخل فاسكتني فاروق بقوله :

ـ نحن قطعا لا ننسي افضال الامير علينا ، ولكن ما باليد حيلة ، فلسنا اصحاب القرار .

نظر الامير الي فاروق ثم اشار الي مكتبه والكرسي من خلفه وقال ساخرا :

ـ كنت اجلس علي هذا الكرسي من قبلك ، واعلم حدود ، وابعاد سلطات وزير الداخلية ، وما كنت انتظر منك غير ما فعلت ، فانا وغيري من السياسيين الذين تدخلوا بالتأثير السلبي في شئون الضبط والربط وقواعد واحكام القانون العسكري لحمايتكم مما حسبناه فصلا تعسفيا من الخدمة نستحق عليه منكم اكثر مما تفعلون بنا اليوم ، وما يدهشني حقا اننا في زعامة حزب الامة ، تدخلنا لنحمي جعفر نميري ورفاقه من الفصل ، وتدخلت انا شخصيا لحمايتك انت ورفاقك من نفس المصير ، وكنا بذلك عونا لمعاول هدمكم الدستوري والسياسي فاضحينا اليوم بصورة غير مباشرة وفي غفلة منا ودون ادراك للعواقب شركاء لكم في جرم هدم نظامنا الديمقراطي ! ولكنه جرم فيما احسب لن يستمر طويلا ، فالحق يعلو ولا يعلى عليه .

فسأله فاروق :

ـ اذن انت نادم يا امير علي مواقفك الايجابية معنا ؟

ورد عليه الامير في حزم واسي :

ـ بصراحة نعم ، نادم كل الندم ! فلو كنت اعلم الغيب لاستكثرت من عمل الخير ، والخير كل الخير كان في فصلكم وتقويض مخططكم التآمري في مهده ، ولكن لا يعلم الغيب الا الله ، وجل من لايخطيء .

ساد الصمت لحظات ، ثم تحدث فاروق في نبرة اعتذار وقال للامير :

ـ اعدك يا امير بمراجعة الاخوة في مجلس قيادة الثورة في امرك ، ولكني الآن لا املك سوي تنفيذ ما صدر من قرار جماعي باعتقالك تحفظيا ، علي الا تطول فترة هذا الاعتقال ، وهذا وعد .

انتفض الامير في غلظة وعنف قائلا :

ـ لا اريد منكم مراجعة موقفي انا ! بل اريدكم ان تراجعوا موقفكم من الاخ السيد الصادق المهدي والزعيم ازهري وكل القادة والزعماء السياسيين ، وارجو الا تتجبروا وتغتروا بالسلطة السياسية ، فلو دامت لغيركم لما آلت اليكم ، ودوام الحال من المحال ، وسيأتي يوم يحاسبكم فيه غيركم لا محالة ، فاعملوا

لمثل هذا اليوم ان كنتم تعقلون !!

نظر فاروق الي الامير مليا ، ثم قال في تحد ظاهر

ـ لن يحاسبنا احد سوي ملك الموت ، فهذه الثورة لن تسلم قيادها لانسان مادمنا احياء !!

فقابل الامير ذلك التحدي بتحد اعظم وقال :

ـ سيكون حسابكم مع ملك الموت اكثر وبالا عليكم رغم انه لا يعلم الغيب الا الله .

ضحك فاروق وقال في تهكم وسخرية :

ـ الا تعتقد يا امير اننا الان نتنزل الي مدارك الاسفاف والمهاترة ؟

فاجابه الامير :

ـ الاسفاف كل الاسفاف ان تصبحوا انتم بين عشية وضحاها اولي الامر في هذا البلد الامين ! وما كان هذا ليحدث لو لم تنم نواطيره عن ثعالبه !!

قهقه فاروق عاليا وقال مازحا :

ـ تعني نموره يا امير ، فقائدنا نمر وليس بثعلب ، ونحن علي شاكلته .

ثم القي نظرة علي ساعته كمن يعلن انتهاء اللقاء واشار الي الامير قائلا :

ـ تفضل يا امير .

وخرج في صحبته الي باب المكتب مودعا وخاطب احد ضباط الامن العام بقوله :

ـ نفذوا الامر واحسنوا معاملة الامير .

ثم عاد فاروق وتوجه من فوره ليدير قرص التليفون السري ، وبدأ يحادث الرئيس نميري ويسرد عليه بايجاز مادار بينه وبين الامير نقد الله واختتم الحديث بقوله :

ـ الرجال يا ريس معادن ، والامير في رأيي ذهب نفيس ، فلو تمكنا من كسبه الي جانب الثورة لكسبنا ضربة لازب كل اتباع حزب الامة وطائفة الانصار

وانصت برهة لمحدثه ثم ضحك بملء شدقيه وقال :

ـ ونحن لها ياريس !!

ثم وضع السماعة واستدار نحوي قائلا :

ـ الرئيس اقترح ان نلعب علي التوازن ونستثمر الانشقاق القائم بين طائفة

الانصار وحزب الامة وآل الامام الهادي ، وهو يري معي ان محاولتهم لرأب الصدع فيما بينهم قبل الثورة محاولة فطيرة ما كان سيكتب لها النجاح ، فالاصل فيهم هو الشقاق والخلاف ! وعلينا الآن ان نزيد من تمزيق كيانهم بحيث يصعب الخرق علي الراتق فيسهل قضاؤنا عليهم وعلي القوي الرجعية المساندة لهم امثال اتباع جبهة الميثاق والمغامر الهندي .

قلت له :

ـ ولماذا لا تحاولون استمالتهم جميعا وصب قدراتهم في بوتقة الثورة ؟

قال علي الفور :

ـ هذه قوي رجعية ونحن تقدميون ، والثورة في الاساس هي صراع الفكر المتقدم ضد الاطر البالية والرجعية والتخلف ، وانتصار الثورة يكون بالقضاء عليها وليس بمهادنتها واستمالتها ، فالغلبة والبقاء دائما للاصلح .

قلت في سخرية مغلفة :

ـ الاصلح لمن ؟!

اجاب بحماس :

ـ للسودان ، اتشك في ذلك ؟

قلت له :

ـ في رأيي ان شعب السودان بكل قواه السياسية والدينية والعرقية لا يرضي بالحكم القومي بديلا ، ومحاولة احتوائه في جبهة عقائدية واحدة لن تنجح ، وان نجحت مرحليا فلن يكتب لها الاستمرار طويلا ، فالانسان السوداني فوق كل شيء مرتبط بتاريخه وجذوره العرقية والدينية ، ولهذا فان محاولة تحديثه ووضعه بين قوي التقدم يجب ان تتم في شمول قومية كل هذه الاطر ، ولا سبيل غير ذلك .

قال فاروق وقد تملكه الانفعال :

ـ محجوب ، لا تجعلني اتشكك في ثوريتك ، وارجو الا تدع خلافك الشخصي معنا يطغي علي ولائك الثوري ، فانت ـ مهما يكن من خلاف ـ ابن هذه الثورة واحد مفجريها وصناعها .

قلت له مؤكدا :

ـ انا ليس لي خلاف شخصي معكم ، فخلافي لا يخرج في مضمونه عن [illegible]

الامير نقد الله ، انا اؤمن بالتوجه القومي واعارض الانفراد والهيمنة العقائدية علي الثورة ومصادرة فكرها وتحديد مسارها ، وأري ان هذا هو الوضع الاسلم لنا وللثورة ، وزي ما قالوا في المثل (دخل راسك وسط الالف وخليوه يقطعوه) ولكنكم تسعون لكي تقطع رؤوسكم وحدها !

تراجع فاروق وهو يدفع بيده قائلا :

ـ اعوذ بالله ، ايه التشاؤم ده يا محجوب ؟ ياخي كفاية علينا الهم والغم النحن فيه ماتزيدنا نكد ، نحن دلوقتي في حاجة لي بسمة ، ضحكة ، نكتة مرحة .

* قلت له :

ـ قالوا "اسمع كلام البيكيك" وانت عاوز تضحك !

عندئذ نهض متأففا وقال :

ـ محجوب ، كفاية ، اللهم لا تحملنا ما لاطاقة لنا به .

فحذوت حذوه وانا اقف مودعا ، وقبل خروجي من مكتبه خاطبني في نبرة ودية كمن يعتذر عن تصرفه واردف :

ـ محجوب ، الليلة في اجتماع للتنظيم في بيتي الساعة حداشر ، ما تتخلف بالله .

فاومأت له بالايجاب وخرجت .

في الموعد المضروب اجتمع شمل الرفاق وبدأ الاجتماع كالعادة وديا سلسا الي حين ، ثم تغير الحال فجأة وتعكر صفوه بما طرحه احد اعضاء مجلس قيادة الثورة حيث قال :

ـ يا اخوانا الورق البتكتبوا فيه ملحوظاتكم ده ورق حكومة ، يعني مال عام ، وانتو جمعية سرية ماليها علاقة بالجمعية والدولة ، فارجوكم ما تبتزوا المال العام دون وجه حق ، بالصريح الواضح ده فساد اقتصادي !

فضحك البعض علي شطط عضو المجلس وحرصه المبالغ فيه وظنوه يهزأ كعادته او يسخر ، ولكنه اردف القول بالعمل ، فقام من مقعده واخذ يجمع الورق من امام الحاضرين ، فانتهره الرائد محجوب طلقة بقوله :

ـ ايه التصرف الصبياني ده ..

ورد عليه في [illegible]

- صبياني انت ، ثم انا عايز اعرف ، انتو دلوقتي مجتمعين ليه ؟ عاوزين تحموا الثورة ؟ احموها من وحداتكم ، رغم انو الثورة بتحميها الجيش والشعب وما محتاجة لفئة خاصة ! اما اذا كنتو بتفتكروا انكم ممكن تقلوا علينا سياسة الدولة ، تبقوا غلطانين ، دي ثورة شعب وسياستها بيرسمها وينفذها مجلس قيادتها ، وانتو مجرد ضباط في الجيش لا اكثر !!

فوجم جميع الحاضرين من غلظة وعنف عضو المجلس وأشرأبت اعناقهم نحو الرئيس نميري الذي آثر الصمت لبرهة من الوقت وهو يتفرس في الوجوه واحدا بعد آخر ، ثم شرع يتحدث في نبرة حاول ان يصبغها بالحزن والاحباط وقال :

- يا اخوانا ما تنسوا انكم قبل كده فوضتم مجلس قيادة الثورة في اتخاذ ما يراه مناسبا من قرارات لتسيير دفة الحكم والثورة ، وافتكر ده تفويض لا رجعة فيه ، وكمان نحن دلوقتي اتجاوزنا مرحلة بداية الانطلاق الثوري الي مرحلة دولة الانظمة والمؤسسات الدستورية ، وهذه المرحلة لا تسمح بحاكمية ووصاية التنظيمات السرية ومن بينها تنظيم الضباط الاحرار . وزيادة علي كده كمان نحن ماعاوزين نشكك افراد القوات النظامية عموما من ضباط وصف وجنود في ولائهم للثورة ونقول ليهم الضباط الاحرار بس هم الموالين للثورة ، افتكر الثورة دلوقتي بقت ثورة جيش وشعب السودان بأسره .

ازداد الحاضرون وجوما وران عليهم الصمت ، فاخذ بعضهم ينظر الي بعض وطأطأ آخرون رؤوسهم عجزا عن المواجهة ، ثم تحدث المقدم بابكر النور معقبا وقال متسائلا :

- نفهم من كده يا ريس انك بتعلن حل تنظيم الضباط الاحرار ؟

فاجابه الرئيس نميري :

- انا مابقول بحل التنظيم ، ولكن اري وقف نشاطه في الوقت الراهن ، فالتنظيم ادي دوره بتفجير الثورة ومساندتها ، ونحن في مجلس قيادة الثورة عاوزين فسحة من الزمن عشان نشتغل ، عشان كده مافي داعي للاجتماعات المتلاحقة ، ممكن نجتمع مرة كل شهرين او ثلاثة ، اذا كان هناك ما يستدعي اجتماعنا !! والا فانا بفضل ان نحمي الثورة بعطاءنا وانصرافنا للعمل المنتج .

هنا تدخل الرائد هاشم العطا وقال :

- قالوا يا ريس البيلد المحن بلولي جناهز ! والثورة هي وليدة هذا التنظيم ،

وعلي عاتقه قبل الآخرين تقع مسئولية حمايتها .

فرد عليه نميري في سخرية بقوله :

ـ اولا : دي ثورة ما محنة زي مابتقول ، ثانيا :امن الثورة وحمايتها بيكمن في الحفاظ علي اسرار مسارها وتوجهاتها ، وده الشيء النحنا دلوقتي بنفتقده بصراحة اسرار الثورة وحتي ما يحدث داخل مجلس قيادتها اصبحت مكشوفة لكل من هب ودب ودي الشيء البحيرنا ، علي العموم نحن قريب جدا حنعرف منوا البسربوا اسرار الثورة ، وفي رأيي دي جريمة ثورية خطيرة حيتحمل وزرها مرتكبوها حتي لو كانوا اعضاء داخل مجلس قيادة الثورة .

فتساءل فاروق :

ـ لماذا لا تضع النقط فوق الحروف يا ريس وتحدد الاتهامات والاشخاص ؟

رد عليه نميري قائلا :

ـ ليس بعد ، ولكن قريبا باذن الله .

علق علي ذلك العميد احمد عبد الحليم ساخرا :

ومهما تكن عند امريء من خليقة *** وان خالها تخفي علي الناس تعلم !!!

فتصدي للرد عليه هاشم العطا بانفعال باد وقال :

ـ نحن علي علم بما تقوم به من تحركات لتفتيت وحدة الثوار !

ـ انا ؟!

قالها احمد في سخرية واستهجان ، فاجابه هاشم :

ـ نعم أنت ! فمثلا انت تقوم بعقد اجتماعات في منزلك تضم فئة معينة من الضباط وهم القوميون العرب وبعض اعضاء مجلس قيادة الثورة اطلقت عليهم اسم احرار مايو ، وتريد ان تحلهم محل تنظيم الضباط الاحرار بعد حله !!

عند ذاك تدخل نميري فقال :

ـ هذا اتهام خطير يا هاشم ، فمن اين لك هذه المعلومات ؟

فرد عليه هاشم :

ـ اعتقد ياريس ان بعض حضور هذا الاجتماع الآن من هذه الفئة التي تجتمع في منزل العميد احمد عبد الحليم باسم احرار مايو .

فجأة تأزم الموقف وساد المكان هرج ومرج حتي ارتفع صوت نميري قائلا :

ـ كلنا احرار مايو ، فتنظيم الضباط الاحرار كان هدفه الاساسي هو تفجير

هذه الثورة ، وماتعتقده من اجتماعات مشبوهة بمنزل الاخ احمد هو اعتقاد خاطيء فمثلا منذ يومين دعاني احمد للعشاء في منزله وحضر هذا العشاء لفيف من الضباط ، وبعضهم كما قلت من حضور هذا الاجتماع ، ولكننا لم نتطرق لخلق تنظيم جديد يحل محل تنظيم الضباط الاحرار ، واذا لم يعمم الاخ احمد الدعوة لتشمل جميع اعضاء التنظيم فهذه مسألة تحكمها الظروف والصلات الشخصية وليس شيئا آخر ، وارجو ان يكون في هذا توضيح للامور وازالة للشك.

عاد المقدم بابكر النور ليعقب علي الجميع فقال :

- يؤسفني ان اصف اجتماعنا هذا بالاجتماع الحزين وهو بلا شك بداية تفتت وانهيار تنظيمي ، وارجو ان تسمحوا لي بالانصراف .

ثم نهض من مجلسه دون ان ينتظر رأي الرئيس نميري او رده ! وحذا حذوه كل الاعضاء الشيوعيين ، وتبعهم بقية الاعضاء ، وفي لحظات معدودة انفرط عقد التنظيم وتناثرت حباته بددا ، وكان ذلك بحق بداية النهاية لنشاط تنظيم الضباط الاحرار تجاه ثورة مايو وسلطتها الحاكمة والمحكومة وقتها بسطوة قائدها نميري ورفاقه القوميين العرب او احرار مايو !!

في صبيحة اليوم التالي توجهت الي سلاح المدرعات بالشجرة لتدريس احدي حصص الاستخدام التكتيكي للمدرعات المنوطة بي حسب برنامج التدريب ، كان موعد الحصة في العاشرة صباحا ، ورغم ذلك حرصت علي ان يكون تواجدي بالسلاح عند السادسة والنصف موعد الطابور الصباحي المعتاد ، ومن عجب فقد تلقاني العميد احمد عبد الحليم الذي حضر الطابور بوجه طلق وبشاشة بادية ناسيا او متناسيا ما كان بيننا بالامس من مواجهة ، وطلب مني بعد الطابور ان اصحبه الي مكتبه . وهناك عرض علي مشروعا خاصا بتطوير السلاح ومرافق خدماته ، قال انه سيعمل علي تنفيذه ، من ذلك انشاء مزرعة للخضر والفاكهة ودار للسينما ومسجد للصلاة ومساكن للضباط والصف والجنود ، اضافة الي مغسكرات ومبان جديدة لبعض وحدات السلاح .

قدم لي العميد احمد مشروعه مفصلا وطلب مني ان ابدي له ملاحظاتي عليه ، فسألته ابتداءا من اين له المال الذي ينفذ به هذه الصروح الكبيرة ؟ فاجاب بانه سيعمل علي تنفيذها تدريجيا وعلي مراحل ، وسيطلب مساعدة

قادة الثورة وبعض الجهات الرسمية الاخري ، فضلا عن السعي للحصول علي قروض استثمارية من البنوك . فدعوت له بالتوفيق والنجاح وشكرت له حدبه علي تطوير السلاح ورعاية افراده ، ويبدو ان كلماتي قد صادفت هوي في نفسه وارضت غروره ، فاتجه بعدها نحوي واخذ يحدثني عن موقفه الشخصي مني وقال :

- انا يامحجوب بعزك وبقدرك باكثر مما تتصور انت ، وبعتقد بامانة انك اكثر اهلية لمسئولية القيادة حتي من بعض اعضاء مجلس قيادة الثورة والوزراء ، هذا اضافة الي دورك الكبير في تفجير الثورة ، وكل ذلك يجعلني في حيرة من موقف الرئيس واعضاء مجلس قيادة الثورة تجاهك ، لماذا يصرون علي عزلك وابعادك عن العمل العام والمسئولية القيادية ؟ هل حدث هذا بسبب اتصالك بزميل غندور الذي جعلهم يتشككون في صدق ولائك للثورة ؟ ربما يكون هذا احد الاسباب ، ولابد ان تكون هناك اسباب اخري تضاف الي هذا السبب لتجعلهم بهذا التطرف والتعنت حيالك ، فقل لي بربك ماذا وراء الاكمة وخلف الضباب ؟

اطرقت لحظة وقلت له :

- انا شخصيا لا علم لي باسباب اخري سوي ايماني بقومية الثورة .

قال الرجل علي التو :

- هذا الرأي هو اليوم محك الصراع بين قيادة الثورة وقيادة الحزب الشيوعي واتباعه في مجلس قيادة الثورة والضباط ، فالرئيس نميري ومن معه يؤمنون بضرورة اشراك رجالات كل القوي الوطنية في تولي مهام ومسئوليات الثورة ، ولكن كافراد لا كتنظيمات واحزاب ، وقيادة الحزب الشيوعي تريد فرض الوصاية العقائدية علي الثورة ، وربما كان ذلك ما دعا الرئيس نميري لايقاف نشاط تنظيم الضباط الاحرار واحلال تنظيم احرار مايو محله .

قلت له - اذن فما ذكره الرائد هاشم العطا ليلة البارحة كان صحيحا !

قال : نعم ، وصحيح ايضا ان كلًا من بابكر النور وهاشم العطا وفاروق عثمان ينقلون اسرار مجلس قيادة الثورة لقيادة الحزب الشيوعي بانتظام ، ويسعون معهم لفرض الوصاية العقائدية علي الثورة ، وهذا ما يجعلهم عرضة للمساءلة وربما العزل من عضوية المجلس ، فنحن نتتبع تحركاتهم واخبارهم بكل

الدقة والتفصيل ، فقد انضم الي تنظيمنا بعض الضباط الشيوعيين ممن تطهرت قلوبهم ، وكفروا بتبعية الدهقان الاكبر عبد الخالق محجوب . وانا اريدك ان تحذوا حذوهم فتنضم الي صفوفنا بولاء تام وتجرد ثوري ، واذا فعلت ذلك فثق يا محجوب باني قادر علي اقناع الرئيس نميري وبقية اعضاء المجلس باتاحة كل فرص القيادة لك .

قلت له :

ـ انا اوافق .

فاردف بحماس :

ـ مبروك ، ولن اطلب منك الآن اداء القسم ، فهذه مسألة ستأتي بعد موافقة الرئيس علي قبول عضويتك لتنظيمنا .

قلت له :

ـ لابأس ، ولكن حدثني عن اعضاء التنظيم ، من هم احرار مايو ؟

قال وعلي شفتيه ابتسامة عريضة :

ـ هذه مرحلة لاحقة ، ستعرفهم جميعا بعد اقرار عضويتك وحضورك لاجتماعات التنظيم .

قلت له وانا اتعمد التسليم بكل شيء :

ـ لا بأس ايضا !

قال منتشيا بخمر ظفر موهوم :

ـ الآن اقدم لك هدية فاتحة للشهيه ، وهي انني سأطلب من الرئيس نميري ـ بعد اخطاره بحوارنا هذا ـ ان يسند اليك مهمة قيادة تنظيم الشباب بوزارة الشباب والرياضة ، هذا الي جانب مشاركتك لنا في التدريب بمدرسة المدرعات .

فاظهرت سروري بالعرض وقلت :

ـ لا مانع عندى .

قال ضاحكا :

ـ طيب دلوقتي نروح نفطر مع الضباط في الميس ، وبعدها تروح انت تشوف حصتك ، وسيب الباقي علي !

فوافقته بايماءة من رأسي وانا ابتسم ، ثم قمت معه وتوجهنا الي الميس . وبعد تناولنا لوجبة الافطار تهيأت للذهاب الي مدرسة المدرعات فودعني بقوله:

انه علي موعد مع الرئيس نميري بالقيادة العامة ، وانه سيخطره بما حدث بيننا من تفاهم وسيعود لا محالة حاملا بشري موافقة الرئيس ، ولهذا فهو يري ان ابقي بالسلاح حتي نهاية ساعات العمل الرسمية ليلتقي بي عند عودته ، فاجبته بحاضر ، وافترقنا .

عند الساعة الواحدة ظهرا ارسل العميد يستدعيني من المدرسة للقائه بمكتبه واستقبلني بحماس وهو يقول :

ـ مبروك يا محجوب الرئيس وافق علي توليك مسئوليات ومهام قيادة الشباب ، وانا اطلب منك انك بكرة ان شاء الله تتصل بالدكتور منصور خالد . اما مسألة انضمامك الي تنظيمنا فقد تحفظ عليها الرئيس في الوقت الحاضر.

وبصورة مفاجئة جبهني العميد احمد بالسؤال :

ـ هو صحيح يا محجوب انت شيوعي صيني ؟

فاوحي الي سؤاله المفاجيء بان له علاقة ما بتحفظ الرئيس حول قبول عضويتي بتنظيم احرار مايو ، فقلت له مستنكرا :

ـ من قال عني هذا ؟

قال بعفوية وخبث :

ـ ما تنساش ان تنظيبمنا بيضم بعض مَن تطهرت عقولهم من ترهات ماركس وتحررت عزائمهم من الانقياد لعبد الخالق ، ودول هم اللي قالوا عنك انك شيوعي صيني ، والله انا خايف عليك تتكسر يامحجوب !

قال عبارته الاخيرة في شكل نكتة ضحك لها وحده فنظرت ، اليه وقلت في نبرة جادة :

صدقني اخ احمد ، ليس لي علاقة من قريب او بعيد بالحزب الشيوعي الصيني .

عندها فتح حقيبته واخرج منها احد الاعداد القديمة من مجلة الاذاعة والتلفزيون وبها مقالة لي عن انتصار ثورة الصين وموقف العالم الرأسمالي منها ، وكان عنوان تلك المقالة (فورموزا البركان الملتهب) ، ثم دفع الي بالمجلة وهو يسألني :

ـ أمال ايه الانت كاتبه ده ؟

اجبته في ثبات :

- هذه المقالة كان طلبها مني الاخ حسان سعد الدين عندما كان يتولي رئاسة تحرير مجلة الاذاعة والتلفزيون ابان فترة حكم الرئيس عبود ، وقد كتبتها في مناسبة زيارة بعض المسئوليين الصينيين للسودان للتفاوض حول تقديم مساعدات مجزية لحكومة السودان ، ويمكنك الرجوع في ذلك للاخ حسان سعد الدين .

فضحك العميد أحمد وقال :

- هي بصراحة مقالة جيدة ، وبحث تاريخي وتحليل سياسي ممتاز ، بس انت بصراحة يعني حملت كتير علي الجنرال شان كاي شيك ومن خلفه دول الغرب وامريكا ، واندلقت اوي علي ماوتسي تونق ومن خلفه المعسكر الشيوعي يعني بالاختصار كشفت عن عقيدة شيوعية مستترة ، فخذ مثلا - واخذ المجلة من يدي وبدأ يقرأ علي بعض العبارات من المقالة وهو يتساءل :

- هو ده برضو كلام يا محجوب ؟ ده انت ولا الزعيم ماوتسي تونج نفسه ، قل لي يا محجوب ، هو انتو هنا في الحزب الشيوعي الصيني بتشتغلوا كتنظيم مستقل لوحديكم واللا تحت قيادة عبد الخالق ؟

فحاولت المستحيل لاقناعه بانني لست شيوعيا ولا علاقة لي بالفكر الماركسي الصيني ولكن دون جدوي ، فقد وقع في روعه وترسخ في مخيلته اني شيوعي صيني مستتر مهما كانت الحجج والبراهين ، وادركت من ذلك انه لا سبيل ولا امل في انضمامي لاحرار مايو . فاختتم العميد حواره معي بنصحي بعدم اللجوء الي التطرف الثوري . وقبل ان اغادر مكتبه حضر لمقابلته الرائد عبد المنعم محمد احمد (الهاموش) والرائد عثمان الحاج حسين (ابو شيبة) فنهض لاستقبالهما قائلا:

ازي الحال يا عتاولة ؟

فأدركني العجب لهذا التبسط في الخطاب من جانبه ، وسألت نفسي : هل هؤلاء هم الشيوعيون الذين تطهرت قلوبهم وتحرروا من الانقياد الاعمي لعبد الخالق ؟!

وفوجيء الرائدان بوجودي واصابهما شيء من الحرج حاولا اخفاء معالمه بممازحتي والتحدث الي كيفما اتفق ! وانفلت انا خارجا وقد استيقنت ان رفاق لينين لم يعدموا سبيلا للوجود بين احرار مايو لمعرفة اسرارهم وعمق مياههم

وقوة تيارها عبر الغواصين ابو شيبة والهاموش .

وادركت ايضا ان هؤلاء هم الذين اوحوا لنميري باني شيوعي صيني يخشي جانبي حتي لا يضمني معهم تنظيم احرار مايو فاكون معول هدم لمخططهم في احتواء التنظيم الجديد ! ولكن رغم ذلك لم احاول مواجهتهم بعمل مضاد ولسان حالي يتمني ان يجعل الله كيدهم في نحرهم ويمكنني من القضاء عليهم اجمعين .

واذ كانت العربة تنطلق بي علي طريق منزلي بدأت افكر في مخطط وخطة عسكرية للاستيلاء علي السلطة باسرع مايمكن ، والحق ان التفكير في ذلك الامر لم يبرح عقلي من وقت طويل ، ولكنه هذه المرة اخذ شكلا اكثر الحاحا وقوة ، فما كان قبولي للتدريس بمدرسة المدرعات او تولي مهام الشباب الا من قبيل المداهنة والخداع وتخدير مشاعر العداة .

رأيت قبل ان اتصل بالدكتور منصور خالد في وزارة الشباب والرياضة ان اعد نفسي للقائه ، وكنت قد التقيته من قبل في لقاءات عابرة ، ولكني سمعت الكثير عن كفاءته وقدراته العلمية وطاقاته المبدعة الشيء الذي جعلني افكر فيه بصورة مزدوجة من حيث تعاوني المرتقب معه بالوزارة ومن حيث الاستعانة به عند تشكيل حكومتي الانقلابية المرتجاة ، لدرجة اني فكرت في اختياره رئيسا لوزراء فترتي الانتقالية لشدة انبهاري بما سمعته يومئذ عنه ، وربما كان ذلك ما دفعني للحرص علي رسم انطباع قوي لديه في اول لقاء بيننا .

قضيت يومي ذاك اعد تصورا مبتكرا لادارة الشباب بالوزارة واستعنت بالعقيد طبيب وقتها عبد الله قلندر في وضع ملامح ذاك التصور ، فقد تذكرت ما سمعته منه يوما عن كيفية ادارة الشباب بالوزارة حين كان يطمح في تولي اعبائها والنهوض بها في ظل الثورة . وعندما زرته في المساء لهذا الغرض استقبلني ببشاشته المعروفة ، وكم دهشت حين وجدت عنده مشروعا متكاملا لادارة الشباب ، عرضه علي مع الشرح والتفصيل ، ثم سلمني صورة منه ، كما اطلعني في معرض الحديث عن الاوضاع الراهنة علي ثلاثة قصائد شعرية نظمها في الاشادة بثورة مايو وقائدها المظفر جعفر المنصور ، وقال انه سيدفع بها لكبار الفنانين للتغني بها ، فحاولت ان اثنيه عن ذلك ، ولكنه القي علي محاضرة حماسية في وجوب الولاء للثورة وقائدها الملهم ! مؤكدا ان الشعر والغناء هما

اجلي مظاهر هذا الولاء ، فتظاهرت بالموافقة والتسليم بهذا التوجه الثوري المخلص .

وفي العاشرة من صباح اليوم التالي كنت في معية الدكتور منصور خالد بوزارة الشباب والرياضة احمل له خطة العمل والتصور المبتكر لادارة الشباب ، وقد فوجئت كثيرا بالدكتور وهو يستقبلني بفتور وبرود غير خافيين ! ثم تشاغل بالحديث بالتليفون واداء بعض الاعمال محاولا ان يشعرني باهميتها واستعجالها فتذرعت بالصبر حتي فرغ من كل ذلك ، ثم ابتدرني بالقول :

- الرئيس حدثني عنك واقترح تعاونك معنا في ادارة الشباب ولكني في حيرة من امري ، كيف سيكون وضعك بيننا وانت ما تزال ضابطا بالجيش ؟ اتراك ستكون معنا حاكما عسكريا ؟!

قالها في تهكم ظاهر ، فسألته بدوري :

- الم تتفق مع الرئيس علي صفة وهوية وجودي معكم ؟

رد بالانجليزية :

- Definatly no (بالقطع لا) .

ثم اردف :

- اضف الي ذلك اننا نضم معنا الاخ محمد احمد حسن جحا في وظيفة رسمية ، وهو كما تعلم ثوري وعسكري سابق ومسئول حاليا عن ادارة الشباب ، فكيف ننسق بينكما ؟ (ديلما) ارجو ان نجد منها مخرجا .

فلم اعقب علي حديثه ، واخذت انظر اليه بامعان وتركيز في محاولة لاستكشاف بواطنه ، ثم فتحت حقيبة يدي بعناية واخرجت منها التصور المعد ودفعت له به في صمت ، ثم قلت له :

- هذا التصور لادارة الشباب اعددته انا بالتعاون مع الدكتور قلندر ، ارجو ان تجد فسحة من الوقت للاطلاع عليه .

فتساءل في لهفة :

- الدكتور قلندر ؟ اين هذا الرجل ؟ فانا في حاجة ماسة له معي في هذه الوزارة .

اجبته في سخرية متعمدة :

هاهو الدكتور قلندر بقدراته علي هذا الورق .

فنظر في الورق لماما لبرهة وقال :

ـ ارجو ان تمنحني بقية هذا اليوم للاطلاع علي هذا التصور ، واريدك الآن ان تقابل الاخ محمد احمد حسن جحا وتحاول التنسيق معه والتفاهم علي الكيفية التي سيكون عليها وضعك بادارة الشباب ، ثم تخبرني برأيك غدا في مثل هذا الموعد .

فغادرته شاكرا واتجهت لمقابلة الاخ جحا ، وقد علمت منه انه بلا اعباء وان ادارة الشباب بل والوزارة برمتها لم يكتمل اعداد هيكلها وتصور مناشطها حتي ذلك الحين ، ولكي يحدث كل هذا فلابد من وزير آمن ومستقر ، اما الدكتور منصور فلا عمل له سوي رحلات ماكوكية متصلة الي خارج البلاد ، وسماه في سخرية لاذعة بالرجل الطائر !! واقترح علي ان اطلب من الرئيس نميري تعييني وزيرا للشباب والرياضة مع وعد منه بالتعاون المطلق معي .

اتجهت من فوري الي القصر الجمهوري ، حيث قابلت نميري وبقية الاخوة في مجلس قيادة الثورة ، وبعد ان سمعوا جميعا روايتي لما حدث ابتدرني الرئيس نميري بقوله :

ـ سيبك من الوزير المتفلسف ده ، نحن حنسند ليك مهمة اخري في اطار عمل ومسئوليات اخوك مأمون ، وهي مؤسسة السينما ، اذ اننا صادرنا مؤسسة ليكوس وشركة السينما الوطنية ضمن ماتم مصادرته وتأميمه من المؤسسات ، فضع تصورك لادارة مؤسسة السينما المرتقبة كقطاع عام ، وسوف تتولي امرها الي جانب مهامك العسكرية الاخري .

لم يخف علي من حديث نميري انه انما كان يحاول ان يصرفني الي اي نشاط ليبعدني عن القوات المسلحة او علي الاقل ليحد من علاقتي بافرادها ، وعاودني ذلك السؤال المؤرق : لماذا لا يصدر قرارا باحالتي للتقاعد ليتخلص من مخاوفه وهواجسه تماما ؟! وكدت اقترح عليه ذلك ساعتها ولكني احجمت بدافع مطامحي الوطنية التي يمكن تحقيقها من داخل المؤسسة العسكرية حيثما كان موقعي فيها ، فتظاهرت بالموافقة والحماس ، ووعدت بتسليم الرائد مأمون التصور المطلوب ومعه هيكل كامل مقترح للمؤسسة في غضون ثلاثة ايام .

انصرفت من ذلك اللقاء الي وزارة العدل ، حيث استعنت ببعض رجال القانون في وضع هيكل وقانون مؤسسة الدولة للسينما ، واستكملت ذلك بقراءاتي

وخبرتي في هذا الشأن ، وكان طبيعيا ان اصرف النظر تماما عن لقاء الدكتور منصور خالد ، اذ ترك لقائي به انطباعا سيئا في نفسي ولم اعد افكر فيه وزيرا ولا رئيسا لوزارة مخططي الانقلابي المرتقبة .

وعدت احمل التصور والقانون المقترحين لمؤسسة الدولة للسينما ، ووضعتهما بين يدي الاخ الرائد مأمون عوض ابو زيد وزير شئون الرئاسة الذي انيطت به مهام المؤسسة . وكانت مسئولياتها من قبل جزء من اعباء وزير الثقافة والاعلام عقب اعلان المصادرة والتأميم ، وتولي ادارتها وقتئذ الاخ العقيد بالمعاش يوسف صلاح الدين ادريس بعد احالته للتقاعد نتيجة لتحديه السافر ومجاهرته بعداء العميد عمر الحاج موسي في ايام الثورة الاولي ، وقد حدث ذلك عندما تولي هذا الاخير امر وزارة الدفاع فافلح في ازاحة خصمه عن طريق مطامحه العسكرية !! وعند توليه وزارة الثقافة والاعلام من بعد صدم بوجود خصمه مديرا لمؤسسة تتبع لوزارته الجديدة ، فعمل مرة اخري للتخلص منه وابعاده عن منصبه كمدير لمؤسسة السينما ! وازاء تراكم هذه المواجهات والتحديات بين الرجلين وما يمكن ان ينشأ عن حرج بتغيير موقع العقيد .م. يوسف صلاح الدين استجابة لرغبة العميد عمر الحاج موسي ، امر الرئيس نميري بتبعية المؤسسة لوزير شئون الرئاسة الرائد مأمون عوض ابو زيد الذي تسلم مني التصور المقترح وقانون المؤسسة في ود وترحيب . ولكنه قبل ان يطلع عليهما افضي الي بمعلومة مفادها انه كان علي وشك تعيين الكاتب الاديب علي الملك رئيسا لمجلس الادارة ومديرا للمؤسسة ، غير انه يري - بعد قرار تعيني من الرئيس نميري - ان اعمل انا رئيسا غير متفرغ لمجلس الادارة ، ويتولي الاخ علي الملك منصب المدير العام !

فاعلنت له صادقا عزوفي عن تولي اي شأن او موقع في مؤسسة الدولة للسينما ، وانني فقط كنت انساق مكرها مع توجهات الرئيس نميري فيما يتصل بشأني حتي ذلك الحين ، وطلبت منه ان يجد وسيلة لائقة لاعفائي من هذا التكليف .

ولم اصدق عيني وانا اري مظاهر فرح طفولي تبدو بجلاء علي وجه الرائد مأمون وهو يستمع لذلك الرأي الواضح الصريح ! واخذ يطرني بعبارات الثناء والمدح تباعا ، ويصفني بالصدق والشجاعة الادبية والتجرد الثوري البعيد !!

وكنت استمع اليه وانا منصرف بعقلي وكل ذرة في كياني للتفكير في تنفيذ مخططي الانقلابي . فلما افرغ مافي جعبته من ثرثرة وتقريظ ، ودعته بنظرة فاحصة وعبارة ماكرة مقتضبة ولسان حالي يقول :

ـ سينما ؟ سينما انا يا !!!

ومهما يكن من امر ، فاني لا املك الا ان اقرر واعترف بان الاخ علي الملك قد احرز نجاحا كبيرا في ادارة وتطوير مؤسسة الدولة للسينما ، وجلب لها الافلام القيمة النادرة مثل فيلم (زد) وغيره من روائع الانتاج العالمي ، كما يرجع له الفضل في دعوة. كبار رجالات السينما الي السودان ، ولكن العميد عمر الحاج موسي فيما يبدو قد سعي وافلح من جديد في ضم المؤسسة لوزارته واختار لها ادارة جديدة ، اما الاخ الاديب علي الملك فقد آثر العودة الي مدرجات جامعة الخرطوم لينشر غزير علمه وادبه في عقول تلاميذه غرسا باقيا وارثا لايبيد.



بدأت تحركي الانقلابي اولا بالاتصال بصفوة من الضباط ممن اعتقدت انهم ناقمون علي قيادة الثورة لاسباب وطنية وشخصية ، وجعلت مدخلي عليهم الحرص علي تنفيذ مخطط تنظيم الضباط الاحرار في الحكم وهياكله التنفيذية وتوجهاته في الداخل والخارج ، وكيف ان قادة الثورة قد تقاعسوا عن الالتزام به وانحرفوا عن طريقه المرسوم بتأثير الاقليات العقائدية .

ومن عجب فان كل الذين تخيرتهم بعناية للمشاركة في الانقلاب وتنفيذه ، وافقوني تماما علي ضرورة العمل للاستيلاء علي السلطة وفرض ثورة تصحيحية ، ولكن احدهم رأي ان يجئ دوره بعد نجاح الحركة الانقلابية اي انه أراد غير ذات الشوكة تكون له ! ومع ذلك لم ارفض منه هذا الخيار وقبلته لادراكي بانه يمثل واجهة براقة يمكن ان يرتضيها عامة الضباط والصف والجنود في القوات المسلحة .

وقد تدهش - عزيزي القاريء - اذا علمت ان احد هؤلاء الضباط الذين تحمسوا لحركة التصحيح وابدوا موافقتهم علي المشاركة قد اضحي في قابل الايام نائبا اول لرئيس الجمهورية ! وآخر اصبح رئيسا لجهاز الامن القومي ! وثالث غدا قائدا عاما ووزيرا للدفاع ، ورابع تقلب في عديد من المناصب الوزارية والسياسية ، وخامس اضحي سفيرا بوزارة الخارجية وسادس تقلد منصبا قياديا في الاتحاد الاشتراكي السوداني وسابع ضل وجهته السياسية من اجل مايو فلقي مصرعه ! وكان فيهم بعض الاخوة من ابناء الجنوب .

كذلك شملت اتصالاتي للتحرك الانقلابي علي مايو وقادتها ومراكز قوتها العقائدية بعض القيادات المدنية ذات الوزن السياسي ، وهؤلاء لم يندفعوا معي فحسب ، بل عملوا علي دفعي بكل سبيل لتنفيذ المخطط ، زاعمين - في معرض الاغراء والتحريض - انهم وحدهم يملكون ناصية الشعب والشارع السياسي العريض ، وما علي انا سوي اشعال فتيل الثورة المضاد ليتفجر البركان !

وهكذا الفيتني - في مرحلة التمهيد للانقلاب - علي قناعة كاملة بنجاح اتصالاتي السياسية ، ولم يبق الا الاقدام علي العمل العسكري ليكتمل النجاح وفي هذا الشأن رأيت ان اعتمد في المكان الاول على قوات خـــور عمر (مدرعات) مظلات . فشرعت في الاتصال بافرادها سرا ، وبخاصة اولئك الذين اثق في وطنيتهم وتجردهم الثوري ممن توطدت علاقتي بهم من خلال العمل فيما [illegible] ، فلم اجد صعوبة في اقناعهم بالامر ، ورأيت ان اعول - في مرحلة [illegible] الاولي - علي قوة المدرعات فعملت علي تنظيم افرادها في تسعة خلايا [illegible]ألف كل واحدة منها من احد عشر فردا اي جماعة عسكرية حسب التنظيم [illegible]ري العام . وفي هذه المرحلة كانت اتصالاتي بهم تتم في المساجد والحدائق [illegible] ومنازل بعضهم بالشجرة والقوز والحماداب علي شكل جماعات ، اي ان [illegible] الاجتماع قاصرا علي خلية واحدة فقط ورغم انهم جميعا متجردون في اندفاعهم الثوري لا يبتغون سوي وجه الله والوطن والثورة ، الا ان الامر مع ذلك اقتضاني مالا كثيرا بلغ زهاء الألف جنيه ، وكان ذلك يومئذ ثروة لا بأس بها ان لم تكن طائلة او عظيمة .

وجاء وقت ظننت فيه انني قد افلحت تماما في الاعداد السياسي والعسكري من اجل الانقلاب المرتقب ، وبقي علي ان احدد ساعة الصفر ! ولكني تريثت في الامر تحينا للوقت الملائم وطلبا للمزيد من الاحكام ، وبينما كنت اقوم بتدريس احدي حصص التكتيك بمدرسة المدرعات دخل علينا العميد احمد عبد الحليم ليرقب الاداء ، وعند نهاية الدرس قام بالتعليق عليه وفجر في طيات حديثه خبرا مثيرا ، اذ اخبر الدارسين بانه سيقوم في بداية الاسبوع المقبل بزيارة الي مصر ، وانه يعتزم - خلال تواجده هناك - ان يتصل بمدرسة المدرعات في العباسية لجلب بعض معدات التدريب الحديثة . كان الخبر مجرد بشري زفها العميد لتنعش ارواح الدارسين ، ولكنه بالنسبة لي كان شيئا مختلفا تماما ، حيث حمل السانحة التي ترقبتها اياما لتحديد ساعة الصفر المرتجاة للتحرك الانقلابي ، وكنت اوثر ان يتم في غياب العميد احمد عبد الحليم ، الذي عملت لتحركه المضاد في مواجهتي الف حساب .

غادر العميد احمد الي مصر في شهر اكتوبر ١٩٧٠م ، فتولي قيادة سلاح المدرعات من بعده العقيد سعد بحر يوسف ، فلم اضع وقتا ، وقمت في منتصف

نفس الشهر بالاتصال بجميع الخلايا طالبا من اعضائها جميعا أن يكونوا علي اهبة الاستعداد وطلبت منهم ان يقوموا مساء الخميس بسحب الفيوزرات وابر ضربنار ـ سرا ـ من جميع الدبابات والمدرعات بالمعسكر ، عدا تلك التي سنعتمد عليها في تحركنا الميمون ، وفي نفس الوقت قمت ـ بصورة غير مباشرة ـ بالتاثير في تنظيم خدمات الاذاعة والتليفزيون ومعسكر الشجرة ليكون لافراد قوتي فيها وجود ، وحالفني التوفيق في كل ذلك . ومن اجل التمويه والحفاظ علي السرية اللازمة تعمدت اللقاء باغضاء مجلس قيادة الثورة ـ بصورة جهدت ان تبدو عفوية ـ ودعوتهم الي عشاء ساهر بمنزلي ، واتخذت للدعوة مناسبة ، كما اردفت تلك الدعوة بدعوي اخري للافطار صباح يوم الجمعة التالي لمزيد من التمويه والايهام !

وفي مساء يوم السبت حضر جميع اعضاء مجلس قيادة الثورة حفلي الساهر الذي احياه الفنان عثمان حسين ، وتناولوا العشاء مبكرا وانصرفوا متذرعين بانهم خرجوا من اجتماعات متصلة منذ امس الاول وسيعودون لمواصلة ما انقطع منها في الحال ، وحلا لبعضهم ساعة الوداع ان يغبطني علي خلاصي من عضوية مجلسهم المرهق ، فانا ـ علي الاقل ـ اجد فسحة من الوقت للتمتع بمباهج الحياة واحفل واحتفل بالمناسبات الاجتماعية .

وفي حوالي الساعة العاشرة مساءا حضر الرئيس نميري في صحبة دفعته وصديقه العميد وقتها اللواء فيما بعد عوض احمد خليفة ومعروف عنه انه شاعر وفنان غنائي . وحين اخذ الرئيس نميري وصديقه عوض احمد خليفة مجلسهما في دارنا ، كنا في فترة انتظار لفاصل غنائي آخر والنفوس مفعمة بالنشوة والفرح ، فاخبرنا الرئيس نميري انه وصديقه عوض عائدان لتوهما من مشاهدة مباراة لكرة القدم غسل ابداع لاعبيها ما كان يعتريه من ارهاق وضجر بسبب تواصل الاجتماعات التي لا تنتهي لتبدأ من جديد . واخذ نميري يصف مجريات المباراة وينتقد خطة اللعب واداء اللاعبين انتقاد مجرب خبير ، ثم اتجه الي الفنان عثمان حسين وطلب منه ان يواصل في فاصل من اغنيات صديقه عوض احمد خليفة ، فلما اجاب لما طلب ، نظر نميري الي عوض وقال له مازحا :

ـ قالوا الغنا سمح في خشم سيده ، كدي سمعنا حاجة يا عوض .

فغني عوض كما لم يغن من قبل ، وتجاوب معه الحاضرون حتي ثملوا من الطرب .

كان مخططي - حتي ذلك الحين - يقضي باعدام نميري وجميع اعضاء مجلس قيادة الثورة وبطانتهم من الضباط والسياسيين ، ولكن مودة نميري وبساطته وعفويته ، كل ذلك جعلني اعدل عن العنف الثوري واكتفي بالتحفظ والاعتقالات سبيلا لتأمين الحركة الانقلابية ونجاحها ، واقتضي ذلك مني تعديلا في خطتي العسكرية ، وتطلب هذا التعديل الطاريء اضافة كانت المعول الذي هدم صرح مطامحي كلها ، اذ ان احد الافراد الجدد الذين حاولنا استقطابهم وضمهم لصفوفنا سارع بلقاء المقدم (س)؟ قائد سلاح المدرعات بالانابة وابلغة بامر التحرك المزمع تنفيذه !

فقام المقدم (س) علي الفور بابلاغ الامر للرائد مامون عوض ابو زيد رئيس جهاز الامن ، كما ابلغه للرئيس نميري وبقية اعضاء مجلس قيادة الثورة ، ولما كان الخلاف قد بلغ ذروته بين العضوين الشيوعيين في المجلس وهما بابكر النور وهاشم العطا يؤازرهما الاخ فاروق ، والاعضاء القوميين العرب من احرار مايو وهم بقية الاعضاء بما فيهم الرئيس نميري ، فقد اعتقد هؤلاء الاخيرون ان رفاقهم الشيوعيين علي صلة بمخططي الانقلابي وانهم يستغلونني لحسم خلافهم معهم عسكريا ! فحدثت - كما علمت من بعد - مشادة حامية ومواجهة عنيفة بين الطرفين داخل المجلس ، استطاع خلالها فاروق ان يثبت الا علاقة لهم بتحركي علي الاطلاق ، فامر الرئيس نميري بمراقبتي ومراقبة معسكر الشجرة ، ثم اعتقالي ومن وردت اسماؤهم كمشاركين في الانقلاب يوم الاربعاء اي قبل يومين فقط من ساعة الصفر التي حددناها للتنفيذ من قبل ! وذلك خوفا من مغبة التأخير وعواقبه .

كما اجتمع اعضاء تنظيم احرار مايو ووضعوا خطة فورية لمقاومة تحركنا عند بدايته ، ولما كان بين هؤلاء (غواصات) الحزب الشيوعي وعيونه التي ترصد ، وهم اولئك الذين ظنهم نميري وزمرته ممن تطهرت قلوبهم من رجس المادية وخلصت لهم ، فقد طلب منهم الرئيس ان يكشفوا صلة الحزب الشيوعي السوداني وقيادته بحركتي المزمعة ! فاكدوا له الا صلة ولا علاقة البتة بين الطرفين .

عندئذ اتجه نميري بشكوكه وجهة اخري وخامره الاعتقاد بانني لابد مدفوع بجناح الحزب الشيوعي الصيني الثائر ، فامر سرا بمراقبة سكرتيره الاخ احمد

الشامي . ومن ثم اعتقالنا معا في تلك المرحلة التي جهد فيها قادة مايو لكشف ابعاد المخطط الانقلابي الذي اتولي قيادته زارني الاخوة مامون عوض ابوزيد ، وخالد حسن عباس وابو القاسم محمد ابراهيم ، في منزلي المطوق برجال استخباراتهم من كل جانب ومدخل ، فلم يغب علي فطنتي وهم يتحدثون الي عفو الخاطر ويزعمون ان زيارتهم عادية حيث كانوا في طريقهم الي امدرمان . ورأوا ان يمروا علي لتأكيد استجابتهم لدعوة فطور الجمعة ، ثم عرجوا من ذلك لمحاورتي - بصورة غير مباشرة - حول مسائل خلافي مع الثورة وقادتها وموقف قوات خور عمر والمدرعات فيها بوجه خاص !! فادركت ما وراء الاكمة من مقاصد ، واعتقدت علي الفور ان احد الاعضاء - والافراد الجدد منهم بخاصة - قد باعنا بثمن بخس لهؤلاء ! فاعملت فكري وذكائي في ذلك الحوار .

وعندما اعيتهم كل الحيل ونضب معينهم معي انصرفوا عني وهم بين حرارة الظن وبرد اليقين ، ثم ارسلوا بعد ساعة واحدة المقدم (س)، وقد زعم بدوره انه كان في امدرمان لامر ما ، فاختار ان يقوم بواجب زيارتي في نفس الوقت ! ثم افتعل الحديث عن حال البلاد ، وادعي انه علي خلاف مع قادة الثورة وتوجههم السياسي الراهن ، وزعم انه يسعي لقلب النظام وقد اعد خطته وكوادره لذلك ، ورأي - رغم تكامل القدرة والامكانات - ان يستعين بي وبافراد قوات خور عمر داخل سلاح المدرعات !

غالبت الضحك طويلا ازاء هذا الاستدراج الساذج المفضوح ، ورأيت ان انتهز فرصة حماسة المقدم (س) لكشف امر تحركي ، فاحضرت ورقة وقلما ، وبدأت الكتابة من منتصف الورقة فكتبت (الله والوطن) ثم طلبت منه ان نقسم علي ذلك ! وان نوقع عليه بأسمائنا وامضاءاتنا معا ، فلم يتردد - في فورة حماسه - وكتب اسمه كاملا وبخط واضح ، ثم وقع علي ذلك ، وادي القسم معي!! فاخذت الورقة الي داخل منزلي ولم يسألني عما سأفعل بها ، وعلي وجه السرعة اضفت بعد كلمة الوطن ثورة مايو الظافرة الخالدة ابدا بإذن الله ! وكتبت في النصف الاعلي للورقة :

(نحن المقدم (س) والرائد محجوب برير محمد نور ، نقسم بالله العظيم وكتابه الكريم ان نقف مع ثورة مايو وقيادتها بكل كياننا وولائنا التام ، وان نحميها بفداء وتجرد وطني من كل الاخطار المحيطة بها وبقيادتها ، رائدنا في

ذلك الله والوطن وثورة مايو الظافرة الخالدة باذن الله) .

ثم سلمت الورقة لزوجتي ، وطلبت منها ان تحتفظ بها كمستند يثبت براءتي من التهمة عند تقديمي للمحاكمة اذا حدث . ثم عدت الي حيث يجلس ـ المقدم (س) وكم كانت دهشته حين شرعت اثنيه عن موقفه المضاد للثورة ، وازعم له صدق ولائي وتجردي لها ! فنظر الي غير مصدق ثم غادرني محبطا .

وبعد انصرافه مباشرة تسلقت حائط المنزل المجاور لنا ، وطلبت من جاري ان يسمح لي باستخدام تليفونه بعد ان ابلغت له شكوكي حول مراقبة منزلي وتليفوني ، وهو الامر الذي حملني علي المجيء اليه عبر الحائط بيننا ، فامن علي حقيقة شكوكي واخبرني انه لاحظ وجود ثلاث عربات صالون هنتر ، وبداخلها اشخاص يبدو من ملامحهم انهم من رجال الامن ، وهم يراقبون منزلي الآن . ثم ابدي استعداده لمعاونتي بكل سبيل ، في تضحية نادرة وفداء كريم ، حتي اخرج من هذا المأزق فشكرت له اريحته وصدق مشاعره ، وقلت له :

ـ انني سأبدأ بالاتصال التليفوني ببعض الجهات ، فان لم اوفق سأحملك رسالة الي قادة احدي الخلايا .

فاستجاب الرجل بحماس كبير ، واجريت اتصالا تلفونيا بثلاث خلايا ، افضيت لقادتها بجلية الامر ، وطلبت منهم الاتصال فورا ببقية الخلايا لاخطارهم بما حدث ، مع الغاء كل استعدادات التحرك السابقة وممارسة حياتهم العملية بصورة طبيعية ، والا يقاوموا محاولة اعتقالهم اذا جرت المحاولة ، وكررت لهم الامر بالصمود في وجه المحققين ، وعدم البوح باي سر من اسرار التحرك ، وان يخطرونني باية معلومة ترد اليهم عبر نفس التليفون واعطيتهم رقمه

جاءت استجابة قادة الخلايا فورية ، فبعد ثلاثة ساعات من ذلك ، دعاني ذلك الجار الشهم للرد علي التليفون فنقل الي بعضهم انهم قد تمكنوا من الاتصال بجميع قادة الخلايا وافرادها وكلهم يؤكدون الصمود برجولة وفداء . وقالوا انهم يعتقدون ان الذي كشف سر التحرك هو العريف (ع) ، لان بعضهم شاهده مع ضابط استخبارات السلاح الرائد عبد العظيم محجوب ، واكدوا انه لا يعرف سوي صديقه الجندي ازهري جوده الله وافراد خليته فقط ، وهؤلاء قد تم تنبيههم وضمان صمودهم اثناء التحقيق .

ومن ثم طلب مني ضابط اتصالنا الرقيب حماد الاحيمر ان اتفرغ لشأني ولا

اشغل فكري بهم !! وانه وقادة الخلايا سيقومون بما يلزم ، من اجراءات تحوطية ، ومن بينها المقاومة المسلحة اذا استدعي الامر ذلك !

فشكرتهم وعدت - عبر السور ايضا - لمنزلي لاستعد لما قد تأتي به الاقدار من مفاجآت ، كما قمت بكتابة وصيتي تحسبا لاقسي الاحتمالات وكانت زوجتي علي علم بتحركي واتصالاتي السابقة فافضيت لها بحقيقة الظروف القائمة ، وحدثتها بتوقع اعتقالي في اي وقت ! طالبا منها ان تواجه الموقف بما يلزم من رباطة الجأش والحكمة وحسن التصرف ، وان تستعد للصمود في حال التحقيق معها حول شخصي وتحركي .

كنت اجهل تماما حقيقة مايمكن ان يحدث ، ولكني ظللت اتوقع ان يجري اعتقالي بعد ساعة او يوم او يومين او اكثر ، فاسلمت امري لله تعالي وتوكلت عليه .

اما رئيس واعضاء مجلس قيادة الثورة فقد سهروا من جراء ما بلغهم عني واختصموا ، حيث عكفوا في اجتماع طويل لهم يتحاورون حول مايفعلون بي وبمن معي ، واجمعوا امرهم اخيرا علي اعتقالي وافراد الخلية الذين اورد اسماءهم العريف (ع) .

في حوالي الساعة الرابعة صباحا استيقظت ومن معي بالمنزل علي طرق عنيف بالباب الخارجي ، وحملت نسمات الصباح الي صوت سلاح اوتوماتيكي يعمر ، وحركة مدرعتين وبعض العربات ! فلم اجهد في معرفة الطارق وما يبتغون ، وايقنت انهم القوة التي جاءت لاعتقالي ، فاسرعت بالخروج اليهم ، وكان بعضهم قد بادر بتسلق السور واتخذ موقعه بالداخل ، فما كادت اعينهم تبصرني متوجها نحو الباب حتي ساروا خلفي اليه ، فلما فتحته اندفع الآخرون في عنف الي الداخل ومعهم ضابطان هما النقيب يحي نمر ، والنقيب الفاضل عابدون ، ثم احاطوا بي جميعا واخرج النقيب يحي نمر امرا مكتوبا باعتقالي رهن التحقيق والتحفظ !! وابدي لي اسفه البالغ بهذه المهمة الشاقة علي نفسه ، لما يربطه بي من صلات الود والصداقة .

فهونت عليه الامر ما استطعت ، وطلبت منه ان يمهلني دقائق لارتدي ملابسي العسكرية واصحبهم ففعل ، وهناك بذلت غاية الجهد لتهدئة خواطر زوجتي وازالة مخاوفها ، واوصيتها خيرا بنفسها وابننا خالد ، وذكرتها بوصيتي

المكتوبة والاطلاع عليها ، وفي نفس الوقت ضرورة الحفاظ علي مستند القسم الذي قد استخدمه في حالة تقديمي للمحاكمة . اخطرني النقيب يحى نمر - على مرأي ومسمع من زوجتي - انه سيجري اعتقالي بمصنع الذخيرة ، واذ كانت العربة تنطلق بنا ومن خلفنا الحراسة المسلحة ، افضى الي النقيب يحى نمر بفحوى الامر فاخبرني بانه سيجري اعتقال سكرتير الحزب الشيوعي الجناح الصيني السيد احمد الشامي في نفس تلك الساعة وفي ذات المكان كما سيتم اعتقال افراد الخلية التي تم التبليغ عنها ، وان لجنة فورية سيتم تعيينها لهذا الغرض !!

كما افضي الي ايضا بشكوك رئيس واعضاء مجلس قيادة الثورة حول ضلوع البعض منهم وبالتحديد المقدم بابكر النور والرائدان فاروق عثمان وهاشم العطا ومن خلفهم قيادة الحزب الشيوعي السوداني في تحركي الانقلابي . ثم اوصاني النقيب يحي بعدم الاعتراف بالجرم مهما كانت الوسائل ترهيبا وترغيبا ! وانه سينقل ذات الوصية للمعتقلين افراد الخلية حين يتم اعتقالهم اذ ان اعترافنا بالجرم سيتبعه تلقائيا الحكم باعدامنا ! وكما وعدني بتبليغي بمجريات الاحداث ، وامدادي بكل ما يساعدني من معلومات لاخلص من هذا المأزق نجيا .

فشكرت النقيب يحي نمر وقلبي مفعم له بعرفان الجميل وكان يتحدث الي باللغة الانجليزية حتي لايدرك الصف والجنود الذين معنا بالعربة مضامين افادته

عند دخولنا معسكر مصنع الذخيرة بالشجرة ، استقبلنا قائده المقدم وقتها محمد مصطفى اورتشي ومعه ضابط استخبارات سلاح المدرعات عبد العظيم محجوب ، فافردوا لي غرفة داخل السلاح لاعتقالي والتحفظ علي ، مع تشديد الحراسة عليها من الخارج . كما علمت منهم ان السيد احمد الشامي قد وصل مع الذين قاموا باعتقاله قبلي بقليل ، وانه لن يكون هناك اتصال بيننا طوال مدة الاعتقال والتحفظ .

في حوالي الساعة الخامسة صباحا حضر للقائي كل من العميد خالد حسن عباس والرائد مأمون عوض ابو زيد ، فحاولا ملاطفتي وكسب ثقتي وايهامي باني اداة وضحية لطموح الشيوعيين الموتورين ارادوا استغلالها لضرب الثورة ، ولم يصب زائري الحرج وهما يطلبان مني ان ادلي باعتراف قضائي مفاده ان عضوي مجلس قيادة الثورة بابكر النور وهاشم العطا ، ومن خلفهما قيادة الحزب

الشيوعي ، هم الذين حرضوني علي التحرك بالسلاح فيما يسمي بالثورة التصحيحية ، وانني ان فعلت ذلك فسيعملون علي اطلاق سراحي ومن معي فورا ، يشفع لنا في ذلك ويسنده مشاركتنا في تفجير الثورة . واني اذا لم افعل فلا مناص من تعريضي لكل وسائل الضغط وصنوف الاذي اولا ثم اعدامي واعواني ثانيا واخيرا !!

كنت اعجب لهؤلاء القوم وصراعاتهم ومكائدهم ، فازددت ايمانا بضرورة التغيير وانا بين ايديهم ! ارمقهما بنظرات الزراية والسخرية والعجب والتحدي ، ثم قلت لهما :

- انتما تعرفان اختلافي عقائديا مع فكر الحزب الشيوعي بجناحيه الروسي والصيني ، والذي تزعمان انتمائي اليه .

ولهذا - يا اخوتي - ان كانت لكما خلافات وصراعات سياسية او عقائدية او شخصية مع بعض اعضاء مجلس قيادة الثورة ، او قيادة الحزب الشيوعي السوداني فارجو ان تعملا علي تصفيتها بعيدا عني !

فاسقط في ايديهما ونهضا مودعين في تثاقل ، وملامح وجهيهما تنم عن شعور واضح بالاحباط !

وعند الساعة العاشرة صباحا تقريبا ، جاء للقائي الرئيس نميري ، كان يزلزله الغضب ويبدو عليه الارق وحدة الانفعال بالحدث ، فاتخذ له مجلسا في جانب الغرفة ثم خاطبني قائلا :

- اعلم يامحجوب ان مصيرك معلق بما يتمخض عنه التحقيق في جرمك ، وسوف تشكل لجنة في الغد او بعد غد لهذا الغرض ، وسأعمل من جانبي علي تشكيلها من ذوي الحيدة والنقاء الثوري ليصلوا بنا الي الحقائق المجردة حول حقيقة التحرك وابعاده ومراميه ، كما اني لن اوافق علي تعذيبك ومن معك لانتزاع الحقائق بهذه الوسيلة ، هذا ولن نألوا جهدا في توفير كل فرص العدالة لكم في حالة تقديمكم للمحاكمة ، ولا املك لكم غير ذلك ، فهذا كل ما اعدك به ولا اريد ان اسمع منك الآن شيئا ، فكل ما لديك من معلومات يمكنك ان تفضي به للجنة التحقيق .ثم سألني ان كنت اريد شيئا او يضايقني شيء فهززت رأسي مبتسما وقلت له :

- ان زوجتي لابد ان تكون في حالة نفسية سيئة ، فارجو الاتصال بها

لطمأنتها وازالة هواجسها .

فالتفت نميري الي المقدم اورتشي قائد مصنع الذخيرة ، وامره بالاتصال بزوجتي لهذا الغرض ، كما امره ان يسمح لها بزيارتي متي شاءت ، وترتيب زيارة أهلي باشراف ضابط الامن وفي حضوره ، وامره ايضا أن يخصص لنا انا والاخ احمد الشامي طباخا خاصا لاعداد ما نريد من طعام خاص ، . وامره ايضا ان يوفر لكلينا جهاز راديو وتلفزيون ، وان يجلب لنا الصحف والمجلات وما نطلب من كتب ثقافية ، وان يعاودنا الاطباء في اي وقت نشاء . ثم ودعني الرئيس وانصرف .

بعد قليل عاد المقدم اورتشي وبصحبته الرائد عبد العظيم الذي خاطبني بقوله :

ـ انت تعال يا محجوب ، الرئيس ده يدلع فيكم كده متآمر معاكم واللا ايه ؟

فضحك المقدم اورتشي وعلق قائلا :

ـ علي العموم نحن حنفذ اوامر الرئيس بحذافيرها .

تعاقب علي زيارتي ـ طوال ذلك اليوم ـ الاخوة اعضاء مجلس قيادة الثورة الواحد بعد الآخر ، وكلهم يسأل ويستفسر عن هوية انقلابي المحبط ، وعمن يشاركني ، يدفع خطاي لارتكاب ما اسموه جرما عظيما ! وظللت اردد علي مسامعهم بصورة روتينية بان اعتقالي تم لسوء فهم او تفاهم ، واني بريء مما نسب الي براءة الذئب من دم ابن يعقوب . فينصرفون عني وهم بين الشك واليقين .

ومع ذلك فقد صدر بيان من القائد العام عبر جميع اجهزة الاعلام والصحف عن كشف واحباط مخطط انقلابي آثم ، يقف وراءه تنظيم سري داخل سلاح المدرعات ، ويقوده ضابط وبعض الصف والجنود !! وان ثورة مايو الظافرة المنتصرة ابدا باذن الله ستضرب بيد من حديد لتقضي علي العبث والعابثين بمقدرات الشعب وانطلاقته الثورية .

فلم آبه انا للبيان ، ولكنه كان ذا اثر بالغ في نفوس افراد اسرتي في العاصمة والاقاليم فهبوا للقائي هلعين واجفين ، ولم تبارحهم المخاوف طوال مدة اعتقالي التحفظي ، علي الرغم من ان الاخ اورتشي امر بتنظيم زيارتهم لي دوريا في حضور ضابط الاستخبارات كما قضت بذلك تعليمات الرئيس .

وفي اليوم الثالث لاعتقالي ذاك ، تشكلت لجنة التحقيق الموعودة لمباشرة مهمتها في التحقيق معي وافراد الخلية التي كشف امرها من الصف والجنود ، وتألفت اللجنة من الاخوة : العقيد (وقتها) بشير محمد علي ، والمقدم سيد احمد حمودي والمقدم حقوقي الحسين الحسن . واستمر التحقيق معنا خمسة وخمسين يوما !! صمد خلالها الصف والجند في بسالة نادرة ، رغم المحاولات المتكررة لاخافتهم واغرائهم ، اما انا فقد مثل امامي نفر من شهود الاتهام واجهتني بهم لجنة التحقيق ، ومن بين هؤلاء الاخ المقدم (س) شاهد الاتهام الاول ، وقد افلحت في دحض شهادته ، خاصة عند تقديمي لمستند اداء القسم الذي فوجيء به ولم ينكره ، رغم محاولته لانكار محتوياته ، فاسقطت اللجنة شهادته ! اذ صدر قرار اللجنة بان المستند يوفر شكا معقولا - في رأيها - يفسر لصالح المتهم .

ثم ووجهت بالآخرين من شهود الاتهام ، ومما يؤسف له ان بعضهم كان من شهود الزور ! ولكني استطعت دحض شهاداتهم بسهولة من خلال استجوابي لهم (Cross Examination) ومع كل ذلك فقد تمكنت لجنة التحقيق من النفاذ الي جوهر الحقيقة ، ولكن من خلال غيوم الشك فتنادي بعض اعضاء مجلس قيادة الثورة بضرورة تطبيق مبدأ تفسير الشك لصالح امن الثورة وليس لصالح الافراد المتهمين - وفي محاولة لدعم هذا الاتجاه لجأ بعضهم الي التأثير علي موقفي مستغلا صداقتي لاحد ابناء دفعتي ، فجاءني هذا يسعي وطلب مني بالحاح ان ادلي باعتراف ازعم فيه صحة حركتي الانقلابية وابرر تصرفي في ذلك باني كنت مضللا ومدفوعا بقيادة الحزب الشيوعي السوداني والاخوين بابكر النور وهاشم العطا ! ثم اردف ذلك الخل غير الوفي باني ان فعلت ذلك فسوف احظي بعفو سياسي من خلال جعلي شاهد ملك !! هكذا حاول صديقي وابن دفعتي اقناعي ، وحين فرغ من الحاحه لم اجد في كل ما اعرف من لغات الدنيا الكلمات التي تترجم مشاعري السلبية تجاهه في ذلك الموقف ! ومع ذلك جادلته بالحسني ، مؤكدا له انني لن اعترف بذنب لم اقترفه ، ولن ادلي ابدا بشهادة زور في مواجهة حزب او افراد لا صلة لي بهم ، وكنت اتعمد ان اتحدث اليه بلغة اياك اعني واسمعي ياجارة حيث قصدت ان ينقل حديثي اليه لجهة اعرفها ، وقد كنت اشك بل يخامرني الظن بانه كان يسجل الحوار بيننا من خلال جهاز تسجيل

استخباري يخفيه بين طيات ملابسه ، فرأيت بان استخدم ذلك التسجيل كمستند دفاع لي كما استخدمت رقعة القسم بيني وبين المقدم (س) من قبل ! وهكذا خيل الي اني افلحت في تحطيم محاولات الايقاع بي وتجريمي وخلصت بذلك نجيا .

ولكن خاب ظني ، فقد رفع اعدائي من جديد شعار تفسير الشك لمصلحة الثورة لا للافراد . ولتحقيق مآربهم ربطوا بين حدث الانقلاب الماثل وبين ما سبقه من حدث اتصالي بالعميد مزمل غندور ومعارضتي الدائمة لمسار الثورة ودعوتي لقوميتها ، فاجتمعوا واجمعوا علي ادانتي ثوريا بالاعدام رميا بالرصاص ، وسجن شركائي من الصف والجنود الضالعين في المؤامرة الانقلابية علي الثورة !!

غير ان هذا المخطط وذلك الاتجاه وجد معارضة داخل مجلس قيادة الثورة ، وقاد هذه المعارضة الرائد ابو القاسم محمد ابراهيم حتي خارج المجلس ، اذ انه في لقاء له بقوات سلاح المدرعات وفي حضور العميد احمد عبد الحليم قائد السلاح اشاد بدوري ودور المتهمين معي من الصف والجنود في مرحلة تفجير الثورة ، ولم يكتف بذلك بل ادان الممارسات الخاطئة التي دفعتنا . وقد تدفع غيرنا - للتحرك المضاد .

ساند ابوالقاسم في موقفه ذاك الاخوة بابكر النور وهاشم العطا وفاروق عثمان من اعضاء مجلس قيادة الثورة ، ربما لان رذاذ اتهامي بالتآمر قد اصاب بعضهم بصورة مباشرة رغم براءتهم ، وذلك حين حاول مناوئهم في المجلس والصاق الحدث بهم ليكون ذريعة لتصفية وجودهم كشركاء في السلطة .

وفي خضم هذا المعترك ، شجر الخلاف حول موقف الطرفين مني ، وانتهي آخر الامر لغير صالحي ، اذ صدر قرار سري باعدامي ليلا ، ففي ليلة اليوم الخامس والخمسين لاعتقالي ، ايقظني كل من المقدم اورتشي والرائد عبد العظيم محجوب ، في حوالي الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، وطلبا مني ان اعد نفسي علي عجل لاصطحاب الرائد عبد العظيم الذي صدر له الامر بترحيلي الي مكان آخر لم يفصحا عنه ، فادركت باحساسي وقرائن الحال في تلك الساعة من الليل ما يراد بي فجبهت المقدم اورتشي بالقول :

- ستقومون باعدامي اليس كذلك ؟

عندها احتضنني المقدم اورتشي في انفعال عظيم واخذ يجهش بالبكاء في مرارة ، ثم مضي يعتذر لي بانه انما يقوم بتنفيذ امر عسكري صادر من القائد الاعلي ، وسيقوم الرائد عبد العظم باكمال اجراءات التنفيذ . فشكرته علي مشاعرة الودية وطلبت منه ان يسمح لي بالاغتسال تأهبا للانتقال من دار الفناء لدار البقاء ، وان يتيح لي فسحة من الزمن للصلاة وتلاوة بعض آي الذكر الحكيم ، ثم كتابة وصيتي الاخيرة . فوافق علي الفور ، ولم يستغرق ذلك كله اكثر من نصف الساعة

انطلقت بنا عربة صالون يقودها الرائد عبد العظيم محجوب صوب منطقة الحزام الاخضر جنوب الخرطوم . ومن خلفنا اثنان من الجند مسلحان بالمسدسات ، وتتبعنا عن قرب عربة صالون اخري بها اربعة جنود باسلحتهم الرشاشة هم جماعة تنفيذ حكم الاعدام .

في بهمة الليل والعربة تنطلق بنا الي ذلك المصير المعلوم ، دار بخيالي شريط ماضي حياتي بسرعة مذهلة ، فاحسست بالحسرة والندم علي تقصيري في تسجيل تجربتي الحياتية الحافلة ، والتي قد تكون نبراسا للآخرين يهديهم سواء السبيل ، ولكم تمنيت ان لو كان بامكاني ان افعل ذلك قبل الرحيل ، ولكني ادركت ان امنيتي تلك قد جاءت بعد فوات الاوان ، فانحيت باللائمة علي نفسي وعنفتها علي ذلك التقصير والتفريط ، ثم انتابتني حالة من الغضب والحقد والكره الشديد لرئيس واعضاء مجلس قيادة الثورة ، وانعكس هذا الشعور علي نفسي وساورني ندم لا حد له لتعديل خطة الانقلاب التي كانت اول الامر تقضي باعدام رئيس واعضاء المجلس وبطانتهم ، ثم جري تعديلها للاعتقال والتحفظ بعد زيارة نميري سالفة الذكر ، مما اقتضاني السعي لتجنيد عدد اكبر من الاعوان ليقوموا بمهمة الاعتقالات ، فكان هذا التجنيد بمثابة المعول الذي هدم صرح مطامحي واحبط حركتي الانقلابية قبل ان تري النور .

واذ انا مقبل علي مواجهة الموت المحتوم بعد لحظات ، ساءلت نفسي عن حالي بعد الممات اتراني سأصنف في عداد الخونة ام الشهداء ؟! ثم اخذت افكر في مآلي بعد الموت من حيث الجزاء والحساب وصورة الوجود بعد عبور البرزخ الذي يفصل بين الحياة ومابعد الحياة ! ثم البعث والجنة والنار والصراط . كل

ذلك دار بذاكرتي في دقائق معدودة يجللها الصمت الرهيب ، وفجأة احسست بلفح برد قارس ، فاخذت اردد هامسا دعاء يا لطيف ، حتي وصلنا منطقة الحزام الاخضر .

هناك امر الرائد عبد العظيم ثلة الجنود ان يربطوا يدي الي ظهري ، ويعصبوا عيني ، ثم يأخذوني في اتجاه الدروة ! فالتمست من الرائد عبد العظيم الا يفعلوا بي ذلك ، وقلت له في ثبات ومزاح :

- انا مؤمن بالله واقدار البشر ، وفي نفس الوقت جعلي احمق يأكل النار ، فدعني اتجه الي الدورة ، وأواجه مصيري دون قيد ولا حراسة !

ثم الحفت عليه الرجاء بالا يأمر باطلاق النار علي من الظهر . كما يحدث احيانا لدواع كثيرة . بل ينتظرني حتي اواجههم واقف قبالتهم ، ثم ينفذون مشيئة القدر وحكم السماء !!

فوافق وفي عينيه نظرة ملؤها الاسي والفجيعة ، وفي صوته كل مشاعر الود والاخاء وزمالة الدفعة ، واذ بدأت اتحرك في اتجاه الدروة ، استوقفني الرائد عبد العظيم فجأة وهو يضع يده علي كتفي في ضراعة ويقول :

- محجوب ، لماذا لا تكشف عن الجناة الذين دفعوا بك الي هذا المصير ؟ ما احسبهم الا في ذروة السعادة بنهايتك هذه ، التي تدفن سرهم الي الابد ، والا لكانوا فعلوا شيئا من اجل حياتك حتي الآن ، فلماذا تحميهم انت ، لماذا يا محجوب ؟

فجأة احسست ان عبد العظيم يفتح لي بابا جديدا للحياة ولو لوقت معلوم ، ولم اشأ ان اوصده دوني ! فقلت له بحرارة :

- قل لي يا عبد العظيم ، بامانة ، هل سيغير اعترافي حكم الاعدام الي شيء آخر ؟ اذ انا افضيت لك بامر من دفعوا بي لتخطيط الانقلاب وتنفيذه ؟!

قال بكل حرارة الصدق :

- لا يامحجوب هذا لن يجعلني اعدل عن تنفيذ الامر العسكري ، ولكنه سيمكنك حتما من الاخذ بثأرك من قاتليك الحقيقيين الذين ارتضوا لك هذا المصير وستكون شهادتك ضدهم شهادة محتضر وهي اقوى لدلة الاثبات قانونا كما اعتقد !

وجدتني بحاجة الي المراوغة واقتناص السوانح لاضيف لعمري ولو دقائق

معدودة ! فقلت له :

اذن فاعطني ورقة وقلما ، فعلي ضوء مصباح هذه العربة ، سأكتب وثيقة اكشف فيها كل ابعاد حركة الانقلاب !

فاشرق وجهه بالفرح الوقور ، واستغرق تجهيز المطالب الصغيرة دقائق اخري ملأت رئتي خلالها بانفاس الخضرة ورائحة الطين ، واشرعت بصري جهة الشمال ارقب الخرطوم ترقد وادعة في احضان الكلاب المسعورة ، والناس غارقين في احلام الثورة الوردية الزائفة ، والبعض يلعق جراح العجز والهزيمة ، والسواد الاعظم من الناس واهم او مخدوع !!

ثم جلب لي الرائد عبد العظيم قلما ودفترا صغيرا Dairy Note فجلست القرفصاء امام مصباح العربة المضيء ، وشرعت اكتب رسالة موجهة الي الرئيس نميري ، احمله فيها دمي ومسئولية اسرتي من بعدي ! واتهمه ومن معه من اعضاء مجلس قيادة الثورة بالحنث بالقسم واليمين ، والانحراف عن مخطط الضباط الاحرار السياسي ، والنكوص عن التوجه القومي للثورة ، ثم توعدتهم اخيرا بانهم سيلاقون حتفهم مثلي يوما ما ! واختتمت رسالتي للرئيس نميري بعبارة :(نحن السابقون وانتم اللاحقون) .

ظل الرائد عبد العظيم ينظر الي وانا اكتب وقد بدأت عليه اللهفة والقلق ، فلما اعدت له الدفتر انحني علي ضوء العربة ومضي يقرأ ما فيها بامعان ثم انتصب واقفا ورسم علي شفتيه ابتسامة ساخرة وقال :

- علي العموم يا محجوب انت ارضيت ضميرك ، وسويت القلبك املاه عليك وبقي علينا ان ننفذ الامر العسكري الصادر ، فتفضل !

واشار بيده نحو الدروة ، فودعتهم واتجهت نحوها ، كنت حقا وصدقا رابط الجأش صابرا راضيا بقضاء الله ، واذ كنت اخطو في ثبات سمعت صوت تعمير البنادق من خلفي ! فايقنت ان وعد عبد العظيم لي بعدم اطلاق النار علي من الخلف لم يعد قائما بعد ما كان ، واني ملاق مصرعي قبل ان ابلغ الدروة ، فواصلت سيري وانا لا ادري هل ساخطو خطوة اخري ام لا ؟ وفجأة ترامي الي سمعي او خيل الي اني اسمع صوت بوق عربة من بعيد ، وتكرر نداء البوق مرات متوالية فسمعت النداء من خلفي :

- قف يامحجوب ، خلف دور .

فتوقفت واستدرت الي الخلف ، ومن عجب فعلت ذلك تلقائيا بطريقة عسكرية صحيحة ، وبينما كنت اقف في مواجهتهم ، رأيت عربة مسرعة نحونا وهي ما تزال تطلق صوت البوق بين فينة واخري ، ثم تكشف انوارها علي المكان حتي وقفت ازاءنا بفرملة عنيفة ، وسرعان ما ترجل من العربة الرائد يحي نمر ، فانتحي بالرائد عبد العظيم جانبا وتحدث اليه بامر ما ، ثم سلمه خطابا واندفع نحوي واحتضنني واخذ يجهش بالبكاء !

وفجر الرائد يحي نمر ديناميت المفاجأة فقال لي والكلمات ترتعش بين شفتيه:

ـ مبروك يا محجوب ، الرئيس نميري امر بتعديل قرار الاعدام ، واستبداله بقرار آخر يقضي باحالتك للاستيداع ، وامرني ان اطير اليكم علي جناح السرعة بهذا التعديل ، وكم خشيت الا الحق بكم في الوقت المناسب ، ولكن الله لطف .

فلم اصدق اذني ، وفجأة اهتاجت مشاعري واصابني الرائد يحي نمر بعدوي البكاء ، فاخذته بين ذراعي وتركت لدموعي العنان . ورآني الرائد عبد العظيم في تلك الحالة وهو يقترب منا فعلق ملاطفا :

ـ ياخي انت ما بكيت من الموت ، تبكي من الحياة ؟

ثم اخذني من موقعي قريبا من الدروة الي حيث تقف العربات ، فاقلتنا عائدين والليل يملأ الوجود جلالا ورهبة ، الي معسكر مصنع الذخيرة . فوصلناه وقد اسفر فجر يوم جديد .

وان انس لا انسي اولئك الجند الذين رافقونا لتنفيذ امر الاعدام ، فقد تراءي لي انهم بلا مشاعر ولا احاسيس ، اذ كانوا ينفذون اوامر الرائد عبد العظيم في حركة آلية وصمت : قف ، انتباه ، انزل ، عمر ، فرغ ، اركب !! فيفعلون ما يؤمرون به وكأنهم آلات تحركها الكلمات ، ثم وجدتهم اقرب الي الانسان الآلي ! فانكرت نفسي لهم ذلك الواقع الاليم !!!.

ثم عدت وتذكرت انني من طينة هؤلاء الجند ، خاصة حينما تسند الي مهمة او يوكل الي تنفيذ امر عسكري ، فعندها اغالب مشاعري واغلبها علي تنفيذ الامر ، حتي لو حمل بين طياته هلاكي .

في حوالي الساعة السابعة صباحا ، صدر قرار باطلاق سراحي ، وطلب مني اولا ان اتجه الي سلاح المدرعات لمقابلة المقدم (س) ، القائد ـ وقتها ـ بالانابة

حيث غادر العميد احمد عبد الحليم الي مصر مرة ثانية .

وفي مكتب القائد تلقاني المقدم (س) متجهم الوجه ورماني بقوله بغتة

- نحن عثرنا علي خطة تنفيذ انقلابك ، واحد بنودها يقضي باعدام خمسين قياديا من بينهم الرئيس نميري الذي اطلق سراحك الآن ، واعضاء مجلس قيادة الثورة والمدافعين عنها وانا احدهم ! انا (س) كنت تريد اعدامي يا محجوب ، ومع ذلك يأمر الرئيس باطلاق سراحك ؟ علي العموم نحن لا نملك سوي تنفيذ امر الرئيس ، ولكني هنا انذرك ، اذا عاودت المحاولة مرة اخري فاني سأعدمك بيدي هاتين ومد نحوي يديه ترجفان وكأنه يريد خنقي بهما ! واصابه الذهول حين رآني اضحك ساخرا علي فعلته ، ثم تحول فجأة ليضحك في سخرية مفتعله ووصفني وهو يضغط علي اسنانه بالقط ذي الارواح السبعة ! ثم اخلي سبيلي لانصرف الي اهلي ومنزلي . وهناك دهشت اذ وجدتهم قد ذبحوا خروفا امام الباب فكيف بلغهم الخبر ؟ فتبرع بعضهم بالاجابة وقال : انهم سمعوا في اذاعة نشرة الاخبار الصباحية بيان باطلاق سراحي مع احالتي للاستيداع ، واطلاق سراح الجند الذين اعتقلوا معي وتقديمهم لقائد سلاح المدرعات لمحاكمتهم ايجازيا ، واطلاق سراح السيد احمد الشامي ، واحالته الي وزير الداخلية لاتخاذ قرار بشأنه ، فاتصلوا بمعسكر مصنع الذخيرة وعلموا باني في طريقي اليهم ، فكان استعدادهم ذاك للقائي بعد ما كان ! وتعالت زغاريد النسوة في الدار وانا اخطو عتبة الباب الخارجي الي داخل البيت .

وفي المساء زرت الرئيس نميري بمنزله لاعبر له عن شكري وامتناني لقراره الكريم ، فاستقبلني بجفاء وبرود ، ولما استوفيت لامري حظه ، قال لي وهو يضغط الكلمات ويرسلها دافقة بالالم والغيظ والمرارة :

- المهم يا محجوب اولا : انك ان حاولت مرة ثانية مجرد محاولة ، فلن اقول بغير اعدامك ! ثانيا : تأكد انك لن تتبوأ موقعا قياديا في الدولة ما دمت انا علي قيد الحياة ، ولتعلم انني في الايام الاولي للثورة كنت علي وشك تعيينك امينا لمجلس قيادة الثورة ثم قائدا للقوات الخاصة لولا اتصالك غير المسئول بالعميد مزمل غندور ولكنت عينتك من بعد رئيسا لجهاز الامن القومي لولا تورطك هذا الغبي ! ولهذا تكون انت قد اوصدت ابوابنا في وجهك حتي الآن ! ولكني مع ذلك لن احول دون مستقبلك العسكري كضابط نظامي عادي بقراتنا

المسلحة ، وذلك لدي عودتك من الاستيداع ، فلا تأمل اكثر من ذلك ابدا .
فقلت له مازحا :
ـ ياريس انت الخير والبركة ، والمواقع القيادية تكليف ما تشريف ، فان رأيت ان تريحني من التكليف ، فهذا فضل منك لا انكره !
رد علي بجفاء شديد :
ـ ما تستهبل ، يا الله مع السلامة ، قوم امشي بيتكم !
فودعته بحرارة وانصرفت ، جري ذلك في اليوم التاسع من شهر ديسمبر ١٩٧٠م .

ازداد عدد زواري زيادة مذهلة بعد اطلاق سراحي واحالتي علي الاستيداع ، لدرجة اني كنت استقبل اناسا لم تكن لي سابق معرفة بهم ! وكانوا جميعا وهم يهنئونني بالسلامة يعبرون عن اعجابهم بوقوفي في مواجهة الظلم والطغيان تلميحا او تصريحا ! وتعامل معي بعضهم علي اني شيوعي صيني وحاورني من هذا المنطلق ، والعجب ان بعض قادة الحزب الشيوعي السوداني من معارفي ، اخذوني بتلك الصفة في حوارهم معي في شئون السياسة واحداثها ، وكان ذلك عند زيارتهم لي في تلك الظروف المؤسية ، وكادت تصعقني الدهشة حين طلبوا مني ان اعمل معهم علي وحدة الصف الشيوعي السوداني في ذلك المنعطف الخطير في تاريخ البلاد . فافهمت الجميع باني ـ رمع احترامي للاخوة الشيوعيين عموما ، ورفاق ماو علي وجه الخصوص ـ لكنني لا انتمي اليهم ، فانا حقيقة قومي سوداني لاحزب ولا طائفة ولا عقيدة سياسية ادين لها بالولاء ، سوي القومية السودانية ، والانتماء العربي الافريقي الاسلامي ، والارتباط الانساني العالمي .

كان من بين زواري ايضا الاخوة اعضاء مجلس قيادة الثورة ، فكما هو معروف لدي اهل السودان وعنهم ، فان خلافهم السياسي لا يذهب لودهم وعلاقاتهم الشخصية بقضية ابدا . بهذا الروح السمح التقينا وتمازحنا في صفاء وود ، جاءني منهم الاخ فاروق عثمان وبصحبته الاخ يوسف عبد المجيد امين عام الحزب الشيوعي الصيني ، وهو ـ لمن لا يعرفه ـ رجل بسيط في مظهره وديع مسالم ، مطالبه في الحياة محدودة للغاية ، لين العريكة في رقة من الطبع والسلوك ، وهذا ما كان يدهشني في امر توليه قيادة جناح شيوعي ثوري ،

فهو قطعا موقع لا يتناسب مع شخصه ومركبات تكوينه ، وقد افصحت له وللآخرين علي رأيي هذا ، أكثر من مرة ومناسبة . في تلك الزيارة اقترح علي ضيفاي فاروق ويوسف ، الانضمام بصفة رسمية للجناح الثوري بالحزب الشيوعي الصيني ، وحجة فاروق في ذلك ان الذي يتبلبل (اي يبتل) عليه ان يكون مستعدا للعوم ! واني - لم اتبلبل فقط ، بل اوشكت علي الغرق ! وهذا مايوجب علي السباحة مع التيار الثوري في البلاد !

عندما جبهت فاروق بسؤال لم يكن يتوقعه مني وقلت له بحزم وجد :

- هل انت شيوعي صيني يا فاروق ؟

فانتفض مذعورا ينكر هذا الانتماء ويستنكر السؤال ، بينما بقي الاخ يوسف بيننا يضحك ساخرا مما يجري بين يديه ، فاردفت سؤالي بآخر وقلت لفاروق :

- اذن لماذا تحاول تجنيدي ، وللجناح الثوري خاصة ؟

اجاب فاروق :

- هذا هو عشم وتوجه الاخ يوسف ، وانا فقط واسطة خير بينكما .

فلزمت الصمت برهة وقلت له :

- انه من الخير لي وللثوار الاحرار ان تقوم علاقاتنا علي اساس من الود الشخصي ، لا الانتماء العقائدي .

يجمل بي في هذا المقام ان اذكر ان عبارة الثوار الاحرار - التي ظل الرئيس نميري يرددها في خطبه وخطاباته كافة - هي شعار ثوري صيني ، نادي به الزعيم الصيني ماو تسي تونج ، وقيل انه كان يرمز بكلمة (الاحرار) لتأليب الرأي العام في بلاده ضد الهيمنة السوفيتية العقائدية ، والسيطرة الاقتصادية للولايات المتحدة وحلفائها في أوربا ، ان التحرر عنده يمثل الفكاك من تبعية الطرفين معا - المهم في الامر ، ان الاخوين فاروق عثمان ويوسف عبد المجيد خرجا من زيارتي تلك بقناعة اني غير قابل للمسلك العقائدي بحال .

وبشيء من الاضطراد تناقص عدد زواري بعد الايام الاولي لاطلاق سراحي ، فاصبحت فيما يشبه العزلة الاجتماعية ، حتي من اولئك الذين اعتادوا زيارتي من قبل للاستعانة بما لي من صلات طيبة بالمسئولين في قضاء مصالحهم ! وصدق فيهم عندي قول الشاعر العربي :

وما اكثر الاخوان حين تعدهم *** ولكنهم في النائبات قليل !!!

فمثلا ، كان احد هؤلاء قد صدر قرار باحالته للتقاعد في بعض كشوفات التطهير ، فهرع الي يستنجد بصلتي الحميمة بوزيره المعني ، فلم اخيب ظنه وصحبته للاخ الوزير الذي استجاب مشكورا لرجائي وشفاعتي ، فاعاد طالب عوني للخدمة !

ثم عاودني نفس ذلك الرجل بعد ايام قلائل يستعين بي في اثبات حقه للترقي وتنفيذه ، حيث كان كشف الترقيات قد صدر ابان احالته للتقاعد ، فصحبته من جديد الي الوزير المسئول ، وتم له ايضا ما اراد من ترقية .

ومرة ثالثة زارني الرجل عينه يستجير بي ويستغيث لأعمل علي الغاء قرار نقله ، فلم يتردد الوزير في تنفيذ الطلب ، استجابة كريمة لوساطتي . وحين تمت احالتي للتقاعد من بعد ، لم يتجشم الرجل عناء لقائي كالآخرين ! والتقيته يوما علي قارعة الطريق ، فتباعد وتظاهر بانه لا يراني !! وذات مرة كان يقود عربته باتجاه مضاد لاتجاهي ، فرفعت له يدي بالتحية من داخل عربتي فاشاح بوجهه عني ، متظاهرا بعدم رؤيتي . فآلمني ذلك كثيرا .

وعند عودتي من الاستيداع ، كان قد صدر قرار وزاري بالتحقيق معه في جرم بالفساد اتهم بارتكابه ، وثبت وقوعه منه ، ثم اعقب ذلك قرار بفصله ! وكم كانت دهشتي حين جاءني الرجل يسعي لعوني ويقسم اغلظ الايمان انه لم يسمع بامر اعتقالي واطلاق سراحي ، فتظاهرت باني اصدقه ، ثم شفعت ذلك بقولي : اني قد اضحيت علي خلاف سياسي مع وزيره المسئول ، ولهذا فليس لي عنده مكانة تؤهلني للشفاعة لديه . وانصرف عني الرجل وهو يلعن الوزير والثورة التي جاءت به وربما اوفاني نصيبي من ذلك سرا . وقد فشلت جهوده كلها في اعادته الي العمل بعد ادانته ، فقلت لنفسي (اللهم لا شماته) .

في بداية شهر فبراير ١٩٧٠م قصدني احد اقاربي لامر يتعلق بعمارة اسماعيل عثمان صالح التي تمت مصادرتها واطلق عليها بعد المصادرة اسم (صحاري) وهي تتبع لمؤسسة عثمان صالح التي تحول اسمها بعد المصادرة ايضا الي (اكتو مايو) ولعل الاسم يرمز الي ثورتي اكتوبر ١٩٦٤ – ومايو ١٩٦٩م ، وقد اطلقه عليها الاخ النعمان حسن احمد الذي اسندت اليه ادارة الشركة منتدبا من وزارة التجارة .

حدثني قريبي ذاك ان مؤسسة اكومايو اعلنت عن فتح باب التقديم لاستئجار دكاكين الطابق الارضي بعمارة صحاري ، وطلب مني ان اتقدم مع الآخرين لاستئجار احد هذه الدكاكين وتجهيزه كمحل للمرطبات ، وابدي استعداده لادارة المحل كشريك بالعمل ، فراقت لي الفكرة ، ولم اجد صعوبة في الحصول علي احد الدكاكين بالعمارة ، وقمت خلال شهر واحد بتجهيز المحل تجهيزا كاملا من حيث الديكورات والمعدات وادوات العمل والتصاديق الرسمية وخلافه . واطلقت عليه اسم (مرطبات توتيل) والاسم مأخوذ عن اسم نبع توتيل بجبل التاكا بمدينة كسلا موطني الثاني .

وما ان اعلنت عن افتتاح (مرطبات توتيل) حتي فوجئت برجل بوليس يصحبه احد المستشارين من ديوان النائب العام ، قام الرجلان باغلاق المحل بالشمع الاحمر واستلام مفاتيحه بين دهشة قريبي والحاضرين .

فلما كان صباح اليوم التالي جاءني رسول من الرئيس نميري يستدعيني اليه فحملت الاوراق والمستندات الخاصة بمرطبات توتيل وذهبت بها للقائه ، وعلي نقيض ما كان منه في المرة السابقة ، استقبلني نميري هاشا باشا وابتدرني بقوله:

- انا امرت باعادتك من الاستيداع الي الخدمة العاملة بالجيش ، وسيتيح لك هذا القرار استلام راتبك ومخصصاتك كاملة اضافة الي السكن والعربة ولن تكون بعد هذا في حاجة لممارسات تجارية لا تليق بك .

فشكرته وسألته عن السلاح والوحدة التي سأعمل بها في الجيش ، فاجابني بقوله :

- ستعود الي عملك بسلاح المدرعات ، وسيكون وضعك في سلاح المدرعات كما كان من قبل ، تقوم بتدريس حصص الاستخدام التكتيكي ولا شيء غير ذلك ، وصدقني يا محجوب اني ساقطع ذيلك هذه المرة ان حاولت اللعب به ، ولكيما اكون اكثر صراحة معك فانك ستكون دائما تحت مراقبة اجهزة الامن ، فكن جميلا لتري الوجود جميلا .

فودعته شاكرا وواعدا بحسن السير والسلوك .

وما ان وصلت منزلي ، حتي الفيته مكتظا باصهاري وجيراني واطراف عائلتي وافرادها ، فقد بلغهم نبأ عودتي للخدمة من رسول الرئيس نميري الذي جاءهم بجوال سكر كبير ومبلغ الف جنيه هدية من الرئيس ومساهمة في

الاحتفال بالمناسبة !

فأزداد عجبي من صنيع البشر !!

وبعدها ..

عدت سيرتي الاولي ، ضابطا بمدرسة المدرعات ، اعيش الحياة بعقل وقلب مفتوحين علي ما يجري من حولي في صمت ، واحاول جهدي ان اكون بمنأي عن الشبهات ، فاثمر هذا كله نماءا في علاقتي بالرئيس نميري ، وبادلته ودا بود ، وجميلا بعرفان . وايضا جري شئ من ذلك مع الاخوة اعضاء مجلس قيادة الثورة .

مكث معي ابي عدة اسابيع بعد اطلاق سراحي ، ثم غادرني الي الاراضي المقدسة ، ليعتمر واختلي بي ناصحا لي بالتقوي والورع ، ومارس حقوق الابوة فامرني بالابتعاد عن مسالك ومزالق العمل السياسي ، في تلك الظروف والاحوال ، التي استقرأها هو ببصر وبصيرة الشيخ العارف المجرب ، فادرك ما تنطوي عليه من تعقيد وخطر .

ولكن ..

ما كل ما يتمني المرء يدركه !

فسرعان ما وجدتني في بهمة تجربة واغواء شديدين ، فقد زارني بمنزلي الاخوة عثمان الحاج حسين (ابو شيبة) وعبد المنعم محمد احمد (الهاموش) وهاشم العطا ، وبابكر النور (المايسترو) ومحجوب ابراهيم (طلقة) وكما يحدث عادة في مثل هذه المجالس واللقاءات ، اتخذ الحديث طريقه الي السياسة ، ودار بيننا حوار وجدال حول الاشتراكية وانصارها وجهادهم من اجل الانسان الطيب المقهور ، وسوي ذلك من الاماني الوطنية والمباديء النبيلة ، فاوصلوني الي قناعة باني اشتراكي تقدمي بفكري وسلوكي في الحياة ، ولا يهم بعد هذا ان كنت منظما منخرطا في عقد تنظيم الحزب الشيوعي السوداني ام لا ! فالمهم هو سلوكي السياسي وعلمي الثوري ، وضرورة توجيه ذلك لاصلاح مسار ثورة مايو !

وافرط القوم بعد ذلك في تقريظ شمائلي وتعديد مواقف البسالة والجرأة في حقبة حياتي بينهم ، واذ هم في ذلك المدح والثناء ، اخذني ما يأخذ اولاد جعل في مثل هذه المواقف ، ووجّدتني منساقا مع مخططهم الرامي الي احتوائي

كمتعاون ـ ربما مرحليا ـ وليس عضوا كامل العضوية !! ناسيا او متناسيا نصح ابي وعهدي له .

وقد تأتي لي من بعد ، حضور جانب من اجتماعات قيادة مجموعة التنظيم التي ضمتني ، وكم ادهشني ان اجد الرفاق علي تمام القناعة والثقة بانهم قادرون علي الاستيلاء علي السلطة السياسية في البلاد ، عن طريق انقلاب عسكري في اي وقت يشاءون !! وزعموا ان عضوية تنظيمهم تضم اكثر من مائة ضابط من مختلف الرتب ، وقد شملت كل القوات النظامية جيش / بوليس / سجون ! اضافة لكوادر التنظيم الملتزمة في اجهزة الامن : امن قومي / امن عام / واستخبارات عسكرية !

كيفما كان الحال في تقديري الخاص ، فقد تجنب رفاقي في اجتماعات ذلك التنظيم الحديث عن خطة ومخطط التحرك الانقلابي !! وقالوا : ان ذلك من اختصاص القيادة العليا مدنية وعسكرية ، وان عليهم فقط ـ في اجتماعات التنظيم ـ مناقشة المبادئ والاهداف والوسائل والاطر التي ستبني عليها ثورة التصحيح المقبلة ، وتحكم اداء قادتها وتحدد اتجاهاتهم في مرحلة التطبيق .

ومثالا لذلك :

اذكر انهم ناقشوا في اجتماع لهم اطار الاداء التنفيذي في الوزارات ، فاجتمع رأيهم علي ضرورة ان يقوم الي جانب الوزير المركزي في كل الوزارات وزير دولة من التنكوقراط وحجتهم في ذلك ان الوزير الفني ـ بحكم تأهيله وتخصصه ـ اعلم بضروب عمل الوزارة وقدراتها ، ومن ثم يمكنه تهيئه الظروف المواتية لانطلاق الوزير المركزي في اتجاهات العمل المثمر للوزارة ، واتخاذ القرار السياسي الحكيم .

وعارض البعض هذا الاتجاه بحجة انه لا يلزم بالضرورة تعيين وزراء دولة فنيين ، حتي لا يتضخم عدد الوزراء ، وتزداد الاعباء المالية علي الدولة ، ويمكن الاستعاضة عنهم بوكلاء الوزارات وخبراتهم الفنية ، فهم ـ بحكم تعمقهم في العمل ـ يدركون المهام المختلفة لافرع واقسام الوزارة ، وبرامج العمل والخطط المرحلية للاداء .

دار حوار الرفاق حول هذا الجانب الحيوي للدولة التي ينشدون ، وانتهي الي ضرورة تعيين وزراء الدولة الفنيين بكل الوزارات او معظمها علي الاقل . كما

تطرق المجتمعون في ذلك اللقاء التنظيمي الي ضرورة تضامن وتوحيد قوي اليسار والتقدم التي يمثلها القوميون العرب ، والاشتراكيون العرب ، والحزب الشيوعي ، في مواجهة قوي التخلف والرجعية التي يمثلها التقاء الاحزاب التقليدية المعارضة لثورة مايو ، وعلي رأس هذه القوي حزب الامة والحزب الاتحادي الديمقراطي وجبهة الميثاق الاسلامي ، كان منطلق هذا الاهتمام بوحدة التقدميين معلومات امنية تلقاها الرفاق بان القوي الرجعية التقليدية قد تجمعت في شكل تنظيم عسكري مسلح ، يسعي لقلب النظام وتصفية العناصر الثورية التقدمية ، وانها قد اتخذت من دولة اثيوبيا واراضيها قاعدة عسكرية ، ومن الجزيرة ابا في السودان مقرا لقيادة روحية ، فهي كالفاتيكان بالنسبة للعالم المسيحي ! ولهذا فقد اطلق الرفاق علي الجزيرة ابا اسما حركيا هو (فاتيكانوا) وعلي الامام الهادي ـ رحمه الله ـ اسما حركيا هو (الاب الروحي) وارتأوا بالاجماع حتمية القضاء علي قوي التخلف والرجعية داخل السودان وخارجه ، وان ذلك لا يكون الا بتوحد اليسار وقواه المختلفة ، [illegible] العقائدية ومواقفهم المتعارضة . وظل هذا الهاجس والطموح [illegible] المشترك لكل مداولات الرفاق في تلك الحقبة .

كانوا يأملون كثيرا في عودة الوفاق بينهم وبين [illegible] السلطة (القوميين العرب) لتحقيق هذه الغايات المشتركة [illegible] الذي يستهدف الجميع ! وهم يرون ان تنظيم القوميين العرب [illegible] الاحرار المايويين ، يلتقي بهم عند فكر واتجاهات زعيمهم الروحي [illegible] القومية العربية الحديثة جمال عبد الناصر ، الذي عرف بعدائه ومناوئته [illegible] الحكم الموروثة التقليدية في العالم العربي ، كالانظمة الملكية والطائفية ، وهو في نضاله لتقويضها لا يرعي حرمة لعلاقة ودية ولا مصلحة اقتصادية ولا كيان سياسي او اجتماعي ، وهذا ما دفعه لمحاولة القضاء علي نظام الامامة في بلاد اليمن العريقة ، ورغم ان ولاة الامور فيها واتباعهم كانوا في عداد الموالين والاحبار لزعامته ، وكان في مقدوره ان يصلح من حال دولتهم ومجتمعهم المتخلف لو اراد حقا ان يعمل علي بناء امة العرب ، ولكنه ضرب بولائهم ومشاعرهم الودية وعلاقتهم السياسية عرض الحائط ، واعلن الحرب علي النظام العتيق ، يدفعه الغرور والطموح ، وجذوة حقد لا يريم !!

ولم يكن يخفي علي الرئيس عبد الناصر وهو يقدم علي تلك الخطوة المدمرة موقف المملكة العربية السعودية التي تصدت لمحاولته وشاركت اهل اليمن الدفاع عن سيادتهم ودولتهم ، وهي في الحقيقة انما كانت تدافع عن كيانها الامني والاستراتيجي ، بعد ان اعلنت اجهزة الاعلام المصرية الناصرية حربها علي مملكة آل سعود ، وجاهر عبد الناصر بعداء حكامها وعزمه علي الاطاحة بهم واقامة نظام ثوري مكانهم . فعل عبد الناصر ذلك وهو يعلم ان المملكة العربية السعودية تمثل السند الاقتصادي الاول لدولته يومئذ ، فضلا عن مشاعر شعبها الودية تجاه ثورته وشخصه !! ولكنه هو عبد الناصر العدو اللدود لانظمة الحكم الوراثية في العالم العربي وكفي !

وهكذا انتظر رفاق لينين ان يأتي تجاوب القوميين العرب علي شكل تبعية مطلقة لفلسفة الزعيم ناصر وتوجهاته القومية ومطامحه في الزعامة ! وهذا ما قد يدفعهم للوقوف مع غيرهم من دعاة التقدم في السودان لتحقيق المبادئ الناصرية القاضية باجتثاث جذور - ما اسموه تجاوزا - قوي التخلف والرجعية الموالية للاستعمار ممثلة في حزب الامة وانصاره والاتحاديين وزعامتهم الطائفية وجبهة الميثاق الاسلامي وتوجهاتها السلفية الدينية .

وتأتي الرياح بما يشتهي رفاق لينين ، فسرعان ما اتحدوا مع جناح القوميين العرب واحرار مايو من اجل القضاء علي الاعداء التقليديين في الداخل ، وبدأوا معا يخططون ويدبرون امرهم بليل ، واخذت عناكبهم تنسج من افرازات الواقع السياسي شباكا للعبيد من الماء العكر . ومعروف ان خيوط العناكب هي اقوي انواع الحبال علي الاطلاق ولعل المعنى المراد بقول الله سبحانه وتعالي {مثل الذين اتخذوا من دون الله اولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وان اوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون} صدق الله العظيم . هو ان العناكب بعد ان تصنع نسيج بيوتها شباكا لصيد ضحاياها ، فانها لا تكتفي بافتراس ضحاياها فقط ، بل تعود ليفترس بعضها بعضا ! ويصل بها الامر للاقتيات بصغارها وذوي العجز والضعف فيها ، وهذا معني الوهن في بيوتها والذي رمزت اليه الآية الكريمة . وعلي شاكلة العناكب كان رفاق اليسار يجمعون امرهم وينصبون فخاخهم من طوارق الاحداث والمطامح العقائدية والمسار الثوري لدولة مايو وقيادتها المتحفزة .

الجزيرة أبا والصدام المسلح !



• • الحلقة السادسة عشر • •

الجزيرة ابا والصدام المسلح

تتابعت خطي الايام سراعا حتي جاء شهر مارس ١٩٧٠ ، ومارس هو اله الحرب عند قدماء الاغريق الذين يزعمون ان الاله (مارس) ينفس عن غريزته العدوانية في هذا الشهر من كل عام ، فيتخذ من روح الشر في بني البشر اداة لافراز طاقاته العداونية الهائلة ، ويترجمها هؤلاء حروبا طاحنة فيما بينهم ، ونعل (مارس) اله الاغريق الاقدمين لم يكتف من انصار الامام المهدي في السودان بما حققوا له من تنفيس عن غريزة العدوان في مارس ١٩٥٣م ، حين تصدوا لزيارة اللواء محمد نجيب رئيس مجلس قيادة الثورة المصرية للسودان لحضور حفل افتتاح البرلمان ، وكانت تلك المجزرة البشعة في شوارع الخرطوم ، وهي التي عرفت باسم (احداث مارس ١٩٥٣) . فاراد الاله (مارس) المزعوم ان يكون انصار الامام المهدي مرة اخري ادوات تفريغ لشحنات الغضب والدمار في نفسه ، فلما كان شهر مارس ١٩٧٠م دبر اخوة العرب ورفاق لينين امرهم بليل ، وحددوا ساعة الصفر لحدث جلل يخدم مطامحهم !! فاوعزوا للرئيس جعفر نميري بالخروج في رحلة نيلية الي قري ومدن النيل الابيض ، للالتقاء بجماهير الانصار التي تخلت عن قناعة ويقين عن ولائها لآل المهدي وتبعيتها للطائفة بعد ان حررتهم ثورة مايو فكريا واقتصاديا وسياسيا ، فاضحوا للثورة انصارا وحماة او هذا ما توهمه اخوة العرب ورفاق لينين !

وفي نفس الوقت ، نظم اخوة العرب ورفاق لينين امر رحلة الرئيس نميري وتوقيتها لتوافق ذكري حدث مأساوي آخر للانصار ، وهي ذكري شهداء عنبر جودة ، الذي ذهب آباؤهم واخوانهم ضحايا له ، بسبب عنت واهمال الرئيس ازهري ورجال دولته في عام ١٩٥٦ ، فجعل الرفاق ذكري الحدث مناسبة دورية يكال فيها اللوم والتقريع للرئيس اسماعيل الازهري وقادة حزبه كل عام ، في محاولة لكسب قواعد ارتكازهم الشعبية العريضة في تلك الانحاء .

وقد سبق ـ لنا ـ اخي القارئ ـ تفصيل حدث ومأساة عنبر جودة في الجزء الاول من هذا الكتاب (مواقف على درب الزمان) ، ولكن يهمنا هنا ان نذكر ان

الرفاق وحلفاءهم المؤتلفين ، قاموا بتنظيم رحلة الرئيس نميري في ظرف بعينه ودقوا للحرب الطبول وسعروا لها النيران ، فقد اوعزوا لقواعد الانصار في قري ومدن النيل الابيض بان قيادة مايو انعقد عزمها علي تصفيتهم جسديا ، وسيقود حرب هلاكهم قائد الثورة نفسه ، وما رحلته تلك الا من قبيل الاستكشاف العسكري ! وسوف تتبعه قوة عسكرية تقوم بتنفيذ ذلك العزم المبيت !!

وصدق الانصار مزاعم الرفاق ، وقرروا ان يخوضوا معركة فداء جديدة ، وراحوا علي عجل يعدون لها انفسهم وعدتهم ، وتنادوا للجهاد سرا فتقاطروا زرافات ووحدانا نحو ارض الخلود والتاريخ (الجزيرة ابا) تلك التي شهدت اولي معارك الامام المهدي ضد الجيوش التي ارسلتها تركيا بتدبير من قرارات الحكمدار محمد رؤوف التي يتولي منها حكم السودان يومئذ ، فاحرز الامام المهدي وانصاره الميامين انتصارا رائعا علي حملة الاتراك في معركة الجزيرة ابا اغسطس ١٨٨١م وفيها تجلت كراماته وآية ولايته ، اذ انتصر علي اسلحة البغي والعدوان النارية بالسلاح الابيض البدائي بل وبسيوف العشر الخشبية !! وليتنصرن الله من ينصره ، فكانت معركة الجزيرة ابا بدرا في غرة المهدية وفاتحة لانتصارات تالية . وانطلقت شرارات نصرها تؤزر الي قدير والابيض وبارا وشيكان ! حتي زلزلت اركان دولة الترك بالهزائم النكراء ، ثم كان النصر المبين وسجل الخلود في معركة الخرطوم ٢٦ يناير ١٨٨٥م فاجتز انصار الامام رأس الاستعمار الاجنبي المتمثل في الحكمدار غردون باشا ، وبزغت في الآفاق شمس سودان جديد ، سودان حر مستقل ، يوم كانت كل الشعوب الافريقية ترسف في اغلال القهر والذل والاستعمار .

وفي سبيل احكام خطتهم اوعز الرفاق الي اعضاء مجلس قيادة الثورة بالخرطوم والي الرئيس نميري نفسه ، بانه سيتعرض لخطر الاغتيال بايدي الانصار قبل اكتمال رحلته في عقر ديارهم علي ضفتي النيل الابيض ! فصدق الرئيس نميري ذلك الزعم ، لما لمسه من مشاعر الانصار السلبية والعدائية احيانا في حله وترحاله منذ بدء رحلته وحتي موعد ذلك الايعاز بخطر الاغتيال ، فارسل نميري الي الخرطوم رسالة مستعجلة يطلب فيها حماية شخصه ، وفي نفس الوقت رد عدوان من اسماهم بخصوم الثورة ! وكان طلبه ذلك بمثابة القرار الثوري الواجب التنفيذ .

جاء ذلك واللواء خالد حسن عباس القائد العام ووزير الدفاع وقتها خارج البلاد ، ويتولي القيادة نيابة عنه وبصفة مؤقتة خلال غيابه اللواء محمد الباقر احمد الذي جرى تعيينه وكيلا لوزارة الدفاع ، وبحكم منصبه وخبرته العسكرية كان يشرف - بصورة عفوية - علي كل شئون الجيش وخاصة العمليات الحربية ، فلما تلقي طلب الرئيس نميري ، سأل قائد سلاح المدرعات ان يرسل اليه احد الضباط ، لينسق معه خطة ارسال قوة مدرعة ضمن قوات مشاة اخري الي كوستي ، فكنت انا الضابط المكلف بلقاء اللواء الباقر .

وفي مكتبه افضي الي برغبة القيادة العامة في ارسال كتيبة مشاة ، تدعمها قوة من حاملات الجنود المدرعة البرمائية علي وجه السرعة لاجابة مطلب الرئيس علي ان تلحق بهذه القوة كتيبة مشاة اخرى تدعمها كتيبة مدرعات خفيفة من طراز المدرعة صلاح الدين والفرت ، ثم تلحق بهذه القوة الاخيرة قوة ثالثة من دبابات الت ٥٥ الروسية الثقيلة .

هدف اللواء الباقر ارسال كل تلك القوات الي عدة اسباب منها الخوف من تحرش الانصار والاخوان المسلمين بالرئيس نميري وركبه والاعتداء عليهم ، ومن ثم التوجه الي الخرطوم ليتلاحموا مع اخوانهم المندسين في العاصمة القومية لاحداث انقلاب عسكري . وفي مواجهة هذا المخطط سوف يناط بالقوات المسلحة المتوجهة الي كوستي رادع الدفاع الاستراتيجي باظهار قوتها الضاربة ، اذ ان مجرد ظهورها قد يخيف اعداء الثورة فيحجمون عن تنفيذ مخططاتهم التآمرية ، وهذا يمثل المهمة الاولي لارسالها ، اما مهمتها الثانية فهي التوجه للاقليم الجنوبي بعد ذلك للمشاركة في مشروع عمليات شاملة للقضاء علي فلول المتمردين بالاقاليم الجنوبية .

في اطار ذلك ، شاركت اللواء الباقر ونفرا من كبار المسئولين بفرع العمليات الحربية في وضع خطة تحرك القوات المدرعة ، وقد قضت اولا : بتحرك المدرعات البرمائية ، ثم تبعتها بعد يوم واحد مدرعات صلاح الدين والفرت تدعمها حاملات جنود مدرعة ، ثم تتحرك بعدها دبابات الـ ت ٥٥ تدعمها قوة مشاة وورشة صيانة متحركة ، ونصحت بمرافقة بعض الخبراء الروس لهذه القوة الاخيرة لحداثة خبرتنا بالدبابة (ت ٥٥) ، ولكن اولئك الخبراء اعتذروا عن هذه المهمة ، بحجة ان تحركاتهم محكومة بتعليمات واوامر قياداتهم السياسية في الاتحاد

السوفيتي عن طريق سفارتهم في الخرطوم وقد صدر لهم منها الامر بعدم الاشتراك ـ بصورة مباشرة او غير مباشرة ـ ولكنهم في اطار المشورة الفنية نصحوا بان تسلك الدبابات (ت ٥٥) الروسية الطريق المحاذي لخط السكك الحديدية من الخرطوم الي ربك وكوستي ، حتي اذا ما تعطل بعضها امكن سحبه علي عربات السطح الحديدية الي الخرطوم (نسبة لعدم وجود حاملات الدبابات بسلاح المدرعات في ذلك الوقت) .

مهما كان الامر ، فقد تم وضع خطة التحركات كما تم تجهيز القوة الاولي من كتيبة مشاة بقيادة المقدم (وقتها) محمد احمد ابو الدهب ، تدعمها قوة حاملات جنود مدرعة برمائية مكونة من تسع مدرعات من طراز (بردم) التشيكية بقيادتي كقائد للقوة المدرعة وقائد ثان لقوة التحرك ، اي نائبا للمقدم ابو الدهب ، كذلك جري تعيين الرائد عبد العظيم محمد محجوب ضابط استخبارات سلاح المدرعات كضابط استخبارات للقوة المتحركة . وصحب القوة الدكتور جراح المقدم وقتها عبد السلام صالح وفي معيته طبيب البنج الرائد وقتها عبد الغني محمود ترافقهما عربة عمليات طبية ، كما ضمت القوة عددا من صغار الضباط قادة المشاة ، والمدرعات .

بدأ تحركنا في حوالي الساعة السادسة مساء واتخذنا خط سيرنا عن طريق الخرطوم / جبل اولياء / القطينة / الشوال / المرابيع / الجزيرة ابا / ربك / كوستي . وكان في وداعنا اللواء الباقر اضافة الي بعض ضباط القيادة العامة وضباط سلاح المدرعات .

كنت قد وضعت خطة التحرك العسكرية المتعلقة بترتيب السير وسرعته والوثبات ، وكذلك خطة مصادمة المقاومة المحتملة ، والتعليمات التنسيقية ، وعرضت ذلك علي المقدم ابو الدهب فوافق عليها بغير تعديل ، ثم بدأ بموجبها تحركنا من الخرطوم .

عند الوثبة الاولي علي بعد حوالي ثلاثين كيلو مترا من الخرطوم ، طلب مني المقدم ابو الدهب ان اصدر امري بجمع القوة في مكان واحد ، بغرض اعادة تنوير افرادها واصدار اوامر عمليات عسكرية جديدة لهم ، فاستجبت لطلبه ، وبعدها فاجأني المقدم ابو الدهب وهو يسلمني ظرفا كبيرا بداخله خطة العمليات ، مختوما عليه بالشمع الاحمر !! ثم طلب مني ان اطلع علي

محتويات الظرف ، واراجعه في الخطة .

ولدهشتي وجدت خطة عمليات كاملة دقيقة التفاصيل ، تأمر بالهجوم علي الجزيرة ابا والقاء القبض علي الامام الهادي ومعاونيه احياءا او امواتا ، وتحدد الخطة في فقرة (القوات الصديقة) وجود سرية مشاة بقيادة الرائد وقتها / عثمان الامين قائد حامية ربك في انتظارنا بمحطة المرابيع علي اهبة الاستعداد للاشتراك في الهجوم !! وقد حددت الخطة ساعة صفر الهجوم بالساعة العاشرة صباحا ، مع المرونة في تعديل ساعة الصفر المقررة حسب سرعة السير ومقتضيات الظروف .

كان الامر كله مفاجأة لي ، ولم اخف ذلك عن المقدم ابو الدهب والرائد عبد العظيم ضابط استخبارات القوة ، وابديت لهما دهشتي وامتعاضي لاخفاء الخطة عني حتي ذلك الحين ، مؤكدا لهما الضرر البالغ لهذا التصرف ، متمثلا في وجود بعض صف وجنود حاملات الجنود المدرعة من ابناء الجزيرة ابا ! ولو كنت اعلم بمحتويات الخطة في الخرطوم لتفاديت تعيين هؤلاء في قوة تتحرك لضرب امامهم واعوانه وانصاره من ابائهم واخوانهم !

والامر الثاني هو ان الخطة تأمر صراحة باقتحام الجزيرة ابا والاستعداد لاشتباك مسلح ، وخطر هذا الاجراء انه يهدد سلامة المواطنين الابرياء ويعرض ممتلكاتهم للخطر . وتساءلت : لماذا لا يتم الامر بمحاصرة الجزيرة ابا وارغام خصوم الثورة - كما سماهم الرئيس نميري - علي التسليم طوعا او كرها ؟ خاصة وان مثل هذا الحصار يمكن دعمه وتعزيزه بقوات اخري من الخرطوم والقيادة الوسطي والقيادة الشرقية وكل قيادات الجيش الاخري ان دعت الحاجة لذلك ؟!

فاجاب المقدم ابو الدهب علي تساؤلاتي بقوله :

- رغم احترامي لوجهة نظرك يا محجوب ، فاننا هنا لا نملك حق تقديم مقترحات ، ولكننا كجند نلتزم بتنفيذ الاوامر الصادرة لنا كما هي .

وساند الرائد عبد العظيم محجوب هذا الرأي الاخير ، فاقترحت عليهما ان نتجاوز عن تنفيذ هذا الامر ، بل ونذهب الي ابعد من ذلك بان نعود بقواتنا الضاربة لاحتلال الخرطوم ، والقاء القبض علي كل قيادات ثورة مايو ، واعلان ثورة تصحيحية ، بمقتضي اسس واهداف تنظيم الضباط الاحرار !!

لم يصادف اقتراحي الجريء هوي في نفسي المقدم ابو الدهب والرائد عبد

العظيم ، فدار الحوار بيننا حوله سجالا ، حتي حسمه ابو الدهب بقوله :
- اننا سننفذ الاوامر العسكرية الصادرة لنا دون مناقشة

ثم انصرف ليتحدث الي الصف والجنود في شكل تنوير عسكري عن المهمة المنوطة بنا ، وطلب مني بعد ذلك ان اصدر اوامر العمليات للقادة حسب الخطة التي سلمني اياها من قبل ، ففعلت ذلك مكرها ، ولكني قبل تفرق القوة تعمدت ان اعقب علي تنوير المقدم ابو الدهب ، فاوضحت لصف الضباط والجنود ان ما سنقوم به من عمليات يقع في اطار الامن الداخلي ، ومن اهم مبادئ الامن الداخلي مبدأ الاقتصاد في استخدام القوة ، وعليه فاننا سنواجه اهلنا الطيبين وهم يحملون اسلحتهم البيضاء البدائية من حراب وسيوف وعصي بما يلزم من صبر وحنكة وروية ، فواجبنا ان نبقي علي ارواحهم جميعا ، والا نطلق نيران اسلحتنا الا في الحالات القصوي للدفاع عن النفس .

فاشعل تعقيبي حماسة الجند وروح الاخاء فيهم واخذوا يتصايحون في حمية وطنية عارمة ، وصارحني أحدهم - وهو من ابناء الجزيرة ابا - بما يجيش في نفسه من مشاعر الدهشة والالم والاحباط ، وتساءل : كيف يشاركون في ضرب إبادة اخوانه وذوي قرباه ؟! اما كان الاجدر ان يأتوا بغيره لهذا الغرض ؟! فاحسست لحديثه مرارة كالعلقم مما يعاني ، وبذلت جهدي للتخفيف عنه ووعدته بان اجعله وكل ابناء الجزيرة ابا مع القوة الاحتياطية في مؤخرة الركب المتحرك تفاديا لاشراكهم في مراحل الاقتحام الاولي . وسألت الله - علي مسمع منه - ان يجعل العواقب سليمة ، فانسلت مني والعبرات تخنقه وصدره مرجل يغلي بالحقد والغضب ! ويقيني انه لولا النظم العسكرية التي تقيده ، ولو كان يملك امر نفسه في تلك الساعة لما تردد ابدا في اطلاق النار علي وعلي كل قادة القوة الآخرين من الضباط . ولكنه انصهر مع غيره في اطار توجهنا العسكري الذي تحكمه تقاليد الجندية الموروثة ، التي قد تبدو مجردة من روح الانسانية في بعض الاحيان .

ومهما يكن من امر ، فقد عاودنا تحركنا من جديد علي ثلاثة وثبات جري تحديدها في خطة العمليات المرسومة ، وقضينا في تحركنا الليل كله وساعات الصباح الاولي حتي بلغنا قرية الشوال عند الثامنة صباحا علي وجه التقريب وهناك جري تجميع القوة وترتيبها مرة اخري ، ولم ندهش بالطبع لمشاعر العداء ،

التي ابداها اهل القرية وغيرهم من الانصار ، ولكن ما ادهشنا حقا هو وجود حشود متفرقة من الناس من مختلف الاعمار ، وهم يتجهون صوب الجزيرة ابا زرافات ووحدانا بعضهم يحمل السلاح الابيض وآخرون يحملون اسلحة نارية محدودة المدى والاثر كالمسدسات وبنادق الخرطوش والرصاص ، وفيهم من كان يتمنطق بكفنه بعد ان ودع اهله الوداع الاخير ، وبالسؤال عن السبب بطل العجب ! حيث علمنا بان الاوامر قد صدرت لهم من الامام الهادي منذ يوم امس الاول بالتجمع في الجزيرة ابا والدفاع عنها ضد هجوم مرتقب ! فادركنا من ذلك العجب العجاب ، اذ كيف تأتي للامام الهادي واعوانه ان يعلموا بامر تحرك القوة التي بين ايدينا ؟ كيف ؟!

ولم يستغرقنا التفكير طويلا لنصل الي حقيقة ان للامام عيونا ترصد داخل القوات المسلحة بين قادة واعوان النظام الحاكم ! والدليل علي مصداقية هذا الافتراض ان احد هؤلاء وهو الرائد مأمون احمد امين شرف كان يداوم علي ارسال تقارير امنية من داخل جهاز الاستخبارات العسكري للامام الهادي في الجزيرة ابا ، وقد تم ضبط شيء من هذه التقارير في وقت سابق ، فقدم الرائد مأمون لمحاكمة قضت بطرده من القوات المسلحة واعدامه ، ثم تعدل الحكم فيما بعد الي السجن المؤبد وأطلق سراحه في قابل الايام وهذا علي سبيل المثال لا الحصر .

من ذلك وقع في روعنا ان أقتحام الجزيرة ابا لن يكون امرا سهلا ميسورا كما كنا نعتقد حتي ذلك الحين ، اضف الي ذلك ان اثنين من مدرعاتنا البرمائية التسع تعطلتا قبل ان نبلغ الشوال ،وتركت معهما فريقا وعربة للاصلاح ، وفي الشوال ارتأي المقدم ابو الدهب ان يتحرك هو بقوات المشاة الي المرابيع للالتقاء بالرائد عثمان الامين وسرية مشاته للتنسيق معه وطلب مني ان انتظر المدرعات المتعطلة ساعة ثم الحق بهم بعدها فانصعت لامره وانا موقن انه لن يقدم علي محاولة الاقتحام قبل وصولنا اليه ، اذ ان المدرعات البرمائية بمثابة رأس الرمح في خطة العمليات ، ولكن المقدم ابو الدهب لم يأبه بالخطة ، فما كاد يلتقي بالرائد عثمان الامين وقواته في المرابيع ، حتي تحرك بكامل القوة في شكل كنفوي سير عادي الي الجزيرة ابا وتصور له ان بوسعه دخول الجزيرة عن طريق كبري الجاسر الترابي دون حرب ، بحسبان ان الامام الهادي واعوانه سيحجمون عن القتال بمجرد رؤيتهم لهذه القوات ، او لعله كان في مخيلة المقدم ابو الدهب

شئ آخر لم يفصح عنه .

مهما كان الدافع فقد اقتحم المقدم بقواته كبري الجاسر وهي تسير في شكل كنفوي عادي وجميع الصف والجنود علي ظهور العربات ، وما ان توسطت العربات ـ وعددها عشرون عربة ـ كبري الجاسر حتي طوقها الانصار من كل جانب ، ثم اعتلوا ظهورها الي جانب اخوتهم من الجند دون حرب او اشتباك . وفوجيء المقدم ابو الدهب بوجود فتحة في كبري الجاسر امام العربة الاولي وفتحة اخري كانت معدة وجري كشفها بعد مرور العربات ! فادرك قادة التحرك ان الامام واعوانه قد اعدوا للدفاع عن الجزيرة ابا عدته ، وانهم من القوة بمكان .

ازاء هذا الموقف التاريخي المثير طلب المقدم ابو الدهب وآزره الرائد عثمان الامين من جموع الانصار التي توعدته وقواته بالويل والثبور فور وصول اشارة الامام الهادي ، طلب منهم ان يذهبوا به للقاء الامام ، وجزم لهم انه لم يأت لحرب وانما جاء لزيارة الامام ونيل بركاته لانه من الانصار ! فاقتضي الامر ان يتصل قادة الانصار بالامام قبل الاستجابة لمطلب المقدم ابو الدهب والرائد عثمان بلقائه وقبل ان يتم ذلك ، كانت عرباتي المعطلة قد تم اصلاحها ووصلت الشوال ، فتحركت بكامل قوتي الي المرابيع ، وبلغت دهشتي مداها ـ انا لا اجد للقوة اثرا فاندفعت بقواتي مسرعا نحو الجزيرة ابا ، وهناك هالني ما رأيت ! وامرت علي الفور مدرعاتي البرمائية باقتحام الماء علي جانبي الكبري ، اربع مدرعات من جهة اليمن وخمسة من جهة الشمال ، فاثار المشهد هلع الانصار وذهولهم ، وسارعوا بنقل الخبر الي الامام .

اقتربت انا بمدرعتي وهي في لجة الماء من مكان المقدم ابو الدهب وهو بين الانصار ، ورأيتهم يحيطون به ويأخذون بتلابيبه وهو يحاول الفكاك من قبضتهم عنوة ، وتحدثت اليه من خارج برج المدرعة ، فاخبرته اني اصدرت اوامر اشتباك مؤجلة ، واني ساطلق النيران عند اول بادرة للاعتداء علي جنودنا ، او لدي سماع صوت اطلاق النار من الجانب الآخر . فوافقني ابو الدهب واضاف ـ باللغة الانجليزية ـ :

ـ سنحاول نحن لقاء الامام الهادي حتي يسمح لنا بالانسحاب ، فكن انت مستعدا للاقتحام اذا لم يستجب الامام لمطلبنا !! فأشرت بكلتا يدى بالايجاب .. وبعدها تصايح الانصار بفتة ، وافسحوا الطريق امام المقدم ابو الدهب والرائد

عثمان الامين واقتادوهما الي داخل الجزيرة ابا ، وبينما كنت غارقا في تقدير الموقف بعد ذلك ، جاءني صوت احد جنودي وهو علي مقربة مني يركب احدي المدرعات ، وكأن من ابناء الجزيرة ابا ، طالبا مني ان اسمح له بالنزول الي كوبري الجاسر ومحادثة قادة الانصار الذين يعرف بعضا منهم ، حتي يقنعهم بخطورة مجابهة مدرعاتنا البرمائية وقوة نيرانها وقدرتها علي الاقتحام برا وبحرا . فسمحت له داعيا الله ان يكلل مسعاه بالنجاح ورأيته يحادثهم وينتقل من موقع لآخر داخل كوبري الجاسر ، ثم انطلق كالسهم داخل الجزيرة ابا ، فساورتني بشأنه الظنون ، ولكني تلمست له الاعذار فيما صنع .

بعد حوالي ساعة عاد المقدم ابو الدهب والرائد عثمان الامين تحيط بهما جموع الانصار وهم يتصايحون لاسماع الآخرين اصواتهم :

- الامام امر باخلاء سبيلهم ومعاونتهم علي الانسحاب ، هيا اعيدو الكبري وراءهم كما كان ، ولا تمسوهم باذي .

فامتزجت عندها صيحات الفرح يطلقها الجند تباعا ، بصياح الانصار وهم يهللون ويهتفون ، وشاركهم الهتاف والتهليل بعض جندنا من ابناء الانصار ، فكان مشهدا مؤثرا ياخذ بمجامع القلوب ، ثم تراجع كنفوي العربات بكامله الي الخلف ، وبعدها امرت مدرعاتي بالخروج من الماء الي الوراء ايضا ، فخرجت جميعها ماعدا واحدة غاصت في الطين عند ضفة النهر ، فتعاون الانصار مع جنودنا في سحبها الي اليابسة .

وحين عاد الانصار ادراجهم عبر الجسر ، علمت من المقدم ابو الدهب والرائد عثمان الامين انهما قد نجحا في خداع الامام ، واوهماه بان القوة كانت في طريقها الي كوستي ، ولكنهما توقفا لزيارته مع جندهم للتبرك وتقديم فروض الولاء والطاعة !! فصدق الامام ما زعما خاصة بعد تعزيز الزعم بيمين غير صادقة ثم قال لي المقدم ابو الدهب : انه والرائد عثمان الامين سيتجهان للقاء الرئيس نميري في كوستي ، وطلب مني اعادة تشكيل القوة والتحرك بها الي ربك .

علي اثر ذلك غادرنا المقدم ابو الدهب والرائد عثمان الامين علي عربة لاندروفر ، وبقي الي جانبي من الضباط الرائد عبد العظيم محجوب والمقدم طبيب عبد السلام صالح والرائد طبيب عبد الغني وبقية قادة الفصائل من

الملازمين وبينما كنا نقوم بتجميع القوة واعادة تشكيلها لفت المقدم طبيب عبد الغني انتباهنا الي مشهد مثير.، حيث كان احد جنودنا يقف حاملا سلاحه الي جوار رجل من الانصار يحمل حربة كبيرة (شلكاية) وهما يتجاذبان اطراف الحديث ويضحكان بصوت مرتفع ، فاتجهنا اليهما ونحن مأخوذون بما نري ، وبسؤالهما تبين لنا ان كليهما من طائفة الانصار ! وانهما - ويا للعجب - ابناء عمومة !! فضرب الطبيب عبد الغني كفا بكف من شدّة العجب وقال :

- كان هذان قبل ساعة يواجه احدهما الآخر ، وكلاهما مستعد لاشتباك مسلح قد يؤدي بحياة احدهما او كليهما ، سبحان الله - بربكم ما جريرة هؤلاء الاهل الطيبين ، تدفع بهم قياداتنا السياسية والطائفية الي هذا المصير ؟

فتجاوبنا جميعا مع مشاعره ونوازعه الانسانية الدفيقة ، ثم بدأ من بعد تحركنا نحو محطة ربك فبلغناها في حوالي الساعة التاسعة مساء ، حيث استقبلنا المقدم ابو الدهب وبرفقته الرائد عثمان الامين وبعض الضباط ، فافردوا لقوتنا اماكن سبق اعدادها وتجهيزها ، ثم طلب مني الرائد ابو الدهب أن أصحبه الي خيمة العمليات حيث يوجد الرئيس نميري وصحبه ، فسرت معه يرافقنا الرائد عبد العظيم .

في خيمة العمليات وجدنا كلا من الرئيس نميري والرائد ابوالقاسم محمد ابراهيم والرائد مأمون عوض ابو زيد والمقدم التاج حمد والمقدم سعد بحر والمقدم عبد المنعم محمد احمد (الهاموش) ، كانوا كلهم ملتفين حول مائدة تتوسط المكان وقد بسطت عليها اوراق خطة العمليات التي الفيناهم يتحاورون حول تفاصيلها ، فابتدرني الرئيس نميري بالتحية ثم طلب مني ان ادلي بتقرير موجز عن الموقف في الجزيرة ابا كما تركناها ، وموقف قوتنا العسكري والاداري ، ففعلت ثم اتجه بالسؤال للرائد عبد العظيم عما اذا كان لديه مزيدا من المعلومات او الرأي ؟ فقدم الرائد عبد العظيم للرئيس اوراقا كان يحملها ، فاحسست انها تقرير استخباري اعده ولم يطلعني عليه ، وبدا علي المقدم ابو الدهب انه يجهل محتوياته ايضا !

اطلع الرئيس عجلا علي ذلك التقرير ، وما كاد يفرغ من قراءته حتي ابتدرني بحركة مفاجئة وهو ينظر الي في تشكك وريبة ، وعلي قسماته علائم الثورة والغضب ، وقال لي :

- محجوب ، انك ولا شك متعب ، فاري ان تأخذ قسطا من الراحة حتي الفجر ، ودع مسئولية القوة للرائد عبد العظيم ، لانك ستصحبنا غدا بالطائرة الي الخرطوم .

قال عبارته بصورة آمرة حاسمة ، فادركت علي الفور ان هذا الامر المفاجيء نتاج لتقرير الرائد عبد العظيم ، ورأيت ان اركن للاستسلام فلا ادخل مع الرئيس في لجاج قد يثير مشاعره فيتأزم موقفي معه . فغادرت خيمة العمليات وانا اتصنع الاعياء واغلف حرج موقفي بعبارات شكر مفتعلة ، وخرج في اثري الرائد عبد العظيم ، فلما ابتعدنا عن خيمة العمليات جبهته في ثورة وغضب بالسؤال :

- ماذا خططت بقلمك الاستخباري الآثم ؟

فضحك ساخرا واجاب بقوله :

- لا تذهب بك الظنون بعيدا يا محجوب ، فانني لم اسجل في التقرير دعوتك لنا بالعودة بالقوة الي الخرطوم لقلب نظام الحكم ، فهذه اشياء تعرف ولا تقال ، ولكني ضمنت التقرير حضك لافراد القوة بالاقتصاد في استخدام القوة ، وسجلت ان هذا كان له اثر في تقليل الروح العدائية اللازمة لخوض المعارك ، وصدقني يا محجوب ، لو لم اذكر ذلك للرئيس فسوف يقوله له غيري من افراد القوة ، وقد يحتسب ذلك قصورا في اداء مهامي الاستخبارية ولا اعتقد انك ترضى لي ذلك .

قال عبارته الاخيرة وهو يبتسم ، واضاف بذات الشعور :

- صدقني ايضا يا محجوب ، انني اشرت بصورة مبالغ فيها ولكنها حقيقة بكفاءتك في التعامل مع الموقف في الوقت المناسب بادخال المدرعات في الماء ، والتهديد المغلف بالاشتباك واظهار القوة ، وقلت له ان هذا كان له اكبر الاثر في موافقة الامام الهادي علي انسحابنا تحسبا لعواقب المواجهة المسلحة . كما اوفيت جدارتك في سحب القوة وتحريكها الي هنا حقها من الثناء ولم اجاوز الواقع ، فانت حقا ذو مواهب قيادية فذة .

قلت له :

- اذا صح ما تقول ، فلماذا وقف مني الرئيس ذلك الموقف الذي ينبيء عن بالغ الغضب ؟!

فاطرق عبد العظيم لحظة ثم قال :

ـ ربما لانه اساسا يتشكك في صدق ولائك للثورة ، فان ماضيك القريب لا يشفع لك في شيء . واخشي ان تكون معلومة تقليل الروح العدائية في الجنود بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير ، فاتخذ للامر عدته ، وحاول جهدك ان تتعامل مع الموقف المرتقب بكل حكمة وحنكة وحيلة ولن تعدم مني العون اللازم بكل سبيل .

وصمت حينا وقال بنبرة ملؤها حرارة الصدق :

ـ ارجو ان تثق فيما قلت يا محجوب ، وان تتأكد من صدق مشاعري نحوك ولا تنسي اننا دفعة .

قلت له مطمئنا :

ـ لا حيلة لي ، اصدقك واشكرك ، وساحاول ان اتغلب علي مشاعري السلبية هذه بنوم عميق طويل .

ـ يا بختك !

قالها عبد العظيم ساخرا وانصرف عني . فاتجهت الي المنزل الذي اعد لمنامنا ، كنت قلقا بعض الشيء فجلست علي مقعد وثير وشرعت افكر في الموقف وما يمكن ان ينجم عنه ، ثم وجدتني بحاجة الي التنفيس عما يضطرب في دواخلي من احاسيس جياشة فامسكت بالقلم وبدأت اسجل في مفكرتي بصورة عفوية سلسلة الاحداث الاخيرة ومواقفي حيالها ، ولم ادر كم مضي علي من الوقت قبل ان انهض راضيا واتجه الي الفراش واسلم نفسي لسلطان الكري حتي فجر اليوم التالي ، حين استيقظت في حوالي الساعة الرابعة والنصف صباحا مع غيري من الضباط والصف والجنود ، فالفيت المعسكر اشبه بخلية النحل .

عند الساعة الخامسة اوبعدها بقليل التقيت بالرئيس نميري مرة اخري في خيمة العمليات في جمع من اعوانه ، فابتدرني امامهم بما يشبه الاستجواب ، ودار بيننا حوار افلحت بكثير من الذكاء ان اخلص منه نجيا !! وكان لتعليقات وافادات الاخوين المقدم ابو الدهب والرائد عبد العظيم الفضل الاكبر في محو مشاعر الرئيس السلبية تجاهي ، وخلصنا اخيرا الي قرار الرئيس باصطحابي معه علي طائرة الانتينوف المزمع اقلاعها الي الخرطوم في الثامنة من ذلك الصباح ، علي ان اعود في نفس اليوم مع قوة المدرعات صلاح الدين وبعض حاملات

الجنود ، اضافة لاحضار ما يلزم من ذخيرة ومعدات للقوة المدرعة .

كان الرئيس نميري قد اتخذ قراره السياسي والعسكري القاضي باحتلال الجزيرة ابا ، ومداهمة الامام الهادي واعوانه من الانصار والاخوان المسلمين واتباع الشريف حسين الهندي ، فامر بتحريك قوات من القيادات الشرقية والوسطي والخرطوم الي منطقة العمليات ومركزها بمدينة (ربك) ومنطقة الجزيرة ابا .

في الوقت المحدد لاقلاع طائرة الرئيس تجمع عدد غفير من اهل ربك في المطار ، حيث كانت تقبع طائرة الانتينوف الروسية ، وما ان اقبل عليهم ركب الرئيس حتي تعالت هتافاتهم بحياته وحياة الثورة وكانوا يرددون :

- العنف الثوري واجب وطني .
- حاسم حاسم يا ابو القاسم .

فحرك الهتاف الداوي مشاعر الرائد ابو القاسم الوطنية فاستأذن الرئيس في مخاطبتهم واذن له ، كان بالغ الحماس والانفعال ، وقال فيما اذكر :

- ان ثورتكم المظفرة ستدك معاقل الضلال والتخلف ، ولن نسمح نحن قادتها بوجود فئة مارقة مضللة ، تريد ان تخلق لها دولة مسلحة طفيلية داخل دولتنا الشرعية ، سنجابههم ونقضي عليهم بالقوة المسلحة اولا ، ثم بالعلم والتوعية لنقضي علي ما خلفوه بينكم من جهل وضلالات كاذبة ، ستعمل الثورة علي تحرير ارادتكم من التبعية ، وتجعلكم المالكين للاراضي الزراعية ، فالارض لمن يفلحها . كذلك سنقيم في منطقتكم المصانع ذات الحجم والمستوي العالميين ، وبهذا نقضي علي الفقر الذي كرسوه في حياتكم عبر السنين ، وسوف نشيد المستشفيات ومراكز العلاج لنقضي علي ما خلفوه من مرض ، وسوف ننشيء لكم نقاط الشرطة لتأمنوا وتطمئن نفوسكم وكل هذا بالطبع لن يتم الا بتعاونكم معنا في القضاء علي الفقر والجهل والمرض وعدم الاستقرار والتخلف الفكري والاجتماعي .

كانت الجماهير الحاشدة تقاطع الرائد ابو القاسم بين الفينة والاخري بالتصفيق والهتاف (حاسم حاسم يا ابو القاسم) (العنف الثوري طريق الثورة) .

ثم اعتلي منبر الخطابة الرائد مأمون عوض ابو زيد فلم يخرج كثيرا عما سبقه اليه ابو القاسم ، ورغم ذلك ظلت الجماهير تواصل الهتاف للثورة وقادتها حتي اقلعت الطائرة . وكان الرئيس نميري يرقب هذا المشهد بكثير من الانشراح

والرضا ، وفي فورة الحماس طلب الرائد ابو القاسم محمد ابراهيم من الرئيس نميري ان يسمح له بالتخلف في مدينة ربك لقيادة العمليات المرتقبة ، فاستشار الرئيس الرائد مأمون في بعض الامور والمهام العاجلة ، ثم خلص لضرورة اصطحاب الرائد ابو القاسم معه الي الخرطوم ، ليتم التخطيط والتنسيق للعمليات بقيادة الجيش ، علي ان يعود الرائد ابو القاسم بنفس الطائرة في نفس اليوم لبداية العمليات . فاعتلي الجميع سلم الطائرة ، وعقد الرئيس نميري يديه فوق رأسه وهو يواجه الجماهير كناية عن التعاون والتضامن ثم حياها مودعا عند باب الطائرة وهي تتأهب للاقلاع نحو الخرطوم .

واذ كنا في طريق العودة الي الخرطوم ، دار الحديث حول الوعود التي قطعها الرائد ابو القاسم محمد ابراهيم لحشود المودعين في المطار ، وضرورة الوفاء بها وجعلها حقيقة واقعة ، وخاصة المشاريع التنموية الكبري ، والتي ستتبعها تلقائيا المنشآت الخدمية من مدارس ومستشفيات ونقاط امن وغيرها ، وقد تحقق الحلم الكبير في قابل الايام ، فاقامت ثورة مايو مشاريع التنمية العملاقة في تلك المنطقة ، وعلي رأسها مشروع سكر كنانة الذي يعد اكبر مشاريع السكر في العالم اجمع ، ومصنع ربك للاسمنت ومصنع سكر عسلاية وكوبري كوستي الجديد .

ومن مطارنا الحربي بالخرطوم اتجهت انا مباشرة الي سلاح المدرعات لتجهيز وقيادة قوة المدرعات صلاح الدين وحاملات الجنود المدرعة ، وكم كانت دهشتي حين وجدت هذه القوة قد تم تجهيزها واسندت قيادتها للرائد حمادة عبد العظيم ! وصدر لي الامر بتجهيز قوة الدبابات (ت ٥٥) الروسية للتحرك بها في اليوم التالي صوب مدينة ربك عن طريق السكة حديد حتي سنار ، ومن هناك عن طريق مقاطع حتي ربك ، وهذا يوافق خطة القيادة العامة التي شاركت في وضعها من قبل .

الفيت عاصمة البلاد مرجلا يغلي بالثورة والتحفز ، حيث وضعت جميع وحدات القوات المسلحة في حالة استعداد قصوي ، وسدت المداخل والطرق المؤدية الي العاصمة بحراسات مسلحة لضبط امنها وحركتها . واخذت تقارير الموقف ترد علي الوحدات تباعا عن حالة الامن وتجمعات الانصار واحتمالات تحرشهم بالقوات المسلحة .

في غمرة هذه الاحداث والمشاعر الملتهبة خرجت قوة من سلاح المهندسين بام درمان عدد افرادها تسعة وثلاثون فردا ، يقودها الرائد محمد الحسن (جنكيز) محمد عثمان ، متوجهة الي منطقة ودنوباوي بام درمان ، فلما قاربت جامع السيد عبد الرحمن المهدي ، تحرشت بها جموع الانصار المسلحين ، وكان الرائد جنكيز داخل مدرعة فرت ، وافراد قوته علي ظهور عربات عادية ، فحاول الرائد جنكيز مخاطبة الانصار وتهدئة ثائرتهم ونصحهم بعدم اللجوء للعنف والتفرق ، وبينما كان يفعل ذلك وهو علي ظهر مدرعة الفرت ، كانت جموع الانصار تقترب منه وتحاصر افراد قوته وفجأة صاح قادة الانصار آمرين اتباعهم بالانقضاض والفتك بقوة العسكر ! واعملوا فيهم اسلحتهم النارية والبيضاء حتي قضوا علي كل افراد القوة وضباطها !! ثم جنحوا بعد ذلك الي مزيد من العنف والانتقام فذبحوهم ذبح الشياه في مجزرة بالغة الوحشية والضراوة . وبرر قادة الانصار المشاركين في الحدث مسلكهم بان القوة العسكرية بادئتهم بالتحرش واطلاق النيران ..

فجر هذا الحدث المأساوي براكين الغضب والحقد في نفوس الجند من وحدات العاصمة القومية قاطبة ، ولم يك وقعه علي قادتهم اقل شأنا ، فتحركت قوة تدعمها المدرعات بقيادة المقدم بابكر النور يصحبه الرائد ابو شيبة والرائد فاروق عثمان وبعض كبار الضباط ، واتجهوا قاصدين ارض المأساة ولظي الغضب فحاصروا المكان باسره ، ومن عجب ظل الانصار بداخله ولم يبرحوه بعد ، فانتشر جنود القوة يجمعون اشلاء رفاقهم ونار الثأر تضطرم بين جوانحهم وتعمي ابصارهم ، فما كادوا يفرغون حتي اطلقوا نيران مدافعهم ومدرعاتهم وبنادقهم علي مواقع الانصار وتجمعاتهم ، ولم يمض علي ذلك ساعة واحدة حتي تلاحمت ارواح هؤلاء جميعا بارواح ضحاياهم من الضباط والجند ! فاذا القاتل والقتيل الخاسر هو السودان وشعبه ، وربح الشيطان جولة اخري في صراعه مع [illegible] ابناء آدم . اما ودنوباوي فقد اضحت بقعة تضاف الي محارق الانسان في التاريخ بما شهدته من ايغال في العنف وسفك للدماء .

انصرفت انا من سلاح المدرعات لتكملة اعداد كتيبة الدبابات التي اسندت الي قيادتها الي ربك ومنها الي الجزيرة ابا لدعم وتعزيز العمليات الجارية هناك . واقتضي اداء بعض شئون القوة الادارية مني ان اتصل بفرع الامدادات الحربية

بالقيادة العامة حيث التقيت بمحض الصدفة بكل من المقدم وقتها الرشيد الطيب دياب والمقدم محمد المهدي ميرغني من سلاح الطيران وكلاهما من طائفة الانصار واتباع حزب الامة ، فادركت بمجرد رؤيتهما مشاعر الالم والفجيعة التي تسيطر عليهما بفعل الاحداث المأساوية العاصفة ، ادركت ذلك بحدسي قبل ان يفصحا لي عنه بمرارة وحزن ، وكنت علي علاقة وطيدة بالمقدم الرشيد الطيب دياب منذ ان كان احد اساتذتي في الكلية الحربية ، ثم عملت معه لفترة مؤقتة بالاقليم الجنوبي، والفت لعبة البولو بين قلبينا وميولنا في بوتقة الفريق وساعات اللعب ، اضف الي ذلك علاقتنا المشتركة بالاخوين فاروق عثمان ، والرشيد نور الدين ، وان لم يكن الرشيد الطيب دياب عضوا في تنظيم الضباط الاحرار ، لهذا كله انتحي بي المقدم محمد المهدي ، وصارحني بمشاعره تجاه ما يحدث في البلاد ، ثم قال انه والمقدم الرشيد دياب وبعض الاخوة الضباط المنتمين لطائفة الانصار ، وسواهم من المعارضين لثورة مايو وقيادتها ، بصدد القيام بعمل مضاد لوقف نزيف دم الانصار المستهدفين ، وقد قطعوا في التدبير شوطا بعيدا ، ولكن نجاح الحركة رهين بوجود عنصر مدرع ، وقد نما الي علمهم اني سأقود دبابات (ت ٥٥) الي الجزيرة ابا فاذا امكن استخدام هذه القوة اضافة لما بحوزتهم من القوات وعناصر سلاح الطيران في مواجهة مايو وقادتها ، فان النجاح والتوفيق لا شك سيحالفهم ويزول عن صدر الشعب هذا الكابوس المقيت

فسألته عن حقيقة الموقف العسكري ومدي مشاركة سلاح الطيران في العمليات المضادة ، فافضي لي المقدم محمد المهدي بان سربا من مقاتلات الجت بروفوث الانجليزية تحت امرة المقدم محمد ميرغني قائد جناح المقاتلات يشارك في العمليات هذا بالاضافة الي اشراك المدربين والخبراء الروس الذين يقودون الطائرات الروسية ميج ٢١ ، لعدم توفر الطيارين السودانيين الذين يمكنهم قيادة هذا النوع من الطائرات ، حيث كانوا مايزالون تحت التدريب .

قلت له :

ـ اذن هذا يعني ان قيادة الاتحاد السوفيتي تتدخل في العمليات ، والدليل علي ذلك اننا سبق ان طلبنا من خبراء المدرعات الروس العاملين معنا في السلاح اصطحابنا كخبراء فنيين فرفضوا ذلك ، بحجة انهم لا يتدخلون في

الشئون السياسية والعسكرية الا بموافقة حكومتهم وامرها !!

فعلق المقدم محمد المهدي علي افادتي في نبرة حاسمة وقال :

- انهم يشتركون بتوجيه من حكومتهم .

ثم سألته عن موقف الطيران المصري الرابض في قاعدة وادي سيدنا من العمليات ، فاجاب:

- طلب العميد طيار عوض خلف الله قائد سلاحنا الجوي من العميد طيار محمد حسني مبارك قائد الطيران المصري بقاعدة وادي سيدنا الجوية ، المشاركة بقاذفات قنابل تستخدم القنابل المصرية الموجودة بالقاعدة ، ولكنه نصح بعدم اللجوء لاستخدام مثل هذه القنابل لما لها من اثر فاتك كبير يفوق كثيرا نطاق الجزيرة ابا وحجم العمليات فيها فلم يقنع هذا الرأي العميد طيار عوض خلف الله ، وهو مايزال علي اتصال بقيادة الجيش التي هي بدورها علي اتصال بالقيادة المصرية الآن ، ولا اعلم ما سيتمخض عنه الامر من قرار فيما بعد .

قلت موجها حديثي للرجلين معا :

- انا شخصيا لا امانع في اشراك القوة التي سأقودها في اي عمل مضاد ، شريطة ان اكون علي علم بكل ابعاد الموقف العسكري والقوة المشاركة في ذلك العمل وخطته ومراميه ، ولكني بحساب عامل توازن القوي ، اري ان الذين يقفون مع ثورة مايو وقيادتها في مواجهة الانصار وحلفائهم الآن ، هم كل قوي اليسار في السودان داخليا ، وان لهم سيطرة كاملة علي القوات المسلحة بعد توحدها تحت امرتهم ، خاصة بعد ذبح الانصار المهين للضباط والصف والجنود في ودنوباوي ، مما افرز روحا عدائية انتظمت افراد القوات المسلحة جميعهم تجاه الانصار . اضف الي كل هذا ان الاتحاد السوفيتي ومصر تقفان موقف المساندة لثورة مايو وقادتها ، فجماع هذه العوامل يجعل نجاح العمل المضاد امرا عسيرا ان لم يكن مستحيلا تماما .

ارسل المقدم الرشيد دياب زفرة يائسة وقال :

- اعتقد انه لا فائدة ، فلندع محجوب وشأنه فوافقه المقدم محمد المهدي محبطا ، وودعتهما معتذرا ومضيت صوب وجهتي .

جدير بالذكر - اخي القارئ الكريم - انه حول اشتراك الشقيقة مصر في احداث الجزيرة ابا ، راج اتهام مفاده ان الطيران المصري الذي كان بقاعدة وادي سيدنا

خلال الاحداث وقبلها شارك في قصف الجزيرة ابا بصورة مباشرة من الجو ، وان العميد طيار وقتها محمد حسني مبارك هو الذي قاد سرب الطائرات المصرية التي أنيطت بها مهمة القصف ، وقد اثار هذا الاتهام المحامي عبد الوهاب بوب في جريدة (السياسة) ، ولم يعقب الرئيس محمد حسني مبارك علي مقال الاستاذ عبد الوهاب بوب بشئ ، وهكذا ظلت الحقيقة غائبة ومعلقة ، ولا مجيب !!

بعد افتراقي عن الاخوين محمد المهدي والرشيد في ذلك اليوم ، توجهت من القيادة العامة الي سلاح المدرعات ، حيث اكملت الاستعداد للرحلة وتحركت بالقوة في حوالي الساعة السادسة مساء نحو الجزيرة ابا ، تعتمل في نفسي مختلف المشاعر والنوازع المتضاربة .

وما كدت ابتعد عن الخرطوم بحوالي عشرين كيلومترا ، حتي لحق بي كل من العميد احمد عبد الحليم والمقدم الرشيد دياب علي متن عربة روسية تتبعها حاملة جنود تقل بعضا منهم . كنت وقتئذ اعتلي ظهر الدبابة الاولي واقود حركة الكتيبة المدرعة ، فاقترب الرجلان مني وصاح العميد احمد عبد الحليم يناديني ويطلب مني التوقف ففعلت ، وحين رأيت الي جانبه المقدم الرشيد دياب ساورني الظن اولا بانه قد يكون وضع مخططه الانقلابي موضع التنفيذ ، ثم سرعان ما تواري هذا الخاطر وانا اسأل نفسي عن سر اصطحابه للعميد احمد عبد الحليم للقائي ؟ ولم يدعني هذا نهبا للظنون والهواجس طويلا ، فخاطبني بلهجة صارمة :

- محجوب ، اسلم قياد هذه القوة للقائد الثاني الرائد عبد الصادق ، وستعود انت معنا الي الخرطوم لمقابلة الرئيس نميري ، وهذه اوامره !!

تساءلت في حيرة عن جلية الامر ، فاجابني العميد احمد :

- نحن وانت سننفذ الامر الصادر لنا من الرئيس وحسب .

فانصعت لواقع الحال علي مضض وتوجس وفي نفس الوقت حاولت - اثناء تسليمي للقوة وقيادتها للرائد عبد الصادق - ان اجد سانحة انفرد بالمقدم الرشيد دياب علي اجد لديه ما ينقع غلتي لمعرفة ما وراء الاكمة من كثبان ، فافلحت في ذلك ، اذ افضي الي بان معلومة قد وردت وهي تنبيء عن محاولتي استخدام القوة الاولي التي اتجهت بها تحت قيادة ابو الدهب الي الجزيرة ابا في

عمل انقلابي !! وهذا ما جعل قادة النظام يتوجسون خيفة من تكرار المحاولة ، خاصة وهذه القوة اعظم قدرة وكفاءة قتالية ، لانها دبابات (ت ٥٥) وادهي من ذلك واخطر في اعتقادهم انني اضحيت القائد الاول والمسئول هذه المرة !

وتساءلت عمن يكون قد ادلي بتلك المعلومة ، اتراه يكون ابو الدهب ؟ ام هو عبد العظيم؟ فلم يسمع او يشهد الواقعة احد سواهما . فقال :

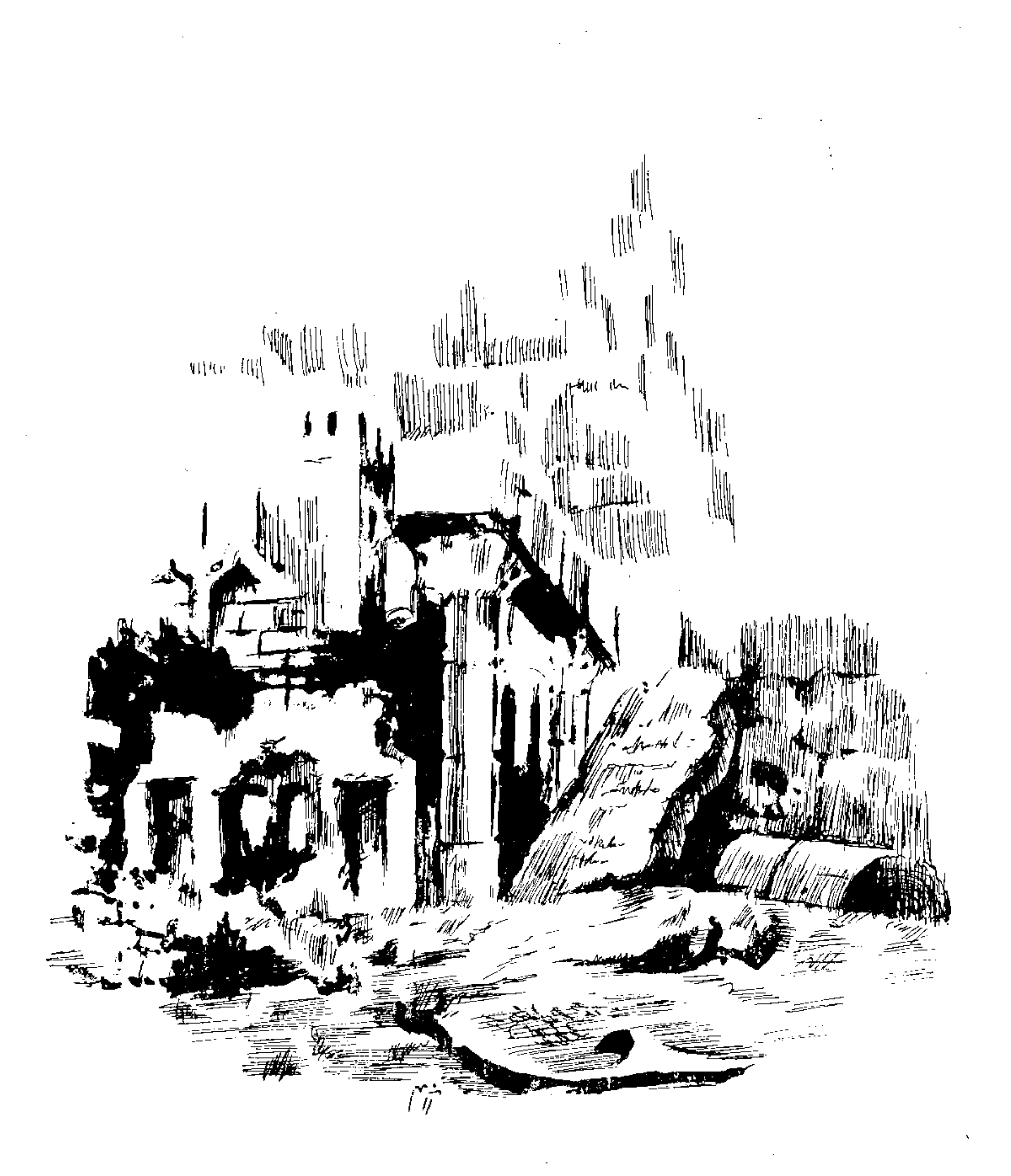
ـ قد يكون احدهما ، ولكنه حتما قد افضي بهذه المعلومة بصورة عفوية غير مقصودة ، فقد اتصلت بهما فانكر كلاهما ان يكون هو المصدر ، وهذا ما جعلني اصطحب العميد احمد للقائك فنحن قادمان توا من القيادة العامة . وعليه فاني انصحك بعدم الاعتراف باي مخطط تآمري حتي ولو واجهك به البعض .

فشكرته علي ذلك الاهتمام بامري وعدت معهما الي القيادة العامة ، واذ كانت العربة تنطلق بنا رماني العميد احمد بقوله :

ـ احنا مش حنخلص من متاعبك يا محجوب ؟ ايه شغل العيال اللي بتعمله ده ؟!

وكانت اسئلته مدخلا لحوار ساخن حول هذا المضمون ، فانكرت له جملة وتفصيلا صلتي بما يوجه الي من اتهام كاذب ، وسقت مقالتي اليه في حماس وغضب مفتعلين لكي يصدق براءتي ، ولعله قد فعل او علي الاقل وصلت به الي درجة من الشك المعقول ، وهكذا كان حالي مع الرئيس نميري ، الذي اختتم مواجهته لي بصدور امر بوضعي في الايقاف ثم التحقيق معي بعد انجلاء الاحداث . وتم تشكيل لجنة التحقيق برئاسة العقيد الفاتح بشارة والعقيد محمد الخير عمر ازرق والرائد صديق حمد ، ورغم تأكد لجنة التحقيق من صدق الاتهام وحقيقة الواقعة فقد جاء قرارها ببراءتي مما نسب الي ! اذ كان رئيس اللجنة واعضاؤها من غلاة الانصار ، وهكذا بعون الله وتضافر الرفاق خلصت من جديد نجيا .

وكيفما كانت حقائق الاشياء ، فلقد انجلي غبار احداث الجزيرة ابا عن هزيمة مرحلية لطائفة الانصار واحلافهم في جبهة الميثاق والاتحادي الديمقراطي ، وعن نصر مؤقت لقوي اليسار وثورة مايو وقيادتها حيث استشهد الامام الهادي المهدي بمنطقة الكرمك وسقط مئات من الشهداء والضحايا من اتباعه وحلفائه لعل من ابرزهم المناضل الشهيد محمد صالح عمر احد قادة جبهة الميثاق الاسلامي .



الثورة تأكل بنيها !



■ الحلقة السابعة عشر ■

الثورة تأكل بنيها

توالت الاحداث السياسية بعد معركة الجزيرة ابا المأساوية ، الذي راح ضحيتها امام الانصار وزعيم حركة المعارضة الامام الهادي المهدي والذين صحبوه في رحلة الخروج والهجرة الي بلاد الحبشة ليتخذوها ارضا يواصلون منها جهادهم ضد مايو واحبارها ، ولكن الاقدار لم تمهلهم .

كما شارك في عرس الفداء ما يقرب من خمسمائة شهيد من اتباع الامام الراحل واحبار مايو معا في ارض الجزيرة ابا واحياء العاصمة القومية فكان الحدث جللا بكل المقاييس ، وظلت الرايات الحمر مشرعة كانها نذير بالدم يجري بين حين وآخر ، وذلك ما كان .

في الجانب الآخر ظن قادة مايو واحبارهم انهم قد قضوا تماما علي ما اسموه (فتنة الانصار) وعجموا عودهم ، واجتثوا جذور قوتهم الي الابد !! ولكن ذلك كان وهما وبرقا خلبا ، فلم يلبث الانصار الا قليلا حتي تجمعوا في تنظيم سياسي عسكري يعمل داخل السودان وخارجه ، وكان صاب الفجيعة ومردودها النفسي من اقوي الدوافع التي عجلت بنمو حركتهم المعارضة ، فعادوا كما كانوا بالامس قوة سياسية وعسكرية لا يستهان بها ، وتحقق فيهم بذلك ما اورده ابي - رحمه الله - في كتابه (معالم من الفكر والتراث السوداني) حين وصف الانصار وشبههم بنار القفل ، والقفل نوع من الاشجار الباسقة الضخمة ، ولكن كيانها خفيف الوزن ، يتخذها اهل الاقاليم التي تنبت فيها وقودا وصلاء ونارا للقرآن ، فلا تخمد جذوتها بيسر وسهولة ، وتتقد حتي يحسب البعض ان اوارها سيظل متوهجا بلا انقطاع ، ولكنها كالكائنات جميعا ، لها اجل مسمي لا تعدوه ، وهي بين الميلاد والفناء تذوي وتخمد مرات عديدة ، ثم تعود نارا تلظي وكأنها انسان يتعاوره المرض والفتوة !!

كانت نشوة الانتصار وروح الظفر قد اسكرت سدنة الثورة واحبارها ، وظنوا ان سفينة الحكم قد تجاوزت كل خطر ، وانها بمأمن من الانواء والاعاصير ، فانكفأوا علي انفسهم يدبر بعضهم لبعض ، ودب الخلاف بينهم من جديد

ثم انتقل النقاش الى داخل مجلس قيادة الثورة يوم الاثنين حوالي العاشر من ابريل ١٩٧١م حيث جرت مواجهة شرسة بين الاعضاء بابكر النور وهاشم العطا وفاروق عثمان من جانب ، والرئيس نميري وبقية الاعضاء في الجانب الآخر ، وتبودلت الانتقادات والاتهامات بغير تحفظ ، واتهم بابكر النور ورفيقاه الرئيس نميري وصحبه بالتبعية المطلقة للجارة مصر وزعيمها الرئيس عبد الناصر ، وانهم معوقون لمسار الثورة التقدمي ، كما اتهم الرئيس نميري هؤلاء بتبعيتهم السلبية للاتحاد السوفيتي الذي يسعي لاخضاع السودان لمطامحه السياسية والاقتصادية والعقائدية ، عن طريق قلب نظام الحكم والاستيلاء علي السلطة بواسطة قادة وجماهير الحزب الشيوعي ومعونة هؤلاء الاعضاء ومن يقف خلفهم من العسكريين العقائديين والمضللين ، وانه ـ من جراء ذلك ـ لم تعد لمجلس قيادة الثورة هيبة ولا قدرة علي كتمان اسراره ، لانها اضحت تنقل جهارا للخاصة والعامة . وذلك امر لايجب السكوت عليه ، ولابد من حسم ثوري لهذا الخلط في الاوراق ، لتبرأ الثورة في قيادتها اولا ، ثم يسلم لها كيانها الثوري ثانيا لتنطلق في امن واقتدار نحو غاياتها .

في حوالي الثالثة من ظهيرة يوم ١٥ ابريل ١٩٧١م اجتمع لدي بمنزلي كل من الاخوة عثمان الحاج حسين ابو شيبة وهاشم العطا وعبد المنعم محمد احمد وبابكر النور وفاروق عثمان ومحجوب ابراهيم (محجوب طلقة) فافضوا الي بما حدث من خلاف سياسي ثم طلبوا مني الاشتراك معهم في عمل تقدير موقف ، ووضع خطة لتنفيذ انقلاب عسكري في نفس ذلك اليوم اذا ما اقدم الرئيس نميري وصحبه علي عزلهم واعفائهم من عضوية المجلس خلال لقائه بهم المرتقب في مساء نفس ذلك اليوم . فبقيت معهم حتي الساعة السادسة ، ونحن نتدارس تقدير الموقف وطرق الحل المقترحه ، ونبني علي ذلك خطة الانقلاب ! ثم جري الاتفاق بيننا علي ان اقوم انا وعبد المنعم الهاموش باعداد الخطة المتعلقة باشتراك المدرعات ، وان يقوم ابو شيبة بوضع خطة اشتراك قوة القصر الجمهوري ويقوم هاشم العطا بوضع خطة لاشتراك بقية وحدات العاصمة الاخري ، وبعد اكتمال تلك الخطط تعرض علي بابكر النور للتنسيق والموافقة النهائية قبل الساعة السادسة مساء ، علي ان تتم لقاءات عاجلة بالضباط المعنيين تحت قيادة التنظيم التقدمي للتنفيذ .

ومن عجب فقد كان عدد الضباط من مختلف الرتب ممن يؤمل اشتراكهم في تنفيذ المخطط ، يربو علي الثلاثين ضابطا ، وجميعهم قادة لوحدات مقاتلة ، جري الاتصال بهم والتنسيق بينهم بصورة سرية مذهلة وضعا وانجازا ! ولا غرو ان يحدث ذلك من المايسترو بابكر النور ، ذلك العقل المدبر .

علي الجانب الآخر ، لم يهمل الرئيس نميري واعوانه التحسب لمثل ذلك التدبير ، فامروا بوضع قوات المظلات والاستخبارات العسكرية والمدرعات في حالة استعداد قصوي غير معلنة ، حيث حضر العميد احمد عبد الحليم الي سلاح المدرعات عند التاسعة مساء ، ليفاجأ بوجودي ومعي المقدم عبد المنعم محمد احمد ، وقبل ان تذهب الظنون بالعميد اي مذهب ، بادر الهاموش فانتحي به جانبا ، وافهمه بانه هو الذي طلب مني الحضور في تلك الساعة ، وذلك لاداء بعض المهام التدريبية ، وانه - في حقيقة الامر - انما يرمي لاعتقالي تحفظيا بغير اعلان !! ولما كان العميد واقع لشوشته - كما يقول اخوتنا المصريون - تحت وطأة سحر الهاموش وخداعه فانه لم يتردد لحظة في تصديق فريته تلك ، ومن ثم اهمل وجودي بينهم وانصرف يباشر بعض المهام العاجلة ، وهكذا اضحيت في موقع قيادة المدرعات الانقلابية ، وعلي صلة مباشرة بكل عناصرها من الضباط والصف والجنود ، واجرؤ لاقول بثقة كاملة لا يتطرق اليها الشلك ، انه في ذلك اليوم وحسب الخطة الموضوعة وعناصر تنفيذها ، كان الرئيس نميري وبطانته في مجلس قيادة الثورة ومن والاهم من الضباط ورجال السياسة كانوا كلهم في قبضة المايسترو الفولاذية ! ولو انه - اي المايسترو بابكر النور - اقدم علي تنفيذ انقلابه او ما سماه بالثورة التصحيحية في ذلك الحين لحالفه التوفيق بغير جدال اذ ان جميع الذين انقضوا علي هاشم العطا واحبطوا تدبيره يوم ١٩٧٠/٧/٢٢ من ضباط وصف وجنود المدرعات كانوا ضالعين في تلك الخطة ومن اهم عناصرها التي تأتمر باشارة القيادة التقدمية !

ولكن حدث مالم يكن في الحسبان ، اذ انتهي اجتماع مجلس قيادة الثورة المرتقب الي وفاق ودي وتصاف وتصفية لاسباب الخلاف بين الرفاق الفرقاء ولو مرحليا ! وهذا غير ماكان يرجي له من نتائج ثورية حاسمة ، وازاء ذلك اصدر المقدم بابكر النور امره سرا لجميع وحدات الاستعداد في الخطة بالغاء التنفيذ الي اجل غير مسمي ، فانقلب هؤلاء ساخطين محبطين ، وظنوا - وليس كل الظن

اثم ـ ان القيادة الثورية التقدمية تقيدها وتشل حركة حسمها الثوري مشاعر اهلنا الطيبين في السودان وهم منهم ، ولما كانت الثورة هرة تأكل بنيها ـ كما يقولون ـ فقد خشي الحواريون علي هؤلاء القادة من انقلاب الهرة عليهم يوما لتنهش اجسادهم بمخالبها المتمثلة في الرئيس نميري وصحبه من اعضاء المجلس ومن والاهم بثورية او لمصلحة شخصية .

وكان لهذه الخشية ما يبررها من التناقضات الكامنة تحت رماد الوفاق الطارئ ، اذ لم تمض سوي ايام قلائل حتي اعد الرئيس نميري واعوانه لهذا الامر عدته ، فعقدوا مع مناصريهم من احرار مايو اجتماعات متوالية ، تدعو في ظاهرها الي اليقظة والاستعداد للدفاع عن الثورة ، وتبطن في طياتها قرار بتر من اسموهم بالثلاثة المعوقين : بابكر النور وهاشم العطا وفاروق عثمان . فدعاهم الرئيس نميري لاجتماع حاسم هام ، فظنوا ان ذلك الاجتماع لن يتمخض الا عن صياح كاذب وجعجعة ووعيد اجوف : هجم النمر ، هجم النمر !

ولكن هجوم النمر هذه المرة كان حقيقة واقعة لامراء فيها ، حيث فاجأهم نميري بقرار ابعادهم ! فأسقط في ايديهم واذهلتهم المفاجأة ، اذ لم يكونوا قد اعدوا للامر عدته كما فعلوا من قبل ، وحسبوا انهم يوما عليه قادرون ، ولكن هيهات ، فما ان تم اعلان عزلهم من مجلس قيادة الثورة عبر اجهزة الاعلام وقنواته الرسمية ، حتي زالت عنهم تلك الهالة السلطوية وبريق الموقع الكبير ، فاضحوا عبادا غير مكرمين ، وان لم يتخل عنهم رفاق الفكر والعقيدة والتنظيم التقدمي ، ولكن هؤلاء كانوا متفرقين عاجزين ، فاستكانوا معهم للقرار المفاجيء ريثما تعاودهم القدرة علي الحركة من جديد .

شرع الرفاق في تؤدة واحكام يعدون انفسهم لكرة اخري يباغتون فيها عدوهم ويعلنون للجماهير نجاح ثورتهم التصحيحية ، وقبل ان يبلغوا ذلك ، استدعاني الاخ خالد حسن عباس القائد العام ووزير الدفاع وقتها الي لقاء بمكتبه ، وكان يخامره الظن بانى من الموالين للاخوة بابكر النور ورفاقه ، وبعد نقاش مستفيض استخدمت فيه كل ما اوتيت من ذكاء ومكر ودهاء ومعرفة ببواطن الامور ومواطن القوة والضعف هنا وهناك استطعت ان اغرس في مخيلته قناعة او علي الاقل شيئا من شك معقول حول علاقتي بالرفاق الموتورين مؤكدا له ان ولائي للثورة وقيادتها الباقية ما يزال موصولا لا تنال منه عوارض الاحداث

و سفروف . عند ذلك انفرجت اساريره وحدثني بانه قد طلب من الاخوة الاشقاء في مدرسة التوجيه المعنوي بمصر ان يخصصوا لنا خانتين في الدورة التدريبية القادمة وانهم قد استجابوا مشكورين للطلب ، وعليه فقد قرر ايفادي والرائد صلاح عبد العال مبروك للدراسة والتأهيل دعما لقوات شعبنا المسلحة بالخبرة في مجال التوجيه المعنوي . ووعد خالد بالنظر في امر نقلنا لفرع التوجيه المعنوي بعد عودتنا من تلك الدورة .

ثم شفع القول بالعمل ، فلم تمض علي ذلك الا ايام معدودة ، حتي كنت والاخ صلاح عبد العال من بين طلبة فرقة التوجيه المعنوي بقاهرة المعز لدين الله الفاطمي . وعدنا منها في شهر مايو ١٩٧٠ بعد ان احرزنا الدرجات العلي في الفرقة ، فصدر قرار القيادة العامة بنقلي في موقع القائد الثاني لفرع التوجيه ، وفي نفس الوقت رئيسا لتحرير جريدة القوات المسلحة وقائدا لشعبة الحرب النفسية بالفرع . اما الاخ صلاح عبد العال مبروك فقد ظل في موقعه قائدا لمدرسة سلاح الاشارة كما كان من قبل .

وتوالت الاحداث ، حتي شهر يونيو ١٩٧٠ تقريبا حيث اتصل بي تليفونيا الرائد مأمون عوض ابو زيد وقتها ، واقترح ان يلتقي بي في منزلي ليتناول معي وجبة الغداء ويحادثني في امر هام ! فاجبته لما طلب ، واذ كنا علي المائدة نتناول الطعام ابتدرني بقوله :

- محجوب لماذا تستغل سماحة الثورة معك بمثل هذا السوء والجحود والطغيان ؟!

القي بعبارته واخذ يتفرس مليا في ملامحي وخلجاتي ، شأن قائد جهاز الامن وخبيره المحنك ، ودهشت للعبارة المفاجئة الخطيرة . فانتفضت في حيرة وانكار وسألته :

- مأمون ماذا تعني ؟

قال في حزم وثقة :

- لا تدعي الغباء ، فقد وقع بايدينا ما يفضح امركم جميعا ، وكشفنا منذ ساعة فقط الرأس المدبر ، ولن يلقي هذا الثعبان منا هذه المرة سوي البطش والهلاك ، وربما يكون هذا شأنكم معه ايضا .

قلت له :

ـ مازلت لا افهم شيئا مما تقول . خبرني بربك يا مأمون عم تتحدث ؟

اجاب وقد بدا عليه الانفعال :

ـ انك تثير حنقي عليك بهذا التغابي المفتعل !

قلت له :

ـ صدقني يا مأمون انا لا افهم شيئا مما تقول . فاذا كنت تتهمني بتآمر جديد علي الثورة وقيادتها فاني اقول لك بكل الصدق : انا هذه المرة في براءة الذئب من دم ابن يعقوب ، رغم كوني فيما سبق من احداث ذئبا يتربص بالثورة ، ولم يكن حالي يومئذ بخاف عليكم ، او علي الاقل كنتم منه في شك عظيم .

نظر الي في ارتياح بالغ وقد هدأت اعصابه كثيرا واردف :

ـ لقد كشفنا منذ ساعة الريال البراني (يعني الزائف) وهو المدعو مزمل غندور ! وكنا في جهاز الامن نتتبع خطاه الآثمة لما يربو علي الشهر ، بعد ان دسسنا بين اعوانه نفرا من رجال استخباراتنا المخلصين .

سألته متعجبا :

ـ وما صلتي انا بذلك ؟

قال مأمون :

ـ اختار مزمل هذه المرة سلاح المدرعات بؤرة لتآمره علي الثورة ، وتوهم انه سيكون مرتعا خصيبا له ، ولما كنت انت من اشجار هذا السلاح الباسقة المثمرة عسكريا ، فقد ظننا انه لن يكون من الغباء بحيث لا يحاول الافادة منك في التخطيط والتدبير ثم التنفيذ من بعد ، خاصة وان له بك سابق صلة وتجربة في هذا السبيل .

اهتبلت السانحة وقلت له :

ـ لقد قلتها بلسانك يا مأمون ، ان له معي سابق تجربة واي تجربة !!

ضحك مأمون ساخرا وقال :

ـ هذا ما قلت به للاخوة في مجلس قيادة الثورة ، خاصة بعد ان جاءت تقارير استخباراتنا تنبيء ببراءتك وخلو طرفك من المشاركة في هذا الفعل التآمري ، ولكن الاخوة اعضاء المجلس علي غير قناعتي هذه ، ومن ثم فقد اوكلوا لي مهمة استجوابك ثم التخلص منك دعما وتكرسيا لمبدأ تفسير الشك

لصالح امن الثورة وليس الافراد .

ـ التخلص مني ؟!

تساءلت في حيرة وانكار ، فضحك مأمون وواصل حديثه :

ـ ليس كما تبادر لذهنك ، فالتخلص منك لا يعني التصفية الجسدية ، ولكن بابعادك عن مسرح الاحداث .

عدت اسأله :

ـ ماذا تعني يا مأمون ؟

قال :

ـ لقد قر رأينا ـ في حال ثبوت براءتك ـ ان يتم تعيينك قنصلا عاما بنيجيريا ، للافادة من كفاءتك المهنية اولا ، ولاغلاق بابك الذي لا تفتأ تهب منه رياح التآمر المحرقة ثانيا ، ولما كنت انا الآن علي كمال اليقين من براءتك هذه المرة علي الاقل ، فاليك امري بمغادرة السودان الي نيجيريا خلال اسبوعين من الآن !! وسوف تعمل علي الفور لاستكمال كل الترتيبات والاجراءات الخاصة بعملك الدبلوماسي ظاهرا والامني حقيقة خلال هذين الاسبوعين اللذين ستتلقي خلالهما دراسة مركزة بجهاز الامن ووزارة الخارجية عن طبيعة العمل القنصلي العام ، اما عن الجانب الامني لعمل القنصل ، فاني اري ان تتلقي دراسة اخري سريعة بكل من اثينا وروما ولندن ، وسنكتب لقناصلنا بهذه الجهات في هذا الشأن ، اعني انك ستتجه الي نيجيريا عن طريق اثينا ـ روما ـ لندن ، بحيث تقضي اياما في كل منهما . وتكون ضيفا علي قناصلنا فيها ، لتحظي منهم بخبرة لصيقة عن العمل القنصلي الامني .

قلت له مازحا :

ـ هذه سياحة اكثر منها دراسة !

فقال في سخرية ودعابة :

ـ هكذا يكون كرم الثورة وسماحتها مع واحد من ابنائها البررة الاوفياء ! وسنري كيف ترد لها الجميل ، آملين الا تظل علي سالف حالك لئيما متمردا !!

وتذكر دائما مقولة قائد الثورة نميري :

{ابناء الثورة مهما صنعت بهم الثورة فهم ابدا حماتها المتجردون ، واعداء الثورة مهما صنعت لهم الثورة فهم ابدا خصومها المتربصون} .

قلت له :

ـ نحن ياصديقي كابناء للثورة لم نختلف يوما حولها وحول مبادئها واهدافها ولكنا ـ وهذا حال كل الثورات ـ اختلفنا حول تفاصيل توجهها ومسارها .

قال بصورة قاطعة حاسمة :

ـ انا لا اريد الدخول معك في جدال ارهقنا ترديده طويلا ، وخير لنا بعد هذه الوجبة الشهية الدسمة ان نتنازل في {عشرة طاولة} لنري هل تجيد اللعب كما التآمر ام لا . واخيرا لا احسبني في حاجة الي تذكيرك بكتمان امر مزمل غندور ومخططه التآمري المفضوح .

قلت له مطمئنا :

ـ السر في بير يا ابو العوض .

وقمنا بعد ذلك الي النرد ونحن نرتشف اكواب الشاي المنعنع ونتجاذب اطراف حديث قطعة ابني خالد اكثر من مرة ببعض تساؤلاته الساذجة اذ كان في الثالثة من عمره ، ولم يكتف بذلك فامتدت يده مرات عديدة الي قطع اللعب ويعثرها فتضايق من صنيعه مأمون وعلق بقوله :

ـ بصراحة يا محجوب انت بتدلع الولد ده اكتر من اللزوم ، ياخي التربية الصحيحة مش كده ، الولد انهره ، علمه الضبط والربط من دلوقتي .

ضحكت وقلت له :

ـ ده ولد ضابط يا ابو العوض مش ولد جزارين ، بكرة لما تتزوج وتنجب حنشوف بتعامل اولاد الضباط كيف !

نظر الي في غضب ورمي بالزهر ثم قال :

ـ دبش ، سيب الفصاحة وامرق من القفلة دي ، يا اللا وربنا حتلعب كيف ؟

ثم غادرني ابو العوض وانا علي حال من البشر والانفعال بما استجد من تطور مفاجيء في حياتي العملية ، وقد تقبلته زوجتي وافراد اسرتي بكثير من الحفاوة والفرح ، فقد كانوا علي شاكلة اصحاب القرار ، يرون الامن والسلامة في بعدي عن السودان في ذلك الظرف السياسي المتقلب والاحداث الكبيرة المتلاحقة ، فبدأت انا بدوري اعد العدة للرحيل المرتقب .

ولم البث ان غادرت السودان في نهاية شهر يونيو ١٩٧١م ، الي اثينا اولا ـ حسب البرنامج المرتب ـ وفي عاصمة بلاد الاغريق العتيقة استقبلني قنصلنا ،

وهو رجل اغريقي الجنسية يقوم بمهام (القنصل الشرف) فلم يأل الرجل جهدا في الاحتفاء بي واكرام وفادتي ، وقادني الي مقر اقامتي بفندق (امونيا) الذي اخذ اسمه من احد ميادين المدينة . ثم اخذني بعد ذلك مباشرة الي القنصلية ، حيث سارع بتقديم شرح واف لطبيعة عمله القنصلي العادي ، اما عن جانب الامن القنصلي فقد اعتذر لي الرجل بانه كمواطن اغريقي المنبت والانتماء والعرق ، يستنكف الاشتغال بالنواحي الامنية لصالح دولة اجنبية ، حذر اتهامه بالتجسس وخيانة الوطن ، وان اقصي ما يمكن ان يقدمه في هذا الجانب ، ينحصر في استقباله للوفود الامنية وتهيئة اماكن ايوائها ووسائل ترحيلها حتي تغادر البلاد ، دون ان يتدخل في مهامها الامنية من قريب او بعيد ، وهو ملتزم بذلك في تعامله معي انا ايضا .

قلت لقنصلنا الاغريقي :

ـ ولكن ليست لدي مهمة امنية محددة !

فتبسم الرجل وقال :

ـ اذن اقترح عليك برنامجا عمليا داني القطوف ، تعمل به خلال اقامتك بيننا ، خلاصته ان اتيح لك الفرصة لزيارة الاماكن السياحية والاثرية وعلب الليل بالمدينة خلال اليوم والغد ، وبعد غد تخرج في رحلة بحرية حول الجزر الاغريقية ، تقيم فيها وتتنقل لمدة اسبوع كامل ولا شك انك ستجد فيها متعة لا حد لها ، ثم تغادرنا الي روما ، وفي جعبتك حصيلة ثرة من عاطر الذكريات .

قلت له علي الفور :

ـ اكرر لك شكري وتقديري لهذه الحفاوة البالغة والكرم الاغريقي العريق .

وهكذا قضيت مع الرجل باثينا يومين حافلين بعزيز الذكريات ، وفي اليوم الثالث وقف الي جانبي علي ظهر السفينة التي ستطوف الجزر الاغريقية وقال وهو يودعني :

ـ تذكر ان هذه الرحلة ستبقي منحوتة في ذاكرتك ما عشت ، فلا تبخل علي نفسك بمتعة حسية او وجدانية ، خاصة وقد علمت ان معك علي ظهر هذه السفينة طلبة وطالبات من الجامعات الامريكية والدنماركية ، فلا تعترض نزواتهم بحواجز الاعراف والمثل ، ولا ضير في ان تسقط عقدا من زمان عمرك لتعود الي ماضي صباك وتنعم بصبواتهم وتعب معهم من كأس الحياة ، تلك

هي وصيتي لك !!

وسكت برهة لينظر الي بتمعن ثم اضاف :

- صدقني لو اتحت لنفسي مثل هذه الرحلة ، فلن اتواني في الغاء ثلاثين عاما من ماضي ايامي بلا تردد ولا حرج .

قالها وهو يضحك فتجاوبت معه بقولي :

- انني علي قناعة تامة بفلسفتك الحياتية ، وانني سأعمل بنصحك الغالي واطمع ان ازيد .

عندها اطلقت الباخرة صفيرها مؤذنة بقرب التحرك ، فقلت للرجل وانا اشد علي يده في مودة :

- لا داعي لانتظاري عند العودة ، فسوف اتجه من الميناء مباشرة الي الفندق ولن يكون هذا عسيرا علي ، ويمكنك ترتيب امر سفري الي روما من الفندق .

فودعني الرجل شاكرا ومقدرا ، وبدأت رحلة احلي الذكريات ، وابقاها علي الايام .

وفي جزيرة رودس احدي الجزر الاغريقية الكثيرة المنتشرة ، حطت السفينة الرحال ، لنقضي في رحابها يوما سياحيا حافلا ، فالتقيت بغير موعد ولا سابق تدبير بالاخ السياسي اللامع الدكتور عمر نور الدائم احد اقطاب حزب الامة المعروفين ، وكان بيننا سالف معرفة عن طريق الاخ فاروق عثمان حمدً الله ، الذي اصطحبني في زيارة للدكتور عمر وهو يلازم سرير المرض بمستشفي الخرطوم الجنوبي قبل مايو ١٩٦٩م ، ثم تسني لقائي به عدة مرات بعدذلك فنشأت بيننا آصرة ود ومعرفة وثيقة ، ولعل الرجل قد دهش وهو يراني اتجول في طرقات الجزيرة علي دراجة استأجرتها للطواف علي معالمها والتعرف علي صورة الحياة فيها ، فاتجهت مع الدكتور عمر الي مقهي سياحي فخيم ، حيث افضيت له بكل ما في جعبتي من افادات ومعلومات حول واقع الحياة السياسية في السودان . ادركني العجب والاعجاب بما قاله الدكتور عمر نور الدائم من انهم يشكلون معارضة سياسية مسلحة ضد ثورة مايو وقيادتها !! وهي معارضة تهدف للاطاحة بها عسكريا ، ومن اجل هذه الغاية تتعاون معهم كل من وليبيا واثيوبيا وبعض الدول العربية الاخري ، بل وبعض الدول الاوربية ايضا ! وانهم علي طريق النضال ضد قراصنة السلطة المغامرين يعملون ليل نهار

علي تخريب النظام السياسي لسلطة مايو ، وتقويض علاقاتها وصلاتها الدولية ، وقد افلحوا كثيرا في هذا الصدد ، ومن ثم فقد بدأوا استعدادهم العسكري ليوم الخلاص العظيم ، ولن يمضي وقت طويل حتي يكون لهم جيش كبير ، مزود باحدث الاسلحة والمعدات ، لضرب ثورة مايو وتحرير الشعب من قهرها وسطوتها

ثم طلب مني الدكتور عمر ان انضم اليهم من موقعي المرتقب في نيجيريا . فسألته :

ـ وماذا عن صلاتك السابقة وصداقتك مع الاخ فاروق عثمان ؟

اجاب الدكتور عمر عفو الخاطر :

ـ فاروق ليس علي شاكلة نميري ورفاقه ، وهذا ما يؤجج بينهم نار الصراع والفتنة كما اوضحت لي انت الآن ، واعتقادي ان احد الطرفين سيصفي الآخر قريبا وقريبا جدا !! ونحن في انتظار ذلك ، فمثلما اجتمعوا يوما علي تصفيتنا في امدرمان والجزيرة ابا ، فانهم بلا شك سينقلبون علي بعضهم سعيا للانفراد بالسلطة ، واجزم ان هذا سيتم عبر تصفيات جسدية وصراع مرير ، وعندها يتحتم علينا نحن ان نقضي علي المنتصر منهم ونهزمه في معركة متكافئة هذه المرة .

قلت له :

ـ اما انا فبرغم مشاعر الغبن والاحباط التي تنتابني حيالهم ، الا اني افضل ان اقف بمعزل عن احداث الحرب والسياسة السودانية ولسوف انصرف واتفرغ لعملي القنصلي في نيجيريا عازفا عن معرفة ما يجري في السودان ولو الي حين ، فانا ـ صدقني ـ احس بتعب ورهق شديدين ، واحسبني بحاجة ماسة الي فترة من الهدوء والراحة النفسية .

لم يسلم الدكتور عمر نور الدايم بهذا النزوع السلبي واخذ يدق ـ وهو يحاول اقناعي ـ علي ناقوس الوطن والوطنية وحقوق السودان وواجباته في اعناقنا كمواطنين شرفاء نقصد وجه الله والوطن وثورة الاصلاح والحرية .

وواصل حديثه عن وعي الحركة الوطنية وتطور اهدافها ومبادئها ووسائل عملها لبناء الحياة والمجتمع في دولة سودانية رائدة ، ومن عجب وجدت افكار الدكتور عمر والتي قال انها هي افكار السيد الصادق المهدي والقوي المعارضة

الاخري لا تختلف كثيرا عن فكر ومخطط الضباط الاحرار من حيث الجوهر ، بما في ذلك النظام السياسي الشمولي ، ولكن هذا لم يدفعني لقبول عرضه وتظاهرت بموافقته من باب المجاملة ليس غير ، وفي دخيلتي اصرار عنيد علي طلاق السياسة السودانية واحداثها ، والتزام الحياد بين محاور الصراع كافة ، والاخلاد الي ترف الاستقرار الوظيفي في عملي القنصلي المرتقب .

وافترقنا علي صفير باخرتنا وهي تعلن قرب موعد الاقلاع الي احدي الجزر الاغريقية الاخري فانفلت مسرعا نحو السفينة ، التي تمنيت ان ابقي مقيما فيها ابدا ، ولكن ، ولان دوام الحال من المحال ، فقد تصرمت الايام والليالي عجلي وعادت بنا السفينة من جديد الي مرسي مدينة اثينا ، فغادرته الي فندق امونيا ، ولم امكث به الا ساعات قلائل ، ثم غادرته والمدينة العتيقة الي عاصمة الرومان ، (روما) حيث استقبلني قنصلنا الاخ صلاح التجاني ، وبقيت في كنفه وكريم ضيافته لمدة خمسة ايام طوال عراض ، جرعني خلالها عصارة العمل القنصلي ، ثم عرج علي جانب الامن فما بخل من ضروبه وحقائقه بشيء ، ولم ينس نصيبنا من الدنيا فاتاح لنا ساعات من اللهو والترفيه في انحاء روما ومراتعها الخصيبة! وخاصة شارع ڤيا ڤينتو ذو المطاعم والمقاهي الشهيرة مثل مقهي باريس وغيره .

ثم غادرت الاخ صلاح التجاني وارض الرومان ، متوجها نحو عاصمة بلاد الساكسون (لندن) العملاقة العتيقة ، حيث كان في استقبالي قنصل السودان احمد موسي واذ كانت السيارة تنطلق بنا صوب منزله ، افضي الي بخبر وجود عضوي مجلس قيادة الثورة السابقين بابكر النور وفاروق عثمان حمد الله بلندن في مهام علاجية ، حيث سيجري الاول عملية مرارة ويجري الثاني عملية في عينه اليسري ، ثم اردف :

- كذلك حضرت حرم الرئيس نميري يصحبها سكرتيرتهاواحد رجال امن الرئيس الاخ الرائد حسين صالح في مهمة علاجية ايضا ، وسوف يحضر الي لندن في صبيحة الغد عضو مجلس قيادة الثورة ووزير الدفاع الاخ خالد حسن عباس يصحبه بعض كبار المسئولين ورجل الاعمال المعروف خليل عثمان في مهمة سياسية واقتصادية ، وسوف يغادرون من بعد لندن الي كل من يوغسلافيا وموسكو . وهذا يعني اننا في القنصلية سنكون خلال هذه الايام

اشبه بخلية النحل واكثر .

قلت له مواسيا :

ـ كان الله في عونكم ، واني لا تعجب كيف توفقون بين واجباتكم ومشاكلكم الامنية وعملكم القنصلي العادي ، فضلا عن استقبالكم واحتفائكم بمثل هذه الوفود الفردية والجماعية التي لا تنقطع ؟

رد الاخ احمد موسي قائلا :

ـ رغم ان قنصليتنا في لندن هي اكبر القنصليات قاطبة ، الا اننا نحس قصورا في دولاب العمل بسبب ضعف الامكانات المادية والبشرية ، ولكننا مع ذلك لاندخر وسعا في اداء واجباتنا ولو بجهد المقل .

قلت له :

ـ ليوفقكم الله ، ولاشك انكم في هذا الموقع اشبه بالثوار المجاهدين .

ثم اردفت :

ـ وعلي طريق جهادكم هذا ، ولمزيد من الثواب اريد منك ان تتيح لي فرصة اللقاء بالاخوين بابكر النور وفاروق عثمان ، لاداء حقوق الزمالة نحوهما في هذه الظروف ، اعني المجاملة ومعرفة الاحوال وما شاكل ذلك .

هز رأسه موافقا وقال :

ـ لدي تلفون فاروق الخاص ، ويمكنك ان تتصل به من منزلي بعد قليل ، ولا بأس من دعوته للعشاء معنا ، اما الاخ بابكر النور فهو في صحبة اسرته ، واري من المناسب ان تؤجل الاتصال به الي صبيحة الغد .

في حوالي العاشرة مساء ، كان فاروق معنا بمنزل القنصل احمد موسي وبعد ان تعانقنا طويلا واضطرمت جوانحنا بالعواطف الجياشة ، جلست اليه في ركن من المكان وسألته عن حاله ، فصارحني بانه جاء الي لندن لامرين اثنين ، علاج عينه اليسري والبعد عن جو الخرطوم السياسي والاجتماعي ، خاصة بعد اقصائه ورفيقيه بابكر النور وهاشم العطا من عضوية مجلس قيادة الثورة ، اذ اضحي منزله بؤرة تنضح بالحقد الاسود يجتاح النفوس المقهورة ، وتتقيؤه الافواه نقدا موتورا للثورة وقادتها ومسارها . فيتولد عن ذلك جو مشحون بالغضب والغبن والتوتر، يسود مجالسنا التي لا تنقطع ليل نهار ! واشد ما يؤلم في ذلك ، اننا نغدو ضحايا للشعور بالهزيمة ، وتشل سفسطة المتخاذلين

قدرتنا علي الدفاع عن انفسنا .

وسكت برهة وقال بالم صادق :

ـ صدقني يا بركة ، لو استسلمت لهذا الشعور المقيت اكثر مما احتملت ، لاصبت بالجنون لا محالة . لهذا رأيت ان اهرب منه ولو لفترة مؤقتة .

وجدت يدي بغير ارادة مني تستقر علي كتفه في ود ، ثم ارتسمت علي فمي ابتسامة حانيه وقلت له :

ـ نحن يا فاروق جند ارتضينا الموت سبيلا من اجل السودان ، سودان يسوده الحب والخير والسلام ولكن واقعنا اضحي نقيض ذلك ، نحن قوم يبغض بعضهم بعضا ! وندفع مواطنينا لبغضنا والحقد علينا والخوف منا و ...

وقاطعني فاروق والعبرات تخنقه :

ـ هذه يا محجوب حال خير منها الفناء !! والبعد عنها فناء نسبي ، هذا هو قدرنا ، صنع ايدينا وثمار غرسنا ، لهذا ابتعد واختار الفناء النسبي حتي يقضي الله امرا كان مفعولا !! وسأحاول ان اطيل بقائي في المهرب ما استطعت ففي نيتي ان اعود الي الخرطوم ـ بعد اجراء العملية واجتياز فترة النقاهة ـ لاطلب من الرئيس نميري ان يعينني سفيرا للسودان في الهند او بلاد السند ـ اعني الصين ـ قالها ضاحكا ، ولا اعتقد انه سيرفض تحقيق مثل هذا الطلب .

ضحكت وقلت له علي الفور :

ـ لسوف تنال بغيتك يا صديقي ، فهذا ما فعلوه معي بتعييني قنصلا عاما في نيجريا ، وليتك تطلب التعيين سفيرا في نيجيريا ليجتمع شملنا من جديد

طرب للفكرة فاشرق وجهه بالحماس وقال :

ـ ولم لا ؟! اتعلم يا محجوب انني والرئيس يعقوب قاوون كنا زملاء دراسة في كورس قادة الفصائل المدرعة بكل من مدارس باقنجتون وللورث ؟

ثم سرح فاروق بفكره في تلافيف الماضي وقال :

ـ خلال تلك الفترة نشأت بيننا علاقة ود وصداقة متينة العري ، وكانت لنا ذكريات باقيات ، وكم سعدت بتوليه سلطة الحكم في نيجيريا ، اذكر انه كان يحدثني كثيرا عن طموحه وتطلعاته لمثل ما بلغ من شأو ومكانة ، وكنت اشاطره الطموح واحدثه عن بلادي وتاريخها ونضال بنيها ، وما ارجو لها من خير وسلام وتقدم .

ثم افتر ثغره عن ابتسامة ابتسرها ليقول : ـ عند نجاح ثورتنا توليت امر ترتيب زيارته لنا في السودان خلال شهر اكتوبر عام ١٩٧٠ كرئيس دولة وقائد لثورة تفجرت لتعيد الي الشقيقة نيجيريا وحدتها وتحقق آمال شعبها ، بعد حركة اوجوكو الانفصالية ، وهذا ما كنا نحاول ان نفعله في السودان .

قلت له :

ـ وهذا يدعم رغبتك في العمل الدبلوماسي بنيجيريا فلا تتراجع عن هذا الاختيار .

فمد فاروق يده الي مصافحا كمن يعاهدني علي ذلك وقال :

ـ اتفقنا يا بركة

ثم نهضنا لننضم الي الآخرين بعد ان ابتلت جوانحنا شوقا وقد جفت مآقينا ، فانعقد سامرنا ساعة ، خرجنا بعدها في صحبة القنصل احمد موسي الي مرقص ليلي شهير ، حيث افرغنا شحنات الضغوط النفسية الخانقة ، في مراتع الحسن والطلاقة والنغم ، علي امتداد ليلة قانية لا تنتهي ، عملت فيها بنصح قنصلنا الاغريقي ، وطرحت من عمري بضع عقود من السنين .

افترقنا علي وعد باللقاء عند الظهيرة في ميدان الطرف الاغر ، لنتناول غداءنا معا في مطعم مجاور وقد وعد فاروق بدعوة الاخوة بابكر النور ومحمد احمد سليمان ويوسف همت ، لننعم باجتماع الشمل في بلاد الغربة . ولكنه حين حان موعد اللقاء ، جاء يصحب المقدم بابكر النور وحده واعتذر عن حضور الاخرين لظروف قاهرة .

وعلي مائدة الغداء ، جرنا الحديث قسرا الي احوال السودان ومسار الثورة وتوجهات قادتها ، وجري المايسترو بابكر النور علي عادته في اختتام كل حوار وحديث ، فاكد ان ما يحدث في السودان امر لاينبغي السكوت عليه ، وانه لا مناص ابدا من ثورة تصحيحية تقدمية ، في اطار ثورة مايو نفسها ، خاصة وان القوي التقدمية في صفوف القوات المسلحة والشارع السوداني العريض ، اضحت اشد قوة وقدرة علي مواجهة النظام ، وان بوسعها الاستيلاء علي السلطة السياسية بسهولة ويسر ، وفرض التغيير الثوري المطلوب . ثم اضاف الي ذلك قوله : انه عند عودته الي السودان سيبدأ فورا مرحلة التخطيط العملي لاحداث هذا التغيير ، تتويجا لجهود مبذولة وموصولة من الاخوة

الاحرار التقدميين تجري الآن في السودان .

ومن عجب فقد عقب فاروق عثمان علي حديث المايسترو واحلامه قائلا :

- انتم وشأنكم مع الثورة التقدمية الموعودة ، اما انا فقد ارهقت بما فيه الكفاية ، ولا ابتغي اليوم سوي الاخلاد الي شيء من الراحة والهدوء والاستقرار كسفير باحدي سفاراتنا البعيدة وربما نيجيريا مع الاخ محجوب ، وبدلا من الاهتمام باحوال السودان كله ، سأهتم باصلاح حال اسرتي وافرادها ، فكفاهم مني ظلما واهمالا . وما يهمني الآن في لندن هو الحصول علي قرض من المال يكفي لسداد اجرة مسكني واجراء العملية الجراحية فقد كنت اعتمد في ذلك علي الاخ الدكتور منصور خالد ، الذي وعدني بارسال المال من مقر رحلته بالولايات المتحدة الامريكية او المرور على في لندن في طريق عودته الي السودان ، ولكنه لم يرسل المال ولم يحضر حتي الآن ! فاتصلت بالعميد عثمان حسين سفيرنا في يوغسلافيا لارسال المبلغ المطلوب وقد وعد ولم ينجز وعده بعد .

سألت فاروق :

- كم تطلب من المال يا بركة ؟

قال بداهة :

- ليس اكثر من الف جنيه .

قلت له :

سأمنحك انا ثلث هذا المبلغ .

فاردف بابكر النور :

وسأمنحك انا ثلثا آخر مثله .

فضحك فاروق وقال :

اشكركما علي هذا الكرم الفياض ، فهذا النوال يكفي لدفع ايجار مسكني ، واذا ما توفر لي الثلث الاخير امكنني اجراء العملية ، والعودة بعد فترة النقاهة الي السودان .

قلت له :

- علمت ان اللواء خالد حسن عباس سيصل الي لندن علي رأس وفد رسمي اليوم ، فهل تمانع ان احدثه بامر وجودك في لندن وحاجتك لاجراء العملية والمال اللازم ، فقد يأمر بدفعه لك من مال السفارة كقرض يمكنك سداده في السودان.

قال فاروق :

ـ لا بأس .

ولكن بابكر النور اعترض علي ذلك ووصف اللجوء الي اللواء خالد لحل ضائقة مالية عارضة بالاستسلام والتزلف ، وتمهيد الطريق امامه ليكون بمثابة اليد العليا ! وعليه فهو يري ان ينتظر فاروق نتائج اتصالاته بكل من الدكتور منصور خالد والعميد عثمان حسين . فوافقه فاروق علي هذا الرأي ، ومن ثم طلب مني ان الغي فكرة الحديث الي خالد ثم افترقنا علي وعد باللقاء في الغد

في مساء ذلك اليوم قمت بزيارة الاخ خالد والوفد المرافق له بمقر اقامتهم باحد الفنادق الفخيمة ، فوجدت في معيته كلا من الاخوة الوزراء احمد سليمان المحامي والعميد .م. محمد عبد الحليم وزير المالية وقتها والعميد بشير محمد علي مدير فرع الاحتياجات الخارجية وقتها . وعلمت ان بقية اعضاء الوفد قد خرجوا لقضاء بعض المهام الخاصة ، وكان خالد قد تلقاني بكثير من الترحاب والود ، وسألني عن وجودي واحوالي بلندن ، فطمأنته وسبق لساني فحدثته عن حاجة فاروق لاجراء العملية ، فالتفت خالد الي العميد صلاح الدين محمد سعيد ملحقنا العسكري في لندن وامره بدفع المبلغ الي فاروق واي مبالغ اخري قد يطلبها فيما بعد ، فهذا حق مكفول له كعضو سابق في مجلس قيادة الثورة ، وطلب منه ان يوضح لفاروق هذا الحق ويذكره به ، لئلا يكون في حرج من الطلب . فالتفت نحوي العميد صلاح بدوره وطلب مني ان ابلغ فاروق بدعوته له علي العشاء بمنزله ليسلمه المبلغ بطريقة غير مباشرة وهو يسأله عن احواله وعمليته المرتقبة ، وابلغت فاروق تليفونيا بامر الدعوة وضربت معه موعدا لصحبته الي منزل العميد صلاح الدين .

في صبيحة الغد كنت في معية خالد وصحبه بالسفارة ، وعلمت منهم ان الدكتور خليل عثمان قد رتب امر لقائهم ببعض رجال الاعمال الممولين لبعض مشاريع التنمية ، وان خالد والوفد المرافق له ، سيغادرون لندن الي يوغسلافيا ثم موسكو من بعد . وخلال وجودي مع خالد بمكتب الملحق العسكري اجري اتصالا بالرئيس نميري في الخرطوم ، ومن عجب فقد جاء في ذلك الاتصال ان السفارة الروسية في لندن اعتذرت عن منحهم تأشيرات دخول الاتحاد السوفيتي وطلبت منهم ان يحاولوا ذلك من يوغسلافيا ! وبدا لي ان الحادث قد اثار غضب

الرئيس نميري ، فطلب من خالد وصحبه ان يعودوا من يوغسلافيا مباشرة الي الخرطوم . وبينما كان خالد يضع سماعة التليفون تساءل حائرا عن سر هذا التصرف الروسي تجاههم وهو امر لم يحدث من قبل ، فحاول بعض اعضاء الوفد تبرير مسلك السوفيت بانهم ربما كانوا ساخطين من ترتيب برنامج الزيارة حيث تجيء زيارة موسكو من بعد لندن ، كما ساق آخرون الاعذار والمبررات لذلك المسلك ، وحيال هذا قال خالد انه سيحادث الرئيس نميري مرة اخري ويراجعه في قراره ليسمح بمواصلة الرحلة ، ولا ضير في اخذ تأشيرات الدخول للاتحاد السوفيتي من يوغسلافيا حسما للتعلات .

وغادرت خالد في السفارة علي امل ان التقي به بالفندق في مساء نفس ذلك اليوم ، فاوعز لي ان اقنع فاروق بزيارته ، بحسبان انهما دفعة ورفاق سلاح وثورة ، وان ماحدث من خلاف سياسي لا ينبغي ان يذهب للود بقضية ، وانه لولا قيامه علي رئاسة وفد رسمي لبادر بزيارة فاروق بمسكنه حيث يكون . فوعدته بالمحاولة .

وعند لقائي بفاروق افضيت له بكل ذلك حتي مسألة ترتيب العشاء بمنزل العميد صلاح الدين محمد سعيد والتدابير المتخذة لتوفير المال الذي يطلبه ، وشفعت ذلك بقولي :

- تعمدت ان افضي لك بكل شيء حتي لا اكون في موقع المخادع ، وانا اعلم انك من النضج وصدق المشاعر بما يتيح لك تقدير الامور وتقويم المواقف الرسمية والشخصية

فانفعل فاروق بحديثي اليه وعلق قائلا :

- انني سأقوم معك بزيارة خالد للالتقاء به بعد طول فراق ، واني اذ افعل ذلك ، اعلم ان مثل هذه التصرفات لا تتوافق مع مشاعر وتوجهات الاخ بابكر النور التي اعلن عنها من قبل . ولكنني لم اعد آبه لشئ .

كان اللقاء بين فاروق وخالد حسن عباس حارا عاصفا تجسدت فيه بحق الاصالة السودانية من خلق ووفاء وتبسط ، واجزم انهما قد نسيا تماما صراعات السياسة والثورة وشئون الحكم ، ولم يعودا يذكران سوي زمالة الدفعة ورفقة السلاح ودواعي الود والاخاء والتكافل .

ثم غادرت لندن جوا الي نيجيريا ، ووصلتها في اليوم السابع عشر من يوليو ١٩٧٠ ، وقد تركت خالد وصحبه يزمعون مغادرة العاصمة البريطانية

بينما اقبل كل من فاروق وبابكر النور علي شئونهما العلاجية ، وهذا اول ما نقلته لسفيرنا اللواء احمد الشريف الحبيب ، والعربة تنطلق بنا من مطار لاغوس العاصمة الي منزل السيد السفير بحي اكوي حيث تقرر ان اقيم معه بصفة مؤقتة ريثما يستأجر لي منزلا خاصا ، ولعل ما دفع اللواء احمد الشريف الحبيب ليختصني بالسكن معه دون سائر الرفاق بالسفارة ، يرجع لما كان بيننا من الفة ومودة ، فقد عملت تحت امرته أبان كان الرجل قائدا للقيادة الجنوبية ، ، فعرفني عن كثب وبصورة مباشرة ، كما عرف ـ بوصفه احد كبار رجالات قواتنا المسلحة ـ صلتي بثورة مايو ومكانتي بين قادتها وصناعها ، ولعل هذه العوامل مجتمعة او متفرقة ، هي التي حدت به لجعل اقامتي المؤقتة معه بمنزله العامر ، ذي الجناح الخاص بالاضياف .

رغم ان قدومي لنيجيريا هذه المرة كان بمثابة اول اتصال فعلي مباشر بارضها وشعبها ونبض الحياة فيها ، الا ان صلة غير مباشرة كانت تربطني بها من قبل ، ففي فجاج أرض السودان الشاسعة يعيش زهاء اربعة ملايين مقيم من اصل نيجيري ، في ذروة التوافق مع ابنائه وقيمهم وعاداتهم وتقاليدهم وسرائهم وضرائهم . لهم ما لاخوتهم السودانيين من حقوق ، وعليهم ما عليهم من واجبات ، وعبر مئات السنين ، ذاب معظم هؤلاء في بوتقة التعدد التي صهرت الاعراق في السودان ، وشارك الجميع في بناء الحياة فيه ، فاحرز بعض هؤلاء اكبر الدرجات العلمية وجلسوا علي منابر القضاء واقفا وجالسا ، وكان منهم الاطباء والمعلمون والمهندسون ، ومنهم الزراع والعمال واصحاب الحرف اليدوية المختلفة . بل ان نفرا منهم تبوأ مناصب هامة في الدولة .

ليس ذلك فحسب ، فان السودان ونيجيريا كانا معا تحت سيطرة الاستعمار البريطاني وتعرضا لتآمر خبيث استهدف تفتيت وحدتهما ، فقيض الله لنيجيريا ان تدحر التآمر وتبني دولتها الموحدة ، ويسعي اهل السودان لمثل ذلك ، وثمة قاسم مشترك اعظم هو العقيدة الاسلامية ، وكفي بها من رباط .

هذا ولما كانت المعرفة هي اعظم المداخل للقاء الشعوب وتفاعلها ، فقد توفرت ـ قبل مجيئي لنيجيريا ـ علي قراءة الكثير من المراجع التي تناولت تاريخها وجغرافيتها وحاضرها السياسي والاجتماعي .. الخ ، ثم جاءت ثمرة اقامتي ومعايشتي الفعليه لذلك الشعب الشقيق كتابا قمت بتأليفه وجري طبعه

بمطبعة جامعة الخرطوم بعنوان (نيجيريا بين الامس واليوم) وما تزال بعض نسخه في المكتبات العامة .

لقد عشت في نيجيريا اياما لا انساها ، فحين وطئت قدماي ارض مدينة لاغوس العاصمة تعاظم في نفسي الاحساس بقوة الشبه بينها في شدة حرارة الجو ورطوبته وبين مدينة بورتسودان خلال اشهر الصيف القائظة ، وقد اطلق الاوربيون الاوائل علي المنطقة الساحلية من نيجيريا حيث تقع مدنية لاغوس اسم (مقبرة الرجل الابيض) ، كناية عن عدم ملائمة مناخها لحياة الاوربيين اول الامر ، وضعف مقاومتهم لادوائها ، فهلك منهم كثيرون! ولم يمنعهم ذلك من ان يجعلوها مقبرة للرجل الاسود ايضا بقوة الحديد والنار ، وهم يجتاحونها في شراهة ونهم بالقوات والسلاح وقوافل الاستعمار ، طلبا للرقيق يصدرونه الي اوربا وامريكا وآسيا !!

هذا والناظر المدقق في جغرافية نيجيريا الطبيعية يجدها مشابهة الي حد كبير لجغرافية السودان ، فالاطراف الجنوبية والغربية في كلا البلدين يسودها عموما مناخ المنطقة الاستوائية حيث الحرارة علي مدار العام ، والامطار تهطل خلال فصل يمتد لستة شهور تقريبا ، اما مناخ الساحل النيجيري فهو شبيه جدا بمناخ ساحل البحر الاحمر ، ويرجعَ هطول الامطار في نيجيريا لتأثير الرياح الجنوبية الغربية التي تهب عليها من المحيط مشبعة ببخار الماء ، وهذه الرياح اصلا هي الرياح الموسمية الجنوبية الشرقية ، وخلال عبورها لخط الاستواء تتحول الي جنوبية غربية وتسبب الامطار الغزيرة علي المناطق الساحلية..

والذي يزور وسط وشمال نيجيريا خلال الفترة من نوفمبر الي مارس من كل عام ، لا ينس ابدا (رياح الهزر) التي تهب من الشمال في منطقة الصحراء ، وهي رياح جافة تحمل الغبار والاتربة والرمال ، وتسبب تلفا للمزروعات وضيقا في التنفس وارتفاعا في درجة الحرارة ! وتشبه عندنا في السودان (الهبوب) ويطلق المستعمرون الانجليز علي رياح الهزو هذه اسم (الهارمتان) وهي - فيما يبدو - تحريف بعيد لكلمة الخماسين التي يطلقها المصريون علي مثل هذه الرياح في بواكير فصل الصيف .

في اليوم التالي لوصولي الي لاغوس صحبت سعادة اللواء احمد الشريف الحبيب الي مبنى سفارتنا السودانية بحي اكوي ، حيث تفقدت معه مكاتبها

وعرفني بالعاملين فيها ، وخلال طوافنا علي السفارة توقفنا عند مكتب فخيم بالطابق الاول ، ملحق به مكتب للسكرتارية ، ودعاني اللواء السفير الي مجالسته فيه ، ثم اخذ يحدثني بكثير من التحفظ والعناية بانتقاء العبارات والالفاظ ، قال انه يري ان ظروف السودان الاقتصادية تقتضي من جميع المسئولين والقائمين بامر الدولة ان يلزموا اقصي درجات الاقتصاد في المنصرفات ومحاربة الاسراف والصرف التفاخري ، ولهذا فرغم ماورد اليه من جهاز امننا القومي عن طريق وزارة الخارجية من تعليمات تقضي بتأجير مبني منفصل للقنصلية المرتقبة رُبما يتبع ذلك من تعيين طاقم موظفين وخدمات تجعل منها صنوا لمبني السفارة وكيانها الدبلوماسي ، الا انه مع ذلك وبعد التشاور معي في الامر ، يري ان مبني السفارة وما بها من خدمات وموظفين وحماية الخ ، يفي باحتياجات عمل السفارة والقنصلية معا ، بالنظر الى ظروف السودان الاقتصادية الخانقة اضافة الي ما يمكن ان يقدمه هو شخصيا من عون كبير لي في العمل بما لديه من تجربة ومعرفة بظروف البلاد التي سبقني اليها ، هذا فضلا عن تعاون الاخوة الدبلوماسيين في السفارة معي لإداء الواجب المشترك والغاية الواحدة .

ثم اضاف اللواء السفير احمد الشريف ، انه قد عزم علي ان يخصص لي هذا المكتب الذي نجلس فيه كمقر للقنصلية ، فقلت له علي الفور :

ـ سعادتك انا اتفق معك في كل ما قلت ، وهذا المكتب اكثر مما كنت اطمح اليه كبداية لتأسيس القنصلية ، ثم هو لا يقل عن مكتب السفير في شئ !

ضحك الرجل ثم اردف :

ـ اذن عليك يا محجوب ان تكتب بهذا الرأي للخرطوم ، وسأدعمه انا من جانبي بكل سبيل ، اريدك ان تفعل ذلك حتيٰ لا يسئ الاخوة في جهاز امننا القومي بي الظن ، ويعتقدوا انني اسعي لاحتواء كيانك الامني بوضعك تحت كنف وهيمنة السفارة !

قلت له :

ـ سعادتك هذا مفهوم وارد بلا شك في جهازنا الامني ، وقد جري تنبيهي اليه قبل قدومي اليكم ، ولكني اعتقد جازما ان هذا مفهوم خاطئ عقيم ، ففي اعتقادي اننا سفارة وقنصلية نعمل لهدف وغاية واحدة ، هي امن السودان

ورعاية مصالحه السياسية والاقتصادية في الخارج ، اضافة الي الوفاء بالتزاماتنا الحضارية والانسانية والمصيرية التي تفرض علينا التلاحم والتفاعل مع شعوب العالم لبلوغ الاهداف المشتركة وهذا لن يحدث بالصورة المثلي مالم تتحد ارادة وكيان عملنا الدبلوماسي والامني .

نظر الي اللواء السفير بارتياح ظاهر وقال :

- هذا ما اراه انا ايضا يامحجوب ، ويسعدني اننا نلتقي في الرأي والحس الوطني الامين .

قلت له :

- وهذا يا سعادتك لن يتحقق لي كقنصل الا بك ومعك ، واري ان عمل القنصل مكمل لعمل السفير ولا يتعارض معه بحال ، ولهذا فسوف استشيرك في كل امر اقوم به وكل تقرير اعده حتي ذلك الذي يتسم بالسرية حول عمل السفارة .

هنا فوجيء اللواء احمد فتساءل :

- وهل طلبوا منك ان تكتب تقارير عن عملنا في السفارة ؟!

اجبت :

- نعم هذا ما طلبوه فعلا ، اضافة الي تنطس اخبار الاخوة السودانيين العاملين في نيجيريا الي غير ذلك مما وعدوا بارساله من تعليمات ومطالب اخري .

ضحك الرجل في سخرية وعلق بقوله :

- لاشك يا محجوب انهم قد اختاروا لهذه المهمة رجلا من غير اهلها ، فانت كما عرفتك لا تصلح لمثل هذه المهام المزدوجة ! مهما يكن من امر فاني سأكون عونا لك في عملك ، وسوف اطلعك بدوري علي تقاريرنا لتنطلق من واقعها ، ففي رأيي ان الهدف الاساسي من هذه التقارير ، هو اتاحة الفرصة وتبصير القادة السياسيين والتنفيذيين بواقع الحال والظروف القائمة هنا لاتخاذ القرار الصائب بما يخدم مصلحة السودان ، وهذا بالطبع لن يتحقق اذا تضاربت معلومات تقاريرنا او اختلفت في حكمها علي الاشياء .

اما عن الاخوة السودانيين العاملين بنيجيريا فهم اخوة لابنائها ويربو عددهم الخمسين يعملون بالتجارة والصناعة والتعليم الجامعي ، وهم من خيرة

ابناء السودان دفع بهم رغم حاجته اليهم من اجل تطور نيجيريا وتقدمها ، فاضحوا لنا خير سفراء وبالشقيقة نيجيريا بررة اوفياء .

قلت له :

ـ لا اشك في ذلك مطلقا ، ولن اكتب عنهم شيئا لا يرضي .

عند ذلك نظر الي السفير احمد الشريف بامعان وتدقيق كأنه يبحث عن شئ يستشفه من ملامحي ثم باغتني بالسؤال .

ـ قل لي بربك يا محجوب ، هل طلب منك المسئولون في جهاز الامن السوداني ان تكتب عني انا شخصيا ؟! فاذا صح ذلك فلماذا ـ اختاروني سفيرا امثل دولتهم في الخارج ؟

وجدتني مسوقا لاجابته بمنتهى الصراحة والوضوح . فقلت له :

ـ انهم يرون انك صهر قطب الحرب الوطني الاتحادي السيد احمد زين العابدين ، وهو عندهم احد المعاول التي تعمل لهدم كيان الثورة وايقاف تقدمها . ومن ثم لا يستبعدون ان يسعي لاستقطابك والافادة من خبراتك العسكرية ومعرفتك الشخصية بقادة الثورة وقدراتهم ومواطن ضعفهم . كذلك يخشي حراس النظام ان يجعل منك صهرك المناضل همزة وصل بينه وبعض القادة والافراد المناوئين للثورة . فطلبوا ان اكتب لهم عن ذلك بتركيز ومتابعة . وادني من هذا كله وايسر . قناعتهم بان علاقة المصاهرة والصداقة بينكما تحتم عليكما اللقاء بين حين وآخر ، او عبر مكاتبات عادية ، فيحدثك باخباره وتحركاته المضادة بغير تحفظ ولا ارتياب ، ربما في اطار المودة والعفوية والصلات الشخصية ، وهذا ما يتوجب علي ان اعرفه ، واكتب لهم به ، وهو اضعف الايمان .

انفجر اللواء احمد الشريف ضاحكا حتي اغرورقت عيناه بالدموع ، من شدة الانفعال . فلما ملك زمام نفسه رمقني بنظرة ارتياح ودهشة ، ثم قال :

الم اقل لك يا محجوب انك طائر علي غير شاكلتهم ومعادنهم الخسيسة . قلبي علي وطني تهدر طاقاته وجهود بنيه فيما لا يثمر !

قلت له :

ـ عفوا سعادة اللواء ، فاني مزمع ان اجعلها مثمرة تؤتي اكلها في كل حين بما يعود علي سوداننا بالصحة والعافية والقوة . تقارير تنفع ولا تضر ، وليكن

بعد ذلك ما يكون . اعتدل الرجل في مجلسه وقال في مودة بادية :

ـ صدقني يامحجوب هذا ما افعله انا ايضا ! فانا من موقع الالتزام الخلقي والانساني والانضباط العسكري اقوم بمهام منصبي خير قيام ، وقد آليت علي نفسي انني لحظة ان احس فيها ضعفا او رغبة في الانحياز للثورة المضادة ، ان اقدم استقالتي كسفير يمثل بلاده في الخارج ، لاتحرر من قيود الالتزام ، انني لا افترض فيك الطيبة والسذاجة والعفوية التي تبلغ حد العبط والا كنت انا العبيط حقا ، وذلك لما اعرفه عنك من قبل ، انك ولاشك داهية ذكي ، ولكن في غير مكر ولا خبث .

وصراحتك الآن ستكون اضافة لشمائل عديدة احفظها لك ، وعونا لك في عملك ، وليس عاملا معوقا له بحال . وكما قلت فنحن كلانا نعمل لنفس الغاية النبيلة والهدف العظيم ، ونسأل الله عونه وتوفيقه .

كانت يد الرجل الكبير تشد علي يدي بقوة وهو يقول عباراته الاخيرة ، فتجاوبت معه بحرارة تنبئ عن الصدق والصفاء والود . وخرجت بعدها في صحبته الي مكتبه ، حيث اطلعني ـ نهار يومنا ذاك ـ علي الملفات العامة والسرية ، ونفحني بمعين خبرته وتجربته في العمل الدبلوماسي عموما والامن السياسي علي وجه الخصوص . وبعد انقضاء ساعات العمل الرسمية قمت معه بجولة لتفقد بعض معالم المدينة وفنادقها الفخيمة مثل فندق (أكوي) وفندق (فدرال بالاس) . ثم انتهي بنا المطاف الي سهرة ماتعة بحان باخوس ، وهو المكان المعتاد لتجمع الدبلوماسيين في العاصمة النيجيرية .

بدأت بواكير ثاني ايام عملي الرسمي وساعات صباحه الاولي ونحن في لاغوس بداية عادية ، حتي اذا جاءتنا الصحف الصباحية اليومية ، اصابتني الدهشة وانا اقرأ نبأ حفلت به معظم تلك الصحف ، مفاده ان خمسة ممن ثبتت عليهم تهمة نهب المسلح سيعدمون صباح ذلك اليوم في المكان المعد لتنفيذ مثل هذه العقوبات عند شاطئ المحيط الاطلسي !!

واذ رأي اللواء السفير دهشتي افضى الي بمعلومة تفيد ان الحرب الاهلية النيجيرية قد خلفت الكثير من المآسي والمشكلات الاجتماعية ، اهمها واخطرها هروب اعداد كبيرة ممن شاركوا في الحرب باسلحتهم وعتادهم الحربي ، خاصة اولئك الذين ارتكبوا جرائم جنائية خلال فترة الحرب ، فاختلطوا بامثالهم في

المجتمع ، وكونوا معا عصابات مسلحة للسلب والنهب ، وأثاروا موجة من الفزع والرعب وعدم الاستقرار في المجتمع النيجيري والجاليات الاجنبية بصفة خاصة .

ولما كان هذا النشاط المخرب يؤثر تأثيرا بالغا ومباشرا علي سمعة نيجيريا واقتصادها والموارد السياحية الهامة فقد عالج الجنرال يعقوب قاوون هذا الخطر بكل شدة وحزم ، واصدر تشريعا يقضي باعدام كل من تثبت عليه تهمة السلب المسلح ، وبموجب هذا التشريع سيتم تنفيذ الاعدام في هؤلاء الذين اعلنت خبرهم الصحف .

سألته ان كان بمقدورنا مشاهدة تنفيذ العقوبة فاجابني السيد السفير بانه هو شخصيا لا يرغب في رؤية هذه المشاهد المأساوية ، ولكن بوسعي ان اشهد الحدث بصحبة سائق عربته وسوف يسمح لي بالدخول الي ساحة التنفيذ بموجب جواز سفري الدبلوماسي .

فلم اضع وقتا ، اذ صحبت السائق وسمح لي معه بالدخول ، وهناك - يا للعجب - شهدت خمسة من الفتيان الاصحاء في نضارة الشباب وريعانه ، يقتادون الي جذوع الاخشاب المنصوبة في شكل صليب لتنفيذ الحكم ، ولدهشتي كان هؤلاء الشبان - وهم يساقون قسرا بواسطة حراسهم المدججين بالسلاح وايديهم مقيدة خلف ظهورهم - كانوا يتجهون الي مصارعهم ويتصايحون بالفاظ سوقية نابية باللغة الانجليزية تحمل السباب واللعنات للرئيس النيجيري ودولته بل والمجتمع النيجيري نفسه . وبينما كان احد القسس يحاول تهدئة خواطرهم المهتاجة ليلقي عليهم موعظته الدينية الاخيرة ، بصق احدهم في مواجهته وصاح فيه ساخرا :

- سأراك معي في الجحيم يا من تحترف الفشل والتدليس باسم الدين والسلام

فضحك رفاقه في صفاقة وهزؤ ، فلما تعذر علي القس كبح جماحهم تنحي قليلا ، فاقتادهم الحراس الي تلك الاعواد وشدو وثاقهم عليها ، واطلقوا عليهم حاصبا من نار بنادقهم ، بين صياح جمهور المشاهدين ، ثم عجبت لمرأي الضابط المسئول عن تنفيذ العقوبة وهو يتفقدهم علي الاعواد واحدا بعد آخر ، ويطلق علي رأس كل منهم طلقا ناريا من مسدسه ، ولم ادر ان كان ذلك الاجراء معمول به من قبل ، ام انه من قبيل التوثق ! فلم يجد الطبيب المسئول عناءا في انجاز مهمته سريعا ، ومن ثم حشرت الجثث في عربة اسعاف كانت تنتظر ، فانطلقت

بها وهي ترسل صفيرا متصلا الي مثواهم الاخير .

ويتكرر الحدث والفعل من جديد ، لتصدق في ذلك الحكمة القائلة : ان العنف المسلح يقابله عنف مماثل ، ويتولد منهما عنف وليد ، وهكذا حال البشر علي ظهر امنا الارض ، اذ تعد النظم والقوانين والخلق والدين عاصما في كل الاحوال ، صراع مقيت بين الناس علي المال الحرام ، سبيلهم اليه شهوة التملك والعنف المريض .

عواصف عاتية من الحقد الاسود ، تجتاح العالم والشعوب والافراد !!

ومع ذلك ..

فقد الانسان يحلم بالحب والسلام !

فما ابعد الشقة بين الحلم والواقع .. انه عجز الانسان الابدي ، وخضوعه لناموس التعادلية وحكمتها البليغة .. ولله في خلقه شئون ..



ألفيتني شديد الحماس والرغبة في تجويد اساليب الاداء لعملي القنصلي مظهرا الامني حقيقة ، فتكرر لقائي باللواء السفير احمد الشريف الحبيب بمكتبه في اليوم التالي، بهدف المزيد من التنوير والتدارس حول اعباء منصبي بينهم والصورة المثلي لادائها ، وبهذه الروح اقترحت علي سعادة اللواء ان اقوم باصدار نشرة دورية باللغة الانجليزية لابراز اخبار السودان وترجمة الخطوط العريضة لمخططات التنمية في كل المجالات ، والمؤثرات الضاغطة التي تواجه البلاد ، ومدي قدرة الثورة علي التصدي لها ، اثراءا لتجربة المجتمع السوداني عامة والافريقي علي وجه الخصوص . فاستقبل سعادة السفير ذلك الاقتراح بكثير من البشر والاعجاب ، وطلب مني ان اعمل فورا علي جعله حقيقة واقعة . ثم اضاف انه شخصيا يلتزم بكتابة المقالات الافتتاحية لكل عدد يصدر ، ووفاءا بهذا الالتزام فانه سيبدأ علي الفور في كتابة تقديمه للعدد الاول من النشرة وسوف يسلمني اياه في مدي ساعة من الزمن

ثم استدعي الي مكتبه كلا من الاخ حسن مصباح الوزير المفوض بالسفارة والاخ يوسف الفكي السكرتير الثاني بالسفارة ، وافضي اليهما بما نحن بصدده ، وطلب منهما ان يتعاونا معي في اصدار النشرة ، ثم قمت معهما لساعتي لتجميع المواد الاولى من محتويات الصحف السودانية الواردة الينا ومن التقارير الدورية وبعض الكتب والمجلات .

وبينما كنا عاكفون علي ذلك بمكتبي حضر سعادة اللواء السفير يحمل ما خطه يراعه كمقدمة للعدد الاول من النشرة ، واتخذ مجلسه الي جانبي وطلب مني ان اقرأ ما كتبه وابدي رأيي فيه ، فاجبته الى ما طلب حتي اذا ما فرغت من قراءة المقدمة قلت له :

- سعادتك اقول حقيقة لا ملق فيها ولا رياء انك تتميز باسلوب ادبي وتناول موضوعي رفيعين وانجليزية رصينة ، وهذا بالطبع شيء لا يفترضه فينا الاخوة الملكية .

وكنت انظر الي الاخوين حسان ويوسف وانا اكمل التعليق السابق ، فانطلق سعادة اللواء السفير من روح الدعابة والمزاح عينها واضاف وهو ينظر اليهما ايضا :

- السادة الملكية ولا شك يجهلون او يتجاهلون عمدا قدراتنا الادبية والفكرية ، وبعضهم يمضي الي ابعد من ذلك وينكر علينا مواهبنا القيادية والسياسية ومع ذلك فنحن - بالنسبة اليهم - واقع حال لا فكاك منه .

وتجاوب الاخوان حسان ويوسف مع دعابات اللواء بتعليقات ساخرة عفوية ، تجلي لي من خلالها علاقة الود والاخاء التي تربطهما بربان السفارة ، فاضحوا جميعا كيانا اسريا ومثالا يحتذي في علاقة الرؤساء بمرؤوسيهم ، وخاصة بين الدبلوماسيين .

انقضت ساعات العمل الرسمية فخرجت من مبني السفارة في صحبة اللواء أحمد الشريف الحبيب ولبيت معه دعوة للغداء عند احد كبار المسئولين فأثار انتباهي ان ذلك المسئول وغيره من المدعوين قد احتفوا كثيرا بمقدم اللواء السفير ، اذ تلقوه في الفة ومودة واجلال ، ثم جري بينهم حديث وحوار صريح جدا حول بعض الشئون السياسية في نيجيريا ، كما انتقدوا سلوك طائفة من كبار الشخصيات النيجيرية علي المستويين الشخصي والعام ، من ذلك مثلا ، ان احد هؤلاء الكبار تلقي رشوة في شكل عمولة مقدارها ٥٪ من احدي الشركات الاجنبية العاملة في مجال البناء والتشييد ، وكانت العمولة - او الرشوة - نظير عطاء كبير رسا علي تلك الشركة بمعاونة المسئول النيجيري ! وحدث ان نقل هذا من موقعه وحل محله آخر جديد ، فطالب نفس الشركة بعمولة مماثلة ولكنها رفضت الاستجابة لمطلبه وشكت امره الي حاكم الولاية العسكري ، فما كان من الحاكم الا ان قال لممثلي تلك الشركة المتضررة :

- ادفعوا له ما طلب او ارفعوا ايديكم عن تكملة العطاء ! وفي هذه الحالة لن ندفع لكم نحن قيمة ما سبق انجازه من العمل .

عندها وجد ممثلو الشركة انفسهم امام أمر واقع فاستسلموا كارهين ووافقوا علي دفع الرشوة الجديدة لذلك الموظف الجديد ، ولكن الحاكم اراد ان [illegible] نجاحه في مواجهة الشركة [illegible] في [illegible] بشراهة

- [illegible]

فسألوه بدورهم :

ـ وماذا عنك انت ايها الحاكم الجليل ؟

اجابهم :

ـ انا اريد عمولة ١٪ لنفسي !! ادفعوها او تخلوا عن العطاء ، ليدفعها لي صاحب العطاء الجديد الذي سيتولي العمل بعدكم !!

فلم يجد ممثلو الشركة بدا من الاذعان ودفع الرشوة المضاعفة للحاكم ، فبلغت جملة مادفعوه من رشاوي ٢٪ من قيمة العطاء .

عندئذ تساءل الحاضرون :

ـ هل حققت هذه الشركة بعد ذلك ارباحا ؟ فاذا كانت الاجابة بنعم ، فكم كانت الزيادة اصلا عن السعر المناسب لحجم العطاء ؟! انها بلا شك تربو علي ٥٪ والا لما استجابت الشركة لضغوط سيل الرشاوي الكبيرة تلك واستمرت في انجاز العطاء .

وتساءل نفر من الحاضرين في مرارة :

ـ الي متي سيستمر ذلك الفساد في نيجيريا ؟

ـ وماهي قدرة السلطة الحاكمة في البلاد علي التصدي له ومحاربته ، خاصة وقد صدر قانون جديد يحرم الرشوة ويعاقب عليها ؟!

وبصدد الاجابة علي ذلك ، جزم كل الحاضرين ان ذلك القانون لن تكون له قيمة الورق الذي كتب عليه ، وان الرشوة في نيجيريا اضحت ظاهرة عميقة الجذور واسعة الانتشار .

خرجت مع اللواء احمد الشريف بعد ذلك الغداء المثير نحو منزله لننال قسطا من الراحة ، قبل الخروج مرة اخري لتلبية دعوة رسمية اخري في المساء ، وحين ازف وقتها وكنا نستعد للخروج معا فاجأنا بعض رجال الاعلام والصحافة النيجيرية وبعض كبار المسئولين ، حتي امتلأت بهم ردهات صالون الدار الكبيرة وبالسؤال عن سبب الزيارة المفاجئة بطل العجب ، فانكروا علينا اننا لم نعلم حتي ذلك الحين بوقوع انقلاب عسكري في السودان اطاح بالرئيس نميري وثورته وكانوا يؤملون في معرفة تفاصيل الحدث وهم يقصدون منزل السفير . فعقدت الدهشة السنتنا ولم نجد مناصا من الاعتراف باننا لم نسمع بالامر الجلل الا منهم ثم بدأنا معهم تنطس اخبار الخرطوم من الاذاعات الاقليمية والعالمية ، وبدأ

اللواء احمد الشريف اتصالاته بالسفارات الاجنبية عله يحظي منها بخبر او يجد في اتصالاتها اللاسلكية هدي ، ولم يمض علي ذلك الا وقت قصير ، حتي تجمع معظم السودانيين المقيمين بلاغوس في منزل السفير بين مشاعر القلق والاحباط حتي اذا كانت الساعة الحادية عشرة مساء تقريبا ، اهتدي اللواء احمد الشريف - من خلال اتصالاته بالمسئولين والسفارات الاجنبية - الي خبر مفاده ان قائد الانقلاب هو المقدم بابكر النور ومن اعوانه الرائد فاروق عثمان وكلا الرجلين ما يزال في لندن ، وان من قام بتنفيذ عملية الانقلاب في السودان هو الرائد هاشم العطا ، فتفرق الناس علي هذه المعلومة .

بقينا - نحن اعضاء السفارة - الي مابعد منتصف الليل نتداول الامر ونحاول ان نحظي من الاذاعات العالمية بمزيد من التفاصيل ، وخلال ذلك كنا نحلل موقف الانقلاب وقادته ، وكان اول تعليق للواء احمد الشريف قوله :

- ان ماحدث - من وجهة النظر العسكرية - خطأ ، اذ كيف يتأتي لبابكر النور وفاروق عثمان ان يحدثا انقلابا في السودان وهما في لندن ؟ ان في ذلك مساسا بموقفهما البطولي الذي يقتضي ان يكونا ساعة صفر الانقلاب موجودين بالخرطوم ، ويشاركا بصورة عملية في التخطيط والتدبير ثم التنفيذ من بعد ، ويتحملا كل تبعات النجاح او الفشل . ولكن احداثهما للانقلاب من لندن يجعلهما بمثابة من ينجو بجلده من عواقب الاخفاق ويطلب السلامة الشخصية باللعب علي المضمون !

وجاء ردي علي ذلك التعليق انه ربما قام الرائد هاشم العطا بانقلابه دون اخطار ومشاررة بابكر النور وفاروق في مرحلة تنفيذه المواتية ومن ثم اعلن عن اسميهما في قيادته بحكم مالهم من تدبير مبيت ، او لعله بما صنع اراد ان يتمثل بموقفه هو شخصيا من انقلاب مايو ٦٩ ، حيث كان موجودا حينذاك في المانيا الغربية مساعداً للملحق العسكري ، ومع ذلك فقد تمت دعوته من هناك ليكون عضوا بمجلس قيادة الثورة ! وربما اراد الآن ان يرد الجميل لرفاقه بعمل مماثل .

واثار تحليلي ذاك عاصفة من الجدل وقراع الرأي ، ووصفه بعضهم بانه تحليل خاطيء مؤكدا ان قادة الانقلاب لابد ان يكونوا قد دبروه ابتداءا علي الصورة والكيفية اللتين لابستا وقوعه ونجاحه في استلاب السلطة من الاحرار المايويين

فاردفت نافيا ومؤكدا صحة تحليلي السالف الذكر ، وحدثتهم باستفاضة عما جري مع لقاءاتي بكل من فاروق وبابكر النور في لندن ، ومادار فيها من احاديث وأحداث ، وخاصة حدث زيارة فاروق للواء خالد حسن عباس في الفندق وقبوله للقرض المالي . ورتبت علي ذلك ان فاروق ان كان قد تصرف علي ذلك النحو وهو يعلم حدوث انقلاب وشيك في الخرطوم ، فانه يصنف نفسه في عداد المنافقين ، وأربأ به ان يكون منهم ، فللمنافق اكثر من وجه واكثر من لسان ، ولا ينطبق قوله علي فعله ابدا . ومعرفتي الشخصية الحميمة الممتدة عبر السنين تؤكد ان فاروق في نقاء الحواريين وطهر الاصفياء .

قال احدهم ساخرا :

ـ لا تنس ان يهوذا كان يوما احد الحواريين !

قلت له :

ـ نعم ، ولكن شتان مابين يهوذا وفاروق ، فهذا رجل ذو خلق ومبادئ لا يحيد عنها ابدا ، بل يستمسك بها ويدعمها بكل ما يملك من طاقات وامكانات ، ليترجمها حياة فاضلة للجميع . ومهما يكن من امر فان غدا لناظره قريب ، وسوف يمزق ضياء شمسه حجب المجهول ، ويجلو وجه الحقيقة للناظرين .

ثم تفرقنا والليل مارد يطوي الكون تحت جناحيه ليجتمع شملنا بعد ساعات معدودة في مبني السفارة ونرقب ما تأتي به الرياح من اخبار ، خاصة تلك التي تصلنا في شكل اشارات لا سلكية من وزارة الخارجية بالخرطوم عبر قناة جهاز اللاسلكي بالسفارة .

وبعد ان تأكد لنا حدوث الانقلاب ، وعرفنا قادته ومؤيديه ، اقترح نفر من الناس بينهم اعضاء السفارة ارسال اشارة تأييد باسم السفارة والجالية السودانية بلاغوس ، ولكني بعد ان تدارست الامر مع سعادة اللواء السفير ، نصحت له بالتريث في ذلك حتي يستقر الحال بالوضع الجديد . خاصة وان قادة الانقلاب مازالوا خارج السودان ، وقد تثير هويتهم السياسية المعروفة كثيرا من العواصف والاعاصير المناوئة ، فلن يسمح الغرب الاوربي ومن ورائه الولايات المتحدة الامريكية واعوانها في الشرق الاوسط بقيام دولة شيوعية في بلد كالسودان ، دون ان تصدر عنهم ردة فعل عنيفة قد تطيح بالانقلاب والانقلابيين الحمر . فوافقني سعادة السفير علي هذا الرأي ، ولكنه رأي ان

اجيب لاعضاء السفارة وافراد الجالية السودانية مطلبهم باعداد الاشارة بعد ان اقوم بتحريرها وصياغة مضمونها ، ثم ارجيء ارسالها للوقت المناسب ، علي ان اخفي امر التباطؤ في ارسال الاشارة حتي لا اتعرض لضغوط بعض المتحمسين .

وطلب مني سعادة السفير الا اتطوع باي تصريح او خبر سياسي لرجال الصحافة والاعلام النيجيريين ، وان اترك له هذه المسألة جملة وتفصيلا . فوعدته بذلك والتزمت به .

ولم يك عجبا ان يبدي الرجل حنكة سياسية ولباقة دبلوماسية بعيدة المدي في التعامل مع الحدث والآخرين ، اذ جاءت كل اجاباته علي أسئلة المسئولين ورجال الاعلام في صيغة تساؤلات يطرحها عليهم وكأنه في موقع السائل لا المجيب ، وفي بعض الاحيان كان يحور دفة الحديث الي وجهة اخري لا يخرج عن نطاق الكيان النيجيري ! ثم يتشاغل عنهم بتصريف بعض المهام المستعجلة فيختفي عن الانظار ، فترات تطول وتقصر .

ومع تطور الاحداث علمنا ان المقدم بابكر النور والرائد فاروق عثمان قد عقدا مؤتمرا صحفيا بلندن ، افصحا فيه بجلاء عن هوية قادة الانقلاب السياسية ، واعلن بابكر النور ان تدبير الانقلاب كان يجري منذ شهور مضت ، وان انقلابهم يجيء في اطار الثورة التصحيحية لمسار ثورة مايو التي عجزت قيادتها الحالية المتردية عن الانطلاق بها في طريق التقدم الثوري المنشود .

ومن بعد أستقل المقدم بابكر النور رئيس مجلس قيادة الثورة الجديد والرائد فاروق عثمان طائرة الخطوط الجوية البريطانية الي السودان ، فاتخذت الطائرة خط سيرها ـ بقصد أو بغير قصد ـ عبر الاجواء الليبية ، مما سهل علي العقيد معمر القذافي ان يستخدم طائرات سلاح جوه المقاتلة في اجبارها علي الهبوط بالارض الليبية ، ثم القي القبض علي المقدم بابكر النور والرائد فاروق عثمان حمد الله قبل ان يسمح باقلاع الطائرة من جديد !! فاضحي هذا الفعل ـ والذي اسمته دول المحور الاشتراكي وقيادة الثورة الوليدة في الخرطوم باسم القرصنة الجوية ـ اضحي ذلك الفعل باختلاف مسمياته قاصمة ظهر للمولود الجديد وهو لم يخرج بعد من طور المهد الي واقع الحياة .

ثم جاء خبر آخر مفاده ان اللواء خالد حسن عباس واعضاء الوفد المرافق له وطاقم السفارة السودانية بالقاهرة وقادة وضباط وافراد القوات السودانية المرابطة

في جبهة القتال المصرية قد اعلنوا رفضهم للانقلاب الجديد ووصموه بالغدر والخيانة الوطنية . كذلك اعلنت الدولة وقيادتها في مصر عن مناهضتها للانقلاب وانها تعد العدة لاجهاضه عن طريق تحريك القوة السودانية بجبهة القتال نحو السودان بقيادة اللواء خالد حسن عباس في شكل قوات محمولة جوا وسوف تدعمها قوات الانقضاض السريع المصرية / صاعقة / مظليين / قوات محمولة جوا ، وان الجيش المصري بأكمله سوف يتجه الي السودان ان اقتضي الحال !!

في خضم ذلك ، وردت الينا اخبار السودان ، تفيد ان الرائد هاشم العطا لم يكن موفقا تماما في بيانه الاول للشعب من خلال الاذاعة والتلفزيون وانه قد اعطي المشاهدين صورة مهزوزة للحكام الجدد ، بسبب ماكان يبدو عليه من اضطراب وتوتر نفسي وارتباك وهو يلقي بالبيان ، فترك هذا انطباعا نفسيا سيئا لدي عامة المشاهدين .

ونما الي علمنا ايضا ان الرئيس جعفر نميري وكل قيادات نظامه المدنيين والعسكريين ما يزالون رهن الاعتقال التحفظي بالخرطوم داخل القصر الجمهوري وبيت الضيافة وانهم لم يقدموا لمحاكمات فورية او حتي يبعدوا من عاصمة البلاد ، علي مافي هذا الاجراء من خطر علي نجاح الانقلاب وحياة قادته !

كما علمنا - خبر آخر ان القاعدة الشعبية للانقلابيين من جماهير الحزب الشيوعي السوداني قد سيرت مظاهرة تأييد محدودة ، وكان افرادها يحملون ويلوحون بالرايات الحمراء ، فتصدي لهم بعض المناوئين واحبطوا مقاصدهم وفرقوا شملهم فكسروا بذلك شوكة هالتهم السياسية وذهبوا بهيبتهم بين الناس .

وبينما كانت تصلنا كل هذه الاخبار والافادات في لاغوس عن طريق اجهزة الاعلام العالمية وعلاقاتنا الشخصية بالسفراء والمسئولين النيجيريين وجهاز سفارتنا اللاسلكي ، كنا نتابع ايضا آراء وتحليلات المعلقين السياسيين في الشرق والغرب ، وقد ادان المحللون الغربيون والعرب - الا قليلا - الانقلاب الشيوعي في السودان وتنبأوا بسقوطه وفشله .

وعشنا هذا الشتات والتمزق ثلاثة ايام عصيبة وافئدتنا تلهج بالدعاء للسودان الحبيب .

كانت كل عوامل الفشل والاخفاق قد احاطت بالانقلاب التقدمي او الثورة

التصحيحية . كما يحلو للبعض في الخرطوم تسميتها . وبتنا نحن في لاغوس نتوقع مع فجر كل يوم جديد ان نسمع اخبار احباط الانقلاب واندحاره .

فلما كان مساء يوم ٢٢ يوليو ١٩٧٠م جاءتنا الاخبار تترى بان انقلابا مضادا قد وقع في الخرطوم ابتدره صف ضباط وجنود سلاح المدرعات ، وتلاحمت معه جميع وحدات القوات المسلحة وجماهير العاصمة والاقاليم ، وتم اجهاض الانقلاب التقدمي او الشيوعي ولحقت به وبقادته واشياعهم هزيمة منكرة تمثلت في قتل وجرح البعض منهم ، ونما الي علمنا ان قادة الانقلاب حين فوجئوا بالتحرك المضاد امروا بحصد ارواح كل الضباط المعتقلين في بيت الضيافة بصورة مأساوية دامغة ، في محاولة منهم للخلاص من هؤلاء القادة والضباط حتي يحولوا بينهم وبين اللحاق بتحرك وحداتهم المضاد وقيادتها ، وقد تمخض هذا القرار البربري عن مجزرة بشرية بشعة راح ضحيتها كل من :

١: عميد أ.ج مصطفي عثمان اورتشي
٢: عميد أ.ج سيد احمد حسين حمودي
٣: عميد أ.ج محمد عثمان كيلة
٤: عقيد أ.ج سيد المبارك
٥: عقيد أ.ج عبد العظيم محمد محجوب
٦: مقدم عبد الصادق حسين عبد الصادق
٧: رائد سيد احمد عبد الرحيم
٨: رائد تاج السر حسن علي الشيخ
٩: رائد كمال الدين سلامة
١٠: رائد صلاح خضر
١١: نقيب محمد يعقوب
١٢: نقيب محمد صلاح محمد
١٣: نقيب الطاهر احمد التوم
١٤: نقيب محمد عمر
١٥: ملازم اول محمد حسن عباس "شقيق خالد حسن عباس"
١٦: ملازم اول محمد الحسن ساتي
١٧: رقيب اول عثمان ادريس

١٨ : رقيب اول دليل احمد الدبيك
١٩ : عريف الطيب النور
كما توفي عدد آخر متأثرين بجروحهم .
بينما كتبت النجاة لبعضهم .

وقد اكد هؤلاء حدس الانقلابيين التقدميين فلحقوا فور خلاصهم من الاسر والمذبحة النكراء بوحداتهم وتولوا قيادتها ، فاقتحموا بمدرعاتهم القيادة العامة بالخرطوم حيث تصدي لهم المقدم محمد احمد الريح ، قائد سلاح المظلات وعضو مجلس قيادة ثورة التصحيح المدحورة ، ولكن وحدته المظلية لم تصمد طويلا امام قذائف المدرعات المقتحمة ، فاستشهد الرجل في بسالة ، ثم استسلم افراد وحدته ، كما استسلم للامر الواقع كل قادة الانقلاب الاحمر من عسكريين ومدنيين .

وعلي أثر ذلك خرجت جماهير العاصمة والاقاليم في مظاهرات هادرة حاشدة تندد بالحركة الانقلابية التصحيحية وقادتها التقدميين ، وتعلن ولائها وفرحتها بعودة مايو وقائدها المظفر جعفر نميري ، ولم تسكت الجماهير علي مذبحة بيت الضيافة فطالبت بالقصاص من قادة الحزب الشيوعي السوداني وكوادره الغادرة من عسكريين ومدنيين ، فاستجاب لمطلبها الرئيس نميري ورفاقه الموتورين ، وكان ذلك المطلب قد نادي به ايضا رفاق السلاح ، ومن ثم شكلت علي الفور محاكم للثأر وتأمين النظام .

وفي خضم هذه الاحداث عاد اللواء خالد حسن عباس من مصر الي الخرطوم ولحقت به القوة السودانية المرابطة بالجبهة في ذلك الحين ، ومن جانب آخر ، تطوع العقيد معمر القذافي بارسال المقدم بابكر النور والرائد فاروق عثمان مخفورين في طائرة خاصة الي الخرطوم ، ليلقي كلاهما مصرعه في محاكمة ميدانية عاجلة . واستمرت هذه المحاكم الميدانية علي مدي اسبوع كامل ، ثم اصدرت احكامها بالاعدام والسجن آمادا متفاوتة علي كل من ادينوا في تلك المحاكمات ، وقد صدر الحكم بالاعدام شنقا ضد كل من الشهيد :

١ : عبد الخالق محجوب عثمان ـ سكرتير الحزب الشيوعي السوداني
٢ : الشفيع احمد الشيخ
٣ : جوزيف قرنق

٤ : مصطفي خوجلي
٥ : حسين سيد قطان

وجري تنفيذ الحكم بسجن كوبر .

كما جري تنفيذ حكم الاعدام في العسكريين بدراوي ضربنار سلاح المدرعات ومنطقة الحزام الاخضر علي كل من الشهيد :

١ : مقدم (م) بابكر النور سوار الدهب
٢ : رائد (م) هاشم العطا
٣ :رائد (م) فاروق عثمان حمد الله .
٤ : مقدم عثمان الحاج حسين (ابو شيبة)
٥ : مقدم عبد المنعم محمد احمد (الهاموش)
٦ : مقدم محجوب ابراهيم طلقة
٧ : رائد محمد احمد الزين .
٨ : نقيب معاوية عبد الحي
٩ : نقيب بشير عبد الرازق .
١٠ : ملازم اول احمد جبارة مختار .
١١ : ملازم اول احمد عبد الرحمن الحاردلو .

وهكذا تتكرر مأساة هابيل وقابيل بين اخوة الوطن ورفاق السلاح ، ولكن بصورة عصرية متقدمة .

كما حوكم بالسجن والتجريد من الرتبة والطرد من الخدمة كل من :

١ : مقدم احمد عبد الرحمن عبد الحفيظ ٥ سنوات
٢ : مقدم صلاح الدين محمد فرج ٢ سنة
٣ : مقدم حسين عثمان بيومي ٥ سنوات
٤ : مقدم مبارك حسن فريجون ٥ سنوات
٥ : نقيب محمد احمد محجوب ١٠ سنوات
٦ : نقيب عباس ابراهيم الاحمدي ٦ سنوات
٧ : نقيب صلاح السماني ١٥ سنة
٨ : نقيب محي الدين ساتي ١٠ سنوات
٩ : نقيب عبد الرحمن محمد [illegible] [illegible] ١٢ سنة

١٠: ملازم عبد العظيم عوض سرور ٢٠ سنة
١١: ملازم مدني علي مدني ١٥ سنة
١٢: ملازم محمد علي رزق ١٥ سنة
١٣: ملازم فيصل مصطفي ١٥ سنة
١٤: ملازم موسي محمد موسي العزل والطرد
١٥: ملازم فيصل محجوب كبلو ١٥ سنة
١٦: ملازم (م) صلاح بشير ٢٠ سنة
١٧: ملازم (م) احمد الحسين ٢٠ سنة
١٨: ملازم: خالد حسين الكد سنة
١٩: مساعد عابدين الماحي العزل والطرد والسجن ستة شهور
٢٠: رقيب اول امين بشير الاستغناء عن الخدمة
٢١: رقيب اول الطاهر ابو القاسم العزل والطرد والسجن ستة شهور
٢٢: رقيب الرشيد محمد الحسن الطرد
٢٣: عريف بشرى يحي يوسف العزل والطرد والسجن ستة شهور
٢٤: عريف حسن الطيب الاستغناء عن الخدمة
٢٥: وكيل عريف ابراهيم الياس المليح الاستغناء عن الخدمة .

كما تم طرد خمسة ضباط وتبرئة ثمانية آخرين . وفي وقت لاحق احيل اثنان وثلاثون ضابطا للتقاعد واستغني عن خدمات سبعة ضباط وطرد احدي عشر ضابطا وبلغت جملة الضباط المبعدين خمسة وخمسون ضابطا من مختلف الرتب

كما قدم عدد آخر من المدنيين امام محاكم مدنية حكمت علي بعضهم بالسجن وبرأت آخرين

ثم بدأت حملة واسعة لالقاء القبض علي الشيوعيين الهاربين وعلي رأسهم السادة التجاني الطيب ومحمد ابراهيم نقد ـ سليمان حامد ـ الجزولي سعيد ، والدكتور مدني ابو عيسي امين عام منطقة الجزيرة اقوي المناطق نفوذا للحزب خارج العاصمة . وبلغ عدد المحاكم المشكلة للمشتركين في الحركة مدنيين وعسكريين ستة محاكم .

علي الصعيد الخارجي . تم طرد السفير السوفيتي بالخرطوم . وارسلت سوريا وفدا للتهنئة بانتصار ثورة مايو وعودتها لسلطة الحكم برئاسة السيد

محمد الايوبي رئيس الوزراء ومعه الفريق مصطفي طلاس وزير الدفاع وعبد الحليم خدام وزير الخارجية وجاء وفدا مصريا برئاسة السيد حسين الشافعي نائب رئيس الجمهورية ومن ليبيا جاء الاخوان بشير هوادي ومحمد المقيرف من مجلس الثورة الليبي .. جاءوا للتنهئنة بالعودة المايوية ..

وحفلت الصحافة واجهزة الاعلام النيجيرية كافة باخبار السودان ، وافردت لحدث الانقلاب وعودة الرئيس نميري وبطانته الي دست الحكم مرة اخري مساحات كبيرة ، فكان واضحا ان الاعلام النيجيري يقف مؤيدا لحكم نميري وشخصه ضد ما اسماه بالانقلاب الشيوعي العميل فلم يكن بدعا ان يتقاطر الينا رجال الاعلام النيجيريين يتنطسون كل جديد ويتساءلون عما وراء الاكمة من اسرار ومستجدات ، وعاد اللواء احمد الشريف الحبيب سيرته الاولي في الاجابة علي تساؤلاتهم واستفساراتهم في غير تحفظ كبير هذه المرة .

وكما حدث من قبل ، اجمع اعضاء السفارة والسودانيون المقيمون بلاغوس امرهم علي ضرورة ارسال اشارة تأييد للرئيس العائد جعفر نميري ورفاقه ، خاصة وقد علموا ان الاشارة الاولي لم ترسل بعد !! ويدعو للدهشة والعجب في الامر انه بعد اجراء تعديل طفيف في عبارات الاشارة الاولي المقرر ارسالها لتأييد زمرة الانقلابيين الشيوعيين ، اضحت هي ذاتها صالحة لتأييد اعدائهم وتهنئتهم بدحر الانقلاب !! فقمنا بارسالها سريعا حذر التخلف عن ركب الموالين المؤيدين لعودة مايو وانتصارها العظيم .

بقينا بعدئذ في شغف بالغ نتصيد اخبار السودان مما يرد الينا من صحف ومجلات واشارات لاسلكية وتقارير دورية ، وما تبثه اجهزة الاعلام الاقليمية والعالمية ، وكان من بين ماورد الي من استفسارات امنية من الخرطوم استفسار عن بعض اعضاء الجالية السودانية في نيجيريا ، وعلي الاخص البروفسير النذير دفع الله والبروفسير زكي مصطفى ، ولما كنت لا اعلم الكثير عنهما ، فقد استعنت بخبرة وصلات سعادة اللواء السفير لانجاز تلك المهمة ، فضحك الرجل ساخرا ثم سألني ان كنت اقبل ما يكتبه هو عنهما ولا امانع في ارساله كتقرير من عندي؟ فاجبته بنعم فكتب اللواء السفير الاديب مالم يكن في حسباني تقريرا اشبه بالقطعة الادبية ، شاملا في نفس الوقت لكل ما ينتظره قادة امننا القومي من معلومات حيوية هامة ، تؤكد كامل ولاء الرجلين

المشبوهين لثورة مايو وقيادتها ، واستعدادهما للتعاون مع مسارها الثوري .

ظننت وقتها - وبعض الظن اثم - ان سعادة اللواء انما كتب ذلك التقرير متأثرا بصلاته الشخصية بالرجلين الكبيرين ، ورغم ذلك آثرت الوفاء بالوعد فارسلت التقرير برمته وكأنه قد صدر من معين معرفتي بحال المستفسر عنهما ، ومن عجب اثبتت الايام صدق ما اورده اللواء السفير من احكام قاطعة عن موقف ذينك الرجلين حيث اصبح كلاهما في قابل الايام من ركائز مايو ، فتولي البروفسير النذير دفع الله رئاسة مجلس الشعب القومي ، ثم جري تعيينه وزيرا للتربية والتعليم . وغدا البروفسير زكي مصطفى نائبا عاما ، ثم مستشارا قانونيا لرئيس الجمهورية .

كذلك اذكر من بين ما ورد الي من تكليف امني ، القيام برحلة الي جمهورية الكمرون لتنطس وتتبع تحركات قيادة الانيانيا ، فقد نما الي علم جهاز الامن في السودان انهم يتخذون من ميناء دوالا الكميروني منفذا لنقل معداتهم العسكرية عبر اراضي الكميرون والكنغو وافريقيا الوسطي ، فيممت وجهي شطر الدولة الشقيقة لانجاز المهمة الامنية ، وبلاد الكميرون كما هو معروف في التاريخ :

وقعت تحت سيطرة الاستعمار الالماني في عام ١٨٨٤م عندما كانت القارة الافريقية مائدة شهية تتقاسمها الدول الاوربية وتتصارع حولها ، واستمر الاستعمار الالماني لشعب الكاميرون الشقيق ، حتي نهاية الحرب العالمية الاولي حين هزمت المانيا وفقدت كل مستعمراتها وجري توزيعها بين الدول المنتصرة ، كغنائم حرب بتدبير من عصبة الامم ، وذلك بوضعها تحت الانتداب . فكان ان تقاسمت كل من فرنسا وانجلترا ارض الكاميرون قسمة ضيزي ، فاستأثرت فرنسا بنصيب الاسد من البلاد ، واكتفي الاسد البريطاني بالاطراف الغربية المتاخمة لحدود مستعمرته نيجيريا !!

وبقيام هيئة الامم المتحدة - بعد الحرب العالمية الثانية ، تقرر قيام مجلس وصاية لرعاية مستعمرات الدول المهزومة وهي المانيا وايطاليا ، وقرر مجلس الوصاية تعديل صورة الانتداب الي وصاية استعمارية . فظل الكاميرون تحت الوصاية الانجليزية الفرنسية حتي عام ١٩٥٧م ، حيث هب شعبها ثائرا في وجه [illegible] المستعمرين ، وانتزع حريته واستقلال بلاده عنوة منهم ، بدءا [illegible]

الذاتي عام ١٩٥٧ وصولا الي الاستقلال والسيادة الوطنية عام ١٩٦٠ ، بعد نضال مجيد .

اضحي الكاميرون بعد نيل الاستقلال درة في عقد الاحرار النظيم ، وغدت ارضه معقلا للثوار الاحرار في افريقيا ، وقد خلع الخارجون علي ارادة الشعب السوداني وقوانينه من قادة وافراد الانيانيا علي انفسهم رداء الثورة والنضال ، واتخذوا من موانئ الكميرون منطلقا لنشاطهم التخريبي الانفصالي . وهذا ما قالت به افادات جهازنا الامني يومئذ .

مهما يكن من امر ، فقد تأكد لي بعد زيارة ميدانية للكاميرون ان ماورد من معلومات لا يخلو من الصحة ، ولكن تتبعه بصورة دقيقة يحتاج الي فريق امني متفرغ لاكثر من اسبوع واحد ، ولابد لهذا الفريق من مال خاص للمهمة لا يقل عن عشرة آلاف من الدولارات حتي يمكنهم ارتياد الاماكن العامة، ودور اللهو ، وتجنيد بعض الاخوة ابناء الكاميرون لانجاز تلك المهمة . واقترحت ان تسند قيادة الفريق الامني للاخ محمد عنايت عبد الحميد قنصلنا الامني بافريقيا الوسطي وقتها .

ثم ما كدت اعود من الكاميرون الي لاغوس حتي وجدت امرا بمهمة جديدة ينتظرني ، ولك ان تعجب عزيزي القارئ ، فقد كان الامر هده المرة يتعلق بشخصية نيجيرية دينية ، توسم فيها البعض التقوي والصلاح والقدرة علي كشف المستور ، والتأثير في مجريات الاحداث عن طريق بعض من خلق الله ! وزعم ذلك البعض ايضا انه بمقدور تلك الشخصية كتابة تمائم تمنع اختراق الاسلحة البيضاء وطلقات الرصاص لاجساد البشر !!

جاءني التكليف بمهمتي (الامنية) هذه المرة من رأس الدولة وقائد الثورة الرئيس القائد جعفر محمد نميري ، في شكل خطاب سري للغاية وموسوم بالصفة الشخصية البحتة ، يطلب مني الرئيس القائد - في حال ثبوت صحة ماورد له من انباء عن الرجل النيجيري الصالح - ان اعمل علي اغرائه بزيارة السودان او الرحيل اليه ، فاذا استجاب للاغراء اقوم بارساله علي الطائرة الاثيوبية التي تغادر لاغوس الي الخرطوم يوم السبت من كل أسبوع !

ورغم استخفافي وعجبي من طبيعة هذه المهمة الامنية الدينية ، الا انني تجردت لادائها بهمة ونشاط واتزان وسرية مفرطة وحين سبرت غور الرجل

النيجيري الذي يدعي الصلاح تأكد لي بما لا يدع مجالا للشك انه دجال مشعوذ يفتري علي الحق والدين معا ، ومع ذلك فقد كان له اتباع مخدوعون هم الذين روجوا لذكره في العالمين ، ونقل ذلك عنهم بعض الاخوة النيجيريين وهم يعبرون الاراضي السودانية ذهابا وايابا لاداء فريضة الحج ، فلم تعدم دعوي الرجل الضليل من يروج لها بين اهل السودان ، حتي بلغت شأوا جعلها تصل الي مسامع الرئيس نميري وتصادف حاجة في نفسه ، فتحمس وانفعل بها واخذ يتلمس لبلوغها الاسباب ، ومن ثم كان خطابه ذلك السري الشخصي وتكليفه لي بالمهمة الامنية التي ذكرت .

يقودني الحديث عن مثل هذه الادعاءات والدعاوي الكاذبة الملفقة برداء الدين والتقوي والكرامة الخارقة للمألوف ، الي التذكير بجريان هذه الظاهرة في المجتمع النيجيري ورسوخها في تاريخ رجال الدين الاسلامي واتباعهم وهي سمة قديمة باقية .

فالمعروف ان الدين الاسلامي جاء الي نيجيريا عبر المسالك وطرق القوافل المتعددة المنتشرة في الصحراء في حوالي القرن الرابع الهجري فنشأت اولا مملكة كانم الاسلامية في منطقة بلاد برنو وبحيرة تشاد ، ثم قامت ممالك ملي وصنغاي ثم ممالك الهوسا والفولاني ، كما شيدت مدينة تمبكتو كمركز تجاري هام حوالي القرن السادس الهجري .

وفي اوائل القرن التاسع عشر الميلادي ، ظهر بامارة غوبر - وهي احدي امارات الهوسا السبع - رجل صالح من قبائل الفولاني ، عرف بالتقي والورع والصلاح ، وكان عالما متصوفا مالكي المذهب ، يدعي الشيخ عثمان بن فودي ، نهض بين قومه يعلمهم ويدعوهم الي الاصلاح الديني ، فشاع ذكره وخبره في البلاد والتف حوله اتباع كثيرون .

عام ١٨٠٢م قام الشيخ عثمان بن فودي باعلان الجهاد لتوحيد البلاد وتنظيمها ونشر الدين الاسلامي بين اهلها . فاجتاحت جيوشه منطقة شمال نيجيريا باسرها ، ولما تم له النصر (واخضع البلاد لحكمه) عين قواد جيوشه امراء علي المناطق التي خضعت لهم ، كما عين ابنه محمد بلو خليفة له وعين اخاه عبد الله بن فودي وزيرا اول لابنه ، وكلاهما معروف بالورع ولهما من العلم والادب حظ ونصيب .

وقد توفرت يوما علي قراءة كتاب {انفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور} لمؤلفه محمد بيلو ، وهو كتاب نفيس للغاية ، تحدث فيه عن جهاد ابيه عثمان بن فودي وغزواته واخضاعه لبلاد الهوسا ، كما طالعت بكثير من الامعان والاهتمام كتاب {ضياء التأويل في التفسير} لمؤلفه عبد الله بن فودي .

هذا ومازال اتباع شيهو والامير ـ وكلاهما لقب للشيخ عثمان بن فودي ـ يعتبرون من صفوة رجال الدين الاسلامي واكابر شيوخهم التقليديين في نيجيريا ، وهم براء مما يأتيه بعض المشعوذين الدجالين الذين يشترون بآيات الله ثمنا قليلا ، وينطلقون في البلاد باسم اتباع الشيخ عثمان الاتقياء الزاهدين ، وكان من بين هؤلاء ذلك الدجال الذي كلفت امنيا بتقصي خبره واستجلاء حقيقة دعواه العريضة الكاذبة .

كان من بين المهام التي كلفت بها ايضا في نيجيريا جمع معلومات عن مجلس الفول الافريقي ومعرفة الطرق التي تسوق بها نيجيريا محصولها من الفول السوداني اذ انها تعتبر من اكبر البلاد الافريقية انتاجا له ، وتحتل في مجلس الفول الافريقي مكان الصدارة بين سبع دول افريقية اخري من بينها السودان .

ولا املك الا ان اقول بكل التواضع ، انني استطعت التنسيق بين السودان ونيجريا في هذا الصدد بفعالية كبيرة .

وهكذا سرت بنشاطي القنصلي والامني في نيجيريا وانجزت العديد من المهام المثمرة ، واضفت الي ذلك تكثيف جهودي في البحث والتنقيب في بطون الكتب والمراجع والتقارير . فسكبت عصارة هذه الجهود وما كسبته من معرفة شمولية بالقطر النيجيري الشقيق عبر المعايشة اليومية والزيارات الميدانية في كتاب تعريفي اطلقت عليه اسم (نيجيريا بين الامس واليوم) .

وفي حوالي اواخر شهر اكتوبر عام ١٩٧١م وردت الي اشارة مستعجلة اعقبها خطاب سري من جهاز امننا القومي يطلب حضوري فورا الي الخرطوم . فانصعت للامر الصادر رغم ما اجتاح نفسي من هواجس وافكار سوداء حول دواعي ذلك الامر المفاجيء خاصة وقد سبق ان تسلمت خطابا سري للغاية وشخصي من الاخ مأمون عوض ابو زيد يستفسرني فيه عن بعض اعضاء تنظيم الضباط الاحرار ممن حوكموا وجري اعدامهم اثر حوادث يوليو المشئومة ،

وبينهم ابو شيبة وعبد المنعم محمد احمد الهاموش وبشير عبد الرازق .

وعلي اثر وصولي الي الخرطوم ، جري اللقاء بيني وبين الرئيس نميري والاخ خالد حسن عباس فاكمل الرئيس استجوابي في اطار معرفتي بما كان يحدث من تخطيط وتدبير لانقلاب الشهيد هاشم العطا ، فانكرت تماما معرفتي وصلتي العضوية بالحدث ، وفي سبيل اقناعه بخلو ساحتي وطرفي من كل علاقة بالانقلاب وقادته . استطعت ان استغل ببراعة واتقان خبرتي المحدودة بالعمل الامني ، فجاءت اجاباتي في شكل استفسارات غبية في ظاهرها بعيدة الذكاء في جوهرها وحقيقتها ، ولكنها جعلت الرئيس نميري يضحك مقهقها عدة مرات ، ربما لما اعتقده في من جهل وغباء باحداث الثورة التصحيحية ومسالك السياسة ، واذ كان يفعل ذلك في شعور بالرضا والتفوق ، كنت اضحك عليه في دواخلي واسخر منه بذكاء ومكر بعيدين!!

وانتهي ذلك اللقاء او المواجهة بان اصدر الرئيس نميري قرار بتعييني مديرا لقسم الامن الاقتصادي بجهاز امننا القومي ولكني لم انعم بطول البقاء والاستقرار في عملي بذلك القسم اذ طلب مني الرئيس نميري ان اكتب مقالا في صحيفة القوات المسلحة ادين فيه مسلك الحزب الشيوعي السوداني وقادة حركة ١٩ يوليو ١٩٧٠م عسكريين ومدنيين ، واضاف الي ذلك طلبا آخر وهو ان ادلي بشهادة زور تاريخية تقول : بتخطيط اولئك الشهداء لتصفية الرئيس نميري وصحبه الثوار واغتيالهم وفرض النظام الشيوعي علي البلاد !!

فاعتذرت عن اجابة ذلك الطلب ، فما كان منه الا ان هددني بالاعدام او السجن المؤبد ، ولكن ذلك لم يدفعني لقبول مطلبه ، وازددت اصرارا علي الرفض ! ازاء ذلك اصدر الرئيس نميري قراره الجمهوري رقم ٢٥ بتاريخ ١٩ ديسمبر ١٩٧١ بابعادي من القوات المسلحة !!!

واسدل بذلك . عن قصد او بدونه . الستار علي آخر فصول حياتي العسكرية الحافلة بالاحداث والاثارة . ووضعني بما كان له من سلطان علي اعتاب درب جديد من دروب زماني ومواقفه الكبيرة المتجددة .

فلم يجف مداد ذلك القرار حتي وجدتني وجها لوجه امام حياة مدنية زاخرة بجلائل الاحداث والبطولات ، احرزت خلالها الدرجات الجامعية وفوق الجامعية ، وولجت في دروبا شعابا جديدة في دنيا الابداع والعطاء الفكري الموصول

واقتحمت فيها مناشط التجارة والزراعة وغيرها ، وعركت الحياة العامة فاصبت فيها حظي من النجاح والاخفاق ، ووجدت في رحاب حياتي الجديدة سوانح طيبات فجبت الكثير من اقطار العالم .

ولسوف اعرض لكل هذا وغيره بالتفصيل من خلال لقائي بك - عزيزي القارئ الكريم - في الجزء الثالث من هذا الكتاب {**مواقف علي درب الزمان**} . والله اسأل ان ييسر بيننا ذلك اللقاء وعلي الله قصد السبيل .

وقبل ان اضع القلم ، اسوق لك شكري وعرفاني لاقبالك المأمول علي مطالعة هذا الجزء من مواقفي علي درب الزمان .

محجوب برير محمد نور

الأخ محجوب [illegible]

وانت تهتم بالمواضيع الاستراتيجية المختلفة من
السودان من مواضيع عسكرية وسياسية وادبية الخ
وانت احد مفكرى ثورة مايو العملاقة بعد
ان آمنت بمبادئها وعملت لها وانت الرائد
الصحفى عبر مداولات يهتم بتاريخنا وأصالتنا
وما قدمه ابناؤه والسودان عامة الى الامة
انا قدم لك الاخ احدى الشذرات من الرؤية
الاستراتيجية لمهددات الامن القومى مع
احر الامانى واطيب التحيات

اخوك

[signature]

٢١ رجب ١٤٠٤

٢٢ ابريل ١٩٨٤

الناشر: المكتب المصرى الحديث
٢ شارع شريف عمارة اللواء بالقاهرة تليفون ٧٥٤١٢٧
٧ شارع نوبار بالاسكندرية تليفون ٢٦٦٠٢

الاتحاد الاشتراكى السودانى
معهد الدراسات السياسية والاستراتيجية

جعفر محمد نميرى

رؤية إستراتيجية

لمهددات الأمن القومى في الشرق الأوسط في الثمانينات

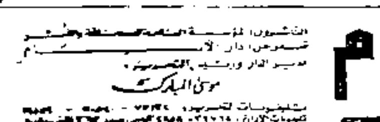
المكتب المصرى الحديث


مواقف على
درب الزمان

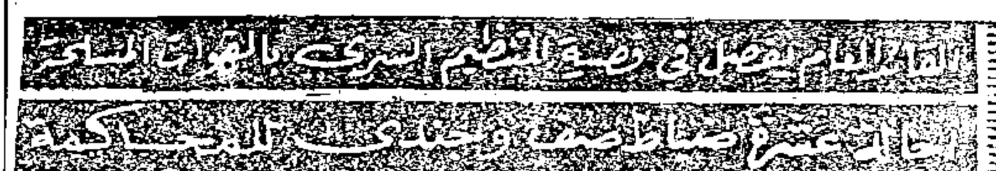
السودان يقدم برنامج عمل مشترك لكافة الجماهير العربية

احالة الرائد محجوب البرير للاستيداع وفصل ٩ ضباط صف وجندى من القوات المسلحة

وزير الداخلية يؤكد : الثورة لاتعنى الفوضى وانما السلوك المنظم







القائد العام يفصل في قضية التنظيم السري بالقوات المسلحة

احالة عشرة ضباط صف وجندى للمحاكمة

علمت «الايام» من مصدر مأذون فى فرع الاستخبارات العسكرية برئاسة القوات المسلحة ان مجلس التحقيق الذى كونه السيد اللواء خالد حسن عباس عضو مجلس قيادة الثورة ووزير الدفاع والقائد العام للقوات المسلحة فى الثانى والعشرين من اغسطس الماضى للتحرى فى امر التنظيم السرى الذى اكتشف فى صفوف القوات المسلحة ، ان المجلس انتهى من عمله ورفع نتائج التحقيق للسيد القائد العام الذى اصدر القرارات التالية :..

اولا : احالة الرائد محجوب محمد نور برير للاستيداع .

ثانيا : فصل تسعة ضباط صف وجندى من القوات المسلحة



المؤلف :

* من مواليد ١٥ أكتوبر ١٩٢٤م – مدينة سنجة – مديرية النيل الازرق.
* تخرج في الكلية الحربية السودانية عام ١٩٩٠م وانتسب من بعد الى ، جامعة القاهرة فرع الخرطوم وأحرز ليسانس الأداب شعبة الفلسفة بتفوق
* حصل بامتياز على دبلوم الاعلام العالى من جامعة الخرطوم شعبة الدراسات الاضافية .
* تلقى كل الفرق التأهيلية والحتمية بالمدارس العسكرية السودانية وأوفد بعدها الى كل من بريطانيا والاردن وتكرر إيفاده الى مصر .
* نال - إبان خدمته العسكرية - وسام الشجاعة الطبقة الاولى وسام الجدارة الطبقة الاولى نوط الواجب الطبقة الاولى ووسام ثورة مايو .
* صدر للمؤلف تراجم ومؤلفات من بينها :
* كتاب (الاستخدام التكتيكى للمدرعات) دراسة عسكرية.
كتاب (نيجريا بين الأمس واليوم) تاريخ سياسى .
* كتاب (قبس من الفكر والتاريخ) من جزءين بحوث فى الفكر - التاريخ والتراث
* (هو وهى) مسرحية من فصلين .
* (حكم أب تكو) مسرحية من فصلين .
* (البوش) مسرحية من فصلين .
* (اللواء الأبيض) دراما إذاعية تؤرخ لأحداث ثورة ١٩٢٤م فى السودان فى ستين حلقة .
* إضافة الى إسهامه الموصول فى المجلات السياسة والأدبية والصحف السيارة باللغتين العربية والانجليزية